الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة 1

كلية العلوم الإسلامية

قسم أصول الدين

فرع العلوم الإسلامية

نيابة العمادة لما بعد التدرج

و البحث العلمي و العلاقات الخارجية

أوامر الله - عز وجل - للنبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

دراسة في التفسير الموضوعي

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في تخصص الكتاب و السنة

إعداد الطالب : جغلول عمر

تحت إشراف الأستاذ الدكتور : عسكر صالح

أمام اللجنة المتكونة من الاساتذة

الإسم و اللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
حسين شرفة	أستـــاذ	جامعة باتنة - 1-	رئيسا
صالح عسكر	أستـــاذ	جامعة باتنة - 1-	مقررا
منوبة برهاني	أستـــاذ	جامعة باتنة - 1-	ممتحنا
قدور سلاط	أستـــاذ	جامعة تبسة	ممتحنا
هشام شوقي	أستـــاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة	ممتحنا
منصر عباس	أستـــاذ (أ)		ممتحنا

السنة الجامعية

2024/2023

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام المزني: «قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمانين مرة، فما من مرة إلا وكان يقف على خطإ! فقال الشافعي: هيه! أبى الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه».

[حاشية ابن عابدين: 29/1]

شكر وعرفان

امتثالا لقول النبي ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[أخرجه أحمد وغيره عن أبي هريرة]، فإني أتقدم بالشكر الجزيل والامتنان التام إلى شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور: صالح عسكر -حفظه الله- الذي أشرف على هذا البحث، والذي لم يدخر جهدا في التوجيه والتنبيه، مع النصح المحض والرعاية التامة.

كما أقدم شكري إلى جامعة باتنة العامرة، وأخص الأساتذة الأفاضل، الدكاترة أعضاء لجنة المناقشة على اهتمامهم ببحثي، وإنفاق أجزاء من أوقاتهم الثمينة لقراءته ثم لمناقشته.

والشكر قبل ذلك وبعده -مع الحمد التام- لله المنعم ذي الآلاء السابغة والأفضال التي لا تحصى القائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ(152)﴾[البقرة: 152].

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى كل محب للحق والإنصاف مبغض للباطل والظلم.

الْمُقَدِّمَةُ

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(90)﴾[النحل]، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ المأمور من قبل ربه عز وجل بتبليغ رسالته إلى عباده ودعوتهم إلى معرفته وطاعته ليسعدوا في الدنيا والآخرة. أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذي لا نقص فيه، تضمن خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا وحكم ما بيننا، هو القول الفصل، ليس بالهزل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(42)﴾[فصلت]؛ وقد حوى –ضمن ما حوى من الكنوز النفيسة– نظاما شاملا للحياة، قوامه ذلك الحشد الهائل من الأوامر الإلهية التي تكفل للإنسانية سعادتها وتنظم علاقاتها وتوجه سعيها إلى الخير الدنيوي والفوز الأخروي. وبما أن نبينا محمدا ﷺ هو الإنسان الكامل والمأمور العامل الذي رضيه الله لنا أسوة لنسير على خطه، فإن معرفة جملة ما توجه إليه ﷺ من الأوامر المشار إليها آنفا تعود علينا بنفع عميم؛ لأنها تيسر لنا السعي إلى المطلوب من أقصر سبيل؛ وذلك ما آثرت البحث فيه، معنونا إياه بهذا العنوان الشامل:
(أوامر الله –عز وجل– للنبي ﷺ في القرآن الكريم: دراسة في التفسير الموضوعي).

1– إشكالية البحث:

استقراء أوامر الله عز وجل لنبيه ﷺ في القرآن الكريم –استقراء تاما– لمعرفة أفرادها ومواضع ورودها وإحصاء أعدادها، عمل صالح ومصدر ثر لمعلومات كثيفة وثقافة واسعة وطريق للاقتداء به ﷺ؛ ولكنه ليس هو هدف هذا البحث؛ وإنما هدفه أن نعرف الإطار العام الذي يجمعها، والعلاقة التي تربط أفرادها فيما بينها، والغايات الكبرى من ورائها. فهل من علاقة تربط بين هذا العدد الكبير من الأوامر المتناثرة في مختلف سور القرآن الكريم؟ أم أنه لاشيء سوى وحدة الآمر والمأمور؟ وما عسى أن يبلغ حجمها؟ وعلى أي الجوانب ركزت من حياته ﷺ باعتباره إنسانا مسلما؟ وإلى أي الطوائف وجهت اهتمامه ﷺ أكثر باعتباره رسولا مبلغا وداعيا؟ وهل تطابقت أغراضها أم تباينت؟ ولماذا؟ وهل في مضامينها ما يرد على الطاعنين في الرسالة الإسلامية عموما وشخص النبي ﷺ خصوصا؟ وهل نفذ النبي ﷺ جميع ما صدر إليه منها أم أن الظروف حالت دون تنفيذ بعضها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا البحث.

2- أهمية البحث:

لهذا البحث أهمية كبيرة وفوائد كثيرة، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- تعلقه بمراد الله سبحانه من عباده، ومعلوم أن معرفة تفاصيل مراده طريق لاسترضائه عز وجل؛ ومعلوم أن كل أمر يكتسي أهميته من مكانة الآمر به. فالأمر الصادر من مسؤول محلي –مثلا– له أهميته الخاصة به؛ ولكنه يكون أهم وأوقع أثرا لو صدر من وزير؛ فإذا صدر من رئيس الدولة أو ملكها كان أشد أهمية وأوقع في النفوس وأولى بالتنفيذ. فكيف إذا صدر من مالك الملك وملك الملوك جل شأنه وعظم مجده؟

- صلته المباشرة بعباداتنا وأعمالنا وأخلاقنا؛ لأن مادته هي جملة الأوامر التي أصدرها سبحانه إلى نبيه ﷺ ومن خلاله إلينا نحن المسلمين باعتبارنا مطالبين بالاقتداء به في أقواله وأعماله وأخلاقه. ويتضح ذلك أكثر إذا علمنا أن وراء كل أمر من أوامره تعالى حكمة بالغة بلا شك؛ لأنها صادرة من الحكيم العليم، ومن ثم فإن استقصاءها ودراستها دراسة واعية ترجع على الدارس والقارئ بمنافع جمة، وترسم لهما كيفية التأسي به ﷺ.

- تنبيه محتواه وتحذيره من كثير من مشاكل المجتمع ووصفه لعلاجها بإسقاط نصوصه المدروسة على الواقع المعاصر.

- تزكية مضمونه للنفس؛ لأن ما حواه من الأدلة الشرعية وما صاحبها من شرح وبيان سيق بأسلوب يترك أثرا نافعا في قلب القارئ.

- زيادة قوة إيمان القارئ بعظمة الشريعة الإسلامية المطهرة؛ لأن النصوص القرآنية التي تناولها هي جانب كبير من أدلتها، وهو يقرب معانيها، ويدعو إلى تنفيذها.

- إغراؤه للباحث والقارئ بالعودة إلى مدارسة كتب السيرة النبوية –على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم– والاستفادة مما فيها من دروس، والاستمتاع بما فيها من روائع قصص الإيمان الراسخ والعمل الصالح والبطولة الفذة والإخلاص التام وغيرها من المعاني العظيمة؛ لأن تلك الأوامر –محل البحث– هي المحرك الأول لأحداث السيرة، والموجه الحقيقي لمسارها، والمحدد الفعلي لأهم محطاتها.

- ترسيخه للشعور بأن الله سبحانه هو المشرع وحده لا سواه، وأن القرآن الكريم منزل من عنده تعالى، وليس من إنشائه ﷺ؛ وهذا مما يثبت عقيدة القارئ ويقويها، خصوصا في هذا الزمان الذي تم فيه التشكيك في كل الثوابت.

- تزويده القارئ بصورة متكاملة عن أوامر الله سبحانه لنبيه ﷺ لن يجدها في غيره؛ لأنه جمع شتات جزئيات هذا الموضوع بكيفية غير مسبوقة.

3- أسباب اختيار هذا الموضوع:

وقد تناولت موضوع التحريم في رسالة الماجستير، والتي عنونتها بـ (التحريم في القرآن الكريم : دراسة في التفسير الموضوعي)، فقد آثرت البحث في موضوع الأوامر الإلهية؛ لأن تنفيذها أمر عملي إيجابي يتطلب الحركة والنشاط، ويقتضي العلم قبل العمل، ويورث سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من أهوال القيامة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. ولما كانت تلكم الأوامر كثيرة العدد، غزيرة المدد، لا يتسع الوقت الممنوح للدراسة الأكاديمية لتناولها جميعا، وكان لا بد من الاكتفاء بقسم منها فحسب، وكان نبينا محمد ﷺ أشرف من توجهت إليه أوامر الله -عز وجل- في القرآن الكريم، وكنا -نحن المسلمين- معنيين بما أمر به ﷺ بشكل مباشر أو غير مباشر -باعتباره أسوتنا وقدوتنا- فقد آثرت دراسة ما توجه منها إليه دون سواه، إجلالا لمكانه وإعزازا لجنابه.

الدوافع إلى اختيار البحث في هذا الموضوع تحديدا كثيرة؛ ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

أ – أسباب ذاتية منها:

- الرغبة في تحصيل الخيرية الموعود بها في قوله ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[أخرجه البخاري عن عثمان بن عفان]. ولا ريب أن تعلمه لا يقتصر على حفظ حروفه فحسب، بل يتناول جميع ما يتعلق به من علوم ومسائل.

- حاجتي إلى المزيد من التدريب على البحث العلمي -في إطار تخصصي- قصد تنمية ملكة البحث لدي بالممارسة الميدانية.

- رغبتي في استثمار وقت البحث في خدمة كتاب الله تعالى، واستكشاف ما يحويه من كنوز وفوائد، والاطلاع على أقوال أهل العلم في معانيه؛ وذلك كله -في اعتقادي- لون من ألوان العبادة التي يرجى الأجر الجزيل من ورائها.

- رغبتي في إنجاز بحث متعلق بأوامر الله في القرآن الكريم بعد أن أنجزت صنوه في نواهيه في مرحلة الماجستير.

ب -أسباب موضوعية:

- غياب دراسة سابقة في هذا الموضوع، وعدم وجود أي مرجع مستقل فيه -فيما أعلم- فأردت تغطية هذا الجانب الهام.

- وجود مادة علمية قرآنية كافية تغطي هذا الموضوع لم تبحث، فأردت بحثها والإفادة منها.

- جمع شتات هذا الموضوع في دراسة واحدة مستقلة ؛ لأنه موزع في القرآن الكريم في مواضع شتى؛ مما يصعب على القارئ العادي تتبعه والجمع بين مضامينه والخروج منه بصورة واضحة المعالم متكاملة الجوانب.

- أهمية هذا الموضوع بالنسبة لكل المسلمين؛ لأنهم مطالبون شرعا بالاقتداء به ﷺ ولا يتم ذلك إلا بمعرفة أحواله وأفعاله، والتمييز بين ما فعله جبلة، وما فعله عادة، وما فعله تنفيذا لأوامر الله تعالى؛ فجمعها ودراستها في كتاب واحد من أعظم العون لهم على ذلك الاتساء المبرور. بل في ذلك خدمة لعموم البشرية لعلها تهتدي إليه فتهتدي به فتسعد، ومن ثم يكون هذا الجهد -إن شاء الله- لبنة طيبة إضافية في مجال الدعوة إلى الله.

4- أهداف البحث :

- البرهنة على تكامل الأوامر الإلهية الصادرة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم فيما بينها، وأنها ليست أشتاتا من غير رابط يشدها إلى بعضها.

- البحث عن العلاقة بين مجموع ما أمر به النبي ﷺ وعموم أحكام الشريعة الإسلامية المطهرة.

- بيان توازن تلك الأوامر التي راعت حاجة الروح والجسد ومنافع الدنيا والآخرة ومطالب الفرد والمجتمع، وشملت شروط الدعوة والتبليغ وأهمية التبشير والإنذار وكيفية التعامل مع الكفار والمسلمين.

- إبراز عالمية الإسلام منذ ظهوره وتفنيد مزاعم بعض المستشرقين بأنه دين محلي أغرى الانتصار نبيه بادعاء عموم رسالته.

- بيان نماذج من الحكمة الكامنة وراء كثير من أوامره تعالى لنبيه ﷺ؛ سواء مما استنبطه المفسرون أو بالرجوع إلى ما توصل إليه العلم الحديث، مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[فصلت: 52].

- إبراز الأوامر الإلهية والتوجيهات الربانية للنبي ﷺ ليكون المسلم على ذكر منها ووعي من خطورة مخالفتها.

- بيان كمال تنفيذ النبي ﷺ لما أمره به ربه عز وجل أكمل تنفيذ وأتمه، وسوق نماذج على ذلك.

- نشر ثقافة قرآنية صحيحة، تحصن الناشئة وتنشر الوعي بين صفوفها؛ خصوصا في هذا الزمان -زمن العولمة- الذي تغزونا فيه ثقافات مختلفة، يهودية وصليبية وإلحادية وغيرها، وتؤثر في شبابنا ظاهرا وباطنا، بدءا بالألبسة وتسريحات الشعر العجيبة وصولا إلى التنصر أو الإلحاد.

- ربط الأمة بمصدر عزها ونبع قوتها وسبب مجدها، ألا وهو القرآن الكريم؛ وذلك بترسيخ العودة إليه في التماس الحلول لمشاكلها واستلهام الأفكار لتطويرها، بل وفي كل شأن يعنيها.

5- الدراسات السابقة في هذا الموضوع:

لم أجد في حدود ما اطلعت عليه رسالة جامعية أو كتابا يتضمن فكرة هذا البحث رغم إلحاحي في البحث واجتهادي فيه قدر طاقتي؛ سواء بمطالعتي للبوابة الوطنية (الجزائرية) للإشعار عن الأطروحات الجامعية، أو لأدلة الرسائل العلمية وكشافاتها في الجامعات العربية،كدليل الرسائل الجامعية المسجلة والمناقشة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، منذ سنة 1980م إلى اليوم، ودليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية، وفهرس الرسائل الجامعية بمصر، وغيرها؛ أو بمطالعة فهارس المصادر والمراجع للكتب المطبوعة التي يظن وجود ذلك في مثلها؛ أو باستخدام الشبكة العنكبوتية للبحث عن هذا العنوان؛ أو بسؤال من يظن به سعة الاطلاع أو غير ذلك؛ سواء في المؤلفات القديمة أو الحديثة.

- وقد لفت انتباهي عنوان (مفهوم الأمر في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي)؛ وهو أطروحة دكتوراه دولة للباحثة المغربية جميلة زيان، لكن تبين لي -بعد الاطلاع عليه- أنه ليس في هذا الموضوع؛ فهو متعلق بالتفسير المصطلحي لا بالتفسير الموضوعي، ومن ثم فقد درست مصطلح الأمر دراسة تحليلية تجزيئية، لا موضوعية تجميعية؛ فتناولت فيه أوامر وأمور جميع من أضيفت إليه كلمة(أمر) في القرآن الكريم وبأي معنى من معانيها اللغوية؛ أي دون حصرها في معنى الطلب، كأمر الله وأمر موسى وأمر سليمان وأمر ملكة سبأ وأمر الكفار وأمر المؤمنين وأمر المنافقين وأمر ذي القرنين وأمر فتية الكهف وأمر الساعة وغيره. وحتى عندما خصصت القسم الأخير من الكتاب للتفسير الموضوعي فقد حصرت الدراسة فيه في الأمر الرباني والأمر الشيطاني والأمر الإنساني، أي في المواضع التي أضيفت فيها كلمة (أمر) إلى الله أو إلى الشيطان أو إلى الناس. أي أنها لا تتتبع أوامر الله إلى النبي ﷺ أو غيره من المخلوقات؛ وإنما تتتبع مادة (أ م ر) حيثما وردت مضافة إلى الله تعالى أو إلى الشيطان أو إلى الإنسان. أما ما أنا بصدد دراسته فهو أوامر الله جميعا إلى نبيه ﷺ مهما تكن مادة اشتقاقها.

- كما عثرت على كتاب للباحث محمود توفيق محمد سعد بعنوان: صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، وبعد قراءته تبين أنه تناول صيغ الأمر والنهي الواردة في القرآن الكريم، وقسمها إلى صيغ صريحة، وهي: فعل الأمر، واسم فعل الأمر، والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، والمصدر النائب عن فعله، وغير الصريحة، كأسلوب الخبر وأسلوب الاستفهام وأسلوب العرض والتحضيض وغيرها. فهو دراسة نحوية بيانية تتخذ من القرآن الكريم نصا للتطبيق، ولا شأن لها بالتفسير الموضوعي. وهذا ما صرح به المؤلف نفسه في كتابه المذكور. قال: (وهذه الدراسة تعمد إلى البحث عن تلك الصورة المعربة عن معنى الأمر أو معنى النهي، وتعنى بالتدبر البياني لخصائص كل صورة وسياقاتها ومؤثرات اصطفائها ومنازعه)[ص 3].

- وأما كتاب (التصرفات النبوية السياسية: دراسة أصولية لتصرفات الرسول ﷺ بالإمامة)، وهو رسالة ماجستير للباحث سعد الدين العثماني فهو دراسة أصولية لا دراسة في التفسير الموضوعي؛ وهو يتناول أفعال النبي ﷺ وليس أوامر الله تعالى.

- أما البحوث فلم أعثر -بعد طول بحث- إلا على اثنين:

- أحدهما بعنوان: الأوامر الربانية في معاملة الأسرى اليهود (دراسة تاريخية)، للباحث أحمد علي صكر، وهو بحث لم يتجاوز ستا وعشرين صفحة. وقد انحصر فيه البحث -كما هو ظاهر من العنوان- فيما تعلق من الأوامر بشأن الأسرى اليهود فقط، وفي سورتين فحسب، هما: البقرة والأحزاب. وقد تناوله بأسلوب المؤرخين لا بطريقة المفسرين.

- ثانيهما بعنوان: الأوامر العملية في القرآن الكريم، لصاحبه: رامي حنفي محمود، ولم يزد عن تسع وثلاثين صفحة. جمع فيه صاحبه الآيات التي (ورد فيها ذكر الوصايا العملية والأخلاقية من أمر أو نهي أو إرشاد إلى خير أو تحذير من شر ...) -كما قال- ولم يستوعبها جميعا، ولم يؤلف بينها، ولا تولى شرحها بكلمة واحدة، ولا استنبط منها شيئا، ولا نقل قولا لمفسر واحد بشأنها. فهو لم يزد على أن ركم مجموعة من الآيات الكريمة بعضها على بعض على ترتيب السور؛ ولولا الأمانة العلمية لم أشر إليه مطلقا.

– لكن كتب التفسير أشارت إلى جزئيات متفرقة من هذا الموضوع، أثناء تناولها للآيات المتضمنة للأوامر الإلهية إلى النبي ﷺ كتحديد المسائل المأمور بها، أو الشرح اللغوي لمعانيها، أو بيان حكمها الشرعي من وجوب أو استحباب أو غير ذلك. أي أنها اقتصرت على الجانبين اللغوي والفقهي؛ سواء في ذلك التفاسير الشاملة للقرآن كله، أو التي خصصت لتفسير آيات الأحكام فقط؛ وسواء كانت قديمة أو حديثة؛ وربما أقحمت معها المسائل الأصولية وقواعدها المتعلقة بباب (الأمر). والملاحظ على تلك الإشارات أمران:

– أنها تائهة وسط ركام هائل من المسائل الأخرى ذات المعاني المختلفة، المتعلقة بالقصص والبعث، والنشور، والحساب، والجنة، والنار، والأخلاق، والفرائض، والمستحبات، والمواعظ، والرقائق، وغيرها.

– أنها لم يقصد بها التعرض لموضوع أوامر الله عز وجل للنبي ﷺ تحديدا، وإنما جاء الحديث عنها عرضا، عند المرور بالآيات المتضمنة لأوامره تعالى لنبيه ﷺ دون تقصدها بالبحث والدراسة.

– وأما كتب أصول الفقه فتعرض لنماذج قليلة من تلكم الأوامر عند الحديث عن طرق استنباط الأحكام الشرعية وقواعدها؛ وتحديدا حين الحديث عن أقسام الخاص، فتعرفه لغة واصطلاحا وتذكر الخلاف في دلالته على التكرار من عدمها، ودلالته بعد النهي: أهي على الوجوب أو على الإباحة، ودلالته على الفورية أم على التراخي ... ثم يمضي الحديث إلى باب النهي فما بعده من الأبواب الأصولية دون تتبع مواردها في القرآن الكريم، أو أقسامها، أو مجالاتها، وما إلى ذلكم.

– وأما ما قمت أنا به فهو دراسة أوامر الله –عز وجل– للنبي ﷺ في القرآن الكريم دراسة متكاملة عن الموضوع برمته؛ تحقق شمولا وتفصيلا لكل ما يتعلق به في القرآن العظيم، وتجمع أشتاته، وتنسق أجزاءه، ثم تسلكها جميعا في سلك واحد، وفق ما تقتضيه قواعد التفسير الموضوعي وأسسه. وهو أمر لا أعلم من كتب فيه مطلقا –فيما اطلعت عليه– ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(84)﴾.[يوسف].

6– حدود البحث:

مجال هذا البحث هو القرآن الكريم كله، ثم ما دار في فلكه من كتب التفسير القديمة والحديثة، ثم ما له تعلق بأية جزئية من جزئيات الموضوع من كتب اللغة العربية، ودواوين الشعر، والسيرة النبوية، والحديث النبوي، وأصول الفقه، والتراجم والآثار والتاريخ وغيرها، وإن كانت كتب التفسير قد استحوذت على النصيب الأوفر من حجم الاستفادة التي أفدتها من مجموع تلك الأسفار جميعا، تليها كتب اللغة والحديث النبوي الشريف، وفي كل خير ونفع وفوائد.

7- منهج البحث:

ولما كان مقصودي هو معرفة الأجوبة من وجهة نظر قرآنية، وتحليل النصوص الواردة بشأنها في إطار السياق القرآني تحتم علي العمل وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي، دون إغفال المنهجين: الاستقرائي والتحليلي، _لأن المقصود هو جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع. وذلك باستقراء جميع آيات القرآن الكريم لتحديد ما كان منها متضمنا لأمر من أوامر الله تعالى إلى نبيه ﷺ ثم تصنيفها إلى مجموعات بحيث تكون أوامر كل مجموعة متجانسة فيما بينها، وكذلك المجموعات فيما بينها، مع إعطاء عنوان مناسب لكل منها، مشكلا من كل مجموعة مطلبا ومن كل مجموعة مطالب متجانسة مبحثا ومن كل مجموعة مباحث متجانسة فصلا، ومجموع الفصول يشكل البحث بتمامه. يلي هذه المرحلة إنجاز المطالب مطلبا فمطلبا؛ وذلك بسوق النصوص القرآنية على الترتيب آية بعد آية؛ فتفسير كل منها تفسيرا إجماليا مبسطا، ثم شرح الكلمات الصعبة منها -إن وجدت- لغة واصطلاحا، ثم تحليلها واستنباط أحكامها واستنتاج دلالاتها وفوائدها، والتنبيه إلى عبرها وإشاراتها، خصوصا ما كان منها ذا أبعاد معاصرة، مع محاولة إسقاطها على واقعنا، وربطها بمشكلاتنا العصرية، لتكون حلولا لها وعلاجا لأسبابها ما أمكن. كل ذلك بالرجوع إلى كتب اللغة والتفسير وسواها مما له تعلق بمعنى الآية، ككتب السيرة النبوية وكتب الفقه وأصوله والتاريخ وغيرها. وإضافة إلى الخطوات المشار إليها آنفا قمت بما يلي:

- كتبت الآيات مشكولة حتى تتميز عن سائر الكتابة الأخرى، مع ذكر رقم الآية واسم سورتها عقب إغلاق قوسها مباشرة وجعلهما بين معقوفتين، سواء أوردتها في المتن أو الهامش.

- إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بهما -أو به- في تخريجه ولم أشر إلى المصادر الأخرى، ولم أذكر درجته؛ لأنه علم عند جميع أهل التخصص في هذا الفن أن أعلى درجات صحة الحديث ما كان في الصحيحين معا، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم؛ فإن لم يرد فيهما أو في أحدهما اجتهدت في تخريجه من سائر المصادر الحديثية الأخرى قدر الطاقة، مع الالتزام بنقل درجة الحديث في آخر التخريج عن واحد على الأقل من أهل التخصص.

- ذكرت معلومات طبع كل مصدر رجعت إليه مع أول ذكر له على هذا الترتيب: اسم المؤلف كاملا مبدوءا بكنيته -إن وجدت- فاسمه، فاسم أبيه، فاسم جده الأدنى فالأعلى، فنسبته، فتاريخ وفاته؛ ثم اسم الكتاب كاملا على ما هو مطبوع عليه؛ ثم اسم المحقق -إن وجد-؛ ثم اسم الناشر؛ ثم مكان النشر؛ ثم رقم الطبعة؛ ثم سنة النشر بالهجري والميلادي أو بأحدهما؛ ثم رقم الصفحة إن كان الكتاب جزءا واحد، وإلا ذكرت رقم المجلد فرقم الصفحة يفصلهما الخط المائل. أما عند ذكر الكتاب في المرة الثانية فما بعدها فأكتفي بذكر اسم المؤلف مختصرا، فاسم الكتاب باختصار، فرقم الصفحة إن كان جزءا واحدا، وإلا ذكرت رقم المجلد متبوعا برقم الصفحة يفصلهما الخط المائل.

- إذا لم يرد ذكر مكان طبع الكتاب رمزت له بهذه الحروف: د م ط، فإن لم يذكر رقم الطبعة رمزت له هكذا: د ر ط، فإن لم يذكر تاريخ الطبع بأي من التقويمين (الهجري والميلادي) أشرت له هكذا: د ت ط. أما إذا أهملت أكثر معلومات الطبع ذكرت ما ورد منها ثم أتبعتها بهذه الحروف: د ب م، أي: دون بقية المعلومات.

- ترجمت للأعلام غير المشهورين الذين ورد ذكرهم في متن البحث، وكذلك للمشهورين الذين يكثر إيراد أقوالهم وآرائهم، ولم أترجم لمن كان صحابيا أو من الكفار المعاصرين للنبي ﷺ فإني لم أترجم لهم. أما الصحابي فيكفيه معرفة وشهرة وعدالة ذلك الشرف الذي حازه برؤيته النبي ﷺ وهو مؤمن به ومات على ذلك؛ وأما المشرك المعاصر للنبي ﷺ فحسبه اشتهاره بإعراضه عن الله تعالى ورسوله ﷺ، وزهده في الإسلام، واستحبابه الكفر على الإيمان.

- لم ألتزم بالترجمة للعلم عند أول ذكر له دائما بسبب ما يحصل من الاختلال في الصفحة بين المتن والهامش عند ورود أكثر من علم فيها، فأؤجل ترجمته إلى حين ورود اسمه مرة أخرى رعاية للتوازن، إلا إذا كان ممن يذكر مرة واحدة في البحث.

- ذيلت البحث بفهرس للآيات القرآنية وآخر للأحاديث النبوية وثالث للأعلام المترجم لهم ورابع للمصادر والمراجع وخامس لموضوعات البحث؛ فأما الآيات فرتبتها على حسب ترتيبها في المصحف الشريف؛ وأما الأحاديث فرتبتها على الحروف مكتفيا بذكر أطرافها فقط إلا ما كان منها قصيرا، ولم أخصص فهرسا للآثار بسبب كثرتها؛ لأن إعادة سردها جميعا في الفهرس يثقل البحث ويطيله، وفهرس الأحاديث أنموذج لفهرسها لو تم؛ وأما المصادر والمراجع فرتبتها حسب أسماء مؤلفيها على حروف الأبجدية، ذاكرا معلومات طبعها على ذات النسق الذي اتبعته عند أول ذكر لها في البحث.

8- خطة البحث:

قسمت البحث إلى **مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول وخاتمة**. فأما **المقدمة** فبينت فيها إشكالية البحث ومنهجه وأهدافه وحدوده وخطته وأهمية الموضوع المطروح وأسباب اختياره والدراسات السابقة فيه؛ وأما **الفصل التمهيدي** فقسمته إلى **ثلاثة مباحث** ؛ خصصت الأول منها لتعريف الأمر لغة واصطلاحا واستقصاء موارد مادة (أ م ر) في القرآن الكريم، وجعلت الثاني لأقسام أوامر الله عز وجل في القرآن الكريم، والثالث لصيغ الأمر الدالة عليه وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم؛ وأما **الفصل الأول** فوزعته على **أربعة مباحث** ، تناولت في الأول منها أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العقيدة، وفي الثاني أوامره تعالى إليه ﷺ في مجال العبادات عموما والبدنية منها خصوصا، وفي الثالث ما تلقاه ﷺ من ربه من أوامر في مجال الذكر والدعاء تحديدا، وفي الرابع ما تلقاه ﷺ من ربه من أوامر في مجال الأخلاق؛ وأما **الفصل الثاني** فقسمته

إلى **ثلاثة مباحث**، خصصت الأول منها لأوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال التبليغ، والثاني لأوامره تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الدعوة، والثالث لأوامره سبحانه إليه ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتقويم العقائد؛ وأما **الفصل الثالث** فوزعته على **مبحثين**: تناولت في الأول أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفسرين في المسائل الغيبية، وخصصت الثاني لأوامره تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين في المسائل الفقهية؛ وأما **الفصل الرابع** فقسمته إلى **مبحثين** أيضا: خصصت أولهما لأوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة الكافرين والمشركين ومحاجتهم، وجعلت ثانيهما لأوامره تعالى إليه ﷺ في مجال محاورة المسلمين والمنافقين وأهل الكتاب ومحاجتهم؛ ثم توجت البحث **بخاتمة** لخصت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وملاحظات واقتراحات.

9- وختاما: أحمد ربي العظيم -جل جلاله وتم كماله وجماله وتقدست ذاته وأسماؤه- على أن يسر لي إنجاز بحثي هذا، وأعانني على إكماله منة منه وفضلا، وأثني بالشكر الخالص والثناء السابغ والدعاء البالغ لشيخي المشرف صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور صالح عسكر -حفظه الله- على ما أنفق من الوقت والجهد في قراءة فصول البحث، وما أسدى من توجيهات نافعة وتصويبات قيمة وتشجيع مستمر. أطال الله عمره، وأبقى أثره، وأدام عافيته، وأجزل مثوبته، ونفعه بالقرآن الكريم، ونفع به أهل القرآن العظيم.

الفصل التمهيدي

تعريف الأمر وأقسامه وصيغه وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم

الله -عز وجل- أعظم آمر في الوجود أزلا وأبدا، ونبينا محمد ﷺ أعظم مأمور من الثقلين يقينا، والأوامر الموجهة إليه ﷺ أكثر عددا من مجموع ما وجه إلى أي مأمور آخر، ملكا أو بشرا أو جنا أو حيوانا أو جمادا، فردا أو أمة أو جنسا، من قبل الله - تبارك وتعالى- في القرآن الكريم؛ فلا بد -والحالة هذه- أنها جديرة بالبحث والدراسة؛ ويزيدها جدارة أننا -نحن المسلمين- معنيون بها مباشرة. قال ابن قدامة المقدسي: [1] (إذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بلفظ ليس فيه تخصيص كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(1)قُمِ اللَّيْلَ﴾[المزمل]، أو أثبت في حقه حكما، فإن أمته يشاركونه في ذلك الحكم، ما لم يقم على اختصاصه به دليل).[2] فما مفهوم الأمر عند العلماء؟ وكيف توزعت مادته في كتاب الله سبحانه؟ وما هي صيغه الدالة عليه؟ وهل أوامر الله سبحانه كلها على نسق واحد، أم أنها أقسام متمايزة؟ وما هي أفعال الأمر التي وجهها الله -تقدست أسماؤه- إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف الأمر وموارد مادته في القرآن الكريم

المبحث الثاني: أقسام أوامر الله عز وجل في القرآن الكريم

المبحث الثالث: صيغ الأمر وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف الأمر وموارد مادته في القرآن الكريم

---

(1) هو أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام المقدسي الحنبلي. ولد سنة 541هـ بجماعيل من أعمال نابلس. رحل في صغره مع عائلته إلى دمشق؛ ثم رحل في طلب العلم إلى بغداد ومكة وغيرهما، فحصل علما جما، وصنف وأفتى. من كتبه الكافي والمقنع وروضة الناظر، ومن شيوخه أبو الفتح بن البطي، وعبد الواحد البارزي، ومن تلاميذه: ابن نقطة وأبو شامة. توفي بدمشق سنة 620هـ. [انظر على سبيل المثال: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1424هـ-2003م، رقم 669، 601/13؛ شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي الشهير بابن العماد ت 1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وتخريجه: عبد القادر الأرنؤوط، حققه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط 1، 1412هـ-1991م، 155/7؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 15، مايو 2002، 67/4].

(2) موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ت 620هـ، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1401 هـ-1981م، ص 108-109.

لما كان الله جل جلاله –لحكمة يعلمها– أنزل القرآن الكريم باللغة العربية كما أخبر في مواضع عديدة من كتابه، كقوله عز وجل: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1)إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)﴾[يوسف] ، وقوله جل وعلا: ﴿حم(1)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3)﴾[الزخرف]، وغيرها من الآيات، وكانت العربية عريقة الأصل، ثرية المادة، ولادة للألفاظ، واسعة المعاني، وكان بحثنا حول أوامر الله عز وجل إلى نبيه ﷺ في القرآن الكريم، كان لابد لنا من معرفة مفهوم كلمة الأمر –مفرد الأوامر– في لغة العرب، وفي اصطلاح المفسرين، كما ينبغي لنا معرفة توزع هذه اللفظة ومشتقاتها على القرآن الكريم، لأن ذلك لا يخلو عادة من فائدة، أو سر، أو إشارة إلى معنى ما، أو لطيفة من اللطائف القرآنية. فما هي المعاني التي تحتملها هذه الكلمة العظيمة؟ وما الأصول اللغوية التي ترجع إليها؟ وما مفهومها عند المفسرين لكتاب الله؟ وكيف توزعت هي ومشتقاتها على الكتاب العزيز؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم الأمر عند اللغويين

المطلب الثاني: مفهوم الأمر في اصطلاح المفسرين

المطلب الثالث: موارد كلمة (أمر) وما اشتق منها في القرآن الكريم

المطلب الأول : مفهوم الأمر عند اللغويين

مع اتساع عدد الكلمات المأخوذة من مادة (أ.م.ر) بحكم الاشتقاق ، والمبثوثة في المعاجم القديمة والحديثة إلا أن المتتبع لها يجدها –مع كثرتها– ترجع إلى أربعة أصول أو خمسة، هي:

الأصل الأول: الأمر الذي هو بمعنى الطلب، والذي هو نقيض النهي ، وهو مصدر الفعل أمر يأمر، وجمعه أوامر ؛ تقول: أمر فلان فلانا بكذا، أي: طلب منه –بقوة– أن يفعل ما أمره به. ومن هذا المعنى قول الله سبحانه في وصف جهنم: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6)﴾[التحريم]. وهذا هو الأمر المقصود في دراستنا هذه ، وتحديدا ما كان الآمر فيه هو الله عز وجل والمأمور هو النبي ﷺ ومجال البحث هو القرآن الكريم. ومما يندرج تحت هذا الأصل من الأسماء المشتقة منه: **الأمير** ، أي ذو الأمر، فهو فعيل بمعنى فاعل، وجمعه أمراء، سمي بذلك لنفاذ أمره. ويطلق على من يتولى الإمارة، ومن ولد في بيت الإمارة، والملك، والمشاور، والجار، وقائد الأعمى، والمسلط، وغيرهم؛ و**المؤمر**، وهو من نصب من قبل غيره أميرا، فهو اسم مفعول من أمر يؤمر تأميرا؛ و**الإمارة**، وهي منصب الأمير ، كما تطلق أيضا على المنطقة من الأرض التي يحكمها أمير ؛ و**الإمر** وهو مذكر الإمرة، على وزن الإمع والإمعة، وهو الأحمق ، سمي بذلك لأنه يأتمر لكل آمر ويطيعه بسبب ضعف رأيه ، كما يطلق على صغير الضأن ؛ و**المؤامرة**، وهي مفاعلة من آمره يؤامره، أي شاوره يشاوره، ومن ذلك **التآمر** الذي هو التفاعل من الأمر ؛ لأن **المتآمرين** يأمر بعضهم بعضا، وكذلك **الائتمار**، و**الاستمارة**، وهي المرة من

الاستئمار، أي طلب الأمر ، وفي اصطلاح الإدارة المعاصرة: هي أنموذج مطبوع يتطلب بيانات خاصة لإجازة أمر من الأمور.(1)

الأصل الثاني: الأمر الذي هو بمعنى **الشأن**. وهو اسم مفرد، وجمعه الأمور. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:159]، أي شأنك من الحرب وغيره من الشؤون، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(210)﴾[البقرة]. فذكرته هذه الآية مفردا وجمعا. ومن معانيه المندرجة تحت هذا الأصل معنى **الحال**، كما في قوله تعالى : ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53)﴾[الشورى]؛ و **الحادثة** . قال ابن منظور: (2) (والأمر: الحادثة).(3) وكذلك معنى **الخصلة والصفة والصنعة**. ومنه قول أنس بن مدركة الخثعمي:(4)

---

(1) انظر: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت 395هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د م ط ولا ر ط، 1399هـ- 1979م، 1/137-138؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت بعد 666هـ، مختار الصحاح، تدقيق: عصام فارس الحرستاني، دار عمار، عمان، الأردن، ط 9، 1425هـ-2005م، ص 19، 20، 29؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت 711هـ/1311م، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 2004م، 1/150-152؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت 817هـ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ-2005م، ص 344؛ أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءته، سطور المعرفة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1423هـ-2002م، ص73؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1425هـ-2004م، ص 26،29.

(2) هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي المصري، الشهير بابن منظور. ولد بمصر سنة 630هـ. شاعر ناثر. من شيوخه: ابن المقير وعبد الرحيم بن الطفيل. تولى القضاء، وخدم في ديوان الإنشاء. ترك نحو خمسمائة مجلد بخط يده، منها كتابه الشهير: لسان العرب، ومختار الأغاني، وغيرهما. عمي في آخر حياته، ومات بمصر سنة 711هـ. [انظر على سبيل المثال: شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي الشهير بابن العماد ت 1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق وتعليق: محمود الأرنؤوط تحت إشراف عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط 1، 1412هـ-1991م، 8/49؛ علي بن أحمد بن حجر العسقلاني ت 850هـ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، د ر ط، 1414هـ-1993م، رقم 725، 4/262؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 15، مايو 2002، 7/108].

(3) ابن منظور، لسان العرب، 1/150.

(4) هو أنس بن مدركة (أو مدرك) بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف؛ وكنيته أبو سفيان؛ سيد قبيلة خثعم في الجاهلية وفارسها؛ وكان شاعرا. أدرك الإسلام فأسلم، وأقام بالكوفة، وعمر طويلا، وأخباره في الجاهلية كثيرة. تزوج خالد بن الوليد ابنته فولدت له عبد الله وعبد الرحمن والمهاجر. قيل أنه قتل مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. [انظر: علي بن أحمد بن حجر العسقلاني ت 850هـ، الإصابة في تمييز الصحابة، طبعت هذه النسخة طبق النسخة المطبوعة في كلكتا سنة 1853م بعد مقبلتها بنسختين في الأزهر الشريف بمصر، رقم 278، 1/73؛ عز

عزمت على إقامة ذي صباح لأمر ما يُسوَّد من يسود[1]

أي: لخصلة من الخصال الجميلة، أو صفة من صفات الكمال. كما يرد **بمعنى الشيء**، مثل قولنا: لأمر ما كان كذا وكذا، أي لشيء ما.[2]

الأصل الثالث: الأمَر (بفتح الميم)، وهو **النماء والكثرة**. وهو مصدر الفعل أمِر (بكسر الميم) يأمَر أمَرا وأمَرة. ومنه قول أبي سفيان رضي الله عنه: (فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِر أمْر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر). [3] قال ابن حجر: (أي عظم)، [4] وقال ابن الأثير: (أي كثر وارتفع شأنه). [5] ومن معانيه المندرجة تحت هذا الأصل: **التمام**، **والاشتداد**، **والزيادة**.[6] فمدار معاني هذا الأصل في المعاجم -كما هو ظاهر- على الكثرة والنماء.[1]

الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ت 630هـ، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1433هـ-2012م، رقم 259، ص 75].

(1) انظر: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت 180هـ، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1408هـ-1988م، 227/1؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1385هـ-1965م، 81/3؛ عبد القادر بن عمر البغدادي ت 1093هـ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ-1997م، 89/3؛ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي ت 643هـ، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د ر ط ولا ت ط، 12/3؛ أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ت 518هـ، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، د م ط ولا ر ط، 1374هـ-1955م، 196/2.

(2) انظر: البغدادي، خزانة الأدب، 90/3؛ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت 1094هـ-1683م، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 2، 1419هـ-1998م، ص 177؛ ابن منظور، لسان العرب، 150/1؛ مجمع اللغة، المعجم الوسيط، ص 26.

(3) جزء من حديث أبي سفيان رضي الله عنه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب، رقم 7، ص 14-16، وكتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، رقم 2941، ص 540-541؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم 1773، ص 736-737.

(4) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852هـ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مكتبة الصفا، القاهرة، ط 1، 1424هـ- 2003م، 50/1.

(5) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ت 606هـ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، 65/1.

(6) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 137/1-138؛ الحسين بن محمد الدامغاني، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 4، 1983م، ص 38، 41؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص

الأصل الرابع:_الأمار، وهو اسم من الفعل أمَّر يؤمر الشيء إذا جعل له حدودا بالعلامات. ومؤنثه الأمارة، وهي العلامة وزنا ومعنى؛ وقيل العلامة الظاهرة. قال أبو هلال العسكري: (الفرق بين الأمارة والعلامة: أن الأمارة هي العلامة الظاهرة، ويدل على ذلك أصل الكلمة وهو الظهور، ومنه قيل أمِر الشيء إذاكثر ومع الكثرة ظهور الشأن). [2] ومن معنى الأمار قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما رواه الطبري عن عبد الرحمن بن يزيد،[3] قال: أهل رجل منا بعمرة، فلدغ، فطلع ركب فيهم عبد الله بن مسعود، فسألوه، فقال: يبعث بهد ي، واجعلوا بينكم وبينه يوم أمار، فإذاكان ذلك اليوم فليحل .[4] قال ابن الأثير: (الأمار والأمارة: العلامة. وقيل الأمار جمع الأمارة). [5] ومن معانيه المندرجة تحت هذا الأصل: **المعلم والموعد والوقت والأجل**.[6]

344؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت 817هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، ص 42؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 19؛ أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ ت 770هـ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، د ر ط، 1987م، ص 9؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 26؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني ت 502هـ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، ص 25.

(1) انظر: جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ص 57.

(2) أبو هلال العسكري ت 395هـ، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د ر ط ولا ت ط، ص 72.

(3) هو أبو بكر عبد الرحمن بن يزيد بن قيس النخعي. إمام فقيه من كبار علماء التابعين. حدث عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وسلمان الفارسي وثلة أخرى من الصحابة رضي الله عنهم؛ وحدث عنه أبو إسحاق السبيعي ومنصور بن المعتمر وغيرهما. مات في حدود سنة اثنتين وثمانين للهجرة. [انظر على سبيل المثال: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ - 1997م، رقم 391، 112/5؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424هـ - 2003م، رقم 95، 968/2].

(4) أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ-2001م، 365/3؛ وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الطحاوي الحنفي ت 321هـ، في شرح معاني الآثار، تحقيق وتعليق: محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1414هـ-1994م، كتاب مناسك الحج، باب حكم المحصر بالحج، 251/2.

(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 67/1.

(6) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 137/1، 139؛ الفيومي، المصباح المنير، ص 9؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 344؛ ابن منظور، لسان العرب، 152/1؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 26.

الأصل الخامس: الإمْر، أي المنكر العظيم؛ وهو اسم من الفعل أمِر (بكسر الميم) يأمَر أمْرا، أي اشتد. ومنه قول الله سبحانه: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا(71)﴾[الكهف]. قال الجلال المحلي:[1] (أي عظيما منكرا)،[2] وقال ابن عاشور: (هو العظيم المفضع). [3] ومن معانيه المندرجة تحت هذا الأصل: **العجب**، و**المنكر**،**والشنيع**، **والداهي**، و**العجيب المنكر**، وما كان **كالإصر الشديد**. [4] والجامع بين هذه المعاني كلها – كما هو ظاهر– هو الاستعظام والاستفضاع والاستنكار.[5]

الخلاصة: ويمكن أن نستخلص مما سلف:

– أن العلماء مختلفون في عدد الأصول التي ترجع إليها مادة (أ.م.ر)؛ فمنهم من يردها إلى أربعة أصول، ومنهم من يجعلها خمسة؛ ولكنه خلاف في التقسيم لا في المضمون. فمن جعلها خمسة جعل لفظة (إمرا) أصلا مستقلا؛ ومن حصرها في أربعة أدرج اللفظة المذكورة ضمن الأصل الرابع، وهو (الأمار) الذي يعني المعلم وما يدور في معناه.

– أن الصيغة الصرفية الواحدة من كلمة (أمر) تختلف معانيها –كغيرها من الكلمات العربية– باختلاف الجملة التي وضعت فيها والسياق الذي وردت فيه. فأمَّر فلان أمَارة: أي نصب علامة، وأمَّر فلانا: صيره أميرا، وأمَّر الأرض: جعل لها حدودا، وأمَّر الشيء: وضع له معالم، وأمَّر السنان: حدده، وأمَّر القناة: ركب لها سنانا، ... وهكذا تتنوع معاني المفردة بتنوع الجمل المتضمنة لها.[6]

– أنه مع اختلاف صيغ الكلمات المشتقة من (الأمر) وتمايز معانيها الخاصة إلا أن هناك دائما خطا رفيعا – وهو الجذر (أ م ر)– يصل بعضها ببعض في تماسك عجيب أشبه ما يكون بصلة حبات القمح المتراكبة في السنبلة الواحدة، أو حبات اللؤلؤ

---

(1) هو أبو عبد الله جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الأنصاري الشافعي. ولد في القاهرة سنة 791هـ، وفيها نشأ وتعلم، فنبغ في العلوم النقلية والعقلية، وصنف كتبا قيمة، منها: البدر الطالع وكنز الراغبين وغيرهما. من شيوخه: ابن الملقن وابن البلقيني وغيرهما؛ ومن تلاميذه: السيوطي والسخاوي وغيرهما. توفي بالقاهرة سنة 864هـ. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 333/5؛ محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 2000م، 237/1].

(2) جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي ت 864هـ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، تفسير الجلالين، دار ابن كثير، دمشق، د ر ط، 1407هـ، ص 302.

(3) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ر ط، 1984م، 375/15.

(4) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 137/1؛ الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 24؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 20؛ ابن منظور، لسان العرب، 153/1؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 26.

(5) أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم، ص 73.

(6) انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 26.

التي سلكت جميعا في سلك واحد ثم أخفي طرفاه، فصاحب النظر السطحي يحسبها منفصلة لا يجمعها إلا ذلك التجاور البديع؛ أما من غلغل البصر بينها فهو خبير بأن السلك ينتظم كيانها ويشد أركانها.

– أن الأمر، وإن تمايزت معاني مفرداته كلما اختلف الأصل وتنوع الاشتقاق، إلا أن هناك قدرا مشتركا بين عامتها وهو معنى الظهور؛ فالأمر الذي هو ضد النهي إنما سمي كذلك لظهور شأن الأمر وعلوه على المأمور، والأمر الذي هو الحال والشأن فيه معنى الظهور أيضا من حيث أنه (لفظ عام للأفعال والأقوال كلها)،[1] فهو غالب عليها، شامل لها، والأَمَر (بفتح الميم) الذي هو بمعنى الكثرة والنماء، فيه معنى الظهور أيضا؛ لأن الكثرة معها علو الشأن وبروزه، والأمار والأمارة كذلك لأنها تنصب فتكون ظاهرة شاخصة للناظرين، والإمْر لا يخفى فيه معنى الظهور؛ لأنه لا يقال إلا فيما اشتدت شناعته حتى صار الناس يتعجبون منه ويستفضعونه.[2]

المطلب الثاني: مفهوم الأمر في اصطلاح المفسرين

تنوعت تعريفات المفسرين وغيرهم للأمر من حيث صياغتها، واختلفت من حيث طولها وقصرها؛ ولكنها كانت متقاربة المضمون، متحدة الهدف، إلا ما شذ. فعرفه أبو حيان الأندلسي [3] بقوله: (الأمر طلب إيجاد الفعل). [4] وهو من أقصر تعريفاته عند أهل التفسير وأشملها لمصاديقه وأقلها شروطا. وقد وافقه ابن قيم الجوزية؛ لأنه يركز أهمية الأمر كلها على إيجاد الفعل؛ يقول رحمه الله: (والمطلوب بالأمر إيجاد فعل، وهو أمر وجودي، فمتعلق الأمر الإيجاد).[5] ولكنه لم يقيد الطلب بأي قيد، ولذلك فهو يشمل الطلب بالقول وبالفعل وبالإشارة وغيرها. وهو توسع لا يوافقه عليه بعض العلماء؛ لأن الطلب بالإشارة والقرائن المفهمة لا يكون أمرا حقيقة كما سأنقل عن الأسنوي قريبا،

---

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 24.

(2) انظر: جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ص 59.

(3) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الجياني النفزي، أبو حيان أثير الدين. نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه. ولد في مطخشارش من أعمال غرناطة سنة 654هـ-1256م. رحل إلى مالقة وتنقل حتى أقام بالقاهرة وظل بها إلى وفاته سنة 745هـ-1344م. له تصانيف كثيرة منها: البحر المحيط في التفسير، وطبقات نحاة الأندلس، ومنطق الخرس في لسان الفرس، وغيرها كثير. [ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، رقم 832، 302/4؛ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت 771هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط 1، 1383هـ-1964م، رقم 1336، 276/9؛ جلا الدين عبد الرحمن السيوطي ت 911هـ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، د م ط، ط2، 1399هـ-1979م، رقم 516، 280/2؛ الزركلي، الأعلام، 152/7].

(4) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت 745هـ، ، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ-1993م، 337/1.

(5) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الفوائد، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 1432هـ-2011م، ص 128.

إضافة إلى أنه غير مانع؛ لأنه يصدق على الدعاء والالتماس أيضا. بينما يعرفه الزمخشري بهذه العبارة: (طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه). [1] فقيد الطلب بقيد مهم، وهو كونه صادرا من الأعلى إلى الأدنى، فخرج بذلك الطلب من الأدنى إلى الأعلى، وهو الدعاء والمسألة؛ وخرج الطلب من المساوي لمساويه، وهو الالتماس؛ ولكن بقي شاملا للطلب بالقول والفعل والإشارة وغير ذلك مما يعد مخرجا للأمر عن حقيقته عند البعض كما سبقت الإشارة إليه. وعرفه النسفي بعبارة ضمت زيادة عما في تعريفات من سبق. قال في مدارك التنزيل: (والأمر: طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء).[2] فأضاف شرطا على تعريف الزمخشري، أي شرطين على تعريفي أبي حيان وابن القيم.

أحدهما: أن يكون ذلك (بقول مخصوص)؛ وهو (القول الدال بالوضع على طلب الفعل). [3] قال الإسنوي: (وقد علم من التعبير بالقول، أن الطلب بالإشارة والقرائن المفهمة لايكون أمرا حقيقة. واحترزنا بالوضع عن قول القائل: أوجبت عليك، أو أنا طالبه منك، أو إن تركته عاقبتك، فإنه خبر عن الأمر وليس بأمر).[4] وهذا هو القيد المضاف إلى قول صاحب الكشاف.

وثانيهما: أن يكون على (سبيل الاستعلاء)؛ أي أن يعتبر الآمر نفسه أعلى من المأمور. وهو ما عبر عنه الزمخشري بقوله: (ممن هو دونك). قال الكفوي: [5] (واشترط الاستعلاء في الطلب بالأمر، أي عد الطالب نفسه عاليا، وإن لم يكن في الواقع كذلك، ليخرج به الدعاء والالتماس مما هو بطريق الخضوع والتساوي). [6] وممن وافق الزمخشري والنسفي –من المفسرين– في شرط الاستعلاء أبو الخير البيضاوي. قال في أنوار التنزيل: (والأمر والدعاء

---

(1) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت 538هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ–1998م، 247/1.

(2) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419هـ–1998، 75/1.

(3) جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي ت 772هـ، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1401هـ–1981م، ص264.

(4) المرجع السابق.

(5) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي. ولد في (كفا) بالقرم وقيل بتركيا، من قضاة الأحناف، ولي القضاء بكفا ثم في القدس وبغداد ثم عاد إلى استامبول فتوفي فيها –وقيل في القدس– سنة 1094هـ–1683م. من كتبه: الكليات، ومعجم المصطلحات، وتحفة الشاهان بالتركية. [الزركلي، الأعلام، 38/2؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1414هـ–1993م، رقم 3120، 418/1؛ اسماعيل باشا البغدادي ت 1920م، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، 229/1].

(6) الكفوي، الكليات، ص 176.

يشتركان لفظا ومعنى، ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل). [1] كما وافقهما فيه أيضا كل من الفخر الرازي، [2] وأبي الحسين، [3] والآمدي، [4] وابن الحاجب، [5] والباجي؛ [1] وهم جميعا من الأصوليين. [2] لكن هذا

---

(1) ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي ت 691هـ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ر ط، 1418هـ-1998م، 30/1.

(2) هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الشافعي. ولد سنة 544هـ، وتتلمذ على والده الإمام ضياء الدين خطيب الري. برع في العلوم وصنف التصانيف الكثيرة، ومنها تفسيره الكبير مفاتيح الغيب والمحصول في علم الأصول وغيرها. توفي سنة 606هـ بهراة. [شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م، 142/3؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت 681هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ر ط، 1414هـ-1994م، رقم 600، 248/4؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 40/7؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 311، 137/13].

(3) هو محمد بن علي بن الطيب البصري، شيخ المعتزلة في عصره. ولد بالبصرة وسكن بغداد وبها مات. كان متوقد الذكاء فصيحا بليغا واسع الاطلاع. صنف في علوم شتى. من تصانيفه: غرر الأدلة والمعتمد في أصول الفقه وشرح الأصول الخمسة وغيرها. توفي سنة 436هـ/1044م. [أبو الحسين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ت630هـ، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1407هـ-1987م، 269/8؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 271/4؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت 463هـ، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواردها الشهير بتاريخ بغداد، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1422هـ-2001م، رقم 1360، 168/4].

(4) هو الفقيه الأصولي البارع أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي، أحد أذكياء العالم. ولد بآمد سنة 551هـ. كان حنبليا ثم تحول إلى المذهب الشافعي. قدم بغداد فتعلم القراءات وبرع في أصول الدين والفلسفة والخلاف، ثم رحل إلى مصر فتصدر للإقراء ولتدريس الفقه الشافعي، ثم ارتحل إلى الشام وبها مات سنة 631هـ. من مصنفاته: منتهى السول في علم الأصول والإحكام في أصول الأحكام وأبكار الأفكار وغيرها. [التاج السبكي، طبقات الشافعية، رقم 1207، 306/8؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 432، 293/3؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 230، 364/22].

(5) هو أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي، المعروف بابن الحاجب المالكي لأن أباه كان جنديا حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي. مقرئ نحوي فقيه أصولي متبحر في العلوم. ولد في إسنا من صعيد مصر سنة570هـ-1174م ونشأ في القاهرة ثم سكن دمشق مدة ومات بالإسكندرية سنة 646هـ-1249م. من تصانيفه: الكافية في النحو والشافية في الصرف ومختصر الفقه في الفقه المالكي وغيرها. [إبراهيم بن نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي ت 799هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ-1996م، رقم 377، ص 289؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 413، 248/3؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 175، 264/23].

الشرط، وإن تعدد القائلون به من المفسرين والأصوليين، فهو ليس محل اتفاق. فالنحاة لا يشترطونه، [3] لغلبة تسمية استعمال صيغة الأمر في حقيقة الأمر، سواء استعملت فيها أو في غيرها، حتى إن لفظ (اغفر) في (اللهم اغفر لنا) يعد أمرا عندهم. [4] وكذلك علماء الكلام، وغير واحد من متأخري الأصوليين لا يعدونه شرطا. [5] ومما ينغص عليه قول فرعون لقومه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35)﴾[الشعراء]. فهم دونه مرتبة، ومع ذلك استعمل (الأمر) في حقهم. إلا أن المشترطين له يجيبون عن الاستدلال بالآية لإسقاطه بأن (إطلاقه هنا على وجه التلطف مع المخاطبين ... فالمقصود منه الطلب على وجه الإفتاء والاشتوار)[6] رجاء استعطافهم لتأليبهم على موسى عليه السلام. قال الكفوي: (وقول فرعون لقومه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35)﴾[الشعراء] مجاز بمعنى (تشيرون)، أو (تشاورون)، أو إظهار التواضع لهم لغاية دهشته من موسى عليه السلام).[7]

وهناك تعريفات أخرى لمفسرين وغيرهم، منها ما يطابق -أو يكاد- بعض ما ذكرت، ومنها ما يختلف عنه من جهة الألفاظ والصياغة، أما من حيث المضمون فهو واحد. فالجرجاني[8] مثلا -وهو من علماء القرن الرابع عشر الميلادي- يقول في تعريفه:

---

(1) هو العلامة الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي التميمي الباجي الأندلسي المالكي. ولد سنة 403هـ/1012م في بطليوس على الراجح. ارتحل إلى الحجاز للطلب ثم إلى الشام ثم إلى بغداد ثم إلى الموصل ثم عاد إلى الأندلس وعلم وناظر وتولى القضاء. من تصانيفه: المنتقى في الفقه والمعاني في شرح الموطأ والاستيفاء وغيرها. توفي في ألمرية سنة 474هـ/1081م. [الذهبي، تذكرة الحفاظ، رقم 1027، 246/3؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 275، 408/2؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 274، 535/18].

(2) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ت 1393هـ، مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، دار عالم الفوائد، مكة، ط 3، 1433هـ، ص 293.

(3) الكليات، الكفوي، ص176.

(4) المرجع السابق ص178.

(5) محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه، ص294.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 43/9.

(7) الكفوي، الكليات، ص178.

(8) هو العلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني، يلقب بالشريف لأن نسبه يرجع إلى محمد بن زيد الداعي الحسيني، من أشراف آل البيت. ولد بجرجان شمال شرق إيران سنة 740هـ-1340م. درس في شيراز، ولما دخلها تيمور لانك سنة 789هـ فر إلى سمرقند ثم عاد بعد موته. رحل في طلب العلم إلى الشام ومصر وأرض الروم ثم عاد إلى فارس فجلس للتعليم والإفتاء. شدت إليه الرحال وطلبه الملوك وعظمه العلماء. له ما يقارب خمسين مصنفا منها كتاب التعريفات وشرح مواقف الإيجي. توفي بشيراز سنة 816هـ-1413م على المشهور. [محمد بن علي الشوكاني ت 1250هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1418هـ-1998م، رقم 328، 333/1؛ السيوطي، بغية الوعاة، رقم 1777، 196/2؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 10037، 545/2؛ الزركلي، الأعلام، 7/5؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت 902هـ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ-1992م، رقم 1087، 328/5].

(الأمر هو قول القائل لمن دونه: افعل)؛ [1] وهو عند التأمل مطابق لتعريف النسفي -الذي عاش معه في القرن نفسه- من حيث المضمون، وإن اختلف عنه من حيث الصياغة اللفظية؛ ومماثل أيضا لتعريف محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي -وهما من المعاصرين لنا- القائلين: (الأمر: استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء). [2] وقد يبدو بعضها -بادي الرأي- مختلفا من حيث مضمونه لما سقناه من قبل، كقول السيوطي رحمه الله: (وهو طلب فعل غير كف). [3] لكن سرعان ما يخف ذلك الخلاف -أو يتبدد- عند استحضار كون النهي عن الشيء مستلزما للأمر بضده. قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[الأعراف:77]: (وأمرُ ربهم هو ما أمرَهم به على لسان صالح عليه السلام من قولهِ:﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾[الأعراف:73] فعبر عن النهي بالأمر ؛ لأن النهي عن الشيء مقصود منه الأمر بفعل ضده، ولذلك يقول علماء الأصول: إن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده الذي يحصل به تحقق الكف عن المنهي عنه). [4]

وفي تقديري فإن أسلم صيغة لتعريف الأمر هي التي جاءت في عبارة النسفي [5] وما ماثلها. ولذلك يمكن أن نقول في تعريف الأمر: (هو طلب فعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء). فخرج بكلمة (طلب) صمت المريد للشيء ما لم يطلبه وكذلك طلبه بالكلام النفسي ما لم ينطق به. وخرج بكلمة (فعل) النهي والوعد والوعيد وسائر أقسام الكلام. وخرج بكلمة (قول) ما كان بالإشارات والقرائن وما شابهها. وخرج بكلمة (مخصوص) ما كان بغير صيغ الأمر الموضوعة له، مثل: ألزمك أن تفعل كذا أو أنت مستحق لعقوبتي إن لم تفعل كذا. وخرج بقولنا: (على سبيل الاستعلاء) الدعاء والالتماس. وإنما نكرت كلمة (فعل) خلافا للنسفي تخلصا من الاشتباه الذي قد يحصل بين (ال) الاستغراقية ومثيلتها العهدية من جهة، ومن جهة أخرى تقصيرا للتعريف ما استطعت؛ لأنه كلما كان أقصر كان أجود.

---

(1) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني ت 816هـ-1413م، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د ر ط ولا ت ط، ص34.

(2) محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ-1988م، ص 65.

(3) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1426هـ، ص 1713.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 226/8.

(5) هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي. مفسر فقيه محدث أصولي من أهل إيذج من كور أصبهان. ينتسب إلى نسف من بلاد الصغد فيما وراء النهر. من شيوخه محمد بن عبد الستار الكردري الملقب بشمس الأئمة وحميد الدين الضرير، ومن تلاميذه الصغناقي، ومن مصنفاته كنز الدقائق والعمدة في أصول الدين. انتقل إلى بغداد فظل بها إلى أن توفي في بلدة إيدج سنة 701هـ. [انظر على سبيل المثال: ابن حجر، الدرر الكامنة، رقم 2118، 247/2؛ الزركلي، الأعلام، 67/4؛ محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي ت 775هـ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح بن محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، إمبابة، ط2، 1413هـ-1993م، رقم 692، 294/2].

هذا فيما يتعلق بتعريف الأمر عموما؛ أما ما نحن بصدده، وهو أوامر الله تعالى، فنحن لا نحتاج في تعريفها إلى العبارة الأخيرة، وهي (على سبيل الاستعلاء)؛ لأن العلو صفة لازمة له تعالى على الحقيقة أزلا وأبدا، ولا وجود لمن يعلو عليه أو يساويه مطلقا؛ ومن ثم فلا مجال لصدور الدعاء أو الالتماس منه سبحانه فنحتاط باشتراط الاستعلاء، ومن أسمائه جل جلاله: الأعلى و العلي و المتعال. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)﴾[الأعلى]، وقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(255)﴾[البقرة]، وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(9)﴾[الرعد].

المطلب الثالث : موارد كلمة (أمر) وما اشتق منها في القرآن الكريم

وردت مادة (أ م ر) في القرآن الكريم ثمانية وأربعين ومائتا مرة؛[1] فإذا ما حذفنا من هذا الرقم الموضع الذي جاءت فيه لفظة (إمرا)، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا(71)﴾[الكهف]، والموضعين الذين وردت فيهما لفظتا (يأتمرون) و(وأتمروا) المشتقتان من الائتمار، وهما قوله سبحانه: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[القصص:20]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾[الطلاق:6]؛ لأنهما لا تنتسبان إلى مشتقات الأمر من حيث المفهوم -وإن كانتا تنتسبان إليها من حيث الجذر اللغوي-[2] ... أقول: إذا فعلنا ذلك كان ورود كلمة (أمر) وما اشتق منها في الكتاب العزيز خمسة وأربعين ومائتا مرة؛ منها سبعة وسبعون مرة في صيغة الفعل، واثنتان وسبعون في صيغة المصدر، وسبعة وسبعون اسما. وما جاء في الصيغة الاسمية وحدها (اسم أو مصدر) توزع على ثلاث وثمانين آية، [3] وأما المجموع فتوزع على إحدى وعشرين ومائتا آية، منها أربعون ومائة مكية، والباقي -وهو إحدى وثمانون آية- مدنية.[4]

والملفت للنظر أن فعل الأمر من الأمر نفسه لم يرد في الكتاب العزيز إلا أربع مرات فقط، اثنتان وجه فيهما لنبينا محمد ﷺ، والباقيتان وجه في إحداهما إلى موسى عليه السلام، وفي الأخرى إلى ابن لقمان. ولعل ذلك إشارة إلى استحواذ النبي محمد ﷺ وأمته على القسم الأكبر من الأوامر الإلهية في القرآن الكريم، وتوزع الباقي على بقية الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من المخلوقات، وهو ما يؤكده الإحصاء. والمواضع الأربعة موزعة على ثلاث سور، كلها مكية، وهي: الأعراف وطه ولقمان. [5]

---

(1) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1364هـ، ص 76-79.

(2) انظر: جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ص 62-63.

(3) انظر: م كرم وليد عبد صالح، فعل (أمر) في القرآن الكريم، مجلة آداب الرافدين، العدد69، سنة 1435هـ-2014م.

(4) انظر: جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ص 63.

(5) وتلك المواضع هي: قوله تعالى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(145)﴾[الأعراف:145]، وهو أمر موجه من الله عز وجل لموسى عليه السلام؛ وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾[الأعراف:199]، وهو أمر

وهي إشارة –والله أعلم– إلى كون مكة مهبط وحي الله الأخير، ومبعث نبيه الخاتم، ومركز الأرض الذي تنطلق منه الهداية الإسلامية إلى أطرافها، وتهوي إليه الأفئدة المؤمنة من أنحائها، تماما كما كانت موضع أول مسجد يقام على مدار التاريخ البشري لعبادة الله الواحد. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(97)﴾[آل عمران]. ومن اللطائف أن اسم النبي محمد ﷺ ورد في القرآن الكريم بالعدد نفسه، أي أربع مرات، في أربع سور كلها مدنية. [1] وكأنها إشارة إلى أن المدينة هي مهاجره في حياته ومدفنه بعد مماته ﷺ، وإلى التكامل التام بين أوامر الله عز وجل الصادرة إليه ﷺ في الفترة المكية، وتلك التي صدرت في الفترة المدنية، والتي تحدد في مجموعها للمسلمين وظائفهم، وترسم لهم طريقهم المستقيم في هذه الحياة.

أما بالنسبة للسور فتتوزع لفظة (أمر) وما اشتق منها على إحدى وستين سورة؛ ثلاث وأربعون منها مكية، والباقي –وهو ثماني عشرة– مدنية. [2] وبناء على هذه الإحصاءات فإن هذه الكلمة ومشتقاتها تشيع أكثر في السور والآيات المكية. [3] لكن لو نظرنا إلى نسبة كل من السور والآيات –المكية والمدنية– إلى القرآن الكريم كله، لا إلى بعضها البعض، لانعكس الاستنتاج؛ لأننا إذا علمنا أنه ورد في أربعين ومائة آية مكية، وأن عدد الآيات المكية في القرآن الكريم كله هو خمس وسبعون وأربعمائة وأربعة آلاف آية على الراجح، فتكون نسبتها فيها هي 3.12 بالمائة، بينما نسبتها في الآيات المدنية هي 4.72 في المائة؛ لأن اللفظة وردت في إحدى وثمانين آية، وعدد الآيات المدنية في القرآن كله هو ست عشرة وسبعمائة وألف على الراجح.

وكذلك في السور؛ فالسور المكية اثنتان وثمانون سورة على الراجح، وقد وردت هذه الكلمة وما اشتق منها في ثلاث وأربعين منها، بينما السور المدنية عشرون على الراجح، وقد وردت في ثماني عشرة منها، أي بنسبة 90 بالمائة، في حين نسبتها في المكية هي 52.43 في المائة. فدل ذلك على أن لفظة (أمر) ومشتقاتها تشيع أكثر في السور وفي الآيات المدنية. وسر ذلك في تقديري –والله أعلم– أن السور المكية غلب عليها التركيز على ترسيخ التوحيد، وسائر مسائل العقيدة عامة ، كإثبات الرسالة، والبعث، والجزاء، والقيامة وأهوالها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومصير الأمم الكافرة، وقصص الأنبياء ، وغيرها من

لنبينا محمد ﷺ؛ وقوله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه:132]، وهو أمر لنبينا محمد ﷺ أيضا؛ وقوله جل وعلا: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[لقمان:17]، وهو أمر من لقمان لولده.

(1) وهي: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران: 144]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب: 40]، وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[محمد:2]، وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:29].

(2) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 76-79 .

(3) انظر: جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ص 68.

الحقائق الدينية التي يناسبها الأسلوب الخبري؛ لأن العقيدة هي أساس الشريعة ، ومن الطبيعي أن تسبقها من حيث زمن الاهتمام بها ، تماما كما تسبقها إلى القلوب، لأنها محلها الذي يملي على الجوارح بعد ذلك تطبيق أحكام الش رع. أما الأوامر فالأنسب لها هي الفترة المدنية؛ لأنها فترة التشريع، إذ قد صار للإسلام دولة ومجتمع يحتاجان إلى تفصيل ما يجب وما يستحب وما يحرم لغرض التطبيق، ولم يكن ذلك كله متيسرا أيام الفترة المكية، حين كان المسلمون يعانون من اضطهاد قريش التي كانت تمنعهم من الصلاة جهرة، وتضطرهم إلى الاستخفاء بها.

المبحث الثاني: أقسام أوامر الله عز وجل في القرآن الكريم

دلت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على تسمي الله سبحانه بالأسماء الحسنى واتصافه بصفات الكمال والجلال والجمال. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(180)﴾[الأعراف]. ومن تلك الأسماء والأوصاف: السيد والسيادة. روى أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: (السيد الله تبارك وتعالى). قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا. فقال: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان). [1] ومن كمال سيادته -جل جلاله- أنه يأمر أي أحد أو شيء متى شاء بما يشاء. وفي القرآن الكريم عدد كبير جدا من تلكم الأوامر الإلهية؛ بعضها موجه إلى الملائكة، وبعض إلى الجن والإنس عموما في الحياة الدنيا، وبعض إلى أنبياء الله ورسله خصوصا، وبعض إلى السماء والأرض في بداية خلقهما، وبعض إلى النحل، وبعض إلى الجبال، وبعض إلى أهل النار، أي في الآخرة، وغير ذلك كثير؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)﴾[البقرة]، وقوله عز من قائل:

---

(1) أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت 275هـ، في سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، د ت ط، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم 4806، ص 722، واللفظ له؛ وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي في السنن الكبرى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ-2001م، كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا، وسيدي، رقم 10003، 102/9، ورقم 10005، 103/9؛ وأبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس الذهلي الشيباني ت 241هـ، في مسند أحمد بن حنبل، بيت الأفكار الدولية، لبنان، د ر ط، 2004م، رقم 16416، ص 1140؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، دار خضر، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ-2000م، رقم 444، و445، و447، 466/9-468؛ وأبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري الشافعي المعروف بابن السني في عمل اليوم والليلة، تحقيق: عبد الرحمن كوثر ابن الشيخ محمد عاشق إلهي البربي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1998م، باب كراهية ذلك على التكبر، رقم 387، ص 235، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط3، 1408هـ-1988م، رقم 3700، 689/1.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(28)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(29)﴾[الحجر]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(10)﴾[سبأ]، وقوله تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(9)﴾[الجمعة]، وقوله جل شأنه: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)﴾[المؤمنون]، وقوله جل وعلا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)﴾[الحاقة]، وغيرها من الآيات الكريمة. وبتتبعي لتلك الأوامر في القرآن الكريم، ولتفسير الآيات التي تضمنتها، وجدت المفسرين يقسمونها إلى **ثلاثة أقسام**، ويسمون أحدها الأوامر الكونية أو القدرية، والثاني الأوامر الشرعية أو الدينية؛ والثالث الأوامر الجزائية. فما مفهوم الأوامر الكونية (القدرية)؟ وما أهم خصائصها؟ وما معنى الأوامر الشرعية (الدينية)؟ وما أوضح مميزاتها؟ وما المقصود بالأوامر الجزائية؟ وما أبرز سماتها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم الأوامر الكونية وأهم خصائصها

المطلب الثاني: معنى الأوامر الشرعية وأوضح مميزاتها

المطلب الثالث: المقصود بالأوامر الجزائية و أبرز ما سماتها

المطلب الأول: الأوامر الكونية (الأحكام القدرية) وأهم خصائصها

يسمى هذا القسم من أوامر الله جل وعلا عند المفسرين **بالأوامر الكونية** ، أو **التكوينية** ، أو **القدرية** ، كما يسمى أيضا **بالأحكام الكونية** ، أو **التكوينية** ، أو **القدرية** .(1) وهو أولها وقوعا من حيث الزمن؛ لأنه سبحانه خلق الخلق أولا، ثم أرسل إليهم رسله بأوامره التكليفية الشرعية ثانيا، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ثم تتوجه إليهم -بعد الموت والبعث- أوامره الجزائية

---

(1) انظر على سبيل المثال: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ت 725هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبط وتصحيح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1425هـ-2004م، 224/4؛ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 182/8؛ الزمخشري، الكشاف، 664/5؛ أحمد مصطفى المراغي ت 1371هـ-1952م، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1365هـ-1946م، 150/3؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت 1376هـ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ-2003م، ص 47، 136، 237، 269، 843؛ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت774هـ، تفسير القرآن العظيم، دار نور الكتاب، الجزائر، د ر ط، 1428هـ-2007م، 159/6؛ محمد رشيد رضا ت 1354هـ-1935م، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، تحقيق: فؤاد سراج عبد الغفار، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د ر ط ولا ت ط، 417/8؛ محمد فخر الدين بن عمر ضياء الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1401هـ-1981م، 50/9؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 545/1، 565، 308/7، 8أ/146، 8ب/68، 54/14، 156.

بالنعيم للطائعين والعذاب للعاصين ثالثا. وعلى هذا الترتيب دلت نصوص الكتاب والسنة، وهو مقتضى العقل الصحيح والمنطق السليم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1)إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(2)إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3)إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا(4)إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(5)﴾[الإنسان]. فبينت الآيات أن الإنسان كان عدما -غير مذكور- دهرا، ثم خلقه الله سبحانه بأمره الكوني فجعله مزودا بالوسائل التي تمكنه من فهم ما يجري حوله، أو يوجه إليه من الخطاب، ثم أنزل إليه وحيه تعالى الذي تضمن أوامره الدينية، موضحا له فيه السبيلين الذين يمكنه أن يسلكهما في حياته؛ فإما أن يطيع أوامره، فيؤمن به ويعبده كما أمره، فيكون شاكرا، وإما أن يعصيها، فيكفر به ويعبد غيره، فيكون كفورا. ثم نص جل وعلا على الجزاء الذي أعده له في الحالين كليهما؛ فإن كان كفورا فالسعير مأواه، وإن كان شكورا فالجنة مثواه. قال السعدي[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:54]: (أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها ، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات ؛ فالخلق: يتضمن **أحكامه الكونية القدرية** ، والأمر: يتضمن **أحكامه الدينية الشرعية**، وثم **أحكام الجزاء**، وذلك يكون في دار البقاء).[2]

- **والأوامر الكونية** -لغة- المنسوبة إلى الكون؛ وهو مصدر كان التامة لا الناقصة؛ لأن (كان: تكون بمعنى مضى وتقضى وهي التامة، وتأتي بمعنى اتصال الزمان من غير انقطاع وهي الناقصة).[3] ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة:280]. فالكون مصدر الفعل كان يكون كونا وكينونة، أي حدث ووقع. قال الجرجاني: (الكون اسم لما حدث دفعة كانقلاب الماء هواء، فان الصورة الهوائية كانت ماء بالقوة، فخرجت منها إلى الفعل دفعة. فإذا كان على التدريج فهو الحركة).[4] وهو أيضا اسم لما كان، أي وجد، وجمعه الأكوان. سمي كذلك لأن الله كونه بأن قال له كن فكان، فأخرجه بذلك من العدم إلى الوجود؛ فأصل مادة (ك و ن) يدل على الإخبار عن حدوث شيء في زمان ماض أو راهن. و **التكوينية** هي

---

(1) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد السعدي. ولد سنة 1307هـ في بلدة عنيزة بالمملكة العربية السعودية، وفيها نشأ فحفظ القرآن الكريم وطلب العلم على علماء بلده ومن يفد إليه بهمة عالية، وخصص له كل وقته. من شيوخه محمد الأمين محمود الشنقيطي والشيخ صالح بن عثمان آل قاضي، ومن تلاميذه محمد بن سليمان البسام ومحمد بن صالح العثيمين، ومن مؤلفاته المواهب الربانية وتوضيح الكافية الشافية. توفي سنة 1376هـ في عنيزة وبها دفن. [انظر على سبيل المثال: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي كما عرفته، اعتنى بإخراجه: عبد الرحمن بن علي العسكر، مدار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1427هـ-2006م، ص 5 فما بعدها؛ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1419هـ، رقم 321، 218/3].

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 269.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 135/13-137، 139.

(1) علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، ص 158.

المنسوبة إلى التكوين؛ وهو مصدر الفعل كون (بتشديد الواو) يكون الشيء، أي جعله كائنا. [1] وأما **اصطلاحا** فالأمر الكوني أو التكويني هو (قول الله سبحانه لما تعلقت إرادته بإيجاده كن). يدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82)﴾[يس:82]. قال الجزائري: (شأنه في إيجاد ما أراد إيجاده أن يقول له كن فهو يكون).[2]

- **والأحكام** -لغة- جمع حكم، وهو مصدر الفعل حكم يحكم، أي قضى يقضي. وأصله المنع؛ ومنه قول جرير:[3]

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا[4]

أي امنعوهم وخذوا على أيديهم. سمي كذلك لأن الحكم يمنع من الظلم. فالحكم معناه القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[الحج:56]. قال الطبري مفسرا: (يقول: يفصل بين خلقه المشركين به والمؤمنين).[5] وحُكم فلان في كذا: أي جعل أمره إليه. كما يطلق على الحكمة؛ لأنها تمنع من الجهل. ويطلق أيضا على العلم والفقه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)﴾[مريم]، أي فهما وعلما.[6]

- و**القدرية** -لغة- المنسوبة إلى القدر (بفتح الدال)، وهو اسم مفرد جمعه أقدار، وهو في الأصل مصدر؛ والقدر مبلغ كل شيء، وكذلك القدر (بسكون الدال). تقول: قدرت الشيء أقدره، وقدرته أقدره (بتشديد الدال) تقديرا: أي بينت قدره وحددت مقداره وكنهه ونهايته. وهذا هو المعنى المقصود في بحثنا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49)﴾[القمر]. قال أبو حيان: (والقدر والقدر هو التقدير. وقرئ بهما، أي خلقنا كل شيء مقدرا محكما مرتبا على

---

(2) الرازي، مختار الصحاح، ص 287؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 148/5؛ ابن منظور، لسان العرب، 13/135-137، 139؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 806.

(3) أبو بكر جابر الجزائري ت 1439هـ-2018م، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط3، 1418هـ-1997م، 395/4.

(4) هو أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر بن سلمة اليربوعي التميمي البصري. أحد فحول شعراء العصر الإسلامي؛ جمع بين كثرة الشعر وجودته. نشأ في اليمامة، ثم نزل البصرة، ومدح الخلفاء والأمراء فأرضاهم، وهجا خصومه من الشعراء فأخزاهم، ونال العطاء الجزل والشهرة الواسعة المستحقة، ثم عاد إلى اليمامة فأقام بها حتى توفي فيها سنة 110هـ عن عمر أربى على الثمانين. [انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 594، 475/5؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت 276هـ، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط2، 1377هـ-1958م، رقم 85، 464/1؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 130، 321/1].

(5) جرير بن عطية اليربوعي ت 110هـ، ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط 3، 1986م، ص 466.

(6) الطبري، جامع البيان، 618/16.

(7) اتظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 80؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 91/2؛ ابن منظور، لسان العرب، 186/4؛ الدامغاني، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر، ص 142.

حسب ما اقتضته الحكمة).[1] ومن معانيه أيضا قصر العنق، ومنه الأقدر وهو القصير من الرجال.[2] وأما **اصطلاحا** فالأحكام القدرية هي نفسها الأوامر الكونية؛ ولذلك يفسر المفسرون وغيرهم إحدى العبارتين بالأخرى، أو يبدلون ألفاظ إحداهما بألفاظ الأخرى أو مرادفاتها. ومن أمثلة ذلك قول القاسمي -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:54]: (وفسر الأمر بالقضاء والحكم)؛[3] وقول ابن القيم: (والأمر الكوني كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82)﴾[يس]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ(50)﴾[القمر]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)﴾[النساء]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا(21)﴾[مريم]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[الإسراء:16]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي. فإن الله لا يأمر بالفحشاء. والمعنى قضينا ذلك وقدرناه).[4]

- ويطلق الأمر التكويني عند المفسرين على معنيين: **أحدهما**: الأمر نفسه؛ أي قوله تعالى للشيء كن؛ كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82)﴾[يس:82]. قال مكي بن أبي طالب [5] في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:54]: (﴿الْخَلْقُ﴾: المخلوق. ﴿وَالْأَمْرُ﴾: هو كلامه الذي به تكون المخلوقات).[6] وليس شرطا أن

---

(1) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 182/8.

(2) اتظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 62/5؛ ابن منظور، لسان العرب، 36/12-39؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 718.

(3) محمد جمال الدين القاسمي ت 1332هـ-1914م، محاسن التأويل، تصحيح وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، د م ط، ط1، 1376هـ-1957م، 2751/7.

(4) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، د ت ط، ص 466؛ وانظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت 728هـ، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1425هـ-2004م، 411/2.

(5) هو أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي. ولد سنة 355هـ بالقيروان، ونشأ وتعلم فيها، ثم رحل في طلب العلم مرارا إلى مصر والحجاز، ثم إلى الأندلس، حيث أقام بقرطبة يشتغل بالتدريس والخطابة والتأليف إلى أن مات سنة 437هـ ودفن بالربض. من شيوخه: ابن أبي زيد القيرواني وأبو الحسن القابسي، ومن تلاميذه: محمد بن شريح الرعيني و محمد بن عيسى التجيبي، ومن مصنفاته: التبصرة في القراءات، ومشكل إعراب القرآن. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 4009، 384/13؛ السيوطي، بغية الوعاة، رقم 2018، 298/2؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 737، 274/5].

(1) أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي ت 437هـ، الهداية إلى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة من الباحثين رسائل جامعية تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ الشاهد البوشيخي، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1429هـ-2008م، 2398/2.

يكون بلفظة كن فقط، فقد يكون بغيرها كما في قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(11)﴾[فصلت]. **والآخر** : المأمور به؛ أي الشيء الذي أراد الله تكوينه. كما في قوله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل: 1]. قال ابن عاشور في تفسيرها: (والأمر: مصدر بمعنى المفعول، كالوعد بمعنى الموعود، أي ما أمر الله به).[1]

– واختلف المفسرون في الأمر التكويني الذي يوجهه الله عز وجل إلى ما يشاء إيجاده؛ هل هو على حقيقته كما هو المتبادر من ظواهر الآيات؟ أم أنه مجاز يراد به التمثيل بغرض تقريب المعنى لا أكثر؟ فقال فريق ما حاصله: هو أمر حقيقي يصدره سبحانه كما يليق به من غير تشبيه أو تكييف. وممن ذهب إلى هذا الرأي الطبري والقرطبي ومكي بن أبي طالب وابن كثير والبغوي[2] والسعدي وغيرهم. قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(117)﴾[البقرة: 117]: (فإنه يعني بذلك: وإذا أحكم أمرا فحتمه، فإنما يقول لذلك الأمر (كن)، فيكون ذلك الأمر على ما أمره الله أن يكون وأراده).[3] ودفعا لشبهة تشبيه الله عز وجل بالبشر والجن وغيرهم نفى أصحاب هذا القول أن يكون كلامه سبحانه مخلوقا أو مشابها لكلام المخلوقين. قال مكي بن أبي طالب في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾[الأعراف: 54]: (﴿وَالْأَمْرُ﴾: هو كلامه الذي به تكون المخلوقات، فهو غير مخلوق، وصفة من صفاته، كعلمه وقدرته، لا يشبه كلام المخلوقين، ولا يقدر فيه صوت ولا حروف؛ إنما هو كلام له صفة ذاته، فكما أنه تعالى لا شيء يشبهه، كذلك صفاته لا تشبهها صفة).[4] بينما يرى الفريق الآخر أن تلك الأوامر الإلهية ليست على ظاهرها، وأنها مجازا أريد به تمثيل توجه القدرة الربانية إلى إيجاد ما تعلقت إرادته تعالى بإيجاده لا غير. ومن أصحاب هذا الرأي الزمخشري [5] وابن عاشور وغيرهما. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى:

---

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 96/14.

(2) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفداء البغوي. مفسر مقرئ محدث فقيه. ولد سنة 433هـ في مدينة بغا وبها نشأ وطلب العلم، ثم انتقل إلى مرو الروذ فأخذ عن شيوخها ومن وفد إليها من العلماء. من شيوخه القاضي أبو علي الحسين بن محمد المروروذي وأبو بكر يعقوب بن أحمد النيسابوري، ومن تلاميذه محمد بن أسعد الطوسي ومحمد بن محمد الطائي، ومن مصنفاته شرح السنة ومصابيح السنة. توفي سنة 516 بمرو الروذ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 4657، 389/14؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 216، 250/11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 185، 136/2].

(3) الطبري، جامع البيان، 467/2.

(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 2398/2.

(1) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري. أديب لغوي نحوي مفسر فقيه متكلم مناظر مصنف معتزل العقيدة حنفي الفقه. ولد سنة 467هـ بزمخشر إحدى قرى خوارزم وبها نشأ وتعلم ثم رحل إلى بخارى وبغداد ومكة ودمشق وغيرها. من شيوخه نصر بن البطر، ومن تلاميذه الزين البقالي محمد بن أبي القاسم، ومن كتبه أساس البلاغة والفائق في اللغة. توفي سنة 538هـ بجرجانية خوارزم. [انظر

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(117)﴾[البقرة]: (﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة، أي أحدث فيحدث. وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم، كما لا قول في قوله: إذ قالت الأنساع للبطن الحق وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه، فـإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء).[1] ويزيد ابن عاشور رأيهم هذا إيضاحا مبينا فائدة ذلك التمثيل. (والمراد بقول (كن) توجه القدرة إلى إيجاد المقدور، عبر عن ذلك التوجه بالقول بالكلام كما عبر عنه بالأمر في قوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82)﴾[يس]، وشبه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبه انفعال الممكن لأمر التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر، وكل ذلك تقريب للناس بما يعقلون، وليس هو خطابا للمعدوم).[2] والراجح –في تقديري– هو الرأي الأول؛ لأن (القاعدة المقررة في الأصول: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه). [3] وخصوصا في المسائل الغيبية التي لا سبيل للإنسان إلى العلم بها ومعرفة حقائقها وكيفياتها باستعمال الحواس أو استنتاج العقل. وقد رد الطبري على أصحاب الرأي الثاني بأن لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم تأبى تأويلهم. قال –رحمه الله–: (فيقال لقائلي ذلك: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نفسه أنه إذا قضى أمرا قال له: (كن)، أفتنكرون أن يكون قائلا ذلك؟ فإن أنكروه كذبوا بالقرآن، وخرجوا من الملة، وإن قالوا: بل نقر به، ولكنا نزعم أن ذلك نظير قول القائل: قال الحائط فمال ولا قول هنالك، وإنما ذلك خبر عن ميل الحائط. قيل لهم: أفتجيزون للمخبر عن الحائط بالميل أن يقول: إنما قول الحائط إذا أراد أن يميل أن يقول هكذا فيميل؟ فإن أجازوا ذلك خرجوا من معروف كلام العرب، وخالفوا منطقها وما يعرف في لسانها. وإن قالوا: ذلك غير جائز، قيل لهم: إن الله تعالى ذكره أخبرهم عن نفسه أن قوله للشيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون، فأعلم عباده قوله الذي يكون به الشيء ووصفه ووكده. وذلك عندكم غير جائز في العبارة عما لا كلام له ولا بيان في مثل قول القائل: قال الحائط فمال. فكيف لم يعلموا بذلك فرق ما بين معنى قول الله: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 4866، 596/14؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 402، 697/11؛ أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م، رقم 212، ص 172].

(2) الزمخشري، الكشاف، 315/1.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 156/14.

(3) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ت 1393هـ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ، 730/4.

فَيَكُونُ(117)﴾[البقرة] ، وقول القائل: قال الحائط فمال؟).[1] والظاهر أن هذا الاختلاف في التفسير سببه اختلاف العقيدة؛ فالطبري[2] سلفي الاعتقاد، ولذلك أجرى الآية على ظاهرها مادام ذلك لا يمتنع نقلا ولا عقلا ولا حسا، جريا على الأصل؛ بينما الزمخشري أولها بما يتناسب مع عقيدته الاعتزالية التي تنفي الكلام عن الله سبحانه، وإن أدى ذلك إلى صرف الكلام عن ظاهره بغير موجب.

– ويدخل في هذا القسم (جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها)، [3] المرئية وغير المرئية، ما كان منها في الماضي، وما هو كائن في الحاضر وما سيكون في المستقبل؛ من الذرات فما دونها إلى المجرات فما فوقها. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(96)﴾[الصافات]. قال الرازي: (فثبت أن كل ما سوى الله تعالى مستند إلى إيجاده وتكوينه، وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدث دون محدث، أو ممكن دون ممكن، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم، وذلك هو المراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران:154]، وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه الله للانصاف).[4]

– ودلت نصوص الكتاب والسنة على كون تلكم الأوامر مسبوقة بعلم الله سبحانه وإرادته وكتابته لمقتضياتها في لوح المقادير قبل خمسين ألف سنة من خلق السماوات والأرض؛ [5] منها قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(70)﴾[الحج]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[السجدة:13]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[الأنعام: 112]، وقول النبي ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء).[6]

---

(1) الطبري، جامع البيان، 471/2.

(2) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري. رأس أهل الإسلام في التفسير والتاريخ، محدث فقيه لغوي صاحب مذهب من كبار أئمة الاجتهاد. ولد سنة 224هـ في آمل بطبرستان وحفظ فيها القرآن وتعلم بها ثم ارتحل في طلب العلم إلى بلاد شتى منها بغداد ومكة ومصر وغيرها. من شيوخه محمد بن حميد الرازي واسماعيل بن موسى السدي، ومن تلاميذه أبو القاسم الطبراني وأحمد بن كامل القاضي، ومن كتبه تاريخ الرسل والملوك وتهذيب الآثار. توفي سنة 310هـ في بغداد محاصرا من قبل الحنابلة ودفن في داره. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 2696، 291/11؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 70، ص 48؛ الذهبي، العبر، 460/1].

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 269.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 50/9.

(5) ابن القيم، شفاء العليل، ص 63.

(6) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم 2653، ص 1065، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

- ومن خصائص الأمر التكويني أنه لا يتأخر؛ فلا يمكن منعه أو تأجيله أو تغييره، فهو كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا(47)﴾[النساء]. قال ابن كثير [1] في تفسيرها: (أي: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع). [2] فهو يقع بالقدر الذي أراده سبحانه، وعلى الوجه الذي أراده، وفي الأجل الذي أراده. لا يتأخر عن ذلك طرفة عين ولا يتقدم مهما كانت قوة وحذر وحرص من يحاول منعه؛ لأنه سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16)﴾[البروج]. ومن مظاهر ذلك ما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من خبر موسى وفرعون؛ فإن فرعون علم من السحرة أن ملكه سيزول على يد غلام يولد من بني إسرائيل، فاستفرغ جهده وتدبيره، وبذل ماله وجاهه وسلطانه، واستنفر جنده وسحرته واستعان بكل ما يقدر عليه، و(احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته)،[3] فلم يجد ذلك عنه هباءة، وتم مراد الله تماما كما أراد؛ فالأسباب مهما كانت محكمة وقوية فإنها لن ترد أمرا قدر الله أن يكون.

- ومن خصائصه أيضا أنه منطو على حكمة ولا بد؛ لأن الله سبحانه لا يعبث؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(116)﴾[المؤمنون]. وقد ينص جل شأنه على الحكمة من أمره التكويني أحيانا، كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا(7)﴾[الكهف]، وقوله عز من قائل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك:2]، وقد يوفق المفسرين وغيرهم من العلماء لاستنباطها بإعمال العقل، كما فعل ابن عاشور [4] في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

---

(1) هو أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير الشافعي القرشي الدمشقي. إمام عالم مفسر محدث فقيه مؤرخ. ولد سنة 701هـ بقرية مجدل شرق بصرى، ثم انتقل إلى دمشق رفقة أخيه بعد موت والده، وفيها ختم حفظ القرآن الكريم ونشط في طلب العلم على كبار علماء عصره. من شيوخه أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ومحمد بن أحمد الذهبي، ومن تلاميذه محمد بن بهادر الزركشي وسعد الدين بن يوسف النووي، ومن كتبه اختصار علوم الحديث وشرح صحيح البخاري. توفي سنة 774هـ بدمشق. [انظر على سبيل المثال: الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 313، ص 260؛ الزركلي، الأعلام، 320/1؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، رقم 943، 373/1].

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 236/2.

(3) عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت 774هـ، البداية والنهاية، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط خاصة، 1436هـ-2015م، 7/2.

(4) هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور. مفسر فقيه أصولي مقاصدي مؤرخ أديب ناقد. ولد سنة 1296هـ-1879م في ضاحية المرسى قرب العاصمة التونسية. نشأ في بيت عريق في العلم، فجده لأبيه كان مدرسا ومفتيا وقاضيا ومؤلفا ونقيبا للأشراف، وأبوه كان رئيسا لدائرة جمعية الأوقاف، وجده لأمه هو العالم الوزير محمد العزيز بوعتور. أتقن حفظ القرآن في صغره، ثم اشتغل بحفظ المتون المختلفة كما هي عادة طلبة العلم في ذلك الوقت، ثم التحق بجامع الزيتونة فدرس فيه علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة والفقه المالكي وأصول الفقه والتاريخ والسيرة وغيرها. تولى مناصب علمية وإدارية كثيرة ومرموقة. من شيوخه أحمد بن بدر

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...﴾[الأعراف: 54]. قال رحمه الله: (وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدّرجا، وأن لا يكون دفعة، لأنه جعل العوالم متولدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا مما لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج).[1]وفي أحيان كثيرة لا ينص سبحانه عليها، ولا يتبين وجهها للمفسرين فتكون مما استأثر الله بعلمه، (ولو شاء خلاف ذلك لكان، ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك، الفعال لما يريد).[2]

- ومن خصائصه أيضا أن الله يريد مقتضاه إرادة كونية، وهي المرادفة لمعنى المشيئة، [3] كما يتضح من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(253)﴾[البقرة]، وهي إرادة شاملة لجميع الموجودات من غير استثناء، طاعات كانت أو معاصي، خيرا كانت أو شرا؛ ولكنه لا يكون دائما مما يحبه الله، بل يشتمل على محابه ومساخطه، كما تدل عليه هذه الآية. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّ قال: أخبرني عن القدر؟؛ قال: هُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[الأنعام:125]. والمطلوب من المؤمن أن يسلم لله في كل ما قدره خيرا كان أو شرا، وأن يعلم أن وراء ذلك حكمة بالغة -وإن جهلها-، وأن لا يخوض في أسبابه وعلله الخفية؛ فإن ذلك الخوض ربما قاده إلى الكفر.

- ولم يرد إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم أمر واحد من هذا القسم بطبيعة الحال.

المطلب الثاني: الأوامر الشرعية وأوضح مميزاتها

الكافي والعلامة سالم بوحاجب، ومن تلاميذه ابنه محمد الفاضل بن عاشور والشيخ محمد العيد آل خليفة، ومن مؤلفاته مقاصد الشريعة وكتاب أليس الصبح بقريب. توفي سنة 1394هـ-1973م بمسقط رأسه. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 173/6؛ منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، نبيل أحمد صقر، الدار المصرية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1422هـ-2001م، ص 6-11؛ اسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 1، 1416هـ-1995م، ص 75-89].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 161/8.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ت 671هـ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م، 258/4-259.

(3) انظر على سبيل المثال: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 412/2؛ ابن القيم، شفاء العليل، ص 465؛ محمد بن صالح العثيمين ت 2001م، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار ابن الهيثم، القاهرة، د ر ط ولا س ط، 554/8.

وهذا القسم من أوامر الله عز وجل يسمى عند المفسرين **بالأوامر الشرعية** ، أو **التشريعية** ، أو **الدينية** ، أو **التكليفية** ، كما يسمى أيضا **بالأحكام الشرعية**، أو **التشريعية**، أو **الدينية**، أو **التكليفية**.[1] وهو ثانيها وقوعا من حيث الترتيب الزمني؛ لأن الله جل شأنه إنما يوجه أوامره الشرعية إلى المكلفين من خلقه بعد إيجادهم وجعلهم مؤهلين لفهمها قادرين على تنفيذها. وهذا الترتيب هو مقتضى العقل الصحيح، وعليه دلت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4)الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5)وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(6)وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(8)وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(9)﴾[الرحمن]. فبعد أن نوه سبحانه بنعمة القرآن الكريم، الذي هو أعلى وحيه رتبة، ذكر خلق الإنسان الذي تم بأمره التكويني، منبها إلى ميزة من أعظم ما يميزه عن سائر الحيوان وهي النطق المعرب عما في نفسه، الممكن له من التواصل مع غيره، ثم ثنى –بعد– بذكر جملة من أعظم المخلوقات التي هي أيضا أثر أوامره الكونية، والتي تشترك مع القرآن الكريم في الدلالة على وحدانيته وكمال قدرته، ثم ثلث بأوامره الدينية؛ فأمر بالعدل في الميزان وهو أمر تشريعي، وذلك بالنهي عن ضده وهو الطغيان فيه، ثم أكده بالأمر بإقامة الوزن بالقسط وهو أمر شرعي أيضا، ثم أكده ثالثة –لشدة أهمية العدل– بالأمر بإتمامه وهو حكم تكليفي كذلك، وذلك بالنهي عن ضده وهو الإخسار. فتضمنت الآيات إشارة ظاهرة إلى أن الأوامر الدينية صدرت بعد الأوامر التكوينية؛ وعلى هذا الترتيب جرت أقوال المفسرين. قال السعدي في تفسير قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ(62)﴾[الأنعام]: (وهو الذي له **الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي**، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء).[2]

– **والأوامر الشرعية** –لغة– المنسوبة إلى الشرع؛ وهو مصدر الفعل شرع يشرع شرعا وشروعا. يقال شرع في الشيء إذا أخذ فيه. قال ابن فارس:[3] (الشين والراء والعين: أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه).[4] ومن ذلك الشريعة، وهي

---

(1) انظر على سبيل المثال: الزمخشري، الكشاف، 58/6؛ النسفي، مدارك التنزيل، 445/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 317/2، 22/6؛ محمد رشيد رضا، المنار، 417/8؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 565/1، 8أ/146؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 47، 131، 136، 166، 237، 269، 341، 423، 843.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 237.

(3) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي. لغوي نحوي فقيه شاعر. ولد في قزوين، ونشأ ودرس في همذان، ثم انتقل إلى الري بدعوة من فخر الدولة البويهي لتعليم ولده مجد الدولة، وبها مات سنة 390هـ. من تلاميذه: بديع الزمان الهمذاني والصاحب بن عباد، ومن شيوخه أبو الحسن القطان وأبو القاسم الطبراني، ومن مصنفاته المجمل في اللغة وفقه اللغة. [انظر على سبيل المثال: ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 49، 118/1؛ السيوطي، بغية الوعاة، رقم 680، 352/3؛ الزركلي، الأعلام، 193].

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 262/3.

مورد الشاربة الماء، واشتق منها الشرعة في الدين، والشريعة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة:48]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[الجاثية:18]. ويطلق الشرع والشروع في اللغة على معاني عديدة – على ما دلت عليه المعاجم– منها؛ فرض (بضم الفاء وفتح الراء) الماء التي تشرع فيها الواردة كما مر بنا آنفا، وتوجه الدواب نحو الماء، وكذلك دخولها فيه، فهي شُرُوع وشُرَّع، وتناول الماء بالفم، وظهور الشيء وتبينه، ومد العنق، وتوجيه الرمح، وشق الإهاب دون سائر أنواع السلخ الأخرى، وسن الأمر، والسواء؛ تقول: الناس في هذا الأمر شرع (بفتح الراء وسكونها)، أي سواء، وشراع السفينة، والكفاية، وغير ذلك مما فيه مد أو امتداد.(1) و**التشريعية**: المنسوبة إلى التشريع، وهو تفعيل من الشرع؛ والتشريع مصدر الفعل شرع يشرع (بتشديد الراء)، أي بين؛ تقول: شرع الطريق: أي بينه. كما يطلق التشريع لغة على إيراد الإبل شريعة لا يحتاج معها إلى النزع بالعلق ولا السقي في الحوض. (2) و**الدينية**: المنسوبة إلى الدين (بكسر الدال وتشديده)، وهو مصدر الفعل دانه يدينه، أي جازاه وكافأه، وجمعه أديان. ومنه قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4)﴾[الفاتحة]. قال الزمخشري: (ويوم الدين: يوم الجزاء).(3) ويطلق أيضا في اللغة على الملة، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء، والعادة، والشأن، والعبادة، وما كان من الأمطار مواضبا، أو يتعاهد موضعا يصيبه باستمرار، وكذلك ما كان منها لينا، والطاعة، والذل، والملك، والسلطان، والقهر، والحكم، والخدمة والإحسان. تقول: دنته أدينه، أي خدمته وأحسنت إليه. قال ابن فارس: (الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد والذل). (4) والله أعلم.(5) و**التكليفية**: المنسوبة إلى التكليف، وهو مصدر الفعل كلفه يكلفه (بفتح اللام وتشديده)، أي أمره بما يشق عليه؛ ومنه قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: 286]. قال القاسمي: (أي: لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه).(6) والاسم منه

---

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ت 395هـ، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1406هـ–1986م، 526/1؛ ابن منظور، لسان العرب، 59/8؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 262/3؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 169–170؛ الفيروزبادي القاموس المحيط، ص 732–733.

(2) الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 733.

(3) الزمخشري، الكشاف، 115/1.

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 319/2.

(5) الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1198؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 113–114؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 319/2–320؛ ابن فارس، مجمل اللغة، ص 342؛ كافي الكفاة الصاحب اسماعيل بن عباد 385هـ، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ–1994م، 360/9–361.

(6) القاسمي، محاسن التأويل، 729/3.

الكلفة، وهي ما يتكلفه الإنسان إذا نابته نائبة، أو وجب عليه حق يؤديه. [1] وأما **اصطلاحا** فالأوامر الشرعية هي نفسها الأحكام الشرعية؛ ولذلك يشرح المفسرون وغيرهم إحدى العبارتين بالأخرى، أو يبدلون ألفاظ إحداهما بألفاظ الأخرى أو مرادفاتها، تماما كما أشرنا في المطلب السابق عند الحديث عن الأوامر الكونية والأحكام الكونية. ومن أمثلة ذلك قول ابن قيم الجوزية: (وأحكامه جارية على خلقه قدرا وشرعا. ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري، وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين... وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي فيما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور. وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي). [2] وقد عرف العلماء الحكم الشرعي بأنه: (حكم الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين)؛[3] ولذلك يمكننا تعريف الأوامر الشرعية بأنها: (أوامر الله عز وجل المتضمنة أحكامه المتعلقة بأفعال المكلفين).

- ويطلق الأمر الشرعي عند المفسرين على معنيين: **أحدهما**: الأمر نفسه؛ أي كلام الله سبحانه الموجه إلى المكلف المتضمن الأمر المراد منه تنفيذه؛ قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[مريم:64]: (فتأويل الكلام إذا: فلا تستبطئنا يا محمد في تخلفنا عنك، فإنا لا نتنزل من السماء إلى الأرض إلا بأمر ربك لنا بالنزول إليها). **والآخر**: المأمور به؛ أي ما توجه به الطلب من الله تعالى إلى العبد لينفذه. كما في قوله سبحانه: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[الأعراف:150]. قال ابن عاشور مفسرا لها: (والأمر يكون بمعنى التكليف وهو ما أمرهم الله به).[4] وقد يتوسع البعض فيطلقها على أكثر من المعنيين المشار إليهما كما صرح الألوسي. [5] قال رحمه الله: (والأمر القول الطالب للفعل مع علو عند المعتزلة أو استعلاء عند أبي الحسين، ويفسدهما ظاهر قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الأعراف:110]، ويطلق على التكلم بالصيغة وعلى نفسها، وفي موجبها خلاف، وهذا هو الأمر الطلبي).[6]

---

(1) الرازي، مختار الصحاح، ص 284؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 850؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 136/5؛ ابن منظور، لسان العرب، 100/13-101.

(2) ابن القيم، شفاء العليل، ص 464؛ وانظر: ابن تيمية، الفتاوى، 411/2.

(3) الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص 82.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 115/9.

(7) هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي، الملقب بالألوسي الكبير تمييزا له عن غيره من العلماء المنحدرين من أسرته الحاملين لهذه النسبة. فقيه محدث مفسر خطاط شاعر. ولد سنة 1217هـ-1803م في بغداد، وبها نشأ وتعلم حتى غدا إمام عصره. اشتغل بالتأليف والتدريس والإفتاء. من شيوخه: والده العلامة عبد الله الألوسي والشيخ خالد النقشبندي، ومن تلاميذه نجله النعمان الألوسي وصالح بن يحيى الموصلي، ومن كتبه دقائق التفسير وكشف الطرة عن الغرة. مات ببغداد سنة 1270هـ-1854م. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 176/7؛ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 250/1؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 16629، 515/3].

(1) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت 1270هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، 212/1.

- ويكون الأمر إلى المكلف أو المكلفين بقوله تبارك وتعالى، أي بكلامه، وعلى ذلك يدل ظاهر نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)﴾[الأعراف]، وقول النبي ﷺ: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير،...).[1]

- ويتم توجيه الأمر إلى المكلفين إما مباشرة كما حصل مع الملائكة حين طلب منهم -سبحانه- السجود لآدم عليه السلام. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ(71)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(72)﴾[ص]، وكما حصل مع موسى عليه السلام عندما أمره بخلع نعليه وعبادته وإقامة الصلاة لذكره وإلقاء عصاه وغيرها من الأوامر الإلهية. قال جل شأنه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(11)إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(12)وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(13)إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14)...﴾[طه:11-14]، وكما وقع مع إبليس يوم أمره بالخروج من الجنة. قال عز وجل: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(77)وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(78)قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(79)﴾[ص:77-79]، أو بإرسال رسول إلى المكلفين بأن يفعلوا شيئا ما أو يقولوه أو يعتقدوه، أو بالإلهام، كما وقع مع أم موسى عليه السلام. قال الله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7)﴾[القصص].

- والرسول إما أن يكون من الملائكة وإما أن يكون من البشر كما بين الله في كتابه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(75)﴾[الحج:75]؛ أما الجن فاختلف المفسرون وغيرهم في شأنهم؛ فقال بعض بإرسال رسل منهم؛ ومن هؤلاء الضحاك[2] ومقاتل. ونفى الأكثرون ذلك عنهم؛ ومن أصحاب هذا الرأي مجاهد وابن جريج، والفراء، والزجاج، وابن كثير والبيضاوي وغيرهم. وليس في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة نص صريح يحسم هذا الخلاف،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(23)﴾[سبأ]، رقم 4800، ص890، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) هو التابعي الجليل أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني. كان يقيم في بلخ وسمرقند. من أوعية العلم في التفسير والفقه والقصص والأخبار، وحديثه في السنن. روى عن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك رضي الله عنهم، وعن سعيد بن جبير وطاووس بن كيسان وعطاء وغيرهم من كبار التابعين، واختلف في لقياه ابن عباس رضي الله عنهما. حدث عنه عمارة بن أبي حفصة ومقاتل وغيرهما. توفي سنة 102هـ في خراسان. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 605، 481/5؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 100، 63/3؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 14، ص 10].

ولكن ظاهر قوله سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾[الأنعام:130] يقوي قول الفريق الأول، والله أعلم.(1)

– ومن أمثلة إرسال الله الملائكة بأوامره الشريفة توجيههم سبحانه إلى لوط عليه السلام بالإسراء بأهله ليلا قبل الصبح الذي هو موعد إهلاك أهله. قال جل وعلا: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(81)﴾[هود]، ومن نماذج إرساله جل جلاله البشر –وهي كثيرة في القرآن الكريم– ما قصه سبحانه من خبر موسى مع قومه في قصة البقرة، والتي تبتدئ بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[البقرة:67].

– وأشهر الرسل من الملائكة جبريل عليه السلام، (وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة). (2) أي: تبليغ وحي الله تعالى إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (97)﴾[البقرة]؛ وقال أيضا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193)عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(194)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(195)﴾[الشعراء:193–195]؛ وأشهرهم من البشر الخمسة أولوا العزم، وهم نبينا محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام جميعا، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)﴾[الأحزاب:7]، وقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:13]. وقد بلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة. روى أحمد في مسنده من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/560–562؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 13/205–206؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9/31–32؛ الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 2/157–158؛ أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي ت 982هـ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د ر ط ولا ت ط، 2/284؛ أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت 597هـ، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، ط 3، 1404هـ–1984م، 3/125؛ النسفي، مدارك التنزيل، 1/537–538؛ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت 450هـ، النكت والعيون، مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، 2/170؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت 1250هـ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ–2007م، ص488.

(2) عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة الأبرار، مكتبة الفلاح، الكويت، ط3، 1403هـ–1983م، ص 40.

رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: (آدم)، قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: (نعم، نبي مكلم)، قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: (ثلاثمائة وبضعة عشر جلم غفيرا)، وقال مرة: (وخمسة عشر).[1]

– وهذا القسم من الأوامر هو الذي أمر الله عباده بامتثاله وحذرهم من مخالفته أو التهاون فيه؛ [2] أما قسيمه الذي مضى الحديث عنه في المطلب السابق فلا خيار لهم في طاعته أو تنفيذه؛ لأنه نافذ فيهم شاؤوا أم أبوا، شعروا أو لم يشعروا.

– ومن خصائص هذا القسم أنه محبوب كله لله، مراد له إرادة دينية شرعية، مرضي منه لعباده. قال ابن تيمية: (والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعا ودينا. وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[الأنعام:125]).[3]

– ومن خصائصه أيضا أن المكلفين يحاسبون على مواقفهم مما ورد فيه يوم القيامة، فمن قابل ما فيه بالطاعة فاز بالثواب، ومن قابله بالعصيان نال العقاب. قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)﴾[الأعراف: 6]: (يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟).[4]

– ومن خصائصه أيضا أنه سبب لنيل ألوان شتى من المنافع البدنية والمادية، وأنواع من الكمالات الروحية والنفسية في الدنيا لمن عمل بما فيه مكافأة عاجلة له من الله سبحانه؛ (لأن أوامره ونواهيه، تزكي النفوس، وتطهرها وتنميها وتكملها، لاشتمالها

---

(1) رواه أحمد في مسنده، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، رقم 21879، و21885، ص 1572-1573، ومن حديث أبي أمامة عن أبي ذر رضي الله عنها، رقم 22644، ص 1632؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ-2003م، باب في الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم، رقم131، 278/1-279؛ وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري ت 405هـ، في المستدرك على الصحيحين، الدار العثمانية، عمان، الأردن، ط 1، 1428هـ-2007م، كتاب التفسير، 332/2، وصححه؛ وصححه الألباني في تحقيقه مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1399هـ-1979م، ص 1599؛ وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، دار الوفاء، جمهورية مصر العربية، ط2، 1426هـ-2005م، 104/1.

(2) انظر: الكشاف، الزمخشري، 78/6؛ محمد سيد طنطاوي ت 1431هـ-2010م، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار الرسالة، ط 3، 1407هـ-1987م ، 368/14.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 266/11؛ وانظر: شفاء العليل، ابن القيم، ص 465.

(4) الطبري، جامع البيان، 64/10.

على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله)،[1] كما أنه جل وعلا (إذا قام عبده بأوامره ، وامتثل طاعته ، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء ، وفي أعماله زيادة توفيق).(2)

– ومن خصائصه أيضا أن الأوامر الواردة فيه ليست على درجة واحدة، بل هي درجات متفاوتة. قال السعدي في تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة النساء: (﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها...).(3) فالأمر بأركان الإيمان الكبرى أعظم من الأمر بالفرائض التي دونها، وهذان أعظم من الأمر بالسنن والمستحبات، وبناء على هذا التفاوت اختلفت درجة إثم المخالف للأمر ومقدار عقوبته على حسب درجة الأمر الذي خالفه؛ ومن ثم قسم علماء التفسير وغيرهم مقتضيات الأمر إلى وجوب وندب وإباحة، كما قسموا أغراضه إلى تهديد وإهانة وتعجيز وإرشاد وإكرام وامتنان وغيرها.

– ومما يميزه عن القسم السابق أنه قد يقع وقد لا يقع، فالناس مأمورون بالإيمان ولكن منهم من آمن ومنهم من كفر،

ومأمورون بالصلاة، ولكن منهم من يصلي ومنهم من لا يصلي، وهلم جرا مع جميع الأوامر الدينية؛ لأن الله جل شأنه لا يكره أحدا على طاعة ولا على معصية حتى يتحمل كل مكلف مسؤولية قراره واختياره، ليبلغ الامتحان بخلق الموت والحياة غايته.

قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(**99**)﴾[يونس].

– وأعظم ما أمر الله به النبي ﷺ والمكلفين **عامة** هو توحيده سبحانه.[4] قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد:19]؛ لأن (هذا العلم الذي أمر الله به –وهو العلم بتوحيد الله– فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك)؛[5] ولذلك كان الأمر به هو المهمة الرئيسية والمشتركة بين جميع الرسل لجميع الأمم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:36]. وأما أعظم أمر وجهه –جل شأنه– إلى نبيه محمد ﷺ **خاصة** فهو تكليفه بتبليغ ما أنزله عليه من الوحي الخاتم؛ وهو الأمر الوارد في قوله

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 443.

(2) المرجع السابق، ص 62.

(3) المرجع السابق، ص152.

(4) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 23/1؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وتخريج وتعليق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، بيروت-دمشق، ط 1، 1428هـ-2007م، 422/3؛ محمد بن عبد الوهاب ت 1206هـ، الأصول الثلاثة وأدلتها، وزارة التعليم العالي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1423هـ، ص 7؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص152؛ ابن عثيمين، الفتاوى، 33/6.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص753.

جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67)﴾[المائدة]. قال السعدي في تفسير هذه الآية: (هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه . ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية ، والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين).[1]

- وجميع الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم من هذا القسم.

المطلب الثالث: الأوامر الجزائية وأبرز سماتها

وهذا القسم من أوامر الله عز وجل يسمى عند المفسرين **بالأوامر الجزائية** أو **الأحكام الجزائية**.[2] وهو ثالثها وقوعا من حيث الترتيب الزمني؛ لأن الله جل شأنه إنما يوجه أوامره الجزائية بالثواب والعقاب إلى المكلفين من عباده بعد إيجادهم بأوامره الكونية واختبارهم بأوامره الشرعية، فمن أطاعه نعمه ومن عصاه عذبه. وهذا الترتيب -كما أشرنا من قبل- هو مقتضى العقل الصحيح، وعليه دلت النصوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(6)وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(7)وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا(8)وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا(9)وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(11)وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا(12)وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا(13)وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا(14)لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا(15)وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا(16)إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا(17)يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا(18)وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا(19)وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا(20)إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(21)لِلطَّاغِينَ مَآبًا(22)لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا(23)لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا(24)إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا(25)جَزَاءً وِفَاقًا(26)إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا(27)وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا(28)وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا(29)فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا(30)إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(31)حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا(32)وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا(33)وَكَأْسًا دِهَاقًا(34)لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا(35)جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا(36)﴾[النبأ]. فبين سبحانه أنه خلق البشر ذكورا وإناثا -بأمره التكويني- وخلق لهم كل ما تقوم به حياتهم ويستمر به نوعهم إلى أن يحين وقت الفصل بينهم -وهو يوم القيامة ذو الأهوال الشداد- وعندئذ سينال الطغاة الذين عصوا أوامره الشرعية في الدنيا جزاءهم الوفاق بإلقائهم في عذاب جهنم أحقابا من الدهور المتطاولة، ويظفر التقاة الفائزون بالحدائق والأعناب والكواعب الأتراب في جنات النعيم جزاء طاعتهم أوامره الشرعية في حياتهم الدنيا. فتضمنت هذه الآيات إشارة ظاهرة إلى أن الأوامر الجزائية تكون بعد الأوامر التكوينية

---

(1) المرجع السابق، ص217.

(2) انظر على سبيل المثال: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 53، 55، 269، 485، 497، 667، 676، 749، 759، 790، 794.

والدينية؛ وعلى هذا الترتيب جرت أقوال المفسرين وغيرهم. ومن ذلك قول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14)﴾[الفتح]: (أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية).[1]

- **والأوامر الجزائية** -لغة- المنسوبة إلى الجزاء؛ وهو مصدر الفعل جزى فلان فلانا يجزيه، أي كافأه، وكذلك جازاه يجازيه مجازاة. فالجزاء معناه المكافأة؛ سواء كانت ثوابا أو عقابا. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(39)وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى(41)﴾[النجم] . ويطلق الجزاء في اللغة أيضا على القضاء. تقول: جزيت فلانا حقه، أي قضيته. ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾[البقرة:123]. قال الطبري في تفسيرها: (يقول الله لهم: واتقوا يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرفين تأويله عن وجهه، المكذبين برسولي محمد ﷺ، عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا، ولا تغني عنها غناء).[2] والله أعلم.[3] وأما **اصطلاحا** فالأوامر الجزائية هي نفسها الأحكام الجزائية؛ ولذلك يفسر المفسرون وغيرهم إحدى العبارتين بالأخرى. وقد عرف الكفوي الجزاء بأنه (المكافأة على الشيء)،[4] وقال ابن عاشور في معرض حديثه عن الجزاء يوم القيامة: (معاملة العامل بما يعادل أعماله المجزي عليها في الخير والشر وذلك العدل الخاص).[5] ومن ثم يمكننا تعريف الأوامر الجزائية بأنها: (أوامر الله عز وجل المتضمنة مكافأة العامل على أعماله المجزي عليها في الخير والشر).

- ويطلق الجزاء في القرآن الكريم وفي كلام المفسرين على معنيين: أحدهما إثابة الله المحسنين، والآخر معاقبته تعالى للمسيئين.[6] قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(31)﴾[النجم].

- ودلت نصوص القرآن الكريم والسنة المشرفة على أن جزاء الله للمكلفين على ما يصدر عنهم من الشر والخير يكون في الحياة الدنيوية وفي الحياة البرزخية ويوم الحساب. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(15)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ

---

(1) المرجع السابق، ص 758-759.

(2) الطبري، جامع البيان، 497/2.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 143/3؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 59.

(4) الكفوي، الكليات، ص 356.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 177/1.

(6) انظر: الألوسي، روح المعاني، 414/1؛ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت516هـ، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط1، 1409هـ، 53/1.

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(16)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(17)﴾[سبأ]، وقوله جل وعلا: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45)النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46)﴾[غافر]. لكن الجزاء في الحياة الدنيوية يكون جزئيا كما قال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21)﴾[السجدة]، وكذلك في حياة البرزخ؛ أما الذي يكون بعد البعث والنشور فهو الجزاء الأوفى الذي تبلغ دقته المكافأة بالذرات. قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8)﴾[الزلزلة].[1]

– ومن نماذج الأوامر الجزائية الموجهة إلى المكلفين في الحياة الدنيا الأمر بالضحك والبكاء في قوله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(81)فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82)﴾[التوبة]، والأمر بالكينونة قردة خاسئين في قوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65)﴾[البقرة].

– ومن نماذج الأوامر الجزائية الموجهة إلى المكلفين في الحياة البرزخية ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ... فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ يقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، **فأفرشوه** من الجنة، **وألبسوه** من الجنة، **وافتحوا** له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره ...). هذا بالنسبة إلى المؤمن الذي أطاع أوامر الله الشرعية في الدنيا؛ أما من عصاها فقد جاء في شأنه –كما في تتمة الحديث الآنف: (... وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة سود الوجوه ... ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ يقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب، **فأفرشوا** له من النار، **وافتحوا** له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ...).[2]

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 592/1؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص142.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم 4753، ص 713-714؛ وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي ت 303هـ، في سنن النسائي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، د ت ط، كتاب الجنائز، باب الوقوف للجنائز، رقم 2001، ص 320؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجلوس في المقابر، رقم 1548، و1549، ص272؛ وسليمان بن

– ومن نماذج الأوامر الجزائية الموجهة إلى المكلفين في الحياة الآخرة الأمر بالانطلاق للكافرين والأكل والشرب للمؤمنين في قوله عز وجل: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(29)انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ(30)لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ(31)﴾[المرسلات]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41)وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(42)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(43)إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(44)﴾[المرسلات].

– وفي الأمر الجزائي شبه بالأمر الكوني من حيث وقوعه فهو كائن ولا بد، ولا يسع أحدا أن يرفض الامتثال له أو يتأخر في تنفيذه. قال تعالى واصفا أحوال الخلائق يوم الحساب والجزاء: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[طه:111]، وفيه شبه بالأمر الشرعي من حيث أنه لا يوجه إلا إلى العقلاء. فهو يتوجه إلى البشر سواء كانوا مجرمين كما في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(14)أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ(15)اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(16)﴾[الطور]، أو كانوا مؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ(17)فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(18)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(19)﴾[الطور]، أو إلى الجن –ومعهم الإنس– كما في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33)﴾[الرحمن]. قال السعدي: (أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال: ... الآية).[1]

– ويرد ذكر الجزاء بالثواب كثيرا في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة لتحفيز المؤمنين وتنشيطهم على العمل الصالح والاستمرار فيه، كما يرد ذكر الجزاء بالعقاب تحذيرا من الوقوع في الكفر والمعاصي أو الاستمرار فيها. وأحيانا يذكر أو يوعد به مجملا من غير تفصيل لتذهب النفس كل مذهب في تخيله وتوقع تفاصيله، فتزداد إحسانا إن كان الجزاء خيرا، وحذرا إن كان شرا.[2]

داود بن الجارود الطيالسي ت 204هـ، في مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر، د م ط، ط 1، 1419هـ–1999م، رقم 789، 2/114–119؛ وأحمد في مسنده، رقم 18733، ص1334، واللفظ له؛ وأبو بكر محمد بن الحسين الآجري ت 360هـ، في الشريعة، تحقيق: الوليد بن محمد بن نبيه سيف النصر، مؤسسة قرطبة، د م ط ولا ر ط، 1417هـ – 1996م، باب ذكر الإيمان والتصديق بمسألة منكر ونكير، رقم 919، 2/190–192؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، رقم 107، 1/48–49، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)؛ وصححه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية ت 751هـ، في إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1423هـ، 2/308؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في أحكام الجنائز وبدعها، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1412هـ–1992م، ص 202.

(1) السعدي، تيسير الكريم المنان، ص794.

(2) المرجع السابق، ص84، 134.

- وجميع الأوامر الجزائية الواردة في القرآن موجهة إلى الثقلين -الجن والإنس- ولم يرد منها شيء إلى الملائكة مع أنهم مكلفون. والسبب في ذلك ظاهر -والله أعلم- وهو أنهم جبلوا على الطاعة فهي تصدر منهم كما تصدر الأنفاس من البشر دون أدنى مشقة، ، ولم يبتلوا بقابلية صدور المعصية منهم فيعانوا مشقة الامتناع منها. ولذلك لم يخصوا بجزاء من ثواب في جنات النعيم أو عقاب في الجحيم. وحسبهم أنهم (عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية)، (1) (وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره)، (2) كما قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ(26)لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(27)يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(28)وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(29)﴾[الأنبياء]. وقد دلت الآية على قابليتهم للجزاء بالعقوبة لو صدر منهم -افتراضا- ما يستدعيه.

- والأجزية بالثواب في الآخرة -وإن تساوت الأوامر بها من جهة مصدرها- غير متساوية لاختلاف الأعمال من جهة ولتفاوت العمل الواحد بين العاملين نية وإتقانا وإخلاصا واتباعا وأحوالا. يدل على ذلك نصوص شرعية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(10)مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ(11)﴾[الحديد]، وقول النبي ﷺ: (سبق درهم مائة ألف درهم) قالوا: وكيف؟ قال: (كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها). (3) وبهذا المعنى تواترت أقوال المفسرين؛ ومنها قول القرطبي (4) في تفسير قوله تعالى:

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 236/5.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 494.

(3) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب جهد المقل، رقم 2527، ص393، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده، رقم 8916، ص629؛ وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ت 311هـ، في صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، د ر ط، 1400هـ-1980م، رقم2443، 99/4، وحسنه محققه؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت 458هـ، في السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ-2002م، كتاب الزكاة، باب كراهية إمساك الفضل وغيره محتاج إليه، رقم 7779، 305/4؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، رقم 1519، 547/1، وصححه؛ والأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت 739هـ، في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ-1993م، كتاب الزكاة، باب صدقة التطوع، رقم 3347، 135/8، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه محققه؛ وحسنه أيضا محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت دمشق، ط1، 1405هـ-1984م، رقم 119، ص 75-76.

(4) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الخزرجي الأنصاري الأندلسي القرطبي. مفسر فقيه لغوي محدث أصولي متبحر في العلوم متقن لفنونه. ولد أواخر المائة السادسة الهجرية ونشأ في قرطبة فحفظ القرآن الكريم ثم جد في طلب العلم على أيدي علمائها المتوافرين، ومنهم

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ(45)﴾[البقرة]: (وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدا فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:160]، وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ... الآية﴾[البقرة:261]، وجعل أجر الصابرين بغير حساب، ومدح أهله فقال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وقال : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى:43]).[1] ولذلك تفاوتت درجات الجنة تفاوتا يقصر العقل عن تصوره. قال النبي ﷺ: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس). [2] ويطرد هذا التفاوت أيضا بالنسبة للأجزية بالعقاب. فمن كفر أو أشرك بالله، وقامت عليه الحجة، ومات على ذلك جوزي بالخلود في النار كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)﴾[البينة]. وهؤلاء -وإن كانت جهنم مأواهم جميعا- درجات عذابهم فيها

الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي الشهير بابن أبي حجة والشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري الشهير بابن قطرال وغيرهما إلى أن سقطت في أيدي النصارى سنة 633هـ فارتحل إلى مصر حيث واصل التحصيل على أيدي علمائها، ومنهم بهاء الدين أبو الحسن اللخمي ورشيد الدين عبد الوهاب وغيرهما. ظل في مصر منشغلا بالتعلم والتعليم والتأليف والإفتاء والعبادة إلى أن وافاه أجله في صعيدها سنة 671هـ. من تلاميذه ابنه شهاب الدين أحمد القرطبي، ومن مصنفاته التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة والكتاب الأسنى في أسماء الله الحسنى.[انظر على سبيل المثال: ابن فرحون، الديباج المذهب، رقم 549، ص 406؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 584/7؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 295، ص 246].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 67/2.

(2) أخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت 279هـ، في سنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د ت ط، كتاب صفة الجنة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، رقم2531، ص570؛ وأحمد في مسنده، رقم 23118، ص1670، واللفظ له؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، رقم267، 105/1، وصححه، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجة ت 272هـ، في سنن ابن ماجة، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د ت ط، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم 4331، ص718 من حديث معاذ بن جبل؛ وأبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر ت 571هـ، في تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت؛ لبنان، د ر ط، 1415هـ-1995م، 222/65 من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، د ر ط، 1415هـ-1995م، رقم 922، 591/2؛ وصححه شعيب الأرنؤوط في تخريج مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج: جماعة من الأساتذة تحت إشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2001م، رقم 22695، 369/37.

مختلفة اختلافا كبيرا. يدل على ذلك نصوص شرعية شتى؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46)﴾[غافر]. فدلت الآية على أن عذاب جهنم فيه الشديد والأشد. وقال النبي ﷺ عندما سأله عمه العباس رضي الله عنه عن عمه أبي طالب الذي مات على الشرك: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال ﷺ: (هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار).[1] فدل الحديث على أن جهنم دركات متفاوتة السفل والعلو ، وأن المعذب فيها كلما كانت درجته أكثر سفولا كان عذابه أشد . وأما المعاصي التي دون الكفر والشرك فلا شك في تفاوت عقوباتها -بالنسبة لمن لم يغفر له- شدة ومدة على حسب أعدادها ومقاديرها وأحوال مرتكبيها؛ لأن ذلك مقتضى عدل من ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:40]. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47)﴾[الأنبياء].

- ولم يتوجه إلى النبي ﷺ من هذا القسم شيء من الأوامر في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: صيغ الأمر وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم

نعم الله على الإنسان لا يقدر اللسان أن يحصرها عدا، ولا يمكن القلم أن يرسم لها حدا، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم: 34]. ومن أعظمها فضلا وأحقها شكرا نعمة البيان. قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4)﴾[الرحمن]. فاللغة هي أداة التواصل الكبرى بين الناس في كل المجتمعات منذ سكن الأرض آدم وبنوه؛ بها يعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم، ويصفون حاجاتهم، ويطلبون احتياجاتهم. والعربية من أعرق تلك اللغات وأفصحها، بل هي متميزة عن سواها بوفرة كلماتها وتنوع صيغها وأساليبها، و(بما أن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين فلا بد أن يكون قد جاء في صيغته ومعناه على النحو الذي جرت به عادة العرب في الفهم والإفهام)؛[2] ولذلك توجب على كل ساع إلى دراسته وفهمه أن يعلم تلك الصيغ والأساليب ويسير على ضوئها حتى يبلغ غايته. قال ابن عاشور: (إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم).[3] فما صيغ الأمر التي جرت عليها عادة العرب في توجيه

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم 3883، ص703؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم 209، ص 114.

(2) محمد عابد الجابري، الصيغ اللغوية والمقاصد الاستعمالية، مقال كان منشورا يوم 2018/07/28 بموقع llhttp://www.aljabriabed.net/umumkhusus9.htm

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 18/1.

أوامرهم؟ وهل وردت كلها في القرآن الكريم؟ وهل تكافأ ورودها؟ وما هي أفعال الأمر التي توجهت إلى النبي ﷺ بناء على تلك الصيغ؟ وهل من إشارات نلتقطها عند النظر فيها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: صيغ الأمر في اللغة العربية ومدى حضورها في القرآن الكريم

المطلب الثاني: أفعال الأمر الموجهة من الله تعالى إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم

المطلب الأول: صيغ الأمر في اللغة العربية ومدى حضورها في القرآن الكريم

دل استقراء كلام النحويين في كتبهم على أن للأمر في اللغة العربية أربع صيغ معبرة عنه؛ وهي فعل الأمر، واسم فعل الأمر، والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، والمصدر النائب عن فعله.[1]

- **فأما صيغة فعل الأمر:** فهي الأكثر حضورا في القرآن الكريم، إذ لم تخل منها سورة من أوله إلى النازعات، ثم غابت من ثماني عشرة سورة من الخمس والثلاثين الباقية، وهي: عبس والتكوير والانفطار والانشقاق والبلد والشمس والليل والتين والقدر والبينة والزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهمزة والماعون والمسد.[2] وهي (الأكثر استعمالا في لسان العربية).[3] وقد صدر من الله عز وجل إلى نبيه ﷺ بهذه الصيغة في القرآن الكريم خمسة وثمانون أمرا؛ منها ما ورد في موضع واحد فقط من الكتاب، كالأمر بالنحر فإنه لم يرد إلا في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)﴾[الكوثر]؛ ومنها ما ورد مرتين فحسب، كالأمر بالقراءة، فهو لم يرد إلا في موضعين كلاهما في سورة العلق، في قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)﴾[العلق]؛ ومنها ما ورد مرارا. وأكثرها عددا الأمر بالقول (قل). فقد ورد اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مرة، واستحوذ على فصلين كاملين من بحثي هذا. وأكثر أهل العلم على أن صيغة (افعل) هي الصيغة الأصلية للأمر، أي أنها قائمة بذاتها غير متولدة من غيرها. قال الزركشي:[4] (وقد اختلف النحويون في أصل فعل الأمر هل هو (افعل) أو

---

(1) انظر على سبيل المثال: تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، د م ط، ط1، 1420هـ-2000م، 139/4؛ عباس حسن، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، دار المعارف، مصر، ط3، 1974م، 366/4؛ أحمد مختار عمر ومصطفى النحاس زهران ومحمد حماسة عبد اللطيف، النحو الأساسي، ذات السلاسل، الكويت، ط4، 1414هـ-1994م، ص 179.

(2) محمود توفيق محمد سعد، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، ص 34-35.

(3) المصدر السابق، ص32.

(4) هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري الشافعي. محدث مفسر فقيه أصولي من أصل تركي. ولد في مصر سنة 745هـ-1344م، وفيها طلب العلم حتى غدا علما من نوابغه ثم درس وصنف وأفتى. من شيوخه جمال الدين الأسنوي وسراج الدين بن البلقيني، ومن تلاميذه شمس الدين البرمادي ونجم الدين بن حجي الدمشقي، ومن كتبه البحر والروضة. توفي بالقاهرة سنة 794هـ. [انظر على سبيل المثال: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، رقم 1059، 397/3؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 572/8؛ أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد، تقي الدين بن قاضي شهبة الدمشقي ت 1377هـ، طبقات الشافعية، صححه وعلق

(ليفعل)؟ ...وذهب الأكثرون إلى أن الأصل (افعل) لأنه يفيد المعنى بنفسه بلا واسطة). [1] وكثيرا ما يطلق عليها المفسرون وغيرهم عبارة (صيغة افعل) كقول القرطبي في تفسيره: (... وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور ... من أن صيغة (افعل) للوجوب في أصل وضعها)،[2] وقول ابن عاشور في تفسيره: (وهذا غالب أحوال صيغة (افعل) إذا جاءت ...)، [3] وغيرهما. وليس المقصود خصوص ما كان من أفعال الأمر من الثلاثي الذي على وزن (افعل) بكسر الهمزة وسكون الفاء وفتح العين، مثل قوله تعالى –على لسان إبراهيم عليه السلام–: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا﴾[البقرة:126]، بل كل أفعال الأمر التي على هيئة افعل؛ سواء كان ماضيها ثلاثيا أو رباعيا أو خماسيا أو سداسيا، ولا تكون بهذه الصيغة إلا للمخاطب،[4] كقوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾[الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(43)﴾[آل عمران]، وقوله عز وجل: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ(44)﴾[طه]، وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾[المجادلة:11]، وقوله عز من قائل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(32)وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[الأحزاب:32-33].

– **وأما اسم فعل الأمر**: فهو (ضرب من الكلمات تنوب عن الفعل في العمل، ولا تتأثر بالعوامل، وليست من الفضلات)،[5] أي أنها تؤدي مؤداه ولا تقبل علامته؛ مثل: هلم وآمين وصه وغيرها. ومن هذه الصيغة قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا(18)﴾. قال ابن عاشور: (و﴿هَلُمَّ﴾ اسم فعل أمر بمعنى أقبِل في لغة أهل الحجاز، وهي الفصحى، فلذلك تلزم هذه الكلمة حالة واحدة عندهم لا تتغير عنها؛ يقولون: هلم، للواحد والمتعدد

عليه ورتب فهارسه: الحافظ عبد العليم خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط 1، 1399هـ–1979م، رقم 700، 227/3].

(1) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي ت 794هـ، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العاني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط2، 1413هـ–1992م، 352/2.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 153/17.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 30/29.

(4) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي– جامعة بغداد، د ر ط، 1990م، 409/4؛ الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، 356/2.

(5) عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 1421هـ–2001م، ص 154؛ وانظر: محمد عيد، النحو المصفى، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1430هـ–2009م، ص 510.

المذكر والمؤنث ... والمعنى: انخذلوا عن جيش المسلمين وأقبلوا إلينا).[1] ولعل السر في استعمال العرب لأسماء الأفعال –مع وجود الأفعال التي بمعناها– هو أنها أبلغ في المعنى منها. فأنت –مثلا– إذا قلت: (آه) كانت أبلغ من (أتوجع)، فكأنك قلت: (أتوجع جدا)، وإلا كانت الأفعال أغنت عنها.[2] ولم يرد أمر واحد في القرآن الكريم إلى النبي ﷺ بهذه الصيغة، وإنما ورد إليه الأمر أحيانا ليوجه هو إلى غيره أمرا بهذه الصيغة. ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾[الأنعام:150].

– وأما الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر: فهي صيغة أمر تشكلت من الفعل المضارع واللام، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)﴾[النساء]. وردت في القرآن الكريم –على قراءة حفص– متعينة اللام للأمر في تسع وسبعين موضعا بتكرار بعض الأفعال، فهي أقل حضورا من سابقتها في القرآن الكريم، بل وفي اللغة العربية عموما. ولم يصدر إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم أمر واحد بهذه الصيغة. وقد ذهب الكوفيون إلى أنها هي أصل صيغ الأمر؛ لأن الحروف هي التي وضعت لإفادة المعاني، كما هي حال (لا) مع النهي، و(لم) مع النفي، غير أن كثرة الاستعمال دفع إلى إسقاط اللام والتاء طلبا للتخفيف. ولكن البصريين اعترضوا عليهم وردوا قولهم. قال ابن الأنباري [3] وهو يتتبع كلامهم بالتفنيد: (قولهم: كما قالوا للغائب (ليفعل)، قلنا: فكان يجب أن لا يجوز حذف اللام منه كما لا يجوز في الغائب؛ قولهم: إنما حذفت في الأمر للمواجه، لكثرة الاستعمال، قلنا: هذا فاسد، لأنه لو

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 294/21-295.

(2) أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي ت 316هـ، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1417هـ-1996م، 134/2؛ محمد عيد، النحو المصفى، ص 511.

(3) هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الأنباري النحوي. إمام في النحو أديب لغوي شاعر فقيه عالم بالسير واعظ زاهد ناسك. ولد سنة 513هـ وانتقل في صغره إلى بغداد لطلب العلم فاجتهد في التحصيل ودرس في المدرسة النظامية ثم درس فيها، ثم لزم العبادة والعلم والتأليف. من شيوخه أبو السعادات بن الشجري وأبو منصور الجواليقي، ومن تلاميذه الحافظ أبو بكر الحازمي وعبد الله بن أحمد الخباز، ومن مصنفاته الإغراب في جدل الإعراب والبلغة في أساليب اللغة. توفي سنة 577هـ في بغداد. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 5206، 338/15؛ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، رقم 863، 155/7؛ السيوطي، بغية الوعاة، رقم 1506، 86/1].

كان الأمر كما زعمتم لوجب أن يختص الحذف بما يكثر استعماله دون ما يقل استعماله). [1] وينبغي لفت الانتباه إلى أن هذا كله فيما يتعلق بأمر الحاضر المخاطب فقط، وإلا فلا بد فيما سواه من إدخال اللام، كما في قولك: ليقم زيد.[2]

- **وأما المصدر النائب عن فعله:** فهو إحدى صيغ الأمر؛ لأنه يشارك فعله في معناه -إذ كل منهما يدل على الحدث- كما يشاركه في حروفه من غير نقصان، وإنما ينفرد عنه الفعل بالدلالة على الزمن دونه؛ ولذلك يعرف النحويون المصدر بأنه الحدث المجرد من الزمن، بينما يعرفون الفعل بأنه الحدث المقترن بالزمن، ومن ثم فإن المصدر يعمل عمل الفعل، ويكون له فاعل ومفعول به؛ لأنه اشتق منه ويبنى مثله للأزمنة الثلاثة. [3] ومن أمثلته الواردة في القرآن الكريم قول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[محمد:4]. قال ابن عاشور في تفسيرها: (وانتصب (ضرب الرقاب) على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فِعله، ثم أضيف إلى مفعوله، والتقدير: فاضربوا الرقاب ضربا، فلما حذف الفعل اختصارا قدم المفعول المطلق على المفعول به وناب مناب الفعل في العمل في ذلك المفعول وأضيف إلى المفعول إضافة الأسماء إلى الأسماء؛ لأن المصدر راجح في الاسمية).[4]

- ويشترط لقيام المصدر مقام فعله شروط هي: أن يصح حذف المصدر وتعويضه بفعل مع (أن) أو (ما) المصدريتين، وأن لا يكون مصغرا، ولا مضمرا، ولا محدودا، ولا موصوفا قبل العمل، ولا محذوفا، ولا مفصولا عن معموله، ولا مؤخرا عنه. [5] ولم يرد أمر واحد في القرآن الكريم إلى النبي ﷺ بهذه الصيغة في حدود ما علمت. والله أعلم.

- ومن أسرار استعمال هذه الصيغة بدلا من فعل الأمر أن المصدر آكد وأقوى وأثبت من الفعل. قال السامرائي: [6] (المصدر أقوى وأثبت من الفعل؛ ثم إن المصدر هو الحدث المجرد والفعل هو الحدث المقترن بالزمن، فأنت حين تأمر بالمصدر فقد أمرت بالحدث المجرد وهو آكد من الفعل لمجيئنا بالحدث وحده).[1]

---

(1) أبو البركات بن الأنباري ت 577هـ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق: جودة مبروك محمد مبروك، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، د ت ط، ص 424.

(2) انظر: البغدادي، الأصول في النحو، 174/2؛ ابن يعيش، شرح المفصل، 59/7؛ ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص414؛ محمود توفيق محمد سعد، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، ص 22.

(3) البغدادي، الأصول في النحو، 137/1. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، 144/2، و126/3؛ محمد عيد، النحو المصفى، ص 517 .

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 76/26.

(5) محمد عيد، النحو المصفى، ص 518-519؛ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ت 761هـ، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط11، 1383هـ-1963م، ص 260-266.

(6) هو أبو محمد فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل السامرائي، من علماء اللغة العربية المعاصرين. ولد في مدينة سامراء العراقية سنة 1933م، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم ودرس المراحل التعليمية -الابتدائية والمتوسطة والثانوية- فتفوق فيها جميعا بما وهبه الله من ذكاء حاد،

– ويجدر التنبيه إلى أن حصر مواضع ورود المصدر النائب عن فعله في القرآن الكريم أمر عسير؛ لأن بعض المواضع محتمل له ولغيره.[2] ومثاله قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[البقرة:229]. قال ابن عاشور: (وقوله: (فإمساك بمعروفٍ) جملة مفرعة على جملة (الطلاق مرتان) فيكون الفاء للتعقيب في مجرد الذكر لا في وجود الحكم. و(إمساك) خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالشأن أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح ... وعليه فإمساك وتسريح مصدران، مراد منهما الحقيقة والاسم، دون إرادة نيابة عن الفعل). ثم قال –بعد بضعة أسطر– (ويجوز أن يكون إمساك وتسريح مصدرين جعلا بدلين من فعليهما، على طريقة المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله، وأصلهما النصب، ثم عدل عن النصب إلى الرفع لإفادة معنى الدوام ... فيكون مفيدا معنى الأمر بالنيابة عن فعله، ومفيدا الدوام بإيراد المصدرين مرفوعين، والتقدير فأمسكوا أو سرحوا).[3]

– والمفسرون متفقون مع أهل اللغة في كون هذه الصيغ هي صيغ الأمر التي تدل عليه. قال الشنقيطي في تفسيره: (ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع: وهي فعل الأمر، كقوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[الإسراء:78]، واسم فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[المائدة:105]، والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[الحج:29]، والمصدر النائب عن فعله، كقوله تعالى : ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[محمد:4]، أَيْ فَاضْرِبُوا رِقَابَهُمْ).[4] ثم صرح في موضع آخر أنها جميعا في كتاب الله. قال رحمه الله: (اعلم أن الصيغ الدالة على الأمر أربع، وكلها في القرآن الكريم، وهي: 1– فعل الأمر، نحو ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[الإسراء:78]. 2– ...).[5] بل إن جمهرة الأصوليين أيضا موافقون لأهل اللغة

ثم انتقل إلى بغداد عام 1960م حيث تخرج في دار المعلمين العالية، ثم حاز درجة الماجستير من كلية الآداب فعين معيدا في كلية التربية. ارتحل بعد ذلك إلى مصر فدرس في جامعة عين شمس، ومنها نال درجة الدكتوراه سنة 1968م ثم عاد إلى العراق فعين مدرسا بجامعة بغداد ثم صار عميدا لكلية الدراسات الإسلامية. رحل سنة 1979م إلى الكويت للتدريس في جامعتها، ثم عاد إلى العراق مدرسا حتى عين عام 1996م عضوا بالمجمع العلمي العراقي. في سنة 1998م ارتحل إلى الإمارات العربية فدرس بجامعة عجمان ثم جامعة الشارقة. له مجموعة من المؤلفات، منها: معاني النحو، وتحقيقات نحوية، وغيرها. [انظر على سبيل المثال: شاذلي عبد الغني اسماعيل، ملامح من حياة العالم اللغوي الدكتور فاضل صالح السامرائي، اطلع عليه يوم 2023/03/27، على موقع شبكة الألوكة، وكذلك على هذين الرابطين:
https://ninetyn1ne.com/article/1190 و https://shamela.ws/author/37

(1) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، 144/2.

(2) محمود توفيق محمد سعد، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، ص 55.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 405/2–406.

(4) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 445/7–446.

(5) محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه، ص294.

والتفسير. قال السلمي: [1] (يرى جمهور الأصوليين وأهل اللغة أن الأمر له صيغ تدل عليه حقيقة من غير حاجة إلى قرينة، وهذه الصيغ هي: 1- فعل الأمر...).[2] وذكر الصيغ نفسها التي سردها الشنقيطي[3] في كتابيه المشار إليهما، وتسمى الصيغ الصريحة؛[4] لأنها هي الموضوعة لهذا الغرض، ولا تحتاج إلى قرائن للدلالة على الأمر.

– وهناك صيغ أخرى غير صريحة، ولم توضع في الأصل للدلالة على الأمر ولكن السياق وجه دلالتها إليه وسخرها للإعراب عنه. منها: **الخبر المعرب عن الأمر** كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[البقرة: 228]، أي ليتربصن؛ **والخبر الذي يجيء بلفظ مشتق من الأمر** كأمر ويأمر أو أحد مرادفاته، مثل: كتب وقضى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[النساء:58]، وعلى هذا جمهور المفسرين والبلاغيين والأصوليين. والذي يحدد الغرض من الخبر إن كان للإخبار أو للأمر إنما هو السياق والعقل؛ و**الاستفهام المراد به الأمر** كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(91)﴾[المائدة]، أي: انتهوا؛ و**الإخبار عن مدح الفعل أو ترتيب الثواب عليه أو مدح فاعله أو محبة الله له ونحو ذلك**، فيندرج فيه (كل فعل كسبي عظمه الشرع ، أو مدحه ، أو مدح فاعله لأجله ، أو فرح به ، أو أحبه ، أو أحب

---

(1) هو عياض بن نامي بن عوض السلمي. أستاذ جامعي وباحث ومؤلف سعودي معاصر. ولد سنة 1373هـ في محافظة الكامل بمنطقة مكة المكرمة، وبها تعلم. أتم مراحله الدراسية حتى حاز درجة الدكتوراه في أصول الفقه مع مرتبة الشرف الأولى. من شيوخه الشيخ عبد الله الغديان والشيخ عبد الله الركبان، ومن مؤلفاته شهاب الدين القرافي: حياته وآراؤه الأصولية وأصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، ومن أعماله الإدارية عضوية مجلس كلية الشريعة 1413هـ إلى 1423هـ، ومدير مركز التميز البحثي في فقه القضايا المعاصرة منذ 1429هـ. [انظر ترجمته في الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة وموقع موسوعة مداد على الرابطين: https://old.shamela.ws/index.php/author/2292، https://midad.com/scholar/45018/

(2) عياض بن نامي السلمي، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1426هـ-2005م، ص 220.

(3) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد الشنقيطي. مفسر أصولي فقيه لغوي أديب شاعر زاهد. ولد سنة 1325هـ في موريتانيا وحفظ القرآن صغيرا وأقبل على طلب العلم وتحصيله حتى فاق أقرانه، ثم تولى التدريس والفتوى والقضاء. وفي عام 1365هـ حج وبقي بالمسجد النبوي يدرس التفسير، ويلقي الدروس بالمسجد الحرام في رمضان ومواسم الحج؛ ثم اختير للتدريس في المعهد العلمي بالرياض. كان له دور مهم في تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم عين عضوا في هيئة كبار العلماء، وكان أيضا عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. من شيوخه محمد بن صالح المشهور ومحمد النعمة، ومن تلاميذه عبد العزيز ابن باز، ومحمد صالح العثيمين، ومن كتبه دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب وأدب البحث والمناظرة. توفي سنة 1393هـ بمكة المكرمة. [انظر على سبيل المثال: عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، رقم 786، 371/6؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 12281، 146/3].

(4) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ت 790هـ، الموافقات، ضبط نصه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط3، 1430هـ-2009م، 404/3، 422.

فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب، أو أقسم به أو بفاعله، أو نصبه سببا لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سببا لذكره أو لشكره أو لهدايته، أو لإرضاء فاعله أو لمغفرة ذنبه أو لتكفيره أو لقبوله، أو لنصرة فاعله أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصفه بكونه معروفا، أو نفى الحزن أو الخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سببا لولاية الله تعالى، أو وصف فاعله بالهداية، أو وصفه بصفة مدح، كالحياة أو النور والشفاء، أو دعا الله به الأنبياء فهو مأمور به).[1] وعلى أية حال فإن مواقع تصوير الأمر في صورة الخبر كثيرة جدا في القرآن الكريم، ومن العسير جدا على الباحث حصرها وإحصاؤها؛ [2] ولذلك سيكون تركيزي في هذا البحث على الصيغ الصريحة؛ أما غير الصريحة فسأكتفي منها بما هو ظاهر الدلالة على الأمر كما في قوله سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(104)﴾[يونس].

– وفيما قرر عامة أهل العلم –ومنهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي وغيرهم– أن الأمر له صيغة تدل على كونه أمرا إذا تجردت عن القرائن ذهب بعض الأشاعرة –ومنهم أبو الحسن الأشعري نفسه فيما نقل عنه– والمعتزلة – غير البلخي–[3] إلى أنه لا صيغة له.[4] وليس سبب هذا الموقف خفاء صيغ الأمر في العربية أو ضعف أدلة الجمهور، وإنما هو سبب اعتقادي محض؛ وهو نفيهم صفة الكلام عن الله عز وجل وقولهم إن كلام الله مخلوق،[5] فلو اعترفوا أن للأمر صيغة، لكان إقرارا بالفرق بينها وبينه، فيكون أمر الله هو طلبه للفعل بقوله الذي هو كلامه، وتكون الصيغة هي هيأته الدالة عليه. وهذا نقيض عقيدتهم. وقد حاولوا الفرار من هذا التناقض بتقسيم كلام الله إلى قسمين: الأول: نفسي، وهو المعنى القائم بذاته المجرد عن

---

(1) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ت 660هـ، الإمام في بيان أدلة الأحكام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ–1987م، ص 87، وانظر ص 160 منه.

(2) انظر: جميل أحمد ظفر، النحو القرآني قواعد وشواهد، مطابع الصفا، مكة المكرمة، ط 2، 1418هـ–1998م، ص 12؛ محمود توفيق محمد سعد، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، ص 72، 79؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت 456هـ، الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د ر ط ولا ت ط، 34/3؛ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 1713–1714؛ الشاطبي، الموافقات، 404/3، 422.

(3) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الخراساني، الشهير بالكعبي. أديب فقيه متكلم مناظر من الطراز النادر، وأحد أعلام المعتزلة الأفذاذ، ورأسهم في زمانه. ولد سنة 273هـ، ونشأ في مدينة بلخ بمنطقة خراسان، ثم قدم بغداد وواصل طلب العلم فيها وأقام بها طويلا، وانتشرت فيها كتبه وآراؤه، ثم عاد إلى بلخ فظل بها إلى أن توفي فيها سنة 327هـ. من شيوخه أبو الحسين الخياط صاحب كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي، ومن مصنفاته كتاب الجدل وكتاب الغرر. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 2954، 637/11؛ الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، رقم 4921، 25/11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 330، 45/3؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 93/4].

(4) انظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، 352/2، 354.

(5) مر الكلام عن هذه المسألة في المطلب الأول من المبحث الثاني.

الألفاظ والحروف. والثاني: لفظي، وهو اللفظ الدال على المعنى القائم بالذات كصيغة (افعل). أي أنهم جعلوا الأمر نفسه هو الصيغة، فكيف توضع صيغة للصيغة؟ وتكون إضافتها إلى الأمر من باب تسمية الشيء بنفسه. وقد خطأ جمهور العلماء هؤلاء المتكلمين، بل إن البعض وصفهم بالبدعة، ونبه إلى السبب الذي دفعهم إلى ذلك القول. قال ابن قدامة: (وزعمت فرقة من المبتدعة أنه لا صيغة للأمر بناء على خيالهم أن الكلام معنى قائم بالنفس، فخالفوا الكتاب والسنة وأهل اللغة والعرف...). [1] ولو لم يكن للجمهور من دليل سوى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾[يس] لكان كافيا. فقد بين –تعالى– أن أمره يكون بالقول، وأن ذلك القول يكون على هيئة محددة هي (كن)، وهي صيغة كما هو ظاهر؛ كما أن أهل اللغة التي نزل القرآن بها يميزون بين صيغة الأمر وصيغة الخبر وغيرهما من أقسام الكلام، فدل ذلك على بطلان رأي المعتزلة ومن وافقهم.[2]

المطلب الثاني: أفعال الأمر الموجهة من الله تعالى إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم

دل الاستقراء التام لألفاظ القرآن الكريم على أن عدد الأوامر الموجهة إلى النبي ﷺ من قبل الله عز وجل في كتابه العزيز –من غير مادة (أ م ر)– بلغ خمسة وتسعين أمرا؛ منها خمسة وثمانون بصيغة (افعل)، والعشر الباقيات بصيغة الخبر المعرب عن الأمر. فإذا أضفنا الأمرين الموجهين إليه ﷺ من مادة (أ م ر) كان المجموع الكلي سبعة وتسعين؛ والمقصود ما توجه إليه شخصيا بضمير المخاطب المفرد، دون ما توجه إلى الأمة عموما وكان هو داخلا فيه باعتباره فردا منها.

– والأوامر الصادرة إليه بصيغة فعل الأمر (افعل) هي: قل، بشر، ول، تول،اسأل، سل، اعف، استغفر، شاور، توكل على الله، انظر، أنظر، أعرض، عظ، قاتل، حرض، اصفح، اتل، احكم، احذر، اعلم، بلغ، ذر، اتبع، ذكر، اقتد، اقصص، خذ، ، استعذ، اذكر، شرد، انبذ، اجنح، أبلغ، جاهد، أغلظ، صل، أنذر، أقم، اصبر، اصطبر، استقم، اعبد، أجر، نبئ، اخفض جناحك، اصدع، سبح، ادع، جادل، تهجد، ابتغ، كبر، اضرب، ادفع، ائذن، أذن، آت، انتظر، اتق، دع، استفت، أبصر، استمسك، ارتقب، استمع، أسمع، بايع، أرجع، قم، زد، رتل، تبتل، اتخذ، اهجر، مهل، أمهل، طهر، أسجد، حدث، انصب، ارغب، اقرأ، اقترب، انحر. أما الأوامر الصادرة إليه ﷺ بصيغة الخبر المعرب عن الأمر فهي: أن يسلم، أن يكون أول من أسلم، أن يكون أول المسلمين، أن يكون من المسلمين، أن يكون من المؤمنين، أن يعبد الله ولا يشرك به، أن يعبد الله مخلصا له الدين، أن يتلو القرآن، أن يعدل بين الناس، أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله لا شريك له.

---

(1) ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، ص98.

(2) انظر: المصدر السابق؛ الزركشي، البحر المحيط، 352/2، 355؛ محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة أصول الفقه، ص295-296.

– وقد وردت هذه الأوامر في خمس وثمانين ومائتي آية؛ منها ثلاث وتسعون ومائة مكية، واثنتان وتسعون مدنية. أي أن الأوامر الصادرة إلى النبي ﷺ من الله جل وعلا في القرآن الكريم أغلبها في الآيات المكية، تماما كما هو حال مادة (أ م ر) وكذلك فعل الأمر منها. والله أعلم.

الفصل الأول

أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره إنسانا مسلما

لم نختلف نحن المسلمين -كما فعل غيرنا- أن نبينا محمدا ﷺ كان إنسانا وظل كذلك -قبل النبوة وبعدها- إلى أن مات موتا طبيعيا كما ولد بشكل طبيعي. ولما نزل عليه الوحي من ربه سبحانه وآمن به اكتسب وصفا جديدا هو الإسلام، وهذا ما أمر أن يصرح به. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)﴾[الأعراف]. أي أن النبوة التي أكرمه الله بها واجتباه لها لم تسلخه عن بشريته، ولم تعفه من تكاليف الإسلام التي يطالب بها سواه ممن يسلم. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)﴾[الكهف].

فما الذي توجه إليه ﷺ من الأوامر في كتاب الله باعتباره إنسانا مسلما؟ وهل اختلف مضمون تلك الأوامر عما وجه إلى بقية المسلمين باعتباره مسلما نبيا؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يتوجب أن نستقرئ ما صدر منها إليه خصيصا، وهذا ما سنحاوله في هذا الفصل من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العقيدة

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العبادات عموما والبدنية منها خصوصا

المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر والدعاء تحديدا

المبحث الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الأخلاق

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العقيدة.

العقيدة هي ما يعقد الإنسان عليه قلبه جازما بصحته قاطعا بثبوته؛ و هي بالنسبة للمسلم مجموعة من القضايا المسلمة بالعقل والنقل والفطرة.[1] والناظر فيما ورد منها في القرآن الكريم والسنة النبوية يجدها كثيرة من حيث عددها وتفاصيلها، متفاوتة من حيث مراتبها وأهميتها بين ما هو من الأركان و ما هو من الفروع.

(1) انظر: أبو بكر جابر الجزائري ت 1439هـ-2018م، عقيدة المؤمن، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1420هـ-1999، ص 14.

ولا شك أن المسلمين جميعا يشتركون في وجوب اعتقادها ما دامت ثابتة في نصوص الوحيين، وأن النبي ﷺ يشاركهم فيها جميعا باعتباره مسلما، كما قال الله تعالى على لسانه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(91)﴾[النمل].

ولكن الملحوظ أن كثيرا من تلكم القضايا العقدية وردت في القرآن الكريم في صيغة أوامر، بعضها موجه إلى المسلمين عموما، والبعض الآخر موجه إلى النبي ﷺ خصوصا.

فهل تميز ما وجه إليه ﷺ بشيء عما وجه إليهم؟ أم أنه لا فرق بين هذا وذاك؟

لكي نجيب عن هذا السؤال لا بد من تتبع ما وجه إليه ﷺ منها خصيصا لنعلم تميزها من عدمه.

وذلك ما سنحاول فعله في هذا المبحث من خلال هذين المطلبين:

المطلب الأول: أمر الله تعالى للنبي ﷺ بالإيمان عموما

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى للنبي ﷺ المتعلقة بأركان الإيمان وأقسام التوحيد خصوصا

المطلب الأول: أمر الله تعالى للنبي ﷺ بالإيمان عموما

غرس الإيمان -بمعناه الشامل- في النفوس أحد المقاصد الكبرى للقرآن الكريم، وقد أمضى النبي ﷺ فترة ما بين نزول الوحي عليه ووفاته يدعو الناس إليه ويحثهم عليه. فهل أمر هو ﷺ بالإيمان استقلالا باعتباره شخصا ليس كغيره من الناس؟ أم أنه ترك -كغيره من الناس- للنصوص العامة التي تأمر بالإيمان وتحض عليه؟ وهل ذكر القرآن الكريم الخطوط العريضة لذلك الإيمان المراد؟ أم ترك أمره في حدود ما دلت عليه اللغة وحدها؟ للإجابة على هذه الأسئلة نحاول استقراء الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ في هذا المجال مراعين الترتيب المنطقي للموضوع لا ترتيب الآيات في المصحف.

نص الكتاب العزيز على أن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ بالإيمان في كتابه فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(104)﴾[يونس].

– أي: قل أيها الرسول للناس من أهل مكة إن كنتم في ريب من ديني الذي أدعوكم إليه ولم يتبين لكم أنه الحق فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم لتعلموا أنه لا مدخل للشك فيه، وإني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون الله بشككم في ديني، بل أعبد الله الذي يميتكم متى شاء -وهذا متضمن لتهديدهم لأن موت المشركين ميعاد عذابهم- وينفعكم ويضركم متى أراد، وهذا هو الحقيق أن يعبد وأن يتقى دون من لا يقدر على شيء من ذلكم؛ وقد أمرت من قبل الله أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه.[1]

(1) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 11/161-162؛ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م، 2/561.

– وعدم تحديد متعلق للمؤمنين في الآية يدل على أنه منصرف إلى القوم الموصوفين بالإيمان [1] فكأنما قال له: قل: وأمرت أن أكون مؤمنا من المؤمنين؛ ولذلك قال الشوكاني: [2] (ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان) .[3] كما أن عدم تحديد المتعلق يدل على مطلق الإيمان، أي الإيمان بصفة عامة. قال ابن عاشور: (وأريد بالمؤمنين عقائب هذا اللقب الذين آمنوا بالله وبرسوله وبالقرآن والبعث).[4]

فالآية دالة على أنه ﷺ مأمور بالإيمان بمعناه الشامل لكل ما ينبغي الإيمان به. فما الإيمان؟

– الإيمان في اللغة معناه التصديق، وقد نقل ابن منظور وغيره اتفاق اللغويين على ذلك،[5] وقد يكون بالقلب، كأن يقول إنسان شيئا فتعتقد صدقه، وقد يكون باللسان، كمن سمع قائلا شيئا فقال له: صدقت.[6]

أما اصطلاحا فقد عرفه الآجري[7] –عازيا إياه إلى علماء المسلمين– فقال: (هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح).[8]

فالإقرار القلبي والإذعان النفسي لكل ما أنزل الله على رسوله ﷺ والذي يثمر العمل عند انتفاء المانع شرط في الإيمان؛[1] لأن الإنسان قد يصدق بقلبه وقد يقر بلسانه أن النبي ﷺ صادق ولكن يمنعه الحسد أو الكبر أو غيرهما من الإذعان النفسي أو

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 302/11، بتصرف.

(2) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني. مفسر محدث فقيه أصولي أديب مؤرخ نحوي. ولد سنة 1173هـ في هجرة شوكان من أرض خولان من بلاد اليمن، ونشأ بصنعاء، حيث حفظ القرآن الكريم وجملة من المتون العلمية ثم درس على والده وغيره مختلف العلوم. من شيوخه اسماعيل بن الحسن والقاسم بن يحيى الخولاني، ومن تلاميذه ابنه علي بن محمد ومحمد بن حسن الشجني ، ومن كتبه نيل الأوطار وشرح المنتقى من الأخبار والمختصر البديع في الخلق الوسيع. توفي سنة 1250هـ في صنعاء. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 298/6؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 14896، 541/3].

(3) محمد بن علي الشوكاني ت 1250هـ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ-2007م، ص644.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 302/11.

(5) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 164/1.

(6) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 198/3.

(7) هو أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجري. محدث فقيه ثقة. ولد سنة 280هـ ونشأ في درب الآجر ببغداد وبها تعلم وحدث ثم انتقل إلى مكة المكرمة فأقام بها إلى أن توفي فيها سنة 360هـ. من شيوخه أبو محمد يحيى بن صاعد وأبو العباس أحمد بن عمر القطان، ومن تلاميذه أبو نعيم الأصبهاني وأبو الحسين علي بن بشران، ومن كتبه أخلاق العلماء وأحكام النساء. [انظر على سبيل المثال: ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 623، 292/4؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 3290، 273/12].

(8) الآجري، الشريعة، 274/1.

الإقرار القلبي أو الطاعة العملية له فلا يكون مؤمنا؛ كما سجل القرآن الكريم على المشركين في زمن النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(33)﴾[الأنعام]. ومن ثم صرح المراغي[2] في تفسيره أن القرآن جعل للإيمان معنى خاصا (فأطلق الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، بحيث يكون لهذا التصديق سلطان على الإرادة والوجدان، ويكون من ثمراته العمل الصالح الذي يصل بصاحبه إلى الفوز بسعادة الدنيا والآخرة).[3]

– وبين الله في مواضع متعددة من كتابه أن القلب هو محله وموضع عقدته، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(106)﴾[النحل].

وأركانه الست الكبرى جميعا من عمل القلب وحده؛ فإذا ترسخت فيه معانيها تفتحت أكمامها عن ثمراتها الطبيعية، وهي حبه سبحانه وخشيته والإخلاص له والحياء منه والخوف من عقابه والثقة فيه وتوقير جنابه والشعور برقابته وابتغاء ما عنده ... وغيرها من أعمال القلب التي يثمرها الإيمان في قلوب أصحابه.

ولحكمة سرد القرآن خمسا منها مجتمعة في موضع واحد من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]. ثم أعاد سردها أيضا في سورة النساء –مستبدلا لفظ النبيين بلفظ الرسل– فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(136)﴾ [النساء]. ونص على السادس في سورة القمر فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49)﴾ [القمر].

وجمعها –لحكمة أيضا– في حديث واحد على لسان نبيه ﷺ. ففي الحديث المشهور بحديث جبريل –عليه السلام– أن هذا الأخير سأل النبي ﷺ فقال: أخبرني عن الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).[4] فهذه الأركان العظيمة متلازمة مترابطة لا ينفك بعضها عن بعض، فالإيمان ببعضها مقتض للإيمان بباقيها،

---

(1) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 128/1.

(2) هو أحمد بن مصطفى المراغي. مفسر مصري معاصر. درس بدار العلوم وفيها تخرج سنة 1909م ثم درس فيها علوم الشريعة ثم عين أستاذا للعربية وعلوم الشريعة في كلية غوردون بالخرطوم. توفي في القاهرة سنة 1952م. من كتبه الحسبة في الإسلام والوجيز في أصول الفقه. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 258/1؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 2218، 305/1].

(3) المراغي، تفسير المراغي، 198/3.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، رقم 8، ص 36، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والكفر ببعضها كفر بها جميعا.[1] ولذا يمكن القول بكل طمأنينة أن الإيمان هو الأرضية الصلبة التي يقوم عليها صرح الإسلام العظيم.

- ومعنى ذلك أن الإيمان لا يقتصر على الجانب النظري وحده، بل يشمل الأعمال أيضا. ويؤكد هذا تسمية القرآن الصلوات والزكوات وسائر أنواع النفقات إيمانا. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(2)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(3)أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(4)﴾[الأنفال]. وقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).[2]

- وهكذا نخلص إلى أن الإيمان –الذي هو الاعتقاد الباطن– إذا عمل صاحبه بمقتضاه فأضاف إليه عمل الجوارح الظاهرة صار مرادفا لمعنى الإسلام، أي صار هو الدين كله. يقول السعدي مقررا هذا المعنى: (واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسما للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة).[3] ومن هنا يمكن القول أن النبي ﷺ لما أمر بالإيمان كان ذلك أمرا له بالإسلام أيضا. وأن التعويل على الإيمان النظري وحده لون من ألوان الغرور، ونوع من التشبه ببني إسرائيل الذين زعموا أن النار لن تمسهم يوم القيامة إلا يسيرا لمجرد انتمائهم العرقي. قال محمد رشيد رضا:[4] (الجزاء على الإيمان والعمل معا، لأن الدين إيمان وعمل، ومن

---

(1) انظر: نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، تقديم: وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، ولا ت ط، ص9.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم 9، ص 17–18؛ ومسلم ،كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم 35، ص 48، واللفظ لمسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 53.

(4) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين. يرجع نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما. مفسر محدث أديب مصلح صحفي كاتب خطيب مفكر إسلامي. ولد سنة 1865م بالقلمون من أرض الشام، فحفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة ثم انتقل إلى طرابلس الشام فتعلم بالمدرسة الرشيدية ثم بالمدرسة الوطنية ثم انضم إلى حلقة الشيخ حسين الجسر فأجازه بالتدريس لعلوم العربية والشريعة. زار الهند والحجاز وأوروبا والأستانة واستقر بالقاهرة. من شيوخه الشيخ محمود نشابة والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ محمد عبده المصري الذي عمل معه وأصدر مجلة المنار، ومن كتبه الوحي المحمدي وحقيقة الربا. توفي سنة 1935م بالقاهرة. [انظر مثلا: الزركلي، الأعلام، 126/6؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 13277، 293/3].

الغرور أن يظن المنتمي إلى دين نبي من الأنبياء أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الانتماء).[1] وهو تأكيد لصحة التعريف الشائع عند أهل السنة والجماعة. قال ابن كثير في تفسيره -ناسبا ذلك إلى أكثر الأئمة-:(الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا) [2] ثم عقب عليه بقوله: (بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعا) . وهكذا يتضح جليا أن القرآن يرفض لأتباعه أن يكون إيمانهم مجرد فكرة في أذهانهم أو خواطر في قلوبهم من غير عمل في الميدان، أو تنفيذ للأوامر وكف عن النواهي.

وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم [3]

إن مثل الإيمان الذي يستقر أصله في القلب فتظهر ثمراته أعمالا صالحة على الجوارح كمثل الضوء، أصله منبعث من السلك المتوهج في قلب المصباح وأشعته تغمر أنحاء الغرفة كلها؛ ولله المثل الأعلى.

– وتضمنت الآية الثانية من سورة الأنفال التي مرت بنا آنفا حقيقة قرآنية أخرى متعلقة بالإيمان وهي كونه يزيد وينقص، وعضدتها في تلك الدلالة بضع آيات أخرى؛ منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)﴾[آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)﴾ [الفتح]، وغيرهما. قال ابن كثير في تفسير آية الأنفال: (وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد [4]).[5]

فالآيات ظاهرة الدلالة على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي،[6] وليس جامدا ملازما لحال واحدة، وهو السر في أن الناس كانوا ولا يزالون يتفاضلون فيه، (فمن المؤمنين من هو كامل الإيمان ومنهم من هو ناقصه)،[7] وليس إيمان الملائكة وإيمان

---

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 128/1.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 69/1.

(3) بشار بن برد ت 167هـ، ديوان بشار، شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور، مراجعة وتصحيح: محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ر ط، 1386هـ-1966م، 173/4.

(4) هو أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله. محدث مفسر مقرئ فقيه لغوي نحوي ناسك. ولد سنة 157هـ بهراة وتعلم بها ثم رحل في الطلب إلى مرو وبغداد وسامراء والبصرة ومصر وغيرها. من شيوخه سفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، ومن تلاميذه أبو بكر الصاغاني وأبو بكر بن أبي الدنيا، ومن مصنفاته فضائل القرآن والناسخ والمنسوخ. مات سنة 224هـ بمكة. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1702، 183/9؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 534، 60/4].

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/4.

(6) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 285/2.

(7) المرجع السابق نفسه.

الأنبياء كإيمان الصحابة والتابعين، ولا إيمان هؤلاء كإيمان عامة المسلمين اليوم. وهذا أمر مجرب، إذ كل منا يشعر بزيادة إيمانه وقوة يقينه عند توفر عوامل زيادته من كثرة الطاعات والبعد عن المعاصي ووجوده في المسجد وغير ذلك؛ وفي المقابل يشعر بنقص إيمانه وضعفه عند تفريطه في العبادات ومقارفته للمعاصي وغياب الأجواء الإيمانية كالدروس والخطب وحلقات الذكر وغيرها.

– ومما قرره القرآن وأكده في مواضع كثيرة جدا، وبصيغ متنوعة، وفي سياقات مختلفة أن الإيمان هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة؛ فلا طمأنينة ولا راحة في الدنيا إلا بالإيمان، ولا نجاة من عذاب الآخرة، ولا فوز بنعيم الجنة إلا بالإيمان أيضا. قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(127)﴾[طه].

فبين سبحانه أن من جاءه الهدى –أي القرآن– من ربه فآمن به واتبعه عاش في الدنيا قرير العين هادئ البال قل ماله أو كثر؛ لأن جمع المال ليس هدفه في هذه الحياة، ويعطى في الآخرة ما لا يخطر بباله من ألوان النعيم الخالد والسعادة الأبدية، ومن أعرض عن ذلك الهدى فلم يؤمن به ولم يتبعه عاش في الدنيا عيشة ضنكا، يلفه الشقاء والضيق وإن كان ذا مال وبنين. ومن شقائه شدة حرصه على ما في يده لأنه يخاف انتقاصه ولا يأمل من الله تعويضا، ويكون في الآخرة أعمى عن الحجة التي تنقذه من ذلك الخزي الدائم والعذاب المقيم، [1] وأعمى البصر أيضا؛ لأن الآية عامة كما قال الطبري. [2] فالإيمان وحده وسيلة السعادة في الدارين. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(97)﴾[النحل]. وهذا يحل مشكلة القلق الدائم والخوف من المستقبل والاضطرابات النفسية التي يعانيها الإنسان في أكثر المجتمعات المعاصرة.

– ومن قضايا الإيمان المهمة المتعلقة بالنبي ﷺ قبل ظهور الإسلام والتي أجاب عنها القرآن الكريم عدم علمه بالإيمان، وأن ذلك استمر إلى أن نزل عليه الوحي.[3] قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52)﴾[الشورى]. والدراية المنفية في الآية بداهة لا تتناول معنى الإيمان اللغوي، فهو ﷺ أعرب العرب وأفصحهم لسانا، وإنما المقصود معناه الشرعي. فما الذي لا يدريه ﷺ عن هذا الجانب؟

---

(1) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 158/16.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 201/16.

(3) انظر: الألوسي، روح المعاني، 59/25

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على خمسة أقوال، مع إجماعهم على أنه لا يجوز أن يقال عن الرسل أنهم كانوا قبل الوحي على الكفر.[1] وأعدل الأقوال وأرجحها -في تقديري- أن الدراية المنفية عنه ﷺ بالوحي هي تفاصيله التي شرعت له فيما بعد في القرآن الكريم؛[2] لأنه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ، فلا علم له بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان أو عمل بما كانت تحويه من الشرائع الإلهية؛[3] ويؤكد ذلك قول الشوكاني في تفسيره: (كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع، ولا يهتدي إلى معالمها، وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها).[4] أما الإيمان بالله سبحانه -أي بوجوده وخلقه وتدبيره للكون-فلا شك أنه كان يؤمن به؛ لأن قومه كانوا يؤمنون به، وإن كانوا يشركون به غيره في العبادة. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)﴾[العنكبوت]، وقال أيضا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)﴾[العنكبوت]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)﴾[العنكبوت]. فهم يؤمنون به ويجري ذكر اسمه سبحانه على ألسنتهم كثيرا، بل ويحلفون به؛ ولما نزل عليه الوحي في غار حراء لأول مرة رجع إلى خديجة فأخبرها وقال: (لقد خشيت على نفسي)، فأجابته رضي الله عنها: (كلا والله ما يخزيك الله أبدا ...).[5] وقد عصمه الله فلم يعبد غيره قط، وقد حلف زيد بن حارثة أنه ﷺ ما مس صنما حتى أكرمه الله بالوحي.[6]

- وقد أخبر الله سبحانه في كتابه أن النبي ﷺ نفذ الأمر بالإيمان على أكمل وجه وأتمه وقابله بالسمع والطاعة، فآمن بجميع ما أوحي إليه به وفي مقدمته أركان الإيمان الكبرى المتمثلة في التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما أخبر أن أصحابه رضي

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 191/27.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 156/7.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 728-729.

(4) الشوكاني، فتح القدير، ص1334.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم 6982، ص 1268؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم 160، ص 88 عن عائشة رضي الله عنها.

(6) انظر: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ر ط ولا ت ط، رقم 4668، 88/5-89؛ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دار الريان للتراث، القاهرة، ط1، 1408هـ-1988م، 34/2؛ الحاكم، المستدرك، رقم 4956، 269/3-270؛ وصححه؛ وحسن إسناده محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ، ص 32.

الله عنهم فعلوا ذلك أيضا. قال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) ﴾ [البقرة]. [1]

فهذه الآية من خواتيم البقرة شهادة للرسول ﷺ بأنه صدق بما جاء به الوحي من العقائد والأحكام تصديق يقين واطمئنان، وتخلق به كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن) [2] وشهادة لأصحابه أيضا. وكان لهذا الإيمان خير أثر عليهم؛ زكت به نفوسهم وطهرت به قلوبهم، وعلت به هممهم، فأتوا بالعجب العاجب من فتح البلاد وسياسة الأمم سياسة رحمة وعدل وحكمة، وذلك ما شهد لهم به أعدى أعدائهم، وسجله لهم التاريخ، فعلوا ذلك حين كانت البشرية في ظلام دامس، تساس بالعسف والخسف، فأنقذوها مما كانت ترزح فيه من العبودية والذل، وفسحوا لها مجال الحرية الكامل تنعم فيه كما لم تر من قبل. هذه شهادة الله لهم وكفى بها شهادة. [3]

وخلاصة هذا المطلب أن النبي ﷺ أمر بالإيمان استقلالا، أي بنص خاص وجه إليه ﷺ ولم يترك الأمر للنصوص العامة وإن كانت تشمله. وبين القرآن الكريم الخطوط الكبرى للإيمان المراد، فنص على محله، وأركانه، واشتماله على أعمال الجوارح، وآثاره، وشهادة الله سبحانه وتعالى على تنفيذه ﷺ ما كلف به.

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى للنبي ﷺ المتعلقة بأركان الإيمان وأقسام التوحيد خصوصا

أشرنا في التمهيد الذي بين يدي هذا المبحث إلى أن قضايا العقيدة الواردة في القرآن الكريم متفاوتة في مراتبها، مختلفة من حيث أهميتها، وعرفنا من خلال المطلب الأول أن للإيمان أركانا كبرى. فهل خصصت بعض تلك الأركان بأوامر خاصة تتعلق بها أم اكتفي فيها جميعا بذكرها العام؟ وعلى أي الجوانب تم التركيز فيما خص بالتفصيل؟ سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال هذين الفرعين:

الفرع الأول: أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ المتعلقة بأركان الإيمان

(1) وقد تضمنت هذه الآية فائدة مهمة وهي أنها نصت على إيمان النبي ﷺ أولا ثم تحدثت عن إيمان الصحابة بعد، وهو الترتيب التاريخي الواقع حقيقة؛ وفي ذلك تنبيه للدعاة والمصلحين -ومن كان في مثل ميدانهم- أن يكونوا أول الممتثلين لما يدعون إليه، وأسرع الناس تطبيقا لما يقولون؛ لأن ذلك برهان قوي على صدقهم في دعوتهم وإصلاحهم، ومحفز جيد للمدعوين ليستجيبوا لهم، والنبي ﷺ خير مثال لذلك؛ أما أن يدعوا الناس إلى شيء ثم يخالفوهم إلى غيره فتلك أولى خطواتهم إلى الفشل؛ وقد نعى الله على بني إسرائيل مثل هذا الصنيع فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)﴾ [البقرة].

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم 746، ص 293، عن عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 3/79-80.

الفرع الثاني: أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ المتعلقة بأقسام التوحيد

الفرع الأول: أوامره تعالى لنبيه ﷺ المتعلقة بأركان الإيمان

أركان الإيمان هي أصوله الكبرى التي لا يتصور إيمان أحد من دونها، والتي لا يعتد بما سواها إن فقدت هي. وبتتبع القرآن الكريم تبين أن ما تعلق بها من الأوامر المتوجهة إلى النبي ﷺ هو ما تضمنته النصوص القرآنية الآتية:

* قال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) ﴾ [آل عمران].

– نزلت هذه الآية في سياق محاجة أهل الكتاب، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يعلن إيمانه بالله لجميع الأمم، وأن يصرح بذلك على مسمع من الناس مسلمهم وكافرهم[(1)] وخصوصا اليهود[(2)] الذين هم أقرب أهل الكتاب منه جوارا، كما أمره أن يعلن إيمانه بما أوحى الله إليه من القرآن، وكذلك بما أنزل على إبراهيم وولديه اسماعيل وإسحاق، وبما أنزل على موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وبما أعطي النبيون جميعا من الوحي، دون تفريق بين أحد منهم، بل يؤمن بهم جميعا وبما أنزل عليهم، لا كما هي حال اليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الأنبياء دون بعض، وببعض الكتب دون بعض، وأمر في ختام الآية أن يعلن انقياده التام لله بالطاعة.[(3)]

– وبعد أن ورد في السياق المتقدم من السورة قبل آيتين أنه سبحانه أخذ الميثاق من الأنبياء السابقين أن يؤمنوا بنبينا محمد ﷺ وينصروه –إن هم أدركوه– ذكر هنا أمره لنبينا محمد ﷺ أن يؤمن بجميع الأنبياء السابقين وبكتبهم، وأمته تابعة له فيه، فالخلاصة أنه سبحانه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بالله وبأنبيائه وبما أنزل عليهم من كتب.[(4)]

وفي هذا تنبيه شديد لأهل الكتاب –خصوصا العقلاء منهم– على وجوب الإيمان بنبينا محمد ﷺ لا تقليدا لنا في إيماننا بأنبيائهم، بل اتباعا لأنبيائهم الذين آمنوا به وبشروا به أيضا إن كانوا صادقين في اتباعهم.

– ولما كان (الإيمان بالله هو أهم أركان الإيمان، وأعظمها شأنا، وأعلاها قدرا، بل هو أصل أركان الإيمان، وأساس بنائه، وقوام أمره، وبقية الأركان متفرعة عنه، راجعة إليه، مبنية عليه)[(5)] فإن الأمر بدأ به وجعل بقية المأمورات تبعا له، معطوفة عليه.

– والإيمان بالقدر –وهو أحد أركان الإيمان– وإن لم يذكر هنا إلا أنه (تابع للاعتقاد الصحيح الشامل في الله عز وجل، بأنه رب الكون ومليكه وخالقه، والمتفرد فيه بالتدبير والتصريف، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه جل شأنه مطلق الحكم

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 302/3.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 285/2.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 341/1.

(4) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 199/3.

(5) نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ص11.

والتأثير في كل شيء حسبما تقتضيه حكمته وإرادته) [1] ومن ثم فإن الأمر بالإيمان بالله سبحانه يشمل الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأنه داخل في الإيمان بربوبيته للكون تصريفا وتكليفا.

– وقدم الإيمان بما أنزل علينا –أي القرآن الكريم– على الإيمان بما أنزل على من قبلنا –مع كونه سابقا له– لأن ما أنزل إلينا هو الوسيلة الوحيدة الصحيحة لمعرفة ما أنزل على من سبقنا. فما نص عليه القرآن من الأنبياء والكتب نؤمن به إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل، مع يقيننا أن جوهر الدين واحد عند الجميع وهو الإيمان بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح.[2]

– والملاحظ أن النبي ﷺ أمر في هذه الآية[3] المتضمنة لميثاق الأنبياء أن يتكلم عن نفسه بنون المعظم نفسه كما يتكلم الملوك، وفي ذلك إجلال من الله سبحانه لقدر نبيه ﷺ في هذا الموقف العظيم، كما أشار الإمام الزمخشري –رحمه الله– في تفسيره. [4] وفيه دليل على مقدار الشرف العظيم الذي حازه نبينا ﷺ عند ربه سبحانه.

* وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(41)يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42)إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(43)يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(44)﴾[ق].

– أي: واستمع –أيها الرسول– بقلبك صيحة القيامة حين ينادي إسرافيل –عليه السلام– الخلائق، فلا يبعد أحد عن ذلك النداء كأنما ينادي في آذانهم لقربه. يومئذ يسمع الخلائق نفخة إسرافيل الثانية بلا امتراء، فذلك يوم الخروج من القبور للبعث والنشور، فنحن نحيي الخلائق ثم نميتهم ثم نخرجهم أحياء بعد الفناء، وإلينا وحدنا مرجعهم للحساب والجزاء. في ذلك اليوم تتصدع الأرض عنهم فيخرجون مسرعين من القبور استجابة للمنادي للاجتماع في عرصات القيامة لمحاسبتهم، وذلك جمع سهل علينا لا جهد فيه ولا عناء.[5]

– وفي هذا الأمر تهويل وتفضيع للمخبر به، [6] وهو مشهد عظيم من المشاهد التي حفل القرآن الكريم بها، يصور فيه الجبار سبحانه حال الأرض وهي تتصدع ليخرج الناس من قبورهم مسرعين إلى أرض المحشر بعد أن سمعوا صيحة النفخ في الصور.

---

(1) عبد الستار فتح الله سعيد، المنهاج القرآني في التشريع، رسالة مقدمة للحصول على درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه)، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ط1، 1413هـ-1992م، ص348.

(2) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 200/3.

(3) وقد تضمنت هذه الآية فائدة لطيفة وهي أنها افتتحت بالإيمان واختتمت بالإسلام الذي معناه الطاعة والانقياد، وتلك هي ثمرة كل دين جاء به نبي؛ فمن لم يثمر له إيمانه عملا صالحا علم أن في فهمه أو في قلبه خللا يستوجب التحديد والمعالجة. وقد أشار المراغي إلى هذا المعنى. [انظر: المراغي، تفسير المراغي، 200/3].

(4) انظر: المرجع السابق نفسه.

(5) انظر: محمد علي الصابوني، التفسير الواضح الميسر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط8، 1428هـ-2007م، ص 1314.

(6) انظر: أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي ت 982هـ، تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د ر ط ولا ت ط، 195/5.

ولقد أثر مضمون هذا الأمر وما في معناه من السور والآيات على قلب النبي ﷺ تأثيرا بالغا حتى ظهر على بدنه شيبا يراه الرائي عيانا. قال النبي ﷺ: (شيبتني هود وأخواتها).(1)

- وفيه أيضا تسلية وتعزية للنبي ﷺ عما يصيبه من الحزن والأذى من تكذيب الكفار له؛ لأن أحداث ذلك اليوم الهائل مشتملة على العناية به وظهور صدقه، وعلى عقوبة مكذبيه.(2)

- وتعلق مضمون هذا الأمر باليوم الآخر وسماه بأحد أسمائه وهو يوم الخروج، وفيه الإشارة الصريحة إلى الملائكة بالتنصيص على وظيفة أحد عظمائهم وهو المنادي الذي ينفخ في الصور؛ وهو إسرافيل أو جبريل في رأي كثير من المفسرين.(3) وهكذا تكون الأوامر الموجهة إلى النبي ﷺ قد شملت أركان الإيمان الست كلها.

الفرع الثاني: أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ المتعلقة بأقسام التوحيد

دل استقراء القرآن الكريم على أن توحيده سبحانه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد في ربوبيته، وتوحيد في عبادته، وتوحيد في أسمائه وصفاته،(4) وقد ورد إلى النبي ﷺ فيما تعلق بهذه الأقسام عدة أوامر في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، آثرت أن أبدأها بسورة الإخلاص لفضلها الكبير(5) ولاستغراق الأمر لها جميعا.

* قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4)﴾[الإخلاص].

– أي: قل -أيها الرسول- هو الله المتفرد وحده بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يشاركه فيها أحد. الله الذي كمل في جميع صفات الكمال والمجد والعظمة والشرف، الذي يقصده جميع الخلائق في حاجاتهم. ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة لكمال غناه، وليس له مثيل ولا نظير أبدا، لا في ذاته المقدسة، ولا في أسمائه وأوصافه العلا، ولا في أفعاله الحكيمة.(6)

- وروي في سبب صدور هذا الأمر العظيم -أو نزول هذه السورة العظيمة- ما أخرجه الطبري في تفسيره من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه- أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم 790، 286/17-287، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3720، 692/1.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 329/26.

(3) انظر على سبيل المثال: الزمخشري، الكشاف، 606/5؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 464/19؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 188/28؛ البغوي، معالم التنزيل، 366/7؛ الألوسي، روح المعاني، 194/26.-ف

(4) انظر: محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 488/3-489.

(5) روى البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل: (قل هو الله أحد)، رقم 5013، ص 947، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن).

(6) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، تقديم: وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1430هـ-2009م، ص604.

الصَّمَدُ(2)﴾.[(1)] فهذا الأمر جواب للمشركين وغيرهم ممن يريد معرفة الله سبحانه وتعالى سواء كان ذلك بدافع الفضول، أو لشدة حبه لله، أو رغبة في زيادة الإيمان، أو غير ذلك ،كما أنه دعوة خالدة للبشرية جميعا أن تترك الشرك بجميع صوره طاعة لأمر الله أولا، واحتراما لعقولها وفطرها الرافضة لوجود شريك مع الله ثانيا.

– وتضمن هذا الأمر –إضافة إلى اسم الجلالة الله– اسمين كريمين لله سبحانه هما الأحد والصمد، وثلاثة أوصاف كريمة هي أنه لا ولد له، ولا والد له، ولا كفؤ له.

– ومن بلاغة سورة الإخلاص الحاوية لهذا الأمر العظيم أنها اشتملت –مع قصرها– على رد كامل على اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين جميعا ، وهي بذلك تدرب العلماء المسلمين في كل عصر وتزودهم بأجوبة عن الشبهات التي يثيرها أعداء

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 727/24؛ وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ت 311هـ، في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، دار الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ-1988م، باب ذكر أخبار رويت عن النبي ﷺ، رقم (11-45)، ص 95؛ وعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي الشهير بابن أبي حاتم ت 327هـ، في تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة-الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م، رقم 19532، 3474/10؛ وعثمان بن سعيد الدارمي ت 280هـ، في الرد على الجهمية، تقديم وتخريج وتعليق: بدر البدر، الدار السلفية، الصفاة، الكويت، ط 1، 1405هـ-1985م، رقم 28، ص 23؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الإخلاص، رقم 3364، ص 763؛ وأبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي ت 322هـ، في كتاب الضعفاء، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد بن اسماعيل السلفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1420هـ-2000م، رقم 1706، 1294/4؛ وأبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، أسباب النزول، تخريج وتدقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط 2، 1412هـ-1992م، ص 472؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، في كتاب الأسماء والصفات، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي للتوزيع، د ر ط ولا ت ط، رقم 607، 39/2؛ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، 454/4؛ وأحمد في المسند، رقم 21538، ص 1542؛ أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني ت 365هـ، في الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، 460/7؛ وأبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الشهير بأبي الشيخ الأصبهاني ت 369هـ، في كتاب العظمة، دراسة وتحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، د ر ط ولا ت ط، رقم 89، ص 375-376؛ وأبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ت 297هـ، في كتاب السنة، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني (ظلال الجنة في تخريج السنة)، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط1، 1400هـ-1980م، رقم 663، 297/1-298؛ وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري ت 256هـ، في كتاب التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ر ط ولا ت ط، رقم 778، 245/1/1؛ والحاكم في المستدرك، رقم 3987، 676/2؛ وضعفه الألباني في ظلا الجنة في تخريج السنة، 298/1 المشار إليه قريبا.

الإسلام مرة بعد مرة حول عقائده وشرائعه. قال عكرمة:[1] (لما قالت اليهود نحن نعبد عزيرا ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله).[2]

* وقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(26)تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(27)﴾.[آل عمران].

– أي: قل -أيها الرسول داعيا ربك-: يا من لك الملك كله، أنت الذي تعطي الملك والمال والتمكين في الأرض من أردت من عبادك، وتسلب الملك ممن تريد، وتهب العزة من تريد في الدنيا والآخرة، وتسلط الذل على من تريد، بيدك الخير، إنك -دون سواك- على كل شيء قدير. ومن علامات قدرتك العظيمة أنك تدخل الليل في النهار، وتدخل النهار في الليل، فيزيد ذا وينقص ذاك، وتخرج ما فيه حياة مما لا حياة فيه، كإخراجك النخلة من النواة، والمؤمن من الكافر، والحيوان من النطفة، وتخرج ما لا حياة فيه مما فيه حياة، كإخراجك البيضة من الطير والكافر من المؤمن، وترزق من تريد من مخلوقاتك من غير عد أو تضييق.[3]

– وسبب نزول هذا الأمر الكريم -أو هاتين الآيتين الكريمتين- ما أخرجه الواحدي في أسباب النزول والطبري في تفسيره عن قتادة،[4] قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته؛ فأنزل الله ... الآية.[5] فكان دعاء النبي

---

(1) هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري، مولى ابن عباس رضي الله عنه. تابعي جليل علامة حافظ مفسر فقيه. كان غلاما لحصين بن الحر فوهبه لابن عباس. ارتحل إلى خراسان واصبهان ومصر. حدث عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وحدث عنه إبراهيم النخعي وعامر الشعبي وغيرهما من التابعين. مات سنة 107هـ بالمدينة. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 623، 504/5؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 421، 265/3].

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 396/8.

(3) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص53.

(4) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو السدوسي. تابعي جليل وعالم كبير، مفسر محدث إخباري. ولد سنة 60هـ بالبصرة. حدث عن أنس بن مالك وعبد الله بن سرجس وغيرهما من الصحابة والتابعين، وحدث عنه الأوزاعي وأيوب السختياني وغيرهما من أئمة الإسلام. مات سنة 117هـ في واسط. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 746، 90/6؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 541، 85/4؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 22، ص 14].

(5) أخرجه الطبري في جامع البيان، 303/5؛ والواحدي في أسباب النزول، ص 100؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 3352، 624/2؛ وعبد بن حميد كما نقله جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد

ﷺ ربه سببا في نزول أمر الله له بالدعاء، وفي هذا دليل على بركة الدعاء عموما وبركة دعائه ﷺ خصوصا، وعظم مكانة الدعاء عند الله؛ وفي الحديث (الدعاء هو العبادة).[1]

– ومن الفضل الخاص بهذه الآيات المتضمنة لهذا الأمر الكريم أن الدعاء بها –وهي في صيغة دعاء– نافع بإذن الله في تيسير قضاء الديون، وما أكثر المدينين في هذه الأمة اليوم، والدعاء من أهم الأسباب المشروعة؛ دل على ذلك ما رواه الطبراني في المعجم الصغير من حديث أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال قال رسول الله ﷺ لمعاذ– رضي الله عنه–: (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك، قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك).[2]

– وتضمن هذا الأمر تنبيها وإرشادا لنبينا ﷺ ثم لنا نحن المسلمين لرشكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أمتنا، أن حول النبوة من بني إسرائيل إلى نبينا العربي خاتم الأنبياء على الإطلاق، وخصه بخصائص لم تكن لنبي قبله، ومن ذلك أنه جعله رسولا إلى جميع الثقلين.[3] فمن أهداف القرآن ترسيخ الشكر في قلب المسلم –بل الإنسان عموما– ولسانه لله أولا، ثم لكل محسن إليه من الناس ثانيا، حتى يصير ذلك سجية فيه. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ

الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط 1، 1424هـ/2003م، 496/3؛ وصحح إسناده مخرج ومدقق أسباب النزول، فهو صحيح مرسل.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 18542، ص 1319؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة البقرة، رقم 2969، ص 664؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم 1479، ص 229؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الدعاء، رقم 3828، ص 631؛ وأبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة ت 235هـ، في المصنف، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1425هـ/2004م، كتاب الدعاء، في فضل الدعاء، رقم 29655، 15/10؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، ذكر البيان بأن دعاء المرء ربه في الأحوال من العبادة التي يتقرب بها إلى الله جل وعلا، رقم 890، 172/3؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم 1802، 643/1 وصحح إسناده، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ وقال الألباني –بعد نقله لحكم الحاكم وموافقة الذهبي له–: (وهو كما قالا). أحكام الجنائز وبدعها، ص 246.

(2) أخرجه أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ت 360هـ، في المعجم الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط، 1403هـ–1983م، رقم 552، 202/1؛ وجود إسناده المنذري، وحسنه محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ–2000م، رقم 1821، 360/2.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 20/2.

فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)﴾.[لقمان]. وفي الحديث الصحيح: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[1]

– كما اشتمل إشارة –أو بشارة– إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد ﷺ وأمته، ثم فعل ذلك ولله الحمد. فتحصيل الملك وفقده تبع لمشيئة الله سبحانه، ولا ينافي ذلك ما أجراه الله من الأسباب الكونية والدينية لحصول الملك وبقائه أو زواله.[2]

– واشتمل هذا الأمر –إضافة إلى اسم الجلالة– اسمين كريمين من أسمائه تعالى وهما المالك والقدير، وسبعة أوصاف كريمة هي أنه سبحانه: يؤتي، ويشاء، وينزع، ويعز، ويذل، ويرزق، وأن له يدا كما يليق به سبحانه.

* وقال سبحانه: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(95)﴾.[آل عمران].

– ففي هذه الآية أمر الله رسوله ﷺ أن يقول بلسانه صدق الله فيما أخبر ويخبر به رسوله، وهو الحق من الله، وأن يعتقد ذلك بقلبه؛[3] وهي عقيدة كل مسلم؛ إذن فاتبعوا أيها اليهود دين إبراهيم المستقيم على الحق، والذي لم يكن يوما أبدا على الشرك. كان هذا الأمر بعد إنكار اليهود على النبي ﷺ أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها مع أنها كانت محرمة في ملة إبراهيم بزعمهم، وهو يصرح أنه على ملته، فطالبهم ﷺ –بأمر من الله– أن يأتوا بالتوراة ويقرؤوا منها ما يثبت ذلك، فبهتوا ولم يفعلوا فتبين كذبهم.[4]

– وفي طيات الأمر المذكور تعريض بكذب اليهود في زعمهم أن ما حرم إسرائيل على نفسه من الأطعمة كان محرما في شريعة إبراهيم فما بعدها وفي التوراة، وفيه إشارة إلى صفة الكذب الملازمة لكثير من بني إسرائيل، وقد شهد بها عليهم شاهد من خيرة علمائهم أمام النبي ﷺ وهو عبد الله بن سلام –رضي الله عنه– الذي قال: (يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت).[5]

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 8006، ص 573؛ والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم 1955، ص 445؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، رقم 4811، ص 723؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة والثناء والشكر، ذكر ما يجب على المرء من الشكر لأخيه المسلم عبد الإحسان إليه، رقم 3407، 8/198-199، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه وشاذه من محفوظه، دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ/2003م، رقم 3398، 5/285.

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص110.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/588؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص122.

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 1/348-349.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم 3329، ص 608، وكتاب مناقب الأنصار، باب، رقم 3938، ص 715، عن أنس رضي الله عنه.

- كما تضمن المأمور به صفة الصدق لله سبحانه، بل قوله ووعده سبحانه في أعلى مراتب الصدق، فلا أحد أصدق منه. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا(122)﴾[النساء]،﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا(87)﴾[النساء].

* وقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)﴾[الزمر].

- أي قل: يا الله، يا خالق السماوات والأرض ومبدعهما، يا عالم السر والعلانية، أنت -لا غيرك- تقضي بين عبيدك وتفصل بينهم بعدلك فيما وقع بينهم من خلاف. والمقصود: فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين وانصرني عليهم. [1] والآية - كما يدل تفسير الطبري[2] لها- تعقيب من الله سبحانه على مضمون التي قبلها، والتي أخبر الله فيها عن حال المشركين الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، وإذا ذكر من دونه من الأوثان استبشروا.

- ففي هذا الأمر الكريم بيان عموم خلقه سبحانه، وعموم علمه لكل شيء، وعموم حكمه بين الخلائق. فالمخلوقات كلها ناشئة عن قدرته، والأشياء والأحياء والأحداث كلها واقعة في دائرة علمه المحيط، ولا يقدر على الحكم بين الخلائق إلا من كان ذا قدرة وعلم شاملين لكل شيء، ولا أحد كذلك إلا هو عز وجل.[3]

- وتضمن المأمور به -إضافة إلى اسم الجلالة- اسمين كريمين من أسمائه تعالى وهما الفاطر والعالم، وصفة من صفاته العلا وهي صفة الحكم.

- وبما أن مضمون هذا الأمر جاء في صيغة دعاء، ونظرا لما تضمنه من إجلال وثناء وتمجيد لله سبحانه وتعالى كان النبي ﷺ يفتتح به صلاة الليل كما حدثت به أمنا عائشة رضي الله عنها. روى مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان نبي الله - صلى الله عليه وسلم - يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).[4]

- ومن الفضل الخاص بهذه الآية المتضمنة لهذا الأمر الكريم أن الدعاء بها في الصباح والمساء -وهي في صيغة دعاء- نافع بإذن الله في حفظ المسلم من شر النفس الأمارة بالسوء، وشر الشيطان المتربص به، ولذلك أرشد النبي ﷺ إليه أحب أصحابه لديه -أبا بكر الصديق رضي الله عنه- حين طلب منه دعاء يتحصن به بكرة وعشيا. روى أحمد في مسنده عن أبي راشد

---

(1) انظر: الصابوني، التفسير الواضح الميسر، ص 1163.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 219/20.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص693.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم 770، ص 304-305.

الحبراني[1] قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة، فقال: هذا ما كتب لي رسول الله، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال له رسول الله ﷺ: (يا أبا بكر، قل اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسي سوءا، أو أجره إلى مسلم).[2]

* وقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)﴾[محمد].

– أي: فدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، واطلب المغفرة من الله لك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم أعمالكم في الدنيا ومصيركم في الآخرة.[3]

– فتضمن هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ كلمة هي عنوان الإسلام وعلمه، ومفتاحه وأساسه، وصميم الإيمان ولبه، ومحور الدين و قلبه؛ وهي أول ما ينطق به الداخل إلى الإسلام، وآخر ما يردده في هذه الحياة. هي منهج حياة لمن محض قلبه للتوحيد الخالص الذي دعا إليه جميع الأنبياء والرسل. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25)﴾[الأنبياء].

–والعلم المقصود في هذا الأمر –وهو العلم بتوحيد الله– فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان.[4] ولا شك أن النبي ﷺ كان يعلم ذلك قبل نزول الآية به، ولذلك قيل: معناه فاثبت عليه، وقيل: معناه فازدد علما على

(1) هو أبو راشد أخضر بن خوط الحبراني الحمصي. تابعي جليل ثقة من أهل الشام لم يكن في زمنه بدمشق أحد أفضل منه. روى عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عنه شريح بن عبيد وصفوان بن عمرو وغيرهما. [انظر مثلا: جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي ت 742هـ، تهذيب الكمال في اسماء الرجال، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1413هـ-1992م، رقم 7352، 299/33؛ أحمد بن عبد الله بن صالح أبي الحسن العجلي ت 261هـ، تاريخ الثقات، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1984م، رقم 1944، ص 497].

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 6597، ص 473؛ والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب، رقم 3529، ص 801؛ وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ت 256هـ، في الأب المفرد الجامع للآداب النبوية، تخريج وتعليق: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الجبيل، المملكة العربية السعودية، ط2، 1421هـ/2000م، رقم 1204، ص 442، واللفظ له؛ وصححه الألباني في تخريجه المشار إليه آنفا، وفي الصفحة ذاتها.

(3) انظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402هـ-1981م، 210/3.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص753.

علمك.[1] وكل مسلم اليوم في أمس الحاجة إلى الوصية بازدياد المعرفة بالتوحيد والثبات عليه اعتقادا لمعناه وعملا بمقتضاه، خصوصا في زمننا هذا، زمن الفتن والشبهات والشهوات.

* وقال سبحانه: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)﴾[المدثر].

– أي: أدم هجرانك للأوثان ولا تقربها.[2]

– فهو أمر من الله لنبيه ﷺ بترك الأصنام والأوثان والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل. والمقصود ترك الشرك والبراءة من كل مظاهره. ويحتمل أن يكون المراد بالرجز جميع أعمال الشر وأقواله، فيدخل فيه الشرك فما دونه من الذنوب.[3]

– وهذا الأمر مكمل للذي قبله، مساوق له، يجري معه في مضمار واحد؛ لأن اعتقاد أنه لا إله إلا الله يقتضي أن لا يشرك أحد في عبادته –كما لا يشرك في ربوبيته وأسمائه وصفاته– صنما كان أو بشرا أو غيرهما. وهو توكيد لعقيدة التوحيد –بجميع أقسامه– وترسيخ لها في التفكير والتطبيق.

* وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)﴾[الأنعام].

– أي: اقتف أثر القرآن واعمل بما فيه من الحق والهداية لأن الذي أوحى إليك بما فيه هو الله مالك أمرك ومدبر شؤونك، الذي لا إله غيره، ولا تبال بعناد المشركين ولا تلتفت إلى أقاويلهم الباطلة.[4]

– وفي آخر آية من سورة يونس تأكيد لهذا الأمر، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(109)﴾[يونس] وهو تنبيه على أهمية اتباع الوحي، وعلى ضرورة لزومه، وأنه مصدر الحق والصواب؛ خلافا للابتداع في الدين فإنه مبدأ الانحراف ومصدر الضلال، كما أخبرنا سبحانه في مواضع عديدة من كتابه أن من أسباب ضلال الأمم الماضية تحريفها لكتبها لفظا أو معنى.

– وفي موضوع الاتباع نفسه ورد الأمر إليه ﷺ باتباع ملة إبراهيم –عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)﴾[النحل]؛ ولا تناقض في ذلك أبدا؛ لأن ملة محمد ﷺ هي ملة أبيه إبراهيم كما أوضح القرآن الكريم وهو يخاطب الرسول وأمته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 285/7.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 462/5.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص856.

(4) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 175/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 226/3.

هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)﴾[الحج]. فهما متوافقتان في الأصول كالتوحيد ونبذ الشرك وسائر مسائل الاعتقاد و مشروعية الصلاة والحج وفعل الخير وغيرها.

– واشتملت هذه الآيات الثلاث أمرا مشتركا [1] يحدد للنبي ﷺ السبيل الموصلة إلى الغاية المنشودة وهي إرضاء الله سبحانه، بدءا بالإيمان الكامل به، وتوحيده توحيدا خالصا، واعتقاد سائر ما جاء به الوحي من أصول العقيدة وفروعها، مرورا بالعبادات المفروضة والمسنونة وكل الطاعات المبرورة، وانتهاء بأعمال الدعوة إلى الله وتبليغ الوحي الخاتم إلى الناس... كل ذلك لا سبيل إلى معرفته ولا طريق لتلقي ما تعلق به من الأوامر والنواهي إلا طريق الوحي المنزل عليه.

* وقال سبحانه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(9)﴾[المزمل].

– أي: ربك –يا محمد– هو رب الكون كله ومالك جميع جهاته ومدبر كل شؤونه لا ينازعه أحد في شيء من ذلك ففوض إليه كافة أمورك فسيكفيكها، واستمد منه العون والقوة للقيام بأعمالك فسيمدك.[2]

– فالآية حوت أمرا للنبي ﷺ أن يتخذ الله وكيلا؛ لأنه وحده الجدير بذلك لانفراده بربوبية العالم وألوهيته، وأن يكون ذلك في شؤونه عامة، إذ أنها لم تحدد شأنا خاصا يكون موضوعا لذلك التوكل، ومعلوم أن (حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف).[3]

– وتضمنت دليلا على أن من أسمائه سبحانه الوكيل؛ وعضدته نصوص أخرى في هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)﴾[آل عمران]، وقوله عز وجل: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(81)﴾[النساء]. والوكيل (فعيل بمعنى مفعول ، أي موكول إليه. والمراد من اتخاذه سبحانه وكيلاً أن يعتمد عليه سبحانه ويفوض كل أمر إليه عز وجل)؛[4] وعبارات المفسرين في معنى الوكيل –وإن تعددت– متكاملة أو متقاربة؛ حتى أن بعضهم جمعها معا، كما فعل السمرقندي حين قال: (يعني وليا وحافظا وناصرا وكفيلا).[5]

---

(1) وقد تضمنت الآيات الواردة في هذا الفرع –وما كان في مثل مضمونها– الغاية من خلق الكون وإنزال الوحي وهو أن يعرف الثقلان ربهما معرفة صحيحة، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أسمائه وأوصافه، والتدبر في النفوس والآفاق.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)﴾[الطلاق].

(2) انظر: الصابوني، التفسير الواضح الميسر، ص 1483.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 898.

(4) الألوسي، روح المعاني، 29/106-107.

(5) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ت 375هـ، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1413هـ – 1993م، 3/417.

- ووردت إليه ﷺ أوامر أخرى بالتوكل مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159)﴾[آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79)إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(80)﴾[النمل]، ولكنها متعلقة بتعامله مع غيره باعتباره رسولا أو باعتباره حاكما، ولذلك سنرجئ إيرادها والحديث عنها إلى موضعها المناسب.

- وبما أن الأمر باتخاذه سبحانه وكيلا ترتب على تفرده بالألوهية كان معنى ذلك النهي عن اتخاذ وكيل غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله.[1] ومن هنا تعين على كل مسلم حريص على سلامة عقيدته ألا يعتمد -بعد تقديم الأسباب الدنيوية المتاحة- إلا على الله. قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(11)وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(12)﴾[إبراهيم]، فلا يعلق قلبه بنبي ولا ولي ولا ضريح ولا غير ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا(3)﴾[الطلاق].

- ومن لطائف هذه الآية ما نبه إليه الرازي[2] بقوله: (لما كانت معرفة أنه لا إله إلا هو توجب تفويض كل الأمور إليه دل هذا على أن من لا يفوض كل الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو)،[3] وهذا أمر مشاهد في واقع كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم؛ فإن ثقتهم في الأسباب أعظم من توكلهم على ربهم، يظهر ذلك في معاملاتهم وأحاديثهم المصطبغة بالصبغة المادية، المتسمة بضعف الإيمان، وهذا -ولا شك- من أسباب الخذلان الذي حل بالأمة في هذا العصر، والذي لن يرفع حتى يعود إليها يقينها بأن التوكل على الله أجدى عليها من كل سبب، وأن الأسباب تضم إليه ولا تغني عنه.

وخلاصة هذا المطلب أن ثلاثة من أركان الإيمان الكبرى خصت بأوامر تزيدها بيانا وتفصيلا، وهي الإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر. ففيما تعلق بالإيمان بالله جاءت الأوامر مبينة أقسام التوحيد الثلاثة مركزة على توحيد الألوهية لأنه أهمها، وذكرت نماذج لأسماء الله الحسنى وصفاته العلا وأفعاله الحكيمة، وحذرت من الآثام عموما والشرك خصوصا؛ وأما ما تعلق بالكتب فجاء الأمر إليه ﷺ ليعلن إيمانه بها جميعا دون استثناء، وفي ذلك إظهار لمخالفته ﷺ لأهل الكتاب الذين يؤمنون بكتب أنبيائهم

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 267/29.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التيمي البكري، الشهير بفخر الدين الرازي. مفسر لغوي فقيه أصولي شافعي. ولد في الري سنة 544هـ وإليها ينتسب، وفيها بدأ طلب العلم ثم رحل إلى خوارزم وبلاد ما وراء النهر وخراسان. من شيوخه أبوه ضياء الدين خطيب الري وكمال الدين السمناني، ومن تلاميذه قطب الدين إبراهيم بن علي المصري وشمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي، ومن مؤلفاته معالم أصول الدين والمحصول في علم الأصول. توفي سنة 606هـ بهراة. [انظر مثلا: ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 600، 248/4؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 257، ص 213].

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 180/30.

فحسب ويكفرون بما عداها؛ وأما ما تعلق باليوم الآخر فصدر إليه ﷺ أمر تضمن أنموذجا لتفاصيل ما سيجري يوم القيامة من أهوال شداد.

وخلاصة هذا المبحث:

أن الأوامر التي تم إيرادها في هذا المبحث بينت للنبي ﷺ وجوب الإيمان بكل ما يوحى إليه به، وعددت له أركان الإيمان مع التفصيل في ثلاثة منها، وهي الإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر ، ثم شرحت أقسام التوحيد مركزة على توحيد الألوهية الذي ضل فيه أكثر البشرية قديما وحديثا، ذاكرة نماذج زاكية لأسماء الله الحسنى ولصفاته العليا وأفعاله الحكيمة الدالة على ملكه الشامل وقدرته التامة وعلمه المحيط، ثم حذرته من الشرك خاصة ومن الذنوب عامة، (فإن أول ما يجب معرفة الصانع جل جلاله، ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه)،[1] ثم ختمت ببيان الطريق الموصلة إلى معرفة جميع المأمورات المفصلة لكل الواجبات المحققة لمرضاة موجد الكائنات وقيوم الأرض والسماوات، كما دلت على أن ما أمر به ﷺ من الاعتقادات لم يزد شيئا عما يشارك فيه عموم المسلمين.

- ومن اللطائف أن الآية المشتملة على الأمر الذي ختمنا به بحثنا هذا وجهت إلى تفعيل الإيمان المأمور به في القلب، وتحويله إلى طاقة خلاقة تدفع صاحبها إلى السعي في إنجاز أعماله وتحقيق أهدافه وهو مطمئن إلى أن إلهه الذي يملك الكون ويديره سيكون عونا له وناصرا، فلا تثبطه صعوبة يلقاها، ولا ترهبه جهة يخشاها.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العبادات عموما والبدنية منها خصوصا

نص القرآن الكريم على أن عبادة الله سبحانه -بعد معرفته- هي وظيفة الجن والبشر جميعا.قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56)﴾[الذاريات]. والنبي ﷺ ليس استثناء من هذه القاعدة الشاملة، فهو بشر لا يختلف عن سواه من البشر المعاصرين له فمن بعدهم إلا بنزول الوحي عليه دونهم؛ وقد أمره الله أن يعلن هذه الحقيقة للناس بكل وضوح. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110)﴾[الكهف].ومن ثم كان مأمورا بعبادة الله تعالى باعتباره إنسانا مسلما.

فما الأوامر التي توجهت إليه في هذا المجال؟ وهل خص بعبادة ما دون سائر المسلمين؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه من خلال المطلبين الآتيين:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 418/5.

المطلب الأول: أوامره تعالى إلى النبي عليه الصلاة و السلام المتعلقة بالعبادة عموما

المطلب الثاني: أوامره تعالى إلى النبي عليه الصلاة و السلام المتعلقة بالعبادات البدنية خصوصا

المطلب الأول: أوامره تعالى إلى النبي ﷺ المتعلقة بالعبادة عموما

قضى النبي ﷺ مرحلة ما بعد نزول الوحي عليه يدعو الناس إلى الإسلام، ويأمرهم بعبادة الله وحده، ويشرح لهم تفاصيل الدين الذي أنزل عليه. فهل أمر هو ﷺ بالإسلام استقلالا؟ وهل أمر بالعبادة كذلك؟ وهل رسمت له الخطوط العريضة لهذا الدين أو الضوابط المرعية لأداء هذه العبادات؟ وما هي؟ أم أن شيئا من ذلك لم يكن تعويلا على كونه أحد المسلمين؟ للإجابة على هذه الأسئلة سنستقرئ الأوامر الموجهة إليه ﷺ في هذا المجال، ولن نوردها على ترتيب المصحف، بل على ترتيب منطقي يجعلها وحدة متناسقة ومتكاملة فيما بينها.

* لما كان الإسلام اسما للأعمال الظاهرة المأمور بها شرعا [(1)] فإن النبي ﷺ أمر بالإسلام بمعناه الشامل، بل أمر أن يكون أول البشر المعاصرين له إسلاما. قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(12)﴾[الزمر].

– أي: وأمرني ربي سبحانه بأن أكون أول من يسلم من هذه الأمة.[(2)] لأنه الداعي الذي يهدي الناس إلى ربهم، فيقتضي ذلك أن يكون أول من يأتمر بما يأمر به، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.[(3)]

– وقد نفذ النبي ﷺ هذا الأمر أكمل ما يكون التنفيذ وأتمه. قال القرطبي في تفسيره: (وكذلك كان، فإنه كان أول من خالف دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه ﷺ).[(4)]

– ولابن عاشور توجيه آخر للأولية المذكورة في الآية –غير الذي ذكرناه وهو الشائع عند المفسرين– ولكنه لم يكتف بترجيح رأيه، بل نفى الصواب عن غيره، مستدلا بأن مجرد السبق في الزمان لا جدوى في الإخبار به؛ لأنه حصل. قال –رحمه الله–: (المقصود أنه مأمور بأن يكون أقوى المسلمين إسلاما، بحيث أن ما يقوم به الرسول ﷺ من أمور الإسلام أعظم مما يقوم به كل مسلم كما قال: (إني لأتقاكم لله وأعلمكم به)). [(5)]

أقول: مع سلامة المعنى الذي رآه ورجحه إلا أن ذلك لا ينفي صواب قول الجمهور؛ لأن السابقة معتبرة وممدوحة بنص القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 53.

(2) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 73/3.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 687.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 259/18.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 358/23.

وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(10)﴾[الحديد].

– وتضمن هذا الأمر الإلهي التنبيه على كونه ﷺ رسولا من عند الله تجب طاعته؛ لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسولا من الله، إذ أول من يعرف التكاليف والشرائع هو الرسول المبلغ، [1] كما حوى التنويه بفضل الإسلام وشرف المسلمين،[2] ولذلك توجه الأمر إلى النبي ﷺ أن يحوز قصب السبق فيه، فكان ذلك له؛ لأنه أهله وأحق الخلق به.

* وبما أن الأعمال الظاهرة –على اختلافها– في حاجة إلى ما ينظمها فيضبط كيفياتها وأعدادها وهيئاتها وأوقاتها وأماكنها وأحكامها فإن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ باتباع الشريعة التي شرعها له بإحكام لتكون أعماله جميعا على النحو الصحيح الذي يريده سبحانه ويرضيه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(18)﴾[الجاثية].

– أي: ثم شرعنا لك –أيها النبي– من أمرنا الديني شريعة كاملة متكاملة الجوانب، تقود إلى كل نفع وخير وتنهى عن كل ضرر وشر، فاقتفها فإن في اقتفائها سعادة الأبد وصلاح الدنيا والآخرة، ولا تقتف آراء الكفار الجاهلين؛ لأنها نابعة من الهوى لا من العلم بالله ودينه.[3]

– فهذه الجملة المتضمنة لأمر النبي ﷺ باتباع الشريعة التي جعل عليها عطفت على الجملة السابقة لها والمتضمنة لما أوتيه بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوءة والبينات من الأمر بحرف (ثم) الذي يفيد التراخي الرتبي؛ ففيه تنويه بذلك الجعل، وإشارة إلى أن نبوة نبينا وكتابه وحكمه وشريعته أفضل مما أوتيه بنو إسرائيل.[4]

– واختلاف شريعة نبينا ﷺ عن شرائع الأنبياء السابقين له، إنما هو في الأحكام الشرعية الفرعية وتفاصيلها حسب ما تقتضيه حكمة أحكم الحاكمين المراعية لتغير الزمان وتطور المجتمعات، أما العقائد والمكارم والمصالح فلا مغايرة بينها.[5] ولذلك لما ذكر –سبحانه– أولئك الأنبياء الثمانية عشر في سورة الأنعام منوها بهم أمر نبيه محمدا ﷺ بالاتساء بهم والاقتداء بهديهم. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ(89)أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾؛ لأنهم –وإن كان خيرهم وسيدهم– إلا أنهم سبقوه من ناحية الزمن ويشاركونه في كثير من جوانب الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعا؛ ومن فضل الفاضل أن يقتدي بالمفضول فيما سبقه إليه من الخير.

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ، 255/26.

(2) انظر: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف مصطفى مسلم، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي–جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1431هـ–2010م، 489/6.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 743.

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 347/25.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 154/19.

- وأفاد الحرف (على) -الذي هو للاستعلاء، والدال على التمكن والثبات- أن النبي ﷺ متمكن من الشريعة ثابت عليها عامل بجميع ما فيها من الأحكام، لا يزعزعه شيء عن اتباعها والتمسك بها.(1)

- وأتبع -سبحانه- أمره لنبيه ﷺ باتباع الشريعة بنهيه له عن اتباع الجاهلين من المشركين وغيرهم ممن لا علم لهم بالله وحقائق دينه -الذين اتخذوا إلههم هواهم- لأنهم يقودون من سلم لهم عقله إلى الضلال في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ وهؤلاء موجودون في كل زمان، ونحن المسلمين أحوج إلى الحذر الشديد منهم اليوم لشدة كرههم للإسلام ونبيه، ومكرهم بالمسلمين ومصالحهم، مع تطور هائل في وسائلهم وخططهم، وتعاون بينهم في الداخل والخارج، يوازيه ضعف شديد وجهل أشد وغفلة سادرة في الشعوب المسلمة؛ ولا سلاح لنا -بعد دعاء الله والتوكل عليه- إلا اليقظة والتمسك بما معنا من الحق المنزل على رسولنا ﷺ.

* ولما كانت الحياة ملأى بالمثبطات والمعوقات والشواغل والصوارف التي قد تصرف انتباه الإنسان يمينا أو يسارا، أو تحرف مساره عن الخط المستقبم الذي رسمته الشريعة فقد صدر الأمر إليه ﷺ أن يكون شديد الانضباط في سيره على الصراط المستقيم الذي حدده الدين، دون التفات. قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)﴾[يونس].

أي: استقم إليه، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا، مقبلا على الله، معرضا عما سواه.(2)

- ولأهمية هذا الانضباط -خصوصا لمن هو قدوة ترمقه العيون وتترصده الخصوم ويستغل المغرضون هفوته للاحتجاج بها على الدين والمتدينين- فقد جاء التأكيد عليه -باللفظ نفسه الوارد في الآية الآنفة- في موضعين من سورة الروم، هما قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)﴾. وتكرر أيضا بلفظ (استقم) -الذي هو مزيد (أقم)- في موضعين آخرين:

أحدهما قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)﴾[هود].

قال السعدي: (أمر نبيه محمدا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك).(3)

والثاني قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[الشورى:15].

قال الطبري: (واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة).(1)

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 25/347-348.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 25/347-348.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 367.

وإنما نقلت تفسيري السعدي والطبري لمضموني الأمرين الأخيرين ليعلم أن معنييهما يجريان مع معاني الأوامر الثلاثة في مضمار واحد.

-وقد أقام ﷺ وجهه للدين حنيفا واستقام عليه تماما كما أمره ربه، حتى غدا بالنسبة لكل إنسان عاصره أو جاء بعده (صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة كي يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه. ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة ، فإنه واجد كل ذلك في حياة الرسول ﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال، ولذا جعله الله قدوة للإنسانية بأسرها إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:21]).[2]

* وبما أن عبادة الله –جل جلاله– هي أبرز مظاهر الإسلام، ولب الشريعة وأهم مقاصدها الكبرى، والغاية من خلق الجن والإنس كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56)﴾[الذاريات]، والهدف من بعثة الرسل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:36] فإن الله أمر نبيه ﷺ بعبادته. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)﴾[هود].

– أي: أنه سبحانه هو العالم بما غاب وخفي في العالمين العلوي والسفلي والمالك له، لا تخفى عليه هباءة فما دونها مما فيهما، وكل شيء مردود إليه، فينتقم من العاصي ويثيب الطائع، فقم بعبادته وفوض أمرك إليه فإنه كافي من اعتمد عليه، وهو سبحانه غير ساه عما يفعل الخلائق فيجازي كل فاعل بما فعل.[3]

– فأمره سبحانه للنبي ﷺ بعبادته دليل على وجوبها [4] عليه كما هي واجبة على سائر المسلمين، وإن كانت عليه أوجب وأوكد.

– ولأهمية هذا الأمر فقد أكده سبحانه بالتنصيص عليه مرارا في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(66)﴾[الزمر].

– وتفريع الأمر للنبي ﷺ بعبادة الله والتوكل عليه على رجوع الأمر كله إليه –جل شأنه– ظاهر المعنى؛ لأن من يملك مصائر الخلق ويحدد وحده الثواب والعقاب هو الجدير بالعبادة، وهو تعريض بالتخطئة والتضليل لمن يعبدون غير الله ويعولون على

---

(1) الطبري، جامع البيان، 485/20.

(2) محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان – دار الفكر، دمشق، سورية، ط10، 1411هـ-1991م، ص21-22.

(3) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 37/2-38.

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 591/2.

شفاعة الأصنام والأوثان.[1]

– وفي عبادة الله سبحانه والتوكل عليه –إضافة إلى القيام بالواجب– راحة العبد وطمأنينته القلبية وزوال همه وذهاب غمه وصلاح حاله ووصوله إلى رضوان مولاه،[2] وعلاج لكثير من الأمراض النفسية المتفشية في المجتمعات المعاصرة –بما فيها المجتمع الجزائري– والتي ولدها البعد عن الله والتنكر لدينه وعبادة المادة وحصر طلب السعادة في لذات الجسد. قال إبراهيم بن أدهم[3] –معبرا عما يجده هو وأمثاله من لذة العبادة–: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم).[4]

* ووردت إليه ﷺ أوامر أخرى تتعلق بالعبادة عموما، فهي تحدد لها الخطوط العريضة وتضبط لها الشروط الضرورية حتى تحقق أهدافها ولا تخرج عن مسارها المرسوم لها. ومن تلك الأوامر:

• قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)﴾[الرعد].

وهو أمر للنبي ﷺ بتوجيه العبادة –أيا كان نوعها– إلى الله وحده دون سواه. قال القرطبي: (أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له)[5]

• قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2)﴾[الزمر].

وهو أمر للنبي ﷺ بتمحيض العبادة لله، وجعلها صافية من كل شائبة لغيره. قال الطبري: (أخلص له الألوهة وأفرده بالعبادة ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا كما فعلت عبدة الأوثان).[6] ولأهمية هذا الأمر أكده سبحانه في موضعين من السورة نفسها،

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 195/12.

(2) انظر: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المالكي ت 875هـ، تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق وتخريج: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1418هـ - 1997م، 309/3.

(3) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي الخراساني البلخي. تابع تابعي عالم زاهد عابد قدوة. ولد في حدود 100هـ في كورة بلخ من بلاد خراسان (وقيل في مكة)، وفيها نشأ ثم ارتحل إلى لكوفة ثم إلى الشام. حدث عن أبيه وأبي إسحاق السبيعي ومنصور بن المعتمر وغيرهم، وحدث عنه سفيان الثوري وشقيق البلخي وبقية بن الوليد. مات سنة 162هـ في الشام. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1143، 294/7؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 6، 31/1].

(4) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ت 430هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1409هـ - 1988م، 370/7-371.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 83/12.

(6) الطبري، جامع البيان، 155/20.

وهما: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11)﴾[الزمر]، وقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي(14)﴾[الزمر].

– ومضمون هذا الأمر غير مختلف عن الذي سبق، والفرق بينهما أن السابق تناول المعبود فنهى أن يشرك معه غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(51)﴾[الذاريات]، أما هذا فتناول العبادة، فنهى أن يصرف منها شيء لغير الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60)﴾[يس]. والمقصود هو صرف العبادة كاملة لله وحده مع الحذر الشديد من الشرك صغيرا كان أو كبيرا.

– وفي هذا تنبيه شديد للمسلمين اليوم أن ينتبهوا إلى ما يشوب عباداتهم من الرياء وأنواع البدع وألوان الشرك –مقصودا كان أو غير مقصود– كالاستغاثة بالموتى والجمادات ودعاء غير الله والتبرك بالجدران والأضرحة والنذور للمقابر وغيرها من الأعمال التي لا تختلف كثيرا عما كان في الجاهلية الأولى، وربما زادت عليه في بعض البلاد.

• قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65)﴾[مريم].

وهو أمر للنبي ﷺ بأن يصبر نفسه على مشاق العبادة، ويأطرها على تحمل تكاليفها من العناء والتعب أثناء أدائها. قال السعدي: (أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات).[1]

– ونحن المسلمين اليوم أحوج ما نكون إلى الاصطبار لعبادة الله وتفعيل هذا الأمر في نفوسنا بسبب ضعف إيماننا وانحطاط هممنا، ودلائل ذلك كثيرة. وقارن –إن شئت– بين عدد من يصلون العشاء في المسجد –في رمضان– وعدد من يبقى لأداء التراويح، ثم قارن بين عدد هؤلاء الباقين وبين عدد من يستمر إلى الركعة الأخيرة منه.

ووازن بين عدد من يصلون أول جمعة في رمضان وعدد من يصليها في آخر جمعة منه فإنك واجد في ذلك شاهدا على ما أقول؛ والأمثلة أكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى.

• قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)﴾[الحجر].

وهو أمر للنبي ﷺ بأن يستمر في عبادة ربه مدى الحياة، ولا يتوقف عنها حتى يأتيه أجله؛ لأن اليقين هنا معناه الموت،[2] كما في قوله تعالى مخبرا عن جواب أهل النار لمن سألهم عن سبب سلوكهم في سقر: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47)﴾[المدثر]. قال القاسمي: (و(اليقين): الموت؛ فإنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق، وإسناد الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجه إلى الحي طالب

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 471.

(2) انظر: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت 597هـ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، تحقيق: علي حسين البواب، مكتب المعارف، الرياض، ط1، 1407هـ – 1986م، 286/1.

للوصول إليه. والمعنى دم على العبادة ما دمت حيا، كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(31)﴾.[1]

وهذا الأمر -وإن كان موجها للنبي ﷺ- يدفع كل مسلم ذي قلب حي إلى توطين نفسه على المثابرة في عبادة مولاه، خصوصا ما كان منها فرضا حتى يحين أجله.

• قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(8)﴾[المزمل].

وهو أمر للنبي ﷺ بأن يتجرد إلى الله تعالى تجردا تاما من كل الشواغل والاهتمامات، ويتفرغ لعبادته وحدها. قال النسفي: (انقطع إلى عبادته عن كل شيء، والتبتل الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره).[2]

ولا يفهم منه بداهة أن يترك الأعمال الدنيوية النافعة، وما يتصل بها من ضرورات العيش وحقوق النفس والغير، فإن الله أمر بالسعي في طلب الرزق ، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) ﴾[الملك]، ورغب -على لسان نبيه- ترغيبا شديدا في إيصال النفع إلى الناس، بل وإلى كل ذي كبد رطبة، فقال ﷺ: (أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا ...)؛[3] وإنما المقصود هو تعليق الفؤاد بالله، وجعل عبادته محل الاهتمام الأول و(الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه).[4]

- وفي هذا تنبيه شديد لنا نحن مسلمي هذا الزمان، فقد انقطع أكثرنا إلى الدنيا يطلبها بكل ما أمكنه من وسائل الطلب، ويجتهد في تحصيل حطامها أعظم الجد، فإذا حان وقت العبادة أعطاها أقل وقت ممكن، واقتصر فيها على ما يجزئ، أو خصص لها ما فضل عن أشغاله الدنيوية من وقت آخر النهار، فجمعها فيه باقتضاب وعلى مضض ليوفر الوقت لنومه

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل، 3774/10.

(2) النسفي، مدارك التنزيل، 556/3.

(3) أخرجه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، في المعجم الأوسط، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ر ط، 1415هـ-1995م، رقم 6026، 139/6-140؛ وأبو الشيخ الأصبهاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ت 369هـ، في كتاب التوبيخ والتنبيه، تحقيق وتعليق: أبو الأشبال حسن بن أمين بن المندوه، مكتبة التوعية الإسلامية للطبع والنشر والتوزيع، الجيزة، ج م ع، ط 1، 1408هـ، رقم 94، ص 122-123؛ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 906، 574/2-575.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 854.

وراحته. هذا إن تذكرها وأداها؛ وإلا فإن كثيرا من هذا الأكثر لا يقيم وزنا للعبادة ولا يؤدي منها إلا ما اضطره إليه الحياء من الناس أو مجاملتهم.

- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ(7)﴾[الشرح]. [1]

وهو أمر للنبي ﷺ أن يجتهد ويكد في عبادة الله ودعائه إذا تفرغ من شؤون الدنيا وأمور الناس أو من الفرائض كالصلاة والجهاد والدعوة. قال الثعالبي: [2] (والنصب: التعب، والمعنى: أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر، وقال ابن عباس: إذا فرغت من فرضك فا نصب في التنفل عبادة لربك). [3] فالمقصود أنه ﷺ مطالب بالجد في العبادة مع المداومة عليها، ولا شك أن أمته معنية بذلك الاجتهاد؛ إذ هي مأمورة بالاقتداء به ﷺ.

وإن القلب ليتألم أن يرى تلك الأعداد المتكاثرة من الشباب والكبار يقضون سحابة يومهم وهزيعا من ليلهم في المقاهي والشوارع متسكعين، يخوضون مع الخائضين، فإذا تعبوا أخلدوا للنوم فأسرفوا فيه كما أسرفوا في اليقظة.

وخلاصة هذا المطلب : أن النبي ﷺ أمر بالإسلام استقلالا، وأمر بعبادة الله بنصوص موجهة إليه خاصة،كما وجهت إليه أوامر ربانية أخرى تحدد له شخصيا ضوابط العبادة حتى تحقق الغاية منها وتحرز القبول عند الله ، وهي: الإخلاص فيها لله والاصطبار على مشاقها والمداومة عليها مدى الحياة وأن ينقطع إليها عن كل الشواغل مع الكد فيها والجد في أدائها.

المطلب الثاني: أوامره تعالى إلى النبي ﷺ المتعلقة بالعبادات البدنية خصوصا

العبادات البدنية –إضافة إلى آثارها على نفس وقلب صاحبها في الدنيا وأجوره المرصودة له في الآخرة– هي شعائر ظاهرة، يدعو بها العابد غيره في صمت، ويعلن تميزه عمن عداه من أصحاب الأديان الأخرى. فما العبادات البدنية التي أمر بها النبي ﷺ؟ وما ضوابطها وشروطها؟

في هذا المطلب محاولة لاستقراء الأوامر الواردة في هذا المجال حتى نتمكن من الإجابة عن السؤال؛ ولن أورد الآيات المتضمنة لها على ترتيب المصحف، بل أوزعها على مجموعات بحسب موضوعها رعاية لانسجامها فيما بينها.

---

(1) وفي هذا فائدة وهي أن حياة المسلم ليس فيها بطالة ولا فراغ ولا لهو تافه أو قتل للوقت كما يسميه من لا يعرف قيمة العمر، بل هي حياة ملأى بالتعلم والتعليم والعمل والعبادة والاستفادة والإفادة.

(2) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري. مفسر فقيه محدث فاضل زاهد. ولد سنة 786هـ بالجزائر ودرس على علمائها ثم انتقل إلى تونس ثم ارتحل إلى المشرق، وقيل: أنه زار المغرب أيضا. من شيوخه عبد الواحد الغرياني وأبو القاسم العبدروسي، ومن تلاميذه ابن سلامة البسكري وأبو العباس الجزائري، ومن مصنفاته روضة الأنوار في الفقه والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة. توفي سنة 876هـ. [انظر مثلا: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، رقم 393، 152/4؛ الزركلي، الأعلام، 331/3].

(3) الثعالبي، الجواهر الحسان، 605/5.

* فمن تلكم الأوامر ما تضمن شروط الصلاة وهي جملة من الاستعدادات الشرعية التي تسبق أداءها وتهيئ جوها المطلوب الذي يرشحها للقبول.

• كقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)﴾[المدثر]

أي: نقها مما هو نجس، فإن ذلك واجب في الصلاة، وأفضل وأكمل في غيرها من الأحوال، وذلك بصيانتها وحفظها من كل ما ليس طاهرا، وغسلها إذا تلطخت، وتقصيرها إذا طالت؛ لأن طولها يؤدي إلى جرها على القاذورات، وهو أول أمر له عليه الصلاة والسلام برفض العادات الجاهلية القبيحة. وقيل هو أمر له ﷺ بتطهير النفس من الأعمال المستقذرة والأحوال المستهجنة.[1]

– وفي هذا الأمر شرط طهارة الثياب كما يدل عليه ظاهر الآية، وهو أحد شروط الصلاة. (قال ابن سيرين [2] وابن زيد: لا تصل إلا في ثوب طاهر، واحتج بها الشافعي على وجوب طهارة الثوب).[3]

– وفيه إشارة إلى فائدة عظيمة لا تقل نفعا عن تطهير الثياب، بل ربما ربت عنه، وهي ضرورة تطهير النفس والقلب والأخلاق مما قد يعلق بها من الأدران المعنوية التي تدسيها. (قال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر. وقريب منه قول من قال: وعملك فأصلح ... وعن الحسن والقرظي، قالا: خلقك حسنه. فكنى بالثياب عن الأعمال، وهي الدين والتقوى والإيمان والإسلام وتطهيره إصلاحه وتخليصه من المفسدات له، وبذلك تحصل طهارة النفس والقلب والنية. وبه يحصل حسن الخلق؛ لأن الدين هو الطاعات التي تصير عادة وديدنا وخلقا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4)﴾[القلم])[4]

• وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.[البقرة:144].

---

(1) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 418/5.

(2) هو أبو بكر محمد بن سيرين الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك رضي الله عنه. تابعي جليل عالم فقيه محدث ناسك فصيح جميل. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر –وقيل: عثمان– رضي الله عنهما. حدث عن أبي هريرة وعمران بن حصين وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهما، وحدث عنه قتادة بن دعامة وأيوب السختياني وغيرهما من أئمة الإسلام. مات سنة 110هـ بالبصرة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 613، 487/5؛ الذهبي، العبر، 103/1].

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 365/2.

(4) أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ت 795هـ، روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، جمع وتأليف وتعليق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ/2001م، 505/2.

– أي: نحن نبصر –أيها الرسول– تردد نظرك إلى جهة السماء مرة بعد أخرى رغبة منك في نزول الوحي بتحويل القبلة من بيت المقدس قبلة اليهود إلى الكعبة المشرفة قبلة أبيك إبراهيم، فلنوجهنك إلى قبلة تحبها وتتمناها، فتوجه ناحية المسجد الحرام. وفي أي موضع كنتم –معشر المسلمين– من بر أو بحر فاستقبلوا جهته بوجوهكم أثناء الصلاة.(1)

– ويزيد معنى الآية وضوحا ما أخرجه الشيخان –في سبب نزولها– عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر –أو سبعة عشر– شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ ...(2)

– ومضمون هذا الأمر هو أول نسخ وقع في الشريعة. قال البغوي: (هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة، وأمر القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع).(3)

– وفيه تنصيص على شرط من شروط الصلاة ألا وهو استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونفلها.(4)

– ولأهميته ضمن شروط الصلاة فقد أكده تعالى بتكرار إصداره مرتين أخريين في آيتين متتاليتين من السورة نفسها التي ورد فيها الأمر محل الحديث، ألا وهي سورة البقرة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(149)وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(150)﴾.

– وفي التنصيص على المسجد دون الكعبة تلميح إلى كفاية استقبال جهتها للمصلي البعيد عنها الذي لا يرى عينها أيا كان مكانه من الأرض.(5)

أما من خفيت عليه جهتها فعليه أن يجتهد في الاستدلال عليها بما يمكن من النجوم والرياح والجبال وغيرها، خلافا لمن كان يشاهدها ففرض عليه أن يستقبلها، فإن لم يفعل ذلك مع قدرته عليه فلا صلاة له.(6)

---

(1) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 2/9–10.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم399، ص 90؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم 525، ص 213.

(3) البغوي، معالم التنزيل، 161/2.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 57.

(5) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 10/2.

(6) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 443/2.

ولا يستثنى من وجوب تطبيق أمره تعالى باستقبال القبلة إلا المتنفل في السفر فإنه يتوجه حيث سار به مركوبه، ومن كان في حال القتال والحرب قائمة، والبعيد الذي اجتهد في معرفة جهتها فعجز، لأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها.[1]

• وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)﴾ [الإسراء].

– أي: أقم صلاة الظهر عند زوال الشمس عن وسط السماء وانحرافها ناحية الغرب، ثم أقم صلاتي المغرب والعشاء إذا أقبل ظلام الليل، ثم أقم صلاة الصبح، فإنها وما حوته من القرآن تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار.[2]

– تضمن هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ الإشارة إلى أوقات الصلوات الخمس، (وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف، وقرنا بعد قرن).[3]

قال الشنقيطي في تفسيره: (قد بينا في سورة النساء أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة؛ لأن قوله ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر بدليل الغاية في قوله ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء. وقوله ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الصبح). [4]

ومعلوم أن دخول وقت الصلاة شرط لوجوبها وصحتها. قال السعدي عن آية الإسراء الآنفة الذكر: (وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات).[5]

– ولأهمية هذا الأمر ضمن شروط الصلاة فقد أكده تعالى بتكرار إصداره مرتين في كتابه: **مرة** باللفظ نفسه في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)﴾[هود]، **ومرة** بلفظ التسبيح في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)﴾[ق].

– وبين النبي ﷺ سبب مضاعفة البركة في اثنين من تلك الأوقات الخمسة، ألا وهما وقتا العصر والفجر فقال ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون).[1]

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 291/1.

(2) انظر: وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم ومعه أسباب النزول وقواعد الترتيل، دار الفكر، دمشق، سورية، د ر ط ولا ت ط، ص 291.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 74/5.

(4) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 734/3.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 439.

هذا الذي جاء من شروطها في صيغة الأمر الموجه إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم، تنبيها بالأهم على المهم، وقد جاء الباقي منها إما في القرآن الكريم ولكن بغير الشرطين الذين نسير عليهما، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾[المائدة:6]، أو في السنة النبوية المشرفة.

* ومن تلكم الأوامر ما تعلق بأركانها وفرائضها وسننها وآثارها:

• كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)﴾[العنكبوت].

– أي: داوم على إقامتها، فإن فيها مزدجرا عن معاصي الله ومساخطه، وذكر الله –الذي هو مضمون الصلاة– أكبر وأفضل من كل شيء في هذه الدنيا الفانية، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم صالحة كانت كالصلاة والذكر أو سيئة كالفواحش والمنكرات.(2)

– وأقوال المفسرين في مفهوم الإقامة المأمور بها في هذه الآية متنوعة:(3) أحدها: أنها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من وقوع خلل في فرائضها وسننها وآدابها، مأخوذة من أقام العود: أي قومه. ثانيها: معناها المداومة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(9)﴾[المومنون]. ثالثها: معناها التجرد لأدائها بنشاط دون فتور، مأخوذ من قولهم: قام بالأمر الذي عكسه قعد عنه وتقاعس. رابعها: عبارة عن أدائها، وإنما استعمل لفظ الإقامة لأن القيام بعض من أركانها. ويمكن –في تقديري– حملها على هذه المعاني كلها، بل ينبغي ذلك؛ لأنها غير متعارضة، بل متكاملة، وكلها مطلوبة في الصلاة ، بل في العبادة عموما كما بينا ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث. ومن ثم قال القرطبي: (وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها).(4)

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم 555، ص 114؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم 632، ص 249، واللفظ للبخاري، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) انظر: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوت عدنان داوودي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م، 834/1.

(3) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 32/2.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 366/16.

- وبينت الآية المتضمنة الأمر المشار إليه آنفا أثرا عظيما من آثار الصلاة وهو ردعها لصاحبها عن الفواحش والمنكرات، ووجه ذلك أن المقيم لها المستكمل لشروطها وأركانها وهيئاتها وخشوعها تزكو نفسه ويتنور قلبه ويقوى إيمانه وتعظم رغبته في الخير وينفر من الشر فيحمله ذلك على الكف عن الآثام والمحرمات، وبذلك تكون الصلاة قد حققت أحد أعظم مقاصدها.[1]

- وهذا البيان يكشف سر ما نراه اليوم من التناقض عند كثير من المسلمين الذين تظهر عليهم المحافظة على الصلوات، فإذا لابستهم هالك أنهم لا يتورعون عن كثير من القبائح والمنكرات، حتى صارت ثلة من الحريصين على الصفوف الأولى في المساجد مضرب المثل في المخاتلة والمكر والاحتيال والعب من الشهوات المحرمة. وتفسير ذلك -على ضوء هذه الآية- أنهم لا يقيمون الصلاة كما هو مقتضى هذا الأمر الذي نحن بصدد الحديث عنه، وإنما يصلون فقط، أي يكتفون بما يجزئ في إسقاط الواجب عنهم؛ وما أبرئ نفسي.

- والواقع التاريخي شاهد عدل على أن النبي ﷺ قد أقام الصلاة إقامة تامة تماما كما أمره ربه، تدل على ذلك شهادات كثيرة لمعاصريه، ومنهم أمنا عائشة رضي الله عنها التي قالت في وصفها لصلاته ﷺ بالليل في رمضان وغيره: (يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا). [2] ولذلك كانت أخلاقه ومعاملاته وتصرفاته ومواقفه مرآة عاكسة لتلك الإقامة التامة للصلاة.

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(1)فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(2)إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(3)﴾[الكوثر].

- أي: نحن -والخطاب من الله سبحانه- أعطيناك يا رسول الله العطاء الكثير والخير العميم -الذي منه نهر الكوثر- فأخلص صلاتك كلها لربك الذي أسبغ عليك هذه الكرامة، واذبح ذبائحك لوجهه وعلى اسمه وحده شكرا له على ما أولاك من الأفضال، فإن ناسا يذبحون وينحرون لغيره، ولا تبال بما يتحدث به السفهاء الجاهلون في حقك، فإن مبغضك هو الأقطع عن كل خير.[3]

- والنبي ﷺ وصف الكوثر ضمن مشاهداته ليلة المعراج، فقال: (أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر). [4] كما وصفه بقوله: (الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج). [1]

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص603.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره، رقم 1147، ص 214، و كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، رقم 3569، ص 652؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل، وأن الوتر ركعة، وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم 738، ص 291، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: محمد علي الصابوني، التفسير الواضح الميسر، ص 1606.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب، رقم 4964، ص 938، من حديث أنس رضي الله عنه.

ولكن المقصود في الآية هو المعنى اللغوي، أي الخير الكثير كما يقول ابن عباس رضي الله عنه. والكوثر الذي هو النهر بعض ذلك الخير كما قال سعيد بن جبير.[2] روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في تفسير الكوثر: (هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال بشر -راوي الحديث- قلت لسعيد بن جبير: إن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال ابن جبير: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه).[3]

- وأقوال المفسرين مختلفة في تعيين الصلاة المأمور بها في هذه الآية، فقيل: هي الصلاة المكتوبة، وهي صلاة الصبح بالمزدلفة، وقيل صلاة العيد، وقيل: معناه اشكر ربك[4] دون أن يقيم أحدهم دليلا صحيحا يرجح به ما ذهب إليه، فلا مناص إذن من بقاء اللفظ على عمومه؛ قال الثعالبي: (وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أمر بالصلاة على العموم).[5]

- وتضمنت هذه الآية الأمر إلى النبي ﷺ بإخلاص صلاته جميعا لله سبحانه، خلافا للمشركين الذين يشركون غيره جل جلاله في صلواتهم؛ مع أنه سبحانه أمره بالإخلاص في العبادة عموما كما مر بنا في المطلب الأول من هذا المبحث، وإنما كرر الأمر بذلك في الصلاة توكيدا لأهميتها (من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة)، [6] يقول ابن كثير: (أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة -ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته- فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(163)﴾[الأنعام]).[7]

- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19)﴾[العلق].

---

(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة الكوثر)، رقم 3361، ص 763، واللفظ له؛ وأحمد في مسنده، رقم 5355، ص 399 ؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم 4334، ص 719، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(2) هو أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي الكوفي. تابعي جليل مفسر مقرئ فقيه حافظ شهيد. كان بالكوفة وقدم أصبهان ومكة. روى عن ابن عباس وعائشة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم وعن التابعين أيضا، وروى عنه أبو صالح السمان وأيوب السختياني وغيرهما من أئمة الإسلام. قتله الحجاج سنة 95هـ بالكوفة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 483، 287/5؛ الذهبي، العبر، 84/1؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، 2245، 358/10].

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب، رقم 4966، ص 938، وكتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم 6578، ص 1196.

(4) الماوردي، النكت والعيون، 355/6.

(5) الثعالبي، الجواهر الحسان، 633/5.

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 602.

(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 379/8.

– أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيان أبي جهل –وغيره– الذي ينهاك عن الصلاة، ولا تباله فإن الله حافظك، وداوم على السجود لله، وتقرب إليه بالدعاء.(1)

– ويزيد معنى الآية وضوحا ذكر سبب نزولها؛ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا)، قال: فأنزل الله عز وجل، لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه،: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى(7)إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى(8)أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10)أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى(11)أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(12)أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى(13)﴾ يعني أبا جهل، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(14)كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ(15)نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(16)فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ(17)سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(18)كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾[العلق: 6-19]. زاد عبيد الله في حديثه قال: وأمره بما أمره به. وزاد عبد الأعلى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾، يعني قومه.(2)

– فمضمون الآية هو أمره تعالى لنبيه ﷺ بالسجود له والاقتراب منه (في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه).(3) فهل السجود المأمور به هو الهيئة المعروفة عندنا جميعا؟

بتتبعنا لأقوال المفسرين في معنى السجود المأمور به في هذه الآية يتبين لنا أنها لا تخرج عن ثلاثة معان:

الأول: الصلاة، كما قال الزمخشري والبغوي والواحدي(4) وغيرهم.(5)

الثاني: السجود المعروف في اصطلاح الفقهاء وعامة المسلمين، والذي هو ركن من أركان الصلاة، كما قال ابن عطية وأبو السعود والبيضاوي(1) وغيرهم.

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 407/6؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 337/8.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى(7)﴾[العلق:6-7]، رقم 2797، ص 1124-1125.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 889.

(4) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي النيسابوري الشافعي. مفسر محدث فقيه لغوي. ولد في حدود سنة 398هـ بنيسابور وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم وتعلم الكتابة والقراءة ثم درس في دار السنة علوم الحديث ثم رحل إلى بلاد شتى ثم عاد إلى مسقط رأسه. من شيوخه أبو إسحاق الثعلبي وأحمد بن الحسن الحيري، ومن تلاميذه محمد بن عبد الله الأرغياني ويوسف بن علي المغربي، ومن مصنفاته أسباب النزول ونفي التحريف عن القرآن الشريف. توفي 468هـ في نيسابور. [انظر على سبيل المثال: تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، رقم 494، 240/5؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 164، ص 127].

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 407/6؛ البغوي، معالم التنزيل، 481؛ الواحدي، الوجيز، ص 1218.

الثالث: سجود التلاوة الذي في آخر هذه السورة، وهو محتمل عند القرطبي والراجح عند ابن العربي.(2)

وفي تقديري أن السجود المقصود هو سجود الصلاة الذي هو أحد أركانها؛ لأنه هو الذي دل عليه سبب النزول، إذ أنه هو الذي أغاظ أبا جهل فاستفسر بعبارة تقطر حنقا: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ ويؤيد هذا قول النووي –رحمه الله– في شرحه لتلك العبارة: (أي: يسجد، ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب).(3)

والمناسب أن يؤمر النبي ﷺ بالسجود تحديدا لأنه أغيظ لعدوه من بقية أجزاء الصلاة. كما أن السجود حقيقة شرعية في الوضعية التي يكون فيها وجه الإنسان مقابلا للأرض مماسا لها، أما استعماله بقصد الصلاة التي هي (أركان مخصوصة وأذكار معلومة بشرائط محصورة في أوقات مقدرة) (4) فهو مجاز، ومعلوم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة إلا إن تعذر ذلك فيحمل عندئذ على المجاز.(5)

وأما حمله على سجود التلاوة المسنون في آخر هذه السورة كما فعل ابن العربي (6) فهو بعيد؛ لأنه لا يفعل إلا عند المرور بآخرها، وذلك قليل –كسجود الشكر– قياسا إلى كثرة السجود في الصلاة الحاصل منه ﷺ ليلا ونهارا وبكرة وعشيا في الفرائض والنوافل سفرا وحضرا، وهذا أشد نكاية في عدوه وأبلغ إرضاء لربه وأكثر تقربا إليه، ومجرد ثبوت الحديث المتعلق بمشروعية سجود التلاوة في هذا الموضع لا يعني بالضرورة أنه هو المقصود بالأمر. وعلى أية حال فإن السجود عموما يغيظ الشياطين على اختلاف أجناسها؛ فكما أغاظ أبا جهل –أبرز أعداء النبي ﷺ من الإنس في زمنه– فهو يغيظ إبليس ألد

---

(1) انظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت 546هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ - 2001م، 503/5؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 556/5؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 326/5.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 388/22؛ ابن العربي، أحكام القرآن، 424/4.

(3) محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م، ص1960.

(4) الجرجاني، معجم التعريفات، ص114.

(5) انظر: عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ - 2009م، ص265.

(6) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري الأندلسي الإشبيلي. مفسر محدث فقيه أصولي لغوي شاعر أديب قاض. ولد سنة 468هـ بإشبيلية وبها نشأ وتعلم القراءات، ثم رحل في طلب العلم إلى مصر ومكة والشام وبغداد، ثم عاد إلى مسقط رأسه فدرس ووعظ وصنف وأفتى وقضى. من شيوخه أبو بكر الطرطوشي وأبو حامد الغزالي، ومن تلاميذه القاضي عياض وأبو زيد السهيلي، ومن كتبه العواصم من القواصم والإنصاف في مسائل الخلاف. توفي سنة 543هـ قرب فاس. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 4903، 29/15؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 218، ص 180؛ الزركلي، الأعلام، 230/6].

أعداء بني آدم طرا. قال النبي ﷺ (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، وفي رواية أبي كريب: يا ويلي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار).[1]

- وتضمن المأمور به -محل حديثنا- سرا نفيسا كشفه لنا النبي ﷺ وحثنا على استغلاله بقوله: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء).[2] وشرح ابن العربي سر اقتران غاية القرب منه سبحانه بتلك الهيئة تحديدا بقوله: (لأنها نهاية العبودية والذلة لله، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها، فلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره).[3]

- وأختم الحديث عن هذه الجزئية بلفت الانتباه إلى أنه وإن لم يرد إليه ﷺ أمر بكل ركن من أركان الصلاة إلا أن الأمر بالسجود وهو أعظم أركانها أو من أعظمها يعد تنبيها على الباقي من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى والله أعلم.

• وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا(110)﴾[الإسراء].

- أي: لا ترفع -أيها النبي- صوتك بالقراءة أثناء الصلاة لئلا يسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ومن تلقاه، ولا تبالغ في خفضه حتى لا تفوت القراءة من يصلي معك من المؤمنين، بل اجعل القراءة وسطا بحيث لا تفوت المصلين معك ولا تبلغ المشركين.[4]

-ويزيد معنى الآية وضوحا معرفة سبب نزولها؛ فقد روى الشيخان -واللفظ للبخاري- عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾[الإسراء: 110]، قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.[الإسراء:110].[5] فالحكمة من هذا الأمر واضحة، ولذلك لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حيث غدا المجتمع إسلاميا صار يقرأ بأي الكيفيتين شاء، كما قال ابن عباس.[6]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم 81، ص 60-31، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم 482، ص 200، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن، 425/4.

(4) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 179/2-180.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾[الإسراء:110]، رقم 4722، ص 863-864؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة، رقم 446، ص 188.

(6) انظر: الطبري، جامع البيان، 130/15.

-فمضمون الأمر الوارد هنا هو بيان الوجه المطلوب في القراءة أثناء الصلاة الجهرية وهو الاعتدال، خصوصا إذا أدى رفع الصوت إلى محذور، حتى جعله بعض العلماء عنوانا لباب من أبواب الفقه، كما فعل النووي[1] في شرحه على صحيح مسلم: باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة. وقيل أن المقصود التوسط في رفع الصوت في الدعاء،[2] وقيل في التشهد، والراجح هو ما ذكرناه.

-ومن الفوائد العملية لهذا الأمر الكريم راحة المصلي وتوفير جهده وحصول السكينة له ولسامعه وقدرتهما على التدبر والتركيز أثناء القراءة، وهو ما يمكنهما من المواصلة لمدة أطول خلافا للصياح الشديد الذي يستهلك الجهد ويشوش الذهن وقد يؤذي الغير، كما أنه يجنبه ما قد يصيبه من الأذى النفسي أو البدني أو المادي إذا كان في غير بلاد المسلمين.

• وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132)﴾[طه].

– أي: وكلف أهلك بأداء الصلاة، وداوم أنت عليها؛ فإن الوعظ بالفعل أبلغ منه بمجرد القول، فنحن لا نطلب منك مالا تؤديه إلينا كما يفعل الملوك بعمالهم والسادة بعبيدهم، بل نكلفك عملا نثيبك عليه، وأما الرزق فنحن نكفله لك ولهم ونضمن وصوله إليكم، واعلم أن العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة للمتقين لله الذين ينفذون أوامره ويكفون عن مناهيه.[3]

– والآية متضمنة أمرين للنبي ﷺ:

الأول: أن يكلف أهله بأداء الصلاة، ويدخل في ذلك تعليمهم جميع ما لا بد منه لإتمامها، من شروط وأركان وواجبات وسنن ومبطلات.[4] وهذا باعتباره ﷺ إنسانا مسلما مطالبا بتربية وتوجيه أفراد أسرته وتعليمهم أمور دينهم، وعلى رأسها الصلاة التي هي آكد أركان الدين بعد الشهادتين، تماما كما طولب غيره من المسلمين -وإن لم يكونوا أنبياء- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6)﴾[طه].

الثاني: أن يصبر على المداومة على أداء صلاته هو ﷺ، ويتحمل ما يلاقيه فيها من مشاق، ويجاهد نفسه على ذلك ولا ينشغل عنها بطلب الرزق فهو مكفول له؛[5] لأن (العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به كان لما سواها من دينه أحفظ

---

(1) انظر: النووي، المنهاج، ص462.

(2) انظر: ابن العربي، أحكام القرآن، 218/3-219؛ سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - حلب - بيروت، ط1، 1405هـ - 1985م، ص 3138.

(3) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 167/16.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 489.

(5) انظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 270/6.

وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع). [1] وقد مر بنا في المطلب الأول من هذا المبحث أمره ﷺ بالاصطبار على العبادة عامة، ثم أعيد ذلك بالنسبة للصلاة تحديدا لأنها عمود الدين.[2]

– وشهد الواقع التاريخي أنه ﷺ أدى ما أمر به على خير وجه وأكمله. قال القرطبي: (وكان ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلي –رضوان الله عليهما– فيقول: (الصلاة))، [3] وخصوصا إذا دخل العشر الأواخر من رمضان. قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: (كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر). [4] وأما بالنسبة لاصطباره على الصلاة في خاصة نفسه وكده في المداومة عليها فقد كان يفعل ذلك حتى تتفطر قدماه[5] وتتورمان.[6]

* ومن تلكم الأوامر ما تعلق بأنواع معينة من الصلوات المعروفة في الإسلام طولب ﷺ بأدائها.

• كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(39)وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)﴾[ق].

– أي: صل وسبح قبل بزوغ الشمس وقبل غروبها، وسبحه أيضا من الليل وفي أعقاب الصلوات؛ فشمل هذا التعليم الإلهي الصلوات الخمس، إذ قبل طلوع الشمس فيه صلاة الصبح، وقبل الغروب فيه صلاة الظهر والعصر، ومن الليل فيه صلاة المغرب والعشاء. وقوله وأدبار السجود: أي بعد الصلوات الخمس سبح ربك حامدا إياه، مثل: سبحان الله والحمد لله والله أكبر.[7]

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 489.

(2) قال رسول الله ﷺ: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة). أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم 2616، ص 590؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم 3973، ص 656 من حديث معاذ رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم 2866، 3/88-89.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 164/14.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، رقم 2024، ص 364؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان، رقم 1174، ص 458، واللفظ لمسلم.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(2)﴾[الفتح]، رقم 4837، ص 902، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(6) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى ترم قدماه، رقم 1130، ص 211، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(7) الجزائري، أيسر التفاسير، 152/5.

- وتضمن الأمر الوارد للنبي ﷺ في هذه الآية الإشارة إلى الصلوات الخمس التي هي ركن العبادات وقاعدة الإسلام وأعظم دعائم الدين،[1] فأمره بأدائها والمحافظة عليها، وهي إحدى الآيات السبع في كتاب الله المتضمنة ذكر الصلاة،[2] وبشريكتها في المعنى استدل حبر الأمة على من سأله دليلا من القرآن على فرضيتها. روى الطبري في تفسيره من حديث أبي رزين [3] قال: (سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الصلوات الخمس في القرآن، قال: نعم. فقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾. قال: صلاة المغرب،﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾. قال: صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيًّا﴾. قال: صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[الروم:17-18]: صلاة الظهر. ثم قرأ: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾[النور]).[4]

- وفي قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ تعريض بالكافرين عموما الذين لم ينزهوا الله سبحانه عن العيب والنقص، فضلا عن أن يثبتوا له صفات الكمال والجمال، وذلك من جهلهم به عز وجل.[5]

- وفيه أيضا توجيه للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الله أن يعالج ما قد يتعرض له من الأذى النفسي -كالتكذيب والسخرية وغيرهما- والأذى البدني -من الإرهاق والعدوان وغيرها- بالإقبال على الصلاة والتسبيح والتحميد والتزود منها بذلك الزاد

---

(1) انظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الصلاة في القرآن الكريم، مفهومها وفقهها، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط7، 1417هـ-1997م، ص 18، 20- 22.

(2) انظر: ابن العربي، أحكام القرآن، 27/3، وقد ذكر منها ستا فقط؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)﴾[هود]، وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)﴾[الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(130)﴾[طه]، وقوله سبحانه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(39)وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(40)﴾[ق]، وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ(17)وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ(18)﴾[الروم]، وقوله سبحانه: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(26)﴾[الإنسان]. والظاهر أنه سبق قلم منه -رحمه الله- ولذلك قال بعد سردها: (وقد جاء ذكر بعض الصلاة فيها، وهذه الآيات الست هي المستوفية لجميعها).

(3) هو أبو رزين مسعود بن مالك بن معبد الأسدي الكوفي. تابعي جليل عالم محدث ثقة فاضل. من أهل الكوفة كان مولى لسعيد بن جبير. حدث عن أبي هريرة وعلي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وحدث عنه سليمان بن مهران الأعمش ومنصور بن المعتمر وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 85هـ. [انظر مثلا: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة الأصبهاني ت 295هـ، فتح الباب في الكنى والألقاب، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، ط1، 1417هـ-1996م، رقم 2728، ص 311؛ مسلم بن الحجاج ت 261هـ، الكنى والأسماء، دراسة وتحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقرى، المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط 1، 1404هـ-1984م، رقم 1155، 325/1؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 5911، 475/27].

(4) أخرجه الطبري في جامع البيان، 474/18، والحاكم في المستدرك، رقم 3541، 514/2-515، وصححه.

(5) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الموضوعي، 435/7.

الطيب الذي يمده بأسباب القوة والتحمل، وخصوصا بالليل وقت الخلوة والتأمل والصفاء، فإنه من أنفع العلاج لمشكلات الداعية؛ وذلك ما كان يفعله ﷺ.[1]

•وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(1)قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا(2)نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(3)أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا(4)﴾[المزمل]

– أي: يأيها المتلفف بثوبه، دع عنك الراحة وقم لعبادة ربك، فصل مدة الليل كله إلا قليلا منه، أو نصف الليل، أو انقص من النصف إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، واجعل قراءتك أثناء صلاتك متمهلة متأنية.[2]

– قال الشوكاني –رحمه الله– مشيرا إلى سبب نزولها: (وقد ثبت أن النبي ﷺ لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله وقال: زملوني، دثروني وكان خطابه بهذا الخطاب في أول نزول الوحي، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة).[3]

– ففي هذه الآية أمر الله جل جلاله لنبيه ﷺ بقيام الليل وهي أفضل الصلاة بعد الفرائض الخمس. ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل).[4]

وتضمنت الآية أيضا تخييره ﷺ بين أن يقوم نصف الليل بتمامه أو يجعله دون ذلك بيسير، أو فوقه بقليل. وبناء على هذا الأمر قال من قال من العلماء كالشافعي والطبري وغيرهما إن قيام الليل فرض على النبي ﷺ دون أمته، بينما ذهب آخرون –كمجاهد وقتادة وغيرهما– إلى كونه نافلة في حقه على الخصوص؛ لأنه قد غفر من ذنبه ما تقدم وما تأخر، أما غيره من أمته فصلواتهم النوافل تكفر عنهم الذنوب.[5] ولكن الصحيح الراجح –في ظني–هو ما فصلته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لأنها عاصرت تلك الفترة، وعاشرت المعني بهذا الأمر ﷺ شخصيا. قالت رضي الله عنها مجيبة سعد بن هشام بن عامر[6] الذي سألها: (أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء، حتى

---

(1) انظر: عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، د ر ط ولا ت ط، 31/16.

(2) انظر: الصابوني، التفسير الواضح الميسر، ص 1482.

(3) الشوكاني، فتح القدير، ص 1545.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم 1163، ص452 .

(5) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 75/5.

(6) هو سعد بن هشام بن عامر الأنصاري المدني؛ ابن عم أنس بن مالك رضي الله عنه. تابعي جليل محدث، استشهد أبوه يوم أحد مع رسول الله ﷺ . روى عن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وابن عباس وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وروى عنه الحسن البصري وحميد بن عبد الرحمن الحميري وغيرهما من التابعين وأتباعهم. [انظر مثلا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 209/7؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 2228، 307/10].

أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة). [1] تشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾﴾[المزمل:20]

– وصدر إليه ﷺ فيما بعد أمر آخر بالتكليف نفسه، ولكن بلفظ غير الأول ، وهو قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79)﴾[الإسراء]. وهو تأكيد للأول ودليل على أهمية هذا القيام وعظيم ما يناله القائم من الثواب والكرامة والرضا عند ربه.

– وقد حمل الأمر الثاني معه وعدا كريما من الله لنبيه ﷺ بجائزة عظمى على تنفيذه للمطلوب، وهي أن يقيمه مقاما يحمده عليه الخلائق كلهم، فذكر المفسرون في ماهيته بضعة أقوال، أصحها –كما قال القرطبي– [2] أنه الشفاعة للناس يوم القيامة ليريحهم ربهم من هول ذلك الموقف؛ وهو قول الأكثرين –كما قال الطبري–. [3] يدل على ذلك جملة من الأحاديث والآثار، منها ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله سبحانه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء:79] وسئل عنها: (هي الشفاعة). [4] وما رواه البخاري عن آدم بن علي [5] قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا [6] كل أمة تتبع نبيها ، يقولون يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود). [7] وهذا يفسر معنى سيادته لبني أدم كلهم. قال ﷺ: (أنا سيد ولد

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم 746، ص 293-284.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 147/13.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 43/15.

(4) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة بني إسرائيل)، رقم 3137، ص704؛ وابن أبي عاصم في كتاب السنة، رقم 784، ص 364؛ وصححه الألباني في تخريجه له (ظلال الجنة في تخريج السنة)، في الصفحة ذاتها.

(5) هو أبو يحيى آدم بن علي العجلي البكري الشيباني، مولى خالد بن سعيد بن العاص. تابعي جليل محدث ثقة. روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وروى عنه إبراهيم بن طهمان وسفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وغيرهم من أئمة الإسلام. [انظر على سبيل المثال: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 322/6؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 296، 308/2].

(6) على وزن خطى، أي: جماعات؛ والجثا جمع جثوة (بضم الجيم)، وهي الشيء المجموع. [انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 239/1].

(7) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)﴾[الإسراء]، رقم 4718، ص 863.

آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر).[1]

* ومن العبادات البدنية التي أمر ﷺ بها باعتباره إنسانا مسلما النحر. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾ [الكوثر].[2]

– أي: نحن أعطيناك -أيها الرسول- الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه نهر الكوثر الذي في الجنة، فكما أعطيناك ذلك الخير كله فأخلص لربك صلاتك جميعا، واذبح ذبيحتك لوجهه دون سواه وعلى اسمه وحده، إن مبغضك هو المنبتر أثره المنقطع عن الخير كله.[3]

-والحديث عن الكوثر المعطى للنبي ﷺ مضى قبل عند كلامنا عن أمره ﷺ بإخلاص صلاته كلها لله فلا داعي لإعادته.

– وذكر المفسرون بضعة معان للنحر المأمور به في الآية، فقيل: هو ذبح الذبائح كالبدن وغيرها على اسم الله وحده، وقيل: هو وضع اليد اليمنى فوق اليسرى تحت النحر في الصلاة، وقيل: هو رفع اليدين عند تكبيرة افتتاح الصلاة، وقيل: هو استقبال القبلة بالنحر أثناء الصلاة، وقيل معناه: أبرز نحرك عند اعتدالك بعد الرفع من الركوع. وكلها أقوال ضعيفة لم تثبت نسبتها إلى قائليها، أو لم يقم دليل على صوابها، باستثناء القول الأول.[4] ولهذا قال الطبري بعد أن ساقها: (والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان؛ شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به من إعطائه إياك الكوثر).[5] ويؤكده قول ابن كثير -رحمه

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 9621، ص 670، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورقم 11000، ص 750، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورقم 12496، ص 858-859، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم 3148، ص 706، وكتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل النبي ﷺ، رقم 3615، ص 822، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم 4308، ص 714، عن أبي سعيد رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 1468، 309/1.

(2) وقد دلت النصوص الثابتة في كتب السنة والسيرة أنه ﷺ أدى ما أمر به في هذا المجال أيضا على أكمل الوجوه وأتمها. قال جابر رضي الله عنه محدثا عن عدد ما نحره ﷺ من البدن بيده في حجه يوم النحر -غير الذي أوكل نحره إلى علي رضي الله عنه-: (... ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عليا، فنحر ما غبر ...). [رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم 1218، ص 483-485].

(3) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص602.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 24/691-692، 694؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 22/524-525؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/379.

(5) الطبري، جامع البيان، 24/696.

الله-: (والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك). [1] ثم استدل بأن رسول الله ﷺ كان يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: (من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له)، فقام أبو بردة بن نيار رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: (شاتك شاة لحم)، قال: فإن عندي عناقا هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: (تجزئك، ولا تجزئ أحدا بعدك).[2]

- ففي الآية أمر للرسول ﷺ بإخلاص نحره وذبحه لله وحده، بحيث يكون ذلك على اسمه سبحانه دون سواه، تماما كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)﴾[الأنعام]، خلافا للمشركين الذين كانوا يذبحون وينحرون تقربا لأوثانهم.

- وإنما خص سبحانه وتعالى هذه العبادة العظيمة بالذكر -إضافة إلى الصلاة- لأن (في النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به).[3]

- ومع ما تضمنه قوله سبحانه عن نبيه اسماعيل عليه السلام: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)﴾[الصافات] من إشارة إلى أفضلية الكبش، [4] إلا أن السنة النبوية الشريفة دلت على مشروعية التضحية بسواه من الأنعام، وهي الضأن والمعز والإبل والبقر.[5]

- ومع كون الغنم أفضل الأضاحي وهي تذبح ولا تنحر، إلا أن الأمر ورد بلفظ النحر لا الذبح تغليبا للفظ الذي سمي به يوم الأضحى، وليشمل الضحايا من البدن والهدايا والنسائك في الحج، كما أن في استعماله رعاية لفاصلة الراء في السورة. [6] وغير خاف أن حكم القسمين المتبقيين من أقسام الذكاة -وهما الصيد للحيوان غير المقدور عليه والتأثير بقطع أو غيره كما في الجراد- كحكم النحر والذبح، لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله أو يتم على غير اسمه سبحانه. روى أحمد في مسنده عن طارق بن شهاب أن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب. قالوا:

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 379/8.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر، رقم 955، ص 180؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم 1961، ص 813، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 895.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 73/18.

(5) وهي في الأفضلية على هذا الترتيب عند كثير من العلماء، وهو مذهب مالك وأصحابه، وذكر كل صنف أفضل من إناثه، وإناثه أفضل من ذكر ما بعده، والفحل أفضل من الخصي. [انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 73/18، 76؛ أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت 741هـ، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية، تحقيق: محمد بن سيدي محمد مولاي، د بقية المعلومات، ص318].

(6) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 575/30.

وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة).[1]

وخلاصة هذا المطلب: أمر النبي ﷺ بعبادتين عظيمتين هما الصلاة -وفيها إشارة إلى العبادات البدنية كلها-والنحر -وفيه إشارة إلى العبادات المالية، والمالية البدنية جميعا- مع تسبيقه سبحانه الأمر بهما بتبشير نبيه ﷺ بعطاء جليل، ألا وهو الكوثر؛ وفي ذلك تنشيط وتحفيز شديدان له ﷺ على أدائهما بجد وتفان؛ مع التنصيص على شرط مشترك بينهما وهو الإخلاص لله، الذي هو شرط في كل العبادات من غير أي استثناء.

وتم تخصيص الصلاة بسائر ما تبقى من الشروط المذكورة في أوامر هذا المطلب، وهي: الطهارة، والتوجه إلى القبلة، ودخول أوقاتها الشرعية، والحرص على استيفاء فرائضها وسننها وآدابها، والاعتدال في قراءة ما كان منها جهرا، والصبر على المداومة عليها خصوصا ما طال منها كقيام الليل الذي فرض عليه في أول الإسلام والذي وعد عليه جائزة عظيمة هي بعثه ﷺ مقاما محمودا.

وخلاصة هذا المبحث:

- أن الأوامر التي تم إيرادها فيه دلت على أن النبي ﷺ مأمور بعبادة الله عامة كسائر المكلفين من الإنس والجن، وذلك ما يدحض ادعاء البعض أن العبادات البدنية تسقط عن المكلف إذا بلغ إيمانه درجة اليقين.

-كما أن قسما منها حدد له ضوابط العبادة حتى تحقق الغاية منها وتحرز القبول عند الله سبحانه، وهي: الإخلاص فيها لله وحده، والاصطبار على مشاقها، والمداومة عليها مدى الحياة، وأن ينقطع إليها عن كل الشواغل، مع الكد فيها والاجتهاد في أدائها-خصوصا صلاة الليل -التي قيل بوجوبها عليه دون سائر أمته والتي وعد عليها مقاما محمودا. أما التفاصيل الجزئية كأحكام الطهارة وأعداد الركعات وغيرها فقد أمر بالرجوع فيها إلى الشريعة المنزلة عليه -باعتباره رسولا- كما يفعل كل مسلم من أفراد أمته.

---

(1) أخرجه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت 241هـ، في الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م، رقم 84، ص 17؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 6962، 457/9؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء، 203/1؛ وابن أبي شيبة في المصنف، رقم 33583، 437/11؛ والسيوطي في الدر المنثور، 540/10-541؛ وصحح إسناده محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1425هـ - 2004م، 722/12.

- جميع الأوامر المتعلقة بالعبادات البدنية الواردة في هذا المبحث انصبت حول موضوع الصلاة إلا واحدا فإنه تعلق بالنحر لله، وفي ذلك دلالة قوية على عظم شأن الصلاة ومكانتها الكبرى في الدين، كما تدل أيضا على عظم شعيرة النحر لله وفرة أجور المضحين.

المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر والدعاء تحديدا

(الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه)،[1] والمقصود منه استدامة حضور المذكور سبحانه وتعالى في قلب الذاكر واستشعار وحدانيته وعظمته وسائر أوصافه الجليلة وأسمائه الكريمة. [2] ويدخل فيه الدعاء، كما قال ابن تيمية -رحمه الله-: (إن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه).[3] فهل أمر النبي ﷺ بشيء في هذا المجال؟ وأي الأصناف منها تحديدا؟ وكم بلغ عددها؟ وما الفرق بين هذا اللون من العبادة والعبادات البدنية التي مضى الحديث عنها؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال الدعاء

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر

تلقى النبي ﷺ في هذا المجال أوامر شتى، تكلفه بفنون من الذكر وألوان من الدعاء والشكر، تجعل قلبه دائم الاتصال بربه، ولسانه مستمر الترديد لاسمه، واللهج بتسبيحه وحمده؛ وهي بلا ريب عبادات عظيمة لا تقل تقديسا لله عن الصلاة والصيام والحج والجهاد، إذ هذه حق الألسن والشفاه، و تلك حظ الأطراف والجباه.

وسأبدأ بما تعلق بتلاوة القرآن لشرفه وعلوه على كل كلام، ثم بالتسبيح فالتحميد فالذكر فالتكبير -جريا على ترتيب النبي ﷺ لها في قوله: (أفضل الكلام: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).[4]

---

(1) محمد علي بن محمد علان البكري الصديقي الشافعي ت 1057هـ، الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، ضبط وتصحيح وتخريج: عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1424هـ - 2004م، 224/1.

(2) انظر: محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، كتاب الأذكار، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، بيروت - دمشق، ط4، 1428هـ-2007م، ص31.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 15/ 19.

(4) أخرجه أحمد في مسنده عن بعض أصحاب النبي ﷺ، رقم 16526، ص 1149، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، 485/3؛ وصحيح الجامع الصغير، رقم1127، 252/1.

فمما ورد إليه ﷺ من أوامر الله تعالى في القرآن الكريم:

* **أمره ﷺ بتلاوة القرآن.** قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا(27)﴾[الكهف].

– أي: اقرأ –يا رسول الله– القرآن الذي أنزله ربك إليك، فإنه لا قدرة لأحد على تغيير كلامه سبحانه، ولن تجد ملجأ من الله إذا لم تقرأ كتابه كما أمرت.[1]

– ففي الآية أمر منه تعالى لنبيه ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، وهو شامل للتلاوة التي هي بمعنى القراءة، والتلو الذي هو بمعنى الاتباع، كما قال الشنقيطي.[2] ولأهمية التلاوة وما فيها من الأجر الكبير جاء التأكيد عليها في موضعين آخرين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ(92) ﴾[النمل]. وهو قوي الدلالة –كما هو ظاهر– على أهمية تلاوة كتاب الله، إذ قرن سبحانه أمره للنبي ﷺ بها بأمره له بعبادة الله وأن يكون من المسلمين، أي: بالشريعة كلها والعقيدة كلها.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)﴾[العنكبوت]، وهو في الدلالة كالسابق، إذ قرن أمره سبحانه له ﷺ بتلاوة القرآن بأمره له بالصلاة التي هي عمود الدين وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة.

– وورد إلى النبي ﷺ أمر آخر يبين له كيفية التلاوة التي أمر بها. قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)﴾[المزمل]. قال مجاهد[3] فيما نقله عنه الجصاص: (وال بعضه على إثر بعض على تؤدة)؛[4] لأن الرتل (بفتح التاء) في اللغة هو حسن تناسق الشيء؛ والكلام الرتل هو المرتل الحسن الذي يكون على تؤدة. ومن ذلك قولهم: رجل رتل الأسنان (بكسر التاء)، إذا كانت أسنانه

---

(1) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 189/2.

(2) انظر: محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 111/4.

(3) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، تابعي جليل شيخ القراء والمفسرين إمام محدث فقيه. روى عن ابن عباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عنه عكرمة وطاوس وعطاء وغيرهم من أئمة الإسلام. مات سنة 102هـ. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 542، 377/5؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 5783، 228/27].

(4) أبو بكر أحمد بن علي الجصاص ت 370هـ، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، د ر ط، 1412هـ – 1992م، 367/5.

مفلجة.[1] فنفذه ﷺ على خير ما يكون التنفيذ. قالت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها: (وكان يقرأ بالسورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها).[2]

– وأفادتنا أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بطريقته ﷺ في ذلك، فقالت: (كان رسول الله ﷺ إذا قرأ يقطع قراءته آية أية)،[3] وزاد أنس رضي الله عنه الأمر بيانا –حين سئل عن قراءة رسول الله ﷺ– فقال: (كانت مدا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)﴾[الفاتحة] يمد بِبِسْمِ اللَّهِ، ويمد بالرَّحْمَنِ، ويمد بالرَّحِيمِ).[4]

والملحوظ في السنين الأخيرة توجه اهتمام كثير من النساء والأطفال والشباب –في الجزائر وغيرها– إلى حفظ القرآن الكريم وتعلم أحكام التجويد، وهو أمر سار نرجو أن يستمر وينتشر، ولا عجب فقد صحت نصوص شرعية كالتي مرت بنا آنفا تدل (على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: (زينوا القرآن بأصواتكم)).[5]

– وفي القرآن العظيم تنويه بقراء هذا الكتاب المبارك وبيان لما يترتب على تلاوة آياته من الثمار الحلوة الطيبة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)﴾[فاطر]، و(كان مطرف بن عبد الله يقول: هذه آية القراء ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾).[6]

* **وأمره ﷺ بالتسبيح**. قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98)﴾[الحجر].

---

(1) انظر: جماعة من المختصين بإشراف: أحمد أبو قاحة، معجم النفائس الكبير، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 1، 1428هـ – 2007م، ص 665-666.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائما وقاعدا؛ وفعل بعض الركعة قائما وبعضها قاعدا، رقم 733، ص290.

(3) علي بن عمر الدارقطني ت 385هـ، سنن الدارقطني، تحقيق وضبط وتعليق: شعيب الأرنؤوط، وحسن عبد المنعم شلبي، وجمال عبد اللطيف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ – 2004م، رقم 1191، 86/2.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، رقم 5046، ص952.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 207/8؛ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه معلقا في كتاب التوحيد، قبل الحديث رقم 7544، ص 1364؛ وأخرجه موصولا أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم 1468، ص 227؛ والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم 1015، ص 166؛ وابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم 1342، ص 238؛ وأحمد في مسنده، رقم 18688، ص 1330، ورقم 18713، ص 1332، ورقم 18911، ص 1346، ورقم 18916، ص 1346؛ والحاكم في المستدرك، من الرقم 2098، إلى الرقم 2129، على التوالي، 746/1-754، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(6) أخرجه الطبري في جامع البيان، 366/19.

أي: سبح تسبيحا مصحوبا بالحمد لربك، ف قل سبحان الله وبحمده، وافزع إلى الصلاة عند الضيق، فإن ذلك من أنفع الأسباب لتفريج الهم وشرح الصدر.[1]

-ففي هذه الآية أمر له ﷺ بالتسبيح بحمد ربه، أي بقول: (سبحان الله وبحمده)، كما قال الحسن [2] والضحاك،[3] خصوصا إذا تعرض لما يضايقه ويهمه فإن ذلك مما يوسع الصدر ويعين المسلم على أموره. [4] والملحوظ أن الأمر بالتسبيح هنا جاء مقرونا بالأمر بالصلاة خاصة والعبادة عامة مدى الحياة، حتى قال القرطبي: (أي: فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح). [5] فتنزيه الله والثناء عليه لب الصلاة والصلاة لب العبادة كلها .

والتسبيح في اللغة هو الإبعاد. قال الأزهري: (ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه: تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها، ومنه قوله جل وعز: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40)﴾[يس]، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا(3)﴾[النازعات]).[6]

فيكون معنى تسبيح الله عند أهل التفسير إبعاد جميع صفات النقص عنه سبحانه، وتنزيهه عن كل نعوت العيب. قال الطبري: (وأصل التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك). [7] وقال ابن كثير: (فمعنى قول الملائكة إذا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[البقرة:30] ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك).[8]

– والتسبيح هو أفضل الكلام بعد كلام الله تعالى. ففي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته –أو لعباده–: سبحان الله وبحمده). [9] وفي رواية أخرى أن أبا ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟)، قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب الكلام إلى الله. قال: (إن أحب

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 405/1؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 96/3.

(2) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي. أبوه من سبي ميسان سكن المدينة وأعتق، ثم تزوج خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها فأنجبت له الحسن. نشأ بوادي القرى ثم رحل إلى البصرة. روى عن ابن عباس وعمران بن حصين وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهما وعن التابعين، وروى عنه مالك بن دينار ويونس بن عبيد وغيرهما من أئمة الإسلام. مات سنة 110هـ. [انظر مثلا: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 156/7؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 590، 456/5].

(3) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 79/1، 397/4.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص410 .

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 263/12.

(6) تهذيب اللغة، الأزهري، 338/4.

(7) الطبري، جامع البيان، 504/1.

(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 114/1.

(9) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم 2731، ص 1093.

الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده). [1] والنصوص الشرعية في فضل التسبيح وعظم أجر المسبح وتنوع ثوابه كثيرة، ولولا خشية الإطالة لنقلناها.

-وفي القرآن الكريم ورد التسبيح بصيغ شتى، مقرونا بأحوال متنوعة، مضافا إلى مخلوقات مختلفة، فكان نبينا ﷺ هو الذي اكتال منها بالمكيال الأوفى. قال الفيروزآبادي: [2] (والتسبيح ورد في القرآن على نحو من ثلاثين وجها، ستة منها للملائكة، وتسعة لنبينا محمد ﷺ، وأربعة لغيره من الأنبياء، وثلاثة للحيوانات والجمادات، وثلاثة للمؤمنين خاصة، وستة لجميع الموجودات).[3]

- ولمكانة التسبيح تكرر أمره ﷺ به في مواضع متعددة من الكتاب العزيز، من ذلك:

• قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(55)﴾[غافر].

وفي هذا الموضع جاء الأمر به مقرونا بالأمر بالصبر على المكاره والاستغفار من الذنب، موقوتا بالصباح والمساء. (فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عونا على جميع الأمور). [4] وقيل: إن المقصود بالتسبيح هنا صلاتا الفجر والعصر، وقيل: المقصود ركعتان في الصباح وأخريان في المساء كانت في الفترة المكية قبل فرض الصلوات الخمس ثم نسخت، وقيل : الصلوات الخمس. [5] وهو أمر محتمل لثبوت إطلاق التسبيح على الصلاة. قال ابن عاشور: (والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه؛ ولذلك سمي ذكر الله تسبيحا،

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم 2731، ص 1093.

(2) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر الشيرازي الشافعي. مفسر لغوي فقيه شاعر بالعربية والفارسية. ولد سنة 729هـ بكازرون من أعمال شيراز، وبها نشأ وحفظ القرآن وتعلم الكتابة ثم انتقل إلى شيراز فطلب فنون العلم المختلفة ثم ارتحل إلى العراق فالشام فمصر فالحجاز فالروم فالهند. من شيوخه أحمد بن محمد الجزائري وناصر الدين التونسي، ومن تلاميذه صلاح الدين الصفدي وابن حجر العسقلاني، ومن كتبه نزهة الأذهان في تاريخ أصفهان ومنية السول في دعوات الرسول ﷺ. مات سنة 817هـ في زبيد باليمن. [انظر على سبيل المثال: السخاوي، الضوء اللامع، رقم 274، 79/10؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 16426، 776/3].

(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، 285/2.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص706.

(5) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 152/7؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 372/18؛ الماوردي، النكت والعيون، 161/5.

والصلاة سبحة، ويطلق التسبيح على قول سبحان الله؛ لأن ذلك القول من التنزيه). [1] لكن تفسيرها بالتسبيح الذي هو قول سبحان الله أولى في تقديري؛ لأنه (أكثر ما ورد في القرآن، وهو المراد عند الإطلاق). [2]

• قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24)وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(25)وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(26)﴾[الإنسان].

وهنا ورد الأمر به مقرونا بثلاثة أوامر أخرى: بالصبر الذي هو علاج لكل محنة وبلية، وبالذكر الذي هو قوت القلوب وقوة الإيمان، وبالسجود الذي هو حال العبد أقرب ما يكون من ربه، موقوتا بالليل الذي هو مظنة الوحدة والهدوء المساعدين على الإخلاص والتركيز. وقد ذكر المفسرون في معنى التسبيح المقصود هنا بضعة معان لخصها ابن عطية [3] بقوله: (والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول سبحان الله، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس منهم ابن حبيب وغيره). [4]

وفي تقديري أن الراجح هو قول الفريق الذي أشار إليه الفخر الرازي بقوله: (القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية ليس هو الصلاة، بل المراد التسبيح الذي هو القول والاعتقاد. والمقصود أن يكون ذاكرا لله في جميع الأوقات، ليلا ونهارا بقلبه ولسانه، وهو المراد من قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)﴾[الأحزاب]؛ [5] لأن الصلاة أمر بها في الآية نفسها بقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾، ولذلك قال الشوكاني: (﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، أي: نزهه عما لا يليق به، فيكون المراد: الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة، أو في غيرها). [6]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 405/1.

(2) https://www.alukah.net/sharia/0/61806/ إبراهيم بن محمد الحقيل، مقال: التسبيح القرآني، تاريخ الدخول: 2020/11/25.

(3) هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي. مفسر محدث فقيه لغوي. ولد سنة 481هـ، وأخذ العلم عن أبيه الحافظ أبي بكر، ثم توسع في الطلب والتحصيل حتى غدا قاضيا مفتيا فقيها مدرسا مصنفا. من شيوخه أبو علي الغساني وأبو الحسين يحي بن أبي زيد، ومن تلاميذه الحافظ أبو القاسم بن حبيش وأبو جعفر بن مضاء، ومن مصنفاته المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. توفي سنة 542 في لورقة بالأندلس. [انظر على سبيل المثال: الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 215، ص 175؛ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف ت 1360هـ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تخريج وتعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ-2003م، رقم 412، 189/1].

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز، 414/5.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 259/30.

(6) الشوكاني، فتح القدير، ص 1568.

• قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(130)﴾[طه].

وما قيل في معنى التسبيح الذي أمر به النبي ﷺ هنا لم يخرج عما قيل في المأمور به في الآية التي مرت آنفا. قال القرطبي في تفسيره هذه الآية: (قال أكثر المتأولين: هذا إشارة إلى الصلوات الخمس ...وقالت فرقة: المراد بالآية صلاة التطوع، قاله الحسن).[1] قال الرازي بعد أن ذكر المعنيين المشار إليهما بتفصيل: (هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة، قال أبو مسلم[2] لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات، وهذا القول أقرب إلى الظاهر، وإلى ما تقدم ذكره، وذلك لأنه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذي يليق بذلك أن يؤمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا إليه، فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات).[3] وعلل سبحانه أمره لنبيه ﷺ هذه المرة بوعده ثمرة طيبة من ثمار التسبيح، وهي حصول الرضا في نفس الرسول ﷺ، وهو ما كان يسأله إياه متوسلا إليه بأسمائه وصفاته خصوصا بعد قضائه وقدره، فلا يسخط ولا يتضجر. فكان من دعائه ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم ... وأسألك الرضا بعد القضاء و ...).[4] ويا لها من ثمرة يتمناها كل عاقل ويهواها في هذه الحياة.

• قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(48)﴾[الطور].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 160/14.

(2) هو أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهاني. عالم لغوي بليغ متكلم مناظر كاتب معتزلي، له مشاركة في علم التفسير وغيره. كان واليا للخليفة المقتدر على اصبهان في أوائل القرن الرابع الهجري ثم عزله بنو بويه عند قيام دولتهم. له مصنفات كثيرة منها جامع التأويل لمحكم التنزيل وكتاب الناسخ والمنسوخ. توفي سنة 322هـ. [انظر مثلا: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ت 972هـ، شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، د ر ط، 1413هـ-1993م، 535/3؛ محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون، 276/1].

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 134/22.

(4) رواه النسائي في سننه، كتاب السهو، نوع آخر، رقم 1305، ص 212؛ وفي السنن الكبرى، رقم 1229، ورقم 1230، 81/2-82؛ وأحمد في مسنده، رقم 18515، ص 1316؛ وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، باب من كان يقول في دعائه: (أحيني ما كانت الحياة خيرا لي)، رقم 29836، 61/10-62؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، رقم 1971، 304/5-305؛ وأبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي ت 307هـ، في مسند أبي يعلى الموصلي، حققه وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت، ط 2، 1410هـ-1989م، رقم 1624، 195/3؛ والحاكم في المستدرك، رقم 1923، 684/1؛ عن عمار بن ياسر؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم 1301، 279/1.

وفي هذا الموضع صدر الأمر به مقرونا بالأمر بالصبر على أذى المشركين وعنادهم؛ لأن (الصبر ضياء) [1] يبدد ظلمات المحن والفتن، والتسبيح غذاء يزود القلب بالطاقة للقيام بالواجبات وتحمل أعباء الحياة.

وأقوال المفسرين تكاد تجمع أن التسبيح المقصود هنا هو قول سبحان الله، وإن اختلفت في توقيت قوله:

- فمنهم من قال -كالضحاك والربيع بن أنس[2] وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[3] - هو أن يقول: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك ولا إله غيرك) في الصلاة المفروضة. أي: أنه التسبيح المعروف بدعاء التوجه ودعاء الاستفتاح، والذي يقال في بداية الصلاة بعد تكبيرة الإحرام وقبل الشروع في القراءة. وقد ثبت أنه ﷺ كان يستفتح صلاته بأنواع من الذكر منها هذا.[4]

-ومنهم من قال -كابن زيد [5]- يسبح إذا قام لصلاة من ليل أو نهار -أي: أن القائل بهذا لم يخص به الصلاة المفروضة كأصحاب القول الأول- ويشهد لهذا القول جواب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سألها عاصم بن حميد: بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ قالت: كان إذا قام كبر الله عشرا، وحمد الله عشرا، وسبح الله عشرا، وهلل عشرا، واستغفر عشرا، وقال: (اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة).[6]

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم 223، ص 119، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(2) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي. تابعي جليل من أهل البصرة، عالم صدوق مفسر محدث ارتحل إلى مرو فكان بها. روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعن أبي العالية الرياحي والحسن البصري من التابعين، وحدث عنه سليمان بن مهران الأعمش وأبو جعفر الرازي وغيرهما من أئمة الحديث الكبار. توفي سنة 139هـ بمرو. [انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 910، 379/6؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 1853، 60/9].

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 606/21؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 317/7.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، رقم 399، ص 171.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 606/21.

(6) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 25615، ص 1863؛ وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، باب في الدعاء بالليل ما هو؟ رقم 29826، 58/10؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، رقم 766، ص 123؛ والنسائي في سننه، كتاب آداب القضاة، باب الاستعاذة من ضيق المقام يوم القيامة، رقم 5535، ص 833-834؛ وابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل، رقم 1356، ص 240؛ والطبراني في المعجم الأوسط رقم 8427، 210/8-211؛ وصحح إسناده محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1413هـ-1993م، ص 95.

-ومنهم من قال معناه: قل سبحان الله وبحمده عند قيامك من نومك -أي نوم كان- ل تكون مفتتحا عملك بذكر الله.[1]

ويشهد لهذا الرأي قول النبي ﷺ: (من تعار في الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته).[2]

- ومنهم من قال معناه سبح وقت قيامك من نوم القيلولة لصلاة الظهر؛ واختاره الطبري، ثم علل اختياره له بقوله: (وإنما قلنا: عني به القيام من نوم القائلة، لأنه لا صلاة تجب فرضا بعد وقت من أوقات نوم الناس المعروف إلا بعد نوم الليل، وذلك صلاة الفجر أو بعد نوم القائلة، وذلك صلاة الظهر. فلما أمر بعد قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ بالتسبيح بعد إدبار النجوم، وذلك ركعتا الفجر بعد قيام الناس من نومها ليلا علم أن الأمر بالتسبيح بعد القيام من النوم هو أمر بالصلاة التي تجب بعد قيام من نوم القائلة على ما ذكرنا دون القيام من نوم الليل).[3] وقد رد هذا الرأي ابن العربي المالكي بأنه لا دليل عليه. قال رحمه الله: (وأما نوم القائلة فليس فيه أثر، وهو يلحق بنوم الليل).[4]

- ومنهم من قال -كابن مسعود وعطاء[5] وعون بن مالك وسعيد بن جبير وغيرهم-: المقصود أن يسبح الله عندما يقوم من مجلسه، فيقول: سبحانك اللهم وبحمدك، فإن كان المجلس خيرا ازداد فيه إحسانا، وإن كان غير ذلك كان تكفيرا له.[6] ويشهد لهذا القول قوله ﷺ: (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك).[7]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 605/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 543/19.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى، رقم 1154، ص215، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ ومعنى تعار: استيقظ وانتبه؛ وقيل: تكلم. [انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 48/3].

(3) الطبري، جامع البيان،607/21؛ وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 544/21.

(4) ابن العربي، أحكام القرآن، 170/4.

(5) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم، مولى آل أبي ميسرة بن أبي خثيم الفهري. تابعي جليل مفسر محدث ثقة زاهد عابد. ولد سنة27هـ ونشأ بمكة، وأصله من اليمن. حدث عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ، وحدث عنه مجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وأبو حنيفة والأوزاعي وغيرهما من أئمة الحديث وعلماء الإسلام. توفي بمكة سنة 115هـ. [انظر على سبيل المثال: أبو نعيم، حلية الأولياء، رقم 244، 310/3؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 643، 552/5].

(6) البغوي، معالم التنزيل، 394/7؛ ابن العربي، أحكام القرآن، 170/4.

(7) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، رقم 3433، ص 780، واللفظ له؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه غلطه، رقم 10157، 153/9؛ وأحمد في المسند، رقم 10420، ص

– ومنهم من قال –كابن عباس رضي الله عنه– معناه صل لله حين تقوم من منامك. وهو رأي متوقع مرهج؛ لأنه معروف بالقول أن كل تسبيح في القرآن فهو الصلاة.[1] وهو قول لا يمكن –في تقديري– أن يكون على إطلاقه ، إذ التسبيح –مثلا– في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد:13] يبعد تفسيره بأن الرعد يصلي. فالمأمور به إذن هو التسبيح المعهود، سواء كان في افتتاح الصلاة، أو اختتام المجالس، أو الاستيقاظ من النوم، أو غير ذلك مما ذكر في هذا الموضع. ويقوي هذا المعنى ما صح عنه ﷺ أنه كان يذكر الله على كل أحيانه.[2]

• قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ(49)﴾[الطور].

وهو أمر بالتسبيح معطوف على الذي مر آنفا، فهو مقرون إذن بالصبر كما أسلفنا. وأما معناه:

– فقيل: أريد به التسبيح في أدبار الصلوات، أي المعقبات. وهو منقول عن ابن عباس رضي الله عنه.[3] ويشهد له حديث النبي ﷺ: (من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر).[4]

– وقيل: المراد توجيه الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات المذكورة في الآية . أي، ليلا وفي أعقاب النجوم إذا غربت آخره.[5]

– وقيل: المقصود صلاة المغرب والعشاء وسنة الفجر، أو صلاة الصبح. وهو قول أكثر المفسرين كما قال البغوي.[6]

– وقيل: هو التسبيح في الليل عموما، سواء كان في صلاة أو خارجها. بل وسعه البعض حتى أدخل فيه الذكر عموما والصلاة وقراءة القرآن. قال ابن كثير: (أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل).[7]

واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79)﴾[الإسراء].

715؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، رقم 594، 2/354-355؛ والحاكم في المستدرك، رقم 1827، 1/651؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 6192، 2/1065.

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،21/488؛ الماوردي، النكت والعيون، 6/173؛ البغوي، معالم التنزيل، 7/395.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم 373، ص 162.

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 19/545؛ الماوردي، النكت والعيون، 5/388.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم 597، ص 238، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 5/631.

(6) انظر: الطبري، جامع البيان، 21/609؛ البغوي، معالم التنزيل،7/396.

(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 7/318؛ وانظر: الماوردي، النكت والعيون، 5/387.

والخلاصة أنه ﷺ مأمور بالتسبيح ليلا في الصلاة الفريضة والنافلة، أو عقيب الصلوات، أو مطلقا، ولا مانع أن يضيف إلى التسبيح ذكرا آخر أو قراءة القرآن مما يكون ضمن الصلاة أو خارجها، فإن كل ذلك عبادة ثبت أمره بها في القرآن الكريم.

• قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(74)﴾[الواقعة].

وفي هذا الموضع جاء الأمر بالتسبيح مقرونا بوصفه تعالى بالعظمة، وقد سبقه عرض نماذج من دلائل قدرته وألوانا من آلائه وأفضاله على خلقه تقتضي تسبيحه كما تومئ إليه فاء الترتيب. ولا خلاف -في حدود ما اطلعت عليه- [1] أن المأمور به في هذا الموضع هو التسبيح المتبادر من اللفظ، وهو (كل كلام يدل على تنزيه الله ... ولكن محاكاة لفظ القرآن أولى وأجمع بأن يقول: سبحان الله). [2] أو سبحان ربي العظيم أو نحوه. ويشهد لهذا قول عقبة بن عامر رضي الله عنه: (لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال رسول الله ﷺ: (اجعلوها في ركوعكم)).[3] فكان الأمر بتسبيحه إما تنزيها له عما يقول الجاحدون لوحدانيته، الكافرون بنعمه، وإما تعجبا من تبجحهم في إنكار دينه ولقائه، وإما شكرا له على أنواع إحسانه عامة، و ما ذكر به خاصة.[4]

وقد جاء توكيد التسبيح المأمور به في هذه الآية وبالعبارة نفسها في موضعين آخرين: أحدهما في آخر آية من سورة الواقعة نفسها، والآخر في آخر آية من سورة الحاقة. وفي ذلك دلالة على مكانة التسبيح عند الله وخصوصا بهذه الصيغة التي يقترن بوصفه سبحانه بالعظمة. وفي السنة أحاديث عديدة تؤكد ذلك مثل قوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).[5]

• قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)﴾[الأعلى].

---

(1) انظر مثلا: الطبري، جامع البيان، 358/22؛ الزمخشري، الكشاف، 37/6؛ الألوسي، روح المعاني، 151/27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 328/27.

(3) رواه أحمد برقم 17549، ص 1237؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم 869، ص 139؛ وابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم 887، ص 164؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، رقم 817، 298/1؛ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ وحسن إسناده محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، في كتاب المجموع شرح المهذب للشيرازي، حققه وعلق عليه وأكمله: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، المملكة العربية السعودية، د ر ط أو ت ط، 386/3.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 37/6؛ الألوسي، روح المعاني، 151/27.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم 6406، ص1170؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم 2694، ص1081، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جاء الأمر إليه ﷺ بالتسبيح في هذا الموضع مشفوعا بذكر وصف من أوصافه العلا، وهو العلو المطلق، ثم تلاه ذكر نماذج من أفعاله الحكيمة، وآلائه الجسيمة، فيكون التسبيح هنا شكرا لتلك النعم -كما قال الفيروزبادي- [1] وثناء على المنعم بذكر أسمائه الحسنى ووصفه بأوصاف المجد والعظمة.

- واختلف المفسرون فيما تعلق بالتسبيح هنا حول أمرين:

الأول: ما الذي يسبح؟ الله سبحانه أم اسمه كما هو ظاهر اللفظ؟ **والثاني**: كيف يسبح؟

- فقال بعض -كالطبري-: الذي يسبح هو الاسم، وذلك بأن لا يسمى به غيره سبحانه، كما كان يفعل المشركون في الجاهلية من تسميتهم بعض أصنامهم باللات، والعزى. وقيل: معناه ألا تفسر أسماؤه بما لا يليق به عز وجل ؛ وقيل: المقصود أن يصان الاسم الكريم عن الابتذال كأن يذكر في حالات الغفلة والذهول فلا يصاحب ذكره ما ينبغي له من التعظيم والإجلال ؛ وقيل: معناه مجده بأسمائه ونعوته بإجراء الأوصاف الشريفة والأخبار الطيبة على أسمائه تعالى التي تعرف بها إليك،[2] كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:110].

- وقال آخرون -كابن عباس رضي الله عنه والسدي[3]-: الذي يسبح هو الله سبحانه؛ لأن الاسم هنا صلة قصد بها تعظيم المسمى، والمعنى: سبح ربك الأعلى، وهو طريقة معروفة في اللغة، ولها نظائر. واستشهدوا بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ....

وهو اختيار جماعة من المحققين.[4] وهو الراجح -في تقديري- لما صح أن النبي ﷺ (كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى).[5]

---

(1) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، 286/2.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 310/24؛ الزمخشري، الكشاف، 356/6؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 31/ 136-137؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير ، 273/30.

(3) هو أبو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الأعور السدي الحجازي. تابعي جليل محدث مفسر. حدث عن أنس بن مالك وابن عباس رضي الله عنهما، وورد أنه رأى أبا هريرة والحسن رضي الله عنهما، وحدث عنه شعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وغيرهما من أئمة الإسلام. مات سنة 127هـ. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 738، 86/6؛ العجلي، تاريخ الثقات، رقم 94، ص 66].

(4) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 137/31؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 219/22. وعجز بيت لبيد:

ومن يبكك حولا كاملا فقد اعتذر. [انظر: لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 1، 1425هـ - 2004م، ص51].

(5) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 2066، ص 182؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم 883، ص 141؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، رقم 970، 349/1؛ عن ابن عباس رضي الله عنه؛ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين؛ وصححه

- وكما تنوعت وجهات نظر أصحاب القول الأول في كيفية تسبيح اسمه سبحانه تنوعت أنظار أصحاب القول الثاني. فقال بعضهم: معناه ألا يعامل الكفار معاملة تتسبب في إقدامهم على ذكر الله بما لا يليق بجنابه، كسبه أو وصفه بما هو منزه عنه. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:108]. وقال بعض آخر: أي صل لربك الأعلى. وقال غيرهم: معناه أن ينزه الله سبحانه عن كل ما لا يليق به، سواء في ذاته أو أسمائه أو أوصافه أو أفعاله أو أحكامه.[1] وهذا أرجح يقينا -وإن كان الذي سبقه داخلا في معنى التنزيه- لأنه هو الذي فعله النبي ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده (سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي)، يتأول القرآن).[2] ومعنى يتأول القرآن: يعمل ما أمر به فيه.[3]

• قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)﴾[النصر].

وفي هذا الموضع صدر الأمر إليه ﷺ بالتسبيح مقرونا بأمره بالاستغفار، موقوتا بظهور ثلاث علامات: النصر على مشركي العرب الذين طالما حاربوه، والفتح لأم القرى وغيرها من مدن الجزيرة، ورؤية الناس يعتنقون الإسلام جموعا جموعا. وقد فهم عدد من الصحابة -منهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما- أن هذه المذكورات الثلاث إشارات إلى دنو أجله عليه السلام. روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1)﴾[النصر]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا بن

محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في صحيح سنن أبي داود، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط 1، 1423هـ - 2002م، رقم 826، 38/4.

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 468/5؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 31/ 136-137؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين ت 399هـ، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1423هـ-2002م.120/5.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم 817، ص156-157؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم 484، ص 200، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص480.

عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)﴾ [النصر]. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.[1]

– وأما معنى التسبيح هنا فقال المفسرون هو التسبيح المعهود . أي قول: سبحان الله، وما في معناها من العبارات . ولم أر فيما وقع في يدي من كتب التفسير من خالف في هذا إلا ابن عباس رضي الله عنه، فإنه قال: أراد به الصلاة. وهو أمر معهود منه. ولذلك لم يذكر الماوردي [2] عند تفسيره له إلا وجهين، عزا أحدهما لابن عباس وهو المشار إليه، وذكر الآخر مطلقا من غير عزو، فكأنما قصد أنه الوجه المقابل. [3] ولا ريب أن الراجح هو قول الجمهور. يؤكد ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: (سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك). قالت: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: (جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)﴾[النصر]. إلى آخر السورة. [4] وفي رواية أخرى قالت: (ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: (سبحان ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي).[5]

* **وأمره ﷺ بالحمد.** قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾[الإسراء:111].

– أي: احمد الله الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص –أيها الرسول– فقل الحمد لله الذي استغنى عن الولد لغناه عن المؤنس والمعين والوارث وسائر ما يرجى من الذرية، والذي لم يشاركه في ملكه أحد، بل العالم كله علويه وسفليه مملوك له وحده دون سواه، والذي له العز المطلق، فلم يوال أحدا ليدفع بولايته ذلا أو يجلب بها نصرا إذ الكون كله بجميع من فيه وما فيه تحت قهره التام وسلطانه المطلق.[6]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)﴾ [النصر]، رقم 4970، ص939.

(2) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي. مفسر محدث فقيه أصولي قاض أديب. ولد سنة 364هـ بالبصرة، وبها تعلم ثم ارتحل إلى بغداد وغيرها للطلب ثم للقضاء. من شيوخه أبو القاسم الصيمري وأبو حامد الإسفراييني، ومن تلاميذه أبو بكر الخطيب البغدادي وأبو العز بن كادش، ومن تصانيفه الأحكام السلطانية وأدب الدنيا والدين. مات سنة450هـ ببغداد. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 4102، 474/13؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 428، 282/3].

(3) انظر: الماوردي، النكت والعيون، 361/6.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم 484، ص 200.

(5) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم 484، ص 200-201.

(6) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ، ص442.

- فهو أمر من الله سبحانه لنبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته المطلقة، وتعاليه عن جميع النقائص والعيوب، فهو المستحق لجميع المحامد. (1)

- وحمد الله معناه الثناء عليه بالجميل، سواء كان نعمة أسداها أو نعتا اتصف به. يقال حمدت فلانا على نعمته علي، وحمدته على شجاعته. ويكون بالقول دون الفعل، إذ لا يقال حمدت زيدا بمعنى عملت له عملا حسنا، خلافا للشكر فإنه لا يكون إلا على نعمة أسديت من المشكور إلى الشاكر، ولذلك يقال شكرته على هديته التي أعطاني ولا يقال شكرته على جماله مثلا. ويكون الشكر باللسان والقلب والجوارح. قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13]. وقيل: الحمد هو الثناء على الله سبحانه بأوصافه والشكر هو الثناء عليه بأفعاله.(2)

- وتضمنت هذه الآية ردا على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وعلى العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله، وعلى الصابئة والمجوس الذين قالوا لولا أولياء الله لذل الله، تعالى الله عما يقولون.(3)

- ومجيء الأمر بالحمد على هذه الصيغة يدل على قصره على الله سبحانه. قال ابن عاشور: (وجملة (الحمد لله) تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى؛ لأنه أعظم مستحق لأن يحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم).(4)

- ولمكانة الحمد تكرر أمر الله لنبيه ﷺ به في مواضع متعددة من الكتاب العزيز؛ منها:

- قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(59)﴾[النمل].

وهو أمر للنبي ﷺ بحمد الله على نعمه عليه كالنبوة والرسالة، وتوفيقه إياه لما وفقه له من الهداية وألوان الخير المتنوعة، وعلى كمال شأنه سبحانه وعظم قدرته، وتمام كل أوصافه، والانتصار لرسله.(5) والملحوظ أن الأمر بحمد الله في هذا الموضع جاء مقرونا بالسلام على المصطفين من عباده كما يقترن في افتتاحيات الكتب والخطب وغيرها تيمنا بذكر الله والسلام على أوليائه. (وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما).(6)

---

(1) انظر: الخازن، لباب التأويل، 3/151.

(2) انظر: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ت 756هـ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د ر ط ولا ت ط، 36/1.

(3) انظر: الألوسي، روح المعاني، 195/15.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 239/15.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 98/18؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 164/4.

(6) النسفي، مدارك التنزيل، 614/2؛ وانظر: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت 741هـ، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ - 1995م، 134/2.

- واختلف المفسرون في المقصود بهؤلاء المصطفين : فذهب بعضهم -كابن عباس في رواية أبي صالح [(1)] عنه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ومقاتل - إلى أنهم الأنبياء والرسل عليهم السلام . وذهب البعض الآخر -كابن عباس في رواية أخرى وسفيان الثوري والطبري - إلى القول بأنهم صحابة رسول الله رضي الله عنهم. [(2)] وفي تقديري أنهم جميعا مشمولون بذلك السلام الكريم؛ لأن وصفي العبودية الاختيارية والاصطفاء ينطبقان عليهم طرا. قال ابن جزي المالكي [(3)] رحمه الله : (واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين).[(4)]

• كما ورد الأمر إليه ﷺ بالتحميد في ثلاثة مواضع أخرى -غير الموضعين الآنفين- هي: الآية الثالثة والتسعون من سورة النمل، والثالثة والستون من سورة العنكبوت، والخامسة والعشرون من سورة لقمان، وسوف نتناولها -إن شاء الله- في الموضع المناسب لها عند الكلام عنه ﷺ باعتباره رسولا مبلغا.

* **وأمره ﷺ بشكر ربه سبحانه.** قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)﴾[الزمر].

- أي: وأقسم: لقد أوحي إليك -يا محمد- وإلى الرسل الذين أرسلوا قبلك إذا أشركت بالله أي شيء ليبطلن الله كل أعمالك الصالحة التي عملت قبل ذلك، ولتصيرن ممن خسروا أتم الخسران، فلا تطع مشركي قومك الذين يدعونك لعبادة أوثانهم، بل خص الله ربك وحده بعبادتك، وكن ممن يشكرونه على نعمه عليهم.[(5)]

---

(1) هو أبو صالح باذام، وقيل باذان، الكوفي الجمحي، مولى أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها. حدث عن مولاته وأخيها علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة من الصحابة رضي الله عنهم، وحدث عنه سليمان بن مهران الأعمش وسفيان الثوري وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 111هـ. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 625، 522/5؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 636، 6/4].

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 98/18-99؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 184/6؛ البغوي، معالم التنزيل، 171/6؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 145/6.

(3) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحي الكلبي. مفسر مقرئ فقيه أصولي لغوي نحوي أديب متكلم خطيب من أهل غرناطة. ولد سنة 693هـ، وطلب العلم حتى نبغ في شتى فنونه. من شيوخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي وأبو القاسم قاسم بن عبد الله الأنصاري السبتي، ومن تلاميذه لسان الدين بن عبد الله السلماني وابنه عبد الله بن أبي القاسم الغرناطي، ومن مصنفاته المختصر البارع في قراءة نافع والنور المبين في قواعد عقائد الدين. استشهد سنة 741هـ بطريف. [انظر مثلا: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، رقم 778، 306/1؛ الزركلي، الأعلام، 325/5].

(4) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 134/2.

(5) انظر: لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة، الدوحة، ط 8، د ت ط، ص692.

- ففي الآية أمر للنبي بأن يشكر ربه على ما أولاه من النعم الظاهرة والباطنة، وعلى رأسها نعمة النبوة والرسالة والهداية. وقد قرن بأمر آخر قبله وهو توحيد الله سبحانه توحيدا تاما لا شائبة فيه من شرك، وإفراده وحده بالعبادة. فهو عطف خاص على عام؛ لأن الشكر نفسه من أجل العبادات.

- والشكر في اللغة هو الثناء على المحسن بما أسداه إليك من المعروف.[1] أما شرعا فهو (ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة). [2] فهو عبادة تؤدى بالقلب واللسان والجوارح. أما في هذا الموضع فقد تمحض معنى الشكر المأمور به للعمل الصالح الذي يرضي الله سبحانه، لأنه عطف على إفراد الله بالعبادة الشاملة لأعمال القلب والأقوال والأعمال المخصوصة.[3]

- وينبغي للمسلم -خصوصا في هذا الزمان الذي سادت فيه الغفلة عن حقوق الله- أن ينتبه إلى أن الشكر كما يكون على النعم الدنيوية كالعافية في البدن والوالدين والأولاد والرزق والمسكن والمركب وغيرها مما لا يحصى، فكذلك يكون على النعم الدينية كالهداية والإخلاص والصلاة والصيام والحفظ من المعاصي وغيرها، بل هذه أكبر لأن نفعها يمتد إلى الآخرة ويظهر أثرها يومئذ نجاة من النار وفوزا بالجنة -وذلك الفوز العظيم- أما النعم الدنيوية فنفعها قاصر على دنيا زائلة وربما كانت عونا على معصية الله.[4]

-وفي القرآن الكريم بيان منه تعالى أن شكر الله سبحانه سبب لدوام النعم وحصول المزيد منها، خلافا لجحودها فإنه طريق لزوالها والحرمان منها. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7)﴾[إبراهيم]، كما بين أن الشكر سبب لدفع العذاب. قال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147)﴾[النساء]. وقد عطفت الشكر على الحمد؛ لأن كلا منهما ثناء، مع ما بينهما من العموم والخصوص.

- ويدخل في شكر الله على نعمه التحدث بها؛ لأن ذلك من الاعتراف بالجميل للمنعم سبحانه، ومن ثم فقد أمر الله نبيه ﷺ به. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(11)﴾[الضحى]. قال السعدي في بيان معنى ذلك التحديث: (أي: أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن).[5]

- لكن على المسلم -وهو يقتدي بنبيه ﷺ في التحديث بالنعمة- أن يحذر الفخر والرياء، وألا يغيب عن باله أن مشروعية

---

(1) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص174.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، 254/2.

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 60/24.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص695.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص887.

ذلك مرهونة بنيته. قال ابن القيم: (والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات موليها، ومحض جوده وإحسانه؛ فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكرا له، ناشرا لجميع ما أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله، ومدحه والثناء عليه، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها. وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس، ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم، ويستعبد قلوبهم، ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة).[1]

* **وأمره ﷺ بذكر ربه سبحانه**. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ(205)﴾[الأعراف].

– أي: استحضر عظمة ربك ومراقبته سبحانه في قلبك، متضرعا له وخائفا منه، واذكره بلسانك ذكرا وسطا بين المخافتة والمجاهرة، في الأوقات عموما وفي البكر والعشيات –بين طلوعي الفجر والشمس وبين العصر والغروب– خصوصا؛ لأن من افتتح نهاره واختتمه بذكر الله كان جديرا برعايته وحفظه. واحذر من الذهول عن ذكر الله، ذلك الذهول الذي هو حال من شغلتهم الدنيا عن وظيفتهم الأصلية التي هي عبادة الله وذكره.[2]

– ففي الآية أمر للنبي ﷺ بذكر الله تعالى. ولما كان الذكر (يطلق على خطور شيء ببال من نسيه...ويطلق على النطق باسم الشيء الخاطر ببال الناس)،[3] فقد أمر جل شأنه رسوله بنوعي الذكر معا، في نفسه وبلسانه، ليكون الأجر أعظم واستشعار عظمة المذكور أقوى.

– وفيها أيضا إرشاد له ﷺ إلى جملة من آداب الذكر المأمور به، منها:

. أن يكون في النفس؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأدنى إلى الإجابة وأبعد عن الرياء.

. أن يرفق بالتذلل المعبر عن الاعتراف بالتقصير في حق العظيم المستحق لكل إجلال.

. أن يكون على سبيل الخوف من المؤاخذة على التهاون في حق ذي السلطان والعظمة.

. أن يكون فوق الخفت ودون رفع الصوت، لأنه أعون على التفكر والتدبر.

. أن يكون باللسان إضافة إلى القلب؛ لأن في ذلك مغالبة للسهو ودفع للخواطر عن الذهن.[4]

---

(1) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء، دراسة وتحقيق: بسام علي سلامة العموش، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام، الرياض، ط1، 1406هـ-1986م، ص 731.

(2) انظر: سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 5/299-300.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/451.

(4) انظر: سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 5/299-300.

– والذكر المأمور به هنا يشمل الأذكار عموما من قراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة وغير ذلك.(1)

–ويستفاد من الآية استحباب المداومة على الذكر والمواظبة عليه بقدر الطاقة.(2)

وقد ورد الأمر إليه ﷺبالذكر في ثلاثة مواضع أخرى من كتابه تعالى –غير الذي مضى آنفا– هي:

• قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا(23)إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا(24)﴾[الكهف].

وهنا أمر ﷺ أن يتدارك نفسه بذكر الله إذا نسي أمرا ما، وقد سبق هذا الأمر بالنهي عن أن يقول عن شيء ما –جازما– إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقرن حصول ذلك –في قوله– بمشيئة الله؛ لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته، وأعقب بالأمر برجاء توفيق الله إياه لما هو خير وأرشد مما عزم عليه.(3)

– والملحوظ عن الأمر بالذكر في هذا الموضع أنه مسبوق بتأديب –كما هو الحال في الذي سبق– متبوع بتأميل الخير والرشد عند اللطيف الرحيم.

– وأقوال المفسرين في معنى الذكر المأمور به هنا متنوعة، فقيل: معناه: واستثن في يمينك إن تذكرت أنك نسيت الاستثناء أثناء اليمين. وقيل: المقصود إذا تذكر أنه لم يقل: إن شاء الله فيما أخبر أنه سيفعله فيما يستقبل من الزمان، فليقل ذلك متى تذكر. وقال غيرهم: المعنى: واذكر ربك إذا بدرت منك معصية. ورجح الطبري قول من قال: الصواب واذكر ربك إذا تركت ذكره؛ لأن الترك أحد معاني النسيان في العربية.(4) وهذا الذي رجحه الطبري هنا هو نفسه معنى المداومة على الذكر الذي أشار إليه الرازي في تفسيره للآية السابقة.

• وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(8)﴾[المزمل].

وفي هذا الموضع ورد الأمر إليه ﷺ بالذكر مقرونا بالأمر بالتبتل إليه، أي الانقطاع لعبادته والانشغال بها عما سواها، كما نقلنا عن المفسرين عند الحديث عن الأوامر المتعلقة بالعبادة عموما في المطلب الأول من المبحث الثاني، فهو عطف للعام على الخاص، وتقديم الخاص وهو الذكر على بقية العبادات – والله أعلم– لمكانته العظيمة عند الباري تقدست أسماؤه. قال سبحانه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45)﴾[العنكبوت]، كما يدل على ذلك أمره سبحانه لعباده المؤمنين بالإكثار منه، ولا نعلم شيئا أمر الله بالإكثار منه في كتابه غيره. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41)

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 548/2.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 114/15.

(3) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص430.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 225/15-226.

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(42)﴾[الأحزاب].

– واختلفت آراء المفسرين في المقصود من الذكر هنا؛ فقال بعض: أي ادعه بأسمائه الحسنى، وقال آخرون: معناه اقصد بعملك وجه ربك، وقيل: المعنى: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتقبل على طاعته وتعدل عن معصيته، وقيل غير ذلك.[1] والراجح في تقديري أن معناه: أكثر من ذكره وداوم عليه، لأنك (إذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والإخلاص)،[2] ولأنه هو المناسب للتبتل المعطوف عليه في الآية، وللمحفوظ من سيرته وسنته عليه السلام، كقوله لمن قال له: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله).[3]

– وذكر اسم الله هنا يشمل كل كلام طيب فيه ثناء وتمجيد وتعظيم لقيوم السماوات والأرض، خصوصا إذا كان ثابتا في كتاب الله أو سنة رسوله؛ كالتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والحوقلة والصلاة وقراءة القرآن ودراسة العلم وسوى ذلك مما كان نبي الله ﷺ يستغرق به سحابة يومه وساعات ليله.[4]

• وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24)وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(25)وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(26)﴾[الإنسان].

وهنا ورد الأمر بالذكر مشفوعا بالنهي عن طاعة الآثمين والكافرين، محفوفا بالأمر بالصبر لأحكام الله، والسجود له عز وجل، وتسبيحه وقتا طويلا من الليل؛ لأن الذكر يعين صاحبه على تحمل ما ينزل به من حوادث الزمان، ويكسبه قوة للاستعصاء على مطامع أهل الكفران، ويعطيه طاقة لعبادة الرحمن.

– وأقوال المفسرين في معنى الذكر المأمور به في هذه الآية تتلخص في رأيين: الأول: أن المقصود هو الصلاة؛ لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على ذلك، فالبكرة صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر. والثاني: أن المقصود هو التسبيح الذي هو القول والاعتقاد، والمراد أن يكون ذاكراً لله في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً بقلبه ولسانه.[5] والراجح –والله أعلم– هو القول الثاني؛

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 332/21؛ الماوردي، النكت والعيون، 128/6.

(2) برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ت 885هـ–1480م، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ر ط ولا ت ط، 13/21–14.

(3) رواه أحمد في مسنده، رقم 17832، ص 1261؛ والترمذي في سننه ،كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم 3375، ص766؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم 3793، ص 625؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الأذكار، رقم 814، 96/3–97؛ من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 7700، 1273/2.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 244/6.

(5) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 259/30.

لأن الصلاة كنى عنها بالسجود؛ ولذلك قال ابن عطية: (ثم أمره تعالى بذكر ربه دأباً ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة). (1)

* **وأمره ﷺ بالتكبير**. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا(111)﴾[الإسراء].

– أي: (قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا لعدم حاجته إليه، ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه –وحده– منشئه، ولم يكن له ناصر يعطيه عزة من ذل لحقه، وعظم ربك تعظيما يليق به). (2)

– هذه الآية خاتمة سورة الإسراء، وهي مختومة بأمر للنبي ﷺ أن يكبر الله سبحانه وتعالى. ولا شك أن تكبيره جل شأنه يشمل تكبيره بالقلب، أي تعظيمه به وذلك باعتقاد عظمته واستشعارها، وتكبيره باللسان، وهو قول: الله أكبر. قال ابن جزي الغرناطي: (ويحتمل هذا التكبير أن يكون بالقلب وهو التعظيم، أو باللسان وهو أن يقول: الله أكبر مع قوله الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية). (3)

–ولأهمية تكبير الله سبحانه في عقيدة المسلم وعبادته صدر الأمر به في موضع آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)قُمْ فَأَنْذِرْ(2)وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3)﴾[المدثر]، والملحوظ أن كليهما من القرآن المكي، والذي من خصائصه غرس عقيدة التوحيد في النفوس وترسيخها على الألسنة.

–وأقوال المفسرين متنوعة في معناه في هذه الآية، ويمكن تلخيصها في ثلاثة أوجه:

أحدها: معناه صفه بأنه أكبر من كل شيء. ولا يخفى أن مقصود القائلين بهذا الرأي أن يردد: الله أكبر. ومما يقوي هذا القول –في تقديري– ما ذكره أهل اللغة من أن التكبير أبلغ كلمة في العربية لمعنى الإعظام. قال أبو حيان: (التكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وأكده بالمصدر تحقيقا له وإبلاغا في معناه). (4)

والثاني: معناه عظمه ونزهه عن كل ما لا يليق به ولا يجوز وصفا له. وظاهر أن هذا التوجه ركز على باب الصفات. ويقوي هذا القول –في اعتقادي– ما سبق الأمر بالتكبير من أمر بحمده سبحانه وتنزيهه عن الولد والشريك والولي الناصر من الذل، فهما يهدفان إلى غاية واحدة هي ترسيخ تنزيهه سبحانه عن كل نقص.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، 414/5.

(2) لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القران الكريم، ص425.

(3) ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 500/1.

(4) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 88/6.

والثالث: معناه عظمه تعظيما، وهذا الاتجاه قصد إطلاق التعظيم بحيث يكون شاملا للذات والأسماء والصفات والأفعال، ويكون بالقلب واللسان والجوارح. [1] والراجح -والله أعلم- أن هذه الوجوه كلها مقصودة، وإن كان القول الأول هو الذي يظهر به التعظيم علنا للناس، ويؤثر في نفوسهم خصوصا في أحوال الجهاد وأيام الأعياد، يدل على ذلك قول النبي ﷺ وفعله.

أما قوله فأحاديث كثيرة ترغب في التكبير وتدعو إليه. ، منها قوله ﷺ: (إن مما تذكرون من جلال الله التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، ينعطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، تذكر بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له، أو لا يزال له من يذكر به).[2]

وأما فعله فقد كان ﷺ يكبر في كل صلاة من صلواته الفرائض والنوافل، عند افتتاحها وعند الانتقال من ركن إلى ركن وفي معقباتها، وعند رؤية هلال العيد وفي ليلته وفي ذهابه إلى المصلى، وغيرها من المواضع الكثيرة الثابتة في سيرته وسننه؛ وكأنه يترجم ذلك الأمر فعليا في الواقع مع المحافظة على مادة الكلمة كما نزل بها الوحي الأعلى. ومن ثم قال مقاتل: [3] (هو أن يقول: الله أكبر).[4]

- ويجدر التنبيه أن تكبير الله وتعظيمة لا يقتصر على استشعار معناه في القلب أو ترديد لفظه باللسان، بل ينضم إلى ذلك الحرص على تنفيذ أوامره والكف عن مناهيه. قال الشنقيطي: (ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه).[5]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 405/23؛ الماوردي، النكت والعيون، 282/3؛ المراغي، تفسير المراغي، 111/15؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 442.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 18552، ص 1320؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب فضل التسبيح، رقم 3809، ص628؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم 1841، 655/1؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم 1568، 240/2.

(3) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي. عالم مفسر، اختلف العلماء في شأنه فوثقه بعضهم فيما تعلق بروايته، ونسبه البعض إلى الكذب. أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ثم إلى بغداد وحدث بها. يروي عن مجاهد والضحاك وعطاء وعمرو بن شعيب وغيرهم من الأئمة الأعلام، ويروي عنه سعد بن الصلت وحرمي بن عمارة وبقية بن الوليد وغيرهم. توفي سنة 150هـ بالبصرة. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1080، 154/7؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 733، 255/5].

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 191/30.

(5) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 750/3.

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال الدعاء

أتناول في هذا المطلب ما ورد إلى النبي ﷺ من الأوامر الربانية المتعلقة بالدعاء، ملحقا بها الأمر بالاستعاذة، لأنها لون من الدعاء بالحماية والحفظ من المخوف أو المكروه.

دل الاستقراء أن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ بالدعاء بمسائل متنوعة، حددتها حكمته البالغة، وهي:

1- الدعاء بالمغفرة. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(118) ﴾[المؤمنون].

– أي: قل -أيها الرسول- يا رب اغفر لي ولجميع المؤمنين، وارحمني وكل عبادك المسلمين رحمة تسع المحسنين والمذنبين، وأنت أفضل الرحماء وأوسعهم رحمة.[1]

– هذه الآية ختام سورة المؤمنون، وهي مختومة بأمر للنبي ﷺ أن يدعو ربه بأمرين عظيمين لا يستغني عنهما بشر هما المغفرة والرحمة.

– وأمر النبي ﷺ بالدعاء بالمغفرة -لنفسه- ورد في خمسة مواضع من كتاب الله، هذا أحدها. وهي في اللغة بمعنى الستر،[2] وأما في الاصطلاح فمعناها -إذا أطلقت- (محو الذنب وستره عن الناس).[3] وأمره ﷺ أن يدعو بها متضمن لوعد بالقبول.[4] ولئن كان الأمر بالدعاء بالمغفرة والرحمة قد جاء هنا مقرونا بوصفه سبحانه بأنه خير الراحمين، فقد جاء وصفه في موضع آخر من القرآن العظيم بأنه خير الغافرين. قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(155)﴾[الأعراف].

– والمحفوظ من سيرته أنه ﷺ ثابر على العمل بمقتضى هذا الأمر مثابرة منقطعة النظير، يدل عليها قوله ﷺ: (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة).[5]

– ولئن كان النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر [6] مأمورا بالاستغفار فنحن أولى بالمداومة عليه والإلحاح فيه لكثرة ذنوبنا وعظم تقصيرنا، وما ينبغي أن تصدنا عن ذلك كثرة الذنب وكبره والتقصير وطوله، فإن خير الغافرين والراحمين فتح

---

(1) انظر: وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، ص350.

(2) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 385/4.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 348/5.

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 137/18.

(5) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم 2702، ص 1083.

(6) يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا(1)لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(2)وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(3)﴾[الفتح].

لنا باب الأمل العظيم مهما كانت آثامنا. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)﴾[الزمر].

• وورد الأمر إليه ﷺ بالاستغفار لنفسه أيضا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا(105)وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(106)﴾[النساء].

– وفي هذا الموضع ورد الأمر إليه ﷺ بالاستغفار من ذنب محدد وهو المخاصمة عن الخائنين، [1] (على أنه ﷺ إنما تكلم على الظاهر وهو يعتقد براءتهم)، [2] وهذا دليل على أنه ﷺ بشر لا يعلم الغيب إلا أن يوحى إليه، ومع ذلك فإن مجادلته عن السارقين قد تسببت في إيذاء ضحاياهم حتى قال ابن أخي المسروق منه: (فسمعت من رسول الله ﷺ ما أكره، فانصرفت عنه ولوددت أني خرجت من مالي ولم أكلمه)، [3] كما يدل على أن الإنسان قد يذنب دون قصد، أي خطأ أو سهوا، فيكون ذلك من ذنوبه التي لا يعلمها، ولذلك كان ﷺ يقول في دعائه: (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي).[4]

• وورد الأمر إليه ﷺبالاستغفار لنفسه أيضا في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(55)﴾[غافر].

–وفي هذا الموضع جاء الأمر بالاستغفار من الذنوب عموما –كما في الموضع الأول– وليس من ذنب بعينه؛ لأن المقصود بالذنب هنا جنسه. والملحوظ أن الأمر بالاستغفار ورد محفوفا بأمرين آخرين: بالصبر على أذى المشركين وتكذيبهم، وبالتسبيح بحمد الله بكرة وعشيا.

– أي: اصبر على ما ينالك من شدة أذى قومك فإن نصرك مضمون من الله الذي لا يخلف ضمانه، وإن العاقبة لك، وأقبل على الطاعات، واستدرك ما فرط بالاستغفار، واستمر في الثناء على ربك صباحا ومساء.[5]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 465/7.

(2) ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 209/1.

(3) رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء، رقم 3036، ص679–680؛ والطبري في جامع البيان، 458/7–462؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الحدود، رقم 8164، 472/4–474؛ من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي في الموضع الذي مر آنفا.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت)، رقم 6399، ص1169؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم 2719، ص 1089، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(5) الزمخشري، الكشاف، 354/5.

- والأمر بالاستغفار والتسبيح متضمن الإشارة إلى أن (مجامع الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدماً عليه في الذكر). [1] فينبغي للمسلم المقتدي بنبيه ﷺ معرفة هذا التقسيم وذلك الترتيب حتى لا يقدم ما حقه التأخير أو العكس.

• وورد الأمر إليه ﷺ بالاستغفار لنفسه أيضا في قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(19)﴾[محمد].

والمقصود هنا الاستغفار من الذنوب عموما، وقد جاء محفوفا أيضا بأمرين آخرين: الثبات على العلم بتوحيده سبحانه، والاستغفار لمن آمن من الرجال والنساء. والملحوظ أن الاستغفار هنا مسبوق بمأمور به من أعمال القلوب –وهو العلم– ومتبوع بآخر من أعمال اللسان –وهو الاستغفار للمؤمنين– تماما كالذي مضى قبله؛ فقد سبق بالأمر بالصبر –وهو من أعمال القلوب– ثم أتبع بالأمر بالتسبيح –وهو من أعمال اللسان–، وهو ما يؤكد أن أعمال القلوب أخطر عند الله وأولى بالاهتمام من أعمال الجوارح. وفي هذا تنبيه إلى أولئك المتدينين الذين يركزون جل اهتمامهم على مسائل ظاهرية –وإن ثبتت النصوص بها– ويعقدون الولاء والبراء على أساسها، ويقضون معظم أوقاتهم في تصنيف الناس بناء عليها. ولو أن هؤلاء أنفقوا أوقاتهم في تطهير قلوبهم من أدرانها وعلاجها من أمراضها لكان أنفع لهم وأرضى لله من شغل أنفسهم وأمتهم بما لا يجدي.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(31)هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(32)مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ(33)﴾[ق].

- ويستفاد من ترتيب هذه الأوامر: بالعلم ثم بالاستغفار لنفسه الشريفة وللمؤمنين والمؤمنات أن العلم مقدم على العمل، وأن الأعمال الدينية والدنيوية ينبغي أن تبنى على الفقه الصحيح والتخطيط المسبق، لا على الوهم والفوضى.

• وورد الأمر إليه ﷺ بالاستغفار لنفسه أيضا في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)﴾[النصر].

وفي هذا الموضع ورد موقوتا برؤية علامات محددة –وهي انتصاره ﷺ على المشركين وفتح مكة ودخول العرب في الإسلام– مقرونا بالتسبيح بحمد الله. وهو متناول للذنب عموما لا لذنب محدد.

- وقد لخص أبو السعود [2] توجيهات المفسرين –الذين يرون أن الأنبياء لا تصدر منهم حتى الصغائر من الذنوب– لمعاني الاستغفار الذي أمر به النبي ﷺ في هذا الموضع وسائر ما مضى بقوله: ((واستغفره) هضما لنفسك، واستقصارا لعملك، واستعظاما لحقوق الله تعالى، واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى).[1]

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 78/27.

(2) هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الآمدي، الملقب بمفتي الأنام. مفسر محدث فقيه أصولي مفت لغوي متقن للعربية والتركية والفارسية. ولد سنة 898هـ في قرية إسكليب قرب القسطنطينية، وتوجه إلى تحصيل العلم منذ صغره، فأخذ عن أبيه –وهو عالم

- وأيا ما كان الأمر فإنه ﷺ ترجم هذا الأمر إلى الواقع العملي عندما رأى تلكم العلامات المشار إليها في الآية. قالت عائشة رضي الله عنها فيما رواه مسلم في صحيحه: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: (سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك). قالت: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: (جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)﴾[النصر]. إلى آخر السورة.[2] وفي رواية أخرى قالت: (ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: (سبحان ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي).

- ولا ننسى أنه مر بنا -عند الحديث عن الأوامر الصادرة إليه ﷺ بالتسبيح- أثر ابن عباس رضي الله عنه أن هذين الأمرين وما جعل لهما من علامات إيماء إلى دنو أجله ﷺ.

2- الدعاء بالرحمة: قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(118) ﴾[المؤمنون].

وقد مضى شرحها عند الحديث عن المغفرة. وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ورد فيه الأمر إليه ﷺ بالدعاء بها، وهو في سورة مكية.

- والرحمة في اللغة إذا أطلقت على الإنسان فهي (رقة القلب وعطفه)، [3] أما بالنسبة إلى الله عز وجل فهي (صفة الله التي اشتق لنفسه منها اسمه الرحمن، واسمه الرحيم، وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم ، وصيغة التفضيل في قوله ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(118)﴾؛ لأن المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضا).[4] ولا شك أن صور رحمته سبحانه لعبده لا يمكن إحصاؤها كثرة، ولكن من أبرزها أن يترك عقابه إذا أذنب ويقبل توبته إذا تاب.[5]

- والآية تلمع إلى أن من آداب الدعاء الثناء على الله تعالى بما يناسب موضوع الدعاء. ألا ترى أنه لما كان الأمر بالدعاء بالرحمة قرن بالأمر بالثناء عليه سبحانه بأنه خير الرحماء، كما تلمع إلى سعة رحمته عز وجل، فهو ليس رحيما فقط بل هو خير الراحمين. والثابت أن النبي ﷺ صور اتساع هذه الرحمة فقال: (إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم

مصنف- ألوان العلوم حتى غدا جامعا لصنوفها المختلفة، فقدم للقضاء والخطابة والفتوى، وشرع في التصنيف وقدمه السلاطين للتدريس والإفتاء العام. من شيوخه عبد الرحمن بن علي الحنفي وأحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا، ومن تلاميذه محمد بن عبد الوهاب الحنفي وحسن بن يوسف الصمداني، ومن مؤلفاته بضاعة القاضي في الصكوك وتهافت الأمجاد على كتاب الجهاد. توفي سنة 982 بالقسطنطينية. [انظر مثلا: الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 540، ص 398؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 15856، 693/3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 586/5.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم 484، ص 200.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 125/6.

(4) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 912/5.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 135/17.

والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة).[1]

– وأمره سبحانه لنبيه ﷺ بأن يدعو بالرحمة يتضمن وعدا بالاستجابة،[2] كما تضمن الإشارة إلى الأمل الأكبر في تحقيق الرغائب –وعلى رأسها الفوز بالجنة– وهو التعلق برحمة الله والتعرض لها. قال النبي ﷺ: (لن يدخل أحد منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة).[3]

3– الدعاء بزيادة العلم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا(114)﴾[طه].

– أي: لا تسرع بتلاوة القرآن حال إلقائه إليك من قبل الملك خشية أن تنسى منه شيئا، بل أصغ إليه ولا تساوقه بالقراءة حتى يفرغ، فإذا فعل ذلك فاقرأه فإنا نثبته في قلبك بحيث لا يفوتك منه شيء، وادع ربك –يا رسول الله– قائلا: رب زدني علما إلى ما علمتني من قبل بتفهيمي ما أنزلت إلي منه وإنزال غيره.[4]

–والآية متضمنة أمرا إلى النبي ﷺ أن يسأل ربه بأن يزيده علما. وهو الشيء الوحيد الذي أمر في القرآن بسؤال الزيادة منه، وفي ذلك تنبيه للمسلم إلى أن يكون حريصا على تعلم ما ينفعه عامة، وما تعلق بدينه خاصة، وأن يستعين على التحصيل بكل وسيلة مفيدة؛ ومنها دعاؤه سبحانه أن ييسر له سبل العلم، ويعينه على الحفظ والفهم، وأن لا يتوقف عند حد وهو يقدر على الاستزادة. وفي الأثر: (منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع).[5]

– وفي هذا الأمر دلالة على تواضعه وشكره ﷺ لربه على تعليمه إياه أدب التلقي من جبريل عليه السلام؛ فكأنه يقول: يا رب كما علمتني –تفضلا منك– أدبا جميلا في أخذ القرآن من الملك ما كان عندي –وهو أن لا أقاطعه أو أساوقه القراءة– فزدني

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم 6000، ص 1105؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، رقم 2752، ص 1101.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 137/18.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى والطب، باب تمني المريض الموت، رقم 5673، ص1057؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى، رقم 2816، ص 1133.

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 223/5؛ البقاعي، نظم الدرر، 352/12-353.

(5) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، رقم 312، 121/1، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ ورواه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ت 255هـ، في مسنده المعروف بسنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ-2000م، رقم 343، 355/1، موقوفا على الحسن البصري؛ وقال محقق سنن الدارمي حسين أسد: إسناده صحيح إلى الحسن وهو من قوله.

علما إلى الذي مضى.[1] والواقع ناطق أن الله سبحانه استجاب دعاء نبيه ﷺ فلا يزال يزداد علما حتى جاءه أجله. قال سفيان بن عيينة:[2] (ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل).[3]

- وفي المأمور به هنا تنويه بمزية العلم الذي ما قام الإسلام من أول يوم إلا عليه، ولا بنيت حضارته العظيمة الزاهرة إلا على أساسه، وما تقهقر المسلمون ونزع منهم زمام قيادة العالم إلا يوم تركوا الاجتهاد فيه وركنوا إلى التقليد واستسلموا للجهل والخرافة.

وكنا عظاما فصرنا عظاما	وكنا نقوت فها نحن قوت[4]
وكنا شموس سماء العلا	غربن فناحت عليها البيوت

4- الدعاء بالحفظ من العذاب إذا نزل بالمشركين من قومه : قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ(93)رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(94)﴾[المؤمنون].

- أي: قل -يا رسول الله- يا رب إن تربي ما توعدت به هؤلاء الكفار من العذاب واقعا بهم في الدنيا -وأنا حي- فلا تهلكني بما تهلكهم به، بل نجني مما يصيبهم من نقمتك واجعلني من أوليائك الذين رضيت عنهم.[5]

- ففي هذه الآية أمر له ﷺ بأن يدعو ربه أن يحفظه مما قد ينزل بقومه المشركين من العذاب عقوبة لهم على إشراكهم بالله وتكذيبهم لرسوله وكفرهم باليوم الآخر واستحبابهم للضلال من غير عذر، كما فعل أمثالهم من الأمم السابقة، وأن ينجيه مما يصيب المكذبين ربهم من الإهلاك الموعود.

- وفي هذا التلقين للنبي ﷺ إيماء إلى أنه سبحانه منجيه من العذاب حين وقوعه، كما أن فيه إلماعا إلى أنه سيريه حلول العقاب بمن كذبوه ليشفي صدره منهم. وقد تحقق ذلك يوم بدر حين منح الله أكتافهم للمسلمين يقتلونهم ويأسرونهم.[6] وقد خاطب ﷺ من هلك منهم في بدر بعد مواراتهم بما يدل على هذه المعاني. روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 112/4.

(2) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي، مولى محمد بن مزاحم. إمام مجتهد مفسر محدث فقيه أصولي لغوي مفت. ولد سنة 107هـ بالكوفة، وبها نشأ وطلب العلم صغيرا فحصل غزيرا وجود وأتقن وصنف. من شيوخه عاصم بن أبي النجود وأبو أيوب السختياني، ومن تلاميذه سليمان بن مهران الأعمش والإمام محمد بن إدريس الشافعي. مات بمكة سنة 198هـ ودفن بالحجون. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1292، 653/7؛ ابن أبي الوفاء الحنفي، الجواهر المضية، رقم 620، 230/2].

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 223/5.

(4) لسان الدين بن الخطيب السلماني ت 776هـ، ديوان لسان الدين بن الخطيب، صنعه وحققه وقدم له: محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1409هـ-1989م، 185/1.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 104/17؛ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 387/6.

(6) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 118/18.

رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا، فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر.[1]

– وتكليف الله نبيه أن يسأله ألا يجعله مع الظالمين عند حلول العذاب بهم –مع علمه ﷺ أنه تعالى لا يفعل ذلك– منطو على حكم بالغة منها تعبده بالدعاء وإظهار تواضعه لله ونيل المزيد من الأجر وتكثير الذكر.[2]

* **وأمره ﷺ بالاستعاذة به سبحانه من محذورات متعددة:** وقد توزعت تلك الأوامر على سبعة مواضع من القرآن العظيم.

1– أمره بالاستعاذة من نزغ الشيطان. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(200)﴾[الأعراف].

– أي: وإن تصبك يا محمد وسوسة من الشيطان لصرفك عما أمرت به أو دفعك إلى ما نهيت عنه –كأن تغضب من لجاجة الجاهلين بالشر– فاستجر بالله منها فإنه يعصمك، لأنه سميع لكل قول عليم بكل شيء.[3]

– فتضمنت الآية أمرا من الله تقدست أسماؤه لنبيه ﷺ بالاستعاذة به من نزغ الشيطان.

والنزغ لغة: شبه الوخز والطعن،[4] أما اصطلاحا فإن (المراد من نزغ الشيطان إثارته داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنوية بحيث تتقحم بصاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط).[5] ومعلوم أن الذي ينزغ إنما هو الشيطان كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾[يوسف]، واللافت أن الآية أسندت الفعل ينزغ إلى النزغ نفسه، وإنما ذلك من باب قولهم: فلان جد جده.[6]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم 3976، ص721، من حديث أبي طلحة رضي الله عنه؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، رقم2874، ص1152، من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 247/4؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 82/15.

(3) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 590/1؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 491/2.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 235/14.

(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 461/9.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 545/2.

- والاستعاذة في اللغة معناها الالتجاء. يقال: استعاذ فلان بكذا: لجأ إليه واحتمى به، وهو عياذه: أي ملجؤه.[1] ولا يختلف معناها الاصطلاحي عنه في اللغة، فهي اللجوء إلى الله وطلب الحماية منه، من نزغ الشيطان وغيره من المكاره. قال ابن كثير: (والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر).[2]

- ولخطورة نزغ الشيطان وأهمية الاستعاذة بالله منه تكرر الأمر بها إليه ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(36)﴾[فصلت].

- وفي السنة بيان من النبي ﷺ للصيغة الأكمل للاستعاذة من الشيطان وكيده. روى الشيخان -واللفظ لمسلم- من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبي ﷺ فقال: تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفا؟ قال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، فقال له الرجل: أمجنونا تراني؟[3]

وطبق ﷺ ذلك بنفسه. فقد صح فيما رواه ابن ماجة وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول في صلاته -بعد دعاء الاستفتاح وقبل الشروع في قراءة الفاتحة- :(اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه). قال: همزه الموتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبر.[4] فالعجب من الرازي وهو يحدد كيفية الاستعاذة من نزغ الشيطان بقوله: (الاستعاذة بالله عند هذه الحالة أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه وشديد عقابه فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع والإقبال على أمر الشرع).[5] ولو وقف عند هذا الحد لأمكن أن نقول لعله ذهل عن الصيغة الشرعية التي وردت في العبارة النبوية، ولو لم ترد تلك الصيغة في الصحيحين - أي في أعلى درجات الصحة- لقلنا لعله يرى عدم ثبوتها؛ ولكنه أضاف بعد ذلك ببضعة سطور قائلا: (قوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع واستحضر معاني

---

(1) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص229.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 381/3.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم 6048، ص 1112؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب، رقم 2610، ص 1049.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 3830، ص 305؛ وابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب الاستعاذة في الصلاة، رقم 808، ص 152؛ والبيهقي في سننه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالتعوذ والإسرار به، رقم 2356، 54/2؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ط1، 1499هـ-1979م، رقم 342، 53/2.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 102/15.

الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر).[1]
فهو إذن مستحضر لفظ الاستعاذة ويدرك ثبوتها ولكنه يراها **عديمة الفائدة والأثر** إذا لم تكن مصحوبة **بالمعارف القلبية**، وفي تقديري أن هذا الكلام لو كان صحيحا ما أمر الله نبيه بالاستعاذة، بل كان يكفي أن يأمره باستحضار معانيها وما يتصل بها من المعارف القلبية في عقله، كما يكتفى باستحضار نية الصلاة في القلب دون النطق بها، ولاكتفى النبي ﷺ في تطبيقه باستشعار تلك المعاني في فؤاده. واعتقادي أن الأذكار الثابتة كلها -ومنها الاستعاذة- نافعة مباركة في كل الأحوال؛ لأنها عبادات، ويزداد أجرها عند الله وأثرها في قوة الإيمان وارتقاء السلوك، كلما كان القلب حاضرا مستشعرا معانيها.

2- وأمره بالاستعاذة من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(98)﴾[النحل].

-فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ بالاستعاذة به تعالى من الشيطان الرجيم عند قراءته القرآن الكريم؛ وهو إعلام وندب له ﷺ عند أكثر الفقهاء، لا واجبا كما هو أصل الأمر. والمعنى إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، تماما كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[المائدة: 6]. وهو قول الجمهور من علماء الصحابة والتابعين وغيرهم، وإن كان ظاهر الآية يدل على أن الاستعاذة تكون بعد الفراغ من القراءة، كما ذهب إليه البعض كأبي هريرة رضي الله عنه وداود الظاهري.[2] والراجح -والله أعلم- هو قول الجمهور لدلالة فعله ﷺ عليه. ففي لفظ البيهقي -في السنن الكبرى- لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي مر في الصفحة السابقة قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة يقول -وفي حديث ورقاء كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول-: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه).[3]

- وفائدة الاستعاذة منع الشيطان أن يعرض لمن يقرأ فيخلط عليه قراءته ويلبسها عليه، أو يصده عن تدبر ما يقرأ ويعمل بما فيه،[4] (وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند

(1) المصدر السابق، ص 103.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 357/14؛ الزمخشري، الكشاف، 472/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 116/20-117. وداود الظاهري هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني. إمام المذهب الظاهري، مجتهد مفسر محدث فقيه. ولد سنة 202هـ بالكوفة ونشأ في بغداد وبها طلب العلم ورحل إلى غيرها حتى انتهت رياسته إليه. من شيوخه إسحاق بن راهويه وسليمان بن حرب وأبو ثور، روى عنه أبو تراب علي بن عبد الله البصري وابنه أبو بكر محمد. مات سنة 270هـ ببغداد. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم2273، 491/10؛ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، رقم 66، 284/2].

(3) مضى تخريجه في الصفحة السابقة.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 425/12؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 404/4.

إرادتها أهمّ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى).[1] وفي أمر النبي ﷺ بالاستعاذة عند القراءة لدفع وساوس الشيطان مع عصمته تنبيه لغيره من المسلمين أن يحرصوا عليها عند القراءة وسائر الأعمال الصالحة.[2]

3- وأمره بالاستعاذة من همزات الشياطين وحضورهم. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِ نْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ(97)وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ(98)﴾[المؤمنون].

فقد تضمنت الآية أمرا للنبي ﷺ أن يستعيذ بالله من همزات الشياطين وحضورهم شؤونه.

والهمزات جمع همزة وهي في اللغة (كلمة تدل على ضغط وعصر)،[3] أما اصطلاحا فقد تنوعت أقوال المفسرين في المراد بها مع تقاربها، ولم تخرج عن معنى النخس والدفع واللمز والخنق والنزغ والإغواء والأذى والجنون.[4] ويجمعها جميعا لفظ الأذى كما هو ظاهر؛ (والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف إليه).[5]

وأما حضورهم إياه فمعناه أن يشهدوه ويقاربوه، والمقصود أن يصيبوه بسوء؛ إذ أن الشيطان لا يحضر الإنسان إلا بشر.[6]

- والحضور الشيطاني الذي أمر النبي ﷺ أن يبتهل إلى ربه ألا يقع يحتمل أن يشمل كل أحواله ﷺ، أو عند تلاوة القرآن كما بينته الآية السابقة، أو عند سكرة الموت.[7] والراجح هو الأول لأنه لا أحد يستغني عن عوذ ربه له من عدوان الشياطين طرفة عين، وإن كانت حاجته عند الاحتضار أشد.

- والملحوظ أنه ﷺ أمر أن يدعو بلفظ الرب، وفي ذلك مبالغة في إظهار الضراعة والابتهال إلى الله؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر لشؤون المربوب، ومنها حفظه مما يضره.[8] وهذ الأدب في الدعاء ليس خاصا بالموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه فقط بل هو طريقة الصالحين في الدعاء عموما. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191)رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

---

(1) الشوكاني، فتح القدير، ص 801.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 65/6.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 83/15؛ الطبري، جامع البيان، 106/17؛ الزمخشري، الكشاف، 248/4؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 155/4؛ الماوردي، النكت والعيون، 66/4.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 84/4.

(6) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 489/5؛ الماوردي، النكت والعيون، 66/4.

(7) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، 481/2.

(8) انظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 387/6.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(192)رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ(193)رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194)﴾[آل عمران].

4- وأمره بالاستعاذة من شر الكفار وما ابتلوا به. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(56)﴾[غافر].

فالآية تضمنت أمرا للنبي ﷺ بالاستعاذة بالله، ولم تصرح بالمستعاذ منه؛ ولذلك اختلف المفسرون فيه: ما هو؟ فقال بعض: هو شر أولئك الكفار المجادلين أن يصيبه ﷺ، والكبر الذي يملأ صدورهم أن يعرض لقلبه منه شيء. وقال آخرون: هو كيد الحاسدين وبغيهم. وقال غيرهم: هو مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر. وقال فريق رابع: هو فتنة الدجال، وهو قول من قال إن المجادلين المذكورين في الآية هم اليهود الذين توعدوا النبي ﷺ أن يقاتلوه مع المسيح الدجال عند خروجه. وقد استغربه ابن كثير واعتبره متعسفا.[1] وأشمل ما قيل -فيما اطلعت عليه- قول ابن عطية رحمه الله. قال: (أمره تعالى بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مستعاذ منه، لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم، ويجازي كلا بما يستوجبه).[2] وهو الراجح في تقديري، والله أعلم.

5- وأمره بالاستعاذة من شر المخلوقات عامة، والسحرة والحسدة خاصة. قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2)وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(3)وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(4)وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(5)﴾[الفلق].

فهذه السورة تمحضت لأمر النبي ﷺ بالاستعاذة بالله -فالق الإصباح والحب والنوى- من أربعة أمور شديدة الخطر عظيمة الضرر، هي: شر ما خلق من الخلق، وشر وقوب الغاسق، وشر السواحر، وشر الحسدة إن حسدوا.

- و(شر ما خلق) تعددت فيه أقوال أهل التفسير. فقال الحسن -فيما نقله الماوردي- هو إبليس وذريته.[3]

وهو قول وجيه؛ إذ أن إبليس سبب كل معصية تصدر عن المكلفين. قال النبي ﷺ: (إن الله لو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس).[4] وقال النسفي: هو النار،[1] والمقصود -فيما يظهر- نار جهنم كما نقله ابن كثير عن ثابت البناني.[2] وقال

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 20/349-350؛ الزمخشري، الكشاف، 5/355؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 18/373؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 7/108.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية، 4/565.

(3) انظر: الماوردي، النكت والعيون، 6/374.

(4) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، 6/92، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ والبيهقي في الأسماء والصفات، رقم 328، و359، 1/402-403، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ وأبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت 418هـ، في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم، تحقيق: أحمد بن مسعود بن حمدان (رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه)، إشراف: عثمان عبد المنعم يوسف، رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر والأستاذ بجامعة أم القرى، ط 2، مكة

آخرون: يعم كل موجود له شر.[3] ومن هؤلاء الطبري وابن كثير. وهو أرجحها في تقديري؛ لأن (ما) من صيغ العموم، ولم يرد ما يخصصها. فأمر ﷺ أن يلوذ بخالق الفلق ومالكه ومدبره من شر كل ذي شر؛ لأنه لا يقدر على الحفظ من هذه الشرور التي تفوق العد مع خفاء أكثرها إلا قيوم السماوات والأرض الآخذ بنواصيها، كما قال هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56)﴾[هود].

- والغاسق معناه المظلم، ووقوبه: إظلامه. ولذلك قال الطبري: (﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: ومن شرّ مظلم إذا دخل، وهجم علينا بظلامه) [4]. ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

إن هذا الليل قد غسقا   واشتكيت الهم والأرقا [5]

وقال ابن قتيبة: [6] (الغاسق: القمر، سمي به لأنه يكسف فيغسق، أي يذهب ضوؤه ويسود، ووقوبه دخوله في ذلك الاسوداد).[7] وهو قول وجيه أيضا. يدل عليه ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: (يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب). [8] وقيل غير هذا. ولا تنافر بين هذه الأقوال فكلها

المكرمة، ط 1411/2هـ، رقم 1101، ص 618-619، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم 1642، 197/4، وصحيح الجامع، 1812، 372/1.

(1) انظر: االنسفي، مدارك التنزيل، 697/6 .

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 401/8.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 538/5.

(4) الطبري، جامع البيان، 745/24.

(5) عبيد الله بن قيس الرقيات ت 75هـ، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د ر ط ولا ت ط، ص 187.

(6) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري. قاض نسابة عالم حافظ أديب. ولد ببغداد وبها تعلم وروى عن أبيه ما صنف من الكتب ثم رحل إلى مصر وتولى فيها القضاء. روى عنه أبو الفتح الراعي النحوي وعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي وغيرهما. توفي سنة 322هـ بمصر. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 2846، 488/11؛ الزركلي، الأعلام، 156/1].

(7) الرازي، مفاتيح الغيب، 194/32.

(8) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 26322، ص 1909، ورقم 26676، ص 1933؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة المعوذتين)، رقم 3366، ص 764؛ والنسائي في الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا رفع رأسه إلى السماء، رقم 10064، 122/9؛ والطيالسي في مسنده، رقم 1589، 90/3؛ وابن السني في عمل اليوم والليلة، رقم 648، ص 393؛ من حديث عائشة رضي الله عنها؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم 372، 714/1.

متعلقة بالليل ودخوله وما يتصل به من غروب الشمس أو كسوف القمر. والمقصود الاعتصام بالله من شر ما ينتشر في الليل من الشياطين المعتدية والحيوانات المؤذية وأهل المكر والظلم والختل من البشر.[1]

– والنفاثات في العقد هن السواحر اللائي يتفلن في عقد الخيوط بعد قراءتهن لرقاهن السحرية على اسم المسحور قصد إيذائه؛ ولم أر خلافا ذا بال بين المفسرين في هذه المسألة. وإنما نصت الآية على السواحر دون السحرة –والله أعلم– لأن الغالب أن يمارسه النساء لضعف عقولهن ودينهن، وإلا فإن الرجال يمارسونه أيضا. ومما يدل على ذلك ما حصل للنبي ﷺ. روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا، فأمر بها فدفنت.[2]

– وفي أمره تعالى لنبيه ﷺ بالاستعاذة به من السحر –مع ما حصل له كما بين الحديث– دليل على أن السحر له حقيقة، وأن الوقاية منه إنما تكون بالاستعاذة بالله والتوكل عليه.[3]

– والحاسد هو الموصوف بالحسد، وهو (إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها).[4] ويدخل في الحاسد العائن لأن الإصابة بالعين لا تصدر إلا من حسود خبيث النفس.[5] والأمر بالاستعاذة منه دليل على أن الحسد له تأثير حقيقي على المحسود، كما أن العين حق كما أخبر ﷺ.[6]

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص897.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر، رقم 5763، ص1071؛ ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر، رقم 2189، ص 900-901، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص897.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 629/30.

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 897.

(6) قال النبي ﷺ: (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا). [أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم 2188، ص 900، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه].

6- **وأمره بالاستعاذة من شر الشيطان بصفة أخص**. قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4)الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(5)مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6)﴾[الناس].

فهذه السورة تمحضت لأمر النبي ﷺ بالاستعاذة برب الناس وملكهم ومعبودهم من شر الشيطان الذي هو أصل الشرور جميعا ومادتها وسببها.[1]

- وفي السورة تنبيه لمن يعظم بعض الناس لوجاهتهم أو غناهم أو سلطانهم أو غير ذلك تعظيما يتجاوز الحد أن الله سبحانه ملك معظميهم، وقدرته قاهرة فوقهم، فهو أولى بالتعظيم والعبادة[2] وأقدر على حماية من يستجير به من كل مخوف؛ لأن ذلك التعظيم المبالغ فيه -والذي وصل في بعض الحالات حد العبادة- هو نفسه من شر الشيطان.

-وفيها تنصيص على وصفين كاشفين لذلك العدو المتربص وهما الوسوسة والخنوس. والوسوسة في اللغة هي الصوت الخفي كهمس الصائد والكلاب والحلي،[3] (ثم درج اصطلاح القرآن وكلام الرسول ﷺ على تسمية إلقاء الشيطان في نفوس النّاس خواطر فاسدة، وسوسة تقريبا لمعنى ذلك الإلقاء للأفهام)، [4] فهو ينبسط ويوسوس للإنسان بالشر ويزينه له وينشطه إليه ويهون عليه عواقبه إذا أنس منه غفلة عن ذكر ربه الحافظ له، فإذا ذكر مولاه خنس وانقبض، فإذا غفل ثانية عاد اللعين إلى الوسوسة من جديد، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.[5]

- ومع أن الله سبحانه رب المخلوقات أجمعين، إلا أنه أضيف في الآية إلى الناس خاصة؛ لأن الأمر توجه للاستعاذة من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: استعذ من الموسوس إلى الناس بربهم ومعبودهم الذي يملك أمورهم، كما يستغيث الموالي بسيدهم إذا حلت بهم نائبة من نوائب الدهر.[6]

- وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ يحتمل أن يكون تفصيلا لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ -أي: يوسوس في صدور البشر والجن، وإنما أدخلت الجن في لفظ الناس تغليبا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(6)﴾[الجن]- ويحتمل أن يكون تفسيرا للذي يوسوس. أي: استعذ برب الناس من الذي يوسوس في صدور الناس، سواء كان هذا الموسوس من شياطين الجن أو من شياطين الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص897.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 753/24.

(3) انظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، د ر ط، 1397هـ-1977م، 12/17.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 56/8-57.

(5) الطبري، جامع البيان، 754/24.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 468/6.

عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)﴾[الأنعام: 112].[1] وذلك ما يحمل المسلم المتأسي بالنبي ﷺ على الذكر المستمر تحصنا من شرور شياطين الجن، والحذر الدائم من وساوس شياطين البشر المزينين للباطل الآمرين بالمنكر الداعين إلى الفواحش المثبطين عن الحق والخير والمعروف، خصوصا في هذا العصر الذي تطورت فيه وسائلهم وقوي فيه ناصرهم وحفزهم شعورهم بأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أهدافهم.

– وقد شهد من عاصر النبي: ﷺ –وخصوصا المقربون منه– أنه نفذ ما أمر به تنفيذا لا نعلم أحدا من المسلمين جاء به أبدا أو بما يقاربه؛ سواء **من حيث كثرة الترديد** للذكر والدعاء أوقاتا طويلة من الليل والنهار، [2] كما قال ﷺ: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)، [3] وكما قال حذيفة –رضي الله عنه– صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت :يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها. ثم افتتح آل عمران،فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه،ثم قال:سمع الله لمن من حمده، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبا من قيامه.[4] أو **من حيث التعبير عن قصد الكثرة** ، كما قال عبد الله بن أبي أوفى –رضي الله عنه–: كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع، قال: (سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ماشئت من شيء بعد).[5] أو **من حيث التفنن** في صيغ الذكر وأنواع الثناء على الله، كقوله ﷺ: (سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته). [6] ومن هنا قال محمد الغزالي –وهو رجل

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 405/8.

(2) تضمن مجموع الآيات الواردة في هذا المبحث فائدة مهمة وهي أن المأمورات الموجهة فيها إلى النبيﷺ ليس لها زمن خاص تمنع في سواه، بل يمكن له –ولغيره– الإتيان بها في كل حين، حتى ما كان ظاهره تحديدا لأوقات معينة، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(55)﴾[غافر]، ولذلك قال الرازي في تفسيرها: (وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وأن لا يفتر اللسان عنه، وأن لا يغفل القلب عنه، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلاً في زمرة الملائكة، كما قال في وصفهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(20)﴾[الأنبياء]. الرازي، مفاتيح الغيب، 79/27.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، رقم 6307، ص 1154، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم772، ص 306، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(5) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم 476، ص 198.

(6) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم 2726، ص 1091، من حديث جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها.

دارس لسيرة النبي ﷺ-: (إن المسلم الأول -وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- له فن في الذكر والشكر والإنابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر).[1]

وخلاصة هذا المبحث:

- أن الأوامر التي تم إيرادها فيه دلت على أن النبي ﷺ أمر بلون آخر من العبادة، لا يؤدى بصف الأقدام وثني الأصلاب وإحناء الجباه -كالذي مر بنا سابقا- بل قوامه حركة اللسان وتدبر القلب وحضور الفكر وتفاعل الوجدان؛كما دلت على أن المأمور به في هذا المجال ثمانية أصناف: تلاوة وتسبيح وتحميد وشكر وذكر وتكبير ودعاء واستعاذة.

- والمتأمل فيها يدرك أن أكثرها أوامر لتعظيم الله بما عظم به نفسه، أو بما هو من صفاته. فالتسبيح -مثلا- حاصل منه تعالى لنفسه الكريمة، كما ورد في كتابه العزيز في نحو ثلاثين موضعا، منها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)﴾[الصافات]، والتحميد كذلك. قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا(1)﴾[الكهف]. وهو معنى غير متحقق في العبادات البدنية.

المبحث الرابع: أوامره تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الأخلاق

دلت نصوص كثيرة من القرآن الكريم على شدة ارتباط الأخلاق بالعقائد والعبادات في الإسلام، فقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ الـلَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8)﴾[المائدة]، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119)﴾[التوبة]، وغيرهما من الآيات التي يرد فيها الأمر بالأخلاق الفاضلة مسبوقا بنداء المأمورين بوصف الإيمان تبين (لنا الصلة القوية بين الأخلاق والعقيدة على نحو يجعل انفصال العقيدة عن الأخلاق واستقلالها أمرا مستحيلا، لأن الذي يحمل على التحلي بفضائل الأخلاق والتخلي عن رذائلها إنما هو الإيمان بمشرعها وهو الله سبحانه وتعالى).[2] وقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، وقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[التوبة:103]، وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)﴾[البقرة]،]، وغيرها من الآيات التي يرد فيها الأمر بعبادة معينة متبوعا بالدعوة إلى خلق زاك أو النهي عن أدب مذموم، مرفوقا بما يدل على أن غرس ذلك الخلق

(1) محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار الشروق، دون بقية المعلومات، ص 12.

(2) مجلة جامعة أم القرى، العدد 23، 260/10، عبد الله الغفيلي، أثر الإيمان في توجيه الأخلاق. المكتبة الشاملة الحديثة.

الجميل أو التنفير من ذلك الأدب الذميم هو الحكمة من الأمر المشار إليه أو علته. فهذه الآيات دليل على متانة الأواصر التي تربط الأخلاق بالعبادات.[1]

فهل أمر النبي ﷺ بمكارم الأخلاق وفضائل الآداب كما أمر سواه من المسلمين؟ أم اكتفي بسلامة فطرته ونفاسة معدنه؟ وما مصدر أخلاقه ﷺ؟ وهل خص بشيء منها دون غيره من المؤمنين؟ سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في أحواله عموما

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في معاملة ذوي الحقوق خصوصا

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في أحواله عموما

باعتبار نبينا محمد ﷺ إنسانا مسلما فقد توجهت إليه في مجال الأخلاق جملة من الأوامر من الله سبحانه في القرآن الكريم، مع أنه ﷺ كان أكمل الناس خلقا –حتى قبل نزول الوحي عليه– بشهادة كل من عرفه وخالطه، مسلما كان أو مشركا. قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي: (أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله ...).[2] ولعل الحكمة في ذلك هي التأكيد على أن يثبت ﷺ على تلك الخلال العالية ويستمر عليها؛ لأنها كانت من قبل من قبيل الرغبة الشخصية في إيثار الفضيلة ونشدان الكمال الإنساني، فلما صدرت الأوامر الربانية بها إليه ﷺ صارت تكاليف شرعية يتعين تحملها والتحمل بها، ويلتمس أجرها المكفول عند مشرعها. ومن تلكم الأوامر المشار إليها:

* **أمره ﷺ بالعفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين.** قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾[الأعراف].

أي: اقبل –يا محمد– المتيسر من أقوال الناس وأموالهم وأخلاقهم، وهو ما أتى عفوا دون تكلف أو تحرج، وأمر

(1) محمد الغزالي، خلق المسلم، دار الهناء الجديدة للنشر، برج الكيفان، الجزائر، د ر ط أو ت ط، ص 11.

(2) أخرجه أحمد في المسند، رقم 1740، ص 159-160؛ وأبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت 218هـ، في السيرة النبوية، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، 1/255-259؛ وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت 430هـ، في دلائل النبوة، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، ط1، 1320هـ، ص 81-84؛ عن أم سلمة رضي الله عنها، من طريق محمد بن إسحاق؛ وحسن إسناده الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص 180.

بما تعارفت عليه النفوس ولم يخالف الشرع، ولا تلتفت إلى السفهاء المستهزئين.[1]

– فهذه الآية على قلة ألفاظها تضمنت ثلاثة أوامر ربانية استوعبت الأخلاق عامة. قال القرطبي: (هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغَضّ الأبصار، والإستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيد ة).[2] هذا على الإجمال، أما على التفصيل:

• **فالعفو** في هذا الموضع معناه ما فضل؛ لأن العفو في اللغة هو الفضل. تقول: عفا الشيء، أي فضل؛ وعفو المال –لغة–: هو ما يفضل عن النفقة. [3] فيكون معنى أخذ العفو قبول ما تهيأ من أخلاقهم وأقوالهم، وصدر منهم بشكل عفوي دونما حرج، ومعاشرتهم صفوا من غير تكلف.[4]

– واختلف المفسرون في نوع العفو المقصود هنا؛ فقال بعض: هو العفو من أخلاق الناس وأعمالهم. واستشهدوا بقول أبي الأسود الدؤلي:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب[5]

وذهب آخرون إلى أنه الفضل من أموالهم؛ وذلك قبل أن تفرض الزكاة؛ فلما فرضت نسخ الاكتفاء بالعفو. بينما يرى ابن زيد[6] أنه أمر من الله لنبيه ﷺ بالإعراض عن مشركي مكة، وعدم استعمال الغلظة والشدة في معاملتهم، إلى أن نسخ هذا

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 2/490-491.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9/418.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 10/213؛ الفيومي، المصباح المنير، 2/159.

(4) انظر: ابن عطية،المحرر الوجيز، 2/490.

(5) أبو الأسود الدؤلي، ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه: أبو سعيد الحسن السكري ت 290هـ، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط2، 1418هـ-1998م، ص381.

(6) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري العدوي المدني. مفسر محدث من أتباع التابعين، يكثر الطبري وغيره من العلماء المتقدمين النقل عنه، وأبوه مفسر مشهور أيضا. روى عن أبيه وعن محمد بن المنكدر، وروى عنه عبد الرزاق بن همام الصنعاني المفسر وعبد الله بن وهب وغيرهما، جمع كتابا في التفسير وآخر في الناسخ والمنسوخ. توفي سنة 182هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1266، 7/581؛ الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 15، ص 11].

الحكم بنزول الإذن في قتالهم. وهو رأي لا يبعد عن الأول إلا من حيث تخصيص مشركي مكة بالحكم. والراجح في تقديري هو ما رجحه الطبري، وهو أخذ العفو من أخلاق الناس، وترك الشدة عليهم.[1]

• **والعرف** يطلق في اللغة على معاني عديدة، ولكن المقصود هنا هو المعروف، وهو ضد النكر.[2] قال النابغة:

أبى الله إلا عدله ووفاءه   فلا النكر معروف ولا العرف ضائع[3]

والمعروف شامل لمعاني الخير والرفق والإحسان؛ وإنما سمي كذلك لأن النفوس تعرفه وتطمئن إليه.[4]

وأما المفسرون فلهم رأيان في المراد به. أحدهما: أنه الأمور المنصوص عليها فيما رواه أمي الصيرفي [5] عن الشعبي أنه قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾ قال النبي ﷺ: (ما هذا يا جبريل؟) قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك .[6] والآخر: أنه المعروف بمعناه الذي بينه اللغويون.[7] وهو الراجح بلا شك -في تقديري- لموافقته للمعنى اللغوي من جهة، ولشموله من جهة ثانية. وأما الحديث الذي هو عمدة أصحاب الرأي الأول فهو مرسل كما هو ظاهر، ومعلوم أن المرسل من أقسام الضعيف. ولهذا قال الطبري -بعد أن نقل الرأيين المذكورين-: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف، وهو المعروف في كلام العرب ... فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن المعروف صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 10/639-640، 642؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/379.

(2) انظر: الزبيدي، تاج العروس، 24/139-141؛ الرازي، مختار الصحاح، ص179؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/281.

(3) النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ-2005م، ص78.

(4) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/281؛ الفيومي، المصباح المنير، ص154.

(5) هو أبو عبد الرحمن أمي بن ربيعة المرادي الصيرفي الكوفي. مفسر محدث ثقة. روى عن طارق بن شهاب وطاوس بن كيسان وعامر الشعبي وغيرهم، وروى عنه الحكم بن مروان الكوفي وخالد بن يزيد القسري وسفيان بن عيينة وغيرهم. [انظر على سبيل المثال: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ت 327هـ، كتاب الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1371هـ-1952م، رقم 1318، 1/1/347 ؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 552، 3/328].

(6) أخرجه الطبري في جامع البيان، 10/643-644؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 8682، 5/1638 عن الشعبي؛ وعبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211هـ، في تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1410هـ-1989م، 1/246؛ وأبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا ت 281هـ، في مكارم الأخلاق، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1409هـ-1989م، رقم 25، ص 31-32؛ عن أمي الصيرفي؛ وهو ضعيف بسبب إرساله. قال شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني ت 923هـ، في إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ط7، 1323هـ، 7/132، قال: (وهو مرسل له شواهد من وجوه).

(7) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/380.

ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى ؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله لا ببعض معانيه دون بعض).[1]

• **والإعراض عن الجاهلين**: الصد عنهم والترفع عن مقابلة جهالتهم بمثلها؛لأن الإعراض عن الشيء -لغة- هو الصد عنه، مأخوذ من قولك: أعرضت عن فلان إذا وليته عرضك، أي جانبك أو ظهرك. [2] ولم يختلف أهل التفسير في أن المراد من إعراضه ﷺ عن الجاهلين معناه عدم مقابلة ما يصدر عنهم تجاهه من سفه بمثله تساميا منه ﷺ وتنزها. قال القرطبي: (أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة له عليهم ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم).[3]

– ذهب بعض المفسرين كعطاء وابن زيد إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف إلا قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾. وخالفهم آخرون كمجاهد وقتادة وغيرهما فقالوا: هي محكمة؛ والصحيح -والله أعلم- أنها محكمة كلها .[4] يدل على ذلك استدلال الحر بن قيس بها وعمل عمر رضي الله عنه بمقتضاها بعد وفاة رسول الله ﷺ. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا ؛ فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه . قال: سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾، وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله.[5]

– ومن بلاغة هذه الآية أنها على قصرها حوت أمرين ربانيين يعالجان مسألتين تقتضيان أسلوبين متعاكسين في التعامل مع الناس؛ فأخذ العفو يقتضي (ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل فيه أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة ،كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، ومن هذا

---

(1) الطبري، جامع البيان، 10/644-645.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 10/104-105، 107؛ ابن فارس، مقاييس اللغة، 4/271-272.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9/421.

(4) ا انظر: لرازي، مفاتيح الغيب، 15/101؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 9/422؛ عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي ت 661هـ، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1، 1429هـ- 2008م، 2/343.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(199)﴾ [الأعراف]، رقم 4642، ص 842.

الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125])،[1] والأمر بالعرف، أي المعروف -الذي هو قرين النهي عن المنكر- و(الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، ...والمعروف هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه)،[2] فهو يقتضي حزما وصرامة. فهما أسلوبان متكاملان يحبب الأول المسلم إلى إخوانه ويعطي صورة عن سماحة الإسلام ورحمته، ويجسد الثاني الإصلاح في واقع الناس وينشر الخير والحق بينهم.

- ومن بلاغة الآية أيضا أنها اشتملت على أمرين متعاطفين، يعالج أحدهما مشكلة معينة ويعالج الثاني الآثار المترتبة على العلاج. فالأمر بالعرف يعالج غياب المعروف أو قلته وإعراض الناس عنه، ويجسد المبادرات الإيجابية النافعة للمجتمع، والتي تشيع روح التعاون المثمر والتناصح المفيد. والأمر بالإعراض عن الجاهلين يعالج ما قد يصدر من مرضى النفوس -والذين لا تخلو منهم أمة- من سفاهة وجهالة تجاه الآمرين بالمعروف؛ تلك الجهالة التي تأخذ أحيانا شكل المعارضة ذات وجهة النظر المخالفة، وهي في الواقع مغرضة هادفة إلى عرقلة كل جهد يقوم به المصلحون من أبناء الأمة، وتأخذ تارة أسلوب النقد، وهو في الحقيقة نقد هدام غايته تشويه الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وتحطيمهم نفسيا، وإسقاطهم في المجتمع؛ لأنهم إذا سقطوا سقط المشروع الذي يحملونه. فصدر الأمر بالإعراض عنهم وتجاهلهم تجنبا لشرور الاصطدام بهم، وتفاديا لتضييع الوقت والجهد في مجاراتهم، لأن ذلك هو مرادهم.

-وينبغي التفريق بين الجاهلين الذين يعرفون الحق ويردونه سفاهة وتعنتا ولا يتجاوزون ذلك إلى حرب المسلمين، فهؤلاء ينبغي الإعراض عنهم وتحمل أذاهم، وبين من جهل الواجب من حق الله سبحانه، أو كفر بالله ولم يعرف وحدانيته ونصب نفسه لحرب المسلمين؛ فهؤلاء ينبغي تعليم جاهلهم والإغلاظ على محاربهم.[3]

- ومن لطائف هذه الآية ما نقله الزمخشري عن جعفر الصادق، [4] أنه قال: (أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها).[5]

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 100/15.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 645/10.

(4) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي الصحابي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ. تابعي جليل وعالم فقيه وعابد زاهد. ولد سنة 80هـ في المدينة النبوية. حدث عن أبيه وجده لأمه القاسم بن محمد وعروة بن الزبير وغيرهم، وحدث عنه ابنه موسى الكاظم ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهما. مات سنة 148هـ بالمدينة المنورة. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 948، 438/6؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 131، 327/1].

(5) الزمخشري، الكشاف، 545/2.

- وقد نفذ النبي ﷺ هذه الأوامر على أحسن وجه وأكمله، تماما كما أمره ربه. روى الترمذي عن أبي عبد الله الجدلي[1] قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.[2]

*** وأمره ﷺ بالصبر.**

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(109)﴾[يونس].

أي: اقتف –يا محمد– الخط الذي رسمه لك الوحي المنزل إليك من عندي، اعتقادا وعملا وخلقا، فإن أصابك جراء ذلك الاقتفاء أذى أو مكروه فلصبر عليه ولا تجزع إلى أن يصدر الله فيه حكمه، وهو سبحانه خير من حكم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق.[3]

- فأمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية بخلق عظيم (من أبرز الأخلاق القرآنية التي عني بها الكتاب العزيز في سوره المكية والمدنية، وهو أكثر خلق تكرر ذكره في القرآن)،[4] ألا وهو الصبر، ذلك الخلق الذي بلغت مكانته من الأهمية بين الأخلاق جميعا أن وصفه المعصوم ﷺ بقوله: (الصبر ضياء).[5]

- والصبر في اللغة معناه الحبس. تقول: فلان صابر: أي حابس نفسه عن الجزع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[الكهف: 28]، أي احبسها.[6] ولا يكاد يختلف معناه عند المفسرين إلا بمقدار ما يتطلبه ميدانهم من الضبط والتفصيل. عرفه ابن عاشور بقوله: (الصبر ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها. ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق).[7] بينما يعرفه تلميذه ابن باديس بقوله: (الصبر حبس النفس على المكروه)، [1] ثم تولى بيان

---

(1) هو أبو عبد الله عبد –وقيل: عبد الرحمن– بن عبد الجدلي الكوفي. تابعي جليل محدث ثقة. روى عن خزيمة بن ثابت وسلمان الفارسي وعائشة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وروى عنه إبراهيم النخعي وعامر الشعبي وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم من أئمة الإسلام. توفي سنة [انظر مثلا: الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 270، 1205/2؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 7471، 24/34].

(2) رواه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، رقم 2016، ص 456؛ وأحمد في مسنده، رقم 26517، ص 1922؛ وصححه الألباني في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح، رقم 5820، ص 1619.

(3) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 183/17؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 713/2 .

(4) يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1410هـ-1989م، ص7.

(5) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم 223، ص 119، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(6) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 149.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 299/29.

أنواع المكروه المشار إليه في التعريف. قال -رحمه الله-: (والمكروه لها فعل ما فيه تعب، وترك ما فيه لذة. ويكون في المشروع والمقدور، ففي الأول بالقيام بالمأمورات، والترك للمنهيات. وفي الثاني بالرضا والتسليم في المصائب والبلايا للخالق، وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه).[2]

- وللصبر فضائل يطول سردها، ولكن يكفي أن الله العظيم رضيه وصفا لذاته المقدسة. روى الشيخان -واللفظ للبخاري- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ليس أحد، أو: ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم).[3] كما أنه أكثر الأخلاق ذكرا في كتاب الله، [4] وذلك بلا شك لحكمة بالغة. قال ابن جزي المالكي في تفسيره: (ورد ذكر الصبر من القرآن في أكثر من سبعين موضعا، وذلك لعظمة موقعه في الدين).[5] بل إن مادة (ص ب ر) بمختلف اشتقاقاتها جاءت في الكتاب العزيز أكثر من مائة مرة كما في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.[6]

- ولما كان الصبر ضروريا لإنجاز كل عمل نافع ديني أو دنيوي، وكان الإنسان بطبيعته لا يؤدي عملا أو يصبر على مشقة إلا بمحفز عاجل أو آجل فإن الله رصد للمؤمنين الصابرين ابتغاء وجهه أعظم المحفزات؛ وذلك بأن جعل أجورهم لا تعد عدا وإنما يعطون بلا حساب. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾[الزمر]، على غير القاعدة القرآنية المعروفة التي تعلن أن أجزية الأعمال عموما تكون على أساس أن الحسنة بعشر أمثالها، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(160)﴾ [الأنعام].

---

(1) عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي ت 1359هـ، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ-2002م، ص 166.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم 6099، ص 1120، ومسلم في صحيحه، كتاب ، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم 2804، ص 1127-1128، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(4) انظر: يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ص7.

(5) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 89/1.

(6) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص399-401.

- (ولم يأمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل في خلق معين إلا في الصبر، تنبيها على عظم منزلته، وشدة الحاجة إليه، ومشقته على النفس). [1] ورد ذلك في آخر آية من سورة الأحقاف. قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: 35]. وفيه إيماء إلى أن صبره يؤهله لكي (يرفع درجته في مقام الرسالة ليكون من أولي العزم)[2] المشار إليهم.

- ولضرورة الصبر في إقامة الدين وأهميته للاستمرار في القيام بأعباء الحياة تكرر أمره ﷺ به في عشرين موضعا من الكتاب العزيز؛[3] اثنان منها بصيغة (اصطبر)، وقد مضى الحديث عنهما في المبحث الثاني من هذا الفصل. فأما الذي في قوله سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65)﴾[مريم] فتحدثنا عنه في المطلب الأول المتعلق بالعبادة عموما، وأما الوارد في قوله جل وعلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132)﴾[طه] فتكلمنا عنه في المطلب الثاني المتصل بالعبادات البدنية خصوصا. وأما المواضع الثمانية عشر الباقية فورد فيها بصيغة (اصبر)؛ افتتحنا حديثنا الحالي عن أمره ﷺ بخلق الصبر بالوارد منها في سورة يونس، وأشرنا إلى الذي في سورة الأحقاف في معرض كلامنا عن الخلق الوحيد الذي أمر ﷺ أن يقتدي فيه بمن سبق من الرسل، وبقيت ستة عشر موضعا، منها:

- في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(115)﴾[هود].

فأمره سبحانه في هذه الآية بالصبر بعد أن أمره في التي قبلها بإقام الصلاة، وقبلهما بالاستقامة عامة؛ فهو أمر له ﷺ بالدوام على لزوم الدين لزوما دقيقا، وإيلاء الصلاة والصبر عناية خاصة؛ لأن الصلاة أهم العبادات البدنية، والصبر أهم الأخلاق القرآنية. فكأنما هو تنبيه للنبي ﷺ إلى أنه لا يمكنه -باعتباره إنسانا- الاستقامة على الدين كما أمر والقيام بعباداته كما وجب إلا بالتحلي بالصبر. قال الزمخشري: (ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله، كأنه قال وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به).[4]

- في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127)﴾[النحل]

---

(1) يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ص24.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 104/29.

(3) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص400.

(4) الزمخشري، الكشاف، 245/3.

ففي هذه الآية أمر سبحانه نبيه ﷺ بالصبر وهو أمر بالعزيمة، كما قال ابن عطية وغيره. [1] والظاهر أنه حكم خاص به ﷺ؛ وإلا فإن الصبر منه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب، ومنه المكروه والحرام؛ [2] ولذلك قال من نقل عنهم الطبري كابن زيد: (بل عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ نبي الله خاصة دون سائر أصحابه، فكان الأمر بالصبر له عزيمة من الله دونهم).[3] فعلى هذا يكون الصبر المستحب في حق عموم المسلمين واجبا في حقه ﷺ. ومن ذلك معاقبة المسيء المستحق للعقوبة. جاء في أضواء البيان: (ثم خص النبي ﷺ بقوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أي لا تعاقب انتقاما –ولو بالمثلية– ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاء جبريل عليه السلام، ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره).[4]
ثم أشار إلى ما رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ : (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟، قال ﷺ: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا).[5] لقد كان في مقدوره ﷺ أن يسحق من ظلموه وآذوه وأهانوه وسخروا منه وهو يدعوهم لما ينفعهم نفعا لا حدود له، وأن يطحن الجبال على رؤوسهم العنيدة انتصافا لا ظلما، ولكنه لم يفعل رحمة بهم وإشفاقا عليهم، وصبرا على أذاهم الذي لا يعادله إلا صبره وترفعه ﷺ عن مقابلة الإساءة بأختها. تالله لقد نفذ ﷺ ما أمر به على أتم وجه.
– ثم ذكره أن ذلك –كغيره من المأمورات– لا يتم إلا بعونه وتثبيته سبحانه. [6] قال الرازي: (ولما كان الصبر في هذا المقام شاقاً شديداً ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، أي بتوفيقه ومعونته ؛ وهذا هو السبب الكلي الأصلي

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 490/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 433/3.
(2) انظر: يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ص31.
(3) الطبري، جامع البيان، 405/14.
(4) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، 434/8.
(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم 3231، ص 594، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 490/3؛ البغوي، معالم التنزيل، 54/5.

المفيد في حصول الصبر، وفي حصول جميع أنواع الطاعات).[1] فيكون قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ دالا على أن صبر الصابر مجموع من تصبره وتوفيق الله له؛ وأن تصبره وحده لن يغني عنه شيئا لأنه سرعان ما ينهار إذا حرم توفيق الله سبحانه، وهو ظاهر الدلالة على ضعف التوكل أو انعدامه في قلبه، كما أن تعويله على توفيق الله وحده مع جزعه وعدم تصبره تواكل وجهل بضرورة تقديم الأسباب.

• في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(48)﴾[القلم].

وفي هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بتلقي ما يقدر عليه من مشاق الدنيا ومتاعبها بالصبر والتجلد؛ لأنه بشر كالبشر يحس ويتألم ويحزن ويتأذى، وهو عرضة للهموم والأحزان والهزائم والأمراض كسائر الناس. وللمفسرين رأيان في معنى حكم الله الذي أمر النبي ﷺ بالصبر له،[2] فقال الطبري والزمخشري وابن كثير وغيرهم هو ما قضاه الله عليه وقدره ومنه تأخير نصره له ﷺ وإمهاله لأعدائه المشركين. وقال ابن عطية وابن عاشور هو ما أوجب عليه من مهام النبوة وأعباء تبليغ الرسالة. ولا يخفى أن حكم الله الذي أمر النبي ﷺ بالصبر له –حسب الرأي الأول– حكم كوني قدري، أما على الرأي الثاني فهو حكم شرعي؛ ولا يبعد –في تقديري– أن يكونا مرادين لله معا؛ لأن اللفظ يحتملهما معا، ولأن الصبر نافع للثبات إذا نزل هذا، معين للتنفيذ إذا ورد ذاك. ولعل هذا ما جعل السعدي يفسر الآية بمجموع الرأيين معا، دون استضعاف أو استبعاد لأحدهما. قال –رحمه الله–: (﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره).[3]

– وفي قرنه سبحانه لنبيه ﷺ بين أمره بالصبر ونهيه عن مشابهة صاحب الحوت –في خروجه من قومه مغاضبا مكظوما– تنبيه له ﷺ بالحذر مما ينافي الصبر كالجزع والضجر والاستعجال والتشكي. قال ابن عاشور: (فذكره بمثل يونس عليه السلام إذ استعجل عن أمر ربه، فأدبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين تذكيرا مرادا به التحذير).[4]

– ويتضمن أمره جل وعلا للنبي ﷺ بالصبر تعزية له وتسلية على ما يصيبه من البلاء في هذه الحياة، سواء كان ذلك بفعل السفهاء والساخرين والمعادين له، أو بسبب ما ينزل به من الفاقة والمرض والفقد وسواها من المنغصات، كما أشار إلى ذلك قتادة.[5]

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 143/20-144.

(2) المصدر السابق، 98/30؛ الماوردي، النكت والعيون، 73/6.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 843.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 104/29.

(5) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 182/21.

• في قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7)﴾[المدثر].

وفي هذا الموضع أمر للنبي ﷺ من ربه سبحانه وتعالى بالصبر مقرونا بتحديد الجهة الجديدة بإفرادها به. قال الرسعني الحنبلي:[1] (أي: لأجل ربك، أو لثواب ربك، فاصبر على أذى المشركين، والقيام بأعباء الرسالة، وكل ما شرع لك الصبر عليه).[2] فاللام على هذا لام التعليل؛ فبين أن الصبر بكل أقسامه وفي جميع حالاته لا ينبغي أن يراد به إلا وجه الله وحده. تماما كما أخبر جل وعلا عن أولي الألباب الذين جعلت لهم عقبى الدار في قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(22)﴾[الرعد]. فالآية محل الحديث عينت (الباعث على الصبر، والدافع إليه. فالصبر المحمود في القرآن هو ما كان لله تعالى، لا لكسب محمدة أو بطولة عند الناس ... أي اجعل صبرك لربك لا لأحد غيره. فالصبر هنا عبادة وقربة إلى الله).[3] ولهذا -والله أعلم- سلكت آية الرعد التي مرت بنا آنفا الصبر في سلك واحد مع إقام الصلاة وإخراج الصدقات ومقابلة الإساءة بالإحسان، إذ القاسم المشترك بين هذه المذكورات جميعا هو أنها عبادات لا يبتغى بها إلا وجه الله.

- ومجيء التعبير عن لفظ الجلالة بوصف الرب، (أي المحسن إليك، المربي لك، المدبر لجميع مصالحك وحده)،[4] المضاف إلى النبي ﷺ إشارة إلى أن هذا الصبر بر بالمولى جل وعلا وطاعة له.[5]

• في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(23)فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24)﴾ [الإنسان].

وفي هذا الموضع أمر الله نبيه ﷺ بالصبر مقرونا بذكر الدستور الذي يحوي جميع الأعمال التي كلف بأدائها، والتي تحتاج في تحمل أعبائها إلى الصبر، سواء كانت فيما بينه وبين ربه تعالى كالصلوات والصيام ، أو فيما بينه وبين الناس كالدعوة والبيان. قال الطبري: (يقول: اصبر لما امتحنك به ربك من فرائضه، وتبليغ رسالاته، والقيام بما ألزمك القيام به في تنزيله الذي أوحاه

---

(1) هو أبو محمد عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف الرسعني الحنبلي. مفسر محدث فقيه أديب شاعر متكلم. ولد سنة 589هـ برأس عين الخابور من أعمال الجزيرة في سورية. طلب العلم صغيرا ورحل لأجله إلى دمشق وبغداد وغيرهما حتى حصل ما بلغه مراتب العلماء. من شيوخه موفق الدين وابن منينا والكندي، ومن مصنفاته رموز الكنوز ومصرع الحسين. توفي 661هـ بسنجار. [انظر مثلا: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 7179، 140/2؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 529/7].

(2) الرسعني، رموز الكنوز، 353/8.

(3) يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ص32.

(4) البقاعي، نظم الدرر، 45/21.

(5) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 300/29.

إليك).[1] وقال آخرون كالبيضاوي وغيره: اصبر على تأخير نصرك على كفار قريش وغيرهم.[2] ولعلهم تابعوا في ذلك ابن عباس رضي الله عنه، فقد روي عنه أنه قال في تفسير الصبر هنا: (اصبر على أذى المشركين هكذا قضيت).[3] وفي تقديري أن القول الأول أصح؛ لأن قول ابن عباس -إن صح عنه- فهو داخل في عموم القول الأول ولا دليل على تخصيصه، كما أن ما سبق الأمر بالصبر من تأكيد الإخبار من الله بتنزيل القرآن عليه ﷺ يرجح القول بالصبر على ما تضمنه من تكاليف، إذ هو تفريع له عليه بالفاء الفصيحة، (أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره).[4]

- وفي الأمر بالصبر في هذا الموضع دلالة على عظمة التكاليف التي حملها ﷺ والمشقة المتوقعة في أدائها؛ لأن فعل الصبر إذا تعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام تضمن معنى الخضوع للشيء الشاق.[5]

• وبقي أحد عشر موضعا ورد فيها الأمر بالصبر ولكنه متعلق بتعامله ﷺ مع غيره باعتباره رسولا، ولذلك سنرجئ إيرادها والحديث عنها إلى موضعها المناسب.

- والمتأمل في سيرته ﷺ يعجب أشد العجب من كمال تنفيذه لكل هذه الأوامر وعلى أحسن الوجوه وأتمها. فقد صبر كما لم يصبر أحد من قبله مع كثرة ما قاساه من المصائب والمتاعب والأحزان والأذى. صبر على اليتم والفقر وموت الأبناء جميعا في حياته -إلا فاطمة رضي الله عنها فقد ماتت بعده بستة أشهر- ومتاعب الدعوة وطول السهر للذكر والصلاة وكثرة الصيام وأذى المشركين وكيد اليهود ومكر المنافقين ومغارم الجهاد وسواها كثير. قال السعدي: (﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت، ... وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان).[6]

- وفي كل هذه التوجيهات الحكيمة والإرشادات النافعة الموجهة من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ نبراس يضيء الدرب لكل مسلم خصوصا في هذا الزمان الذي تنوعت فيه الفتن وكثر إيراد الشبهات من أعداء الخارج، ونشط فيه المخذلون والمثبطون من أعداء الداخل، وقل الناصر والمشجع، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر؛ فلا غرو أن يكون الصبر أنجع علاج وأقوى

---

(1) الطبري، جامع البيان، 572/23.

(2) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 272/5؛ الألوسي، روح المعاني، 165/29.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 487/21.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 238/8.

(5) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 299/29.

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص352.

ملاذ حتى تنكشف الغمة أو يلقى المسلم ربه ثابتا لم يبدل ولم يغير. قال الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(109)﴾ [يونس]: (وحين تتبع ما يوحى إليك ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح، فوطن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك، وأن تصبر. ومجيء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة، وعليك أن تصبر وتعطي النموذج لغيرك، والثقة في أنه لو لم يكن هناك خير في اتباع المنهج لما صبرت عليه).[1]

* **وأمره ﷺ بالنظر الذي يثمر الاتعاظ والاعتبار** . قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(50)﴾[الروم].

– أي: انظر –يا محمد– نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن أثر إنعام الله بالمطر من حياة للأرض بعد موتها، متمثلة في اخضرار أنواع الشجر وتفتح أكمام الزهر وتشكل ألوان الثمر .. فالذي قدر –سبحانه– على تحويل الجدب إلى الخصب، وأخرج الزرع الحي من التراب الهامد الجامد لهو قادر على إحياء الأموات بعد فنائهم وإيجادهم بعد انعدامهم، فهو لا يمتنع عليه شيء أراده لأنه لا حدود لقدرته البالغة.[2]

– ففي الآية أمر للنبي ﷺ بالتأمل في قدرة الله على إخراج النبات الأخضر المفعم بالحياة من التراب الجامد للاستدلال به على قدرته تعالى على إحياء الأموات بعد تلاشيهم. قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: (والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال ... وعبر عن الجفاف بالموت لأن قوام الحياة الرطوبة، وعبر عن ضده بالإحياء).[3]

– والنظر في اللغة هو تأمل الشيء المادي بالعين،[4] وهذا نظر الحاسة. ويطلق أيضا ويراد به نظر البصيرة في المعاني لإدراك حقائقها أو لاستخلاص الدروس منها؛ وهذا هو المقصود في موضوعنا الذي نحن بصدد الحديث عنه الآن. فالنظر هنا معناه: (تقليب البصيرة لإدراك حقائق الأشياء ومعرفتها بعد التأمل فيها وفحصها، وطلب ذلك من خلال البراهين الحسية المشاهدة).[5]

– والنظر **إلى** الشيء معناه رؤيته وتدبره، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20)﴾[الغاشية]، أما النظر **في** الشيء فمعناه تأمله .

---

(1) محمد متولي الشعراوي، خواطر محمد متولي الشعراوي، الشهير بتفسير الشعراوي، د بقية المعلومات، 6263/10.

(2) انظر: للصابوني، صفوة التفاسير، 482/2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 123/21.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 291/14 .

(5) مجموعة من المتخصصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح، موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط6، 1431هـ–2010م، 3518/8.

ومنه قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ...﴾[الأعراف: 185]، إذ المراد منه الحض على تأمل حكمته سبحانه في خلقها.(1)

وقد ورد الأمر بالنظر إلى النبي ﷺ في تسعة عشر موضعا من القرآن الكريم، أكثرها كان الغرض منه التدبر للاعتبار والاتعاظ وهو موضوعنا، وأقلها كان الغرض منه التعجيب . ومن مواضع الغرض الأول –غير الذي في سورة الروم والذي كان منطلقا لحديثنا–:

• قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ(22)ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23)انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24)﴾[الأنعام]. فأمر الله نبيه ﷺ أن يعتبر من هذا الموقف المخزي الذي سيصدر عن المشركين يوم القيامة بعد أن أخبره به. قال القرطبي: (والنظر في قوله: (انظر) يراد به نظر الاعتبار).(2) ونحن المسلمين –والبشر عموما–أحق بالحرص على الاتعاظ والاعتبار من ذلك الموقف الرهيب، لنزداد حذرا من الشرك وتمسكا بالتوحيد لله سبحانه والإيمان بجميع ما أنزل ؛ لأنه لا أحد منا يعلم كيف تكون خاتمته، وخاصة في هذا الزمن الذي تتلاحق فيه الفتن كقطع الليل المظلم، ورأينا كثيرا ممن باعوا دينهم ومبادئهم ومواقفهم مع أول إغراء تعرضوا له.

• وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ(80)إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(81)وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(82)فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(83)وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(84)﴾[الأعراف]. فتضمنت الآية الأخيرة أمرا للنبي ﷺ أن يتأمل في عاقبة المجرمين من قوم لوط؛ لأن في ذلك تسلية له عما يلاقيه من مجرمي قومه، وإرشاد إلى أن نصر الله له قادم، وأن من شأن الرسل انتظار العواقب وعدم استعجالها واليقين بأنها لهم.(3) قال الطبري في تفسيرها: (فانظر –يا محمد– إلى عاقبة هؤلاء الذين كذّبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجترموا معاصي الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرّم الله ... كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة، عاقبة من كذّبك واستكبر).(4)وفيها أيضا تنبيه لكل مسلم –بل لكل إنسان– أن يتعظ مما جرى لقوم لوط فيحذر المعاصي عامة والكبائر منها خاصة، والسعيد من وعظ بغيره.

(1) انظر: المصدر السابق، 3515/8.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 342/8.

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 238/8.

(4) الطبري، جامع البيان، 309/10-310.

• وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)﴾[الأعراف] . وفي هذا الموضع أمر له ﷺ بأن ينظر بعين عقله فيما جرى لفرعون وقومه من العقوبة الحاسمة جزاء تكذيبهم لرسول الله موس عليه السلام وكفرهم برسالته وجحودهم للآيات الباهرة التي جاءهم بها. قال ابن عاشور: (وهذا النظر نظر العقل، وهو الفكر المؤدي إلى العلم، فهو من أفعال القلوب. والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو ومن يبلغه).[1] وقد سمى الله فعلهم ذلك ظلما لأنهم قابلوا الأدلة الداعية لهم إلى الإيمان بالكفر فجعلوه في غير موضعه، وظلموا أنفسهم بارتكاب ما يوردها جهنم، وموسى بتكذيبه، ومن أراد الإيمان بصده عنه. [2] ومن ثم كرر سبحانه الأمر إليه ﷺ –في موضع آخر من كتابه– بالنظر في عاقبتهم مسميا إياهم بالظالمين. قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ(39)فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(40)﴾[القصص] . وفي قوله سبحانه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بدل (الظالمين) إشارة إلى أن الظلم يستلزم الفساد. [3] ولحكمة يعلمها سبحانه تكرر أمره ﷺ –في سورة أخرى– بالنظر في عاقبة المفسدين، وفي السياق نفسه؛ أي موقف فرعون وقومه من موسى ورسالته. قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(12)فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَ ةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(13)وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14)﴾[النمل]. ولعل السر في ذلك أن الفساد مضاعف الشرور بسبب ما يترتب عليه من النتائج غير المتوقعة وغير المتصورة حتى عند للمفسد نفسه، سواء بالنسبة إليه أو بالنسبة إلى غيره. هذا في الفساد عموما، وأما في الكفر فالشرور فيه أعظم وآثارها الدنيوية والأخروية أوخم. ففي هذا الموضع تسليط لأضواء البصيرة النبوية على شرين عظيمين هما الظلم والفساد، وتركيز للاهتمام على عواقب الظالمين والمفسدين بشكل متساو، ولعل في ذلك إشارة إلى أنه لا يعادل إجرام الظالمين إلا إجرام المفسدين.

• وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)﴾[يونس]. وفي هذا الموضع أمره ﷺ بالنظر في عاقبة الظالمين من الأمم السابقة ليستنتج منها عاقبة أمثالهم من قومه الذين كذبوا بما نزل عليه من القرآن الكريم وزعموا أنه افتراه من عنده. قال الخازن: [4] (أي: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الأمم كذلك

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 36/9.

(2) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 490.

(3) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 384/2.

(4) هو أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي البغدادي الشهير بالخازن. مفسر محدث فقيه صوفي شافعي. ولد سنة 668هـ في بغداد وطلب العلم ورحل إلى دمشق فأقام بها مدة وصار خازن الكتب بالمدرسة السميساطية فيها. من شيوخه القاسم بن

تكون عاقبة من كذبك من قومك).[1] وإضافة إلى توجيهه ﷺ للاعتبار من عواقب الظالمين فإن في هذا الأمر تسلية له عما حصل له من اتهام قومه له بالافتراء على الله، وتنبيه لكل مسلم -بل كل إنسان- أن يأخذ الدرس مما جرت به سنة الله في الظالمين من النكال الشديد والنهايات المحزنة، فيحذر الظلم بجميع معانيه. قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(227)﴾[الشعراء].

• وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ(71)فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(72)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(73)﴾[يونس]. وهنا أيضا درس عظيم أمر النبي ﷺ أن يتأمله ويستنتج منه ما ينتظر كفار قومه من العقاب الأليم إن تمادوا في تكذيبه وإيذائه. وفي هذا الموضع لفت سبحانه نظر نبيه ﷺ للاعتبار من عاقبة أمة محددة -وهي قوم نوح- لم تعمل بمقتضى الإنذار الموجه لها من قبل رسولها. قال البقاعي: (ولما كان هذا أمرا باهرا يتعظ به من له بصيرة، سبب عنه أمر أعلى الخلق فهما بنظره إشارة إلى أنه لا يعتبر به حق الاعتبار غيره ، فقال: ﴿فَانْظُرْ﴾ وأشار إلى أنه أهل لأن يبحث عن شأنه بأداة الاستفهام، وزاد الأمر عظمة بذكر الكون فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ ﴾ أي كوناً كان كأنه جبلة).[2] وفيه أيضا -كما في الأوامر السابقة- تسلية له ﷺ عما لاقاه من المشركين من أنواع الأذى.

• وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20)انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا(21)﴾[الإسراء]. وفي هذا الموضع أمر الله نبيه ﷺ بالتدبر في تفاوت الناس في أحوالهم في هذه الحياة، فهو مجال واسع للاعتبار؛ فهم يختلفون غنى وفقرا، وصحة ومرضا، وقوة وضعفا، وطولا وقصرا، وجمالا وقبحا، وعلما وجهلا، وصغرا وكبرا ... وفي ذلك دلالة كبيرة على عظيم قدرته وبلاغة حكمته ونفاذ مشيئته. ثم لفت نظره إلى تفاوت أعظم وأوسع من هذا وهو ما سيكون في الآخرة بين من سيتقلبون في ألوان النعيم ومن سيصلون نيران الجحيم. قال أبو السعود: (أي: انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة، فمن وضيع ورفيع وضالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك

مظفر ووزيرة بنت عمر، ومن مصنفاته عدة الأفهام في شرح عمدة الأحكام ومقبول المنقول. توفي سنة 741هـ في حلب. [انظر على سبيل المثال: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 97/3؛ الزركلي، الأعلام، 5/5؛

(1) الخازن، لباب التأويل، 444/2.

(2) البقاعي، نظم الدرر، 166/9.

مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى).[1] وفي السنة أحاديث كثيرة تصور ما بين الناس في الآخرة من تفاوت تحار فيه العقول؛ من ذلك قوله ﷺ: (إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفس محمد بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين).[2] فإذا كان هذا كله فيما بين أهل الجنة، فكيف بما بينهم وبين أهل النار؟

• وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(48)قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(49)وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(51)﴾[النمل]. وفي هذا الموضع أمر منه تعالى إلى نبيه ﷺ بالنظر في درس آخر من أعظم الدروس وأكثرها تكررا عبر التاريخ وهو ما يفعله جل شأنه بمن يمكرون بدينه ورسله وأوليائه والدعاة إليه، من استدراجهم والإملاء لهم وجعلهم الأسفلين والأخسرين، وتوهين كيدهم وجعله في تباب وضلال، وذلك كله من متانة كيده سبحانه بالكائدين بدينه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(182)وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(183)﴾[الأعراف]. لقد قص سبحانه على نبيه ﷺ ما أنزله من النكال بقوم صالح عليه السلام بعد كفرهم بالله وتكذيبهم لنبيهم ثم تآمرهم عليه لقتله وأهله، متخفين تحت ظلمة الليل كالخفافيش، بطريقة خسيسة تنم عن مكرهم وانحطاطهم؛ ثم أمره بتدبر عقوبته المدمرة لهم بصيحة جبريل عليهم أو رجم الملائكة لهم، ليستنتج ﷺ ما ينتظر الماكرين به المؤذين له من مشركي قومه، وليعلم أنه منصور ولا بد، وليكون ذلك له سلوى عما يلاقيه من تكذيبهم واستخفافهم.

• وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(71)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ(72)فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(73)إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(74)﴾[الصافات]. وفي هذه الآية أمر إليه ﷺ أن يتدبر ما آل إليه أمر الأمم الماضية عموما من الهلاك والدمار بعد أن استخفت بإنذار الرسل الذين بعثهم الله إليها لينذروها سوء العاقبة إن هي لم تؤمن بالله ورسله وما أنزل عليهم من وحي، وأن يقيس موقف قومه من إنذاره هو لهم ليعبر ببصيرته إلى النتيجة المنطقية التي تنتظرهم بدورهم وهي النكال إن لم يستجيبوا؛ لأن الله سبحانه لا يحابي فردا ولا جنسا لمجرد اسمه أو نسبه أو لونه. وفي ذلك تعزية وتسلية له ﷺ عما يلحقه من إيذائهم الحسي والمعنوي، وإشعار له بحتمية انتصاره عليهم. وأعلمه جل وعلا أن من استجابوا للمنذرين وعملوا بمقتضى إنذارهم –وهم عباد الله المؤمنون الذين استخلصهم للإيمان به ولعبادته بتوفيقهم– فإنهم نجوا من تلك العاقبة المدمرة التي حلت

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 438/3.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم 3256، ص 597؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، رقم 2831، ص 1138، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بأقوامهم. قال الطبري في معنى الآية: (فتأمل وتبين كيف كان غب أمر الذين أنذر تمم أنبياؤنا ؟ وإلام صار أمرهم؟ وما الذي أعقبهم كفرهم بالله؟ ألم نهلكهم فنصيرهم للعباد عبرة ولمن بعدهم عظة؟).[1]

• وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23)قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25)﴾[الزخرف]. وفي هذه الآية أمر إليه ﷺ للتأمل في نهاية المكذبين لرسل الله من كل أمة، إذ حلت بهم نقمة الله على اختلاف بلدانهم وعصورهم، فكانت ختاما مشتركا بينهم كما كان الترف وتكذيب الرسل والكفر بما جاءوا به من الوحي أحوالا مشتركة بينهم أيضا. وفي ذلك تسلية له ﷺ عما يصيبه من أذى قومه، وإعلام له بأن عاقبتهم -إن لم يؤمنوا- كعاقبة سابقيهم من المكذبين لأنبيائهم.

- والملحوظ أنه ﷺ أمر بتدبر المحسوسات المشاهدات -كأثر المطر في حياة الأرض بعد موتها، وتفاوت أحوال الناس المادية والأدبية في الدنيا- كما أمر بتدبر قصص وأخبار الماضين من الأمم والأفراد؛ لأن في المجالين كليهما من المواعظ والعبر والدروس ما يغرس الإيمان بالله ويرسخه، ويورث العلم والحكمة ويوطن النفس على الأخلاق الفاضلة. قال عز وجل في شأن المجال الأول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191)﴾[آل عمران]. وقال في شأن الثاني: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(111)﴾[يوسف]

- ودل الأمر الوارد في الآية الرابعة والعشرين من سورة الأنعام على أن التدبر والاعتبار لا يقتصران على أحوال الناس وعواقبهم الدنيوية فحسب، بل يشمل أحوالهم وعواقبهم الأخروية أيضا.

- واللافت للانتباه أن جميع المنظورات الخاصة بأخبار الأمم الماضية -التي أمر ﷺ بالنظر إليها للاعتبار- تتعلق بأهل الباطل، وتحديدا بعواقبهم التي كانت كلها وخيمة مأساوية رغم ما كانوا عليه من قوة؛ فقد أمر ﷺ بالنظر كيف كانت عواقب المكذبين والمنذرين والماكرين والظالمين والمفسدين والمجرمين. وفي ذلك دلالة على أن العبرة بالعواقب والخواتيم، كما قال ﷺ: (وإنما الأعمال بخواتيمها).[2] كما أن فيه تنبيها لكل مسلم ألا يضعف أو يتضعضع أمام علو أهل الباطل وتمكنهم في الأرض وإن طال؛ لأن نهايتهم سنة كونية وحتمية قرآنية -وإن استبطأ الناس وقوعها- ولكل أجل كتاب والله حكيم ولا يعجل بعجلة أحد من الناس. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49)وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ(50)وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ

---

(1) الطبري، جامع البيان، 19/ 558.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم، وما يخاف منها، رقم 6493، ص 1184، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

مُدَّكِرٍ(51)﴾[القمر].

– ودل قوله ﷺ: (يرحم الله لوطا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة: 260])[1] على أنه ﷺ كان يتدبر قصص الأنبياء مع أممهم ويستنتج منها الدروس، ويتفاعل كثيرا مع مواقفهم وما يجري حولهم من أحداث، ويعلق على ما يقع لهم من ابتلاء. ويؤكد ذلك قوله ﷺ تعليقا على ما جرى بين موسى والخضر عليهما السلام –بعد أن ساق القصة بطولها–: (وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما). [2] فهو لا يكتفي بتدبر أحوال الأنبياء وعواقب أقوامهم وأخذ العظات منها، بل يتمنى أن تطول تلك القصص وتتنوع أحداثها، لتكون الدروس والعبر المستقاة منها أكثر وأغزر وأنفع.

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في معاملة ذوي الحقوق خصوصا

تلقى النبي ﷺ من ربه عز وجل أوامر تكلفه بتخصيص ذوي القرابة وذوي الحاجات بمعاملة ألطف قولا وألين جانبا مراعاة لعظم حقوقهم وحساسية أوضاعهم. ومن تلكم الأوامر:

* **أمره ﷺ بالقول الكريم وخفض الجناح والدعاء للوالدين.** قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا(24)﴾[الإسراء].

– أي: وأمر ربك بعبادته وحده، وبر الوالدين برا تاما، وإذا أدرك معا أو أحدهما عندك سن الضعف والعجز، وهما في كفالتك، فلا تبد أي قول أو فعل دال على تبرمك ملم قد يصدر منهما مما لا يعجبك، ولو بتأفف أو زجر، وقل لهما قولا طيبا لينا معبرا عن الاحترام والتكريم لشخصيهما، وألن لهما جانبك متذللا من فرط إشفاقك عليهما ورحمتك بهما، وادع ربك قائلا: رب ارحمهما كما رحماني حين ربياني صغيرا.[3]

– فأمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية ببر الوالدين وبالغ في التوصية بهما وتعظيم حقهما، عاطفا إياه على حقه سبحانه في التوحيد والعبادة، حتى سلك ذلك جميعا في سلك واحد وساقه في سياق متصل لوضوح التناسب بين الأمرين، وهو (أن السبب

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ [يوسف: 50-51]، رقم 4694، ص855-856، ومسلم رقم 151، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا(62)﴾[الكهف]،رقم 4727، ص867-868.

(3) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 157/2؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 413.

الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري).[1] هذا على الإجمال؛ أما على التفصيل فقد أمر سبحانه نبيه ﷺ في هذه الآية بثلاثة أمور:

• **أن يقول للوالدين قولا كريما** . وفي بيان المعنى المراد تنوعت أقوال المفسرين. فقال ابن جريج:[2] هو (أحسن ما تجد من القول). وقال ابن المسيب: (قول العبد المذنب للسيد الفظ). وهما بمعنى واحد، وإن اختلفت ألفاظهما؛ لأن العبد المذنب يستفرغ كل وسعه ليقول للسيد -خصوصا إن كان فظا- أحسن وأفضل ما يجد لعلمه أن أية زلة في أي لفظ -مهما دقت- سيتخذها السيد ذريعة لإنزال عقوبة قاسية به. وقال قتادة: (أي قولا لينا سهلا)،[3] وهو تعبير يشبه التلخيص لقول عطاء: (هو أن تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد إليهما نظرك ؛ وذلك لأن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم).[4] ولا تخرج بقية أقوال المفسرين عما سقناه من أقوال هؤلاء المشاهير الأربعة. بل يمكن ردها جميعا إلى قولين -كما قال الماوردي- (أحدهما: لينا . والآخر: حسنا). [5] ومنهم من يجمعهما معا، كقول الشوكاني-رحمه الله-: (أي لينا لطيفا أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع التأدب والحياء والاحتشام).[6]

- ومن نماذج القول الكريم الذي يخاطب به الوالدان -وإن كانا كافرين- ما جاء في القرآن العظيم على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يحاور أباه مصدرا كل جملة وجهها إليه بعبارة (يا أبت) التي تقطر عطفا وتوسلا وتواضعا واحتراما . قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(41)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(42)يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(43)يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا(44)يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(45)قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا(46)قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا(47)﴾[مريم]. قال

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 186/20.

(2) هو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي الأموي المكي، مولى أمية بن خالد. إمام علامة حافظ مفسر وهو أول من دون العلم بمكة. ولد سنة 80هـ بمكة، وكان جده جريج عبدا روميا. حدث عن عطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وغيرهما، وحدث عنه الأوزاعي والسفيانان والحمادان وغيرهم. توفي سنة 150هـ بمكة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم969، 487/6؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 226/2].

(3) أخرجه -وأثري ابن جريج وابن المسيب السابقين له- الطبري في جامع البيان، 549/14.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 192/20.

(5) الماوردي، النكت والعيون، 238/3.

(6) الشوكاني، فتح القدير، ص 817.

الزمخشري معلقا على أسلوب الخليل ﷺ في حديثه مع والده: (انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه ... كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن).[1] فليكن هذا النموذج الإبراهيمي منوالنا الذي ننسج عليه في مخاطبة آبائنا وأمهاتنا عسى أن نفوز برضاهم، وبرضا الله فإنه في رضاهم.

• **وأن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة.** ولم يختلف المفسرون في أن معناه التواضع وإلانة الجانب لهما رحمة بهما، وإن اختلفت عباراتهم. قال ابن الجوزي: (أي: ألن لهما جانبك متذللا لهما من رحمتك إياهما).[2] وقال أبو حيان: (أمره تعالى بالمبالغة في التواضع معهما).[3] وقال أبو السعود: (عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما، فإن إعزازهما لا يكون إلا بذلك).[4] ولا ريب أن طاعتهما والحذر من مخالفتهما والمبادرة إلى كل ما يريحهما أو يدخل السرور في قلبيهما مما لا مخالفة فيه للشرع، من خدمة أو كلمة طيبة أو لفظة مسلية، هي أولى نماذج التذلل الرحيم المأمور به في الآية. والملاحظ في التعبير القرآني ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ إضافة الجناح إلى الذل من باب إضافة الموصوف إلى الصفة (كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول)،[5] والمراد من ذلك الحث على المبالغة في التواضع والإمعان في الخدمة. ووجه ذلك أن الطائر إذا رام ضم فرخه إليه خفض له جناحيه، أو لأنه إذا أراد الطيران والارتفاع نشرهما، فإذا قرر النزول خفضهما، فصار ذلك الفعل منه كناية عن التواضع.[6] وأما قوله سبحانه: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ ففيه –والله أعلم– معنى التعليل كما قال الشوكاني، أي: (تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لمالهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد).[7]

– والعين لا تخطئ ما بين هذا العنصر الذي نحن بصدد الحديث عنه –أي خفض الجناح لهما– والذي سبقه من تكامل في معاملة الوالدين. فهذا يتضمن الأمر بالمبالغة في برهما بجميع الأفعال المتاحة والمباحة الموصلة إلى رضاهما، وذاك –أي القول الكريم لهما– يتضمن الأمر بالاجتهاد في برهما بانتقاء ألطف الأقوال وأطيبها رجاء استرضائهما. ومن نماذج تطبيق هذين

---

(1) الزمخشري، الكشاف، 23/4.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير، 5/ 25.
(3) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 25/6.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 440/3.
(5) الزمخشري، الكشاف، 508/3.
(6) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 192/20.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 430.

الأمرين معا ما رواه البخاري في الأدب المفرد من حديث سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن عمر ورجل يماني يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، يقول:

إني لها بعيرها المذلل إن أذعرت ركابها لم أذعر

ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة ... [1] فإذا كان حمل الوالدة على الظهر من اليمن إلى مكة لتمكينها من الحج أو الاعتمار، والطواف بها على ذلك الحال، مع الإنشاد الجميل الهادف لها للترويح عنها وتهوين وعثاء السفر عليها .. إذا كان هذا لا يبلغ أن يكافئها على زفرة واحدة من زفراتها ليلة الولادة، فماذا يقول المفرطون والمقصرون الذين لا يكاد يسمع الآباء منهم كلمة طيبة ولا يرون حركة حانية؟

• **وأن يدعو لهما بالرحمة كما ربياه صغيرا.** ومعنى الآية: (رب! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك، كما تعطفا علي في صغري، فرحماني صغيرا حتى استقللت بنفسي، واستغنيت عنهما).[2] فكأن الله سبحانه يقول للولد -بعد أن أمره بالتواضع لهما ورحمتهما- لا تكتف برحمتك أنت لهما، فإنها قليلة وإن استكثرتها؛ إذ أنها لا بقاء لها، ولكن ترج أرحم الراحمين أن يشملهما برحمته الباقية الدائمة فهي خير وأبقى لهما، (لأن رحمتك بهما لا تفي بما قدموه لك، ولا ترد لهما الجميل، وليس البادىء كالمكافىء، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنت إليهما رد ا لذلك ادع الله أن يرحمهما، وأن يتكفل سبحانه عنك برد الجميل، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك).[3]

- ومن رحمة الله بهما أن أوجب على الولد الدعاء لهما بها ولم يكلها إلى اختياره؛ لأن ظاهر الأمر للوجوب.[4] وفي الآية إشارة إلى أن الدعاء للوالدين مستجاب؛ يشعر بذلك إذن الله فيه وأمره به، لأنه سبحانه أكرم من أن يأمرنا أن نسأله شيئا وهو يريد حرماننا منه.[5]

- والرحمة التي أمر الولد بالدعاء بها للوالدين جاءت في الآية مطلقة، ولذلك فهي تشمل الرحمة في الدنيا والآخرة بالنسبة للأبوين المسلمين، كما تشمل الدعاء لغير المسلمين بالهداية إلى الإسلام والتوفيق لمعرفة الحق واعتناقه. بل إن (لفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا).[6]

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب جزاء الوالدين، رقم 11، ص 16، وصحح إسناده الألباني في الصفحة 17، من الكتاب ذاته.

(2) القاسمي، محاسن التأويل، 3919/10.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي، 8466/14.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 193/20.

(5) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 72/15.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب، 193/20؛ وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 440/3؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص431.

- وإحسان الوالدين إلى الولد متنوع المجالات، مختلف الكيفيات، منه المادي ومنه المعنوي؛ ولكن لحكمة بالغة خص سبحانه التربية بالذكر دون سواها ليتذكر الولد تعب الوالدين وشفقتهما أثناء تربيته -إذ كل مراحلها مقرونة بالحنو عليه وقصد النفع له- فيحمله ذلك على مزيد من الرأفة بهما والعطف عليهما.[1]

- ولفظة ﴿رَبَّيَانِي﴾ تدل على دخول كل من له على العبد فضل التربية في حكم الدعاء له بالرحمة وبره والإحسان إليه وغير ذلك، وإن لم يكن أحد أبويه؛ لأن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، وكلما ازدادت التربية ازداد الحق بشرط أن تكون تربية صالحة، دينية أو دنيوية. فيدخل في ذلك الكافل والمعلم والأستاذ والداعية وغيرهم. كما تدل تلك الكلمة العظيمة ﴿رَبَّيَانِي﴾ على ضرورة اعتراف الولد بفضل من رباه أبا كان أو غير أب.[2]

- واختلف المفسرون في نسخ هذا المقطع من الآية: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، فقال بنسخه ابن عباس وعكرمة وغيرهما، والناسخ -حسب رأيهم- هو قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(113)﴾[التوبة]، وقال آخرون -كالطبري والنسفي وغيرهما- هي مخصوصة في حق المشركين (فيكون معنى الكلام: وقل رب ارحمهما إذا كانا مؤمنين، كما ر بياني صغيرا).[3] وقال الماتوريدي[4] وأبو حيان وغيرهما ليس فيها نسخ ولا تخصيص، فللولد أن يدعو لأبويه المؤمنين بخير الدنيا والآخرة ومن ذلك الرحمة، وإن كانا مشركين يدعو لهما بالهداية التي تجعلهما أهلا للرحمة والمغفرة، فإن آمنا دعا لهما بالرحمة وغيرها.[5] وهذا القول الأخير هو الراجح في تقديري؛ لأنه يتماشى مع جميع النصوص، ولا يصطدم بأي منها ولا بأي قاعدة ، ويشبع رغبة الولد في الدعاء لأبويه وإن كانا كافرين، ثم إن الأصل في النصوص الشرعية الإحكام لا النسخ.

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 60/13؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 449/3.

(2) انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، 8466/14-8467؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 431.

(3) الطبري، جامع البيان، 555/14.

(4) هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتوريدي. مفسر متكلم فقيه أصولي مناظر. نسبته إلى ماتريد وهي محلة بسمرقند. من شيوخه أبو بكر أحمد الجوزجاني وأبو نصر العياضي، ومن تلاميذه القاضي إسحاق بن محمد السمرقندي وعبد الكريم بن موسى البزدوي وغيرهما، من كتبه كتاب التوحيد وكتاب المقالات. توفي سنة 333هـ بسمرقند. [انظر مثلا: ابن أبي الوفاء الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، رقم 1532، 360/3؛ الزركلي، الأعلام، 19/7].

(5) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 26/6؛ أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتوريدي ت 333هـ، تأويلات أهل السنة الشهير بتفسير الماتوريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ-2005م، 31/7.

– ولعظم حق الوالدين وصى الله في كتابه الأبناء من جميع الديانات والمذاهب بالإحسان إليهما. فوصى بهما المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[النساء:36]، ووصى بهما المشركين في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(151)﴾[الأنعام]، ووصى بهما اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[البقرة:83]، بل ووصى بهما البشر جميعا –وفيهم الملحد الذي لا ديانة له– في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾[الأحقاف:15].

– وحتى لا يظن أحد أو يدعي أن تلك الوصية خاصة بالأبوين المؤمنين فإن الله سبحانه نص تنصيصا على الوصية بهما والشكر لهما ومصاحبتهما بالمعروف الذي هو برهما والإحسان إليهما وإن كانا مشركين كافرين؛ ولم يستثن من طاعتهما إلا حالة أمرهما للولد بالشرك. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(14)وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)﴾[لقمان]. والملحوظ في هذه الآيات أنه تعالى يقرن حقهما بحقه، فقرن الإحسان إليهما بعبادته، وقرن شكرهما بشكره.

– وهذا الذي قرره القرآن في مواضع كثيرة منه أكدته السنة في أحاديث أكثر وأوفر. منها ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: (الصلاة على وقتها). قال: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين). قال: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.[1] والملفت في هذا الحديث أنه رتب بر الوالدين في المرتبة الثانية بعد عبادة الله مباشرة، تماما كما في الآيات التي مرت بنا قريبا، كما قدمه على الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام، وكل ذلك أدلة متظافرة متكاثرة على المكانة العليا التي تبوأها الوالدان في الإسلام، والعناية التي يحظيان بها فيه، والوصية المؤكدة بحقوقهما في نصوصه.

– ولم يتمكن النبي ﷺ من تنفيذ هذه الأوامر المتضمنة لحقوق الأبوين خلافا لكل ما سبق؛ لا لتقصير منه –وحاشاه ﷺ من ذلك– ولكن لأن أبويه الكريمين ماتا قبل نزول هذه الآيات، بل قبل نبوته. ولذلك اختلف المفسرون في توجيه الخطاب الوارد فيها؛ فقال القرطبي: (الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد به أمته إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان)،[2] أي

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم 527، ص111.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 60/13.

باعتباره إنسانا مسلما -بغض النظر عن ظروفه الشخصية الخاصة- لا باعتباره الشخصي الخاص الذي علم يتمه. وقال الماتوريدي: (والخطاب من الله -وإن كان مع رسوله- فالمراد منه غيره؛ لأن رسول الله معلوم أنه لم يدرك والديه في الوقت الذي أرسل إليه وخاطبه بما خاطب؛ دل أنه أراد بالخطاب غيره - كل محتملٍ [منه] ذلك وموهوم منه- وأمره أن يعاملهما بالمعاملة التي ذكر، والله أعلم)،[1] فوسع المراد أكثر ولم يحصره في المسلمين، بل جعله يحتمل كل من يمكن أن يقتنع بصواب هذا التوجيه وإن لم يكن مسلما. بينما ينفي النسفي أن يكون المخاطب في الآية هو رسول الله ﷺ. قال: (والمراد بالخطاب غيره عليه السلام).[2] ولكنه لم يبين لنا ذلك الغير المراد. وليس عندي شك أن المخاطب هو النبي ﷺ؛ لأن ذلك هو الأصل في الخطاب القرآني، ولأن ضمير المخاطب هو الذي ظل يتردد في هذه الآية والتين قبلها. قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا(21)لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا(22)وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(23)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا(24)﴾[الإسراء]، **وفي تقديري** فإن الخطاب إنما توجه إليه ﷺ بهذه الأوامر -والله أعلم- مع علمه سبحانه بعدم تمكنه من تنفيذها لغرضين:

أحدهما: مبالغة في الحض وزيادة في التأكيد على حق الوالدين؛ فكأنما قيل إن حقوقهما بلغت من الأهمية عند الله أن أمر بها من لا يستطيع تطبيقها، فكيف بمن يستطيع؟ ومن كان عذره موتهما -ولا عذر أكبر من الموت- فكيف بمن لا عذر له، أو له أعذار تافهة؟ وفي ذلك أقوى الإيجاب وأبلغ الحث للبشرية عامة وللمسلمين خاصة لأداء حقهما كاملا غير منقوص.

ثانيهما: تعليما لكل مسلم -غيره ﷺ- أن لا مطمع له في ادعاء تطبيق جميع ما وردت به الشريعة من أوامر، لأن ما لم يتح لمحمد ﷺ لن يكون في متناول بشر غيره أبدا. قال تعالى عن الإنسان: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(23)﴾ [عبس]. قال الزمخشري في تفسيرها: (لم يقض بعد، مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ الله حتى يخرج عن جميع أوامره، يعني أن إنسانا لم يخل من تقصير قط).[3] وبنحوه قال مجاهد.[4]

* **وأمره ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وأن يقول لهم قولا لينا إن ضاقت ذات يده. قال تعالى:** ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27)وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28)﴾[الإسراء].

---

(1) الماتوريدي، تأويلات أهل السنة، 30/7.

(2) النسفي، مدارك التنزيل، 253/2.

(3) الزمخشري، الكشاف، 316/6.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 114/24.

- أي: وأعط -يا محمد- من كان من قرابتك حقه من الصلة والعطف، وكذلك المسكين الذي أذله الاحتياج، والغريب المحتاز الذي انقطع عن ماله، فأعنهما بما يخفف حاجة هذا أو يزيلها، وييسر غرض ذاك أو يحققه، ولا تبعثر مالك في غير المصلحة ، فإن منفق المال في غير المصلحة أولياء الشياطين، والشيطان جحود لنعم ربه فلا يشكره باستعمالها في مراضيه فكذلك يصنع إخوانه من الآدميين. وإن سألك -يا محمد- أولئك الذين أمرناك بإعطائهم حقوقهم فلم تجد ما تعطيهم فعدهم -بكلام لين طيب- أنك ستفعل ذلك عندما يتيسر لك الأمر ويتوفر لديك المال.[1]

- فهذه الآية على وجازتها تضمنت الأمر إلى النبي ﷺ بأداء حقوق ثلاث فئات هي أعظم الناس حقا بعد الوالدين، وهي الأقارب والمساكين وأبناء السبيل، لما في ذلك من المصلحة العظيمة للمجتمع كله. قال ابن عاشور: (وقد جمعت هذه الآية ثلاث وصايا مما أوصى الله به ... فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعيا لاتحاد المنبت القريب وشدا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة. وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها. وأما إيتاء المسكين فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية. وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع، لأن المار به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلا ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقاية من إضرار الجوع والقر أو الحر).[2]

- واللافت أن الأمر بأداء الحقوق المذكورة ورد مقرونا بالنهي عن خلق من أسوإ الأخلاق وهو التبذير الذي هو حقيقة في المال، وفي ذلك دلالة على أن أداءها يقوم على دعائم من الخلال الفاضلة والمشاعر النبيلة، لا على مجرد تقديم مبلغ مادي قل أو كثر، ومن ثم كانت صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب وإغاثة المساكين وإعانة أبناء السبيل وإكرام الضيوف ونجدة الملهوف ومساعدة الغريب من جملة مكارم الأخلاق التي جاء النبي ﷺ لإتمامها قبل أن تكون حقوقا لأفراد يرجون استيفاءها. ولهذا أوردت هذه الأوامر في مبحث الأخلاق مع أنها في الأصل من المعاملات. قال الرازي: (ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات والتحبب إلى الناس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهرا له وحصل له حق آخر).[3]

(1) انظر: المصدر السابق، 564/14؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 431.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 15/77-78.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 81/30.

- **والحق** مفرد الحقوق، وله في اللغة معان عديدة، منها: أنه خلاف الباطل،[1] ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(18)﴾[الإسراء]. وحق فلان فلانا على حقه، وأحقه: غلبه عليه. واستحق زيد عمرا: طلب منه حقه. [2] ويعرفه أهل الاصطلاح عموما بأنه: (الثابت الذي لا يسوغ إنكاره).[3] وأما عند المفسرين خصوصا فقد أحصى الدامغاني له اثني عشر وجها، منها الصدق والعدل والأولى. [4] أي على حسب السياق الذي جاء فيه؛ وفي هذه الآية يختلف حق كل فئة عن الفئتين الأخريين المذكورتين معها كما سنبين قريبا، وإن اتحد في قدر مشترك وهو (المواساة المالية)[5] المستحقة بنص الكتاب العزيز.

- **وذو القربى** هو القريب، ونقيضه البعيد،؛ والقربى هي القرابة، مشتقة من القرب وهو الدنو. ومن ذلك: أقرباؤك وأقاربك وأقربوك، وهم عشيرتك الأدنون الذين لهم بك صلة نسبية قوية.[6] ولا يختلف معناه عند المفسرين عما هو عند اللغويين. قال الرازي –متحدثا عن قرابة الإنسان عامة–: (واعلم أن ذوي القربى هم الذين يقربون منه بولادة الأبوين أو بولادة الجدين ... وإن كان من يختص بذلك يتفاضل ويتفاوت في القرب والبعد).[7] وأما ذوو القربى المراد إيتاؤهم حقهم –بالنسبة لأي مسلم– فهم أقاربه النسبيون عند جمهور المفسرين. وقال بعض هم قرابة النبي ﷺ. والراجح –والله أعلم– هو قول الجمهور؛ لأن الأمر بذلك جاء عقب حضه سبحانه على بر الوالدين، فناسب التثنية بالحض على حقوق ذوي القربى، كما يقويه العطف ب بالمسكين وابن السبيل؛ إضافة إلى أن حقوق آل البيت في المال تقررت بعد الهجرة عندما فرضت الزكاة وشرعت الغنائم والأفياء، بينما هذه الآية في سورة الإسراء وهي مكية .[8] وأما بالنسبة للنبي ﷺ فلا خلاف في ذوي قرباه الذين أمر بإيتائهم حقهم، لأنهم هم أنفسهم آل بيته الطاهرون.

---

(1) انظر: اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ، ط3، 1404هـ-1984م، 1460/4.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 176/4.

(3) الجرجاني، االتعريفات، 79.

(4) انظر: الدامغاني، قاموس القرآن، ص 139.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 442/3.

(6) الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 123؛ ابن منظور، لسان العرب، 53/12.

(7) الرازي، مفاتيح الغيب، 45/5.

(8) انظر: الطبري، جامع البيان، 563/14-564؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 450/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 76/15.

- ولم يختلف المفسرون أن صلة ذوي القربى وبرهم وإكرامهم والعطف عليهم حق لهم واجب. ويشمل ذلك مودتهم وحسن معاشرتهم والسؤال عن أحوالهم وزيارتهم والاهتمام لشؤونهم ومؤالفتهم في السراء والضراء والمعونة بكل وجه. ولا ريب أن ذلك يتفاوت بتفاوت أحوالهم ودرجة قرابتهم، والحاجة وعدمها، كما يتفاوت مع اختلاف الأزمنة، وإنما اختلفوا في الإنفاق عليهم؛ فذهب ابن عطية والألوسي وغيرهما أن ذلك من حقهم إن كانوا من الفقراء والمحاويج بدلالة سياق الكلام، وهو رأي أبي حنيفة من الفقهاء. بينما يرى الشافعي أن النفقة لا تجب إلا على الوالدين والأولاد فحسب. [1] في حين يقرر ابن عاشور أن الأمر (ليس مقيدا بوصف فقرهم ... بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم، إذ المقصود هو التحابب).[2] والراجح في تقديري هو رأي الشافعي ومن شايعه؛ لأن وجوب النفقة عليهم نسخ كما يشير إليه قول ابن أبي زمنين:[3] (نزلت قبل أن تسمى الأصناف الذين تجب لهم الزكاة).[4]

- **والمسكين** لغة هو (من لا شيء له، أو له ما لا يكفيه)، [5] قيل: سمي بذلك لأن الفقر أسكنه وقلل حركته. وأصل المسكين -لغة- الخاضع، ومن ذلك قولهم: استكان فلان، أي خضع وذل. ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(17)وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18)﴾[الفجر]. كما يطلق لفظ المسكين على من إذا تأملته رق قلبك له. والفرق بينه وبين الفقير أنه يسأل الناس، بينما الفقير لا يسألهم تعففا.[6] أي أن المسكين هو الفقير السائل. أما عند المفسرين

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 565/14؛ الزمخشري، الكشاف، 512/3؛ الماتوريدي، تأويلات أهل السنة، 33/11-34؛ الخازن، لباب التأويل، 128/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 253/2؛ الألوسي، روح المعاني، 62/15؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 819؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 431.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 131/2.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري الأندلسي الألبيري، الشهير بابن أبي زمنين. مفسر محدث فقيه حافظ زاهد مصنف واعظ أديب. ولد سنة 324هـ وطلب العلم وتنقل في طلبه بين ألبيرة وألمرية وبجانة وقرطبة حتى استبحر فيه وغدا إماما قدوة شاعرا قليل النظير. من شيوخه محمد بن معاوية الأموي وأحمد بن المطرف، ومن تلاميذه يحيى بن محمد المقامي وأبو عبد الله بن الحصار، ومن مصنفاته كتاب أصول السنة وآداب الإسلام. توفي سنة 399هـ بألبيرة في الأندلس. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 3723، 113/13؛ الزركلي، الأعلام، 227/6].

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 19/3.

(5) الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1206.

(6) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 222/7-223؛ أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص177.

فاختلفت فيه أقوالهم. فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجابر بن زيد [1] والزهري هو المحتاج الذي يسأل الناس. وقال آخرون منهم قتادة هو الفقير الصحيح الجسم. بينما يرى الضحاك بن مزاحم ومن وافقه أنه المحتاج من المسلمين الذي لم يهاجر. وعلى النقيض من ذلك قال عكرمة ومن تابعه هو الفقير من أهل الكتاب، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه ضعيف الكسب، أي الأخرق الذي لا يحسن عملا يكسب به.[2] وكما هو ظاهر من المقارنة بين هذه الأقوال فإنه ليس بينها كبير اختلاف إذ كلها تدور حول معنى الفقر والحاجة؛ ومع ذلك فإن أرجحها قول الفريق الأول؛ لأنه يتأيد بالمعنى اللغوي إذ هو مطابق له تماما، كما يدل عليه قول النبي ﷺ: (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف ، واقرءوا إن شئتم) يعني قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[البقرة: 273].[3] أي أن النبي ﷺ أقر أن المسكين هو السائل الذي يعطى التمرة واللقمة وما إليهما، ونبه إلى من هو أولى بالصدقة وأحوج إليها. قال النووي: (وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطواف، بل معناه: نفي كمال المسكنة، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾[البقرة:177]).[4] ولذلك قال الطبري -بعد أن ساق أقوال المفسرين المشار إليها آنفا بأسانيدها-: (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: ... المسكين: هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم).[5]

- وحقه المأمور به هو المواساة المالية لا محالة، وإنما اختلف أهل التفسير في تحديد ماهيته. فقال الزمخشري والنسفي وغيرهما هو حقه من الزكاة المفروضة، بل إن الطبري نص على إجماع جميع أهل العلم على أن المسكين يأخذ منها بوصفه فقيرا. وقال آخرون كالألوسي وأبي السعود هو ما كان مفروضا بمكة قبل الهجرة من مال بمنزلة الزكاة. بينما يرى ابن عاشور أن حق المسكين في هذه الآية هو الصدقة النافلة، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(18)﴾[الفجر]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(15)أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(16)﴾[البلد]. وذهب فريق رابع منهم

(1) هو أبو الشعثاء جابر بن زيد اليزدي اليحمدي البصري. مفسر محدث فقيه عابد مفت. حدث عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وحدث عنه عمرو بن دينار وأيوب السختياني وقتادة وغيرهم. توفي سنة 93هـ. [انظر على سبيل المثال: ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، رقم 2032، 494/2؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 551، 398/5].

(2) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 509/11-515؛ الماوردي، النكت والعيون، 374/2-375؛ الماتوريدي، تأويلات أهل السنة، 393/13-396؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 114/3.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾، رقم 4539، ص818؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه، رقم 1039، ص 399، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم، ص 797.

(5) الطبري، جامع البيان، 514/11.

الرازي والشوكاني والسعدي وطنطاوي والجزائري(1) إلى أن حقه هو ما يفي بقوته وقوت عياله، سواء كان من الزكاة المفروضة أو من الصدقة النافلة. فهؤلاء نظروا -كما هو ظاهر- إلى رفع ضرره وتحقيق ضروراته من غذاء وكساء وسواهما بغض النظر عن حكم ذلك المال بالنسبة لمخرجه. قال الشوكاني: (والمراد في هذه الآية التصدّق عليهما بما بلغت إليه القدرة من صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما من صدقة الفرض).(2) وهذا الرأي الأخير أرجح في تقديري؛ لأنه هدف إلى سد حاجات المساكين وتخفيف معاناتهم ونشر التكافل الاجتماعي بين فئات الأمة وأفرادها، وهو مقصد كبير من مقاصد القرآن الكريم، إضافة إلى أنه يستوعب الآراء الثلاثة الأخرى.

- **وابن السبيل** لغة: هو المسافر، والسبيل الطريق. سمي ابنا لها لملازمته إياها.(3) وأما المفسرون فلم يتفق قولهم فيه على كلمة سواء. فجمهورهم على أنه المسافر المنقطع عن بلاده وماله إذا احتاج، سواء كان غنيا أو فقيرا إذا لم يكن معه نفقة أو كانت وأصيبت. ومن هؤلاء مجاهد والضحاك والطبري والزمخشري والقرطبي وغيرهم. بينما يرى ابن عباس رضي الله عنه وقتادة والسمرقندي(4) أنه الضيف النازل.(5)والأرجح في تقديري هو الرأي الأول، لموافقته للمعنى اللغوي؛ لأن الأصل هو عدم نقل المعنى اللغوي إلى معنى شرعي جديد حتى يثبت العكس.

- وحقه أن يعان بما يحتاجه لقطع سفره من زاد أو وراحلة أو ضيافة أو نفقة أو غيرها، حتى يبلغ مقصده. ويدخل في ذلك تأمينه وإرشاده إلى طريقه .(6) وقد اختلفت وجهات نظر أرباب التفسير في الوعاء الذي يعطى منه على نحو ما حصل مع المسكين. فذهب الزمخشري والنسفي وابن أبي زمنين وغيرهم إلى أن حقه ذلك من الزكاة المفروضة. وهو مستبعد في تقديري

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 514/11؛ الزمخشري، الكشاف، 512/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 195/20؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 442/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 253/2؛ الألوسي، روح المعاني، 62/15؛ الشوكاني، فتح القدير ، ص 819؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن ، ص431؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 77/15؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط ، 80/15؛ الجزائري، أيسر التفاسير ، 188/3.

(2) الشوكاني، فتح القدير، ، ص 819.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 116/7-117.

(4) هو أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي. مفسر فقيه محدث صوفي حنفي. يروي عن محمد بن الفضل البخاريوغيره، وروى عنه محمد بن عبد الرحمن الترمذي وغيره، ومن مصنفاته تنبيه الغافلين ودقائق الأخبار في بيان أهل الجنة وأهوال أهل النار. توفي سنة 375. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 3428، 400/12؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 17617، 24/4].

(5) انظر: الطبري، جامع البيان ، 529/11-530؛ الزمخشري، الكشاف ، 60/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 265/2؛ الماوردي، النكت والعيون، 376/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 64/13، 436/16.

(6) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 188/3.

لأن الآية من سورة مكية، وإنما فرضت الزكاة بعد الهجرة. بينما يرى الألوسي وأبو السعود أن المقصود به ما كان مفروضا بمكة قبل الهجرة من مال بمنزلة الزكاة. وهو صدقة واجبة في المال غير محددة المقدار. ولكنهم لم يذكروا دليلا على هذا التخصيص. وذهب الكازروني إلى أنه الصدقة. في حين يقرر ابن عاشور أن حقه هو الضيافة على الحي الذي يمر به. أما الرازي والقرطبي والشوكاني والسعدي والقاسمي والجزائري وغيرهم فيرون أن حقه هو أن يدفع إليه ما يكفيه من زاد وحمولة وغيرهما من حاجته إلى أن يبلغ مقصده، سواء كان ذلك من الزكاة أو الصدقة أو سواهما مما تبلغه قدرة المكلف، حتى أدخل الجزائري فيها إرشاده إلى الطريق والكلمة الطيبة. وهو الراجح في تقديري لأنه حمل الآية على عمومها إذ لم يرد ما يخصصها. وقد صرح الطبري أنه أولى بالصواب، لعدم تخصيص الله تعالى لشيء من حقوقه دون شيء.[1]

– ولأهمية الأخلاق الحاملة على القيام بمضمون الأمر الوارد في الآية السالفة الذكر تكرر الأمر بها في سورة الروم، وتعلقت بالفئات نفسها وبالترتيب ذاته. قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)﴾[الروم]. والملحوظ أن القيام بما اقتضته من أداء الحقوق المنصوصة جاء هذه المرة مقرونا بحكم الله عليه بالخيرية إن قصد به صاحبه وجه ربه، كما حكم على صاحبه بالنجاح الدنيوي والأخروي.

– والحكمة –والله أعلم– في تخصيص هذه الفئات الثلاثة بالذكر في الآيتين السابقتين دون سواها ممن ذكر في آية مصارف الزكاة هي بيان من يجب الإحسان إليه على كل صاحب مال بغض النظر عن توفر شروط الزكاة فيه من عدمها؛ لأن هؤلاء لهم أحوال خاصة.[2]

– وقدم الأقارب على سواهم في الترتيب لمكانة الرحم في الدين وعظم أمرها عند الله صلة وقطعا. قال النبي ﷺ: (إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب، قال: فهو لك). قال رسول الله ﷺ: (فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 565/14؛ الزمخشري، الكشاف، 512/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 195/20؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 64/13؛ وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، 442/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 253/2؛ الألوسي، روح المعاني، 62/15؛ نور الدين أحمد بن محمد بن خضر العمري الشافعي الكازروني ت 923هـ، الصراط المستقيم في تبيان القرآن الكريم، تحقيق ودراسة: أبو الحسن عبد الله بن عبد العزيز الشبراوي، دار الرسالة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 1438هـ–2017م، ص 413؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 821؛ القاسمي، محاسن التأويل، 3921/10؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21/15، 103/77؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 431؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 188/3.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 125/25.

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(22)﴾[محمد]. [1] وثنى بالمسكين لأن حاجته دائمة، خلافا لابن السبيل فإن حاجته مؤقتة بحال السفر، فهي أخف الثلاث.

– ومن نبل الأخلاق القرآنية التي أمر بها ﷺ فزادته نبلا إلى نبله أن أتبع الأمر إليه بإيتاء ذوي الحقوق –المذكورين في الآية– حقوقهم بأمر آخر أنبل وأكرم، يراعي مشاعرهم ويحفظ كرامتهم وهو صرفهم صرفا جميلا في حال لم يتيسر المال لإعطائهم حاجاتهم؛ وذلك بإلانة الكلام لهم والاعتذار إليهم برفق ووعدهم بالعطاء متى سنحت الفرصة وتوفر الرزق . ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28)﴾[الإسراء]. قال ابن عاشور في تفسيرها: (والقول الميسور : اللين الحسن المقبول عندهم ، شبه المقبول بالميسور في قبول النفس إياه لأن غير المقبول عسير. أمر الله بإرفاق عدم الإعطاء لعدم الموجدة بقول لين حسن بالاعتذار والوعد عند الموجدة، لئلا يحمل الإعراض على قلة الاكتراث والشح. وقد شرط الإعراض بشرطين أن يكون إعراضا لابتغاء رزق من الله، أي إعراضا لعدم الجدة لا اعتراضا لبخل عنهم، وأن يكون معه قول لين في الاعتذار. وعلم من قوله ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أنه اعتذار صادق وليس تعللا).[2]

– وما من شك أن النبي ﷺ نفذ تلك الأوامر على أتم وجه وأكمله. وقد شهد بذلك من عاصره، بل وعاشره. قالت خديجة رضي الله عنها مخاطبة إياه ﷺ عقب نزول الآيات الأولى من الوحي عليه: (أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).[3]

ولئن كانت هذه الشهادة قد صدرت قبل نزول الأمر الذي نحن بصدد الحديث عنه، فإن ذلك أبلغ في الدلالة عما قلناه؛ لأنه إن كان ﷺ قد أدى تلك الحقوق كاملة قبل نزول الأمر بأدائها، بل قبل نزول الوحي –حين كانت البشرية غارقة في جاهلية عمياء– فهو أحرى ألا يفرط لحظة واحدة في شأنها بعد أن أكرمه الله بالوحي وأمره بإيتائها. ومع شدة فقره ﷺ إلا أن نصوصا كثيرة في سيرته وشهادات معاصريه تؤكد جميعا بلوغه الغاية القصوى في صلة رحمه وعطفه على المساكين وإكرامه للضيف ورحمته لابن السبيل، بل للبهائم العجماء أيضا، ولولا خشية الإطالة لنقلناها.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم 5987، ص 1103-1104؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم 2554، ص 1032، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 93/15.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم 6982، ص 1268، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وخلاصة هذا المبحث:

- أن الأوامر التي تم إيرادها في هذه دلت على أن النبي ﷺ كان مأمورا بمكارم الأخلاق وفضائل الآداب مع الأقارب والأباعد، ومع المسلمين وغيرهم، تماما كما يؤمر كل مسلم من هذه الأمة، وإن كان مشهودا له ﷺ بكمال الخلق قبل نزول تلك الأوامر، بل قبل ظهور الإسلام ونزول الوحي عليه.

- وأن مصدر أخلاقه ﷺ ليس العرف الاجتماعي السائد في بيئته، ولا العقل المحض، ولا الفطرة وحدها، وإنما هي أوامر الله إليه في القرآن الكريم توجهه وترشده وتؤدبه. وهو ما قصدته عائشة رضي الله عنها في جوابها لمن سألها عن خلق رسول الله ﷺ: (فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن).[1]

- ولم يرد إليه ﷺ أي أمر استثنائي مما لم يتوجه إلى سائر المسلمين في هذا المجال، وإنما استشكل مما ورد ثلاثة أوامر غير ممكنة التطبيق بالنسبة إليه شخصيا؛ لأنها متعلقة بالوالدين، ومعلوم موت والديه ﷺ قبل نزولها، ولذلك اختلفت أقوال المفسرين في توجيهها.

خلاصة الفصل:

والآن يمكن أن نجيب عن السؤال الذي طرحناه في بداية هذا الفصل فنقول:

- إن ما ورد إليه ﷺ شخصيا من الأوامر باعتباره إنسانا مسلما تركز على ثلاثة مجالات:

- **مجال العقيدة**: وركزت الأوامر الواردة في نطاقه على وجوب الإيمان بكل ما يوحى إليه به، وفصلت له أركان الإيمان، كما شرحت أقسام التوحيد مركزة على توحيد الألوهية، ذاكرة نماذج كريمة لأسماء الله الحسنى ونعوته العلا وأفعاله الحكيمة الدالة على ملكه الشامل وقدرته الكاملة وعلمه المحيط. وحذرته من الشرك خصوصا ومن الذنوب عموما، وبينت الطريق الموصلة إلى معرفة جميع المأمورات المفصلة لكل الواجبات المحققة لمرضاة الله.

- ودلت على أن ما أمر به ﷺ من الاعتقادات لم يزد شيئا عما يشارك فيه عموم المسلمين.

- وتضمنت التوجيه إلى تفعيل الإيمان المأمور به في القلب، وتحويله إلى طاقة خلاقة تدفع صاحبها إلى السعي في إنجاز أعماله وتحقيق آماله وهو مطمئن إلى أن إلهه الذي يملك الكون ويديره سيكون له عونا وناصرا، فلا تثبطه الصعاب، ولا يوهنه الضغط والإرهاب.

- **مجال العبادة**: ودلت الأوامر الواردة في حدوده على أن النبي ﷺ مأمور بعبادة الله -كسائر المكلفين- والاستمرار على ذلك حتى الموت، وهو دليل على أن العبادات لا تسقط عن المكلف القادر مهما بلغ إيمانه من القوة والرسوخ. وقد تولى قسم

---

(1) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم 746، ص 293-294، من حديث عائشة رضي الله عنها.

منها تحديد ضوابط العبادة له ﷺ حتى تحقق الغاية منها وتحرز القبول عند الله جل جلاله، وهي: الإخلاص فيها لله وحده، والاصطبار على مشاقها، والمداومة عليها مدى الحياة، وأن ينقطع إليها عن كل الشواغل، مع الكد فيها والاجتهاد في أدائها- خصوصا صلاة الليل -التي قيل بوجوبها عليه دون سائر أمته والتي وعد عليها مقاما محمودا. أما التفاصيل الجزئية كأحكام الطهارة وأعداد الركعات ونحوها فقد أمر بالرجوع فيها إلى الشريعة -المنزلة عليه باعتباره رسولا- كما يفعل كل مسلم من أفراد أمته.

- والملحوظ أن جميع الأوامر المتعلقة بالعبادات البدنية انحصرت في موضوع الصلاة إلا واحدا فإنه تعلق بالنحر لله، وهو دليل على عظم شأن الصلاة ومكانتها الكبرى في الدين، كما تدل على عظمة أمر شعيرة النحر لله. أما الأوامر المتصلة بالذكر والدعاء تحديدا -والتي أساسها حركة اللسان وتدبر القلب وحضور الفكر وتفاعل الوجدان - فتوزعت على ثمانية أصناف: تلاوة وتسبيح وتحميد وشكر وذكر وتكبير ودعاء واستعاذة. واللافت أن أكثرها أوامر لتعظيم الله بما عظم به نفسه، أو بما هو من صفاته، وهو معنى غير متحقق في العبادات البدنية.

- **مجال الأخلاق**: ودلت الأوامر الواردة ضمنه على أن النبي ﷺ كان مأمورا بمكارم الأخلاق وفضائل الآداب تماما كما يؤمر كل مسلم من هذه الأمة، وإن كان مشهودا له ﷺ بكمال الخلق قبل نزول تلك الأوامر، وأن مصدر أخلاقه ﷺ ليس العرف الاجتماعي السائد، ولا العقل المحض، ولا الفطرة وحدها، وإنما هي أوامر الله إليه في القرآن الكريم توجهه وترشده وتؤدبه، ولذلك تميزت جميعا بكونها نماذج ممتازة للخلال الكريمة المتسامية عن النفعية والأنانية.

- ولم يرد إليه ﷺ أي أمر استثنائي مما لم يتوجه إلى سائر المسلمين في هذا المجال، وإنما استشكل من الوارد ثلاثة أوامر غير ممكنة التطبيق بالنسبة إليه ﷺ شخصيا؛ لأنها متعلقة بالوالدين، ومعلوم موت والديه ﷺ قبل نزولها، وهي -في تقديري- تعليم لكل مسلم غيره ﷺ أن لا مطمع له في ادعاء تطبيق جميع ما وردت به الشريعة من أوامر.

– ومجموع هذه الأوامر يشكل هيكلا متكاملا لحياة دينية سوية لأي إنسان. فقد حوت الاعتقاد الذي يطمئن القلب ويقنع الفكر، والعبادات التي تشبع الرغبة الفطرية في التعبد، وتغذي الروح لئلا يطغى عليها الجانب البدني المادي، والأخلاق التي تهذب السلوك وتوجه المواقف والأعمال.

الفصل الثاني

أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره رسولا مبلغا

الرسالة التي شرف الله بها نبيه محمدا ﷺ وكلفه بالقيام بأعبائها رسالة واحدة من حيث مصدرها ومبلغها وغايتها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67)﴾[المائدة]، إلا أن المتدبر للأوامر الربانية الموجهة إليه ﷺ في القرآن الكريم، والمتعلقة بأداء مضامين تلك الرسالة، وإيصال تفاصيلها إلى المعنيين بها يدرك أن كل مجموعة منها متناسقة فيما بينها متآلفة من حيث معناها أو مبناها؛ بحيث تشكل كل منها وظيفة متميزة من وظائف النبي ﷺ، ومهمة من مهامه الجليلة. فما تلكم الوظائف المسندة إليه ﷺ باعتباره رسولا من عند الله؟ وما الأوامر التي توجهت إليه ﷺ في إطار كل وظيفة منها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في المباحث الآتية:

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال التبليغ

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الدعوة

المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتقويم العقائد

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال التبليغ

(التبليغ جعل الشيء بالغا. والبلوغ الوصول إلى المكان المطلوب وصوله، وهو هنا مجاز في حكاية الرسالة للمرسل بها إليه من قولهم بلغ الخبر وبلغت الحاجة)،[1] وتبليغ الناس مراد الله منهم هو الوظيفة الأصلية للرسل جميعا. قال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(14)قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(15)قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17)﴾[الصافات]، وعلى ذلك يدل المعنى اللغوي لكلمتي (رسول) و (رسالة). قال ابن منظور: (والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة). [2] ونبينا ﷺ واحد منهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[آل عمران:144]، ولذلك وجب عليه التبليغ كما وجب عليهم. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(40)﴾[الرعد]. فما الأوامر الإلهية التي وردت إليه ﷺ في هذا المجال؟ وماذا تمثل بالنسبة إليه ﷺ؟ سنحاول الإجابة على هذين السؤالين من خلال المطلبين الآتيين:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 258/6.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 153/6.

المطلب الأول: أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالتبليغ إجمالا

المطلب الثاني: أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بتبليغ أخبار خاصة

المطلب الأول: أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالتبليغ إجمالا

تلقى النبي ﷺ في هذا المجال أمرا واحدا فقط مشتقا من مادة (ب ل غ)، استعمل في التبليغ العام لكل ما أنزل عليه من الله سبحانه لعباده؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)﴾[المائدة].

– أي: يا أيها المرسل من الله إلى عباده أوصل ما أوحي إليك من مالكك ومربيك –من العقائد والشرائع والمواعظ وغيرها– إلى عباده من أهل الكتاب وغيرهم، وإن قصرت في تبليغ شيء من ذلك –وإن قل– فما امتثلت أمره، وهو بمنزلة كونك لم تبلغ أي شيء مما أنزل إليك، والله يتولى حفظك من المكروه الذي قد تحذر أن ينزلوه بك، خصوصا إذا كان ما تبلغهم متضمنا ذكر معايبهم وتقصيرهم. إن الله لا يوفق من شاقه وجحد ما جئته به من وحي الله وخصوصا في محاولته إنزال الهلاك بك.(1)

– ففي هذه الآية أمر للنبي ﷺ من الله تعالى متعلق بصميم وظيفته التي أرسل لأجلها. قال السعدي: (هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية).(2) وفيه أيضا –بالتبع– تأديب وتوجيه لعلماء هذه الأمة بتبليغ ونشر ما يحملون من العلم والصدع بما يعرفون من الحق دون أن تمنعهم هيبة الناس من ذلك.(3)

–ودلت الآية على أنه سبحانه تكفل بنفسه بحماية نبيه ﷺ من فتك الناس وعدوانهم؛ (4) ولذلك انصرف حرصه ﷺ إلى تبليغهم ما يوحى إليه دون خوف منهم لعلمه ﷺ أن نواصيهم بيده سبحانه، وأنهم لا سبيل لهم إليه. (5) ومن صور يقينه ﷺ

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 567/8؛ الزمخشري، الكشاف، 269/5–270؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 654/1.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص217.

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 89/8.

(4) أورد بعض الطاعنين في القرآن شبهة حول مضمون هذه الآية فقالوا: أين كان حفظ الله للنبي ﷺ وعصمته من الناس وقد جحشت ركبته وسقطت رباعيته وجرح رأسه ودخلت حلقات المغفر في وجنته الشريفة يوم أحد؟ فأجاب الزمخشري رحمه الله على هذه الشبهة بقوله: (المراد أنه يعصمه من القتل. وفيه أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل نزلت بعد يوم أحد)[الزمخشري، الكشاف، 271/5]. أقول: ويدل على سداد هذه الإجابة ما ورد في كتب السيرة والسنة من تعرضه ﷺ لأذى المشركين في الفترة المكية من إلقاء التراب على رأسه وسلا الجزور بين كتفيه أثناء سجوده، وخنقه بثوبه، والنيل منه بالكلام، ثم تعرضه في الفترة المدنية لأذى المنافقين واليهود والمشركين، ومن ذلك محاولة قتله بالسم من قبل زينب بنت الحارث اليهودية يوم فتح خيبر. فكل هذا كان أذى دون القتل يزيده الله به رفعة وأجرا، أما القتل فلم يتم أبدا رغم تكرر محاولات أعدائه.

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص217.

بعصمة الله له من فتك الناس ما رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: (إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، قال: فشام السيف، فها هو ذا جالس) ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.[1]

– وكان النبيﷺ قبل نزول هذه الآية يحرس من قبل الصحابة رضي الله عنهم خوفا عليه من غيلة أعدائه الكارهين لدينه. روى الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: (يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله).[2]

– وهذا الأمر ورد في آية مدنية من سورة مدنية هي من آخر ما نزل من القرآن. أي أن النبي ﷺ لم يبدأ التبليغ بعد نزولها، بل بدأه قبل ذلك بمدة طويلة، أي منذ نزول قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)قُمْ فَأَنْذِرْ(2)وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3)وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(4)وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(5)﴾ [المدثر]. فيكون التبليغ المأمور به في هذا الموضع هو ما نزل في هذه السورة –خاصة– بشأن (اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص الله تعالى قصصهم في هذه السورة وذكر فيها معا يبهم وخبث أديانهم واجترائهم على ربهم وتوثبهم على أنبيائهم وتبديلهم كتابه وتحريفهم إياه ورداءة مطاعمهم ومآكلهم وسائر المشركين غيرهم، ما أنزل عليه فيهم من معايبهم والإزراء عليهم والتقصير بهم والتهجين لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يشعر نفسه حذرا منهم أن يصيبه في نفسه مكروه، ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعا من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وأن لا يتقي أحدا في ذات الله، فإن الله تعالى كافيه كل أحد من خلقه، ودافع عنه مكروه كل من يتقي مكروهه).[3] ويؤيد هذا ما ذكره الرازي في سبب نزولها. قال –وهو يعدد ما قيل في سبب نزولها–: (التاسع: كان يهاب قريشا واليهود والنصارى، فأزال الله عن قلبه تلك الهيبة بهذه الآية).[4] وإن كان الأمر يتناول بعموم لفظه كل ما نزل عليه ﷺ منذ أوحي إليه إلى يوم وفاته ﷺ.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، رقم 2910، ص 535؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله ﷺ على الله تعالى، وعصمة الله تعالى له من الناس، رقم 843، ص 327، واللفظ له.

(2) رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة المائدة، رقم 3046، ص 682؛ والطبري في جامع البيان، 569/8؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 6615، 1173/4–1174؛ والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، رقم 3221، 396/2، وصحح إسناده؛ وحسنه الألباني في تخريجه لسنن الترمذي، في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

(3) الطبري، جامع البيان، 567/8.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 53/12.

– وقد كثرت أقوال المفسرين في تحديد الأمر الذي كان تبليغه سبب نزول هذه الآية حتى بلغ الرازي في عدها عشرا، إلا أن الأمر المراد تبليغه على الخصوص في تقديري –وإن كانت تتناول تبليغ جميع ما أنزل عليه ﷺ، كما قال الزمخشري والقرطبي [1] وغيرهما– هو ما تضمنته سورة المائدة من أحوال وأعمال ومعايب أهل الكتاب خاصة كما يوحي به سباق وسياق ولحاق الآية المتضمنة لهذا الأمر. والله أعلم.

– وفي هذه الآية حجة على أنه ﷺ لم يسر بشيء من الوحي إلى أحد من الناس دون سائر الأمة كما زعم البعض. [2] ويؤكد ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي رضي الله عنه قال: قلت لعلي رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر. [3]

– ومع ذلك التأكيد من الله سبحانه على نبيه بتبليغ جميع ما ينزله عليه دون أي تفريط أو تقصير –وإن دق– فإنه يبين له – في المقابل– أن مهمته تنحصر في البلاغ، وليس عليه أن يرغم الناس على الإيمان بما يدعوهم إليه، سواء كانوا وثنيين أو أهل كتاب. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(20)﴾[آل عمران]. ولا هو مكلف أن يحصي أعمالهم أو يسجل أقوالهم. قال عز من قائل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[الشورى: 48]. وسواء عاش الرسول ﷺ حتى يرى عقوبة الله العاجلة وهي تنزل بعتاة الكافرين المعاندين الذين حادوا الله ورسوله فيشفى صدره وصدور المؤمنين أو مات قبل ذلك فإن التبليغ هو مهمته التي يجب أن ينصب عليها كل اهتمامه، أما محاسبتهم فهي إلى الله لا إليه. ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(40)﴾[الرعد]. وحتى الذين آمنوا به وبما جاء به فإنه ليس عليه –باعتباره رسولا– أن يرغمهم على الطاعة أو يمنعهم قسرا من المعصية. قال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(98)مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99)﴾[المائدة].

– وقيد سبحانه في عدة مواضع من كتابه البلاغ المنوط بنبيه ﷺ بالإبانة، أي الوضوح؛ لأن المقصود هو إقامة الحجة على الناس والإعذار إليهم –كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)﴾[النساء]– وليس مجرد التبليغ كيفما اتفق. قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(12)﴾[التغابن]. قال ابن عاشور : (ووصف البلاغ بـ (المبين)، أي الواضح عذر للرسول ﷺ بأنه

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 269/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 89/8.

(2) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 384.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، حديث رقم 3047، ص 559.

ادعى[1] ما أمر به على الوجه الأكمل قطعا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به). [2] سواء كان البلاغ للكافرين كما يبينه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(81)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(82)﴾[النحل]، أو للمنافقين وضعاف الإيمان، كما يوضح قوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(53)قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(54)﴾[النور]، أو تعلق بالمؤمنين، كما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(91)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(92)﴾[المائدة]. قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(54)﴾[النور] الذي مر آنفا: (أي: تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحد شكا ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته).[3] وعلى أية حال فإن نبينا ﷺ ليس وحده المطالب بالبيان الكامل والوضوح التام في تبليغ ما يوحى إليه للناس، بل إخوانه الرسل جميعا مكلفون بهذا الواجب. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(35)﴾[النحل].

- وقد نفذ ﷺ هذا الأمر العظيم أكمل تنفيذ وأتمه. فبلغ وذكر ووعظ من تمكن من لقياه من أهل الكتاب، سواء من اليهود الذين كانوا يساكنونه بالمدينة وحولها أو من نصارى نجران -وغيرهم- الذين قدموا إليه وقابلوه. وكتب السيرة شاهدة على ذلك التبليغ وبأحسن أسلوب وأبلغ موعظة.

- وشهد على تبليغه التام لما أنزل عليه خيار هذه الأمة وعدولها من الصحابة المرضيين والصالحين المهديين والعلماء العاملين. فمن ذلك ما رواه البخاري عن مسروق بن الأجدع[4] قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه؟

---

(1) كذا في التفسير المطبوع، وفي النسخة الإلكترونية بصيغة وورد في موقع معهد آل البيت الملكي للتفسير، والظاهر أنه خطأ مطبعي والصواب أدى، والله أعلم.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 281/28.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 544.

(4) هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله الوادعي الهمداني الكوفي. يقال أنه سرق في صغره فلما وجد سمي كذلك. أسلم في حياة النبي ﷺ، وهو من كبار التابعين، إمام قدوة محدث فقيه مفسر. روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة

فقالت: لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث ، من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)﴾[الأنعام]. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الشورى: 51]. ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[لقمان: 34]. ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[المائدة: 67] الآية. ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين.[1] وفي رواية مسلم: (قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية). بل شهد له بالامتثال والتبليغ رب السماوات والأرض في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ(54)﴾[الذاريات].[2] وكما قالت عائشة رضي الله عنها لو كان ﷺ كاتما شيئا مما أنزل إليه عن الناس لكتم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[الأحزاب: 37].[3]

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى لنبيه ﷺ بتبليغ أخبار خاصة

ورد إلى النبي ﷺ في مجال التبليغ ثلاثة أوامر مشتقة من مواد أخرى غير مادة (ب ل غ)، وهي الأمر بالصدع والتلاوة والقول، قصد منها تبليغ أخبار محددة أو توضيحات معينة.

* فالأمر بالصدع جاء في قوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(94)﴾[الحجر].

– أي: فاجهر بدعوة الحق التي أمرك الله بتبليغها لقومك ولسائر الناس ولا تلتفت إلى ما يفعله المشركون ويقولونه.[4]

– ففي هذه الآية أمر إليه ﷺ بالجهر بدعوة الناس إلى دين الحق الذي أنزل عليه، وهو قريب المعنى من الأمر السابق؛ ولذلك قال القرطبي في تفسيرها: (أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك).[1]

رضي الله عنهم، وحدث عنه أبو عامر الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 62هـ. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 384، 102/5؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 4872، ص 1123].

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب، رقم 4855، ص 906؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟، رقم 177، ص 97.

(2) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 139/2.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟، رقم177، ص 97.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 141/14-144؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 382.

- وكان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يدعو الناس ويبلغهم سرا نحوا من ثلاث سنين. قال ابن إسحاق: [2] (ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به. ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادئ الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين -فيما بلغني- من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾...).[3]

- والصدع في اللغة له معان منها الجهر والقطع والتفريق والشق. قال في مجمل اللغة: (وصدعت الفلاة، إذا قطعتها. وصدع بالحق: تكلم به جهارا. والصدع: النبات؛ لأنه يصدع الأرض. والصديع: الفجر. وتصدع القوم: تفرقوا). [4] ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)﴾[الروم]. قال الزجاج: (معناه يتفرقون فيصيرون فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وأصلها يتصدعون). [5] وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12)﴾[الطارق]. قال ابن منظور: (قال ثعلب:[6] هي الأرض تنصدع بالنبات. وتصدعت الأرض بالنبات: تشققت. وانصدع الصبح: انشق عنه الليل).[7]

- وتبعا لتعدد المعاني اللغوية لكلمة (صدع) تعددت أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ﴾. ففسره ابن عباس رضي الله عنه بالمضي تارة، وفعل المأمور تارة أخرى؛ ورأى الطبري أن معناه: فامض وافرق؛ وحكم الزمخشري بأن المراد: اجهر به وأظهره؛ وذهب الرازي إلى أن المقصود منه: فرق بين الحق والباطل .[8] والمتأمل لهذه الأقوال يجدها عائدة إلى معنيين هما

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 260/12.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المديني. إمام علم السيرة ومؤرخ العرب وعالم الحديث إخباري ثقة متبحر في فنه، قيل أنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه. ولد سنة 80هـ بالمدينة المنورة ثم تنقل للطلب إلى الكوفة وبغداد والري والشام. من شيوخه أبوه إسحاق وعمه موسى بن يسار، ومن تلاميذه السفيانان والحمادان وزياد البكائي وغيرهم من أئمة الإسلام، ومن كتبه السيرة النبوية وكتاب الخلفاء. توفي ببغداد سنة 151هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1016، 30/7؛ الزركلي، الأعلام، 28/6].

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، 203/1.

(4) ابن فارس، مجمل اللغة، 552/1.

(5) ابن منظور، لسان العرب، 211/8.

(6) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، الشهير بثعلب. محدث نحوي لغوي راوية للشعر ثقة حجة. ولد في بغداد سنة 200هـ وتنقل في طلب العلم بينها وبين الكوفة. من شيوخه الزبير بن بكار وابن الأعرابي، ومن تلاميذه الأخفش الأصغر وأبو بكر بن الأنباري، ومن مصنفاته الفصيح وقواعد الشعر. مات ببغداد سنة 291هـ. [انظر على سبيل المثال: ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 43، 102/1؛ الزركلي، الأعلام، 267/1].

(7) ابن منظور، 211/8-212.

(8) انظر: الطبري، جامع البيان، 142/14؛ الزمخشري، الكشاف، 419/5-420؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 219/19.

الإظهار والتفريق؛ ولعل ذلك ما جعل البيضاوي يقتصر عليها في تفسيره للآية. قال: (فاجهر به، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا، أو فافرق به بين الحق والباطل، وأصله الإبانة والتمييز).[1] بل إن الزجاج يرى أن الإظهار أيضا يرجع في الحقيقة إلى التفريق. قال الرازي: (وقال الزجاج: فاصدع أظهر ما تؤمر به يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً كقولك صرح بها، وهذا في الحقيقة يرجع أيضاً إلى الشق والتفريق).[2] وهكذا يتضح أن هذه الآراء في تفسير الصدع في هذه الآية متناغمة، وليست متنافرة؛ فيكون المعنى: امض لما أمرت به واجهر بالقرآن المنزل عليك وأظهر الدعوة إلى دينك وما تضمنه من العقائد والشرائع والمواعظ؛ فإن ذلك سيفرق المشركين ويشق وحدتهم فينقسموا إلى مؤمنين وكافرين بعد أن يسمعوا حججك الصادعة التي تفرق بين الحق والباطل.

– وأما قوله سبحانه: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فقال مجاهد: (هو القرآن)، وهو لا يختلف عن قول ابن زيد: (بالقرآن الذي يوحى إليه أن يبلغهم إياه). وقال مجاهد في رواية أخرى: (بالقرآن في الصلاة)، وفي ثالثة قال: (اجهر بالقرآن في الصلاة). وقال الطبري –بعد أن ساق قول ابن زيد وأقوال مجاهد الآنفة–: (معنى الكلام: فاصدع بأمرنا، فقد أمرناك أن تدعو إلى ما بعثناك به من الدين خلقي وأذنا لك في إظهاره). وهو لا يكاد يختلف عن قول الزمخشري: (والمعنى بما تؤمر به من الشرائع). وقول البيضاوي: (أي بما تؤمر به من الشرائع)، وعامة أقوال المفسرين في هذا الموضع –مما اطلعنا عليه– لا تخرج عما نقلناه عن هؤلاء الثلاثة.

وحاصل هذه الأقوال جميعا عائد إلى معنيين:

الأول: الجهر بالقرآن في الصلاة؛ والاقتصار عليه بعيد لما نقلناه –قريبا– عن محمد بن إسحاق. الثاني: الجهر بدعوة الناس إلى الدين الذي أساسه هذا القرآن وما حواه من العقائد والشرائع والشعائر، وتبليغهم ما أمر الله به نبيه ﷺ. وهو الراجح الذي دلت عليه أحداث السيرة النبوية التي جاءت بها الآثار ومنها أثر ابن إسحاق المشار إليه آنفا، كما دلت عليه بقية الآية والآيات الثلاث التي بعدها: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(94)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(95)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97)﴾. ويؤيده قول ابن عاشور: (وما صدق (ما تؤمر) هو الدعوة إلى الإسلام. وقصد شمول الأمر كل ما أمر الرسول ﷺ بتبليغه هو نكتة حذف متعلق (تؤمر)، فلم يصرح بنحو بتبليغه أو بالأمر به أو بالدعوة إليه. وهو إيجاز بديع).[3]

– وقد نفذ النبي ﷺ هذا الأمر على أكمل وجه وأحسنه فجعل يدعو ليلا ونهارا (كل من يلتقي به من الناس، على اختلاف قبائلهم وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، 217/3.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 219/19.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 88/14.

وضعيف، وغني وفقير)، [1] غير مبال بما يلقاه من الصد والكيد والسخرية والأذى. قال ابن عاشور في تفسيره للآية محل الدراسة: (وبنزولها ترك الرسول ﷺ الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدعوة للإسلام جهرا).[2]

* وأمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالإعلان للناس أنه رسول الله إليهم جميعا لا لقبيلة معينة أو جنس محدد. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(158)﴾[الأعراف].

– أي: قل –يا محمد– للبشر: إني مرسل من الله إليكم كلكم، لا إلى بعضكم دون بعض كما كانت الرسل من قبلي، فلا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين عربي وأعجمي، فرسالتي إلى الجميع دون استثناء. والله مرسلي هو مالك السماوات والأرض وما بينهما وما فوق السماوات وما تحت الثرى لا يخرج شيء عن ملكه وتصرفه أبدا، لا معبود بحق إلا هو، وهو الذي يقدر على الإحياء والإماتة مطلقا دون غيره، فآمنوا به وبمبعوثه النبي الذي من صفاته أنه لا يقرأ ولا يكتب، وهو مؤمن بالله الذي يدعوكم إلى الإيمان به، ويؤمن بكتبه المنزلة جميعا التي هي كلامه، واتبعوه في أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه، فإنها وحدها طريقكم إلى الهداية والرشاد والفوز بسعادة الدنيا والآخرة.[3]

–فتضمن مطلع الآية أمرا كريما من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ أن يعلن للعالم أجمع أنه رسول الله إلى البشرية كافة بكل أجناسها وشعوبها وقبائلها وألوانها دون أي استثناء. قال محمد رشيد رضا: (هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى ينبئهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة، لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من اليهود، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:28]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:19]. أي: وأنذر به كل من بلغه من الثقلين، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به، وما في معناها كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(1)﴾[الفرقان]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(107)﴾[الأنبياء]. وهو يشمل عقلاء الجن).[4]

---

(1) علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط7، 1429هـ–2008م، ص 121.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 88/14.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 348/3–350؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 232.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 257/9.

-وفي هذا الأمر الإلهي تشريف عظيم لنبينا ﷺ، إذ بعثه الله إلى البشرية كافة جيلا بعد جيل منذ بعثته ﷺ إلى أن تقوم الساعة. قال ابن كثير: (وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة).[1] قلت: ومع هذا الشرف المؤثل الذي يعظم بمقدار عظمة تلك الأرقام الفلكية الهائلة لمن أرسل إليهم، إلا أن هناك جانبا آخر من الشرف أعظم من هذا وأفخم، وهو أنه ﷺ رسول الملك الأكبر الأعظم الأعز الأقوى الذي لا يبسط سلطانه على مجموع القارات في الأرض فحسب، بل على مجموع السماوات والأرضين وما فيهن ومن فيهن. فإذا استحضرت في نفسك أن عظمة الرسول -أي رسول- من عظمة مرسله، ربما أمكنك أن تتصور مقدار عظمة الرسول محمد ﷺ. ولعل هذا من أسرار وصف الله سبحانه لنفسه الكريمة في هذه الآية بأنه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عقب أمره للنبي ﷺ بإعلان نفسه رسولا للعالم مباشرة. أي أنه رسول ملك الملوك إلى عبيده الأرقاء. لعمري إن هذا لهو المجد الذي تطامنت له الرؤوس، ويئست أن تتشوف إليه النفوس، واستحسرت أن ترنو إليه العيون، وحارت في مداه الظنون.

-وكما أن نبينا ﷺ مرسل إلى البشر جميعا فهو -كذلك- مرسل إلى الجن جميعا، من زمن نزول الوحي عليه إلى قيام الساعة وهذا من كمال شرفه وتمام مجده. قال ابن تيمية: (يجب على الإنسان أن يعلم أن الله -عز وجل- أرسل محمدا ﷺ إلى جميع الثقلين : الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته ... وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب الله -تعالى- كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول . وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة وغيرهم -رضي الله عنهم أجمعين- لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمدا ﷺ إليهم).[2]

-وفي الآية دلالة على أنه ﷺ انفرد بهذا التشريف الكبير دون سائر إخوانه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا. قال النسفي: (بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن).[3] ويؤكد على ذلك قوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة).[4]

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 348/3.

(2) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت728هـ، إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، مكتبة الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض، د ر ط ولا ت ط، ص3.

(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 610/1.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، رقم 438، ص 96؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم 521، ص211.

-وقد نفذ ﷺ هذا الأمر كما أمر وأخبر عن ذلك بنفسه. روى البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ. فقال أبو الدرداء ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: (أما صاحبكم هذا فقد غامر). قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: (هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت : يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت).[1]

* وأمر سبحانه نبيه ﷺ بإخبار المشركين أنه لا يطلب منهم أجرة لقاء تبليغهم رسالة الله إليهم. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(90)﴾[الأنعام].

– أي: قل -أيها النبي- لقومك المشركين الذين كلفتك أن تذكرهم بآياتي: أنا لا أطلب منكم مقابل دعوتي لكم إلى الهدى، وتذكيري إياكم بوجوب اتباع الحق المنزل من عند الله، وتلاوتي القرآن عليكم لتعلموا مراد الله منكم .. لا أطلب منكم مقابل ذلك أجرة آخذها منكم، وإنما هو تذكير لكم ولأمثالكم ممن هم على الباطل لتحذروا غضب الله أن يحل بكم وعقوبته أن تنزل بكم بسبب كفركم وإشراككم به، عسى أن تنتفعوا بتذكيري فتنزجروا وتعملوا بما بلغتكم من الحق المبين.[2]

– فتضمن أمر الله عز اسمه في هذه الآية تكليف نبيه ﷺ بإخبار قومه المشركين أنه لا مطامع له دنيوية -مادية أو معنوية- من وراء تبليغهم أحكام الإسلام ودعوتهم إلى العمل بما في القرآن، بل كل غايته من ذلك أن يعرفوا الحق ويلتزموا به.

-وفي الآية دلالة على عموم رسالته ﷺ إلى البشر جميعا لا إلى جنس دون آخر أو قبيلة دون سواها. قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(28)﴾[سبأ]، بل إلى العالمين كافة إنسهم وجنهم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(107)﴾[الأنبياء]، ولذلك قال الرازي: (وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يدل على أنه ﷺ مبعوث إلى كل أهل الدنيا لا إلى قوم دون قوم. والله أعلم).[3]

-وفيها أيضا بيان لحقيقة القرآن الكريم، فهو كتاب هداية إلى الحق المبين، وإرشاد إلى الطريق المستقيم، ودلالة على سبيل السعادة في الدنيا والآخرة. قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الأعراف: 158]، رقم 4640، ص 841.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 393/9.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 76/13.

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا(9)﴾ [الإسراء]، ولهذا قال ابن كثير: (﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان).[1]

-وفي القرآن نصوص كثيرة مصرحة بأن عدم أخذ الأجرة على تبليغ الدين سنة الأنبياء السابقين أيضا. قال سبحانه على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(29)﴾[هود]، وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50)يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ(51)﴾[هود]، وقال عز وجل في شأن نبيه صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(141)إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ(142)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(143)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(144)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(145)﴾ [الشعراء]. وقال جل شأنه عن نبيه لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ(160)إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ(161)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(162)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(164)﴾ [الشعراء]. وقال تقدست أسماؤه عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(176)إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ(177)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(178)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(179)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(180)﴾[الشعراء].

-وقد شهد من كان منصفا من أقوام الرسل عليهم السلام أنهم لا يسألونهم عوضا دنيويا مقابل ما يبلغونهم من رسالات الله. قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(14)قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(15)قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17)قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18)قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21)﴾[يس]. وشهد الله جل جلاله -وهو خير الشاهدين- أن النبي ﷺ لا يسأل المشركين أجرا على تبليغهم دين الله وإسماعهم كلامه وهدايتهم إلى طريقه، ونفى وقوعه منه. قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104)﴾[يوسف]. قال ابن كثير: (أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه).[2] وأكد تعالى هذه الشهادة لنبيه ﷺ في موضع آخر، فقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(40)﴾[الطور]. قال ابن عاشور في تفسيرها: (وقد فرع قوله : ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(40)﴾على الفعل المستفهم عنه لا على الاستفهام، أي ما سألتهم أجرا

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 216/3.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 280/4.

فيثقل غرمه عليهم ؛ لأن الاستفهام في معنى النفي، والإثقال يتفرع على سؤال الأجر المفروض ؛ لأن مجرد السؤال محرج للمسؤول؛ لأنه بين الإعطاء فهو ثقيل وبين الرد وهو صعب ... والمعنى أنك ما كلفتهم شيئا يعطونه إياك فيكون ذلك سببا لإعراضهم عنك تخلصا من أداء ما يطلب منهم، أي انتفى عذر إعراضهم عن دعوتك).[(1)]

– ولحكمة بالغة تكرر هذا الأمر أربع مرار في القرآن الكريم غير الموضع الذي مر آنفا؛ هي:

•قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا(57)﴾[الفرقان].

وفي هذا الموضع تأكيد لما في الأمر السابق من تكليفه ﷺ بأن يخبر من أرسل إليهم أنه لا يطلب بتبليغهم دين الله الحصول على أموالهم أو الشرف فيهم أو سوى ذلك مما يطلبه أهل الدنيا لأنفسهم لئلا يظنوا به ذلك،[(2)] فربما صار حاجزا بينهم وبين الإيمان بما جاء به خشية فقد أموالهم، بل يطمئنهم أنه ما يطلب إلا هدايتهم إلى صراط الله المستقيم؛ أما الأموال فمن شاء منهم أن ينفق ما عنده منها –أو بعضها– في سبيل الله كالصدقات وصلة الأرحام وغيرها من وجوه الخير تقربا إلى ربه بمحض إرادته فذلك شأنه، وثوابه عائد إليه وحده.

•وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(47)﴾ [سبأ]. أي: قل –يا نبي الله– للمشركين من قومك: ما طلبت منكم من عوض مقابل تبليغكم الإسلام وإسماعكم القرآن فقد تنازلت عنه لكم فخذوه فلا حاجة لي به، والمعنى: قل لهم: إني لم أطلب منكم مقابل التبليغ مالا فتظنوا أن غرضي من دعوتكم أخذ أمولكم، (والمراد نفي السؤال رأسا، وإمحاض النصح كناية؛ لأن ما يسأله السائل يكون له، فجعله للمسؤول عنه، كناية عن أنه لا يسأل أصلا).[(3)] وهو تأكيد لما في الموضعين السابقين من أمره ﷺ بالإعلان للمشركين أنه لا يريد بتبليغهم الدين الحق تحصيل المنافع الدنيوية كالمال والجاه، بل يريد هدايتهم.

•وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ(86)إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(87)وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ(88)﴾[ص]. فهذا الموضع كالذين سبقا في المعنى، فهو أمر للنبي ﷺ أن يصرح للمشركين الذين يدعوهم إلى الإسلام والعمل بما في القرآن أنه لا يريد من وراء تبليغهم كلام الله أجرة ولا شهرة ولا ملكا، وأنه ليس ممن ينتحل ما ليس له أهلا – كما عرفوا من سيرته منذ صغره– فيدعي النبوءة ويتقول القرآن، وإنما هذا الذي جاءهم به من الوحي عظة وتذكير للثقلين جميعا، وأنهم سيدركون صدقه عند موتهم، أو عند انتصار الإسلام وظهور سلطانه وقوته.[(4)]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 27/75-76.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 17/479.

(3) القاسمي، محاسن التأويل، 14/4966.

(4) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 5/35.

•وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23)﴾[الشورى].

وهذا الموضع كالمواضع السابقة في المعنى، إلا ما استثنته الآية من الأجر من المودة في القربى. وقد اختلف المفسرون في معناها هنا. فروي عن الحسن أن معنى ذلك: قل لا أسألكم أيها الناس على ما جئتكم به أجرا إلا أن تتوددوا إلى الله، وتتقربوا إليه بالعمل الصالح والطاعة.[1] وعلى هذا التفسير لا يختلف معنى الأمر هنا عن معناه السابق في آية (الفرقان). بينما يرى ابن عباس رضي الله عنه أن معناها: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. روى البخاري عن طاووس بن كيسان[2] أن ابن عباس سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.[3] وبه قال قتادة ومجاهد والسدي وعطاء بن دينار.[4] وظاهر الآية أن تلك الصلة تكون في حال إسلامهم. وهناك رأي ثالث روي عن ابن عباس أيضا -في رواية أخرى صحت عنه- والضحاك أن المعنى المقصود: إذا رفضتم الإيمان بما جئتكم به فاحفظوا قرابتي فيكم؛ لأنكم أولى من غيركم بنصرتي وحفظي. فعن علي بن طلحة أن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: (يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم).[5] وهذا الرأي لا يختلف عن الذي قبله إلا في استمراره ﷺ بمطالبة قومه بحقه في صلة رحمه حتى وإن لم يؤمنوا بما جاء به. في حين يرى أصحاب الرأي الرابع أن الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يوجه إليهم الخطاب بمضمون الآية هم أتباعه الذين آمنوا به وبما جاء به من الوحي، وأن معنى الآية: قل لمن اتبعك من المؤمنين: لا أطلب منكم على ما جئتكم به أجرا إلا أن تودوا قرابتي. روى الطبري عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 500/20؛ وصحح إسناده حكمت بن بشير بن ياسين، في التفسير الصحيح موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر، المدينة النبوية، ط1، 1420هـ-1999م، 289/4.

(2) هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان اليماني الحميري. من كبار التابعين، مفسر محدث فقيه واعظ زاهد عابد. فارسي الأم، ولد باليمن ونشأ فيها. حدث عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة الخمسين الذين أدركهم رضي الله عنهم، وحدث عنه ابنه عبد الله وعمرو بن دينار ومجاهد بن جبر وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 101هـ بمكة في حجته الأربعين وصلى عليه هشام بن عبد الملك بين الركن والمقام. [انظر مثلا: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الشافعي ت 476هـ، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، د ر ط، 1970م، ص 73؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، طبقات الحفاظ، مراجعة وضبط: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-1983م، رقم 77، ص 41].

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، حديث رقم 4818، ص 897.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 497/20-498؛ البغوي، معالم التنزيل، 190/7-191.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 495/20؛ وحسنه مؤلف التفسير الصحيح، 289/4.

الحسين رضي الله عنهما أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم، وقطع قرني الفتنة، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم).[1] وممن قال بهذا الرأي سعيد بن جبير كما مر قريبا في رواية البخاري، وعمرو بن شعيب [2] وغيرهما.[3] وهذا رأي بعيد في تقديري؛ لشبه ما فيه من مطلب بمطالب الملوك والأمراء الذين يحرصون على توريث الامتيازات من بعدهم لأسرهم، وضمان بقاء الحكم في ذرياتهم؛ وهو أمر ينزه عنه النبي ﷺ، خصوصا وهو يعلن أن مقياس الأولوية به هو التقوى لا النسب. روى ابن حبان في صحيحه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه –معاذ راكب ورسول الله ﷺ تحت راحلته– فلما فرغ قال: (يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، لعلك أن تمر بمسجدي وقبري)، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت ﷺ نحو المدينة فقال: (إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي وإن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا، اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت وأيم الله ليكفؤون أمتي عن دينها كما يكفأ الإناء في البطحاء).[4] والخلاصة أن أرجح رأي في تقديري هو الرأي الثاني؛ لقوة إسناده إلى أصحابه أولا، ولصحبة صاحبه ثانيا، لأن تفسير الصحابي مقدم على تفسير من دونه، ولموافقته لمعنى الآية دون تعسف في تحميلها ما لا تحتمل. ويؤكد هذا قول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش، إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم).[5] ثم علل ترجيحه هذا بقوله: (وإنما قلت: هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول (في) في قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ، ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال: إلا أن تودوا قرابتي، أو تقربوا إلى الله، لم يكن لدخول (في) في الكلام في هذا الموضع وجه معروف، ولكان التنزيل: إلا مودة القربى إن

---

(1) الطبري، جامع البيان، 499/20.

(2) هو أبو إبراهيم عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي. تابعي جليل، محدث مفسر ثقة. روى عن سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان وغيرهم من التابعين، وروى عنه أيوب السختياني وعبيد الله بن عمر وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 118هـ بالطائف. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 675، 13/6؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 4385، 64/22].

(3) الطبري، جامع البيان، 499/20-500؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 466/18؛ البغوي، معالم التنزيل، 190/7-191؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 143/7.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الخوف والتقوى، رقم 647، 414/2-415؛ وقوى إسناده محققه شعيب الأرناؤوط؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، 100/2؛ ورواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، 93/1، وصحح الألباني إسناده في ظلال الجنة (المطبوع معه).

(5) الطبري، جامع البيان، 501/20.

عني به الأمر بمودة قرابة رسول الله ﷺ، أو إلا المودة بالقربى، أو ذا القربى إن عني به التودد والتقرب. وفي دخول (في) في الكلام أوضح الدليل على أن معناه: إلا مودتي في قرابتي منكم، وأن الألف واللام في المودة أدخلتا بدلا من الإضافة، كما قيل: ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41)﴾ [النازعات]. وقوله: (إلا) في هذا الموضع استثناء منقطع. ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجرا، لكن أسألكم المودة في القربى، فالمودة منصوبة على المعنى الذي ذكرت).[1]

* وأمر جل جلاله نبيه ﷺ أن يخبر المشركين أنه لا يرغم أحدا على الدخول في دينه الحق بعد أن جاءهم به؛ بل من اقتنع بالإسلام دخل فيه بمحض إرادته وكان أجر إسلامه له وحده، ومن رفض تحمل مسؤولية قراره وحده عند ربه؛ لأنه ﷺ ليس جبارا مسلطا على الناس يكرههم على ما لا يريدون، بل هو رسول يبلغ ما أرسل به. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ(108)﴾[يونس].

– أي: قل -أيها النبي- يأيها البشر، قد وصل إليكم الدين الحق من عند خالقكم ومالككم المدبر لأموركم، فمن فضل الهداية بقبوله الدخول في الإسلام فإنما نفع قراره ذلك عائد إليه وحده بأن يسعد في الدنيا والآخرة، ومن آثر الغواية ببقائه على الكفر والشرك فضرر قراره ذلك -وهو شقاء الدنيا وعذاب الآخرة- راجع عليه بمفرده. وأما أنا -أي النبي ﷺ- فلم يوكل إلي إحصاء أعمالكم أو محاسبتكم عليها، أو إرغامكم على الإيمان بالله وما أنزل علي من الحق، وإنما أنا مرسل يبلغكم ما أرسل به.[2]

– فتضمنت الآية أمرا من الله تقدست أسماؤه للنبي ﷺ أن يعلن للناس -ومشركي قومه خاصة- أن ما جاءهم به رسوله محمد ﷺ من الدين هو الحق المبين الذي لا مرية فيه، وأنه ﷺ لا يكره أحدا على اعتناقه، ولا يحاسب الناس على أعمالهم، بل يكتفي بعرض حقائق الدين ناصعة كما أنزلت ويدع قرار اعتناقها أو الإعراض عنها للاختيار الحر لكل إنسان. كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ(23)فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(24)إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26)﴾[الغاشية].

– ومضمون هذا الأمر موجه إلى جميع الكفار عبر العالم وعلى مر الأجيال منذ نزلت هذه الآية إلى أن تشرق الشمس من مغربها.[3]

---

(1) الطبري، جامع البيان، 502/20.

(2) انظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 45/2؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 305.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 147/3.

- وفي الآية دليل على أن المسؤولية عند الله مسؤولية فردية فلا يتحمل أحد جريرة غيره، وهذا من كمال عدله. قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(36)وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(37)أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(38)وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(39)وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)﴾[النجم].

- وفي الآية أيضا دليل على أن حجة الله قد قامت على الناس بعد إرسال الرسول محمد ﷺ وإنزال القرآن الكريم عليه، هذا على الإجمال أما على التفصيل فلا شك أن هناك أفرادا كثيرين -بل وشعوبا كثيفة الأعداد- لم تبلغها الرسالة ولم تقم عليها الحجة بسبب البعد عن بلاد المسلمين، والدعاية المغرضة ضد الإسلام، وقيام حاجز اللغة وغيرها، ولكن أكبر هذه الأسباب في تقديري هو تفريط المسلمين عامة والعرب خاصة في واجب تبليغ الرسالة التي شرفهم الله بإنزالها بلغتهم وعلى رجل منهم وفي بلادهم. قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(43)وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(44)﴾[الزخرف].

- وفي الآية حض على اختيار الهداية والاستمساك بالحق، وتحذير من إيثار الضلال والاستمرار على الباطل.[1]

- وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الآية منسوخه بآية القتال، [2] وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(39)﴾[الحج].

-والآية تقرر في وضوح وجلاء أن الله حق وأن الرسول ﷺ حق وأن الإسلام حق وأن القرآن حق.[3]

* وأمر ﷺ بتلاوة أنباء خمس شخصيات محددة من التاريخ البشري القديم على المشركين لما فيها من العظة والعبرة.

• قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(27)لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28)إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(29)فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(30)فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(31)مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(32)﴾[المائدة].

- أي: واقرأ -أيها الرسول- على بني إسرائيل خبر ولدي آدم قابيل وهابيل، وهو خبر حق: حين قدم كل منهما قربانا -وهو ما يتقرب به إلى الله- فتقبل الله قربان هابيل؛ لأنه كان من خير ماله وكانت نفسه به طيبة ، ولم يتقبل قربان قابيل لكونه من

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 179/3.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 183/17، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،61/11.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 517/2.

أردإ ماله وكانت نفسه به متعلقة، فحسد قابيل أخاه وتوعده بالقتل، ورد عليه أخوه بأن الله لا يتقبل إلا من الأتقياء. وأردف هابيل يعظ أخاه: إذا مددت إلي يدك لتقتلني فلن أعاملك بالمثل، لا جبنا أو عجزا، ولكني أخشى الله رب المخلوقات أجمعين. إني أريد أن تتحمل ذنب قتلي وذنوبك السابقة فتصير يوم القيامة من أهل جهنم المستحقين لها، وذلك المصير هو جزاء المعتدين. فزينت لقابيل نفسه أن يقتل أخاه فقتله فغدا خاسرا من الخاسرين إذ باع آخرته بدنياه. وبعد قتله لم يدر ما يصنع بجثته، فأرسل الله غرابا ينبش في الأرض برجليه ومنقاره حتى هيأ حفرة فجر إليها جثة غراب آخر ميت فألقاها فيها ثم أهال عليها التراب –على مرأى منه– ليعلم قابيل كيفية دفن أخيه؛ فتعجب قابيل من عجزه عن مماثلة الغراب قائلا: أعجزت أن أصنع كصنيع هذا الغراب فأستر عورة أخي؟ فدفن أخاه وندم على ما صنع به، فاجتمعت عليه الحسرة والخسارة. ومن أجل جناية القتل هذه شرعنا لبني إسرائيل أن من قتل نفسا بغير موجب من قصاص أو فساد في الأرض يستحق صاحبه القتل شرعا كالردة والحرابة فكأنما قتل جميع البشر من حيث عظم إثمه وعقوبته عند الله، وأن من أنقذ نفسا آدمية معصومة الدم من القتل فكأنه أنقذ جميع البشر من حيث عظم أجره عند الله. ولقد أتت بني إسرائيل رسلنا بالحجج الواضحة على صدق نبوتهم وصحة ما دعوهم إليه من الإيمان والعمل الصالح ثم إن كثيرا منهم بعد مجيء الرسل وقيام الدليل يتجاوزون حدود الله بترك أوامره وفعل مناهيه.[1]

– فتضمن صدر هذه الآيات أمرا للنبي ﷺ بقراءة قصة أول جريمة قتل في التاريخ البشري على اليهود، وتحديدا على يهود بني النظير الذين حاولوا في تلك الأيام اغتيال النبي ﷺ؛ لأن في ذلك درسا بليغا لهم. قال أبو بكر الجزائري:[2] (فالله تعالى يقول لرسوله واقرأ عليهم قصة ابني آدم هابيل وقابيل ليعلموا بذلك عاقبة جريمة القتل الذي هموا به، توبيخا لهم، وإظهارا لموقفك الشريف منهم حيث عفوت عنهم فلم تقتلهم بعد تمكنك منهم، وكنت معهم كخير ابني آدم).[3] ولا شك أن هذا الدرس إذا

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 347/8-358؛ الزمخشري، الكشاف، 224/2-228؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 112-113؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 620/1-621.

(2) هو أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر الجزائري. ولد سنة 1921م في قرية ليوه القريبة من مدينة بسكرة، وفيها نشأ وحفظ القرآن الكريم وعددا من المتون في اللغة والفقه ثم انتقل إلى بسكرة حيث واصل دراسته حتى تأهل للتدريس، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة وعمل مع جمعية العلماء المسلمين، وأصدر مجلة الداعي واللواء. ارتحل الشيخ عقب ذلك رفقة أسرته إلى المدينة المنورة، وفي المسجد النبوي استأنف تلقي العلم في حلقات المشايخ والعلماء حتى حصل على إجازة من رئاسة القضاء بمكة للتدريس في المسجد النبوي. انتقل بعد مدة للتعليم في بعض المدارس التابعة لوزارة المعارف، ثم في دار الحديث. ولما فتحت الجامعة الإسلامية سنة 1380هـ كان من أوائل الأساتذة المدرسين فيها، وظل كذلك حتى أحيل إلى التقاعد سنة 1406هـ فاستأنف نشاطه في الوعظ والتوجيه بمسجد النبي ﷺ. للشيخ مؤلفات كثيرة، منها عقيدة المؤمن ومنهاج المسلم. توفي يوم 15 أوت 2018م ودفن بالمدينة المنورة. [انظر مثلا: عدنان درويش جلون، وعمر حسن فلاتة، وعبد الوهاب محمد زمان، معلمو المسجد النبوي الشريف، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط1، 1437هـ-2016م، ص 162].

(3) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 620/1.

تلي عليهم سينقلونه هم وغيرهم فيسمعه سواهم من اليهود والمشركين من الناس، وفي ذلك تبليغ لمضمون ذلك الدرس العظيم من قبل النبي ﷺ وعسى أن يفتح ذلك عيونا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا. قال ابن عاشور: (وشأن القصص المفتتحة بقوله : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة).[1]

– وتضمن المأمور به بيانا لمشروعية التقرب إلى الله بما شرع [2] منذ الجيل الأول للبشر، واستمر في شرائع الأنبياء بعد ذلك كما تقرب إبراهيم ﷺ بالكبش فدية لابنه اسماعيل كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)﴾[الصافات] وصولا إلى شرع نبينا ﷺ الذي قال: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه).[3] قال الطبري: (وكانت قرابين الأمم الماضية قبل أمتنا كالصدقات والزكوات فينا، غير أن قرابينهم كان يعلم المتقبل منها وغير المتقبل –فيما ذكر – بأكل النار ما تقبل منها وترك النار ما لم يتقبل منها. والقربان في أمتنا: الأعمال الصالحة: من الصلاة، والصيام، والصدقة على أهل المسكنة، وأداء الزكاة المفروضة، ولا سبيل لها إلى العلم في عاجل بالمتقبل منها والمردود).[4]

– وفي الآيات دليل على قبح خلق الحسد وسوء أثره على الحاسد والمحسود. [5] وبيان لعظم وزر من قتل نفسا آدمية بغير موجب شرعي، وعظم أجر من أنقذها من هلاك، كالغرق أو الاحتراق أو الاختناق أو الهدم أو عدوان ظالم، أو افتراس وحش أو سواها من أسباب الهلاك.

– وفيها أيضا بيان لأهم شروط قبول العمل الصالح وهي الإيمان والتقوى.[6] ودليل على شناعة الظلم ووخامة عواقبه في الدنيا والآخرة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 173/9.

(2) انظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 621/1.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم 6502، ص 1185، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) الطبري، جامع البيان، 327/8.

(5) انظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 621/1.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 225/2.

– وتضمنت الآيات بيان أول من سن في البشرية جريمة القتل؛ وقد أوضح النبي ﷺ أنه يتحمل –إضافة إلى إثمه– نصيبا من إثم كل قتل بغير حق يقع على ظهر الأرض إلى يوم القيامة. قال النبي ﷺ: (لا تقتل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل).[1]

– وفي الآيات دلالة على قدم الخير والشر في البشرية، وأن التربية لا تنفرد وحدها بتشكيل شخصية الإنسان، بل الطبع أيضا له دوره في تحديد توجهها ورسم معالمها.

– وفي الآيات بيان لمشروعية الدفن،[2] وقدم تاريخه وكيفية تعلمه أول مرة، ودليل على أن الفاضل يمكن أن يتعلم من المفضول، وأنه يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، وبرهان على أن العاقل ينبغي ألا يستخف بمن دونه.

• وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(176)سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ(177)﴾[الأعراف].

– أي: واقرأ – أيها الرسول– على المشركين خبر الرجل الذي علمناه آياتنا المنزلة على رسلنا، فتركها ولم يلتفت إليها، فأتبعه الشيطان خطواته، وتسلط عليه بإضلاله وإغوائه، فصار في زمرة الضالين. ولو شئنا أن نرفعه إلى مراتب الصالحين الأبرار لرفعناه إليها، بأن نوفقه للعمل بما علمناه، ولكنه ركن إلى الحياة الدنيا وآثرها وتثاقل عن الحق والهدى، واتبع الهوى، فصار حاله في قلقه المستمر على الدنيا، وانشغاله بحطامها، وحرصه الدائم في جمعها كحال الكلب إذا لهث، لسانه مندلع، وهو لاهث سواء زجرته أو ودعته. وكذلك الحريص على الدنيا الساعي لتحصيلها لا يزال يلهث وراء متعه وشهواته. فتلك الحال التي تلبس بها الذي عري من آياتنا، هي حال كل الذين أنكروا آياتنا المنزلة ولم يصدقوا بها، فاقصص على قومك أخباره عسى أن يتفكروا فيؤمنوا. قبحت حال الجاحدين لآياتنا المكذبين بها، وما ظلموا بهذا الجحود والتكذيب إلا أنفسهم.[3]

– افتتحت هذه الآيات بأمر للنبي ﷺ أن يتلو على المشركين –وقيل على اليهود– [4] خبر ذلك العالم الذي آتاه الله علما عظيما بدينه فلم ينتفع به ولم يرفع به رأسا، بل زهد فيه وتركه فاستحوذ عليه الشيطان واستدرجه خطوة خطوة حتى ضل

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم 3335، ص 609؛ ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل، رقم 1677، ص 694، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(2) انظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 621/1 .

(3) انظر: لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 235-236.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 531/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 42/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 173.

وغوى. قال ابن عاشور: (ومناسبة فعل التلاوة لهم أنهم كانوا قوما تغلب عليهم الأمية فأراد الله أن يبلغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة، فالضمير المجرور بـ على عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون).[1]

- واختلفت أقوال المفسرين في تعيين ذلك المنسلخ من آيات الله بعد أن أوتيها، فقال كثير منهم هو بلعام بن باعور، ومن هؤلاء ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والسدي والزمخشري والسيوطي وغيرهم. وقد وصف القرطبي هذا القول بأنه هو الأ شهر، وقال: وعليه الأكثر. وأصحاب هذا الرأي منهم من ينسبه إلى الكنعانيين المعروفين بالجبارين وهم سكان فلسطين زمن موسى ﷺ، ومنهم من يقول إنه أحد علماء بني إسرائيل. [2] وفي تقديري أن هذا الرأي بعيد بسبب اختلاف القائلين به واضطرابهم في تفاصيل القصة التي يوردونها، بل وكون بعض تلك التفاصيل غير معقول. إضافة إلى أن التوراة –وهي مصدر قصته على الراجح– لا تذكر عنه ما ينسبون إليه من الانسلاخ من آيات الله والكفر بعد الإيمان؛ بل تصفه بالثبات على دينه رغم الإغراء الذي تعرض له ليخالف أوامر الله له. [3] ولذلك قال ابن عاشور: (والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحي أهل مدين وعرافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على أرض موآب ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح، وذلك مذكور في سفر العدد من التوراة في الإصحاحات 22، 23، 24. فلا ينبغي الالتفات إلى هذا القول لاضطرابه واختلاطه).[4]

بينما يرى سعيد بن المسيب [5] أنه أبو عامر عبد عمرو الأوسي، الذي لقب في الجاهلية بالراهب، والذي لقبه النبي ﷺ بالفاسق.[6] وفي تقديري أن هذا القول أيضا ضعيف؛ لأن أبا عامر لم ينسلخ مما كان يمليه عليه علمه من الإيمان بالنبي ﷺ ومن الحنيفية التي كان يدعيها إلا في المرحلة المدنية من الدعوة الإسلامية. أي حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ولقيه فيها؛ لأنه كان من أهلها. بينما سورة الأعراف –التي منها الآيات محل الدراسة– مكية، وهي تتحدث عن ذلك النبإ بصيغة الماضي.

وقيل: هو عام يشمل كل من تلبس بالنفاق أو رفض الهدى بعد أن عرض عليه. وهو قول كثير من المفسرين أيضا، منهم قتادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 174/9.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 175/10، 572؛ الزمخشري، الكشاف، 531/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 57/15؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 383/9، 385؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 173.

(3) انظر: الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، د بقية المعلومات، ص 249-254.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 175/9.

(5) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن أبي عائذ القرشي. تابعي جليل، عالم المدينة، فقيه مفسر مفت محدث ثقة عابد زاهد. ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر رضي الله عنه. روى عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وصهره أبي هريرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عنه ابن شهاب الزهري وعمران بن عبد الله وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 94هـ بالمدينة. [انظر على سبيل المثال: أبو الحسن الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 57؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 455، 215/5].

(6) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 58/15؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 23/3.

وعكرمة وأبو مسلم وأبو منصور الماتوريدي ورشيد رضا وغيرهم. [1] وهو رأي مستبعد أيضا في تقديري؛ لأن التعبير عن ذلك المنسلخ من الآيات باسم الموصول المفرد يدل على أن صاحب الصلة شخص محدد وأن مضمون الصلة حال من أحواله الخاصة به أو المعروفة عنه، لا وصف مجرد يمكن أن ينطبق على أي كان.[2]

وقال آخرون هو أمية بن أبي الصلت الثقفي. ومن هؤلاء عبد الله بن عمرو، و عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب -في رواية أخرى- وزيد بن أسلم وغيرهم.[3] وهذا هو الرأي الراجح في تقديري؛ لأن النبأ المذكور في الآية ينطبق على حاله وواقعه، ولأن للمشركين -قوم النبي ﷺ- إلمام بمجمل خبره في تلك الفترة. ويقوي هذا الرأي ما رواه مسلم في صحيحه عن عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال: (هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئا؟) قلت: نعم، قال: (هيه)، فأنشدته بيتا، فقال: (هيه)، ثم أنشدته بيتا، فقال: (هيه)، حتى أنشدته مائة بيت. زاد في رواية: قال ﷺ: (إن كاد ليسلم)، وفي حديث ابن مهدي: قال ﷺ: (فلقد كاد يسلم في شعره). [4] قال النووي معلقا على هذا الحديث: (ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية، واستزاد من إنشاده، لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث). [5] ورغم هذا العلم الذي جعل النبي ﷺ يستحسن سماع مائة بيت كاملة من شعره المتضمن لحقائق التوحيد واعترافه بالبعث والنشور، إلا أنه لم يؤمن بنبوة نبينا ﷺ حسدا منه ألا يكون هو ذلك النبي كما كان يرجو منذ علم من أهل الكتاب وكتبهم أن نبيا سيبعث وقد أظل زمانه.[6]

- وفي هذه الآيات حث لمن تعلم أن يعمل بما علم؛ لأن في ذلك سمو للمتعلم في الدنيا والدين، وحفظ له من الشيطان أن يستحوذ عليه، وترهيب من ترك العمل بالعلم؛ إذ هو علامة على هبوط الهمة وسقوط الأخلاق، وسبيل للشيطان ليتسلط على المتصف بذلك. [7] وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة والآثار على أن العلم مسؤولية على صاحبه، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(15)﴾[الإسراء].

---

(1) الماتوريدي، تأويلات أهل السنة، 89/13؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 58/15.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 174/9.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 58/15؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 361/3.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، رقم 2255، ص 927، من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه.

(5) النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص 1675.

(6) انظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت 276هـ، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط2، 1377هـ-1958م، 459/1.

(7) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 286.

– وفيها بيان لحقيقة مهمة وهي أن العلم لا ينفع صاحبه إذا جانبه التوفيق الإلهي، وأن تحقيق الأسباب لآثارها مرهون بمشيئة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30)﴾[الإنسان].

– وفي الآيات –أيضا– دلالة على أن ركون العبد إلى الدنيا وانسياقه وراء شهواته وأهوائه سبب من أعظم أسباب خذلانه من قبل الله عز وجل ووكوله إلى نفسه.[1] بينما المؤمن –خصوصا في حالات كربه– يسأل ربه ألا يكله إلى نفسه طرفة عين. قال النبي ﷺ: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت).[2]

– وفي مضمون هذا الأمر دليل على أن القصص الصحيح من أخبار الماضين –مسلمين أو كافرين– المشتمل على المعاني الحسنة والأهداف التعليمية والتربوية والعبر المؤثرة وسيلة من أهم وسائل الوعظ والتوجيه والتذكير إذا أحسن الواعظ انتقاءها وتوظيفها.

• وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)﴾[يونس].

– أي: واقرأ –أيها الرسول– على الناس عامة وعلى أهل مكة خاصة خبر رسول الله نوح لما أحس كراهية قومه له ولرسالته، فقال لهم: يا قوم إن كان وجود ي فيكم لتبليغ رسالة الله إليكم، ووعظي لكم بحججه الدالة على وحدانيته وبراهينه الموجبة لعبادته قد شق عليكم، فإني مستمر في دعوتي، معتمد على الله في أمري كله، فا عزموا أمركم مستعينين بشركائكم في تدبير ما تقررونه ضدي، ولتكونوا واضحين تماما في عداوتكم لي وقراراتكم ضدي لألا تترددوا، ولا تتأخروا لحظة في تنفيذ ما أعددتم لي من ضرر وشر، إن كنتم قادرين عليه.

وإن دمتم منصرفين عن تذكيري، فإن ذلك لن يضرني؛ لأني ما قصدت أن أنال عليه أجرة فأخشى عليه ا لفوات إن أعرضتم. وإنما أطلب ثوابي عليه من الله وحده ، وقد أمرني سبحانه أن أكون مسلما له منقادا في كل أم وري. فأصروا على تكذيبه وعدا وته –رغم إقامته الحجة على صدق دعوته– فنجاه الله ومن تبعه من المؤمنين به، الراكبين معه في

---

(1) انظر: المصدر السابق نفسه.

(2) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح؟، رقم 5090، ص 763؛ والبخاري في الأدب المفرد، باب الدعاء عند الكرب، رقم 701، ص 242؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الأدعية، باب الأدعية، رقم 966، 295/2؛ وحسنه الألباني في التعليقات الحسان، رقم 966، 295/2.

السفينة التي صنعها بأمره تعالى ، وجعلهم عمارا للأرض بعد هلاك الكافرين الذين غرقوا بفعل الطوفان. فتأمل - أيها النبي- بعين بصيرتك النهاية السيئة للمستخفين بالنذر المرسلين إليهم من عند الله.(1)

- فتضمن مطلع هذه الآيات أمرا ربانيا للنبي ﷺ بتلاوة قصة نوح ﷺ على قريش -وعلى الناس عموما-؛ لأن في قصته عبرة لجميع المكذبين برسل الله، المستهزئين بما يحملون إليهم من رسالات. قال الخازن معللا أمر الله عز اسمه لنبيه ﷺ بتلاوة نبإ نوح على المشركين: (ليكون في ذلك لرسول الله ﷺ أسوة بمن سلف من الأنبياء ، وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه ، وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم إلى الإيمان. ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش).(2)

- وفي المأمور به أيضا لفت لأنظار المشركين إلى سعة ما أوتيه النبي ﷺ من علم بأخبار الأمم الماضية وما جرى لها من أحداث وما جرى عليها من أقدار الله رغم أميته ﷺ، وفي ذلك إظهار لمعجزة من معجزاته وتنويه بمكانته عند ربه جل وعز. قال أبو حيان: (وليعلم المتلو عليهم هذا القصص عاقبة من كذب الأنبياء، وما منح الله نبيه من العلم بهذا القصص وهو لم يطالع كتابا ولا صحب عالما، وأنها طبق ما أخبر به. فدل ذلك على أن الله أوحاه إليه وأعلمه به، وأنه نبي لا شك فيه).(3)

- ونصت الآيات بكل وضوح أن الأنبياء -عليهم السلام- لا يطلبون أجورا على العمل الدعوي الذي يقومون به، لا من المشركين المدعوين إلى الإسلام، ولا ممن أسلموا وصاروا أتباعا لهم، مع أن هؤلاء لو سألوهم لأعطوهم؛ لأنهم يعتبرون طاعتهم طاعة لله، ولكنهم -لكمال إخلاصهم وتمام رغبتهم في الآخرة وزهدهم في الدنيا- لا يريدون ثوابا إلا من عند الله جل شأنه. وفي ذلك درس عظيم للدعاة إلى الله ليتأسوا بهم فيخلصوا في دعوتهم إلى الله، ولا ينتظروا من مخلوق جزاء ولا شكورا.

- وتضمنت الآيات أيضا تنويها بشجاعة نوح ﷺ في تبليغ رسالة ربه، وبيانا لسببها الرئيسي وهو كمال توكله على ربه سبحانه. فهو يتحدى جميع مشركي قومه -مع كثرتهم وقوتهم وعداوتهم له، وقلة المؤمنين معه- أن يلحقوا به ما يشاؤون من صنوف الأذى بعد أن يحكموا التدبير والتخطيط القائمين على التعاون التام فيما بينهم وإشراك آلهتهم المزعومة لتمدهم بالقوة والتوفيق. وفي هذا درس بليغ لكل داعية ليتحلى بالشجاعة المستندة إلى التوكل على الله وحده؛ لأن طريق الدعوة مفروش بالأشواك والأحساك، مملوء بالجنادل والعقبات، لا يقوى على السير فيه الجبان الرعديد، ولا تكفي فيه الشجاعة وحدها مهما بلغت؛ لأن الداعية لا يواجه في الميدان عدوا واحدا ولا مقاومة بسيطة ولا قوة فردية، وإنما يهدف نفسه لسهام شتى، ومكائد لا حصر لها، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)﴾ [إبراهيم]؛ ولذلك لا بد له من قوة قاهرة يأوي إليها فتفشل تلك

---

(1) انظر: المراغي، تفسير المراغي، 137/11-138؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 298-299.

(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 454/2.

(3) أبو حيان، البحر المحيط، 176/5.

المكائد كلها وتقهر أولئك المناوئين طرا، ولن يجدها إلا عند من يدعوا إليه ويعمل لوجهه ويعلم أن من أسمائه الوكيل. ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)﴾[آل عمران].

– ودلت الآيات على أن العاقبة دائما للحق وأهله، أي للرسل وأتباعهم، وأن الباطل –وإن طفا أحيانا كما تطفو الجيفة على الماء، وكان أتباعه كثرة، وعلا صياحه فترة– فهو إلى زوال؛ وإنما ظهوره في بعض الأوقات –خصوصا في البدايات– لتمحيص الصفوف حتى لا يتعلق بالحق غير أهله، وليعلم الله الصابرين والصادقين من غيرهم. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81)﴾[الإسراء].

– وفي الآيات بشارة للنبي ﷺ وأصحابه –الذين كانوا يوم نزولها قلة مستضعفة مضطهدة– بأنهم سينتصرون، وأن المستقبل لهم ولدينهم، وأن عقوبة الكافرين قادمة يقينا إن لم يؤمنوا.

• وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(69)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(70)قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(71)قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(72)أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(73)قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(74)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82)رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ(84)وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ(85)وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ(86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ(87)يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89)﴾[الشعراء].

– أي: واقرأ –يا محمد– على قومك خبر نبي الله إبراهيم ﷺ حين سأل أباه وعشيرته قائلا: أي شيء هذا الذي تعبدون؟ فأجابوه متباهين: نعبد أصناما فنقيم طول النهار على عبادتها وخدمتها تعظيما لشأنها. فسألهم ثانية –منبها إياهم إلى فساد مذهبهم–: هل يقدرون على سماع أدعيتكم فيستجيبون لكم؟ وهل يسدون إليكم نفعا إن خدمتموهم وأطعتموهم؟ أو يلحقون بكم الضرر إن تركتم عبادتهم وعصيتموهم؟ إذ أن هذه هي غاية كل عابد من معبوده. والمعنى: كيف تعبدون ما لا يسمع دعاءكم؟ ولا يقدر على نفعكم ولا على ضركم؟ فأجابوه: إنما نعبدهم تقليدا لآبائنا وأجدادنا الذين ألفيناهم يعبدونهم. فرد عليهم: إن معبوداتكم ومعبودات آبائكم وأجدادكم هذه أعداء لي، فلا أعبده ا، فليكيدوني وليضروني إن استطاعوا . لكن خالق العالمين ومالك أمرهم و مدبر شؤونهم، المنفرد بالخلق والهداية لمصالح الدنيا والآخرة، هو الذي أعبده. الذي أوجدني من العدم، ويرشدني إلى طريق الحق. وهو الذي يرزقني الطعام والشراب لىحفظ حياتي. وإذا نزل بي سقم من الأسقام فهو الذي يشفيني منه بتيسير أسباب الشفاء، والذي يميتني إذا حان أجلي ويبعثني حيا يوم النشور، والذي أطمع أن يستر ما بدر مني في الحياة الدنيا من زلات إذا آن أوان مجازاة الناس على أعمالهم.ولهذا فهو الجدير وحده بالعبادة دون آلهتكم وأمثالها فإنها لا تقدر على شيء من هذا ولا غيره. وختم رده عليهم يدعو قائلا: رب امنحني علما كثيرا، لأعرف حلالك وحرامك، وأحكم بين

عبادك، وضمني إلى زمرة الصالحين، واجعل لي ثناء طيبا وذكرا جميلا في الأجيال التي تأتي من بعدي إلى آخر الدهر، واجعلني من عبادك الذين ينالون نعيم الجنة جزاء إيمانهم بك وعبادتهم لك، واجعل أبي أهلا للمغفرة بإخراجه من الضلال الذي هو فيه وهدايته إلى الإسلام. ولا تلحق بي هوانا يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء، ذلك اليوم الذي لا ينفع أحدا ماله فيبذله، ولا بنوه فينصرونه، إلا من جاء ربه بقلب سالم من أمراض الكفر والشرك والنفاق.[1]

– فتضمن صدر الآية الأولى أمرا إلهيا كريما إلى النبي ﷺ أن يقرأ على قومه المشركين خبر إبراهيم ﷺ وما فيه من إنكاره للشرك على أبيه وقومه الوثنيين، وإقامته الحجة على ضلالهم، وبطلان دينهم، وعجز آلهتهم؛ لأن في ذلك برهان على ضلال قريش وفساد ملتهم، خصوصا وهم يفاخرون بأنهم من ذرية إبراهيم ويدعون أنهم على دينه. قال القرطبي: (نبه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم ... أي اقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون . وإنما قال ذلك ملزما لهم الحجة).[2]

– وفي الآيات تقرير لنبوة نبينا محمد ﷺ،[3] وإثبات لها لما في المأمور به من إعجاز. قال ابن عاشور: (وإنما أمر الرسول ﷺ بتلاوته للإشارة إلى أن الكلام المتضمن نبأ إبراهيم هو آية معجزة، وما تضمنته من دليل العقل على انتفاء إلهية الأصنام التي هي كأصنام العرب آية أيضاً. فحصل من مجموع ذلك آيتان دالتان على صدق الرسول).[4]

–وفي تضاعيف هذا الأمر –أيضا– درس لأتباع نبينا ﷺ في زمانه وبعده يتضمن نموذجا ممتازا للشجاعة في مواجهة الباطل وأنصاره، والبراءة من الشرك وأهله، وتوحيد الله والإخلاص له وحسن الثناء عليه، وإنكار المنكر بالحجة والدليل. قال ابن كثير: (هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله).[5]

–وفي المأمور به بيان بأن كل من اتخذ لنفسه إلها من دون الله يعبده فإن معبوده سيصير عدوا له يوم القيامة.[6] قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا(81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا(82)﴾ [مريم].

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 17/589–595؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 24/141–150؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 563–564؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 548–550.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 16/35.

(3) الجزائري، أيسر التفاسير، 3/657.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 19/137–138.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/106.

(6) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 3/657.

- ودل دعاء إبراهيم ﷺ ربه سبحانه بعد ثنائه عليه على استحباب الثناء على الله قبل دعائه، وهو أمر مشروع عندنا ثابت من فعل نبينا ﷺ. قال النووي: (أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعا ء بالحمد لله تعالى، والثناء عليه، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ، وكذلك يختم الدعاء بهما؛ والآثار في هذا الباب كثيرة معروفة).[1] ومن الأدلة على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (عجل هذا)، ثم دعاه فقال له أو لغيره: (إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه جل وعز والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء).[2] ولعل ذلك ما دفع الرازي إلى القول: (اعلم أن الله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات).[3]

-وفي الآيات أيضا دلالة على أن المحاورة من أنجح الطرق في الدعوة إلى الحق، [4] وإقناع المخطئ بالصواب، ومواجهة الأفكار المنحرفة، إضافة إلى كونها أسلوبا راقيا في التعامل مع المخالف يدل على رقي المحاور وعلو مستواه، وذلك مما يعينه على استمالة النفوس لقبول فكرته أو اعتبارها جديرة بالتأمل على الأقل.

- وقد طبق النبي ﷺ تلكم الأوامر الصادرة إليه بالتبليغ أتم تطبيق وأحسنه، وظل يبلغ حتى آخر لحظات حياته المباركة. قال أنس رضي الله عنه: (كانت عامة وصية رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يغرغر بها في صدره وما يكاد يفيض بها لسانه).[5]

وخلاصة هذا المبحث:

---

(1) النووي، الأذكار، باب استفتاح الدعاء بالحمد لله تعالى والصلاة على النبي ﷺ، ص 153.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم 1481، ص 229؛ والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب، رقم 3477، ص 790؛ والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، رقم 1284، ص 208-209؛ وأحمد في مسند، رقم 24434، ص 1779؛ والحاكم في مستدركه، كتاب الصلاة، رقم 989، 355/1، وصححه؛ ووافقه الذهبي؛ وأقرهما الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ ص 182.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 147/24.

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 657/3 .

(5) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب وفاة النبي ﷺ، ذكر ما كان يقول النبي ﷺ في مرضه، رقم 7057، 387/6؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ؟ رقم 2697، ص 458؛ وأحمد في مسنده، رقم 12193، ص 837؛ واللفظ لأحمد؛ وصححه الألباني في تخريجه لكتاب فقه السيرة، تأليف: محمد الغزالي ت 1996هـ، دار القلم، دمشق، دار الهناء الجديدة، برج الكيفان، الجزائر، د ر ط ولا ت ط، ص 466.

- أن النبي ﷺ أمر **بالتبليغ** الذي هو مهمته الرئيسية، والتي بدأت منذ نزول صدر سورة المدثر في بداية بعثته، واستمرت تشغل باله وتهيمن على نشاطه حتى آخر لحظات حياته.[1]

- وأمر **بالصدع** بما يكلف به، فرفع غطاء السرية عن المهمة الربانية التي أوكلت إليه، وجاهر الناس بالوحي الذي ينزل عليه. فكان هذا الأمر مفصلا بارزا بين زمن التبليغ سرا وما يقتضيه من الخفاء والحذر والحيطة، وزمن التبليغ علانية وما يوفره من حرية أكبر في الحركة، ونشاط أوسع في العمل، وخطورة أشد عليه ﷺ من أعداء الدين الجديد. وأمر **أن يوجه نداء** عالميا إلى البشر جميعا يعلمهم أنه رسول الله –صانع الكون ومالكه ومديره– إليهم يبلغهم مراده منهم، ويحمل إليهم الهداية والحق، ويدلهم على طريق السعادة الدنيوية والأخروية؛ **وأن يخبرهم** أنه لا يأخذ منهم على ذلك مقابلا دنيويا مطلقا، **وأنه لا يرغم أحدا** على الإيمان بما جاء به.

- ثم أمر ﷺ **أن يتلو** على مسامع الناس أنباء خمس شخصيات تاريخية عالمية، لما في سيرها من العبر النافعة والدروس المؤثرة المفيدة التي لا تبلى مع التقادم. فإحداها تمثل الأبرياء المظلومين المغدورين على امتداد التاريخ، والثانية تمثل أهل الإجرام والعنف والفساد والحسد والأنانية على مر الزمن، والثالثة هي شخصية أول رسول من الله إلى العالم، والرابعة هي شخصية جمعت بين النبوة والرسالة والخلة واجتمع أهل الأديان السماوية على الاعتراف بها، والخامسة هي شخصية تمثل العالم الذي لا دين له، فلم ينفعه علمه وصار حجة عليه لا له.

- وأن مضامين هذه الأوامر تمثل **الخطوط العريضة لوظيفته الكبرى** بوصفه رسولا من الله مبلغا للثقلين مراد ربهم منهم.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الدعوة

الدعوة إلى الله هي حض الناس على الدخول في دينه، والعمل بما جاء فيه، واستمالة قلوبهم إليه، بعرض محاسنه وبيان منافعه، إنقاذا لمن استجاب من ظلمات الكفر وعواقبه، وإقامة للحجة على من أبى، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]. وهي أحد أركان رسالة الرسول ﷺ، بل هي (أقدس واجب) [2] عليه بعد التبليغ. فما هي الأوامر

(1) وقد تضمن حذف متعلق فعل الأمر (بلغ) من آية التبليغ المشار إليها فائدة مهمة وهي تعميم المبلغ ليشمل كل ما أنزل من الوحي وتعميم المبلغ إليه ليشمل أمة الدعوة قاطبة. قال ابن عاشور: (ولما كان نزول الشريعة مقصودا به عمل الأمة بها ... كان معنى الرسالة إبلاغ ما أنزل إلى من يراد علمه به وهو الأمة كلها، ولأجل هذا حذف متعلق ﴿بَلِّغْ﴾ لقصد العموم، أي بلغ ما أنزل إليك جميع من يحتاج إلى معرفته، وهو جميع الأمة، إذ لا يدرى وقت ظهور حاجة بعض الأمة إلى بعض الأحكام، على أن كثيرا من الأحكام يحتاجها جميع الأمة). التحرير والتنوير، 258/6.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 144/19.

الواردة إلى النبي ﷺ في هذا المجال؟ وما هو الموقف المطلوب منه تجاه المستجيبين له؟ وماذا ينبغي عليه حيال المعرضين عنه؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة في هذا المبحث من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ودينه

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ بتبشير المستجيبين له

المطلب الثالث: أوامر الله إلى النبي ﷺ بإنذار المعرضين عنه

المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ودينه

من أبرز الأوصاف الكريمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في كتابه، وهو ينوه برفعة شأنه ويحدد له أركان رسالته، وصف الداعي إلى الله. قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46)﴾[الأحزاب]. والداعي إلى الله هو من يدعو الناس إلى معرفة الله معرفة صحيحة، وعبادته وحده دون سواه، وترك الاعتراف بغيره إلها أيا كان، واتباع أوامره، والعمل لإرضائه، والاستعداد للقائه.[1] فهل أمر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله؟ وما الأساليب التي أمر باتباعها فيها؟ وما خصائصها؟ وما موقفه من دعوة من سبقه من الرسل؟ في هذا المطلب محاولة للإجابة على هذه الأسئلة.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125)﴾[النحل].

– أي: ادع –أيها الرسول– إلى طريق الحق –الذي هو الإسلام– بالطريقة الحكيمة الصحيحة التي بينها الله لك في القرآن الكريم، وعظ الناس بالأسلوب المناسب المشتمل على النصح النافع والتذكير الحسن، ترغيبا لهم في الخير وصرفا لهم عن السوء، وجادل من جادلك منهم بأجمل كيفيات الجدال المتسمة بالرفق واللطف دون غلظة أو تعنيف، لتتمكن من استمالتهم إلى الحق وإقناعهم به. ليس عليك إلا ذلك؛ أما غيهم ورشدهم فبيد الله وحده، وهو أعلم بمن حاد عن طريقه، وأعلم بمن هو مهتد.[2]

– فتضمن صدر الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بالدعوة إلى سبيل الله جل شأنه، الذي هو دينه العظيم وشرعه القويم وصراطه المستقيم الذي ارتضاه لعباده المؤمنين به.

---

(1) انظر: المصدر السابق، 54/22.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 485/3؛ مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص 281؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 407.

– وبين سبحانه في هذه الآية ثلاث طرق للتعامل مع المدعوين إلى الإسلام عاطفا بعضها على بعض، فدل ذلك على أنها طرق متغايرة متباينة، [1] ومقتضى ذلك أن النبي ﷺ إذا دعا الناس بغير القرآن إنما يسلك معهم إحداها بحسب ما يقتضيه المقام.[2] وفي هذا درس في غاية الأهمية لكل داعية إلى الإسلام أن يسلك مع كل فئة من المدعوين وكل بيئة ما يناسبها.[3]

– **والحكمة** لغة مأخوذة من حكمة الدابة، وهي حديدة في اللجام تكون على أنفها وحنكها تمكن صاحبها من التحكم فيها؛ أي منعها من مخالفته. وإنما سميت الحكمة حكمة لأنها تمنع صاحبها من الجهل. [4] أما اصطلاحا فقد عرفها ابن القيم بأنها: (فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي).[5] هذا على العموم؛ أما المراد بها في هذه الآية فتنوعت فيه أقوال المفسرين. فابن عباس يرى أنها القرآن، وتبعه الطبري والسيوطي والبغوي وغيرهم، ونقل عن الزجاج أنها النبوة، بينما يجمع السمرقندي بين الرأيين الآنفين. وذهب كثيرون إلى أنها المقالة المحكمة الصحيحة، المتمثلة في الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، أو الحجج القطعية المفيدة لليقين. ومن هؤلاء: الخازن والبيضاوي، والنسفي وأبو السعود والشوكاني وغيرهم. [6] وفي تقديري أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، فالمقالة المحكمة الصحيحة هي الكلام المتقن الصائب؛ ولا تكون كذلك إلا إذا بنيت على حجج قطعية وأدلة موضحة للحق مزيلة للشبه؛ وتلك الحجج والأدلة إنما تؤخذ من القرآن الحكيم الذي لا ينزل إلا على صاحب النبوة ﷺ، الذي لا شك أنه يفعل ذلك على الوجه الذي ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي. (ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين).[7]

– **والموعظة** لغة هي النصح والتذكير بعواقب الأمور، أو بالخير وما يرق له القلب؛ وهي والعظة والوعظ بمعنى واحد . وقيل: الوعظ هو التخويف. [8] ولا اختلاف بين هذه التعريفات، فإن النصح والتذكير بالخير يرق القلب، والتذكير بالعواقب يثير المخاوف، والموعظة في حقيقتها ترغيب وترهيب، فالتعريفات الآنفة متكاملة فيما بينها. أما المفسرون فيمكن أن نجمل أقوالهم في **الموعظة الحسنة** في رأيين –وإن تعددت عباراتهم–: رأي ابن عباس بأنها مواعظ القرآن، وتابعه عليه السيوطي

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 140/20.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 330/14.

(3) انظر: البقاعي، نظم الدرر، 280/11.

(4) انظر: ابن فارس، مجمل اللغة، ص 246؛ ابن منظور، لسان العرب، 187/4.

(5) ابن القيم، مدارج السالكين، 499/2.

(6) انظر: الطبري، جامع البيان، 400/14؛ الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 107/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 245/3؛ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 241/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 52/5؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 506/4؛ السمرقندي، بحر العلوم، 255/2؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 807؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين،281.

(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 427.

(8) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 126/6؛ ابن منظور، لسان العرب، 243/15 .

والسمرقندي والبغوي والنسفي وغيرهم؛ ورأي ابن عطية والبيضاوي والشوكاني والبقاعي[1] وأبو السعود وغيرهم بأن المراد منها هو الخطابات المستندة إلى الأدلة الظنية والعبر النافعة، أو القول الرقيق المشتمل على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترجية دون مخاشنة على وجه لا يخفى على السامع أن الواعظ يريد له النفع والخير.[2] وفي تقديري أن الرأيين غير متضادين؛ لأن القول الرقيق المشتمل على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ...الخ إن استقي من القرآن فقد تطابق الرأيان، وإن صيغ من الأمثال والحكم والوقائع التاريخية وأقوال العلماء والمصلحين وغيرهم فالرأيان متكاملان منسجمان ويصبان في إناء واحد هو تليين قلب السامع وسوقه إلى الإيمان بالله والعمل بأوامره والكف عن زواجره والاستعداد ليوم لقائه. طبعا هذا بالنسبة لأي واعظ غير المعصوم ﷺ، أما هو ﷺ فلا يحتاج إلى أقوال العلماء والحكماء والمصلحين وغيرهم فهو سيدهم وهم من يأخذون منه، وقوله وحده حق وحكمة وعظة. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5)﴾[النجم].

- والموعظة الحسنة -في تقدير البعض- إنما هي لدعوة عوام الناس وأصحاب الفطر السليمة وهم أغلبية الأمة.[3] ومن ذلك (الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل).[4]

- **والجدال** لغة: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة؛ سمي كذلك لما فيه من الشدة؛ لأن أصله من جدل فلان الحبل إذا أحكم فتله، والمتجادلان يفتل كل منهما الآخر عن رأيه. وقيل: أصل الجدال هو الصراع وإسقاط المصارع صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة.[5] واصطلاحا: هو (دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو

---

(1) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي. عالم مصنف فقيه محدث مفسر أديب شاعر نحوي. ولد في حدود سنة 809هـ في قرية خربة روحا من أعمال البقاع اللبناني ونشأ بها، ثم انتقل إلى دمشق، ثم تحول إلى بيت المقدس مدة، ثم ارتحل إلى القاهرة، ثم عاد إلى دمشق. من شيوخه ابن حجر العسقلاني وتاج الدين بن بهادر والعلاء القلقشندي وغيرهم، ومن تلاميذه أحمد بن خليل اللبودي وابن قريبة وأبو راشد، ومن مصنفاته تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد وسر الروح. توفي سنة 885هـ في دمشق. [انظر على سبيل المثال: الشوكاني، البدر الطالع، 18/1؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، رقم 368، 49/1].

(2) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 432/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 245/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 807؛ البقاعي، نظم الدرر، 279/11؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 255/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 52/5؛ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 241/2-242؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص281.

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 107/3؛ وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/3.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 427.

(5) انظر: الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 89-90؛ ابن فارس، مجمل اللغة، 179/3.

الخصومة في الحقيقة).[1] هذا عند العلماء عموما، أما عند المفسرين تحديدا **فالجدال بالتي هي أحسن** ورد في معناه ثلاثة أقوال: الأول: أي جادلهم بالقرآن. والثاني: جادلهم ب(لاإله إلا الله)، وكلاهما مروي عن ابن عباس رضي الله عنه .[2] والثالث: بأيسر طرق المناظرة، بأن تناظرهم برفق ولين دون غلظة أو تقصير في تبليغ الحق. وهو رأي أكثر من اطلعت على قوله، منهم البيضاوي والخازن والسيوطي والبغوي والنسفي والبقاعي وأبو السعود والشوكاني وغيرهم .[3] وهذا الأسلوب إنما يتبع لمعاملة المعاندين والمشاغبين من أهل الخصام والمجادلة فهو أنسب لإفحامهم وإلزامهم وتسكين شغبهم وإطفاء لهبهم.[4] وهو ليس من طرق الدعوة، (بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل الدعوة).[5]

– ومضمون الأمر الموجه للنبي ﷺ في هذه الآية أن يدعو إلى الله ودينه برفق ولطف دون شدة أو عنف، وهي الطريقة نفسها التي ينبغي سلوكها في دعوة عصاة المسلمين إلى لزوم الطاعات وترك المعاصي، [6] فهم أولى باللين والرفق من المشركين، بل من فرعون الذي أمر الله نبييه موسى وهارون أن يلينا له القول وعلل ذلك برجاء تذكره أو خشيته. قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)﴾[طه]، فاللين يفتح قلب المدعو للسماع أو على الأقل يحرمه من أقرب حجة جاهزة للرفض وهي فظاظة الداعي. أما الخشونة فهي تنفر السامع من سماع الكلام وإن كان حقا؛ ونماذج ذلك لا تحصى. جاء في ترجمة هارون الرشيد الخليفة العباسي: (وبينما الرشيد يطوف يوما بالبيت إذ عرض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة. فقال: لا، ولا نعمت عين، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولا لينا).[7]

–وفي الآية توجيه للنبي ﷺ أن يشتغل بدعوة الناس إلى الحق بأحسن الأساليب وأجود الطرق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52)﴾[الشورى]، فإذا فعل ذلك فقد أدى ما عليه؛ أما التوفيق للإيمان وحصول الهداية في قلوب المدعوين

(1) الجرجاني، التعريفات، ص 67.

(2) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 506/4.

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل، 107/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 245/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 281؛ البغوي، معالم التنزيل، 52/5؛ ابن الجوزي ، زاد المسير، 506/4؛ النسفي، مدارك التنزيل، 242/2؛ البقاعي، نظم الدرر، 279/1-280؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 807.

(4) انظر: الخازن، لباب التأويل، 107/3؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 245/3.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 141/20.

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 461/12.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، 502/10.

فليست إليه، وإنما هي بيد الله وحده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56)﴾[القصص]. فهو ﷺ يهدي هداية الدلالة على الحق لا هداية التوفيق إليه.

– وفي قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ دليل على وجوب الإنصاف في المناظرة وقبول الحق إذا جاء على لسان المخالف وضرورة لزوم الأدب مع الخصم والمداراة ما أمكن على النحو الذي يظهر منه أن الداعية لا غرض له من المجادلة إلا إثبات الحق وإبطال الباطل لا أكثر ولا أقل. [1] (ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها). [2]

– وفي الآية تسلية وتوجيه للنبي ﷺ ألا تذهب نفسه حسرات على من لم يؤمن من المدعوين ما دام قد استنفد جهده في دعوته فإنه ليس عليه هداهم كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة:272]. [3]

– وفي الآية دلالة على وجوب الدعوة إلى الإسلام على هذه الأمة وجوبا كفائيا؛ قال ﷺ: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار). [4]

– واختلف المفسرون في نسخ هذه الآية بآية السيف فرقتين؛ وممن قال بنسخها ابن جزي الغرناطي والواحدي والبغوي. [5] وفي تقديري أنها محكمة لأن السيف ليس بديلا عن الدعوة مهما كان قويا وأهله متمكنون؛ ولأن النبي ﷺ جاء لهداية الناس ورحمتهم لا لقتلهم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(107)﴾[الأنبياء]. أما السيف –إن وجد– فله موضع آخر يناسبه، تماما كما قال ابن الرومي:

هل العين بعد السمع تكفي مكانه   أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي [6]

– وقد نفذ ﷺ ما أمر به على وجه الكمال والتمام، فدعا إلى ربه بالحكمة والمواعظ الحسان وجادل المعاندين بأحسن أساليب المجادلة وألينها حتى رسخت في أصحابه وانتقلت إليهم، واعترف له بذلك المخالفون له ولهم. ومن نماذج ذلك ما جرى بين

---

(1) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 3877/10

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 427.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 411/4.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم 3461، ص636، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(5) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 432/3؛ البغوي، معالم التنزيل، 52/5؛ ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 478/1؛ الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص 624.

(6) أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، الشهير بابن الرومي ت 283هـ، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ – 2002م ، 401/1.

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ وبين المقوقس ملك القبط حين جاءه يحمل إليه كتاب النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام. فكان مما جرى بينهما من حوار قول المقوقس لحاطب –بعد أن قرأ الرسالة–: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده؟ قال حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه؟ قال المقوقس: أحسنت. أنت حكيم جاء من عند حكيم.[1]

– ولحكمة ما تكرر الأمر الرباني إلى النبي ﷺ بالدعوة إلى ربه في ثلاثة مواضع أخرى. هي:

• قوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ(67)﴾[الحج].

وفي هذا الموضع جاء الأمر إليه ﷺ بالدعوة إلى ربه –أي دينه– مقرونا بالشهادة المؤكدة له من الله أنه سائر على طريق الهداية المستقيم الذي لا انحراف فيه ولا غواية. وفي ذلك تثبيت له ﷺ على درب الدعوة وتشجيع على الاستمرار فيها دون التفات إلى المشككين والمثبطين، وهو درس عظيم لكل داعية ألا يسمح لجهود أعداء دعوته بالنجاح، بل يضعها موضع التحدي، ويصنع منها دافعا للتألق والتفوق كما يصنع من الليمونة المالحة شرابا حلوا لذيذا. وقيل المقصود هنا أن يدعوهم إلى أمر خاص وهو ترك الأكل من الميتة ومما ذبح لآلهتهم بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بما جاءهم به؛ لأنهم كانوا يعيبون على النبي ﷺ وأصحابه أنهم يأكلون مما قتلوا –أي ذبحوا– ولا يأكلون مما قتل الله،[2] أي الميتة. قال الطبري: (وادع يا محمد منازعيك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك وبعد التصديق بما جئتهم به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان وتبرءوا منها، إنك لعلى طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك، وهم الضلال على قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعمهم وعبادتهم الأوثان).[3]

• قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(87)﴾ [القصص].

وهنا ورد الأمر الإلهي إليه ﷺ بالدعوة أيضا إلى ربه، أي توحيده والدخول في دينه. وقد جاء الأمر هذه المرة محفوفا بنهيين: نهي قبله عن الاستجابة للمشركين الذين يحاولون صرفه عن آيات الله وحججه المنزلة عليه في القرآن الكريم، ونهي بعده عن ترك الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة؛ لأنه لو تركها كان ممن فعل فعل المشركين بعصيان ربه ومخالفة أمره.[4] فهو تأكيد على القيام

---

(1) علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج نور الدين بن برهان الدين ت 1044هـ، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، الشهير بالسيرة الحلبية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1427هـ، 350/3.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 210/4.

(3) الطبري، جامع البيان، 628/16.

(4) انظر: المصدر السابق، 353/18.

بالدعوة المأمور بها. قال الرازي: (وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين، فلذلك قال: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم).[1] وفي هذا الاقتران حث على المثابرة على العمل الدعوي، وتحذير من التراخي فيه؛ لأنه ربما كان -بالنسبة لغيره ﷺ- طريقا إلى الانقطاع عن الدعوة أو جعلها في آخر سلم الاهتمامات.

• قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[الشورى:15]

وفي هذا الموضع صدر الأمر من المولى عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى دينه -الذي شرعه له ولمن تبعه وأوحاه إليه، ووصى به من قبل نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى- مقرونا بأمر آخر وهو أن يستقيم هو ﷺ على العمل بذلك الدين ويثبت عليه ولا يزيغ عنه، وأن لا يتبع أهواء الذين شكوا في الحق الذي نزل عليه من الذين ورثوا الكتاب من القرون الخالية فيشك كشكهم؛ لأن تلك الشكوك مجرد أهواء تعصف بقلوبهم لا أكثر.[2]

قال السعدي: (أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله ، ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ بنفسك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالا لأوامر الله واجتنابا لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك).[3] وفي ذلك فائدة مهمة وهي أن الدعوة الناجحة هي ما اجتمع فيها تطبيق الداعية لمضمون أقواله مع ما يدعو إليه؛ لأنه بذلك يدعو بقوله وفعله، خلافا لمن يكذب فعله قوله.

– وقد ورد في القرآن الكريم آيات بينات تسلط الأضواء الكاشفة على جوانب هذه الدعوة المباركة لتكون معلومة للداعي والمدعوين على سواء، وليعلم الموافق والمخالف معا مشروعية وسائلها ونبل أهدافها. ومن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)﴾[يوسف]. فدلت الآية على وضوح دعوته ﷺ، وشفافية أهدافها، وكمال تصوره لجميع جوانبها، ويقينه بأنه على الحق، ولا يدعو إلا إلى الحق، وفي وضح النهار. فليس فيها جوانب مظلمة، أو مناطق معتمة، أو أشياء تخفى، أو أهداف سرية، كما هو موجود في كثير من الدعوات الخطيرة التي ظهرت عبر التاريخ، والتي تنطوي على جوانب سرية وأهداف عنصرية أو إجرامية.

• قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ(36)﴾[الرعد].

وفي هذه الآية أمر إلهي إليه ﷺ ليعلن للناس ملخصا عاما للتكاليف التي حملها إليه الوحي الذي أنزل عليه، فهي ترتكز على

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 23/25.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 485/20.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 721-722.

أربع نقاط رئيسية، هي عبادة الله سبحانه ، والحذر من الإشراك به، والدعوة إليه، واعتقاد الرجوع إليه للحساب والجزاء .

والملحوظ أن هذا الإعلان المقتضب المركز ينص بكل وضوح على الهدف الرئيس لهذه الدعوة والغاية القصوى من ورائها. وهي تعريف الناس بالله العظيم، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12)﴾[الطلاق]، وحشدهم لعبادته وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾[الذاريات]، فهدفها الأعلى ليس ماديا ولا سياسيا ولا عنصريا ولا أي شيء مما يتعلق بمكاسب الدنيا أو مطامع البشر فيها.

• قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(73)﴾[المؤمنون].

وفي هذه الآية شهادة من أعدل الشهود وأعلمهم وأصدقهم أن النبي ﷺ لا يدعو الناس إلا إلى الخير والحق والفائدة، والسير في الطريق المستقيم الذي لا انحراف فيه أبدا ولا اعوجاج، والذي يوصل إلى السعادة الكاملة الدائمة. فهي دعوة للناس إلى كل ما ينفعهم ويصلحهم في العاجل والآجل.

• قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(46)﴾ [الأحزاب]. وفي هذا النص القرآني بيان من الله سبحانه وتعالى أن النبي ﷺ لم يتكلف الدعوة إلى الله من تلقاء نفسه، بل هو قائم بأعبائها بأمر موجه إليه شخصيا من الله وإذن منه تعالى. وهذا شرف عظيم له ﷺ، ودليل على أن دعوته محمية من الله، محفوظة على مر الزمن، منتصرة بلا شك، وإن ضعف المسلمون أحيانا وفرطوا فيها.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(29)قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ(30)يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(31)وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(32)﴾[الأحقاف].

وهذه الآية تتكلم بكل وضوح عن بلوغ دعوة النبي ﷺ إلى الجن في زمانه، وأنهم لم يكتفوا بقبول الحق الذي سمعوه منه ﷺ واعتناقه، بل تحولوا بدورهم إلى دعاة مسلمين يدعون أقوامهم إلى الإسلام، ويبينون لهم مزاياه العظيمة في الدنيا وفي الآخرة، ويحذرونهم من رفض هذه الدعوة الربانية، ويصفون رافضها بالضلال البين. وهذا دليل قطعي بأن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الإنس والجن جميعا، فإذا وجد في الإنس من المعاندين من يعرض عنها ففي الصالحين من الجن من يحتفي بها ويستجيب لحملتها.

• قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾[آل عمران]. وهذا النص من القرآن دليل على وجوب استمرار دعوة النبي ﷺ من بعده في المجتمعات الإسلامية وخارجها، وأن القيام بذلك فرض كفاية إذا قامت به ثلة من المسلمين سقط الإثم عن الباقي. وهذا دليل على أن برنامج

الدعوة النبوية طويل المدى، يستغرق عمر الدنيا كلها من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة.

– وما من ريب مطلقا أن النبي ﷺ نفذ أوامر الله له بالدعوة إليه سبحانه وإلى دينه؛ فقد دعا المشركين، وعلم الجهلة الأميين، حتى غدوا مسلمين مؤمنين، وأمسى كثير منهم علماء ربانيين، وصاروا خير أمة أخرجت للناس. دعا ﷺ بأقواله وأفعاله، وكتبه إلى الملوك، ورسله إلى القبائل، ولم يترك خيرا إلا دل أمته عليه، ولا شرا إلا حذرهم منه، واستمر على ذلك غير مقصر ولا متوان حتى حان أجله وسلم روحه الطاهرة إلى بارئها ﷺ.(1)

وخلاصة هذا المطلب: أن النبي ﷺ أمر بالدعوة إلى الله سبحانه، وأن يحذر أهواء المشركين، وأن يصرح بوضوح دعوته وشفافية أهدافها وكمال تصوره لجميع جوانبها، وأنه موقن بأنه يدعو إلى الله الحق الذي إليه مصيره ومصاير الخلق جميعا، وأنه لم يتكلف الدعوة من تلقاء نفسه، بل أمره الله بها، وأنه مصدق لدعوة جميع من سبقه من الرسل؛ كما تضمنت الأوامر طمأنته بكونه على حق وهداية واستقامة، وحددت له الأساليب التي يجب عليه سلوكها في دعوته، وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ بتبشير المستجيبين له

المتأمل في القرآن الكريم لا تخطئ عينه الارتباط الوثيق بين دعوة الرسل الناس إلى الله وتبليغهم ما أنزل عليهم وبين تبشيرهم من يؤمنون بهم. قال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:213]، وقال أيضا: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا(163)وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا(164)رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(165)﴾[النساء]. والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة. وواضح أن التبشير بالخير لمن يستجيب للرسل تحفيز للناس كي ينفضوا أيديهم من الكفر والشرك ويدخلوا في الإسلام؛ لأن (النفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير). (2) فهل أمر نبينا ﷺ -على غرار إخوانه الرسل- بتبشير من يدعوهم إن هم آمنوا؟ وبأي شيء يبشرهم؟ وما سر تكرار ذلك الأمر؟ سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال هذا المطلب.

نبينا محمد ﷺ ليس بدعا من الرسل، ومن ثم ورد إليه اثنا عشر أمرا من الله جل جلاله بتبشير من يستجيب لدعوته ويؤمن

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص217.

(2) عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط9، 1421هـ–2000م، ص 48.

برسالته. وهي -على ترتيب المصحف-:

* قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(25)﴾[البقرة].

– أي: وبلغ -يا محمد- من صدقوا بالله ورسوله وما أنزل عليه من غير ارتياب وعملوا الأعمال الطيبة، بلغهم خبرا سارا يشرح صدورهم أن الله أعد لهم عنده بساتين مثمرة تتخللها الأنهار الجارية تحت أشجارها وحول قصورها، كلما أعطاهم الله -بعد دخولهم إياها- من أنواع ثمارها قالوا: إن هذا كالذي أعطينا سابقا؛ لقوة التشابه بين أنواع وأجناس تلك الثمار في الأشكال والألوان وإن كانت متمايزة في الأذواق واللذات؛ ولهم فيها -إضافة إلى ذلك- زوجات في غاية النقاوة والبراءة من كل عيب . وهم باقون في هذا النعيم أحياء إلى أبد الآباد.[1]

– فتضمن مطلع الآية أمرا إلهيا كريما إلى النبي ﷺ أن يبشر الذين استجابوا له -فآمنوا به وبما أنزل عليه من الحق وضموا إلى ذلك أن عملوا الأعمال الصالحة- أن الله كافأهم على ذلك بأن أعد لهم عنده جنانا تجري تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ذوات أنواع وألوان من الثمار، وهيأ لهم فيها زوجات حسانا، ليخلدوا في نعيمها الأبدي.

– **والبشارة** أن تخبر إنسانا بشيء يسره على أن تكون أول من أخبره به.[2] ولا شك أن بشارة النبي ﷺ للمؤمنين بالله ورسوله بجنات النعيم هي أعظم بشارة؛ لأنها لا تتضمن التبشير بشيء دنيوي زائل مهما كان مهما، وإنما هي بشرى بما (لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).[3]

– **والجنة** لغة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وقيل: لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب.[4] أما اصطلاحا فهي (الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله؛ لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه).[5] فالجنة تستوعب جميع ما تشتهيه النفس البشرية من ألوان الملذات و تحوي كل ما تميل إليه طبيعته من المتع والمحبوبات والمرغوبات.

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/358-362؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 8.

(2) انظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص 264.

(3) جزء من حديث قدسي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ [السجدة:17]، رقم 4779، ص 885؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم 2824، ص 1136؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ابن منظور، لسان العرب، 3/221.

(5) عمر سليمان الأشقر، الجنة والنار، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط7، 1418هـ-1998م، ص 117.

– ولقد بين –جل شأنه– في آيات أخرى كثيرة أنها شديدة الاخضرار. قال تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(62)فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(63)مُدْهَامَّتَانِ(64)﴾[الرحمن]، وأن أشجارها ممتدة الغصون. قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46)فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(47)ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(48)﴾[الرحمن]، وأنها كثيرة الأعداد مختلفة الأنواع، وارفة الظلال وافرة المياه؛ ومنها أشجار النخيل والرمان والعنب والطلح والسدر. قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(68)﴾[الرحمن]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(31)حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا(32)﴾[النبأ]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(27)فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28)وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ(29)وَظِلٍّ مَمْدُودٍ(30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(31)﴾[الواقعة]. (وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق، وشوكه كثير، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعا من الطعوم والألوان التي يشبه بعضها بعضا، فما ظنك بثمار الأشجار، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار، كالتفاح، والنخل، والعنب، وغير ذلك؟ وما ظنك بأنواع الرياحين، والأزاهير؟ وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله منها من فضله).(1)

– وأوضح الله سبحانه في سورة محمد ﷺ أنواع هذه ا**لأنهار** التي تجري في الجنة فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[محمد:15]. ووصف النبي ﷺ نهر الكوثر –وهو من أنهارها أيضا– بأنه محفوف بقباب اللؤلؤ وطينه مسك، وذلك –ولا شك– من أبهج ما تراه العين. روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (بينما أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه – أو طيبه– مسك أذفر).(2) وصح في الأثر أن منبع أنهار الجنة جبل من مسك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: (أنهار الجنة تفجر من جبل المسك).(3)

– وفي مواضع مختلفة من القرآن الكريم تنصيص منه جل وعلا على كثرة ثمرات الجنة وتنوع فواكهها. قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآَبٍ(49)جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ(50)مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(51)﴾[ص]، بل إن كل نوع منها مزدوج الأصناف. قال جل من قائل: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(52)﴾[الرحمن]، وليس فيها رديء أو مزهود فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(42)﴾[المرسلات]، وقال في موضع آخر: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ(20)﴾[الواقعة]، كما أنها دائمة الوجود مباحة الأكل لا كفاكهة الدنيا التي توجد في موسم دون مواسم وتباح لمن امتلكها دون غيره. قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(32)لَا

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، 461/17.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم 6581، ص 1196، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن مسؤوق، رقم 254، 66/1؛ وصحح إسناده مؤلف التفسير الصحيح، 124/1.

مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(33)﴾[الواقعة]، وقال أيضا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)﴾[الرعد].

– واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ، فقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة والقرطبي وغيرهم: المعنى هذا الذي رزقنا في الدنيا، أي: مثله في النوع أو الجنس، لشبهه بما كانوا يعرفون في الدنيا من حيث التسمية والألوان والأشكال. وقيل: معناه هذا الذي وعدنا به في الدنيا. وقال يحي بن أبي كثير[1] والربيع بن أنس وغيرهما: هذا الذي رزقنا في الجنة، أي أعطينا قبله مثله، لتشابههما في الألوان والأشكال والطعوم.[2] وسبب ذلك -كما روى الطبري عن أبي عبيدة- أن (نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها مثل القلال، كلما نزعت منها ثمرة عادت مكانها أخرى. قالوا: فإنما اشتبهت عند أهل الجنة، لأن التي عادت نظيرة التي نزعت فأكلت في كل معانيها).[3] والراجح -والله أعلم- هو القول الأول لدلالة ظاهر الآية عليه، وهو ما رجحه الطبري والبيضاوي والشوكاني رحمهم الله.[4] وعلل الطبري ترجيحه ذلك بقوله: (وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيره: هذا هو الذي رزقناه من قبل إلا أن ينسبهم ذو عته وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق رزقوه منها من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته بقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ من غير نصب دلالة على أنه معني به حال من أحوالهم دون حال).[5]

– وتنوعت أقوال العلماء في المراد من قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ العائد على الرزق من الثمرات، فقال قوم: متشابه من حيث النقاوة والجودة فهو كله خيار لا رذل فيه. ومن هؤلاء الحسن وقتادة وابن جريج. وقال آخرون: متشابه من حيث اللون والمنظر، أما من حيث الطعم فهو مختلف. ومن هؤلاء ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أصحاب النبي ﷺ ومجاهد والربيع بن أنس وأبو العالية والسدي والقرطبي والبيضاوي وغيرهم. وقال فريق ثالث: متشابه من حيث اللون والطعم. ومن هؤلاء يحي بن

---

(1) هو أبو نصر يحي بن أبي كثير صالح الطائي. إمام محدث ثقة حافظ فقيه مفسر مفت عابد من أهل البصرة. أقام في المدينة للطلب وسكن اليمامة. روى عن أبي أمامة الباهلي وأنس بن مالك وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، وعن عكرمة ونافع وغيرهما من التابعين. وروى عنه ابنه عبد الله والأوزاعي وغيرهما من أئمة الإسلام. توفي سنة 129هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 839، 272/6؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 113، ص 58].

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 410/b1، 414؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 361/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 101/1-102.

(3) الطبري، جامع البيان، 409/b1.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 411؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 60/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 39.

(5) الطبري، جامع البيان، 411/b1.

سعيد[1] ومجاهد في رواية أخرى. وقال ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. والراجح -والله أعلم- هو قول الفريق الثاني، أي القائلين بأن التشابه في اللون والمنظر لا في الطعم، يدل عليه إخبار الله -جل ثناؤه- بأن أهل الجنة إنما قالوا ما قالوا بسبب أنهم أتوا به متشابها. وهو ما رجحه أبو جعفر الطبري.[2]

-وبين سبحانه في مواضع أخرى من كتابه أن أزواجهم أولئك المطهرات غير أزواجهم اللائي تزوجوا في الحياة الفانية، وإنما هن حلائل أخر حور عين يزوجهم إياهن هناك في الدار الباقية. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(51)فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(52)يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ(53)كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(54)﴾ [الدخان]، أنشأهن على خير ما يشتهيه الرجال من أوصاف النساء؛ فهن أبكار لم يقربهن قبلهم جن ولا بشر، كواعب الصدور، خيرات المعشر جميلات المنظر، متقاربات الأسنان، مصونات عن الأبصار. قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً(35)فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا(36)عُرُبًا أَتْرَابًا(37)لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ(38)﴾[الواقعة]، وقال أيضا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(70)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(71)حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ(72)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(73)لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(74)﴾[الرحمن]. وأوضح تعالى أن جمالهن ليس من قبيل ما يعرفه البشر من جمال النساء مهما بلغ حسنهن؛ وإنما هو مضارع لجمال اللآلئ النفيسة ورونق الجواهر الكريمة التي صينت فلم يبهت صفاء لونها ولم يخفت شعاع بريقها. قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ(22)كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(24)﴾[الواقعة]، وقال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(56)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(57)كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ(58)﴾[الرحمن]. ومن فائق جمالهن وطيب ريحهن ما وصفه النبي ﷺ بقوله: (ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها). [3] هذا غير ما ذكرت الآية محل الدراسة من كونهن مطهرات من كل مستقذر. قال الطبري في تفسيرها: (تأويله أنهن طهرن من كل أذى وقذى وريبة، مما يكون في نساء أهل الدنيا من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمني، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره).[4]

---

(1) هو أبو سعيد يحي بن سعيد بن قيس الأنصاري الخزرجي النجاري. علامة المدينة في زمانه، فقيه محدث ثبت مفسر مفت قاض. ولد قبل سنة 70هـ في خلافة ابن الزبير. سمع من أنس بن مالك والسائب بن يزيد رضي الله عنهما وتتلمذ على يد الفقهاء السبعة وغيرهم، وحدث عنه الزهري ومالك وشعبة وغيرهم من أئمة الإسلام. مات سنة 143 بالعراق. [انظر على سبيل المثال: أبو الحسن الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 66؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 122، ص 64].

(2) انظر: المصدر السابق، ص 413-416؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 361/1؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 61/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 101/1-102.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب وزوجناهم بحور عين، رقم 2793؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم 1881، ورقم 1882؛ ص 784؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) الطبري، جامع البيان، 419/b1.

-وفي المأمور به في الآية بيان لفضل الإيمان والعمل الصالح، وحث للمؤمنين على الاجتهاد فيهما والثبات عليهما للفوز بذلك الموعود الكريم والثواب العظيم.[1]

-ولحكمة -ولا شك- تكرر الأمر من الله جلت أسماؤه إلى نبيه ﷺ بتبشير المؤمنين في ستة مواضع -غير الذي مضى- من القرآن الكريم. هي:

• قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)﴾[البقرة].

وفي هذا الموضع ورد الأمر إليه ﷺ بتبشير المؤمنين مقرونا بأمره أن يبين لهم جملة من أحكام الحيض والفراش. ولما كانت تلك الأحكام متضمنة عددا من الأوامر والنواهي، أمره أن يبشر المؤمنين الذين يضمون إلى إيمانهم بأركان الإيمان تنفيذهم لأوامره وكفهم عن نواهيه -جل وعلا- بالفوز يوم لقائه بما أعد لهم في دار كرامته. قال أبو حيان: (وأمر نبيه أن يبشر المؤمنين، وهم الذين امتثلوا ما أمر به واجتنبوا ما نهى عنه، فكان ابتداء هذه الآيات بالتحذير عن معاطاة العصيان، واختتامها بالتبشير لأهل الإيمان).[2] فهو تشجيع على الثبات على الإيمان مع الحذر من المعاصي والمخالفات.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(111)التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(112)﴾[التوبة].

وهنا قرن الأمر إلى النبي ﷺ بتبشير المؤمنين بمدحهم، وذلك ببيان أوصافهم العظيمة التي رشحتهم لأن يشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. قال ابن عطية: (ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكملة من المؤمنين، ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة . والآية الأولى مستقلة بنفسها يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم يتصف بهذه الصفات التي هي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة: بل هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنين الذين هم على هذه الأوصاف، ويبذلون أنفسهم في سبيل الله، ... وهذا القول تحريج وتضييق والله أعلم، والأول أصوب، والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد).[3]

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 36/1.

(2) أبو حيان، البحر المحيط، 164/2.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز، 88/3.

• قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2)﴾[يونس].

وفي هذا الموضع أمر الله نبيه ﷺ أن يبشر المؤمنين بأن لهم عند الله سابقة خير وثوابا ومكانة عالية لصلاح أعمالهم. وإنما سمي ذلك قدما لأن السعي والسبق لا يكون إلا بالقدم، كما سميت النعمة يدا لأن منحها إنما يكون باليد. وإضافة القدم إلى الصدق للدلالة على مضاعفة ذلك الثواب، وأنه من السوابق الجليلة. (1) وهذا التبشير دافع قوي لهم للاستمرار في الأعمال الصالحة والتشبث بالإيمان رغم ما يقاسونه في تلك الفترة من الأذى المادي والمعنوي جراء إسلامهم.

• قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(87)﴾[يونس].

اختلف المفسرون في المعني بالخطاب في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فرأى البعض –كالطبري– أن المعني هو نبينا محمد ﷺ، ورأى آخرون –كالماتوريدي– أن المقصود هو موسى عليه السلام. (2) ولذلك قال القرطبي: (قيل: الخطاب لمحمد ﷺ، وقيل لموسى عليه السلام، وهو أظهر).(3) وعلى اعتبار أن محمدا ﷺ هو المعني فإن المعنى: وبشر –يا محمد– المؤمنين بما أنزل عليك الذين يقيمون الصلاة ويطيعون الله بالثواب الجزيل من عنده سبحانه وتعالى.(4) قال أبو السعود: (ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان والإشعار بأنه المدار في التبشير).(5) وهذا يقوي تمسكهم بإيمانهم وحرصهم على الثبات عليه مهما حل بهم من اضطهاد المشركين، لأن السورة مكية وقد كانوا يعانون شدائد الظالمين بسبب إيمانهم.

• قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(46)وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا(47)﴾[الأحزاب].

وهنا أمر من الله سبحانه للنبي ﷺ أن يبشر المؤمنين بالثواب المضاعف لهم من قبل الله على طاعتهم له وإيمانهم به. قال السعدي: (ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة. وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 108/12–109؛ النسفي، مدارك التنزيل، 6/2.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 260/12؛ الماتوريدي، تأويلات أهل السنة، 497/5.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 38/11.

(4) الطبري، جامع البيان، 260/12.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 701/2.

الكروب، وكثرة الأرزاق الدَّارَّة، وحصول النِعَم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه)[1] وهذا التبشير مما يزيد نشاطهم في طاعته وعبادته جل وعلا، ويصرفهم عن المعصية حفاظا على ذلك الثواب وحياء ممن أكرمهم به.

• قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12)وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(13)﴾[الصف].

وفي هذا الموضع أمر منه جل جلاله للنبي ﷺ بتبشير المؤمنين بالثواب العاجل وهو النصر على أعدائهم في الدنيا، والثواب الآجل وهو المغفرة ودخول الجنة في الآخرة.[2] قال الرسعني: (والمعنى: وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والتمكين في الدنيا، والجنة في الآخرة).[3] وفي هذا التبشير رفع لمعنويات للمؤمنين وإشعار لهم بقرب انتصارهم على الكفار المناوئين لهم وبأن ذلك بفضل إيمانهم.

* وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157)﴾[البقرة].

– أي: ولنمتحننكم بقدر من الرعب من أعدائكم، والمجاعة وقلة في الممتلكات والأنفس والثمار امتحانا لا وزر لكم فيه إلا الصبر، فبشر –يا محمد– الذين صبروا بثواب من الله؛ أولئك الذين إذا حلت بهم النكبات والابتلاءات علموا أن ذلك مقدر من الله سبحانه فقالوا إننا ملك لله خالقنا يفعل بنا ما يشاء، وإننا إليه عائدون بعد الموت للحساب والجزاء. أولئك الموصوفون بما ذكرنا عليهم ثناء حسن من ربهم وعفو، وأولئك هم الراشدون الموفقون إلى طريق الخير والنجاح.[4]

– فتضمن الأمر الرباني إلى النبي ﷺ تبشير الصابرين بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي أنهم يوفون أجورهم بغير حساب.[5]

– وفي مطلع الآيات دلالة على أن هذه الأمة لا بد أن تمضي فيها سنة الله في عباده، وهي أن تبتلى بجملة من المحن لتمحيصها، حتى يتبين الصادق من الكاذب والصابر من الجازع. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 636-637.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 823.

(3) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، 116/8.

(4) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 226/1-228؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 104.

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 61.

يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3)﴾ [العنكبوت]، وقال أيضا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(31)﴾[محمد].

– ومن أبرز أنواع الابتلاء الذي تتعرض له هذه الأمة الخوف من تسلط الأعداء، والجوع بسبب القحط أو الحصار أو غيرهما، ونقص الأموال بسبب الآفات المختلفة كالجوائح والغرق والضياع وغيرها، وقلة الأنفس بسبب الأمراض والحروب وسواها، ونقص الثمار من الحبوب والتمور والخضر ومثيلاتها بسبب الجفاف والجراد وما إلى ذلك. ومن دقة التعبير القرآني أنه سبحانه قال: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ (أي: بشيء يسير منهما ؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك). [1]

– وفي المأمور به تنويه كبير بفضيلة الصبر وثناء عظيم على المتصفين به، وبيان من الله تعالى أن الصبر هو الملجأ الحصين –بعد الله– الذي ينبغي للمسلم أن يلوذ به إذا نزل به البلاء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(153)﴾[البقرة].

– ودلت الآيات على فضيلة الاسترجاع عند حلول المصيبة، وهو قول: إنا لله وإنا إليه راجعون. [2] ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها، إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها). [3]

* وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(34)الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(35)﴾[الحج].

– أي: ولكل جماعة من المؤمنين شرعنا –أيها الناس– ذبحا يتقربون به إلى الله، ليذكروا اسمه تعالى تعظيما له وشكرا على ما أنعم عليهم من بهائم الإبل والبقر والغنم . والله الذي شرع لكم ولهم –المناسك وغيرها من العبادات– معبود واحد، فلحقه ووجهه آمنوا ولسلطانه استسلموا، ولا تشركوا معه أحدا، وبشر –أيها النبي– المتواضعين المخلصين بالجنة والثواب الجزيل. الذين إذا ذكر الله اضطربت قلوبهم خوفا منه، والذين يصبرون على ما ينزل بهم من البلاء استسلاما لأمره ورضى بقضائه، ويؤدون الصلاة على أتم كيفياتها، وينفقون في وجوه البر من أموالهم التي أنعم الله بها عليهم. [4]

---

(1) المصدر السابق، ص61.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 135/1.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم 918، ص 356.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 549/16–552؛ البغوي، معالم التنزيل، 385/5–386؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 391/14–392؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 493.

– فتضمن آخر الآية الأولى أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بتبشير المخبتين من الذين آمنوا به بالجنة والثواب الجزيل على إخباتهم لله وخشيتهم منه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23)﴾[هود].

– و**الخبت** في اللغة: ما اتسع من بطون الأرض، أو ما اطمأن منها وغمض. وقيل: هو الخفي منها. وخبت ذكر الرجل إذا خفي، وأخبت فلان: تواضع. [1] فمعناه يدور حول التطامن والغموض والخفاء. ولم يبعد عند المفسرين عن هذه المعاني وإن تنوعت عباراتهم. قال ابن عباس وقتادة والبيضاوي وغيرهم: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المطمئنون إلى الله، وقال مقاتل والنخعي:[2] المخلصون. وقال عمرو بن أوس والخليل بن أحمد : الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقال الزمخشري والرازي والقرطبي وغيرهم: هم المتواضعون الخاشعون.[3] وهذه التفسيرات متقاربة فيما بينها متناغمة مع المعنى اللغوي، ولذلك فسرها البعض بمجموعها أو أغلبها. كما فعل الشوكاني. قال رحمه الله: (أي المتواضعين الخاشعين المخلصين).[4]

– وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35)﴾ ليس تفسيرا –بالمعنى الاصطلاحي للتفسير– للفظ (المخبتين) كما قد يفهم من كلام ابن كثير –رحمه الله– عند تفسيره للآية، وإنما هو ذكر لعلاماتهم وأهم صفاتهم كما قال ابن عاشور والسعدي وغيرهما.

– والإنفاق ليس مقدورا لكل أحد من المؤمنين –وإن كان متواضعا خاشعا– فلا يعد عجزه عنه تجردا من الإخبات وتفويتا لفضل المخبتين وحرمانا من البشرى الموجهة إليهم؛ لأن تلك الصفات الأربعة الواردة في الآية علامات لهم وليست شروطا.

قال ابن عاشور: (وقد أتبع صفة ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ بأربع صفات وهي وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكل هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع فليس المقصود من جمع تلك الصفات لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه، وإنما المقصود من لم يخل بواحدة منها عند إمكانها).[5]

---

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 5/7-8.

(2) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعي الكوفي. تابعي جليل علامة فقيه مفسر مفت محدث حافظ ثقة عابد. أدرك جماعة من الصحابة وروى عن علقمة بن قيس وعبيدة السلماني وغيرهما من الأعلام، وروى عنه سليمان بن مهران الأعمش وفضيل بن عمرو الفقيمي وغيرهما من الأئمة. توفي سنة 96هـ. [انظر على سبيل المثال: أبو الحسن الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 82؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 580، 426/5].

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 551/16؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 35/23؛ الزمخشري، الكشاف، 195/4؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 392/14؛ الماوردي، النكت والعيون، 25/4.

(4) الشوكاني، فتح القدير، ص 964.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 261/17.

- وفي المقابل ليس كل إنفاق يعد استكمالا لتلك الصفة المذكورة وإن كان المقصود به مجرد الجري على العادة أو المفاخرة أو نيل ألقاب السخاء والكرم. قال صاحب التحرير والتنوير: (والمراد من الإنفاق الإنفاق على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين ، لأن ذلك هو دأب المخبتين. وأما الإنفاق على الضيف والأصحاب فذلك مما يفعله المتكبرون من العرب كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:180]، وهو نظير الإنفاق على الندماء في مجالس الشراب).(1)

- وفي المأمور به بيان لفضل التواضع لله والإخبات له وللمؤمنين، وتنويه بمكانة المتواضعين عند الله سبحانه.

* وقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(36)لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(37)﴾[الحج]

– أي: والإبل السمان جعلناها من أعلام الدين ومظاهره، لكم فيها نفع كثير في الدنيا ركوبا ولباسا وغذاء، وفي الآخرة أجرا وثوابا، فاذكروا اسم الله عليها حال اصطفافها مهيأة للنحر . فإذا خرت على الأرض بعد ذبحها فكلوا من لحومها -إن شئتم- وأطعموا الفقير المترفع عن السؤال، والعائل الذي يسأل. وكما سخرنا ما نشاء لما نريده منه سخرناها لم نافعكم، وجعلناها منقادة لإرادتكم -مع عظمة أبدانها- لكي تشكروا على إنعامنا عليكم. واعلموا أنه لن يبلغ الله شيء من لحومها ولا دمائها، فهو سبحانه لا ينظر إلى الصور والمظاهر، وإنما يبلغه التقوى منكم ويرضيه امتثالكم لأوامره ونواهيه وإخلاصكم له . مثل هذا التذليل الذي ذللها لكم لنفعكم ذللها لكم كي تعظموا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه التي منها مناسك الحج. وبشر -أيها النبي- المحسنين في أعمالهم ونواياهم بأجر من الله عظيم.(2)

- فتضمن آخر الآيتين أمرا ربانيا كريما إلى نبيه ﷺ بتبشير المحسنين -الذين يحسنون في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم- بالثواب العظيم عنده جلت أسماؤه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41)وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(42)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(43)إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(44)﴾[المرسلات].

- ودلت الآيتان على أن العبرة في العبادات بالإخلاص لله وتحقيق تقواه، أما المظاهر الفارغة والشكليات الجوفاء فلا وزن لها عنده سبحانه. قال النبي ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم) .(3) وفي رواية (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 290/2؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 474/3-477.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم 2564، ص 1035، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- وفي غير هذا الموضع من القرآن الكريم آيات متعددة تصرح بما هو أعظم للمحسنين من البشرى، وهو أن الله سبحانه يحبهم. منها قوله جل وعلا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(195)﴾[البقرة]. ففي الآية أمر من الله لعباده بالإحسان، وتصريح منه بحبهم. كما بين تعالى في مواضع من كتابه أنه لا يضيع أجورهم التي استحقوها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(120)﴾ [التوبة]. بل وبين أنه معهم بتأييده وحفظه وتوفيقه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)﴾[العنكبوت]. وأن رحمته قريب منهم. قال عز من قائل: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(56)﴾[الأعراف]. ولذلك فإن الكافرين والمشركين والعاصين إذا عاينوا يوم القيامة ما ينتظرهم من العذاب، ورأوا ما أعده الله للمحسنين تحسروا على ما فاتهم وتمنوا لو يردهم الله إلى الحياة الدنيا ليجتهدوا أن يكونوا من المحسنين. قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(56)أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(57)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(58)بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(59)﴾[الزمر].

- وفي المأمور به تنويه بالإحسان وثناء على المحسنين، وحض للعباد على الإحسان في شؤونهم كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ولو كانت ذبحا لحيوان بهيم. قال النبي ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته).[1]

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(11)﴾[يس].

– أي: إنما ينفع إنذارك ويولد أثره المطلوب فيمن قصده اتباع الحق فهو يتأمل القرآن ليعمل به، ويخاف الله في السر ولا يغتر برحمته المقتضية لستره وعدم إنزاله العقوبة بمن عصاه، فبشره –يا محمد– بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب كثير واسع حسن لأعماله ونياته يوم القيامة.[2]

- فتضمن آخر الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يبشر من يتبع القرآن إيمانا به وعملا بما فيه ويخاف الله بالغيب بمغفرة لذنوبه وثواب واسع لأعماله في الآخرة.

- وخشية الرحمن بالغيب تحتمل الخوف منه في السر في حال الخلوة فلا يعصيه إذا غاب عن أعين الناس مثلما يفعل المنافقون، كما تحتمل الخوف من عقوبته قبل نزولها ورؤية أهوالها.[3] ولعل المعنيين مقصودان معا.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، رقم 1955، ص 509-810، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 660-661؛ الصابوني، صفوة التفاسير، 8/3.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 264/4.

- وفي الآية تنويه بالإيمان بالقرآن والعمل به والتأمل في معانيه بقصد اتباع الحق الذي فيه، وثناء على المؤمنين به العاملين بأحكامه، كما تضمنت تنويها بخشية الله في السر والحذر من عقابه قبل نزوله، والمدح لأهل الخشية من الله جل جلاله.

- والعلماء إن كانوا مؤمنين ذوي خشية من الله داخلون بلا ريب في عموم من خشي الرحمن بالغيب، ولكن ليسوا وحدهم المعنيين في الآية كما يوهم قول الرازي: (وعلى كل وجه فمعناه: إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28]).[1]

- وفي الآية لطيفة وهي أنه لما كان العلم بأنه تعالى رحيم قد يدفع إلى الاغترار والاتكال جيء بالفعل (خشي) للتنبيه إلى أن العاقل لا ينبغي أن يترك الخشية من الله وإن علم أنه رحمن رحيم؛ لأن من كانت نعمه بسبب رحمته أكثر فالخوف منه يكون أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة.[2]

* وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ(17)الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ(18)﴾[الزمر].

– أي: والذين كفوا عن عبادة الأصنام وسائر ما عبد من دون الله، وأقبلوا إلى طاعة الله وعبادته وحده، لهم البشارة العظيمة بالفوز بالجنة، فبشر -يا محمد- عبادي الذين يستمعون الكلام فيتبعون أرشد ما فيه، أولئك -دون سواهم- الذين وفقهم الله إلى الهدى، وأولئك -دون غيرهم- أهل العقول السليمة.[3]

- فتضمنت الآية أمرا ربانيا كريما إلى النبي ﷺ بتبشير نقاد الكلام الذين إذا سمعوا أي حديث لم يقبلوه جملة ولم يرفضوه جملة، بل يعملون فيه العقل ويغلغلون فيه البصر فما كان منه حقا قبلوه وعملوا بما فيه وما كان باطلا نبذوه فلم يشغلوا به أنفسهم أو غيرهم، فهؤلاء مبشرون في الدنيا بالجنة في الآخرة.

- **والطاغوت** لغة مقلوب من طغيوت الذي على وزن فعلوت، مأخوذ من طغى يطغى طغيا ويطغو طغيانا، أي جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر.[4] ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)﴾[الحاقة].

أي: ارتفع وجاوز ما حوله وعلا على كل شيء. أما المفسرون فاختلفوا في معناه: فقال عمر رضي الله عنه ومجاهد والشعبي[5] والضحاك وقتادة والسدي هو الشيطان. وقال ابن سيرين وأبو العالية هو الساحر، وقال جابر بن عبد الله وسعيد بن جبير وابن

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 47/26.

(2) انظر: المصدر السابق، 47/26-48.

(3) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، 74/3-75؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص686.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 123/9-124.

(5) هو أبو عمر عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الكوفي. تابعي جليل، محدث حافظ مفسر فقيه عابد. ولد لست سنين خلون من خلافة عمر رضي الله عنه. روى عن سعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وسعيد بن زيد وعدي بن حاتم وغيرهم من الصحابة رضي الله

جريج هو الكاهن. وقيل هو الأصنام. ولا يخفى-كما أشار إليه ابن عطية- أن هذه مجرد أمثلة لما يطلق عليه شرعا هذا الاسم.[1] وعرفه الطبري بأنه: (كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء).[2] والظاهر أن هذا التعريف -على ما به من الطول- لا ينطبق على ما لا يعقل كالأوثان إلا مجازا؛ وهو ما يدل عليه كلام ابن عطية رحمه الله. قال معقبا على العبارة الشائعة (كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت): (وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام ومن لا يعقل كالأوثان فسميت طاغوتا في حق العبدة، وذلك مجاز. إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسنه وهو الشيطان).[3] وقال البيضاوي: (كل ما عبد من دون الله، أو صد عن عبادة الله تعالى).[4] وفي تقديري أن أمثلها هو تعريف البيضاوي لو أضيف إليه قيد (وهو راض). والله أعلم.

- وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم ما يدل على أنهم يبشرون أيضا-إضافة إلى تبشير الرسل- من قبل الملائكة عند حضور الموت، وكذلك يوم الحشر. قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(64)﴾[يونس]، وقال أيضا: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12)﴾[الحديد].

- وفي الآية تنويه بأهل التمييز والوعي الذين ينظرون فيما يصلهم من الأحاديث والتصاريح والمعلومات الدينية وغيرها والأحكام على الناس والمواقف وسواها، فيزنون ذلك كله بميزان الشرع الصحيح والعقل السليم فيستفيدون مما فيه فائدة ويطرحون ماسواه.[5] على عكس الذين يقبلون كل ما يسمعون وإن كان باطلا أو يسمعون ولا يستفيدون أي شيء مما سمعوا وإن كان مفيدا. وقد هدد النبي ﷺ هذا الصنف فقال: (ويل لأقماع القول).[6]

وخلاصة هذا المطلب: أن النبي ﷺ أمر بتبشير المؤمنين به تماما كما أمر من سبقوه من الرسل عليهم السلام.

عنهم، كما روى عن أجلة التابعين، وروى عنه عبد الرحمن بن أبي ليلى وشريح القاضي والحارث الأعور وغيرهم من أئمة الإسلام. توفي سنة 103هـ. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 480، 269/5؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 74، ص 40].

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 556/4-558؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 17/7؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 344/1.

(2) الطبري، جامع البيان، 558/4.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز، 344/1.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل، 155/1.

(5) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 477/3.

(6) جزء من حديث، رواه البخاري في الأدب المفرد، باب رحمة البهائم، رقم 380، ص 133؛ وأحمد في المسند، رقم 6541، ص469؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 14579، 651/13؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 482، 870/2/1.

– وأن المبشرين هم المؤمنون **عامة**، والصابرون، والمتواضعون المخلصون لله المقيمون الصلاة والمنفقون أموالهم في وجوه الخير، والمحسنون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم، ومن اتبعوا القرآن الكريم إيمانا به وعملا بما فيه، ومن يخافون الله في السر كما يخافونه في العلن **خاصة**.

– وأن ما يبشرون به هو سابقة الخير، والمكانة العالية، والفضل الكبير، وثناء الله عليهم، ورحمته بهم، ومغفرته لهم، مع الأجر الكريم، والنصر والتمكين في الدنيا، وجنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال إنسان قط.

– وأن سر ذلك التكرار –والله أعلم– هو توكيد تحفيزهم على الاستجابة له والإيمان بما جاءهم به وحثهم على التمسك به والصبر على ما قد يصيبهم من الابتلاء في سبيله.

المطلب الثالث: أوامر الله إلى النبي ﷺ بإنذار الناس إنذارا ينفع المؤمنين ويقيم الحجة على المعرضين

أشرت في بداية المطلب الثاني من هذا المبحث إلى الارتباط الوثيق بين دعوة الرسل للناس إلى الإيمان وبين تبشيرهم لمن يستجيبون لهم، وأشير هنا إلى أن ذلك الارتباط نفسه واقع بين دعوتهم –عليهم السلام– وبين إنذارهم لمن يكذبهم ويعرض عنهم ويكفر بهم وبمن أرسلهم. وقد بلغ ذلك الارتباط من القوة أن القرآن يقصر في بعض نصوصه مهامهم –عليهم السلام– على هذين الأمرين،[1] أي التبشير والإنذار. قال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف:56]. فهل أمر نبينا ﷺ بإنذار من يعرض عنه كما أمر إخوانه من قبل؟ وما الذي ينذرهموه؟ ولماذا ينذرهم؟ هذا المطلب محاولة للوصول إلى الإجابة عن هذه الأسئلة.

نبينا محمد ﷺ أحد أولئك المرسلين، بل هو خيرهم وخاتمهم، ومن ثم جاءت نصوص كثيرة في القرآن الكريم تصفه بالنذير، بل تقصر –أحيانا– مهمته على الإنذار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(49)﴾[الحج]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(65)رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(66)قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ(67)أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ(68)مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(69)إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(70)﴾[ص]. وفي هذا الإطار توجهت إليه ﷺ أوامر عديدة بالإنذار، منها:

* قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(51)﴾ [الأنعام].

– أي: وخوف –يا محمد– بالقرآن الذي أنزلناه إليك من يخافون من هول يوم تسوقهم فيه الملائكة للحساب والجزاء لعلمهم بأن ذلك واقع يقينا، حيث لا ناصر لهم ولا شفيع إلا بإذن الله، ليعملوا بأوامره ويكفوا عما نهى عنه.[2]

---

(1) انظر: عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 47.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/257–278؛ السعدي، تيسير الكريم المنان، ص 235؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 180.

- فتضمن مطلع الآية أمرا ربانيا كريما إلى النبي ﷺ أن ينذر بالقرآن الكريم من يخافون من أهوال يوم القيامة كي يتقوا الله ربهم فيجتهدوا في طاعته ويحذروا من معاصيه.

- وإنذاره ﷺ متوجه إلى الثقلين جميعا، وإن كانت الآية اقتصرت على ذكر الخائفين من يوم الحشر لعلمهم بضرورة وقوعه؛ لأن الحجة عليهم أقوى. قال السمرقندي: (وإنما خص بالإنذار الذين يعلمون، وإن كان منذرا لجميع الخلق لأن الحجة عليهم وجبت لاعترافهم بالمعاندة).(1)

- واختلف المفسرون في هؤلاء الخائفين من الحشر إلى الله جل جلاله. فذهب الطبري إلى أن المقصود بهم أصحاب النبي ﷺ. قال -رحمه الله-: (وهذا أمر من الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه ، وتذكيرهم والإقبال عليهم بالإنذار، وصده عن المشركين به بعد الإعذار إليهم ، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم).(2) ورأى السمرقندي أنهم أهل الكتاب؛ وقد كانوا يقرون بالبعث والنشور. (3) وتردد الزمخشري والرازي والبيضاوي والنسفي في المراد، فقال الزمخشري: (إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. أي يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. و إما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث ، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء).(4) وذهب السيوطي إلى أنهم عصاة المؤمنين. (5) وهو قول قريب من قول الطبري. والراجح في تقديري -والله أعلم- أن المراد هم جميع من يخاف على نفسه أهوال يوم الحشر والحساب مسلما كان أو غير مسلم؛ لأن الآية عامة ولم يرد ما يخصصها، ولذلك قال أبو حيان: (وظاهر قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني، فلا يتخصص بالمسلمين المقرين بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه لعلهم يتقون، أي يدخلون في زمرة أهل التقوى ، ولا بأهل الكتاب ، ولا بناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم).(6) وبه قال القرطبي وابن عطية والشوكاني.(7)

---

(1) السمرقندي، بحر العلوم، 486/1.

(2) الطبري، جامع البيان، 258/9.

(3) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 486/1.

(4) الزمخشري، الكشاف، 349/2.

(5) انظر: المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 133.

(6) أبو حيان، البحر المحيط، 138/4.

(7) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 386/8؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 294/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 421.

– وبين عجز الآية ثمرة أمره ﷺ بالإنذار الوارد في صدرها وهي تحصيل تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه. قال الطبري: (يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتناب معاصيه).[1] وذلك بداهة يشمل فعل الطاعات عموما ومنها الإيمان بالله وتوحيده وعبادته، وترك الكفر والشرك وسائر المعاصي.

* وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(44)وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(45)﴾[إبراهيم].

– أي: وخوف الناس –يا محمد– ما سينزل بهم من أهوال يوم القيامة الذ ي يأتيهم فيه العذاب فيقول الظالمون لأنفسهم بالكفر والمعاصى: يا ربنا أجل عنا العذاب، وردنا إلى الدنيا، وأعطنا مهلة، نتدرك ما فاتنا بإجابة دعوتك إلى التوحيد ومتابعة رسلك . فيقال لهم: أتقولون اليوم هذا وقد حلفتم سابقا في الدنيا أنكم لا انتقال لكم من الدنيا إلى الآخرة، وأنكم إذا متم لا تبعثون يوم القيامة؟ وسكنتم في الدنيا فى ديار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي –من الأقوام الذين عاشوا قبلكم– واتضح لكم برؤية آثارهم كيف عاقبناهم فلم تتعظوا، ووصفنا لكم ما فعلوا وما حل بهم، فلم تعتبروا.[2]

– فافتتحت الآية بأمر رباني إلى النبي ﷺ أن ينذر البشر أهوال العذاب الذي سيأتيهم يوم القيامة حتى يتمنى الكفار والعصاة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا يجابون إلا بالتقريع والتوبيخ.

– وفي المأمور به دليل على عموم رسالة النبي ﷺ، إذ أن لفظة (الناس) من ألفاظ العموم التي تشمل البشر جميعا، ولا تقتصر على جنس أو قبيلة أو طائفة معينة.

– وفي الآية بيان لشدة أهوال يوم القيامة مما يجعل الناكبين عن دعوة الحق المعاندين للرسل يلتمسون النجاة ولو بالأماني والمطالب التي لا تتحقق.

– وفيها أيضا صعوبة مواقف الظالمين في ذلك اليوم الرهيب حيث يندمون على تفريطهم في الإيمان والعمل الصالح ويتمنون الرجوع إلى الدنيا لاستدراك ما فات.

– وفي الآية أيضا تنديد بالظلم وبيان لعواقب أهله وسوء مصيرهم، ومن ذلك تقريعهم على أقوالهم وأعمالهم السيئة في الدنيا وتوبيخهم بقيام الحجة عليهم.[3]

* وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(39)﴾[مريم].

---

(1) الطبري، جامع البيان، 258/9.

(2) انظر: المصدر السابق، 714/13-716؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 145/19-147؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 346/4-347؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 370-371.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 66/3.

– أي: وخوف –يا محمد– هؤلاء المشركين يوم القيامة الذي يشتد فيه الندم على ما فات حين فرغ من الحساب وصرف الفريقان إلى النعيم والجحيم، وهم غارقون في غفلة في هذه الحياة الدنيا عن إدراك ما ينتظرهم في ذلك اليوم العظيم وهم لا يصدقون بوقوعه.(1)

– فتضمن مطلع الآية أمرا إلهيا كريما إلى نبيه ﷺ بإنذار المشركين من قومه يوم القيامة الذي تعظم فيه حسرتهم على تفريطهم في جنب الله، حين يفصل بين الخلائق، ويؤمر إلى الجنة بالسعداء وإلى النار بالأشقياء، لعلهم يستفيقون من غفلتهم عنه فيؤمنوا بالله ورسوله والدار الآخرة ويعملوا صالحا للنجاة من هول ذلك اليوم الرهيب.

– والحسرة لغة هي أشد الندم وأبلغه، بحيث يكون النادم كالحسير من الدواب الذي كل وأعيى حتى لم تبق فيه منفعة. (2) وسمي يوم القيامة بذلك لأن الناس جميعا يتحسرون فيه على ما فاتهم في الدنيا من فرص الخير، فالمسيئون يتحسرون على ما اقترفوه من السيئات، والمحسنون يتحسرون على عدم الاستكثار من الحسنات.(3)

– وقد استشهد النبي ﷺ بهذه الآية وهو يصف بعض أحداث ذلك اليوم الرهيب. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالموت كهيأة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:39]).(4) وهذا ما جعل جمهور المفسرين يقولون بأن يوم الحسرة هو يوم ذبح الموت. (5) وفي تقديري أنه رأي غير صحيح، أو على الأقل هو تعبير غير دقيق؛ لأن يوم القيامة يوم واحد طويل لا نهاية لطوله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وتقع فيه أهوال وأحداث كثيرة، وليس كل حدث أو مجموعة أحداث تقع فيه لها يوم خاص حتى يكون للحسرة يوم خاص منها؛ بل النصوص دالة بأن الناس –خصوصا الكفار– يشعرون في مراحل مختلفة من ذلك اليوم بالحسرة كوقت الموت وحين البعث وعند تناول

---

(1) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، 2/336-337.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 4/116.

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل، 3/188؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 4/11؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 890.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رقم 4730، ص 868؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم 2849، ص 1143-1144.

(5) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/17.

الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر وعند دخول النار ووقت ذبح الموت وغيرها، فموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرة جدا.[1]
ويؤكد هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنه ليوم الحسرة بأنه (من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده).[2]
- والأمر المقضي الذي أشارت إليه الآية هو الفراغ من محاسبة الخلائق والحكم على أهل النار بالخلود فيها و لأهل الجنة بالخلود فيها وذبح الموت كما دل عليه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي مر بنا قريبا، وهو قول أكثر من اطلعت على أقوالهم من المفسرين، كالطبري والزمخشري والقرطبي وابن كثير والبيضاوي والنسفي والخازن وغيرهم. ومن المؤسف أن الغفلة التي كانت وصفا للمشركين في زمن النبي ﷺ، والتي نعاها الله عليهم وذمهم بها عادت اليوم إلى أكثر البشرية بمن فيهم أغلبية المسلمين، رغم ما يمر بهم من الكوارث والمصائب والأوبئة وغيرها من أنواع البلاء التي تكفي واحدة منها فقط لإيقاظهم لو كانت قلوبهم حية، ورغم إنذار القرآن وتحذيره وتذكيره لهم بمثل هذه الآية العظيمة وغيرها، ولكن أسكرتهم الدنيا وأشغالها، واستحكمت على القلوب أقفالها.
* وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)﴾[الشعراء].
- أي: وخوف -يا محمد- الأقرب فالأقرب من قومك أن يحل بهم العذاب بسبب شركهم وعصيانهم. وألن جانبك لمن استجاب لك فآمن بك وبما أنزل إليك. فإن أبى أقربوك أن يطيعوك بعد إذ أنذرتهم وأصروا على شركهم ومعاصيهم فأعلن لهم براءتك منهم وم ن إشراكهم وعصيانهم . وفوض أمرك إلى القو ي الذي لا يغلب الراحم الذي لا يخذل من وثق فيه واستند إليه.[3]
- ففي صدر الآية أمر من الله سبحانه إلى النبي ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين ما يحل بهم من النكال إن هم أقاموا على شركهم وعصيانهم لله ولم يدخلوا في الإسلام، وفي المقابل أمره جل جلاله باللين في معاملة من آمنوا به وبما جاء به من الحق والتواضع لهم.
- وفي الآية أمر آخر إليه ﷺ بإعلان البراءة من الأعمال الكفرية وسائر المعاصي الصادرة من أقاربه المشركين المقيمين على الكفر، والملاحظ أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر من نبيه ﷺ على إضمار البراءة من أعمالهم، بل كلفه بمعالنتهم بها، وفي ذلك تيئيس لهم أن يقرهم على شيء من المخالفة، ودفع لمطعن أي كان بأنه ﷺ يحابي في دين الله أقرباءه.[4]

---

(1) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 5/233-235.

(2) الطبري، جامع البيان، 15/547.

(3) انظر: المصدر السابق، 17/664-666؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 16/83-84.

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 24/203.

- وفي الآية أيضا تقرير لقاعدة البدء بالأقربين في الأمور كلها؛ لأنهم ألصق بقريبهم ممن سواهم من الناس، ووجوب البراءة من الشرك والمشركين أيا كانوا، والتوكل على الله في الأمور جميعا. (1)

- وفيها أيضا استحباب ملاينة المؤمنين والتلطف معهم والتعطف عليهم، خصوصا حدثاء العهد بالإسلام، فإن ذلك مما يعين على رسوخ الإيمان في قلوبهم ويقوي ولاءهم للمسلمين.(2)

- وقد نفذ النبي ﷺ هذا الأمر على أتم وجه. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:214] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟). قالو: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2)﴾[المسد]. (3)

* وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ(18)يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19)﴾[غافر].

- أي: وحذر -يا محمد- مشركي قومك يوم القيامة القريبة، حين تصير الأفئدة عند الحلاقم من شدة الرعب، ملتزمين الصمت رغم امتلائهم كربا وغيظا وغما، ليس للظالمين أنفسهم بالشرك قريب مشفق ولا شفيع يجاب في شفاعته لهم. وهو -جل جلاله- يعلم خيانة العين في حركتها أو لحظها، وما تكتم الصدور من المعلومات والأسرار.(4)

- فتضمن مطلع الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بإنذار قومه المشركين يوم القيامة التي دنا وقتها، والتي تشتمل على أهوال عظام تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان.

- والآزفة لغة اسم فاعل مؤنث مشتق من الأزوف وهو الدنو والاقتراب، (5) فهي إذن (صفة لموصوف محذوف تقديره الساعة الآزفة، أو القيامة الآزفة)،(6) أي القريبة الدانية. وجمهور المفسرين على أن المقصود بها في هذا الموضع هو يوم القيامة. (1) وتردد

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 689/3.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ(87)﴾[الشعراء]، رقم 4770، ص 882؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)﴾[الشعراء]، رقم 208، ص 114.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 300/20-303؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 342/18-343؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 54/5.

(5) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص15؛ ابن منظور، لسان العرب، 99/1.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 113/24.

البيضاوي بين كونها (يوم القيامة) أو (الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار) دون ترجيح لأي منهما.[2]. والراجح في تقديري هو قول الجمهور؛ لأن هذا الوصف لم يتكرر في القرآن الكريم إلا مرة واحدة فقط مقصودا به القيامة بلا خلاف بين المفسرين – في حدود اطلاعي– وهو قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ(57)لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(58)﴾[النجم].

– وفي المأمور به تعظيم وتهويل لما ستلاقيه الخلائق في ذلك اليوم الرهيب من المشاق الجسام التي تجعل الأفئدة –لشدة اضطرابها– تزول عن مواضعها صاعدة من شدة الرعب حتى تكاد تخرج من أفواههم، وفيما تبقى أماكنها هواء تصير هي لدى الحلاقم معترضة كالشجى، لا هي خرجت فيموتوا ولا هي عادت إلى أماكنها فيستريحوا.[3]

– وفي الآية نفي لوجود محبين مشفقين أو شفعاء مطاعين يمكن أن يشفعوا للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بإشراكهم بربهم ما لم ينزل به سلطانا كما كانوا يزعمون في الدنيا. قال سبحانه: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ(94)﴾[الأنعام].

– وفيها أيضا دلالة على عظمة جريمة الكفر والشرك التي لا تنفع معها شفاعة ولا تشملها مغفرة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13)﴾[لقمان]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(48)﴾[النساء].

– وفيها كذلك تقرير لسعة علم الله جل وعلا الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا، (ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عذب).[4]

* وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)قُمْ فَأَنْذِرْ(2)﴾[المدثر].

– أي: يا أيها المتلفف بثيابه عند نومه قم من مضجعك فحذر الناس من عذاب الله إن لم يسلموا.[5]

– فتضمنت الآية أمرا من الله جل وعلا إلى نبيه ﷺ بالإنذار دون التنصيص على قوم معينين لذلك الغرض.

– واختلف المفسرون في المقصودين بذلك الإنذار. فذهب الطبري وابن الجوزي والبغوي والشوكاني إلى أنهم أهل مكة؛ وذهب ابن عطية وأبو حيان والبقاعي والسعدي إلى أن المقصود جميع الخلق. بينما تردد النسفي في تحديد المقصود. [1] وفي تقديري

---

(1) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 212/7.

(2) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 54/5.

(3) انظر: البقاعي، نظم الدرر، 30/17-31.

(4) الجزائري، أيسر التفاسير، 523/4.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 404/23؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1550.

أن المعنى افعل الإنذار مع كل من يستحقه ممن تقدر على إيصاله إليه دون تحديد فرد أو قوم معينين، على نحو ما قال الألوسي؛[2] فيكون متعلق الفعل محذوفا لحكمة كما ذكر في سائر المواضع السابقة لحكمة. قال الزمخشري: (والصحيح أن المعنى فلفعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد).[3]

- ومطلع سورة المدثر الذي تضمن الأمر بالإنذار الذي نحن بصدد الحديث عنه هو أول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي، وبذلك يكون الإنذار المأمور به في هذا الموضع -على الراجح- أول أمر بالإنذار توجه إلى النبي ﷺ من الناحية التاريخية وهو آخره من ناحية ترتيب المصحف. روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: ثم فتر عني الوحي فترة، فبينا أنا أمشي، سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)قُمْ فَأَنْذِرْ (2)﴾[المدثر] إلى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)﴾[المدثر].[4] ولهذا قال من قال من المفسرين إن النبي ﷺ أرسل بالمدثر بعد أن نبئ ب(اقرأ). قال البقاعي: (وذلك أنه ﷺ كان نزل عليه جبريل عليه السلام ب ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[المعلق:1] ونحوها فكان بذلك نبيا، ثم نزلت عليه هذه الآية فكان بها رسولا).[5] وهو جمع وجيه بين ما يظهر متعارضا من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها [6] ومعها جمهور العلماء [7] أن أول ما نزل من القرآن هو ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)﴾[العلق] وقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أول ما نزل من القرآن هو﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)﴾ [المدثر].[8]

- واختلف أهل التفسير أيضا في القيام المأمور به في هذه الآية على معنيين أشار إليهما معا أبو حيان بقوله:

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 404/23؛ النسفي، مدارك التنزيل، 561/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 392/5؛ أبو حيان، تفسير البحر المحيط، 362/8؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 213/7؛ البغوي، معالم التنزيل، 264/8؛ البقاعي، نظم الدرر، 41/21؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1550..

(2) انظر: الألوسي، روح المعاني، 116/29.

(3) الزمخشري، الكشاف، 252/6.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم 3238، ص 595؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم 161، ص 89.

(5) البقاعي، نظم الدرر، 41/21.

(6) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2)﴾[العلق]، رقم 4956، ص 935.

(7) انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ-2001م، 83/1-84.

(8) رواه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3)﴾[المدثر]، رقم 4924، ص 924؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم 161، ص 89.

(أي: قم من مضجعك، أو قم بمعنى الأخذ في الشيء، كما تقول: قام زيد يضرب عمرا، أي أخذ، ... والمعنى قم قيام تصميم وجد).[1] وغير بعيد أن يرادا معا، فإن من بلاغة القرآن العظيم إيراد المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة.

– وفي مناداته ﷺ بالمدثر ملاطفة كريمة له من قبل الكريم اللطيف تقدست أسماؤه، (إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه).[2]

– ولئن كان الأمر بتبشير أهل الإيمان ورد إلى النبي ﷺ في اثني عشر موضعا من القرآن الكريم -كما سقناها في المطلب السابق- فإن أهل الكفر أيضا كان لهم نصيب من أمر الله لنبيه ﷺ بتبشيرهم في سبع مواضع من الكتاب العزيز، **ولكن** بما يسوؤهم لا بما يسرهم، ومن ثم كان بمعنى الإنذار أو قريبا منه. قال ابن عاشور: (واستعمل بشرهم في معنى أنذرهم تهكما. وحقيقة التبشير الإخبار بما يظهر سرور المخبر بفتح الباء ، وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم، أو التمليح).[3] وإذا كان المؤمنون بشروا ببشريات منوعة منها أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وقدم صدق عند ربهم، وصلوات منه تعالى ورحمة، وفضل كبير، ومغفرة وأجر كريم، وغيرها -كما مر بنا- فإن الكافرين بشروا -في جميع المواضع السبع المشار إليها أنفا- ببشرى واحدة ووحيدة وهي (العذاب الأليم)، أي التعذيب البليغ في الإيلام.[4] وقد توزعت على ملل الكفر على هذا النحو:

- توجه منها أربع إلى المشركين، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(3)﴾[التوبة].

– وقوله عز من قائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(6)وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)﴾[لقمان]. قال الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكافر إذا تتلى عليه آيات الله، وهي هذا القرآن العظيم، ولى مستكبرا ، أي متكبرا عن قبولها، كأنه لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرا أي : صمما وثقلا مانعا له من سماعها، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبشره

(1) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، 362/8.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 357/21.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 207/3.

(4) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 1140.

بالعذاب الأليم).[1] وعلى هذا فالتبشير بالعذاب الأليم يشمل كل من يصد عن سبيل الله ويحارب دينه أو يستكبر على كتابه وأحكام شريعته وإن ادعى الانتساب إلى الإسلام وأهله بلسانه.

- وقوله جل شأنه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(7)يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَ بَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(8)وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(9)مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10)﴾[الجاثية]. قال ابن عاشور: (والمراد بـ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ جميع المشركين الذين كذبوا دعوة الرسول ﷺ وعاندوا في معجزة القرآن وقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: 31] وبخاصة زعماء أهل الشرك وأيمة الكفر مثل النضر بن الحارث، وأبي جهل وقرنائه).[2] وعموم اللفظ يدل أن التهديد بالويل والتبشير بالعذاب الأليم يتناولان كل كذاب مستكثر للآثام وإن لم يكن كافرا.

- وقوله سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ(22)وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(23)فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(24)﴾ [الانشقاق].

• وتوجهت منها اثنتان إلى أهل الكتابين، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(22)﴾[آل عمران]، قال ابن كثير: (هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله، قديما وحديثا).[3]

- وقوله جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(34)يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)﴾[التوبة]. والتبشير بالعذاب الأليم في هذه الآية يعم من يكنزون المال ولا يخرجون حق الله منه للفقراء -وغيرهم من المحاويج- وإن كانوا مسلمين كما فهم منها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.[4] قال القرطبي: (وهو الصحيح؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال: ويكنزون، بغير والذين. فلما قال: (والذين) فقد استأنف معنى آخر يبين أنه عطف جملة على جملة).[5]

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان، 547/6.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 331/25-332.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 19/2.

(4) انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)﴾ [التوبة]، رقم 4660، ص 846.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 182/10-183.

• وتوجهت منها واحدة إلى المنافقين، وهي قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(138)الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا(139)﴾[النساء].

وخلاصة هذا المطلب:

– أن النبي ﷺ أمر بإنذار من أعرضوا عن الاستجابة له كما أمر الرسل من قبله تماما.

– وأن المنذرين هم الناس **عامة**، والكفار والمشركون وأهل الكتاب والمنافقون والظالمون **خاصة**، والذين يصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، والذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وعشيرته الأقربين، وكل أفاك أثيم بصفة **أخص**.

– وأن ما ينذرهم إياه هو العذاب الأليم **عامة**، ويوم الحسرة والآزفة –وهما يوم القيامة– يوم يطلبون تأخير الموت أو العذاب وتأجيلهما فلا يستجاب لهم **خاصة**، وكي جباههم وجنوبهم وظهورهم، وانعدام الولي والحميم والشفيع المطاع بصفة **أخص**؛ وأنه ﷺ ينذرهم لعلهم يتقون العذاب المشار إليه ويعملون على تفاديه، وذلك بأن يستجيبوا له ﷺ ويؤمنوا به وبدينه؛ وأن سر تكرار الإنذار هو التأكيد عليه والمبالغة في تخويف المعرضين لعلهم يؤمنون.

وخلاصة هذا المبحث:

أن الأوامر الواردة فيه تضمنت ثلاثة مواضيع بارزة، هي:

– دعوة الناس إلى دين الله القويم، واستقامته هو ﷺ عليه والعمل به، مع بيان الطرق الصحيحة للدعوة، والتأكيد له ﷺ أنه على طريق الهداية، وتحذيره من ترك الدعوة أو الاستجابة لمن يريد صده عن آيات الله أو يشكك فيها.

– تبشير الله لمن استجاب لنبيه، فآمن بالله وما أنزل على رسوله. مع التنصيص على بشريات عظيمة شملت جنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار، وتحوي من صنوف اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن لهم قدم صدق عند ربهم، وصلوات منه تعالى ورحمة، وفضل كبير، ومغفرة وأجر كريم، وغيرها.

– إنذار الناس عامة مما ينتظرهم من أهوال يوم القيامة،[1] وأهل مكة خاصة، والخائفين من تلك الأهوال بصفة أخص أيا كان دينهم. مع تركيز الإنذار على ما ينطوي عليه ذلك اليوم من الرعب الذي يجعل القلوب ترتفع حتى تبلغ الحناجر، ويحمل نفوس الكافرين على التماس تأخير العذاب والعودة إلى الدنيا لتدارك الأمر بإجابة الدعوة واتباع الرسل، لكن دون أي استجابة

(1) وقد تضمن حذف متعلق فعل الأمر (أنذر) من آية المدثر فائدة مهمة وهي تعميم **المنذر منه** ليشمل كل ما نص الوحي إلى النبي ﷺ على الإنذار منه، **وتعميم المنذر** ليشمل كل فرد من أمة الدعوة من زمانه ﷺ إلى آخر الدهر إنسا وجنا، **وتعميم فترة الدعوة** أيضا بالإنذار المستمر؛ لأنه أول أمر نزل بالإنذار، وآخره في ترتيب المصحف فكأنه تنبيه للنبي ﷺ أن هذا العمل ينبغي أن يستوعب مدة النبوة كلها من أولها إلى آخرها، خاصة وأنه الأمر الوحيد الموجه إليه ﷺ بالإنذار الذي حذف مفعوله.

لالتماسهم، أو وجود محب ينفعهم أو شافع تقبل شفاعته لهم. على أن يكون الإنذار بالقرآن الكريم وما يحويه من الزواجر العظيمة والمواعظ المؤثرة، وتبشير المعاندين المتكبرين بالعذاب الأليم.

المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتقويم العقائد

لما كان الإنسان موضع اهتمام الإسلام وتكريمه، بل وتفضيله على كثير من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(70)﴾[الإسراء]، وكانت أعماله وأقواله ومواقفه جميعا أثرا لما استقر في قلبه من العقائد والأفكار وما رسخ في نفسه من الخير والشر والصلاح والفساد، وكان النبي ﷺ هو المتلقي للرسالة الإسلامية من أمين الوحي والترجمان العملي لنصوصها وإرشاداتها وتوجيهاتها، فقد توجهت إليه ﷺ جملة من الأوامر الإلهية في القرآن الكريم تكلفه بإصلاح ما يشيع عند الناس من العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة وبيان الصواب فيما يتعلق بها. فما تلكم الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ في هذا المجال؟ وما أهم تلك العقائد والأفكار التي كلف النبي ﷺ بتصحيحها؟ وما أبرز التوجيهات التي أسداها ﷺ لإصلاح النفوس وتزكيتها؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة في هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتزكيتها

المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة

الإسلام دين الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها كما صرحت كثير من نصوصه المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(30)﴾[الروم]، وذلك ما جعله صالحا لكل الشعوب وجميع الأزمنة والبلدان. ومن مظاهر فطريته اهتمامه الشديد بإصلاح عقائد الناس وتقويم أفكارهم وتطهير أذهانهم من الخرافات والأوهام التي لا مستند لها من عقل سليم أو نقل صحيح، سواء كانوا من أبنائه المعتنقين له أو من غيرهم الذين هم محل دعوته. قال ابن عاشور: (وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له، وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ، ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه).[1] فما أهم الأفكار والعقائد المنحرفة التي أمر النبي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 194/3.

ﷺ بتقويمها؟ وما أبرز الطوائف التي شملها خطابه ﷺ في هذا المجال؟ وما أهم التوجيهات التي أسداها؟ هذا المطلب محاولة للإجابة عن هذين السؤالين.

ورد إلى النبيﷺ في هذا الإطار عدد من الأوامر الربانية تكلفه بإصلاح جملة من العقائد الفاسدة والأفكار الخاطئة، وبيان الحق والصواب فيها. ومن النصوص القرآنية المتضمنة لتلك الأوامر:

* قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(120)﴾[البقرة].

– أي: لن تقنع اليهود ولا النصارى منك –أيها النبي– بأي شيء تسترضيهم به إلا أن تدخل في دينهم الذي يدعون باطلا أنه طريق الهداية والرشاد، فقل لهم إن هدى الله الذي ضمنه في الإسلام والقرآن هو الهدى الحقيقي والوحيد ، وإذا اتبعت –يا محمد– ميول أنفس هؤلاء اليهود والنصارى وآراءهم بعد أن عرفت الحق الذي أنزلناه عليك، وعلمت ما هم عليه من الكفر والضلال بالدليل القاطع، فلن يكون لك من دون الله محب يلي أمرك ويعصمك منه، ولا مؤيد ينصرك ويدفع عنك عقابه.[1]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يعلن لأهل الكتاب جميعا –يهودا ونصارى– أن الهدى الحقيقي الوحيد هو هدى الله الذي يحمله كتابه ويتجسد في دينه الإسلام. قال ابن كثير: (وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل).[2]

– وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال؛ **أحدها**: أن اليهود والنصارى دعوا النبي ﷺ إلى أديانهم، وادعى كل فريق منهما أن الهدى هو ما هم عليه دون ما عليه باقي أهل الملل، فحذره الله من الاستجابة لهم، ولقنه الجواب الصحيح للرد عليهم. وهذا قول مقاتل. **ثانيها**: أن الفريقين من أهل الكتاب كانوا يلتمسون من النبي ﷺ المهادنة والمصالحة ويعدونه بأنهم سيسلمون إن أمهلهم، فنهاه الله عن تصديقهم والركون إليهم، وأعلمه أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم. **ثالثها**: أن نصارى نجران ويهود المدينة كانوا يرجون من النبي ﷺ أن يوافقهم على دينهم حين كان يصلي إلى بيت المقدس وهي قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة يئسوا من موافقته، فنزلت الآية. وهو قول ابن عباس.[3] وفي تقديري أن الراجح هو قول ابن

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 2/484-485؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 4/34.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 1/247.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 2/484-485؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2/347؛ السمرقندي، بحر العلوم، 1/154؛ البغوي، معالم التنزيل، 1/143؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 1/204؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 1/138؛ الخازن، لباب التأويل، 1/74-75؛ أبو إسحاق أحمد الثعلبي ت 427هـ، الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، دراسة وتحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م، 1/266.

عباس؛ لأن القرآن يؤيده. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ(145)﴾[البقرة].[1]

– والملة لغة: مشتقة من أمللت الكتاب وأمليته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة:282]،[2] (ثم نقلت إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبي ﷺ ولا يختلف الأنبياء عليهم السلام فيها)،[3] فأطلقت على الدين والشريعة، وقيل: هي معظم الدين. وتطلق أيضا على السنة والطريقة. [4] ولا يكاد يختلف معناها عند المفسرين. قال القرطبي: (والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله. فكانت الملة والشريعة سواء، فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة، فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره).[5] فعلى هذا تكون الملة –والشريعة– هي الجانب النظري للوحي الإلهي إلى رسله، والدين هو تطبيق العباد لذلك الوحي.

– وفي مطلع الآية تيئيس من الله سبحانه –الذي يعلم ما في قلوب القوم– للنبي ﷺ من تحصيل مرضاة أهل الكتاب مهما فعل إلا أن يوافقهم على باطلهم ويتبع دينهم، ولذلك ينبغي أن يسعى في رضى الله وحده بالثبات على دينه والدعوة إليه. قال الرازي: (اعلم أنه تعالى لما صبر رسوله بما تقدم من الآية ... عقب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم ولا يرضون منه بالكتاب، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم).[6]

– وإلى هذه الآية الكريمة استند جماعة من الأئمة منهم أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وداود الظاهري –بل هو قول الجمهور– في قولهم إن الكفر ملة واحدة؛ لأن الله سبحانه قال ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ فوحد الملة مع أن اليهود والنصارى أمتان مختلفتان ولكل منهما شريعته، كما استدلوا بقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ [الكافرون]، وقول النبي ﷺ: (لا يتوارث أهل ملتين) [7] على اعتبار أن المقصود منه هو الكفر والإسلام، كما يدل عليه حديث أسامة بن زيد في الصحيحين أنه ﷺ قال:

---

(1) انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 225/1.

(2) انظر: الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 472.

(3) الألوسي، روح المعاني، 371/1.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 129/14؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 311؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1058.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 345/2.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب، 34/4.

(7) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفرائض عن رسول الله ﷺ، باب لا يتوارث أهل ملتين، رقم 2108، ص 476؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ وأحمد في مسنده، رقم 6664، ص 478؛ وأبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر؟ رقم 2911،

(لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم).[1] ويعضد رأي هؤلاء الأئمة ما رواه محمد بن الحسن الشيباني [2] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (المشركون بعضهم أولى ببعض لا نرثهم ولا يرثونا)، ثم عقب عليه الشيباني بقوله: وبه نأخذ، والكفر كله ملة واحدة يتوارثون عليها وإن اختلفت أديانهم، يرث النصراني اليهودي، واليهودي المجوسي، ولا يرثهم المسلمون، ولا يرثونهم، وهو قول أبي حنيفة.[3] بينما ذهب مالك والأوزاعي وأحمد في رواية أخرى إلى أن الكفر ملل شتى فلا يتوارث أهل ملتين مختلفتين منها، عملا بظاهر حديث (لا يتوارث أهل ملتين)، ووجهوا لفظة ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ بأن المقصود مرها الكثرة وإن جاءت موحدة في اللفظ يدل على ذلك إضافتها إلى ضمير الكثرة.[4]

- ولشدة شكيمة أهل الكتاب -وخصوصا اليهود- في المخاصمة عن دينهم والعناد في المجادلة عنه ولو بالباطل علم الله نبيه ﷺ ما يجيبهم به وهو يصحح أفكارهم المنحرفة ويواجه أساليبهم الملتوية. نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾: (خصومة علمها الله محمدا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة).[5] ولدقة هذا الجواب وإفحامه لأهل الزيغ وكفايته في الرد عليهم تكرر الأمر به إلى النبي ﷺ في موضع آخر من القرآن الكريم لمشابهة السياق الذي جاء فيه هناك بالذي ورد فيه هنا. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(71)﴾[الأنعام]. فلا مجال للنبي ﷺ أن يداهن في الحق أو يسكت عن الاعتقاد الفاسد والرأي الكاسد والقول الباطل وإن كان حملتها أشرس الناس

ص 443؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفرائض، باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، رقم 2731، ص 464؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 7613، 1261/2.

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، رقم 6764، ص 1228؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، رقم 1614، ص 658؛ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الكوفي. فقيه العراق العلامة الكبير صاحب أبي حنيفة الإمام المصنف. ولد سنة 132هـ في واسط ونشأ في الكوفة. ورحل إلى المدينة وسكن بغداد. تفقه على يد أبي حنيفة النعمان ثم على يد صاحبه الفقيه القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم. روى عن الإمام مالك والإمام الأوزاعي ومسعر بن كدام وغيرهم من أئمة الإسلام، وروى عنه الإمام الشافعي وأحمد بن حفص وأبو عبيد وغيرهم. توفي سنة 189هـ بالري. [انظر على سبيل المثال: أبو الحسن الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 135؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1359، 82/5].

(3) رواه أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ت 189هـ، في فقه محمد بن الحسن الشيباني المسمى كتاب الآثار، تحقيق وتعليق: أحمد عيسى المعصراوي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1427هـ-2006م، رقم 696، 676/2.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 346/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 248/1؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 204/1؛ أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ت 1353هـ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ-2001م، 241/6-242.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 247/1.

في الدفاع عما يحملون؛ لأن تحمل أذى مواجهتهم لكشف زيف بضاعتهم نوع من الجهاد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(52)﴾[الفرقان].

- وفي الآية دلالة على أن كل رأي أو اعتقاد أو تشريع عند أهل الكتاب أو غيرهم يعارض ما جاء به النبي ﷺ -وإن كان أساسه نص من كتبهم- فهو باطل؛ لأن الإسلام ناسخ لكل ما سبقه من الأديان. قال الشوكاني: (فأمره بأن يقول لهم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الحقيقي، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة، والكتب المحرفة).[1] ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:48].

- وتضمنت الآية أيضا نهيا شديدا جدا عن اتباع الهوى عموما -وأهواء اليهود والنصارى خصوصا- والتلبس بما هو من خصائص دينهم، ودلت على أن ذلك -وإن زينته النفس والشيطان- لا يكون إلا باطلا.[2] قال الشوكاني: (وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب، وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما فإن غالب هؤلاء -وإن أظهر قبولا، وأبان من أخلاقه لينا - لا يرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله).[3]

- وتنوع توجيه المفسرين لمعنى التهديد الذي توجه إلى النبي ﷺ في هذه الآية إن اتبع أهواء اليهود والنصارى، مع أن الله -جل جلاله- علم أنه ﷺ لا يفعل ذلك. فحمله بعضهم على معنى الفرض والتقدير، وحمله آخرون على معنى التثبيت له ﷺ، وقال غيرهم: هذا من باب التهييج والإلهاب، وذهب البعض الآخر إلى أن الخطاب له ﷺ والمراد من اتبع أهواء أهل الكتاب من المنافقين -بعد دخولهم في الإسلام- تمسكا بولايتهم وطمعا في نصرتهم، وقال سواهم: المراد -وإن كان الخطاب له ﷺ- أمته، تحذيرا لهم من أن يتبعوا أهواء أهل الملل، أو يطلبوا رضا أهل البدع. ولا يستبعد في تقديري أن تراد هذه المعاني جميعا، وأن يكون هذا الشمول من بلاغة القرآن الكريم الذي يورد المعنى الكثير في اللفظ القليل؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله أعلم.[4]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(31)﴾[آل عمران].

---

(1) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 89.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 34/4؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 50.

(3) الشوكاني، فتح القدير، ص 89.

(4) انظر: ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 82/1؛ ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 175/1؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 347/2؛ القاسمي، محاسن التأويل، 241/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 89؛ البقاعي، نظم الدرر، 142/2؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 248/1؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 50.

– أي: قل –أيها الرسول– إن كنتم صادقين فى ادعائكم حب الله جل وعلا وبتغون أن يحبكم الله فاتبعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، لأنني مبلغ عن الله، فإن فعلتم ذلك فإنه –سبحانه– س يحبكم لطاعتكم إياه باتباع رسوله، وسيتجاوز عن آثامكم فلا يعاقبكم عليها، والله جل شأنه كثير المغفرة والرحمة لخلقه.(1)

– فتضمنت الآية أمرا كريما من الله سبحانه إلى النبي ﷺ أن يبين للناس الكيفية الصحيحة شرعا التي يترجمون إليها محبتهم لله تعالى وذلك باتباع النبي ﷺ فيما جاء به من عند الله؛ لأنه رسوله المأمون الذي يبلغ مراده لعباده، لا بما تمليه عليهم أهواؤهم، أو يقلدون فيه آباءهم وإن كانوا مخطئين.

– ومما يزيد المعنى المشار إليه آنفا وضوحا ما ورد في سبب نزول هذه الآية. فقد ذكر المفسرون فيه أربعة أقوال. **أحدها**: ما نقله الواحدي –معلقا– عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف والقرطة، وهم يسجدون لها، فقال: (يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام)، فقالت قريش: يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم).(2) وهذا السبب لا يصح من جهة إسناده،(3) ولأن السورة مدنية بالإجماع. قال ابن عاشور: (وهذه السورة نزلت بالمدينة بالاتفاق).(4) وعلى افتراض صحته فهو يدل على تهممه ﷺ بتصحيح عقائد قومه فيما يتعلق بطرق التقرب إلى الله سبحانه، وتصوراتهم لوظائف آلهتهم وقدراتها المزعومة. فبين لهم ﷺ أن الكيفية السليمة للتعبير حبهم لله –إن صدقوا– إلى واقع عملي هي اتباعه ﷺ فيما يأمرهم وينهاهم لأنه مبلغ عن ربه، وسيثمر ذلك لهم حب الله لهم ومغفرته لذنوبهم، لا أن يوجهوا السجود وأنواع العبادة والتعظيم لأصنام جامدة عاجزة عن نفع نفسها فضلا عن نفعهم.

ثانيها: ما نقله الواحدي أيضا –وغيره– في رواية أخرى من حديث ابن عباس –رضي الله عنه– أن اليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي ﷺ عليهم، فلم يقبلوها.(5)

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 75؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 308/1.

(2) الواحدي، أسباب النزول، ص 103.

(3) انظر: سليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر، الاستيعاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1425هـ، 242/1.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 143/3.

(5) انظر: الواحدي، أسباب النزول، ص 103؛ البغوي، معالم التنزيل، 27/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 373/1؛ الخازن، لباب التأويل، 238/1.

وهذا السبب لا يصح أيضا من جهة إسناده؛ لأنه موضوع، [1] ولأنه يتحدث عن ادعائهم أن الله يحبهم، بينما الآية تتحدث عن ادعاء من ادعى أنه يحب الله، أي أن موضوع السبب مختلف عن موضوع الآية فكيف يكون سبب نزولها؟ ولكن لو افترضنا صحته لكان دليلا على تنفيذه ﷺ لما أمر به من إصلاح عقائد ذوي العقائد الفاسدة من اليهود وغيرهم ممن يدعون الخصوصية في علاقتهم بالله -كذبا وكبرا- وذلك بقراءة الآية عليهم، وهم لا شك متقنون للعربية التي يجاورون أهلها منذ طردهم الرومان من أرض فلسطين ويفهمون نقضها لادعائهم وبيانها لشرط محبة الله للعبد ومغفرته له. **ثالثها**: ما رواه الطبري عن الحسن قال: (قال قوم على عهد النبي ﷺ: يا محمد إنا نحب ربنا! فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فجعل اتباع نبيه محمد ﷺ علما لحبه، وعذاب من خالفه).[2] وهو ضعيف أيضا بسبب إرساله، [3] ولو صح لكان أمرا إلى النبي ﷺ ببيان ما ينبغي أن يفعله من يحب الله حقا، فينقل حبه لله من مجرد عاطفة في القلب إلى أفعال تنفيذية لأوامر النبي ﷺ وتوجيهاته ووصاياه التي أوحي بها إليه. **رابعها**: ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير[4] قال: نزلت في نصارى نجران، وذلك أنهم قالوا إنما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم.[5] وهذا السبب أرجح مما سبق؛ لأن وفد نصارى نجران قدم إلى النبي ﷺ وهو في المدينة كما نصت كتب السيرة، ولأن الآيات السابقة لهذه الآية كان موضوع حديثها هو وفد نجران ذاته، فالسياق واحد وهو ما يرجح أن يكون السبب واحد. قال الواحدي: (قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكبا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، ... فسكتوا، فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها). [6] وهذا ما رجحه الطبري. قال -وهو يتحدث عن هذا القول وقول الحسن الذي سبق-: (وأولى القولين بتأويل الآية، قول محمد بن جعفر بن الزبير، لأنه لم يجر لغير وفد نجران في هذه السورة، ولا قبل هذه الآية ذكر قوم ادعوا أنهم يحبون الله، ولا أنهم يعظمونه،

---

(1) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 241/1.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 325/5؛ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ت 318هـ، كتاب تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية، ط 1، 1423هـ-2002م، رقم 362، 169/1؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، رقم 3402، 633/2.

(3) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 243/1.

(4) هو محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي المدني. عالم فقيه ثقة له أحاديث. روى عن عمه عروة بن الزبير وابن عمه عباد بن عبد الله وزياد بن سعد بن ضميرة وغيرهم، وروى عنه محمد بن إسحاق والوليد بن كثير وابن جريج وغيرهم. توفي في حدود سنة 111هـ. [انظر على سبيل المثال: ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، رقم 1221، 221/7؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 5115، 579/24].

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 326/5؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 168/2-175؛ الواحدي، أسباب النزول، ص 103-104.

(6) الواحدي، أسباب النزول، ص 97-98.

فيكون قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ جوابا لقولهم على ما قاله الحسن).[1] فالآية دليل على أن النبي ﷺ أمر أن يبين للنصارى طريقة التعبير الصحيح عن حبهم وتعظيمهم لله تعالى، وذلك بمتابعة رسوله الذي يبلغهم مراده سبحانه وليس بعبادة عبده عيسى عليه السلام. وهو ﷺ بذلك يصحح لهم فكرتهم الخاطئة عن النبي عيسى عليه السلام، وعن العلاقة بينه وبين ربه عز وجل، ويعلمهم الاعتقاد الصحيح في الأنبياء والرسل وأنهم عباد لله مكرمون وليسوا شركاء معه في ألوهيته أو ربوبيته.

– ودلت الآية على أن الإسلام لا يكتفي في مسائل الإيمان وحب الله وطاعته وحب رسوله ﷺ وغيرها من أعمال القلب بمجرد الادعاء الفارغ والكلام العاري عن الدليل، بل يطالب المدعي بقرن الأقوال بالأفعال ليثبت صدقه.

– وهذه الآية شاملة لكل من ادعى محبة الله وهو يدين بغير الإسلام كاليهودية والنصرانية وغيرها من الملل. قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله).[2] كما تدل على وجوب متابعة النبي ﷺ –بالنسبة للمسلمين– في العقائد والشرائع والأخلاق وسائر ما ثبت عنه، وعدم الابتداع في الدين. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7)﴾[الحشر]. وفي الحديث الصحيح: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد).[3]

– وفي الآية دلالة على بركة اتباع النبي ﷺ، فالمتبع له يحصل من الخير فوق ما يرجوه. قال ابن كثير: (ولهذا قال : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب).[4]

– وتذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تقرير لما سبق مع زيادة الوعد بالرحمة. [5] قال الخازن: (وقال العلماء: إن محبة العبد لله عبارة عن إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه، ومحبة الله للعبد ثناؤه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، يعني أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب . ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يعني أنه تعالى يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه).[6]

---

(1) الطبري، جامع البيان، 326/5.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 22/2.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم 1718، ص 714، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 22/2.

(5) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 465/1.

(6) الخازن، لباب التأويل، 238/1.

– ومحبة الله للعبد لا حدود لبركاتها، فهي تستتبع محبة أهل السماء والأرض لذلك العبد، وفي المقابل فإن بغض الله للعبد نذير له بشؤم كبير. قال النبي ﷺ: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا فأحبه ، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه ، قال: فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه . قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض).(1)

– ومن تقويم النبي ﷺ للأفكار توجيه الناس للاشتغال بالأعمال النافعة والأنشطة الملموسة المفيدة بدل الخوض في تفاصيل المسائل الغيبية التي يكفي الإيمان بها إجمالا ولا يضر الجهل بدقائقها. ومن نماذج ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (ما أعددت لها؟) قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (أنت مع من أحببت).(2)

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(84)﴾[آل عمران].

– أي: قل –أيها النبي ومن معك من المؤمنين– للنصارى الذين جادلوك ولغيرهم أقررنا بالله المعبود وحده، وصدقنا بما أنزل الله علينا من القرآن الكريم وما حواه من الشريعة ، وما أنزله من وحي وصحف وشرائع على إبراهيم و ابنيه اسماعيل وإسحاق ، ويعقوب وأولاده الأسباط الاثني عشر، وما أوحي إلى موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وما أوحي إلى سائر الأنبياء، لا فرق عندنا في الإيمان بين نبي وآخر بل نؤمن بالجميع. ونحن بذلك منقادون لله مستسلمون له.(3)

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليعلن للناس –ومنهم النصارى الذين قدموا إليه من نجران– أنه وأمته يؤمنون بالله الواحد وما أنزل عليه ﷺ من دين الإسلام، كما يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام دون استثناء، وبجميع الكتب المنزلة عليهم وما تتضمنه من الشرائع. قال ابن عاشور: (والجملة اعتراض، واستئناف لتلقين النبي ﷺ والمسلمين كلاما جامعا لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويعلن به للأمم).(4)

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم 2637، ص 1057، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، رقم 6171، ص1131.

(3) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 84؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 2/223-225.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 3/302.

– وفي المأمور به دلالة على عدم صحة إيمان من يؤمن ببعض الأنبياء والرسل دون بعض، وكذلك من يؤمن ببعض الكتب المنزلة دون بعض.[1]

– وأخبرنا الله عز وجل في كتابه الكريم أنه ما من أمة من الأمم –على كثرتها– إلا وبعث إليها نبيا يبشرها وينذرها. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)﴾[فاطر]. فدل ذلك على كثرة الأنبياء. وسمى لنا في القرآن الكريم منهم خمسة وعشرون، وبين أن العدد الإجمالي لهم لا يقتصر على من ذكرت أسماؤهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر]، (فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل، وما أثبته لهم من الكتب كذلك. ونؤمن بأن أصول ما جاءوا به واحدة وهي الإيمان بالله وإسلام القلوب له والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص).[2]

– وفيما أمر به النبي ﷺ تصحيح لفكرة سادت أهل الأديان عامة قديما وحديثا، وهي تعصب أهل كل دين لعظماء ملتهم – سواء كانوا أنبياء أو علماء أو غيرهم– مع ازدرائهم لعظماء الملل الأخرى وعدم الإيمان بهم واحترامهم ولو كانوا رسلا وأنبياء؛ فتوجه الأمر الوارد في هذه الآية إلى نبينا ﷺ ليعلن للعالم أجمع –عبر وفد نصارى نجران الذي زاره في عاصمته– أننا نحن المسلمين أكثر الأمم تسامحا مع المخالف وأبعدها عن التعصب ضد أنبياء وكتب الأمم الأخرى؛ لأن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل وبجميع الكتب المنزلة من الله على أنبيائه –وفي مقدمتها القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم– ركن ركين مكين في عقيدتنا. بل إننا نحكم بالكفر على من يؤمن بديننا وكتابنا ورسولنا إذا كفر بنبي واحد أو كتاب واحد من الأنبياء والكتب الأخرى، أو ينطق في حقه بلفظة واحدة سيئة، خلافا لغيرنا ممن لا يكفون عن المطالبة باحترام مشاعر ومقدسات الشعوب، وهم لا يفتأون يسخرون –تعصبا وحقدا– بين الحين والآخر من نبينا ﷺ بأقوالهم وأفعالهم، ويصورونه في صور مهينة مسيئة تنشر في الجرائد والمجلات على نطاق واسع لتؤذي مشاعر نحو مليارين من أتباعه، فإذا عبر بعضنا عن سخطه لهذا الاستفزاز الصارخ –ولو بالكلام فقط– اتهم مباشرة بالتعصب والتطرف والإرهاب ومعاداة حرية التفكير والتعبير. فهل سمع العالم يوما من الدهر مسلما يتنقص عيسى أو موسى أو كتابيهما بحرف واحد؟ نتحدى من يأتينا بذلك. وفي المقابل كم سودت من الصحف وبثت من الحصص وصنع من الأفلام في الإساءة إلى محمد ﷺ وكتابه المعصوم من أتباع عيسى وموسى وغيرهما؟ فمن المتعصب المتطرف؟

* وقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)﴾[آل عمران].

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 341/1.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار، 312/3.

– أي: جميع الأطعمة كانت مباحة لذرية يعقوب قبل نزول التوراة على موسى، إلا ما منعه يعقوب على نفسه لأمر يتعلق به هو فحرمه بنوه على أنفسهم اتباعا له. قل –يا محمد لأحفادهم يهود المدينة المعاصرين لك– هاتوا التوراة فاقرؤوا لنا منها ما يثبت ادعاءكم أن شريعة إبراهيم عليه السلام تحرم ما منعه يعقوب وبنوه على أنفسهم إن كنتم محقين، حتى تسوغوا إنكاركم علي وعلى المسلمين أكل هذه الأطعمة بحجة تحريمها في شريعة الخليل عليه السلام. فعجزوا عن رفع التحدي النبوي لهم، ولم يفعلوا مما طلب منهم شيئا، فأفحموا. وإذ ثبت بطلان ادعائهم، فمن اختلق منهم الكذب على الله بعد قيام الحجة عليهم فهم المتلبسون بالظلم المتصفون به حقا. قل –يا محمد لهم بعد أن تبين كذبهم– ثبت صدق الله فيما أخبر من عدم تحريم شريعة إبراهيم لما منع يعقوب وبنوه على أنفسهم من المطعومات، فاتبعوا شريعة إبراهيم المائل عن الشرك والباطل إلى التوحيد والحق، وتوقفوا عن الكذب عليها، وما كان عليه السلام ممن يشركون بالله.(1)

– فتضمن صدر هذا النص القرآني الكريم أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يبطل فكرة مكذوبة أشاعها اليهود بأن أطعمة معينة حرمتها شريعة إبراهيم عليه السلام ولذلك فهم لا يتناولونها، كما لم يكن أبوهم يعقوب يتناولها للسبب ذاته. ولم يكتفوا بهذا الكذب بل راحوا ينكرون على المسلمين تناولها مع انتسابهم إلى ملة الخليل عليه السلام. وإنما يكون إبطاله ﷺ لتلك الفكرة بتنفيذه لما أمر به في الآيات. قال ابن عاشور: (ويحتمل أن اليهود –مع ذلك– طعنوا في الإسلام، وأنه لم يكن على شريعة إبراهيم، إذ أباح للمسلمين أكل المحرمات على اليهود، جهلا منهم بتاريخ تشريعهم، أو تضليلا من أحبارهم لعامتهم، تنفيرا عن الإسلام، ... فبين لهم أن هذا مما لا يلتفت إليه عند النظر في بقية الأديان، وحسبكم أن دينا عظيما وهو دين إبراهيم، وزمرة من الأنبياء من بنيه وحفدته، لم يكونوا يحرمون ذلك).(2)

– ويظهر من أقوال بعض المفسرين أن اليهود لم يكن قصدهم من الإنكار على المسلمين تناول ما حرمه إسرائيل على نفسه مجرد الإحراج بادعاء مخالفتهم لشريعة إبراهيم، بل كانوا يستهدفون من وراء ذلك إبطال نبوة نبينا محمد ﷺ بإنكار النسخ في الشرائع. قال الرازي: (الآية تحتمل ... أن اليهود كانوا يعولون في إنكار شرع محمد ﷺ على إنكار النسخ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، فذاك الذي حرمه على نفسه كان حلالا ثم صار حراما عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ).(3)

– واختلف المفسرون في نزول تحريم ما حرمه إسرائيل على نفسه من الأطعمة في التوراة. فقال بعض –كالسدي– بأن الله سبحانه لما نزل التوراة حرم عليهم فيها ما كانوا يحرمونه على أنفسهم قبل نزولها. وقال آخرون –كالضحاك–: ما حرم الله عليهم شيئا من الأطعمة قبل نزول التوراة، ولا نزل تحريمه فيها، وإنما حرموا على أنفسهم ما حرم أبوهم على نفسه استنانا به ثم

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 85-86؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 122.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/4.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 149/8.

نسبوا ذلك إلى الله كذبا.[1] والراجح –والله أعلم– هو الرأي الثاني، لاحتمال التحدي القرآني له في مطالبتهم ببيان موضعه من التوراة، ويؤيده تفسير ابن عباس. قال رضي الله عنه: (أخذه –يعني إسرائيل– عرق النسا، فكان لا يثبت بالليل من شدة الوجع، وكان لا يؤذيه بالنهار، فحلف لئن شفاه الله لا يأكل عرقا أبدا، وذلك قبل أن تنزل التوراة، فقال اليهود للنبي ﷺ: نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل على نفسه. قال الله لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وكذبوا، ليس في التوراة).[2]

– وتنوعت أقوال أهل التأويل أيضا في ماهية ما حرمه إسرائيل على نفسه. فقال ابن عباس وأبو مجلز[3] وقتادة ومجاهد: حرم على نفسه العروق؛ لأن آلام عرق النسا كانت تأخذه ليلا فنذر –أو عزم أو حلف– لئن شفاه الله لا يأكل عرقا من فخذ –أو من لحم– أبدا، فتبعه على ذلك بنوه. وقال ابن عباس –في رواية ثانية– وعبد الله بن كثير وعطاء بن أبي رباح والحسن: بل حرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها. وجمع ابن عباس في رواية ثالثة بين قوليه السابقين، فقال: حرم على نفسه العروق ولحوم الإبل. بينما ذهب مجاهد إلى أنه حرم على نفسه لحوم الأنعام. وقد رجح الطبري قول ابن عباس –في الرواية الثالثة عنه– بأن ما حرمه يعقوب هو العروق ولحوم الإبل، واستدل على ذلك بأن اليهود مجمعون عليه –سلفا وخلفا– إلى اليوم.[4] وفي تقديري أن الراجح –والله أعلم– هو القول الثاني القائل بتحريم لحوم الإبل وألبانها. يدل على ذلك ما رواه الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: (ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله)، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: (زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر)، قالوا: صدقت. فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: (اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها)، قالوا: صدقت.[5]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/578-579.

(2) المصدر السابق، 5/580-581.

(3) هو أبو مجلز لاحق بن حميد بن سعيد بن خالد بن كسر السدوسي البصري الأعور. تابعي جليل وأحد علماء زمانه. روى عن ابن عباس وابن عمر وأنس وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وروى عنه سليمان التيمي وقتادة وأبو هاشم الرماني وغيرهم. مات سنة 110هـ بالكوفة. [انظر على سبيل المثال: الإمام مسلم، الكنى والأسماء، رقم 3362، ص 831؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ت 748هـ، المقتنى في سرد الكنى، تحقيق: محمد صالح عبد العزيز المراد، إحياء التراث الإسلامي، المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط ولا ت ط، رقم 5617، 65/2].

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/582-586.

(5) رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الرعد، رقم 3117، ص 700؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟، رقم 9024، 8/217-218؛ وأحمد في المسند، رقم 2483، ص 212؛ والطبراني في المعجم الكبير،

- وفي القرآن الكريم بيان من الله جل وعلا أنه حرم على اليهود جملة من طيبات الأطعمة وغيرها، لا لخبثها في ذاتها كما هي القاعدة عندنا نحن المسلمين أن (التحريم يتبع الخبث والضرر)، [1] ولكن عقوبة لهم بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم وقتلهم الأنبياء وكفرهم بآيات الله وظلمهم وصدهم عن الحق وأكلهم الربا الذي كان محرما عليهم قبل ذلك وغيرها من المعاصي والآثام. قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا(160)وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(161)﴾[النساء].

- وفي الكتاب العزيز أيضا تنصيص من الله تعالى على ما حرم عليهم من اللحوم تحديدا جراء بغيهم وعدوانهم. قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(146)﴾[الأنعام]. فبعض الحيوانات كالإبل والنعام والإوز والبط [2] محرمة عليهم بالكلية، وبعضها حرمت عليهم أجزاء معينة منها دون الباقي.

- وفي الآية دليل عظيم على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ؛ (لأنه أنبأهم بأنهم يدعون أن في كتابهم ما ليس فيه، ودعاهم مع ذلك إلى أن يأتوا بكتابهم فيتلوه ليبين لهم كذبهم فأبوا، فكان إباؤهم دليلا على علمهم أن النبي ﷺ قد صدق فيما أنبأهم به). [3]

- وفي الأمر الرباني الموجه إلى النبي ﷺ في عجز النص القرآني دلالة على أن ملة إبراهيم عليه السلام مضمنة في القرآن الكريم، وهو شرف لنا نحن المسلمين وحدنا لا يدانيه شرف وبركة عظيمة اختصنا الله بها دون سوانا؛ إذ أن أهل الكتاب جميعا يعترفون به عليه السلام، ويتشرفون بالانتساب إليه، ولكن لا يقدرون على ادعاء تضمن كتبهم لمضمون ملته، بسبب قيام الحجة على تحريف تلك الكتب، وفقدان صحفه -عليه السلام- التي غاب معها كل ما يتصل بشريعته من تفاصيل. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾: (أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها، ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(161)﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(123)﴾[

رقم 13012، 246/12-247؛ والطبري في جامع البيان، 586/5-587؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم 1872، 492/4.

(1) انظر: يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط13، 1400هـ-1980م، ص 28-29.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 638/9.

(3) أبو إسحاق إبراهيم بن السري الشهير بالزجاج ت 311هـ، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م، 444/1.

النحل]).[1] وفي هذا تصحيح لفكرة يحاول أهل الكتاب -وخاصة اليهود- ترسيخها في الأذهان، وهي أنهم أولى الناس بإبراهيم بحجة أنهم ساميون، وأنهم من ذرية ولده إسحاق، وأن توراتهم تحوي تفاصيل عن حياته ونسبه، وفي ذلك مغالطة؛ لأن العبرة ليست بالنسب والجنس وإلا فالعرب أيضا من نسبه يقينا، وإنما العبرة بمن يعتقد عقيدته ويحوز شريعته ويتبع ملته ويقتفي آثاره، وهذا ليس لأمة غير أمة محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(67)إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ(68)﴾[آل عمران]. ومن نماذج تفاصيل الشريعة الإبراهيمية التي حواها القرآن الكريم وأوجب علينا تطبيقها على أنها من تكاليف شريعتنا المحمدية هذه الأوامر الخمس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(77)وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الحج: 77-78]. قال الرازي: (واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام).[2]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(31)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(32)﴾[يونس].

– أي: قل: -يا محمد- للمشركين من الذي يعطيكم الرزق من السماء بإنزال القطر، ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأغذيتكم بإنبات الزروع والثمار؟ ومن الذي بيده أسماعكم وأبصاركم فمن بها عليكم، وهو يحفظها عليكم إن شاء ويسلبها منكم متى أراد؟ ومن يخرج المخلوق الذي فيه حياة من الشيء الميت، كالزرع وهو حي من التراب وهو موات؟ ومن يخرج ما لا حياة فيه ملم فيه حياة، كالخشب اليابس من الشجر الأخضر ؟ ومن الذي يسير بحكمة شؤون الكون كله علويه وسفليه، ويتولى تدبيره وتقديره من الذرة إلى المجرة ؟ فسيجيبون -معترفين- أن الله وحده هو من يفعل ذلك كله. فقل لهم -أيها النبي- عند إقرارهم بذلك: إذن ألا تخافون من له كل هذه الخزائن وهذه القدرة أن يعاقبكم على ادعائكم شركاء له في ألوهيته؟ فالله الذي أقررتم أنه يفعل هذه الأفعال العظيمة الحكيمة وحده هو ربكم الذي تحققت ربوبيته، ووجبت عليكم عبادته دون غيره، فأي شيء سوى الحق -الذي هو توحيد الله وعبادته- إلا الوقوع في الضلال المتمثل في الشرك بالله وعبادة غيره. فكيف تنصرفون عن الحق الذي أقررتم به إلى الباطل الذي تبين بطلانه؟.[3]

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 55/2.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 74/23.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 176/12-177؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 340؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 291.

- فتضمنت الآية أمرا كريما من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ أن يصحح للمشركين عقيدتهم في الله من حيث توحيده بالألوهية، وذلك بأن يطرح عليهم جملة من الأسئلة التي تقودهم إلى الإقرار بوحدانيته تعالى في مجال الربوبية، ليحتج بذلك عليهم فيما ينكرونه من توحيد العبادة، ويلزمهم بالدليل العقلي أنه جل جلاله الأحق بالعبادة وحده بما أنه الخالق المالك المدبر لكل شيء وحده. قال محمد رشيد رضا: (فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والألوهية كما كانوا يفعلون، وقد جهل هذا بعض علماء الأزهر في هذا الزمان، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجهلوا عقائد القرآن، فلم يفرقوا بين مفهوم الرب والإله في اللغة العربية، وما كان عليه أهلها في الجاهلية، على أن الإسلام إنما وحد بينهما في الماصدق الشرعي، لا في المفهوم اللغوي).(1)

- وفي الآية دلالة على أن المشركين العرب الذين أمر النبي ﷺ بمعالجة ما عندهم من انحراف عقائدي كانوا يعرفون الله سبحانه، ويعترفون بوجوده وربوبيته للكون وما فيه ومن فيه، فهم يقرون أنه هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويدبر أمر الكون جميعا. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(61)﴾[العنكبوت]، وقال أيضا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(63)﴾[العنكبوت]، وقال أيضا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87)﴾[الزخرف]، فهم على أية حال -مع أميتهم وجهلهم وشركهم في مجال العبادة- خير من الملاحدة المعاصرين، رغم تفوقهم الحضاري وشهاداتهم العلمية العليا.

- وفيها تقرير للقاعدة المنطقية التي تنص على أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان معا. قال الرازي: (ثم قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ ومعناه أن من هذه قدرته ورحمته هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه، وإذا ثبت أن هذا هو الحق، وجب أن يكون ما سواه ضلالا، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين، فإذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا).(2)

- وفيها دلالة أيضا على عدم وجود مرتبة وسطى بين الحق والضلال في مسائل العقيدة، فإما حق وإما ضلال. قال ابن جزي في تفسير الآية: (﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ﴾ أي عبادة غير الله ضلال بعد وضوح الحق، وتدل الآية على أنه ليس بين الحق والباطل منزلة في علم الاعتقادات، إذ الحق فيها في طرف واحد، بخلاف مسائل الفروع).(3)

- وفي الآية شهادة من الله تعالى على اعتراف أولئك المشركين الأميين بانفراده جل جلاله بتدبير شؤون الكون كله، وهو دليل على أن معرفة ذلك فطرة في النفوس البشرية، و(ليس تدبيره بفكر ولا روية وتغيرات -تعالى عن ذلك- بل علمه محيط كامل

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 301/11.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 91/17.

(3) ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 380/1.

دائم)،[1] وإرادته نافذة في كل أمر، لا يستعصي عليها شيء. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(13)وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(15)فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(16)﴾[البروج].

– وفي الآية تبكيت وتوبيخ للمشركين الذين يبصرون آيات الله المنشورة في الكون كله عن أيمانهم وشمائلهم وفي السماء والأرض ثم يجعلون لمن خلق هذا كله بقدرته ويدبره بحكمته شركاء في عبادته. قال ابن عطية: (هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه).[2]

– وقد تعددت أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقال البعض بأن معناها: أفلا تخافون عقوبة الله لكم أن تعبدوا غيره معه. ومن هؤلاء الطبري والقرطبي وابن كثير والبغوي والخازن وأبو حيان وغيرهم.[3] وقال البعض الآخر معناها: أفلا تقون أنفسكم عقاب الله المستحق بما أشركتم به. ومن هؤلاء الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود. وقال غيرهم: المعنى أفلا تتقون الله فتخلصون له العبادة. ومن هؤلاء السيوطي والشوكاني والسعدي وغيرهم. بينما ذهب مقاتل والنسفي والكازروني [4] إلى أن المعنى: أفلا تتقون الشرك في عبادة الله. وقال ابن عباس في معناها: أفلا تتعظون. [5] وفي تقديري أن هذه الأقوال لا تعارض بينها، بل بينها تكامل، وتعددها سببه نظر كل قائل إلى معنى التقوى من زاوية مختلفة عن التي نظر منها غيره، باستثناء قول ابن عباس رضي الله عنه فإنه يبدو مختلفا، ويظهر –والله أعلم– أنه فسر التقوى بالنظر إلى السياق العام الذي جاءت فيه – وهو سياق يحمل النفس على الاتعاظ ويأطرها عليه أطرا– وليس بالنظر إلى معنى لفظة التقوى في ذاتها.

– وتضمنت الآية أسلوبا من أنفع الأساليب في التعليم وأكثرها ترسيخا للمعلومة في ذهن المتعلم. قال ابن عاشور: (وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب؛ لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب).[6]

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، 118/3.

(2) المصدر السابق، ص 117.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 176/12؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 490/10؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 182/4؛ البغوي، معالم التنزيل، 132/4؛ الخازن، لباب التأويل، 442/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 156/5.

(4) هو نور الدين أحمد بن محمد بن خضر العمري الكازروني. مفسر شافعي المذهب. ينتسب إلى مدينة كازرون، من أعمال كورة سابور، وهي إحدى أكبر المدن الإيرانية. نزل مكة المكرمة وجاور بها. وتوفي سنة 923هـ. [انظر على سبيل المثال: الأدنه وي، طبقات المفسرين، رقم 145، ص 111؛ الزركلي، الأعلام، 232/1].

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 135/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 28/4؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 112/3؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 659/2؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 212؛ الشوكاني، فتح القدير، 623؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 340؛ النسفي، مدارك التنزيل، 20/2؛ الكازروني، الصراط المستقيم، ص 321.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير،155/11.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(34)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)﴾[يونس].

– أي: قل: –يا محمد– لهؤلاء المشركين: هل من آلهتكم المزعومة التي أشركتموها في العبادة مع الله من يقدر أن يوجد الخلق ابتداء، ثم يعيده إلى الوجود بعد زواله؟ فلن يقدروا على ادعاء أن أوثانهم تفعل ذلك، فقل لهم عندئذ: الله –وحده دون سواه– هو من يوجد الخلق من عدم، ثم يعيده بعد زواله، فكيف تصرفون عن الإيمان به وحده؟ قل –أيها النبي– لهؤلاء المشركين: هل من أصنامكم التي تدعونها مع الله من يقدر على هداية الضالين إلى الرشاد بعد ضلالهم، وتوجيههم إلى الحق بعد العمى عنه ؟ فسيظهر عجزهم عن الجواب، فقل لهم عند ذلك: الله وحده –دون غيره– يهدي إلى الحق من تاه عنه ولم يعرف سبيله. فهل القادر على الإرشاد إلى الحق الموصل إليه أولى بالمتابعة والتأليه، أم الذي يعجز عن الاهتداء في خاصة نفسه –فضلا عن أن يهدي غيره– اللهم إلا أن يتولى سواه هدايته؟ فأي شيء جعلكم تقضون بهذا الحكم الباطل على أنفسكم، فجعلتموها تتبع الأوثان العاجزة عن الهداية لنفسها فضلا عن غيرها، وتشركها في عبادة الهادي إلى الحق جل في علاه؟[1]

– فتضمن هذا النص القرآني الكريم أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يعالج جانبا منحرفا من عقيدة المشركين وهو إشراكهم لأوثانهم مع رب العالمين في عبادته، وذلك بأن يطرح عليهم سؤالين في غاية الأهمية –على غرار ما ورد في النص السابق– يكشفان عجز تلك الآلهة المزعومة عن نفع نفسها بله غيرها، كما يكشفان ضلال عبادها وانحراف أحكامهم، وتلك أولى الخطوات لتصحيحه ﷺ لاعتقاداتهم بالإقناع لا بالإكراه.

– وذانك السؤالان اللذان أمر النبي ﷺ بطرحهما على المشركين والمتعلقان بمدى قدرة معبوداتهم على الخلق –ابتداء وإعادة– والهداية سبق لإبراهيم عليه السلام أن طرحهما على قومه المشركين، فما أشبه فعل هؤلاء وأولئك –وإن تباعد الزمن– وما أشبه طرق الأنبياء في معالجة الأفكار المنحرفة والعقائد الباطلة. قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)﴾[الصافات]، وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(41)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(42)﴾ [مريم].

– وفي إيراد الحجتين على عجز المعبودات وجهل عابديها في شكل سؤالين وجوابيهما فائدة كبيرة، وهي أن الكلام إذا كان معناه جليا ثم ذكر على هيئة الاستفهام وتفويض الإجابة للمسؤول كان أبلغ في النفس وأوقع في القلب، فتكون ثمرته أرجى للحصول ولو بعد حين.[2]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 12/177–181؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 10/499–502؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 291–292.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 17/93.

- وفي النص تعجيب من حال المشركين، وتقريع وتوبيخ -أيضا- لهم على إشراكهم في العبادة ما لا يخفى عجزه -عند كل عاقل- عن الخلق والهداية وغيرهما من أفعال الربوبية والتي هي من خصائص رب العامين وحده. قال القرطبي: (أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير).[1]

- ولما كان تعصب المشركين وعنادهم يمنعانهم من الاعتراف بالحق وإن كان ظاهرا -وهو عجز آلهتهم- خوفا من أن تلزمهم الحجة، وكان الدليل من القوة والوضوح بحيث لا حاجة إلى إقرار الخصم به أمر الله رسوله ﷺ بالجواب نيابة عنهم.[2]

- وظاهر النظم الكريم أن الأوثان إذا هديت من قبل غيرها اهتدت وليست في الحقيقة كذلك؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، كما بينه أمر الله لنبيه في سورة الأعراف أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(196)وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(197)وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(198)﴾[الأعراف]. وإنما عبر عنها كما يعبر عن العاقل لأن عبادها يعاملونها كذلك، فيدعونها كمن يسمع، ويخافونها كمن يبصر ويقدر.[3]

- والملحوظ أن الاستدلال بالهداية بعد الخلق الوارد في هذا النص تكرر في مواضع عديدة من القرآن الكريم [4] وبالترتيب ذاته؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)﴾[طه]، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(45)لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)﴾[النور]، وقوله جل جلاله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)﴾[الشعراء]، وقوله جل شأنه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3)﴾[الأعلى].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ(81)سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(82)﴾[الزخرف].

– أي: قل -أيها النبي- للمشركين إن ثبت بحجة صحيحة تقيمونها أن لله ابنا فأنا أول من يعبد هذا الابن ويسبقكم إلى تعظيمه وطاعته؛ لكن لا أثارة لشيء من تلك الحجة أبدا، فثبت أن العبادة لا تكون إلا لله وحده، فتنزيها لخ الق ومالك

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 499/10؛ وانظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 623.

(2) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 112/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 93/17.

(3) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 30/4؛ الخازن، لباب التأويل، 443/2.

(4) انظر: الشوكاني، فتح القدير، 624.

السموات والأرض ومدبرهن، خالق ومالك ومدبر العرش الكريم عما يَنعته به المشركون الجهلة بحق قدره العظيم ، مما لا يليق بجنابه الكريم.[1]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا كريما إلى النبي ﷺ أن يصحح للمشركين اعتقادهم الفاسد بكون الله سبحانه ذا ولد، وذلك بأن يذهب معهم إلى أبعد الافتراضات، وهو أنه لو ثبت بالدليل الصحيح أن لله ولدا لكان ﷺ أول عابد لذلك الولد (كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه)،[2] ليعلموا أن إصراره ﷺ على نفي الولد عن الله ليس عنادا وتعصبا للرأي، وإنما هو لانتفاء دليل وجود الولد وقيام دليل عدمه. قال الزمخشري: (وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالا مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها).[3]

– واختلف المفسرون في معنى (إن) الواردة في هذه الآية، فذهب البعض إلى أنها على ظاهرها، أي التي تفيد الشرط. وفي هذه الحالة ورد في تفسير جواب الشرط ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ بضعة أقوال. الأول: فأنا أول الجاحدين ما قلتم من أن له ولدا . والثاني: فأنا أول من عبد الله مخالفا لقولكم وكذبكم. والثالث: فأنا أول الآنفين لله مما قلتم، فهو إنكاف أن يكون لله ولد. والرابع: معنى (إن) هنا معنى المجازاة. أي: لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولدا، ولكن لا ولد له . والخامس: أن معنى الآية: كما أني لست أول عابد لله فكذلك ليس له ولد . كما تقول لمن يزعم أنه فقيه وهو ليس كذلك: إن كنت فقيها فأنا محدث. أي لست فقيها كما أني لست محدثا.

وذهب البعض الآخر إلى أن (إن) هنا هي التي تفيد الجحد، أي التي بمعنى (ما). فالمعنى: ما كان للرحمن ولد. وفي هذه الحالة تكون الجملة تامة، وتبتدئ بعدها جملة أخرى هي (فأنا أول العابدين) أي فأنا أول من قال ذلك بمكة ونفى عنه الولد وعبده. و(الفاء) على هذا القول بمعنى الواو. **والراجح** في تقديري هو أن (إن) هنا هي الشرطية، والمعنى: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد تعظيما للرحمن. قال الرازي: (الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه البتة إلى التأويل، والمعنى أنه تعالى قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد ، وأنا أول الخادمين له. والمقصود من هذا الكلام بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة).[4] والله أعلم.[1]

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 5/458-459؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 731-732.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 5/458.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 458-459.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 27/231.

- وفي أسلوب الآية إلطاف وترقيق على نحو ما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)﴾ [سبأ]، كما يقول المناظر لمن يناظره -إظهارا لموضوعيته واستبعادا لقول خصمه-: إذا صح الدليل على ما ذهبت إليه فأنا أول من يلتزم به ويعتقده.(2)

- وفي الآية رد على جميع من زعم أن لله ولدا كالمشركين من العرب الذين كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، ومن كانوا يزعمون منهم أن بعض أصنامهم كاللات والعزى بنات الله، والنصارى الذين يعتقدون إلى اليوم أن عيسى ابن لله، واليهود الذين قالوا عزير ابن لله. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

- وفيها أيضا رد على كل من زعم تعدد الآلهة سواء جعلوا بينها وبين الله نسبا أو لم يجعلوا. قال ابن عاشور: (ونفي التعدد بنفي أخص أحوال التعدد وهو التعدد بالأبوة والبنوة كتعدد العائلة، وهو أصل التعدد فينتفي أيضا تعدد الآلهة الأجانب بدلالة الفحوى. ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج. وقد قال له الحجاج حين أراد أن يقتله : لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى ، فقال سعيد: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك، فنبهه إلى خطئه بأن إدخال النار من خصائص الله تعالى).(3)

- وأعقب -سبحانه- ما تضمنه أمره إلى نبيه ﷺ بافتراض كينونة ولد له -تعالى- بتنزيه نفسه المقدسة المتعالية عن الولد والوالد والشركاء، مضيفا اسم الرب إلى أكبر المخلوقات وأوسعها. قال أبو السعود: (وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته ، كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءا منه سبحانه. وفي تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش).(4)

- وفي أمر الله لنبيه ﷺ بمحاجة المشركين على انتفاء أن يكون له -سبحانه- ولد، وتذييل ذلك بتنزيهه -سبحانه- لذاته المقدسة عما يصفه به أولئك الجهلة بقدره العظيم دليل على عظمة جرم من يقول ذلك أو يعتقده. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا(88)لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا(89)تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(90)أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(91)وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(92)إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(93)﴾[مريم].

وخلاصة هذا المطلب: أن النبي ﷺ أمر بتصحيح جميع العقائد والأفكار الخاطئة التي راجت عند اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم؛ ومن ذلك تكليفه ﷺ أن يصرح لهم ببطلان جميع الآراء والاعتقادات والتشريعات والمعاملات والأخلاق المخالفة لما

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 654/20-658؛ الزمخشري، الكشاف، 458/5-459؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 230/27-232؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 88/19-90؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 174/7؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 331/7-332؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 97/5.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 658/20؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 89/19.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 264/25.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 97/5.

جاء به الإسلام، وإن وردت في التوراة والإنجيل أو في غيرهما؛ لأنها إما محرفة أو منسوخة، ومن ذلك أيضا ادعاء حب الله تعالى من غير اتباع نبيه ﷺ في كل ما جاء به، والإيمان ببعض الكتب المنزلة دون بعض وهو ما وقع فيه أهل الكتاب كلهم إذ لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وادعاء اليهود أن ما حرم عليهم من الأطعمة كان محرما في دين إبراهيم ﷺ، واتخاذ المشركين شركاء مع الله في عبادته مع عجزهم عن ابتداء الخلق والهداية إلى الحق وكونهم لا يملكون شيئا ولا يرزقون أحدا ولا يقدرون على شيء، وادعاء الولد لله، وغير ذلك من الخرافات الباطلة والأفكار الفاسدة.

- وأنه ﷺ بين لأهل الكتاب وغيرهم أن الهداية الحقيقية الصحيحة الوحيدة هي ما تضمنه الإسلام من التعاليم والتوجيهات والإرشادات والحقائق دون سواها مما في الكتب أو المصادر الأخرى، وأن اتباعه ﷺ في كل ما جاء به هو الترجمة الوحيدة الصحيحة المقبولة لحب الله سبحانه، وأن من شروط الإيمان الكامل المبرئ للذمة الإيمان بجميع الكتب المنزلة وفي مقدمتها القرآن الكريم، لا الاقتصار على بعضها.

المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتزكيتها

رسالة الله إلى عباده لون من أعظم ألوان رحمته السابغة بهم، لأنها تحيي ما مات من قلوبهم، وتزكي ما تدسى من نفوسهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24)﴾[الأنفال]، ومن ثم كان من أعمال النبي ﷺ -حامل الرسالة- أن يعلم من بعث إليهم ما ينفعهم، ويربيهم على الخير، ويوجههم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم، ويحذرهم مما يضرهم في المعاش والمعاد. قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(2)﴾[الجمعة]. وفي هذا الإطار وردت إلى النبي ﷺ مجموعة من الأوامر الإلهية منها:

* قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(70)﴾[الأنعام].

- أي: وذكر -يا محمد- بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سبيلهم من المشركين، ليؤمنوا كيلا تهلك أنفسهم في الآخرة بما كسبت من الآثام في الدنيا، وحذرهم هول يوم تحبس فيه كل نفس بعملها، حيث لا ناصر ولا معين غير الله، وإن كل فدية للنجاة من العذاب لا تقبل. أولئك الذين حبسوا فى العذاب بسبب سوء أعمالهم، لهم فى جهنم شراب من ماء شديد الحرارة، وعذاب عظيم الإيلام بسبب كفرهم.[1]

- فتضمنت الآية أمرا إلهيا للنبي ﷺ أن يذكر الناس ليتعظوا ويؤمنوا لئلا تهلك نفوسهم يوم القيامة وتحبس في النار بسبب سوء أعمالها.

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/318-326؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 183.

- والتذكير هو الوعظ وإنما يكون بالقرآن الذي يعود عليه الضمير في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ كما هو قول عامة من اطلعت على أقوالهم من المفسرين. قال ابن عاشور: (والضمير المجرور في ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ عائد إلى القرآن لأن التذكير هو التذكير بالله وبالبعث وبالنعيم والعذاب. وذلك إنما يكون بالقرآن فيعلم السامع أن ضمير الغيبة يرجع إلى ما في ذهن المخاطب من المقام، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(45)﴾[ق]).[1]

- والتذكير بالقرآن معناه معالجة أمراض نفوسهم ومداواة أهواء قلوبهم بما يحويه كتاب الله من المواعظ المؤثرة والرقائق النافعة حتى تزكو تلك النفوس وتصلح تلك القلوب فتتأهل لسعادة الدنيا والآخرة. قال الخازن: (والمعنى: وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جنهم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا وتحرم الثواب في الآخرة).[2] ومن ثم فالتذكير ليس كلمة خفيفة تلقى هنا أو هناك وينتهي الأمر كما قد يفهم من لفظه بل هو عمل طويل جاد دائم يشد نفوس الناس بقوة إلى ما ينفعها ويحثها عليه، ويبن لها ما يضرها ويحذرها منه ويزجرها عنه. قال السعدي: (أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمرا، وتفصيلا، وتحسينا له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيا عنه، وتفصيلا لأنواعه، وبيان ما فيه، من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها، لترتدع وتنزجر، وتكف عن فعلها).[3]

- ومع أن سياق الآية يتحدث عن المشركين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا إلا أن التذكير لا يقتصر عليهم وحدهم، بل يشملهم وغيرهم ممن هو في حاجة إليه. قال أبو السعود: (﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ : أي بالقرآن من يصلح للتذكير).[4] فهو يشمل الكافرين والمنافقين –وإن كانت الآية من سورة مكية لا تتناولهم ابتداء–ويشمل من دخل في الإسلام حديثا فهو في حاجة إلى أن يحسن إسلامه ويقوى إيمانه، بل لا يستغني عن التذكير أحد –مهما قوي إيمانه ورسخ– لأنه سيجد فيه وجها من وجوه النفع ولا بد. قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(55)﴾[الذاريات].

- ومما يعين النبي ﷺ على التذكير بالقرآن ويقوي تأثيره على من يذكرهم نزول القرآن منجما في عهده ﷺ، فهو يحمل إليه في كل مرة معاني جديدة، ويعالج قضايا مختلفة، ويداوي أمراضا بشرية نفسية وفكرية وعقائدية واجتماعية متنوعة. وللداعية اليوم في كثرة مواضيع القرآن وتنوعها بين الإيمان والتوحيد والوعد والوعيد والأسماء والصفات والقصص والأخبار والأحكام والحدود وغيرها صيدلية قرآنية عامرة بصنوف الأدوية التي بإمكانها إصلاح النفوس وتقويم الأفكار والعقائد على الصعيد المحلي والعالمي، وإنقاذ الإنسانية المعذبة نفسيا وجسديا، التائهة فكريا، الخاوية روحيا، وحدوها إلى سعادتها المنشودة في الدنيا والآخرة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 296/7.

(2) الخازن، لباب التأويل، 123/2.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 239.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 228/2.

– وللإبسال الوارد في الآية سبعة أقوال عند المفسرين فيما نص عليه ابن الجوزي، [1] وقد ساقها أبو حيان جميعا، بل وزاد عليها، عازيا كل قول إلى قائله. قال رحمه الله: (قال ابن عباس: تفضح. وقال الحسن وعكرمة: تسلم. وقال قتادة: تحبس وترتهن. وقال الكلبي [2] وابن زيد والأخفش: تجزى. وقال الضحاك: تحرق. وقال ابن زيد أيضا: تؤخذ. وقال م ورج: تعذب. وقيل يحرم عليها النجاة ودخول الجنة).[3] وهي عبارات ومعان متقاربة المعنى (حاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب).[4]

– والآية تلخص أهم طرق الخلاص التي اعتاد البشر اللجوء إليها في الحياة الدنيا للخروج من المآزق المتلاحمة إذا استحكمت حلقاتها حول المتورط فيها، مع نفيها نفع أي منها يوم القيامة لمن لم يستجيبوا للتذكير المشار إليه فيها وماتوا على الكفر. قال الرازي: (والمقصود من هذه الآية: بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة، فلا ولي يتولى دفع ذلك المحذور، ولا شفيع يشفع فيها، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع).[5]

– ولحكمة ما بينت الآية أن المتمرد عن الاستجابة للتذكير الذي أمر به النبي ﷺ سيخضع لعذاب شديد الإيلام دون تحديد تفاصيله ربما لتذهب النفس كل مذهب في تصور وسائله وتخيل مدى قوته وشدته، ولم تنص إلا على وسيلة واحدة فقط وهي الماء الذي بلغ الغاية القصوى في الغليان، والذي يسقاه المعذبون فيقطع أمعاءهم، وكأنما يقال لمن تكبر عن التذكير بالقرآن وآثر العناد والكفران: هذا نموذج واحد للتعذيب فاحذر.

– وفي المأمور به دلالة على وجوب التذكير بالقرآن للناس عموما وللمؤمنين الذين ترجى توبتهم خصوصا.[6]

– ولأهمية التذكير في إصلاح النفوس وتزكيتها وتخليصها من أمراضها المختلفة ورد الأمر به إلى النبي ﷺ في خمسة مواضع أخرى من القرآن الكريم غير الموضع الذي مر آنفا، والمتأمل في كل منها يجدها قاعدة من القواعد التي تضبط موضوع التذكير، بحيث يمكن –في تقديري– أن نطلق على مجموعها **قانون التذكير**، وهو قانون لا يسع واعظا ولا خطيبا مسلما أن يجهله. وتلك المواضع في المصحف على هذا الترتيب :

---

(1) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 65/3.

(2) هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي. علامة مفسر أخباري نسابة راوية إلا أنه متروك الحديث. ولد بالكوفة، وأخذ عن جرير والفرزدق وغيرهما، روى عنه ابنه هشام وغيره. توفي سنة 146هـ بالكوفة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 942، 434/6؛ الزركلي، الأعلام، 133/6].

(3) أبو حيان، البحر المحيط، 160/4؛ وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 65/3؛ الخازن، لباب التأويل، 123/2.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 200/3-201.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 30/13.

(6) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 77/2.

• قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(45)﴾[ق].

ففي هذا الموضع ورد الأمر إليه ﷺ من ربه بالتذكير بالقرآن الكريم مصرحا به وليس ضميرا كما في الموضع السابق، وهو ما جعل بعض المفسرين –هناك– يذهبون إلى أن المقصود به الدين كما فعل الرازي، أو يترددون بين أن يكون المراد منه القرآن أو الحساب، كما فعل القرطبي.(1) وقد قرن الأمر بالتذكير هنا ببيان المرشحين للاستفادة منه، وهم الخائفون من وعيد الله تعالى. قال ابن كثير في معنى الآية: (أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده، ويرجو وعده).(2)

• وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(55)﴾[الذاريات].

ففي هذا الموضع ورد الأمر إلى النبي ﷺ بالتذكير مقرونا بالتنصيص على من يحصل لهم النفع به تحديدا وهم المؤمنون، (واقتصر في تعليل الأمر بالتذكير على علة واحدة وهي انتفاع المؤمنين بالتذكير لأن فائدة ذلك محققة، ولإظهار العناية بالمؤمنين في المقام الذي أظهرت فيه قلة الاكتراث بالكافرين).(3) وقد اختلف المفسرون في المراد منهم، هل هم الذين آمنوا قبل التذكير، أم هم الذين يعلم الله أنهم سيؤمنون بعده؟ فقال بالرأي الأول فريق منهم ابن كثير رحمه الله، وقال بالثاني فريق آخر منهم السيوطي رحمه الله، وتردد البعض كالزمخشري والبيضاوي. قال الزمخشري: (أي تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيمانا).(4) وفي تقديري أن النفع يشملهما معا، فالمؤمن سلفا تزيده الذكرى إيمانا، كما قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:31]، والذي يؤمن بعد تكون سببا في إيمانه . قال ابن عطية: (فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قضي له أن يكون منهم في ثاني حال).(5)

– والأمر بالتذكير يتضمن معنى المداومة والتكرير. قال ابن عاشور: (والأمر في ﴿وَذَكِّرْ﴾ مراد به الدوام على التذكير وتجديده).(6)

• وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(29)﴾[الطور].

وهنا صدر الأمر الإلهي إلى النبي ﷺ بالتذكير مقرونا بتبرئته مما يصفه به سفهاء المشركين من الكهانة والجنون لينفروا الناس من الاستجابة إليه واتباعه، وفي ذلك تسلية له ﷺ مما يلاقيه من الحزن جراء أقوالهم، وتنشيط له على الاستمرار في تذكيرهم عسى أن يرعووا ويؤمنوا، وكفايته مؤنة الرد عليهم. قال ابن عاشور: (وعقب بهذا لأن من الناس مؤمنين به متيقنين أن الله أرسله مع

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 29/13؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 424/8.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 299/7.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 24/27.
(4) الزمخشري، الكشاف، 620/5.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز، 182/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 24/27.

ما أعد لكلا الفريقين فكان ما تضمنه ذلك يقتضي أن في استمرار التذكير حكمة أرادها الله، وهي ارعواء بعض المكذبين عن تكذيبهم وازدياد المصدقين توغلا في إيمانهم).[1]

- والأمر بالتذكير في هذا الموضع -تماما كالموضع السابق- ليس الغرض منه ابتداء التذكير لأول مرة، وإنما الغرض الاستمرار والمداومة والتجديد. قال الألوسي: (﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل).[2]

- وتنوعت أقوال المفسرين في معنى النعمة الواردة في الآية، فقيل: هي صدق النبوة ورجاحة العقل، وقيل: هي الرسالة، وقيل هي منه ولطفه سبحانه عليه، وقيل غير ذلك. [3] وفي تقديري أن هذه الأقوال غير متناقضة ولا متضادة، بل متوافقة، فالأمر الذي جعل المشركين يتهمونه بالكهانة والجنون هو ما جاءهم به من الرسالة، وإلا فإنهم لم يكونوا قبلها يصفونه بذلك، والرسالة تسبقها النبوة كما مر بنا في المبحث السابق، وهما جميعا من من الله ولطفه بلا ريب، فتحصل أن هذه الأقوال كلها تحلب في إناء واحد.

• وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى(9)﴾[الأعلى].

وفي هذا الموضع ورد الأمر الإلهي إليه ﷺ بالتذكير مقرونا بشرط نفع الذكرى. فهل هذا الشرط على ظاهره؟ اختلف المفسرون في ذلك كثيرا. فمنهم من يرى أنه على ظاهره، أي (إن قبلت الذكرى . وهو معنى قول يحي بن سلام [4]).[5] وقيل: إنه مخصوص بقوم بأعيانهم. أي هو على ظاهره ولكن ليس على عمومه. ومنهم من يرى أنه ليس على ظاهره، ولكنهم اختلفوا في كيفية تأويله. فقيل: إن هنا بمعنى ما الشرطية؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال. وقيل: ظاهره الشرط ومعناه الذم للمذكرين واستبعاد استجابتهم. كقولك لمن يعظ جماعة عادتهم السخرية بأحكام الدين: عظهم إن استجابوا لك. وقيل: إن معنى إن في هذه الآية مثل معناها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:33]. فليس معنى الآية الإذن

---

(1) المصدر السابق، ص 58.

(2) الألوسي، روح المعاني، 35/27.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 191/5؛ النسفي، مدارك التنزيل، 385/3؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 313/5؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 525؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 781.

(4) هو أبو زكريا يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة البصري. تابعي جليل عالم بالكتاب والسنة، عارف بالعربية، فقيه مفسر مقرئ ثقة مصنف. ولد سنة 124هـ بالكوفة، ثم انتقل إلى البصرة وبها نشأ وإليها انتسب، ثم رحل إلى مصر ثم إلى المغرب فاستوطنه. حدث عن مالك والثوري وشعبة بن الحجاج وسعيد بن أبي عروبة وغيرهم، وحدث عنه ابنه محمد وعبد الله بن وهب ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم. مات سنة 200هـ بمصر بعد عودته من الحج. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1442، 254/11؛ الزركلي، الأعلام، 148/8].

(5) الماوردي، النكت والعيون، 254/6.

بإكراههن على البغاء إن كن لا يردن التحصن، لأن (المعلق بـإن على الشيء لا يلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشيء).[1] وقيل: إنه تعالى ذكر في الآية أشرف الحالتين ونبه على الأخرى، فالتقدير: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أو لم تنفع. أي مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[النحل:81]. وقيل غير ذلك.[2] والراجح في تقديري هو أن (التذكير العام واجب في أول الأمر، فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود، فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط).[3]

• وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)﴾[الغاشية].

وفي هذا الموضع ورد الأمر الرباني إلى النبي ﷺ بالتذكير مقرونا ببيان اقتصار مهمته على ذلك ونفي تكليفه بإرغام الناس على الدخول في الإسلام وإكراههم على الإيمان. فالمعنى هنا قريب من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(40)﴾[الرعد]. قال السعدي: (أي: ذكر الناس وع ظهم، وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرا عليهم، مسلطا موكلا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(45)﴾[ق]).[4]

– وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية القتال، منهم الثعالبي والخازن وابن الجوزي والبغوي والشوكاني وغيرهم.[5] وفي تقديري أن الآية محكمة وليست منسوخة؛ لأن الإذن بالقتال –فيما بعد– لا يعني الاستغناء عن التذكير أو أنه بديل عنه، والنبي ﷺ لم يكن يجهل قبل نزول هذه الآية أنه ليس مسيطرا على الناس ولا أنه لم يكلف بإكراههم على الإيمان حتى يخبر بذلك. قال ابن عاشور: (ونفي كونه مصيطرا عليهم خبر مستعمل في غير الإخبار لأن النبي ﷺ يعلم أنه لم يكلف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التبعة عنه من جراء استمرار أكثرهم على الكفر، فلا نسخ لحكم هذه الآية بآيات الأمر بقتالهم. ثم جاء وجوب القتال بتسلسل حوادث كان المشركون هم البادئين فيها بالعدوان على المسلمين إذ أخرجوهم من ديارهم، فشرع قتال المشركين لخضد شوكتهم وتأمين المسلمين من طغيانهم).[6]

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 144/31.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 145/31؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 229/22؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 296/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 306/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1612؛ الماوردي، النكت والعيون، 254/6.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 145/31.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 882.

(5) انظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، 584/5؛ أبو حيان، البحر المحيط، 459/8-460؛ الخازن، لباب التأويل، 422/4؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 100/9؛ البغوي، معالم التنزيل، 411/8؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1616.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 307/30.

- والناظر في سيرته وسنته ﷺ يعجب من مثابرته على التذكير في أوقات الحرب والسلم، والسفر والحضر، حتى آخر لحظات حياته الشريفة. روى البخاري عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). يحذر ما صنعوا.[1]

* وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(176)﴾[الأعراف].

– أي: واقرأ –يا محمد– على قومك خبر الرجل الذي وهبناه علما بآياتنا ا لتي أنزلنا على رسلنا، فنبذها ولم يرفع بها رأسا ، فاستتبعه الشيطان فغوى، ولو أردنا رفعه إلى مراتب الأبرار لفعلنا ذلك بتوفيقه للتمسك بتلك الآيات والعمل بمقتضاها ، ولكنه تعلق بالدنيا، ووافق رغبات نفسه وشهواتها، فصار شأنه فى دوام اضطراب فكره، وانشغال باله بالدنيا وتحصيلها كشأن الكلب اللاهث على الدوام ، لا فرق بين حال طرده أو تركه، فذلك النعت الذى نعتنا به المنسلخ من آياتنا، هو نعت كل جميع المكذبين بآياتنا المنزلة. فاقصص القصص على المشركين عسى أن يتفكروا في معانيه فيتعظوا.[2]

– فتضمن عجز الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يقص القصص –قصص المنسلخ من آيات الله وغيرها– على قومه وغيرهم رجاء أن يتفكروا فيما تحمله تلك القصص من العبر والدروس فيتعظوا ويؤمنوا فتصلح حالهم في الدنيا وفي الآخرة. قال الرسعني: (﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ يا محمد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، فيحدث لهم التفكر في قصص المكذبين المعذبين اعتبارا وانزجارا وخوفا من سوء العاقبة وزوال العافية، ويستدلوا بقصصك على صحة رسالتك).[3]

– وللقصص القرآني وغيره مما يوحيه الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليقصه على الناس غرض سام عظيم وهو تعليم الناس ووعظهم وتحريك نفوسهم نحو الهداية والصلاح، لا مجرد التفكه والتسلية. قال صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية: (أي اقصص هذه القصة وغيرها، وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم، لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنا عظيما في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس).[4]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم 3453، ورقم 3454، ص 635.

(2) انظر: لجنة القرآن و السنة، تفسير المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 235-236.

(3) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، 312/2.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 179/9.

– وللقصة عموما تأثير عجيب في النفس البشرية من حيث غرس الفضائل فيها وتحبيب لزومها إليها، وتعليقها بالهداية والصلاح وعمل الخير وسائر المحامد والثبات عليها؛ ولذلك كان (الحديث عن القصة حديث عن أعظم وسائل الدعوة والتربية، وأقواها تأثيرا، وأكثرها جاذبية، وأعمقها أثرا، وهي في نفس الوقت من أسهلها استخداما وأقربها تناولا.. وحب القصص والميل لها، نزعة فطرية في النفس الإنسانية، وذلك لما فيها من متعة كبيرة، وإثارة قوية، وجاذبية عالية .. واللافت للانتباه أن العالم كله بات يعي تماما أهمية القصة وقوة تأثيرها في توجيه الأفراد والمجتمعات وتربيتهم، وفي ت غيير قناعاتهم ومعتقداتهم، وتشكيل ثوابتهم ومُسلماتهم).(1) ومن ثم كان الأمر الرباني للنبي ﷺ بالقص على الناس مما علمه الله من القصص الهادفة توجيها له ﷺ إلى وسيلة من أنجع وسائل إصلاح النفوس وتزكيتها وعلاج أمراضها. ولذلك وجب على كل داع إلى الله ألا يغفل هذه الوسيلة في دعوته، وأن يحسن استخدامها، وحسبنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:111].

– والمتأمل في سيرته وسنته ﷺ يجده قد نفذ ذلك الأمر أكمل تنفيذ، فقد روى أصحابه رضي الله عنهم كثيرا مما كان يقص عليهم من القصص الهادف الصادق الماتع، ولولا خشية الإطالة لنقلت نماذج منه.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(29)﴾[الأعراف].

– أي: قل –يا محمد– إن الذي أمر الله به هو العدل في الأمور جميعا، لا بالفواحش كما زعمتم، كما أنه أمركم أن تفردوه بالعبادة فى كل مواضعها وأوقاتها، مع أمره سبحانه لكم بالتضرع الدائم إليه بالدعاء الخالص. والله الذي قدر على خلقكم من عدم أول مرة ولم تكونوا شيئا مذكورا قادر على إعادتكم بعد فنائكم ليحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم بها.(2)

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يخبر الناس –خصوصا المشركين الذين كانوا يزعمون أن ما يفعلونه من المحرمات والفواحش كان بأمر من الله لهم– بأن الله أمر بالعدل في الأمور كلها. قال أبو السعود: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بيان للمأمور به إثر نفي ما أسند أمره إليه تعالى من الأمور المنهي عنها، والقسط العدل وهو الوسط من كل شيء، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط).(3)

– والقسط الذي أمر الله به عباده في هذه الآية أشمل من أن ينحصر في الإنصاف بين المتخاصمين في القضايا المادية كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، بل يتسع لكل ما هو مستحسن عند أهل العقول الحصيفة والفطر السليمة. قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: (والقسط العدل وهو هنا العدل بمعناه الأعم، أي الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء،

---

(1) عبد الله محمد الطوالة، توظيف القصة دعويا وتربويا. مقال نشر يوم: 2020/12/23 عبر الشبكة العنكبوتية في موقع الألوكة الشرعية. وهذا رابط المقال : https://www.alukah.net/sharia/0/143888/#ixzz75XjRlwFC

(2) انظر: لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 208؛ طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 40/5.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 338/2.

وهو الفضيلة من كل فعل، فالله أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض وأنه حسن مستقيم، نظير قوله : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(67)﴾[الفرقان]. فالتّوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه. وأمر الله بالإحسان، وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي سالما من عواقب الفساد).[1] ففي لزوم البشرية لهذا الأمر صلاح لحالها، وارتقاء لمستواها، وزوال لمظالمها ومعاناتها التي سببها الجور. وقد نشر النبي ﷺ القسط بين الناس في حياته ونشره أصحابه بعده في المشارق والمغارب بصورة لم تعهدها البشرية قبلهم ولا بعدهم.

– ومع عموم معنى القسط كما دل عليه ظاهر الآية إلا أن بعض المفسرين وجهه توجيها خاصا. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قول لا إله إلا الله.[2] واستدل له الرازي على ذلك بقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:18]. وقيل: هو الصدق والحق. ولكن عامة من وقعت تفاسيرهم بين يدي فسروه بالعدل وعلى رأسهم عطاء ومجاهد والسدي؛ [3] وهو الراجح في تقديري؛ لأن الآية عامة، والآية التي استدل الرازي بها ليست نصا خاصا في المسألة حتى تخصصها، بل نصت على إثبات الحكم لأحد أفراد ذلك العموم؛ ولذلك لم يلتفت أكثر المفسرين إلى استدلاله، وإنما يشيرون أحيانا إلى قول ابن عباس لا أكثر.

– وفي الآية دليل على وجوب إخلاص العبادة كلها لله سبحانه وتعالى وعلى وجوب إفراده عز وجل أيضا بالدعاء الخالص.[4]

– وقد دلت سيرته وسنته الشريفتان على أنه ﷺ ظل يأمر بالقسط ويحكم به بين الناس حتى أمر به من لا يتوقع منه الحيف والجور وهم الوالدان، فقد أمر الآباء بالعدل والتسوية بين أبنائهم. روى الشيخان –واللفظ للبخاري–عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: (أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟) قال: لا، قال: (فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)، قال: فرجع فرد عطيته.[5]

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 86/8.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 61/14؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 190/9؛ البغوي، معالم التنزيل، 223/3؛ الخازن، لباب التأويل، 193/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 289/4.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 139/10؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 61/14؛ الخازن، لباب التأويل، 193/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 289/4؛ الماوردي، النكت والعيون، 216/2.

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 165/2.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، رقم 2587، ص 469؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم 1623، ص 663.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ(31)﴾[إبراهيم].

– أي: قل –يا محمد– لعبادي الذين آمنوا بك وصدقوا أن ما جئتهم به من عندي هو الحق فليقيموا الصلاة المفروضة خاصة، وليتصدقوا ببعض ما رزقناهم من فضلنا فى وجوه الخير –خصوصا ما كان منها حقوقا واجبة– خفية وعلنا، قبل أن يحضر يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة.(1)

– فتضمن مطلع الآية أمرا ربانيا كريما إلى النبي ﷺ أن يخبر المؤمنين برسالته بأن الله يأمرهم بإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم في السر والعلن قبل حلول يوم القيامة الذي لا يبقى معه مجال للمعاملات المالية ولا للعلاقات الشخصية ولا لأي عمل يمكن أن يجر نفعا لعامله مهما دق أو جل، إلا ما كان قدمه قبل ذلك لوجه الله وحده. قال البيضاوي: (أي قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا).(2)

– ولما كان الإيمان أول خطوة في طريق الهداية والصلاح وأول شرط لقبول أي طاعة عند الله تعالى، فإن الله وصف به عباده الذين أمرهم على لسان النبي ﷺ بالصلاة والإنفاق، وأضافهم إليه تشريفا لهم وتنويها بهم. قال البيضاوي: (خصهم بالإضافة تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لحقوق العبودية).(3)

– وللصلاة المأمور بها –سواء كانت فرضا أو نفلا– دور عظيم في إصلاح النفوس البشرية وتوجيهها إلى الأعمال الصالحة وتنفيرها من الفواحش والمنكرات والمفاسد عموما. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[العنكبوت:45]. أي أنها تعمل كمضاد لأوامر الشيطان وتوجيهاته الماكرة، وواق لنفس المصلي وقلبه من وساوسه ونصائحه المسمومة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[النور:21].

– ومن المفسرين من يرى أن الصلاة والإنفاق المأمور بهما في الآية هما الصلاة والنفقة المفروضتان، ومن هؤلاء الطبري والقرطبي، وهو مروي عن ابن عباس. بينما يبقي آخرون اللفظين على عمومهما ليشملا الفرائض والنوافل معا من هاتين العبادتين الجليلتين، ومن هؤلاء ابن كثير والبيضاوي والنسفي وغيرهم.(4) والراجح في تقديري هو بقاؤهما على عمومهما لأنه لا مخصص لهما. قال السعدي في بيان أصول وكليات التفسير: (ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 679/13-680؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 368.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل، 199/3.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 679/13؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، 143/12؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 199/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 173/2-174؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 342/4.

أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني). [1] ولذلك قال ابن عطية معلقا على تخصيص ابن عباس للفظتين بالصلاة والزكاة المفروضتين: (وهذا منه -عندي- تقريب للمخاطب). [2]

- وللإنفاق المأمور به أيضا في الآية -سواء كان واجبا أو نفلا- شأن عجيب في تزكية النفوس وإصلاحها وتطهيرها من الشح والقسوة والتعلق المذموم بالمادة. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103)﴾[التوبة]. قال ابن عاشور: (فالآية دالة على أن الصدقة تطهر وتزكي. والتزكية جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله : ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله : ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية. فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم). [3]

- وللمفسرين في معنى الإنفاق سرا وعلانية بضعة آراء. فالجمهور يرى أن المعنى مسرين ومعلنين، (يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية). [4] فتكون الكلمتان منصوبتان على الحال. بينما ابن عطية والبيضاوي ومن وافقهما يرون أن السر هو التطوع والعلانية هو الفرض. [5] وتردد الزمخشري بين قولي الجمهور وابن عطية وموافقيه. [6] في حين تردد الرازي والماوردي والشوكاني بين قولي الزمخشري وبين أن يكون المعنى (إنفاق سر وإنفاق علانية)، أي أن الكلمتين منصوبتان على المصدر كما قال. [7] وذهب السمرقندي إلى معنى آخر أساسه حال الآخذ للصدقة. قال: (يعني: سرا على المتعففين وعلانية على السائلين). [8] والراجح في تقديري هو قول الجمهور؛ لأن المقام مقام تشريف وتنويه بالمؤمنين، وحث لهم على الصلاة والإنفاق في سبيل الله، ومن مقتضى ذلك أن يستكثروا من الإنفاق ما استطاعوا بحيث يكون سرا وعلانية، أي في كل أحوالهم.

- والذي يتتبع سيرة النبي ﷺ وكتب سنته الشريفة يرى بجلاء كثرة أمره ﷺ للمسلمين بالصلاة والإنفاق في وجوه البر في مناسبات متنوعة جدا، مع تذكيره المستمر بهذين الأمرين العظيمين حتى كان ذلك آخر كلامه عند وفاته. قالت أم سلمة

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 898.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز، 339/3.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 22/11-23.

(4) انظر: الخازن، لباب التأويل، 38/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 143/12.

(5) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 339/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 143/12؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 199/3.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 381/3.

(7) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 127/19؛ الماوردي، النكت والعيون، 137/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 748.

(8) السمرقندي، بحر العلوم، 208/2.

رضي الله عنها: (كان من آخر وصية رسول الله ﷺ: الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، حتى جعل نبي الله يلجلجها في صدره وما يغيض بها لسانه).(1)

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(55)﴾[الزمر].

– أي: قل –يا أيها الرسول – مبلغا عن ربك: يا عباد ي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالاستكثار من الذنوب، لا تيأسوا من رحمة الله، إن الله يستر على الذنوب كلها بعفوه فلا يعاقب فاعليها ، إنه هو –وحده– الواسع فى مغفرته ورحمته . وعودوا إلى مربيكم الملك لأمركم والمدبر لشؤونكم، وانقادوا له من قبل أن ينزل بكم العذاب ثم لا ينصركم ناصر فيدفعه عنكم. واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم –وهو القرآن ال عظيم– بالتزام طاعته واجتناب معصيته، من قبل أن يحل بكم العذاب على حين غفلة منكم وأنتم غافلون.(2)

– فتضمنت الآيات أمرا من الله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ بأن يبلغ عباده المسرفين في اقتراف المعاصي أن لا يقنطوا من رحمة الله، وأن ينيبوا إلى الله، ويسلموا له ويتبعوا أحسن ما أنزل إليهم قبل حلول العذاب بهم وهم ساهون. قال الشوكاني: (والمعنى على ما هو الظاهر أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم، والأمر بالإنابة إليه، والإخلاص له، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه).(3)

– وهذه الآية لها ميزة خاصة عند المفسرين وهي أنها أكثر الآيات فتحا لباب العودة إلى الله مهما كان إيغال العائد قبل ذلك في الآثام والذنوب، وأوسعها بثا للأمل في مغفرة الله ورحمته مهما استحكمت حلقات اليأس من النجاة حول العبد. روى الطبري عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أوسع من: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ ... إلى آخر الآية(4) وروى أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن أكبر آية فرجا في القرآن ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، فقال مسروق: صدقت.(5)

---

(1) رواه أحمد في مسنده، رقم 27016، ص 1957، ورقم 27263، ص 1976؛ وصححه شعيب الأرنؤوط؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 224/20–232؛ الزمخشري، الكشاف، 312/5–313؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 46/5؛ لجنة القرآن و السنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 690.

(3) الشوكاني، فتح القدير، ص 1288.

(4) الطبري، جامع البيان، 228/20.

(5) المصدر السابق، ص 226–227.

- واختلف المفسرون في هوية هؤلاء العباد المخاطبين بهذه الأوامر المسبوقة بالبشرى. فالبعض -كابن عمر وابن عباس والرازي والبيضاوي وأبي السعود وطنطاوي وغيرهم- يرون أنهم المؤمنون. واستدلوا بإضافة الله سبحانه لهم إلى نفسه المقدسة. قال البيضاوي: (وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن).[1] وقال بعض آخر: (عني بها قوم من أهل الشرك، قالوا لما دعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرم الله، والله يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، فنزلت هذه الآية).[2] ومن هؤلاء مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وابن أبي زمنين والماوردي وغيرهم. بينما يرى غيرهم كابن عباس -في رواية أخرى- وابن كثير والشوكاني وغيرهم أن الخطاب شامل للعصاة جميعا، مسلمين كانوا أو كافرين.[3] قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر).[4]

والراجح في تقديري هو الرأي الثالث؛ لثبوت الدليل أن الآية نزلت في المشركين، فهي تشملهم بالنص وتشمل المؤمنين بفحوى الخطاب، ومن باب أولى. روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا من أهل الشرك،كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: 68]. ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].[5] وهذا ما رجحه الطبري. قال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى تعالى ذكره بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك، لأن الله عم بقوله ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفا دون مسرف).[6]

- ومن نافلة القول التنبيه إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ليس مرادا به مغفرة كل ما يقترفه المكلفون من الذنوب، بحيث لا يبقى ذنب على أحد كما قد يتوهم من ينظر إلى ظاهر هذه الآية مفصولا عن بقية القرآن الكريم، وإلا

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، 46/5.

(2) الطبري، جامع البيان، 224/20.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 225/20-227؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 127/19؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 46/5؛ ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 116/4-117؛ الماوردي، النكت والعيون، 131/5؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 620/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 74/7-75؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1287؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 309/12.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 75/7.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)﴾[الزمر]، رقم 4810، ص 893؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم 122، ص 74.

(6) الطبري، جامع البيان، 230/20.

لكانت الآية تشجيعا على المعاصي والمنكرات، إذ لا فائدة من مجاهدة النفس لتركها ما دام سيستوي مقترفها مع تاركها في النهاية. وقد أسهب الرازي في البرهنة على نفي الوهم المشار إليه. قال -رحمه الله-: (ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعا لما أمر عقيبه بالتوبة، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون، وأيضا قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:56]، ولو كانت الذنوب كلها مغفورة، فأي حاجة به إلى أن يقول: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾؟ وأيضا فلو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقا في الإقدام عليها، وذلك لا يليق بحكمة الله، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب البتة، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله).[1]

- والإسراف لغة مجاوزة الحد، ومن ذلك الإسراف في النفقة، أي التبذير فيها.[2] أما عند أهل التفسير فإن كثيرا منهم يرى أن الإسراف على النفس -المقصود هنا- هو الإفراط في الجناية عليها بالاستكثار من المعاصي والآثام عموما، ومن هؤلاء ابن عباس والزمخشري والثعالبي والنسفي وابن كثير والبيضاوي وأبو السعود والشوكاني والقاسمي وابن عاشور والسعدي والجزائري وطنطاوي وغيرهم. بينما ذهب البعض إلى القول بأن المراد هو الكبائر. ومن هؤلاء ابن أبي زمنين والواحدي وابن الجوزي.[3]

وفي تقديري أن الإسراف المقصود هنا يشملهما معا، وأن النهي عن القنوط والوعد بالمغفرة يشمل المؤمن المسرف في المعاصي عموما والمشرك المسرف في الشرك إن تاب منه؛ لأن الآية وإن نزلت في المشركين وأهل الكبائر كما دلت عليه أسباب نزولها إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر عند الأصوليين، ونقله السعدي ضمن أصول التفسير وكلياته.[4]

- واختلف أهل هذا الفن فيما دون الشرك من الذنوب هل تشترط في مغفرتها التوبة أم لا. فقال البعض هي شرط، ومن هؤلاء الحسن والزمخشري والسمرقندي.[5] قال الزمخشري -رحمه الله-: (﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة، وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكرا له فيما لم يذكر فيه لأن القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود (يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء). والمراد بمن يشاء من تاب ، (لأن مشيئة الله تابعة

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 4/27.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 172/7؛ ابن فارس، مجمل اللغة، 493/1.

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 312/5؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 97/5؛ النسفي، مدارك التنزيل، 187/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 46/5؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 620/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 75/7-76؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1287؛ القاسمي، محاسن التأويل، 5146/14؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 41/24؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 693-694؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 500/4؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 309/12؛ ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 117/4؛ الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 936/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 191/7.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص898.

(5) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 154/3-155؛ الماوردي، النكت والعيون، 131/5.

لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته)[1] بينما ذهب غيرهم إلى أن التوبة ليست شرطا في المغفرة إلا فيما هو شرك، وأما ما عداه فإن الله يغفر لمن شاء. ومن هؤلاء الطبري وابن جزي الغرناطي والألوسي وغيرهم. قال الطبري: (فإن قال قائل: فيغفر الله الشرك؟ قيل: نعم إذا تاب منه المشرك. وإنما عنى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذنُوبَ جَمِيعاً﴾ لمن يشاء، كما قد ذكرنا قبل، أن ابن مسعود كان يقرؤه، وأن الله قد استثنى منه الشرك إذا لم يتب منه صاحبه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: 48]، فأخبر أنه لا يغفر الشرك إلا بعد توبة بقوله : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فأما ما عداه فإن صاحبه في مشيئة ربه، إن شاء تفضل عليه، فعفا له عنه، وإن شاء عدل عليه فجازاه به).[2] وفي تقديري فإن الراجح هو القول الثاني؛ لأن تقييده بالتوبة خلاف الظاهر كما قال البيضاوي. [3] ومعلوم أن (الأصل عدم صرف اللفظ عن ظاهره إلا بدليل يقتضي ذلك).[4]

– وفي الآية دلالة ظاهرة على عظم فضل الله ورحمته وكرمه، فهو سبحانه يقبل توبة عبده إذا أقبل إليه مهما كان الذي صدر منه قبل ذلك من الذنوب كثرة وكبرا وقبحا، كما تدل على وجوب الإسلام لله والإنابة إليه واتباع ما أنزل من الوحي على رسوله ﷺ قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت حيث لا تنفع التوبة.[5]

– وفيها أيضا دلالة على تحريم القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته؛ [6] ذلك القنوط الذي هو من أوصاف الكافرين بربهم والضالين عن طريقه المستقيم. قال تعالى على لسان يعقوب –عليه السلام– لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(87)﴾ [يوسف]، وقال على لسان إبراهيم –عليه السلام– للملائكة: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)﴾[الحجر].

---

(1) الزمخشري، الكشاف، 5/312-313.

(2) الطبري، جامع البيان، 20/230.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 5/46.

(4) عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ص 269.

(5) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 4/501.

(6) وقد تضمنت الآية فائدة مهمة جدا وهي توجيه اضطرار المذنبين إلى رحمة الله وحده، وتعليق حاجتهم في مغفرة ذنوبهم إليه –سبحانه– وحده، وكذلك إنابتهم إليه وإسلامهم له وحده دون إحواج إلى وساطة أي أحد أو موافقته –أيا كان– وهذا مما يسهل التوبة على المذنبين ويشجعهم عليها، خلافا لما نراه في بعض الأديان المحرفة –كالنصرانية– من إحواج التائب إلى وساطة القسيس والاعتراف أمامه بكل ذنوبه ودفع ثمن صك المغفرة له؛ لأن الكنيسة تملك حق غفران الذنوب وتمنحه لمن تشاء كما تقرر في المجمع الثاني عشر سنة 1215م، فيجد المسكين نفسه تحت رحمة تجار الدين الاستغلاليين وأطماعهم، وقد لا يجد ثمن الصك إن كان فقيرا، وهو ما قد يصرفه عن التوبة نهائيا ويدفعه إلى العزم على الاستمرار في الآثام والموبقات حتى الموت. [انظر: سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، أضواء السلف، الرياض، ط1، 1418هـ-1997م، ص 271؛ محمد بن إبراهيم الحمد، رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، منزوع الغلاف، ص 176].

- وفي تحذير الناس من القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته، وتأميلهم في عفوه -مهما بلغت ذنوبهم- تأثير عظيم في إصلاح نفوسهم وكفهم عن الفساد والإفساد، ودفعهم إلى العمل الصالح النافع لهم ولغيرهم؛ لأن البشر مفطورون على طلب النجاة لأنفسهم والسعي في خلاصها ما دام ذلك ممكنا، أما إذا أيقنوا الهلاك لم يبالوا ما يأتون من الشرور إذ العاقبة واحدة.

- وقد بذل النبي ﷺ ما لا مزيد عليه من الجهد في محاربة يأس الناس من رحمة الله، وبث اليقين في قلوبهم بعفو أرحم الراحمين ومغفرته لهم وتجاوزه عن آثامهم وإن بلغت عنان السماء. وسيرته وسنته شاهدا عدل على ذلك. ومن النماذج الناطقة بذلك ما رواه الطبراني عن أبي طويل شطب الممدود -رضي الله عنه- أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها؛ فلم يترك منها شيئا، وهو مع ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل له من توبة؟ قال: (فهل أسلمت؟) قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله. قال: (نعم تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك حسنات كلهن). قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: (نعم). قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.[1]

وخلاصة هذا المطلب: أن النبي ﷺ أمر بإصلاح نفوس من حوله وتزكيتها بما تضمنته صيدلية القرآن الكريم من أنواع العلاجات المختلفة والأدوية المتنوعة، سواء كان الذين يصلهم خطابه من الكفار أو المسلمين؛ فالكفار يصلح نفوسهم لتقبل الإيمان وتقبل على الإسلام، والمسلمون يزكيهم ليزدادوا إيمانا ويحذروا التفريط ويستعدوا ليوم الحساب. وأرشد الله نبيه ﷺ إلى أساليب إصلاحية متنوعة لإتمام هذه المهمة العظيمة؛ منها: التذكير بما في القرآن العظيم من عظمة الله وحقوقه وما فيه من حقائق عن الكون والحياة ومصير الخلق وأهوال القيامة وغير ذلك، ومنها الوعظ المؤثر والإرشاد الهادي والتلقين المباشر للأحكام الشرعية والعقائد الإسلامية والأخلاق المرضية. ومن وسائل ذلك تحلية النفوس بعد تخليتها بالسؤال، وسوق القصص الهادف الذي يترك أثره في التصور والسلوك، والتحذير المباشر من مساخط الله، وفتح باب الأمل في رحمة الله ومغفرته وغيرها مما يعالج أمراض القلوب وأهواء النفوس.

وخلاصة هذا المبحث: أن الأوامر الواردة فيه تضمنت ثلاثة مواضيع بارزة، هي:

– تأكيد أحقية الله سبحانه وتعالى بالانفراد بالعبادة وحده، وأنه لا يصح الفصل بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية كما يفعل المشركون، وأن الأدلة العقلية تتضافر مع الأدلة النقلية في تقرير ذلك وإثباته، ومن ذلك عجز الشركاء المزعومين عن أي تصرف في الكون وإن دق، وعن الاهتداء فضلا عن هداية الغير؛ وكذلك تأكيد نفي الولد عن الله سبحانه، وأنه لو كان لكان النبي ﷺ أول من يعبده، لأنه أعلم بالله وصفاته وبما يجب له من التعظيم والتقديس، وفي ذلك رد على جميع من زعم الولد لله من اليهود والنصارى والمشركين الوثنيين.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم 7235، 7/375-376، من حديث أبي طويل شطب الممدود رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم 3391، 7/1162.

– تذكير الناس عموما –والخائفين من وعيد الله خصوصا– لأن الذكرى تنفع المؤمنين، كي يتعظوا فلا تهلك نفوسهم يوم القيامة وتحبس في النار بسبب سوء أعمالهم، وأن يقص عليهم القصص المنزل عليه –ومنه قصة المنسلخ من آيات الله بعد أن آتاه الله إياها– ليعتبروا ويؤمنوا فتصلح أحوالهم، ولا يبالي ﷺ بوصف السفهاء له بالكهانة والجنون، وأن يستمر في التذكير ما دامت الذكرى نافعة، وأن يقتصر على التذكير فقط لأنه ليس جبارا ولا مسيطرا على الناس، وأن أساس ذلك التذكير هو القرآن الكريم وما يحويه من مواعظ بليغة وعبر مؤثرة.

– بيان جملة من الحقائق الكبرى للبشرية عامة، وهي:

• أن الهدى الحقيقي الوحيد في العالم هو هدى الله المتمثل في الإسلام ودستوره العظيم الذي هو القرآن.

• وأن الترجمة العملية الصحيحة الوحيدة لمحبة الله هي متابعة مبعوثه ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله كلها، تلك المتابعة التي تثمر أطيب ثمرة وأحلاها وهي محبة الله للمتابع ومغفرة ذنوبه.

• وأن الله أمر بالقسط في الأمور كلها، وفي الأحوال كلها، ومع الناس كلهم، لا بالفواحش كما زعم المشركون، وأن يفردوه بالعبادة في كل مواضعها وأوقاتها مع التضرع إليه بالدعاء الخالص والدائم.

• وأن يخبر المسرفين في الآثام من عباده ألا يقنطوا من رحمة الله، وأن ينيبوا إليه ويسلموا له ويتبعوا أحسن ما أنزل إليهم قبل حلول آجالهم أو نزول العذاب بهم وهم غافلون.

• وأن يخبر المؤمنين به –خاصة– أن الله يأمرهم بالصلاة والصدقة في السر والعلن قبل حلول يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا ما قدم في حياته من عمل صالح.

وخلاصة هذا الفصل:

– أن النبي ﷺ أمر **بالتبليغ** الذي هو مهمته الرئيسية منذ نزول صدر سورة المدثر إلى وفاته.

– وأمر **بالصدع** بما كلف به، فرفع غطاء السرية عن المهمة الربانية الموكولة إليه، فكان هذا الأمر فاصلا بارزا في عمله الرسالي بين فترة السرية ومرحلة العمل العلني، ولكلتيهما خصائصها.

– وأمر **أن يوجه نداء** عالميا إلى البشر جميعا يعلمهم أنه رسول الله –ملك الكون وصانعه ومصرفه– إليهم يبلغهم مراده منهم، ويحمل إليهم الهداية والحق، ويدلهم على طريق السعادة الدنيوية والأخروية؛ **ويعلن** في وضوح تام أنه لا يأخذ منهم على ذلك مقابلا مطلقا، **وأنه لا يرغم أحدا** على اتباعه.

– ثم أمر ﷺ **أن يتلو** على مسامع الناس أنباء خمس شخصيات تاريخية عالمية محددة، لما في سيرها من العبر والدروس التي لا تبلى مع التقادم. وفي ذلك توجيه لاهتمام الشعوب إلى علوم التاريخ والسير والثقافة العامة والعلوم الشرعية والنفسية وسائر العلوم الإنسانية. واللافت أن مضامين هذه الأوامر تمثل **الخطوط العريضة لوظيفته الكبرى** بوصفه رسولا من الله مبلغا للثقلين مراد ربهم منهم.

– وأن يدعو الناس إلى دين الله القويم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، مع استقامته هو ﷺ عليه وتمسكه به، ويقينه بصحته وحذره من اتباع أهواء المشركين المشككين.

– وأن يبشر من استجاب له بجنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار، وتحوي من صنوف اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن لهم سابقة صدق عند ربهم، وفضل كبير، ومغفرة وأجر كريم، وعليهم ثناء منه تعالى ورحمة.

– وأن ينذر الناس عامة والمشركين خاصة ما ينتظرهم من أهوال وأعذبة يوم القيامة تملأ قلوبهم رعبا، وتدفعهم إلى التماس الشفعاء وطلب تأجيل الحساب للعودة إلى الدنيا واتباع الرسل، لكن دون جدوى؛ على أن يكون الإنذار بالقرآن الكريم وما يحويه من الزواجر والمواعظ والرقائق والحقائق.

– وأن يؤكد لهم توكيدا مضاعفا انفراد الله سبحانه بالعبادة وحده، لأن جميع الأدلة العقلية تتضافر مع كل الأدلة النقلية في تقرير ذلك وإثباته، فلا شريك لله ولا ند ولا والدا ولا صاحبة ولا ولدا.

– وأن يذكر الناس عموما –مسلمهم ومشركهم– ويقوم ما عندهم من عقائد فاسدة، وآراء كاسدة، وأفكار منحرفة، وأخلاق سيئة؛ ويزكي نفوسهم، ويصحح سلوكهم، ويعالج أمراض قلوبهم، لتصلح أحوالهم ويسعدوا في الدنيا والآخرة.

– وأن يبين للبشرية عامة جملة من الحقائق الكبرى وهي:

- أن الهدى الحقيقي الوحيد في العالم هو هدى الله المتمثل في الإسلام ودستوره العظيم الذي هو القرآن.
- وأن الترجمة العملية الصحيحة الوحيدة لمحبة الله هي متابعة مبعوثه ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله كلها
- وأن الله أمر بالقسط في الأمور كلها، وفي الأحوال كلها، ومع الناس كلهم.
- وأن يفتح باب الأمل في مغفرة الله لمن أسرفوا في الآثام، ويأمرهم بألا يقنطوا من رحمة الله، ويعدهم بالمغفرة إن تابوا.
- وأن يكلف المؤمنين به –خاصة– بالصلاة والصدقة في السر والعلن قبل حلول يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا ما قدم في حياته من إيمان وعمل صالح.

الفصل الثالث

أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره مفتيا للمسلمين ومجيبا لعموم المستفسرين

لما كانت وظيفة النبي ﷺ غير مقتصرة على تبليغ الوحي والدعوة إلى الإسلام، وكان أعلم الناس بالله ودينه، وكان الناس -كما في كل زمان- تشغل بالهم مسائل كثيرة يودون معرفة أجوبتها، كانت إحدى وظائفه الشريفة وظيفة الفتوى، يبين للمستفتين في إطارها ما استشكل عليهم من أمور دينهم أو غمض من تفاصيله؛ يؤكد ذلك إخبار الله سبحانه في كتابه الكريم أن الناس كانوا يستفتونه ﷺ. قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾[النساء: 176]. ومن ثم قال ابن عاشور -وهو يعدد وظائفه ﷺ التي تصدر أقواله وأفعاله في إطارها-: (وهي: التشريع والفتوى والقضاء والإمارة ...). [1] وبما أن فتوى المفتي يسبقها عادة سؤال المستفتي فقد اقتصرت في هذا الفصل على إيراد الأوامر الموجهة إليه ﷺ من قبل الله سبحانه والمتضمنة أجوبة على أسئلة وجهت إليه ﷺ تمييزا لها عما ورد على سبيل التشريع ابتداء. وهي الأوامر المسبوقة بعبارة (يسألونك)، وكذلك عبارة (يستفتونك). قال ابن عاشور: (وجميع الآيات التي افتتحت بـ ﴿ يَسْأَلُونَكَ﴾ هي متضمنة لأحكام وقع السؤال عنها). [2]

فما الأوامر التي وردت إلى النبي ﷺ في القرآن العظيم باعتباره مفتيا؟ وما دلالة تلكم الإجابات في حقه ﷺ؟ للإجابة عن هذه الأسئلة نستقرئ ما ورد إليه ﷺ مستوفيا الشرط الذي ذكرناه. وهذا ما سنحاوله في هذا الفصل من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفسرين في المسائل الغيبية.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين في المسائل الفقهية.

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفسرين في المسائل الغيبية.

نبينا محمد ﷺ مبعوث للبشرية كافة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(107)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(28)﴾[سبأ]؛ ولذلك كان لا يقتصر على إجابة المسلمين وحدهم، بل يجيب من يستفتيه وإن كان كتابيا أو مشركا، لا غفلة منه ﷺ عن خبث قصودهم في استفساراتهم -كقصدهم التعجيز أو السخرية في كثير من الأحيان- إذ هو أبصر الناس بهم لكثرة ملابسته لهم. فما طبيعة الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط2، 1428هـ-2007م، ص 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 193/2.

في هذا المجال؟ وأي الطوائف كان التركيز عليها أكثر؟ ولم يجيب النبي ﷺ الكفار إجابات جادة مع علمه بسوء نواياهم في أكثر استفتاءاتهم؟ سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بغيب ما قد مضى

المطلب الثاني: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بالروح وبغيب المستقبل

المطلب الأول: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بغيب ما قد مضى

ورد في هذا المجال أمر واحد متعلق بالإجابة على سؤال المشركين عن خبر ذي القرنين وما كان من أحواله. قال تعالى:
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا(83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(84)فَأَتْبَعَ
سَبَبًا(85)حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ
تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا(86)قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا(87)وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا(88)ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا(89)حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ
مِنْ دُونِهَا سِتْرًا(90)كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا(91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا(92)حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا(93)قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا(94)قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا(95)آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا
سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(96)فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ
نَقْبًا(97)قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا(98))﴾[الكهف].

– أي: ويستفهمك –أيها النبي– بعض المشركين من قريش عن نبإ الملك الصالح ذي القرنين، فقل لهم مجيبا: سأقص عليكم شيئا مما يكون لكم ذكرى من أخبارهِ لقد آتيناه تمكينا في الأرض، ويسرنا له سبل تدبير أمور مملكته والعلم بكيفيات التصرف في شؤونها، فاستعان بهذه الأسباب على مد سلطانه في البلاد، وسلك سبيلا يمكنه من الوصول إلى مغرب الشمس، فسار متجها ناحية الغرب، فألفى الشمس –فيما يراه الناظر – كأنها تغرب في موضع ينبوع حار الماء مسود الطين، وعلى مقربة منه قوما، فوجهه الله إلى أن ينفذ فيهم أحد رأيين: إما أن يسلك معهم سبيل الحسنى فيدعوهم إلى الإيمان ويعلمهم طريق الرشاد، وإما أن يعنف معهم فيقاتلهم إن رفضوا سبيل الهدى. فأعلن لهم: أن من ظلم نفسه منهم بالبقاء على كفره، فسنعذبه العذاب الدنيوي، ثم يعاد إلى ربه فيعذبه عذابا شديدا لا يعرف له مثيلا، ومن استجاب منهم لدعوة الحق فآمن بالله وعمل بطاعته فله العاقبة الحسنى في الآخرة ثوابا من ربه ، وسنحسن معاملته في الدنيا . ثم سار ذو القرنين راجعا إلى المشرق مستعينا بالله مستخدما لما يسر له سبحانه من الأسباب والوسائل حتى بلغ موضع شروق الشمس –فيما يراه الناظر – عند منتهى ما وصل إليه من العمران، فألفاها تشرق على قوم يعيشون حياة بدائية ليس لهم أبنية تسترهم ولا أشجار تظللهم فدعاهم إلى الإيمان

كما فعل بمن سبقوهم، والله -في كل ذلك- محيط علما به وبأعماله وأسبابه لا تخفى عليه منه خافية. ثم استأنف سيره بعد ذلك فيما بين الشرق والغرب آخذا بما هيأ الله له من الوسائل حتى وصل إلى موضع بين جبلين عاليين يحجزان ما وراءهما ، فوجد هناك قوما لا يفهمون ما يخاطبهم به غيرهم إلا بصعوبة، فالتمسوا منه -بعد أن آنسوا منه القدرة- أن يبني لهم حاجزا يمنع عنهم غارات يأجوج ومأجوج، وهم أمتان عظيمتان من البشر دأبهم الإفساد في الأرض بالقتل والتخريب ، مقابل أن يجمعوا له مالا يكون له أجرا على عمله ذلك، فأجابهم : إن ما وهبنيه الله من الملك والتمكين والثروة أفضل مما تعرضون علي من مال، ولكن أعينوني بجهدكم. وطفق ينجز ذلك الحاجز العظيم، فأمرهم أن يجمعوا له قطع الحديد ففعلوا حتى حاذوا به حافتي الجبلين، ثم طلب منهم أن يوقدوا النار عليه، فأججوها حتى إذا انصهر الحديد أمرهم بإحضار النحاس الذائب فصبه عليه فصار سدا منيعا شديد الصلابة مكتمل العلو، فما قدر أولئك المفسدون أن يتسوروه لارتفاعه، ولا أن يخرقوه لصلابته ومتانته. وبعد أن أنهى عمله قال ذو القرنين معترفا بفضل الله عليه وعلى القوم الذي ساعدهم: إنجاز هذا الحاجز رحمة من الله بعباده، وسيستمر قائما إلى أن يأذن الله بزواله، فحينئذ يهدم ويسوى بالأرض، ووعد الله حق ناجز لا ريب فيه.[1]

- فتضمنت الآيات أمرا من الله سبحانه للنبي ﷺ بأن يقص من خبر ذي القرنين ما فيه تذكرة وعظة على من سألوه عما كان من أنبائه.

- وسبب نزولها فيما رواه ابن إسحاق عن رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث (وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم ا: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ؛ فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإ ن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد ، أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: (أخبركم عما سألتم عنه غد ا)، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله تعالى إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة وقد أصبحنا فيها ولا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، حتى حزن

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 459-460؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 302-304؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 439-441.

رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85)﴾.[1]

– والسائلون هم المشركون من قريش بإيعاز من اليهود كما يدل عليه سبب النزول، وكان طرحه على سبيل الاختبار.[2]

– والقرنان في اللغة مثنى قرن، ويطلق على معان كثيرة؛ منها روق الحيوان، وموضعه من رأس الإنسان أو الجانب الأعلى منه، والظفيرة، والخصلة من الشعر، وأعلى الجبل، وإحدى شعرتين في رأس الجراد، وأعلى الشمس وشعاعها وأول ما يبدو منها عند طلوعها، وسيد القوم، ولدة الرجل، ومائة سنة، وكل أمة هلكت فلم يبق منها أحد، وحد السيف، والميل الحجري الذي يكون على فم البئر للبكرة، وشد شيء إلى شيء كقرن بعيرين مثلا في حبل، وأهل الزمان الواحد، وطرف الهودج، وطرف الفلاة، وغيرها.[3] وكما كثرت المعاني التي يطلق عليها لفظ القرن عند اللغويين كثرت أقوال المفسرين في تعيين ذي القرنين الوارد ذكره في هذه الآيات؛ فقال البعض: هو الإسكندر الذي ملك الدنيا، وهؤلاء اختلفوا في زمانه، فقال قوم كان بعد النمرود، أي في زمن إبراهيم –عليه السلام–؛ وقال غيرهم: عاش قبل المسيح عيسى –عليه السلام– بنحو ثلاثمائة سنة؛ وفصل آخرون فقالوا: هما اثنان: أحدهما كان في زمن الخليل –عليه السلام– وطاف بالبيت معه أول ما بناه، وآمن بنبوته واتبعه، واستوزر الخضر عليه السلام، فكان عبدا مؤمنا صالحا وهو المراد في الآية، وثانيهما هو الإسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني الذي عاش قبل ابن مريم بما يقرب من ثلاثة قرون، واستوزر الفيلسوف الشهير ارسطو طاليس، فكان كافرا. وقال البعض الآخر: هو الملك تبع أبو كرب أحد ملوك اليمن من حمير. وذهب فريق إلى أنه أفريدون بن أثفيان بن جمشيد أحد ملوك الفرس القدامى. ورأى البعض أنه رجل من مصر اسمه المرزبان بن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح. وقيل: هو الصعب بن ذي يزن الحميري من ولد وائل بن حمير . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اسمه عبد الله بن الضحاك . وقيل: اسمه هرمس ، وقيل : اسمه

---

(1) محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بابن إسحاق ت 151هـ، كتاب السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، د م ط، ط 1، 1398هـ-1978م، ص 201-202؛ ومن طريقه ابن هشام في السيرة النبوية، 1/230-231؛ والطبري في جامع البيان، 143/15؛ والبيهقي في دلائل النبوة، 269/2؛ وهو حديث ضعيف الإسناد. قال ابن حجر: هذا حديث غريب، لولا هذا المبهم لكان سنده حسنا. [انظر: علي بن أحمد بن حجر العسقلاني ت 850هـ، موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، تحقيق وتعليق: حمدي عبد المجيد السلفي، وصبحي السيد جاسم السامرائي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1414هـ-1993م، 70/2]؛ ولكن كثيرا من المفسرين أوردوه سببا لنزول هذه الآيات، ولذلك يمكن الاستئناس به في ظني. والله اعلم.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 610/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 164/21؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 135/5.

(3) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1223-1224؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 263؛ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت 538هـ، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ-1998م، 73/2.

هرديس، وقيل: غير ذلك، بل قيل: كان نبيا، وقيل: كان ملكا من الملائكة.[1] وقد رجح الرازي أنه الإسكندر المقدوني، وعلل ذلك بقوله: (فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض بالكلية، أو ما يقرب منها، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني).[2] لكن هذا الرأي الذي يرى الرازي وجوب القطع به يستبعده غيره من المفسرين ويراه مرجوحا، بل يراه خطأ كبيرا وفسادا كثيرا. قال ابن كثير: (وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبدا مؤمنا صالحا، وملكا عادلا، وكان وزيره الخضر، وقد كان نبيا، على ما قررناه قبل هذا. وأما الثاني فكان مشركا، وكان وزيره فيلسوفا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور).[3] بينما تجاوز ابن عاشور كل هذه الأقوال ورأى أن باني سور الصين العظيم -الذي هو إحدى عجائب الدنيا السبع- وهو الملك تْسِينْشِي هْوَانْفتي أو تْسِينْ شِي هْوَانْقْ تِي، وأن السد هو ذلك السور العجيب. قال -رحمه الله- معددا مسوغات قوله هذا الذي لا أعلم من سبقه إليه من المفسرين: (فالذي يظهر لي أن ذا القرنين كان ملكا من ملوك الصين لوجوه: أحدها: أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع. الثاني: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة. الثالث: أن من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين. الرابع: أن سدا وردما عظيما لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول، وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه. الخامس: ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ خرج ليلة فقال (ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا) وأشار بعقد تسعين.[4] أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام. وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد، فتعين أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأن الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين، وبانيه ملك من ملوكهم، وأن وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب ... واسم هذا الملك تْسِينْشِي هْوَانْفتي أو تْسِينْ شِي هْوَانْقْ تِي، وكان موجودا في حدود سنة سبع وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح، فهو متأخر عن إسكندر

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 609/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 365/13-366؛ الخازن، لباب التأويل، 175/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 149/6-150؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 135/5؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 545/3-546.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 164/21.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 310/2.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم 3346، ص 612؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم 2880، ص 1154.

المقدوني بنحو قرن).[1] وفي تقديري أن رأي ابن عاشور جانب الصواب؛ لأن أكثر الحجج التي بناه عليها ليست مسلمة، بل بعضها ظاهر البطلان. فكون أهل الصين منذ القدم -كما قال- أهل تدبير وصنائع ليس خاصا بهم، فقدماء المصريين والرومان والفرس كانوا كذلك وربما أمهر وأقدر؛ وكونهم متسمين بتطويل شعر رؤوسهم وجعله في ضفيرتين يقضي على تميز ذي القرنين بذلك ومن ثم وصفه أو تلقيبه به، لأن الإنسان إنما يلقب بما يتميز به عن غيره، كما تميز ذو اليدين رضي الله عنه، وذو الثدية من الخوارج وغيرهما؛ ووجود السور الأعظم في الصين -والذي لا يعرف له نظير في العالم - لا يقوم حجة، لأنه (مبني بالحجارة والآجر وبعضه من الطين فقط) [2] كما قال ابن عاشور نفسه، بينما سد ذي القرنين مبني بزبر الحديد، مطلي بالنحاس المصهور، كما بين ربنا سبحانه في الآيات محل الدراسة؛ وحديث أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما - وإن كان صحيحا- لا دلالة فيه، لأن الحكم بأن يأجوج ومأجوج المذكورون فيه هم المغول الذين قضوا على الخلافة العباسية وعاثوا في المشرق الإسلامي فسادا مجرد رأي دل حديث المعصوم ﷺ على بطلانه، إذ بين فيه ﷺ أن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول عيسى عليه السلام ويهلكون جميعا في حياته، ومعلوم أن عيسى لم ينزل بعد. قال النبي ﷺ متحدثا عن عيسى عليه السلام بعد قتله للدجال: (... فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم ويقول: لقد كان بهذه مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما، ويحصر نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله).[3] **والصواب** في تقديري -والله أعلم- أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدوني؛ لأن المقدوني كان مشركا هو ووزيره أرسطو وقومه اليونان، كانوا يعبدون الأصنام والكواكب؛[4] أما هو فكان مؤمنا. وأما بقية الأسماء التي ذكروها فهي إما غير معروفة المسميات -كهرمس وهرديس- أي لا تعرف تراجم أصحابها، ولذلك لا يمكن إثباتها له ولا نفيها عنه، وإما أنها معروفة مثل أفريدون بن أثفيان بن جمشيد و تبع أبي كرب اليمني ولكن لا تنطبق عليها أوصاف ذي القرنين،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 22/16.

(2) المصدر السابق، ص 35.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم 2937، ص 1177-1178، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(4) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 11/171-172.

فأفريدون لم يكن صالحا بل كان وثنيا، كما أنه لا يعلم في تاريخه أنه أقام سدا بين أمتين أو بلدين ولا أنه بلغ في سلطانه الشرق والغرب، ولا أنه كان يلقب بذي القرنين، [1] وكذلك تبع، إلا في مسألة الإيمان فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تسبوا تبعا، فإنه كان قد أسلم)، [2] وقال وهب بن منبه: [3] (نهى رسول الله ﷺ الناس عن سب أسعد، وهو تبع. قلنا: يا أبا عبد الله، وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم ﷺ). [4] ولعل قول وهب هذا هو أصل قول بعض من أشرنا إليهم من المفسرين بأن ذا القرنين كان مع إبراهيم عليه السلام. فالخلاصة أننا لا نملك دليلا صحيحا تطمئن إليه نفس الباحث الموضوعي الصادق لتحديد هوية ذي القرنين أو تعيين شخصية تاريخية -مشهورة أو مغمورة- بأنها هو؛ ولذلك نكتفي بذكر ملامحه العامة التي ألمعت إليها الآيات التي نحن بصدد الحديث عنها، فنقول: دل القرآن الكريم على أنه كان رجلا مؤمنا صالحا وملكا عادلا، وغازيا فاتحا، ومنصورا مظفرا، معينا للمظلوم ناهيا عن المنكر، داعيا إلى الإسلام، واسع النشاط، عظيم الهمة، طوافا في أنحاء الأرض، وافر الأعمال العسكرية الهائلة، والانتصارات الباهرة، كبير الإنجازات الأمنية الناجحة والمدنية النافعة على السواء، وأنه كان معه أهل التخصص والعمل في مشاريع البناء الكبرى وأنواع الصناعات المعدنية المختلفة، مبسوط السلطان على الشرق والغرب والقلب، مشهورا بين الأمم بلقبه -لفظا أو معنى- خصوصا في الجهات القريبة من مواضع أنشطته العسكرية وغيرها، حاكما لشعوب شتى وقوميات متنوعة، والراجح أنه كان نبيا يوحى إليه. والله أعلم.

- واختلف المفسرون أيضا في سبب تسميته بذي القرنين. فقال بعضهم: سمي بذلك لأنه ضرب على قرنه فمات، ثم أحياه الله فضرب ثانية على قرنه الآخر فمات. واستدلوا بما رواه الطبري في تفسيره عن أبي الطفيل، قال: سمعت عليا وسألوه عن ذي القرنين، أنبيا كان؟ قال: (كان عبدا صالحا، أحب الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، فبعثه الله إلى قومه، فضربوه ضربتين في

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21/16.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 23268، ص 1683؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 6013، 203/6؛ وفي المعجم الأوسط، رقم 3290، 323/3؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، 6/11؛ كلهم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه؛ والطبراني في المعجم الأوسط، رقم 1419، 112/2، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3719، 1223/2؛ وفي السلسلة الصحيحة، رقم 2423، 548/5.

(3) هو أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار الأبناوي الذماري الصنعاني. تابعي جليل علامة أخباري قصصي ثقة عابد زاهد. يمني ولد في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 34هـ ورحل وحج، وهو أخو همام بن منبه. روى عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري والنعمان بن بشير وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، كما أخذ عن طاوس من التابعين. روى عنه عمرو بن دينار وعاصم بن رجاء بن حيوة وغيرهما. توفي سنة 114هـ في صنعاء. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 586، 443/5؛ الزركلي، الأعلام، 125/8].

(4) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، 6/11؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 2423، 549/5.

رأسه، فسمي ذا القرنين، وفيكم اليوم مثله) .[1] وقال آخرون: سمي كذلك لأنه ملك الروم وفارس، وفي رواية: الروم والترك. وذهب فريق ثالث إلى أن سبب ذلك أنه كان في رأسه شبه القرنين . وقال غيرهم: إنما سمي بذلك لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. وهذا القول واللذان قبله مرويان عن وهب بن منبه اليماني. وقيل: لأن تاجه كان له قرنان. وقيل: ربما كان لخوذته قرنان من نحاس. وقيل: من الجائز أن يكون لقب بذلك بسبب شجاعته، كما يلقب الشجاع بالكبش لكونه ينطح أقرانه . وقيل: لأنه كان له قرنان، أي ضفيرتان. وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس. وقيل: لأنه طاف قرني الدنيا ، أي مشرقها ومغربها. وقيل غير ذلك.[2] والراجح –والله أعلم– هو القول الأول؛ لصحة إسناده إلى علي رضي الله عنه، ومعلوم أن تفسير الصحابي مقدم على تفسير من دونه من التابعين، وهو يلي في الأهمية تفسير النبي ﷺ. ثم إنه لا يبعد أن يكون سمعه من النبي ﷺ لأن مثل هذا الأمر لا يقال بالرأي لكونه غيبا، وإنما يعرف بالوحي، وذلك لا يصدر إلا من النبي ﷺ. قال العك:[3] (وأما الآثار: فالمعني بها ما نقل عن النبي ﷺ من بيان المراد من بعض القرآن في مواضع الإشكال والإجمال ... ثم ما نقل عن الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي من بيان سبب نزول وناسخ ومنسوخ وتفسير مبهم وتوضيح واقعة من كل ما طريقهم فيه الرواية عن الرسول ﷺ دون الرأي مثل كون المراد من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود، ومن ﴿الضَّالِّينَ﴾ النصارى).[4]

– وتضاربت آراء أهل العلم بالتفسير في العصر الذي عاش فيه ذو القرنين تضاربا شديدا؛ وإنما وصفته بالشدة لأن الفرق بين تلك الأقوال لا يعد بالأيام والشهور، ولا بالأعوام ولا حتى بالعقود، بل بالقرون والحقب. وقد لخصها القرطبي فقال: (واختلفوا أيضا في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفترة بعد عيسى. وقيل: كان في وقت إبراهيم وإسماعيل).[5] فأما القول بأنه عصر الفترة –أي ما بين زمن عيسى ومحمد عليهما السلام– فمستبعد جدا؛ لأن تاريخ هذه المرحلة مدون ومعلوم للمؤرخين والدارسين لوفرة مصادره، فهو في دائرة الضوء، فيبعد أن يعيش في هذه الفترة رجل بوزن ذي القرنين ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب ثم يبقى مجهولا، وقد أرخ لمن هم دونه وأعمالهم دون أعماله بمراحل، فيتعين أن يكون قبلها. بل أقول: والراجح أنه لم يكن قبلها على طول الفترة الممتدة من زمن عيسى –عليه السلام– رجوعا إلى زمن النبي

---

(1) الطبري، جامع البيان، 370/15؛ وصحح إسناده حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 322/3.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 371/15؛ الزمخشري، الكشاف، 610/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 164/21-166؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 366/13-367؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 291/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 19/16.

(3) هو خالد عبد الرحمن العك. كاتب باحث مصنف محقق سوري معاصر. ولد سنة 1943م في دمشق وبها نشأ، ولما أتم دراسته الابتدائية انتسب إلى معهد الفتح الإسلامي حيث تخرج سنة 1961م. من شيوخه محمد أبو اليسر عابدين وحسين حطاب، ومن مصنفاته عقيدة المسلم وموسوعة فقه المرأة المسلمة. توفي سنة 1999م. [انظر على سبيل المثال: أيمن بن أحمد ذو الغنى، الشيخ المصنف: خالد عبد الرحمن العك. مقال نشر يوم 2008/02/25، على موقع شبكة الألوكة على الرابط: https://www.alukah.net/culture/.

(4) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ-1986م، ص44.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 367/13.

سليمان –عليه السلام– الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد. [1] يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ(34)قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(35)فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ(36)وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ(37)وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(39)﴾[ص]. قال ابن عاشور: (وقد حكى الله دعاء سليمان وهو سر بينه وبين ربه إشعارا بأنه ألهمه إياه، وأنه استجاب له دعوته تعريفا برضاه عنه وبأنه جعل استجابته مكرمة توبته. ومعنى ذلك أنه لا يأتي ملك بعده له من السلطان جميع ما لسليمان).[2] ومما يؤكد استجابة الله لنبيه سليمان ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلا تي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، فرددته خاسئا).[3] وفي رواية مسلم: (فرده الله خاسئا). فإذا كان مثل النبي ﷺ قد امتنع من حبس عفريت واحد من الجن وفاء لسليمان واحتراما لدعوته، لأنه ﷺ يعلم أن قهر الجن من جملة ملكه عليه السلام، فيبعد جدا أن يوجد مثل ذي القرنين وهو من هو ملكا وسلطانا دنيويا –وهو دون النبي ﷺ مكانة في الدين كما دل حديث الشفاعة المشهور– بعد تلك الدعوة الضارعة المستجابة، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[التوبة:111].

إذن: فالراجح –في تقديري– أن ذا القرنين كان قبل النبي سليمان –عليه السلام– لكن دون تعيين وقت ما من تلك الحقبة، أو تحديد تفصيل ما، كقول من قالوا إنه استوزر الخضر عليه السلام، أو أنه كان له حمار يضع حافره عند منتهى بصره، أو أنه كان يربط أرسان خيله في الثريا، أو غيرها من التحديدات والتفاصيل –بل والخرافات– التي لا يمكن أن تقال تخمينا ورجما بالغيب، لأن ذلك لا يمكن معرفته إلا بنص شرعي من كتاب أو سنة صحيحة، أو ببحث علمي رصين توفرت فيه شروط البحث وقواعده. وأما القولان الآخران اللذان ذكرهما القرطبي فمحتملان، كما يحتمل ما قبلهما وما بعدهما إلى آخر حياة داود –عليه السلام– ولكن لا سبيل إلى الجزم بشيء من ذلك لغياب الدليل.

– ولا خلاف أن ذا القرنين أحد من امتد ملكهم فشمل المشرق والمغرب. صح عن مجاهد المفسر –رحمه الله– أنه قال: (ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: بختنصر ونمرود بن

(1) انظر على سبيل المثال: كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، ط2، د ت ط، ص 17؛ ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، دار النفائس، بيروت، ط3، 1401هـ–1981م، ص 45.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 263/23.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(30)﴾[ص]، رقم 3423، ص 630؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، والتعوذ منه، وجواز العمل القليل في الصلاة، رقم 541، ص 218.

كنعان، لم يملكها غيرهم).[1] قلت: لكن حصر ذلك في هؤلاء الأربعة غير صحيح –والله أعلم– لأنه يخالف الواقع التاريخي، فالإسكندر المقدوني –مثلا– كان ممن امتد ملكه وشمل الشرق والغرب، ولذلك فهو أولى من سليمان –عليه السلام– ونبوخذ نصر ما دامت مساحة الدولة هي المقياس؛ لأن (ملك سليمان –عليه السلام– لم يكن يتجاوز فلسطين وما حولها)،[2] ودولة نبوخذ نصر لم تتجاوز أرض عيلام شرقا وحدود مصر الشرقية غربا، بل ينبغي حذف اسم سليمان –عليه السلام– من هذه القائمة لأنه لا ينطبق عليه قول مجاهد: ((ملك الأرض مشرقها ومغربها)، والله أعلم.[3]

– ومن شرف الأمة الإسلامية أن منها من يشارك ذا القرنين في ميزة انبساط سلطانه على المشرق والمغرب. قال القرطبي معقبا على أثر مجاهد الذي مر آنفا: (وسيملكها من هذه الأمة خامس ، لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[الفتح:28] وهو المهدي).[4] أقول: وقد ورد التصريح بذلك من النبي ﷺ الذي قال فيما رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما، يملك سبع سنين).[5] هذا في المستقبل؛ وقد تحقق ذلك في الماضي في خلافة الأمويين والعباسيين والعثمانيين حين طبق المسلمون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102)وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(103)﴾[آل عمران].

– والذكر الموعود بتلاوته في قوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد به القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)﴾[الحجر]، ويحتمل أن يكون المقصود به الحديث والخبر كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا(70)﴾[الكهف]، ويحتمل أن يراد به المعنيان معا فيكون ذلك من بلاغة القرآن، فيكون المعنى سأتلو عليكم منه قرآنا يتضمن حديثه وخبره.[6] ولما كان القرآن منزها عن ذكر ما لا فائدة فيه فقد اقتصر من أخباره على ما تضمن العظة والذكرى دون التفاصيل التي يكترث بها المؤرخون والقصاص كثيرا؛ لأن القرآن كتاب

---

(1) الطبري، جامع البيان، 571/4–572؛ والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 734/2، عن معاوية بلفظ: (ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان، ورجل آخر. فقيل له: الخضر، فقال: لا).

(2) محمد الخضري، الدولة الأموية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط5، 1419هـ–1998م، ص29، وانظر على سبيل المثال: عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، جمهورية مصر العربية، د ر ط أو ت ط، 206/1، 221.

(3) انظر على سبيل المثال: عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، 206/1، 221.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 367/13.

(5) رواه أبو داود في سننه، كتاب المهدي، باب، رقم 4285، ص 638؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم 8670، 673/4 باختلاف يسير، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 1529، 38/4.

(6) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 310/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 150/6.

هداية وليس كتاب رواية. قال السعدي: (فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب. أي: سأتلوا عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم). [1]

– والتمكين لذي القرنين في الأرض معناه التوطئة له بتيسير أسباب تحصيل أغراضه فيها، وتسهيل سيره في أنحائها، وجعله ذا قدرة على التصرف في شؤون أهلها. روى الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة عن حبيب بن حماز، قال: كنت عند علي بن أبي طالب، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ قال: سبحان الله، سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له النور. فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل وسكت علي.[2] ومن مظاهر ذلك التمكين ما أوتيه من الجنود وآلات الحرب والحصار والعمال والصناع والمعرفة باستخدام المعادن وطرق إنجاز الأعمال، والعلم بمسالك الأرض ونواحيها، وخضوع الملوك والشعوب له.[3]

– واختلف المفسرون في معنى السبب المراد في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قيل: هو العلم الذي يتسبب إليه به؛ وبذلك قال ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك. وقيل: هو شامل لكل ما يتوصل به إلى مقصود ه من علم أو قدرة أو آلة أو غير ذلك، وهو الراجح في تقديري؛ لأن العلم النظري وحده لا يحقق المقصود ولا يقيم ملكا ودولة. كما اختلفوا في معنى السبب الوارد في الآية التي تليها، أي في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فقيل: المراد به هو الطريق وما يدل عليه من معالم الأرض ومنازلها، وممن قال بذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد والضحاك، وقيل: هو ما يوصل إلى المقصود عموما، وكلاهما صحيح في تقديري؛ لأن سبب الخلاف في التفسير هنا هو اختلاف القراءة في لفظة ﴿فَأَتْبَعَ﴾، فقرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو بوصل الألف وتشديد التاء، فمعناها حينئذ سلك وسار، وقرأها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بقطع الألف وسكون التاء مخففة ومعناها عندئذ لحق. وللقرطبي رأي آخر وهو أن معنى هذه الكلمة يظل واحدا حتى مع اختلاف القراءة. قال رحمه الله: (والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السير).[4] والله أعلم.[5]

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 459.

(2) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم 409، 32/2، وصحح إسناده محققه الدكتور: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

(3) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 571/15-572؛ السمرقندي، بحر العلوم، 310/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 538/3؛ الخازن، لباب التأويل، 176/3؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 190/6؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 184/5؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 136/5-137؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 873.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 369/13.

(5) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 371/15-374؛ الزمخشري، الكشاف، 610/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 166/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 368/13.

- ومعنى ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ موضع غروبها، أي مكان مغيبها فيما يرى الناظر. والمقصود -والله أعلم- الحد الذي لا يستطيع الآدمي أن يتجاوزه بما أتيح له من إمكانيات في ذلك الزمان إلى جهة الغرب.(1)

- واختلف المفسرون أيضا في معنى قوله عز وجل: ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ تبعا لاختلاف القراء في قراءتها. فمن قرأها (حامية) كما هي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف -وهي قراءة ابن مسعود وطلحة- فسرها بالحارة، أي عين ساخنة، مأخوذة من الحمو وهو الحرارة. ومن هؤلاء ابن عباس رضي الله عنه والحسن، ومن قرأها (حمئة) كما هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحفص فسرها بأنها ذات حمإ، أي ماؤها مخلوط بطين أسود. ومن هؤلاء مجاهد وقتادة. ولا حاجة -في تقديري- إلى الترجيح بين الرأيين؛ لأن كليهما مبني على قراءة صحيحة من جهة، ولأنه لا تعارض بينهما من جهة أخرى، بل بينهما تكامل في وصف تلك العين حتى تكون أوضح في ذهن القارئ.(2) قال الطبري: (والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار، ولكل واحدة منهما وجه صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسد أحدهما صاحبه، وذلك أنه جائز أن تكون الشمس تغرب في عين حارة ذات حمأة وطين، فيكون القارئ في عين حامية وصفها بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارئ في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين).(3)

- ولابن عاشور ملحظ آخر في اتصاف تلك العين بالحمئة، فهو يرى أن سوادها يمكن أن يكون سببه النفط وليس الحمأ وحده، وهو ملحظ وجيه في ظني. قال رحمه الله: (ويظهر أن هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة باكو، وفيها منابع النفط الآن ولم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة).(4)

- وبداهة فإن الشمس لا يمكن أن تدخل حقيقة في عين ماء تنبع من الأرض مهما كان قطر مسيلها؛ لأنه (ثبت علميا أن الشمس عبارة عن كرة هائلة من الغازات المتقدة يبلغ حجمها أكثر من حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة)،(5) ولأنها لا تنزل فوقها أو تلج فيها، بل تسبح في مسارها العتيد من الفلك الذي حدده لها خالقها في الفضاء منذ أنشأها. قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(39)لَا الشَّمْسُ

---

(1) انظر: البقاعي، نظم الدرر، 130/12.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 374/15-378؛ الزمخشري، الكشاف، 610/3-612؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 167/21؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 26/25/16.

(3) الطبري، جامع البيان، 377/15-378.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) ماهر أحمد الصوفي، الشمس، الموسوعة الكونية الكبرى، العدد 1-2، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، لبنان، 1429هـ-2008، ص 209.

يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40)﴾[يس]؛ وإنما المعنى أن ذلك ما يبدو للناظر إليها بالعين المجردة عند غروبها. قال الرازي: (ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، ... وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ؟ إذا ثبت هذا فنقول: تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ... أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره).[1]

– ومما يؤكد أن الشمس لا تغرب حقيقة في عين حمئة كما قد يفهم من ظاهر الآية ما رواه البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: (يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟). قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب، حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)﴾[يس]).[2] وفي رواية: قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)﴾[يس]).[3] ولا إشكال في سجودها تحت العرش؛ لأنها أصغر منه بما لا يعلم مداه إلا الله، بل السماوات السبع والأرضون كلها كالهباءة في مقابله. قال النبي ﷺ (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة).[4] ومما يدل على ذلك أيضا وصف الله له بالعظمة والكرم والمجد وهي أوصاف لم يذكر شيء منها للشمس. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(129)﴾[التوبة]، وقال سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(116)﴾[المؤمنون]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(15)﴾[البروج]. أما كيفية سجودها فلا علم لنا بها إذ لم يرد نص صحيح في وصفه ولا هو مما نراه فننعته. قال

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 21/167-168.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(38)﴾[يس])، رقم 4802، ص 891؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم 159، ص 87-88.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم، 3199، ص 589.

(4) أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش، دراسة وتحقيق: محمد بن خليفة التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ-1998م، رقم 58، ص 432-433؛ واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم 361، 2/76-79؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء، 1/167؛ من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ وصححه الألباني، في السلسلة الصحيحة، رقم 109، 1/223.

الخطابي: (لا ننكر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما أخبرنا عن غيب، فلا نكذب به، ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط به).[1]

- والضمير في لفظة (عندها) من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ يحتمل أن يكون عائدا على الشمس وهو أمر مستحيل لما أشرنا إليه آنفا من أن القرآن صرح بأنها تسبح في مدارها في الفضاء، وإما أن يعود إلى العين -وهو الراجح- فيكون المعنى أنه وجد قوما عند آخر ما بلغه من العمران من الجهة التي يخيل للناظر أن الشمس تغرب فيها.[2]

- واختلف المفسرون في اسم أولئك القوم الذين وجدهم ذو القرنين عند العين الحمئة. فقيل: اسمهم ناسك، وقيل: باسك. ونسبهم البعض إلى أرضهم -فيما يظهر- فقال: هم أهل جا برس -وقيل: حابوس- ويقال لها بالسريانية جرجيسا . وقال البعض الآخر: اسم بلادهم الجاسوس، ويقال لها بالسريانية حريحسا . ولم يختلفوا في جنسهم في حدود ما اطلعت عليه؛ فالأكثرون لم يشيروا إليه تماما، والأقلون قالوا هم أمة من نسل ثمود الذين آمنوا ب النبي صالح -عليه السلام-. وذكروا من أخبارهم غرائب. قالوا: كانوا أمة عظيمة العدد لا يحصيهم إلا الله، وهم أولوا قوة ومنعة، يسكنون مدينة هائلة الاتساع، لها اثنا عشر ألف باب ، بين الباب والباب الذي يليه مسافة فرسخ، ولولا جلبة أصوات أهلها لسمع ا لناس وجبة الشمس حين مغيبها، وهم عراة من الثياب، ليس عليهم إلا جلود الوحوش ، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الح يوانات إذا غربت، وما لفظت تلك العين من الحيتان إذا وقعت فيها الشمس . قالوا: وكانوا كفارا، وقيل: مزيج من المؤمنين والكافرين. وحكي عن مقاتل أنه لما دعاهم ذو القرنين إلى الإيمان لم يؤمن منهم إلا رجل واحد. ونقل عن السدي أن من وسائله لقتلهم أنه كان يحمي لهم بقر النحاس، ويطبخهم فيها حتى يذوبوا، وعن وهب بن منبه أنه كان يسلط عليهم الظلمة فتلج أجوافهم وبيوتهم، وتغشاهم من كل نواحيهم. وذكروا أن النبي ﷺ مر بهم ليلة أسري به فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. هذا ملخص ما ذكر من أحوالهم؛[3] ولست في وارد المقارنة بين هذه الأخبار، أو الترجيح بين تلك الأقوال؛ لأنها لا تستند إلى دليل عقلي أو نقلي يمكن النظر فيه والحكم عليه. ولعل هذا ما جعل ابن عاشور يكتفي -فيما تعلق بأحوالهم- بما استنتجه من ألفاظ الآية وعباراتها من أنهم أمة غير معروفة، وأنهم جمعوا بين فساد الاعتقاد والعمل. قال رحمه الله: (وتنكير ﴿قَوْماً﴾ يؤذن بأنهم أمة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم. فجملة ﴿قُلْنا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ استئناف بياني لما أشعر به تنكير ﴿قَوْماً﴾ من إثارة

---

(1) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت516هـ، شرح السنة، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م، 95/15.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 168/21؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 874.

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 612/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 370/13-372؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 138/5؛ الماوردي، النكت والعيون، 339/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 317/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 186/5، الخازن، لباب التأويل، 176/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 151/6؛ البقاعي، نظم الدرر، 130/12.

سؤال عن حالهم وعما لاقاه بهم ذو القرنين. وقد دل قوله: ﴿إمَّا أن تُعَذّبَ وإمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ على أنهم مستحقون للعذاب، فدل على أن أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل).[1]

– واختلفت أنظار المفسرين في دلالة قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ على نبوة ذي القرنين أو عدم دلالته. فقال بعضهم: هو دليل بأن ذا القرنين كان نبيا؛ ومن هؤلاء الفخر الرازي والألوسي وغيرهما. قال الرازي: (يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة، وذلك يدل على أنه كان نبيا وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء فهو عدول عن الظاهر).[2] واستدلوا أيضا بأن التمكين له في الأرض المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل التمكين في الدين، وكمال ذلك إنما يكون بالنبوة؛ كما استدلوا بقوله سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ بأن النبوة من جملة الأشياء؛ وبأن الله أمره بقتال أولئك القوم كما أمر النبي ﷺ بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى).[3] وقيل: كلمه الله كفاحا كما كلم موسى عليه السلام من غير واسطة. وهذا القول يعد امتدادا للذي سبقه لأن التكليم إحدى كيفيات وحي الله لأنبيائه المنصوصة في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51)﴾[الشورى]. وقال البعض الآخر: إنما كان ذلك الخطاب من الله إلهاما. ومن هؤلاء ابن عباس رضي الله عنه والسيوطي والبغوي وغيرهم. وقيل: يمكن أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي عاش في زمنه. وفي تقديري أن دلالة الآية على الإلهام مستبعدة لاشتمالها على التخيير، وهو تفصيل يصعب تصور الاعتماد فيه على الإلهام. قال أبو حيان: (ويبعد ما قاله بعض المتأولين أنه إلهام وإلقاء في روعه ، لأن مثل هذا التخيير لا يكون إلا بوحي، إذ التكاليف وإزهاق النفوس لا تتحقق بالإلهام إلا بالإعلام).[4] وأما القول بإمكان أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي عاش في زمنه فظاهر النص لا يدل عليه، فالراجح –والله أعلم– هو القول الأول، لتوجه نداء الله سبحانه إليه بلقبه الخاص، ومخاطبته تعالى له بضمير المخاطب المفرد كما هو المعتاد في خطابه سبحانه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 26/16.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 168/21.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[التوبة: 5]، رقم 25، ص 20؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها، ووكلت سريرته إلى الله تعالى، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام، رقم 22، ص 43، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(4) أبو حيان، البحر المحيط، 6/151–152.

لأنبيائه ورسله؛ مثل قوله تعالى مخاطبا نبيه إبراهيم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105)﴾[الصافات]، وقوله جل شأنه مخاطبا نبيه موسى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(144)﴾[الأعراف]، وقوله عز وجل مخاطبا نبيه عيسى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(55)﴾[آل عمران]، وغيرها من الآيات المشتملة على خطابه سبحانه لأنبيائه. وهو ما رجحه البقاعي. قال رحمه الله:

(﴿قُلْنَا﴾ بمظهر العظمة: ﴿يَذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ إعلاما بقربه من الله وأنه لا يفعل إلا ما أمره به، إما بواسطة الملك إن كان نبيا **وهو أظهر الاحتمالات**، أو بواسطة نبي زمانه ...)،[1] وقال الألوسي: (والحق أن الآية ظاهرة الدلالة في نبوته ، ولعلها أظهر في ذلك من دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف:82] على نبوة الخضر عليه)،[2] والله أعلم.[3]

– وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا(87)وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا(88)﴾ ما يكشف على جانب عظيم من شخصية هذا الرجل الكبير الذي لا يساوي عظمة إنجازاته إلا عظمة نفسيته وقوة شخصيته. ففي الآيتين دلالة على عدله، ورحمته، ونبله، وفضله، وسلامة تفكيره، وحسن تدبيره، وبعده عن البطر والغرور. قال طنطاوي –رحمه الله–: (فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع في حكمه الطريق القويم، والأسلوب الحكيم، الذ ي يدل على قوة الإيمان، وصدق اليقين، وطهارة النفس. إنه بالنسبة للظالمين، يعذب، ويقتص، ويرهب النفوس المنحرفة، حتى تعود إلى رشدها، وتقف عند حدودها. وبالنسبة للمؤمنين الصالحين، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب، والجزاء الحسن. وهكذا الحاكم الصالح في كل زمان ومكان الظالمون والمعتدون.. يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم. والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب).[4]

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 131/12.

(2) الألوسي، روح المعاني، 34/16.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 151/6–152؛ السمرقندي، بحر العلوم، 311/2؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 303؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 874؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 547/3؛ البقاعي، نظم الدرر، 131/12؛ اسماعيل حقي البروسوي ت 1137هـ، تفسير روح البيان، المطبعة العثمانية، 1330هـ، 293/5.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط، 142/8.

– والمراد بالظلم الوارد في الآية –والله أعلم– هو الشرك، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13)﴾[لقمان]. يدل على ذلك ذكره في مقابل الإيمان والعمل الصالح. قال ابن عاشور: (والظلم الشرك، بقرينة قسيمه في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾).[1]

– ومطلع الشمس معناه موضع طلوعها، أي ظهورها من جهة الشرق. فدل قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ على أن ذا القرنين لما وصل إلى أقصى موضع من الأرض مأهول بالبشر من جهة شروق الشمس وجد أمة من الناس لا يحول بينهم وبين شعاعها حائل؛ فهم أول من تشرق عليهم من البشر إذا طلعت، لا أن جرمها يماس أبدانهم.[2]

– واختلفت أقوال المفسرين في معنى قوله سبحانه: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾. فقال أكثر المفسرين: لم يكن ببلادهم شجر ولا جبال ولا أبنية تمنع وقوع أشعة الشمس على أبدانهم؛ لأن تربة أرضهم لا يستقر عليها البناء. ولذلك كانوا يغوصون في الماء أو يدخلون في غيران تحت الأرض عند طلوع الشمس، فإذا زالت أو غربت خرجوا يبتغون تحصيل معايشهم. وقال بعض آخر: لم يكن لهم ثياب تسترهم، بل كانوا قوما بدائيين يعيشون عراة مثل الحيوانات. وذهب فريق ثالث إلى أن معنى الآية مجازي لا حقيقي، أي ليس المراد منها نفي وجود ما يستر أبدانهم من ثياب وغيرها، وإنما المقصود التعبير عن شدة قرب الشمس منهم وقوة أذيتها لهم. قال ابن عطية: (والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قرب الشمس منهم وفعلها، لقدرة الله تعالى فيهم، ونيلها منهم، ولو كان لهم أسراب تغني لكان سترا كثيفا، وإنما هم في قبضة القدرة، سواء كان لهم أسراب أو دور أو لم يكن، ألا ترى أن الستر، عندنا نحن، إنما هو من السحاب والغمام وبرد الهوى ، ولو سلط الله علينا الشمس لأحرقتنا، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة).[3] وفسر فريق رابع ذلك بغياب الليل في بلادهم. قال الكازروني رحمه الله: (والمراد دوام طلوعها عليهم في الصيف فوق الأرض، هذا وراء بربرة من تلقاء بلغار تدور الشمس فيه بالصيف ظاهرة فوق الأرض لكن لا تسامته).[4] وقيل: إن الشمس كانت تنفذ سقوف بيوتهم وثيابهم فتصل إلى أبدانهم.[5] والراجح –والله أعلم– هو قول الجمهور؛ لأنه هو الموافق لظاهر الآية، أما الأقوال الأخرى –وإن كانت محتملة– فهي مفتقرة إلى أدلة تحملنا على صرف المعنى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 27/16.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 375/13.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز، 541/3؛ وانظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، 541/3.

(4) الكازروني، الصراط المستقيم، ص 443-444؛ وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 459.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 381/15-383؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 375/13-376؛ أبو حيان، البحر المحيط، 152/6-153؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 519/1؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 187/5.

إليها. قال ابن عاشور: (فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها، أي لا جبل فيها يستظلون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس. ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوما عراة ... فالمراد بالستر ما يستر الجسد).[1]

- ودلت الآية على سنة من سنن الله في خلقه، وهي اختلاف عادات الناس في ألبستهم ومساكنهم، وتأقلمهم مع طبيعة بلدانهم وظروفها على اختلافها وتنوعها. قال ابن عاشور: (وكانوا قد تعودوا ملاقاة حر الشمس، ولعلهم كانوا يتعرضون للشمس ليدفعوا عن أنفسهم ما يلاقونه من القر ليلا. وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد وسيرتهم على نحو مناخهم).[2]

- واختلف المفسرون في اسم أولئك القوم الذين لا ساتر لهم من الشمس. فقيل: اسمهم منسك، وقيل: تارس وهاويل ومنسك، ونسبهم البعض إلى بلادهم -فيما يظهر- فقال: هم أهل جابلق، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . كما اختلفوا في جنسهم؛ فأكثرهم على أنهم من الزنج، وقال البعض: هم الهنود وما وراءهم. وقيل: هم من نسل مؤمني قبيلة عاد الذين آمنوا بهود عليه السلام. وذكروا من أحوالهم الأعاجيب. قالوا: كانوا حمر الألوان، قصار الأبدان، كبار الآذان، بحيث يفترش أحدهم إحدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى . وكانوا حفاة عراة عماة عن الحق، يرعون كما ترعى البهائم، و يتسافدون مثل الكلاب، ويتهارجون مثل الحمر ، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من السمك وغيره من الحيوان إذا طلعت ، وأن ذا القرنين وجدهم كفرة -مثل الذين وجدهم عند مغرب الشمس- وكان حكمه فيهم مثل حكمه فيمن سبقوهم، وهو تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم، وأنهم آمنوا بنبينا محمد ﷺ واستجابوا له حين مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الإسلام. وروى الكلبي عن عمرو بن مالك بن أمية قال: (وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجتمعون ، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرني أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس، قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل لي: إن بينك وبينهم يوما وليلة، فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومي وليلتي حتى صبحتهم، فإذا أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يحسن لسانهم، فسألهم فقالوا له: اذا تنظر كيف تطلع الشمس، قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشي علي فوقعت، فلما أفقت قمت وهم يمسحون علي بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت أدخلوني سربا لهم أنا وصاحبي، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج).[3] هذا مجمل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 28/16، وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 459.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 28/16-29.

(3) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف ب الثعلبي ت 427هـ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1374هـ-1954م، ص 364.

ما ذكر، [1] ولست بصدد الترجيح بين هذه الأقوال؛ لأنها جميعا عارية عن الدليل النقلي الصحيح، وليس مثلها مما يقال بالتخمين والاستنتاج العقلي، بل إن بعضها أدنى إلى الخرافة، وودنا أن مفسرينا نزهوا أنفسهم عن إيرادها في تفاسيرهم؛ ومعلوم أن الدليل (نص صحيح، أو نظر رجيح، وما سوى ذلك فهو ريح).[2] ولذلك قال الماوردي عقب ذكره لنماذج منها: (وهذه الأسماء والنعوت التي نذكرها ونحكيها عمن سلف إن لم تؤخذ من صحف النبوة السليمة لم يوثق بها، ولكن ذكرت فذكرتها).[3]

- ودل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ على أن ما عند ذي القرنين من الجنود والآلات والوسائل والأسباب والأعوان والعمال بلغ من الكثرة حدا لا يحيط به علما ولا يحصيه عددا إلا الله [4] العليم الخبير؛ وفيه أيضا تنبيه وتذكير بأنه تعالى وتقدس ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12)﴾[الطلاق]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا(28) [الجن]، و﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(5)﴾[آل عمران].

- والسدان مثنى سد، وهو في اللغة الحاجز. قال ابن فارس: (السين والدال أصل واحد، وهو يدل على ردم شيء وملاءمته. من ذلك سددت الثلمة سدا. وكل حاجز بين الشيئين سد). [5] أما المفسرون فاتفقوا -فيما اطلعت عليه من التفاسير- على أن المقصود بالسدين في هذه الآية هما الجبلان اللذان سد ذو القرنين ما بينهما من الفج لمنع يأجوج ومأجوج من الخروج منه إلى جهة من شكوهم إليه؛ ثم اختلفوا في موضعهما، فقال البعض: هما في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق، وقيل: في أواخر الشمال. وقيل: في طرف الأرض. وقال آخرون: فيما بين أرمينية وأذربيجان. بينما قال صاحب التحرير والتنوير: (إن موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب منغوليا. وقد وجد السد هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون وصورت صورا شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية).[6] وحدد الألوسي موقعهما الجغرافي على الخريطة بأنهما (فيما يقرب من عرض تسعين من جهة الشمال).[7] وذكروا في وصفهما أنهما

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 612/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 169/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 375/13-376؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 138/5-139؛ البغوي، معالم التنزيل، 201/5؛ الماوردي، النكت والعيون، 340/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 187/5؛ أبو حيان، البحر المحيط، 152/6.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 113/6.

(3) الماوردي، النكت والعيون، 340/3.

(4) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 292/3.

(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 66/3.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 31/16.

(7) الألوسي، روح المعاني، 37/16.

منيفان في السماء، وأن من ورائهما البحر ومن أمامهما البلدان، وأنهما لينان أملسان يزلق عليهما كل شيء. والملحوظ على هذه الأقوال أنها خالية من الأدلة، وهو ما يجعل المقارنة بينها وتمييز الراجح منها أمرا متعذرا. قال الخالدي: [1] (موقف القارئ من مبهمات القرآن، وهى ما أبهمه القرآن من أسماء الأشخاص والأماكن في قصص السابقين ، وهى التي يستحيل علينا أن نبينها، وأن نحدد تلك الأسماء لأننا لم نشهدها، ولأن الروايات عن أهل الكتاب فيها مطعون فيها، ومردودة علميا، لتطرق التحريف والكذب إليها وغلبته عليها، موقف القارئ منها أن ينظر في القرآن، فإذا وجد ما أبهم في موضع مبينا في موطن آخر أخذه، فإن لم يجده مبينا في القرآن، توجه إلى ما صح من حديث رسول الله ﷺ، فإذا بين هناك أخذه . ولا يجوز أن يبحث في غير هذين المصدرين اليقينيين، فليتركه بعد ذلك على إبهامه، وليسعه ما وسع رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه في موقفهم منه. فإن لم يفعل ذلك قال على الله بدون علم، واتبع من ليس عنده علم، وأشغل نفسه فيما لا خير فيه، وخرج عن جو النص القرآني، وأقبل على موانع وحجب تحجب عنه نور القرآن).[2] وأما ما ذهب إليه ابن عاشور من أنه في الشمال الغربي لصحراء غوبي مستشهدا عليه ببقاء آثاره إلى اليوم فهو منقوض بحديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم وغيره عن النواس بن سمعان رضي الله عنه –سبق أن سقنا طرفا منه– والذي يدل على أن السد ما يزال قائما يؤدي وظيفته التي أنشئ من أجلها إلى اليوم؛ وليس مجرد آثار وأطلال. وقد نقل ابن خرداذبه[3] في كتابه المسالك والممالك عن سلام الترجمان الذي أرسله الخليفة الواثق بالله لرؤية هذا السد –فيما يقول– وصفا دقيقا طويلا. ومما جاء فيه: (... وكله بناء بلبن من حديد مغيب في نحاس تكون اللبنة ذراعا ونصفا في ذراع ونصف في سمك أربع أصابع ودروند حديد ، طرفاه على العضادتين ، طوله مائة وعشرون

(1) هو أبو أسامة صلاح عبد الفتاح الخالدي. مدرس وإمام وخطيب وعالم وباحث ومؤلف في علوم القرآن، أردني من أصل فلسطيني. ولد في جنين سنة 1947م وفيها درس بعض المرحلة الإعدادية ثم انتقل إلى المدرسة الإسلامية في عسقلان للدراسة الإسلامية، فأرسلته بعد مدة ضمن بعثتها للطلبة المتفوقين إلى الأزهر بمصر سنة 1965م، فتخرج سنة 1970م في كلية الشريعة وعاد إلى الأردن لأن الضفة الغربية كانت قد احتلت سنة 1967م. سجل سنة 1977م في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض لدراسة الماجستير فتخرج سنة 1980م ثم نال درجة الدكتوراه من الجامعة نفسها سنة 1984م، وبعد ذلك عاد إلى الأردن ليستقر فيه ويعمل أستاذا لمادتي التفسير وعلوم القرآن بجامعة البلقاء إلى سنة 208م، ثم تحول إلى التدريس في جامعة العلوم الإسلامية العالمية. من شيوخه الشيخ موسى السيد الفلسطيني والشيخ عبد الله الغديان السعودي. له بضعة وأربعون كتابا؛ منها التفسير والتأويل في القرآن والقرآن ونقض مطاعن الرهبان. توفي سنة 2022م في عمان. [انظر على سبيل المثال: مجلة الفرقان (الأردنية)، العدد: 43، رجب 1426هـ، ومقال: صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنشور على موقع معرفة، على الرابط: https://www.marefa.org /].

(2) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، دار القلم، دمشق، ط2، 1415هـ–1994م، ص95-96.

(3) هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه. كاتب أخباري مؤرخ جغرافي من أهل بغداد، وأصله فارسي. أسلم جده خرداذبه على يد البرامكة، وكان من قبل مجوسيا. اتصل أبو القاسم بالخليفة العباسي المعتمد على الله فولاه البريد والخبر في نواحي الجبل وجعله من جلسائه. من تصانيفه: جمهرة أنساب الفرس واللهو والملاهي وأدب السماع. [انظر على سبيل المثال: الزركلي، الأعلام، 190/4].

ذراعا، قد ركب على العضادتين على كل واحدة بمقدار عشر أذرع في عرض خمس أذرع وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر...).[1] فلئن صح هذا الكلام فالراجح أنه هو. وقد قدر أبو الريحان البيروني بناء على هذا الوصف (أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة).[2] والله أعلم.[3]

- واختلف المفسرون في اسم القوم الذين وجدهم ذو القرنين دون السد؛ فقال البعض: هم الترك. وقال آخرون: هم جيل من الترك. وجزم ابن عاشور بأنهم من قبائل الصين المحاذية لأرض المغول. قال رحمه الله: (فلا شك أنهم من قبائل بلاد الصين التي تتاخم بلاد المغول والتتر).[4] وقيل: كانوا من الجن، واستبعده أبو حيان، وأبطله الألوسي وهو الصواب في تقديري لأنه بشر والبشر لا يرون الجن. ولا سبيل إلى ترجيح قول على آخر لخلوها جميعا من الدليل.[5] كما اختلفوا في معنى قوله سبحانه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ تبعا لاختلاف القراء لكلمة ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ فقرأتها عامة قراء أهل المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة - كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر - بفتح الياء والقاف، فيكون معناها: لا يفهمون كلاما ويستوعبون معناه إلا ببطء وعسر وجهد، لأنهم لا يعرفون إلا لغتهم، أو لأنهم (قوم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم)؛[6] وقرأها عامة قراء أهل الكوفة -كحمزة والكسائي- بضم الياء وكسر القاف، فعلى هذه القراءة يكون معناها: لا يفهمون السامع حديثهم ولا يبينون له مقصودهم منه، لغرابة لغتهم وجهالتها واستعجامهم بسبب بعدهم عن الناس، أو لعلل بألسنتهم أو منطقهم كتلعثمهم مثلا. ولذلك ذكر أهل التفسير أن مخاطبتهم لذي القرنين في شكواهم من يأجوج ومأجوج كانت بالإشارة أو بواسطة ترجمان أو بعض من جاورهم وعرف لغتهم كما تدل عليه قراءة ابن مسعود؛ ففي مصحفه رضي

---

(1) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه مولى أمير المؤمنين، المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، سنة 1886م، ص 165.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 171/21.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 387/15؛ الزمخشري، الكشاف، 613/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 21/170-171؛ أبو حيان، البحر المحيط، 6/153-154؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 189/5؛ النسفي، مدارك التنزيل، 319/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 541/3؛ الماوردي، النكت والعيون، 341/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 292/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5/139-140؛ أبو السعود، إرشاد العقل لسليم، 552/3؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 519/1؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 4468/6؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 875.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 32/16.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 613/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 541/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 6/153-154؛ النسفي، مدارك التنزيل، 319/2؛ أبو السعود، إرشاد العقل لسليم، 553/3؛ الألوسي، روح المعاني، 38/16.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 31/16.

الله عنه: (قال الذين من دونهم).[1] وقيل: كان فهمه لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله.[2] ولا خلاف بين القراءتين -في تقديري- ما دامتا ثابتتين، بل كلتاهما مرادة، وهما متكاملتان ؛ فإحداهما تدل على سوء بيان القوم واعتلال ألسنتهم، والأخرى تدل على بلاهتهم وجهلهم بلغات غيرهم. قال الشوكاني: (ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم).[3] وهو جمع مروي عن ابن عباس.[4]

– وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فيه دلالة على ما كان يعانيه أولئك القوم من الظلم والقهر، كما يدل على عجزهم عن دفع ما ينالهم من الأذى والبغي ولذلك أطلقوا تلك الاستغاثة بذي القرنين رجاء غوثهم وحمايتهم. قال ابن عاشور: (وافتتاحهم الكلام بالنداء أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين).[5]

– ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من أجت النار إذا اضطرمت وسمع صوت لهيبها، ومن أج الماء إذا كان شديد الملوحة والمرارة. والأجيج أيضا حفيف الظليم أثناء عدوه. يقال: أج الظليم أجيجا إذا سمع صوت حفيفه. فالهمزة والجيم أصلان: أحدهما الحفيف، والآخر الشدة، حرا أو ملوحة. [6] أما المفسرون فاتفقوا على أنهم هم الخلق الذين بنى عليهم ذو القرنين السد المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وحجزهم خلفه منعا لفسادهم؛ ثم اختلفوا في كونهم أمة واحدة أو أمتين؛ وممن ذهب إلى أنهم أمة واحدة، ابن عاشور وطنطاوي. قال ابن عاشور: (وياجوج وماجوج أمة كثيرة العدد، فيحتمل أن الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمة ذات شعبين، ... ويحتمل أن الواو المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيبا مزجيا، فيتكون اسما لأمة).[7] وممن قال بأنهم أمتان: الطبري، وابن عطية و ابن جزي والبيضاوي والسعدي. قال الطبري: (وهم أمتان من وراء السد).[8] والراجح الصحيح -في تقديري- أنهما أمتان اثنتان؛ لأن ذلك هو الذي دل عليه حديث النبي ﷺ، فقد تحدث عنهما بصيغة التثنية لا بصيغة الإفراد. روى الترمذي عن عمران بن حصين، قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير فرفع رسول الله ﷺ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، 293/3.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 387/15-388؛ الزمخشري، الكشاف، 613/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 171/21؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 140/5؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 293/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 304؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 190/5؛ البقاعي، 134/12؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 875.

(3) الشوكاني، فتح القدير، ص 875.

(4) انظر: الخازن، لباب التأويل، 177/3؛ البغوي، معالم التنزيل، 201/5.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 32/16.

(6) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 58/1؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 179؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 8/1.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 32/16-33.

(8) الطبري، جامع البيان، 388/15.

صوته بهاتين الآيتين : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)﴾ إلى قوله : ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2)﴾[الحج:1-2] فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فقال: (هل تدرون أي يوم ذلك ؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذاك يوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول : يا آدم، ابعث بعث النار ، فيقول: أي رب، وما بعث النار؟ فيقول: (من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة)، فيئس القوم، حتى ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بأصحابه، قال: (اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم وبني إبليس)، قال: فسري عن القوم بعض الذي يجدون ، فقال: (اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة).[1] قال المباركفوري في شرحه على سنن الترمذي: (يأجوج ومأجوج بدل من خليقتين، ويجوز الرفع، أي هما يأجوج ومأجوج).[2] بل أشار ابن كثير إلى وجود رواية أخرى لهذا الحديث –ولم يذكر مصدرها– تصرح بأنهما أمتان. قال رحمه الله: (وفي رواية : فقال : أبشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه).[3]

– واختلف المفسرون أيضا في جنسهم؛ فقال البعض: هم خلق خلقوا من مني خرج من آدم بسب احتلام ، فاختلط بالتراب، فحزن لذلك، فخلق الله من ذلك الخليط يأجوج ومأجوج . وعلى هذا القول يكونون من ذرية آدم وليسوا من حواء . أي هم إخوة البشر لأبيهم. وقال بعض آخر: هم خلق من خلق الله فيهم شبه بالبشر من جهة، وشبه بالبهائم والوحوش من جهة أخرى؛ ومن ذلك أنهم (يأكلون العشب ، ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترس السباع، ويأكلون خشاش الأرض من الحيات والعقارب وكل ذي روح مما خلق في الأرض).[4] وقريب من هذا قول القائلين بأنهم قبيلتان من بني آدم في خلق بهم تشوه، فمنهم المفرط في الطول كالنخلة السحوق أو أطول، والمفرط في القصر الذي يكون في حدود الشبر أو أقل. وقال فريق ثالث: هم بشر من سلالة آدم عليه السلام. وقال فريق رابع: هم جيل من الترك؛ وعكس آخرون هذا القول فقالوا: الترك قبيل من يأجوج ومأجوج. (قال السدي: الترك سرية من يأجوج ومأجوج، خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجه فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك

---

(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ.باب ومن سورة الحج، رقم 3169، ص 713؛ وأبو يعلى في مسنده، رقم 3122، 430/5-431؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب مناقب الصحابة، باب إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس، رقم 7310، 362/10؛ والطبري في جامع البيان، 449/16-450؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان، 363/10، وأصله في الصحيحين.

(2) المباركفوري، تحفة الأحوذي، 11/9.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 316/2.

(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 4465/6-4466.

لأنهم تركوا خارجين).[1] وفصل آخرون، فقالوا: يأجوج من الترك ومأجوج من الجِيلِ والديلم. وقال فريق خامس: هم من ولد يافث بن نوح؛ والظاهر أن الداعي لهم إلى هذا القول هو ما رواه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ولد نوح سام، وحام، ويافث. فولد سام: العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم. وولد ليافث: يأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم. وولد لحام: القبط والبربر والسودان). [2] وقريب من هذا ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه: (يأجوج رجل، ومأجوج رجل، وهما ابنا يافث بن نوح عليه السلام، فيأجوج ومأجوج عشرة أجزاء، وولد آدم كلهم جزء).[3] وقال ابن عاشور: هم المغول والتتار.[4] وأرجح هذه الأقوال جميعا -في تقديري- هو قول من قال بأنهم من ذرية آدم عليه السلام؛ لأن ذلك هو القول الوحيد الذي قام عليه الدليل الصحيح. قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى، ولكن عذاب الله شديد). فاشتد ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: (أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم رجل، ثم قال: والذي نفسي في يده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة) . قال: فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: (والذي نفسي في يده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو الرقمة في ذراع الحمار). [5] وفي رواية: (فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك). [1] فدل

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 553/3.

(2) شهاب الدين أبو الفضل بن حجر العسقلاني ت 852، مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، تحقيق: صبري بن عبد الخالق أبو ذر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 1، 1412هـ-1992م، رقم 134، 146/1؛ وابن عساكر، في تاريخ مدينة دمشق، رقم 12816، 277/62؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الحافظ العراقي. قال رحمه الله: (ولا يصح هذا الحديث عن أبي هريرة من سائر طرقه). [زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت 806هـ، محجة القرب إلى محبة العرب، تحقيق وتخريج: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ر ط ولا ت ط، ص 82].

(3) ابن الجوزي، زاد المسير، 190/5.

(4) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 394/15؛ الخازن، لباب التأويل، 177/3-178؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 171/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 378/13-381؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 542/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 542/3؛ البغوي، معالم التنزيل، 202/5؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 519/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 139/5-140؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 33/16.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: 1] ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾[النجم:57] ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[القمر:1]، رقم 6530، ص 1179؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، رقم 222، ص 118.

الحديث بمجموع رواياته على أن يأجوج ومأجوج من البشر؛ أما بقية الأقوال فلم يقم عليها دليل صحيح من نقل أو عقل، وأما قول ابن عاشور فيتعارض مع حديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه والذي بين فيه ﷺ أن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول عيسى عليه السلام، أي أن ذلك لم يقع بعد.

- وذكر المفسرون من أوصافهم الأعاجيب. قالوا: هم أمتان عظيمتان، اشتق اسماهما (من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم)،[2] واسمهما في الصحف الأولى ياطغ وماطغ. وهم قبائل عديدة ذوات أعداد كثيفة، وأنواع مختلفة. وحصرهم البعض في ثلاثة أصناف: (صنف منهم أمثال الأرز، شجر بالشام، طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشارق وبحيرة طبرية).[3] ويظهر أن هذا الصنف الأخير هو الذي وصفوه بأن طوله يتراوح بين الشبر والشبرين والثلاثة؛ بل ودون ذلك أحيانا. وذكروا أن في خلقتهم تشويها؛ من ذلك أن لهم مخالب في أيديهم مكان الأظفار من أيدينا، وأضراسا وأنيابا كأضراس وأنياب السباع، وأحناكا كأحناك الإبل يسمع لحركتها صوت عند المضغ كصوت قضم الفحل أو الحصان القوي، وأنهم هلب يواري الوبر أبدانهم ويمنع عنهم الحر والبرد، وأن أحد أصنافهم لهم آذان كبيرة، بحيث يفترش الواحد منهم إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى، وهم يعوون كما تعوي الذئاب، ويتسافدون عند لقائهم كما تتسافد البهائم، وأن كل ذكر منهم يعرف أجله الذي يموت فيه؛ وذلك أن ذكرهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد، فإذا تم ذلك أيقن أن قد حان أجله، وكذلك الأنثى تستيقن أجلها إذا وقع إلى الأرض من رحمها ألف ولد؛ وأنهم جميعا كفار، وأن النبي ﷺ مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الإسلام فأبوا أن يستجيبوا له. [4] والواقع أن عامة هذا الذي ذكروه لم يصح عليه دليل عقلي ولا نقلي، وبعضه رويت فيه أحادث ضعيفة أو موضوعة سرد السيوطي أكثرها في تفسيره: الدر المنثور في التفسير بالمأثور. [5] قال أبو حيان: (وقد اختلف في عددهم وصفاتهم ولم يصح في ذلك شيء).[6] وإنما الثابت من كل ما ذكر صفات قليلة، منها كثرتهم

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم 6529، ص 1179.

(2) الخازن، لباب التأويل، 177/3.

(3) البغوي، معالم التنزيل، 202/5.

(4) انظر على سبيل المثال: الرازي، مفاتيح الغيب، 171/21-172؛ الماوردي، النكت والعيون، 341/3-342؛ أبو حيان، البحر المحيط، 154/6؛ البغوي، معالم التنزيل، 202/5؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 542/3؛ الخازن، لباب التأويل، 177/3-178؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 190/5-191؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ انهاية، 4465/6-4468.

(5) انظر: السيوطي، الدر المنثور، 670/9-678.

(6) أبو حيان، البحر المحيط، 154/6.

التي بلغت حد أن يعموا الأرض، وقوتهم التي بلغت حد أن لا يكون لأحد من أهل الأرض طاقة بمقاومتهم، وكفرهم الذي بلغ حد أن يطمعوا في قتال أهل السماء، ولذلك كانوا أكثر أهل النار كما بين النبي ﷺ في حديث بعث النار الذي مر بنا قريبا.

والدليل على كثرتهم وكفرهم حديث النبي ﷺ فيما رواه أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله -عز وجل-: ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96]، فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دما للبلاء والفتنة).[1]

واللافت أن مبلغ كفرهم لم يسبقهم إليه أحد من الكافرين -فيما نعلم- بمن فيهم فرعون؛ فإنه رجا أن يبلغ أسباب السماء لا ليقاتل أهلها وإنما ليطلع إلى الله سبحانه كما زعم، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)﴾ [غافر]. وأما الدليل على قوتهم فهو قوله ﷺ عن عيسى عليه السلام بعد نزوله: (... فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، ...).[2]

- وأخبر النبي ﷺ أنهم لا يفتؤون يحفرون ذلك السد الذي بناه ذو القرنين عليهم يوميا ليخرجوا إلى العالم ويسيحوا في الأرض. روى الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه، ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم

(1) رواه أحمد في مسنده، رقم 11754، ص 806؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، رقم 4079، ص 678؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 1793، 402/4.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم 2937 ص 1177-1178، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

في حصونهم ...).[1] وفي الحديث دلالة على كونهم أهل نظام وقيادة، وأنهم يتلقون الأوامر من المسؤول عنهم ويقابلونها بالطاعة والانضباط، وأنهم أهل مثابرة وجد في عملهم؛ كما دل على أنهم -كعموم البشر- يعملون نهارا ويرتاحون ليلا.

- وأخبر النبي ﷺ أيضا أنهم استطاعوا في زمنه ﷺ أن ينجزوا في السد ثغرة يبلغ قطرها قطر الدائرة التي تشكلها السبابة والإبهام إذا حلق صاحبهما بهما. روى البخاري عن زينب بنت جحش رضي الله عنه ا: أن النبي ﷺ استيقظ من نوم هـوهو يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه). وعقد سفيان[2] بيده عشرة. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث).[3] وفي الحديث دلالة أيضا على ما في خروجهم من الخطر العظيم والشر المستطير على البشرية عامة والعرب خاصة، وأن ظهورهم سيكون مصدرا لرعب عظيم يملأ قلوب الناس في ذلك الزمان، وأنهم سينشرون الهلاك والدمار حيث حلوا. يؤكد ذلك رواية البخاري ولفظها: (أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: ...). فإذا كان ﷺ وهو أشجع الناس وأقوى الرجال أصابه الفزع لمجرد علمه بانفتاح ثغرة بمقدار الحلقة التي تشكلها السبابة والإبهام في السد الذي يحجزهم، فما مبلغ الرعب الذي يعصف بأفئدة غيره يوم ينهار ذلك الحاجز تماما ويسوى بالتراب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا(98)﴾[الكهف]، وينطلق من خلفه كالطوفان يجرف كل من يصادفه في طريقه ويسوقه إلى حتفه، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ(96)﴾[الأنبياء].

(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة الكهف)، رقم 3153، ص 709؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، رقم 4080، ص 678؛ وأحمد في مسنده، رقم 10640، ص 727؛ وابن حبان في صحيحه، رقم 6829، 242/15-243؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم 8501، 597/4؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان، رقم 6829، 458/9، والصحيحة رقم 1735، 313/4.

(2) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم. عالم مجتهد فقيه محدث ثقة صاحب مذهب. ولد سنة 107هـ بالكوفة، وطلب العلم عامة وعلم الحديث خاصة منذ صغره فجمع وأوعى، وحدث وأفتى وصنف ورحل إليه طلاب العلم والفتوى من شتى البلاد. حدث عن عمرو بن دينار وابن شهاب الزهري وعاصم بن أبي النجود وغيرهم، وحدث عنه همام بن يحيى وعبد الرحمن بن مهدي والإمام الشافعي وغيرهم. مات سنة 198هـ بمكة المكرمة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1292، 653/7؛ ابن أبي الوفاء الحنفي، الجواهر المضية، رقم 620، 230/2].

(3) البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم 3346، ص 612؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم 2880، ص 1154، واللفظ لمسلم.

- وظاهر قوله جل جلاله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بعد قوله ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يدل على أن يأجوج ومأجوج موجودون في الشرق لا في الغرب،[1] ومن هناك يزحفون في اتجاه المشرق العربي حتى يصلوا إلى فلسطين، وبالتحديد إلى بيت المقدس. قال النبي ﷺ: (ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر ، وهو جبل بيت المقدس ، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء ،...)،[2] ثم يحاصرون عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين المعتصمين بجبل الطور.

قال النبي ﷺ: (فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، ... ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ...).[3]

- وفي سنة النبي ﷺ الصحيحة بيان شاف لنهاية هاتين الأمتين العظيمتين القاهرتين لجميع من سواهما من الأمم والشعوب؛ إنها نهاية في لحظة واحدة، وعلى يد دودة. قال النبي ﷺ: (ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم. فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة).[4]

- وفي السنة النبوية المطهرة أيضا تحديد لأهم أنواع الأسلحة التي يستخدمها يأجوج ومأجوج في قتالهم؛ إنها القسي والسهام والأترسة والحراب. قال النبي ﷺ: (فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه ، فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البخت، فتحملهم

(1) انظر: اللجنة الشرعية المتخصصة للإفتاء، شبهات بعيدة عن الحق حول يأجوج ومأجوج، فتوى نشرت يوم الأحد 19 جمادى الأولى 1423 هـ - 28-7-2002 م، برقم 20115، عبر موقع إسلام ويب، التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، على هذا الرابط :
https://www.islamweb.net/ar/fatwa/20115/%D8%B4%D8%A8%D9%87%D8%A7%D8%AA-%D8%A8%D8%B9%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82-%D8%AD%D9%88%D9%84-%D9%8A%D8%A3%D8%AC%D9%88%D8%AC-%D9%88%D9%85%D8%A3%D8%AC%D9%88%D8%AC

(2) جزء من حديث طويل، رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم 2937 ص 1177-1178، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(3) جزء من الحديث السابق.

(4) جزء من الحديث السابق.

فتطرحهم بالمهبل، ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين). [1] وفي رواية (ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء).[2] وفي حديث آخر في سنن الترمذي: (سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين).[3] وهو دليل على أن الحضارة الحالية آيلة إلى الزوال بما في ذلك ما اخترعته من أسلحة مختلفة في غاية التطور والفتك والتعقيد. قال الأشقر: (وهذه الأحاديث، وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن هذه الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل، والصواريخ؛ ستتلاشى، وتزول، وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها، وأن البشرية ستعود مرة أخرى إلى القتال على الخيول، واستعمال الرماح، والقسي، ونحو ذلك، والله أعلم).[4]

– وفي الآيات محل الدراسة وآية الأنبياء الآنفة الذكر مع التي تليها إشارة إلى أن خروج يأجوج ومأجوج يكون في أواخر عمر البشرية، وأن وقوعه إشارة إلى قرب فنائها، أي أنه من علامات الساعة الكبرى. قال سبحانه:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا(99)﴾. فقد ذكر سبحانه النفخ في الصور عقب ذكرهم وعطفه عليهم، ومعلوم أن ذلك النفخ هو الذي يفني العالم ويبيد من فيه. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(68)﴾[الزمر]، وقال أيضا: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ(96)وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(97)﴾ [الأنبياء]. وأكد ذلك النبي ﷺ. روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: (ما تذاكرون؟). قالوا: نذكر الساعة. قال: (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات). فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ،

---

(1) جزء من حديث طويل، رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فتنة الدجال، رقم 2240، ص 506-507؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي بالرقم المشار إليه آنفا.

(2) جزء من حديث، رواه أحمد في مسنده، رقم 11754، ص 806؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، رقم 4079، ص 678؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث، رقم 6830، 245/15؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم 8504، 598/4-599؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان، رقم 6829، 458/9، والسلسلة الصحيحة رقم 1735، 313/4.

(3) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، رقم4076، ص 675؛ ورواه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها، رقم 4076، ص 675؛ وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 1940، 579/4.

(4) عمر سليمان الأشقر، القيامة الصغرى، دار النفائس، عمان، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت، ط4، 1411هـ- 1991م، ص 275.

ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم.[1]

– وفي الآيات محل الدراسة أيضا تقرير لعقيدة وجود أمتين في الأرض مغيبتين عن عيون البشر وعن وسائل إعلامهم وتصويرهم اسمهما يأجوج ومأجوج لا بد من ظهورهما في آخر عمر هذا العالم.[2]

– وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ دلالة على أن ذكر الأسباب المسوغة للقول أو الفعل أو الموقف من أنفع ما يدعم المتكلم به جانبه ويقنع به من يستمع إليه ليصل إلى مقصوده من الكلام.

– واختلف المفسرون أيضا في ماهية الإفساد الصادر من يأجوج ومأجوج؛ فقال بعضهم: كانوا يقتلون الناس بغيا وعدوانا. وقال آخرون: كانوا يأكلون البشر. وقال فريق ثالث: كانوا يخرجون في فصل الربيع فلا يتركون للناس شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا يابسا إلا حملوه إلى مساكنهم. وقال فريق رابع: كانوا يعملون مثل عمل قوم لوط. وقال فريق خامس: لم يكن إفسادهم واقعا، بل كان متوقعا. أي أن الذين شكوهم إلى ذي القرنين فعلوا ذلك على وجه التحرز والاحتياط. وقال فريق سادس: كانوا أهل ظلم وغشم وعدوان، يقترفون عامة أنواع الإفساد المعلومة من البشر كالسلب والنهب والإيذاء.[3] وهذا الرأي الأخير –في تقديري– هو الراجح؛ لأنه هو الذي يدل عليه عموم لفظ (مفسدون) الوارد في الآية. قال الرازي: (وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام).[4] وهو ما رجحه الثعالبي.[5] أما الأقوال الثلاثة الأولى فقد فصلت من غير دليل، والعبرة بالدليل وإلا فإنه بإمكان كل أحد أن يقول ما يشاء.

– وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ دليل على حسن أدب أولئك القوم الذين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، فقد عرضوا عليه أن يجمعوا له من مالهم أجرا على عمله في صيغة الاستفهام، وهو شبيه بأدب موسى عليه السلام حين قال للخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)﴾ [الكهف].[6] أقول: وفيه دليل أيضا على أن الإنسان لا يخلو من سلبيات وإيجابيات، ومن الظلم التركيز على الجانب السلبي للشخص عند الحديث

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم 2901، ص 1163.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 287/3.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 389/15؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 172/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 378/13؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 542/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 191/5؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 4471/6؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 144/8.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 172/21.

(5) انظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، 542/3.

(6) انظر على سبيل المثال: أبو حيان، البحر المحيط، 154/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 383/13؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 876؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 144/8.

عنه، أو التعامل معه، أو تحديد الموقف منه؛ كما أنه من الغلو والمحاباة النظر إلى جانبه الإيجابي وحده، والعدل أن نوازن بين الجانبين، ونحكم بالغالب منهما إن لم يكن من الحكم بد، وإلا لبسناه على علاته، وأحسنا صحبته؛ لأن الكمال لا يبلغه إلا المعصومون. وذلك من التسامح وحسن المعاشرة المأمور بهما شرعا. قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر).[1]

- وفي هذه الآية دليل أيضا على مشروعية الجعالة والعمل بالأجرة للقيام بالأعمال والوظائف على حسب اتفاق الطرفين، وعلى استحباب التبرع بالجهد البدني والفكري خصوصا لمن لا يملك غيرهما.[2]

- وفي قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ دلالة على ديانة ذي القرنين وقوة إيمانه واستشعاره لنعم الله عليه، ودليل على عفته وقناعته ورغبته في فعل الخير احتسابا عند الله لا طلبا للدنيا وتحصيلا للمال والمتاع؛ وفي جوابه شبه بجواب سليمان عليه السلام لوفد ملكة سبأ حين قدموا عليه بالمال هدية. قال جل وتقدس: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(36)﴾[النمل].[3] فيا لله، ما أرفع هذا الحوار، وما آدب طرفيه؛ إنه لا يعادل حسن عرض القوم لأجرتهم وتعيين العمل الذي يريدون إلا حسن جواب ذي القرنين وعفته عما يعرضون.

- ودل قوله عز وجل: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ على مشروعية التعاون على فعل الخير وتحصيل المصالح ودفع الشرور والمفاسد، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[المائدة: 2]، وعلى مسؤولية الحكام في حماية الرعية، وحفظ مصالحها، ومشروعية إنفاقهم أموال خزينتها في ذلك بشرط العدل وعدم استئثارهم بها. قال القرطبي: (في هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤن، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم ، وذلك بثلاثة شروط: الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء. الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم. الثالث: أن يسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم؛ فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بتدبير ... وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر).[4]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم 1469، ص 586.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 287/3.

(3) انظر على سبيل المثال: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 140/5؛ البقاعي، نظم الدرر، 135/12-136؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 460.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 384/13-385.

– وفي قوله جل شأنه حكاية عن ذي القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(96)فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا(97)﴾ دليل على مشروعية اتخاذ السجون، وحبس المجرمين والمفسدين فيها، وإنزال العقوبات المناسبة لهم، لمنع إيذائهم لغيرهم وأخذهم ما ليس لهم، [1] وفيه أيضا الدعوة إلى تقديم الأسباب واستفراغ الجهد –مع التوكل على الله– لتحقيق الغايات المشروعة، وعدم الاكتفاء بالأماني، وفي هذا المعنى نصوص كثيرة من الكتاب والسنة؛ منها ما رواه ابن

حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: (اعقلها وتوكل). [2]

– واختلف المفسرون في المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾، فقال البعض: المراد به الردم، وقال البعض الآخر: هو الإقدار على إنجازه وإكماله. وقال فريق ثالث: كلاهما مراد. [3] ولا دليل في أيدينا ولا فيما ذكره أصحاب هذه الأقوال للترجيح بينها، لأنها جميعا محتملة، ولا يعلم ما في نفس ذي القرنين من القصد إلا هو ومن أحاط بكل شيء علما .

أقول: وفي هذه الآية دليل على تواضع ذي القرنين وهضمه لنفسه مع اتساع ملكه وشدة سطوته وعظمة إنجازه، وأنه ليس من ذلك النوع من السلاطين المغرمين بذكر أعمالهم تفاخرا بها في حياتهم، ورغبة في تخليد أسمائهم بعد موتهم. وفيها أيضا دليل على إيمانه بأسماء الله تعالى التي منها الرب، وبصفاته عز وجل التي منها الرحمة والربوبية.

– واختلف المفسرون أيضا في المقصود بالوعد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾؛ فقال فريق منهم: المراد به موعد قيام القيامة. ومن هؤلاء الزمخشري والرازي. وقال آخرون: المقصود هو موعد خروج يأجوج ومأجوج من خلف السد واجتياحهم الأرض. ومن هؤلاء الطبري وابن كثير. ورجح القرطبي القول الأول، ورجح الشوكاني القول الثاني، وأورد البيضاوي القولين معا دون ترجيح. [4] والراجح –في تقديري– هو القول الثاني؛ لأن السنة المطهرة بينت –كما مر بنا قريبا– أن يأجوج ومأجوج سيكملون حفره عندما يأذن الله بخروجهم. قال النبي ﷺ: (...حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 384/13.

(2) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب، رقم 2517، ص 567؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل، رقم 731، 510/2؛ وحسنه محققه شعيب الأرنؤوط.

(3) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 412/15؛ الزمخشري، الكشاف، 616/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 544/3؛ الماوردي، النكت والعيون، 344/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 294/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 142/5؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 194/5–195.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 412/15؛ الزمخشري، الكشاف، 616/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 173/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 390/13؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 544/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 877؛ الماوردي، النكت والعيون، 345/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 294/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 142/5؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 195/5.

حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه، ويخرجون على الناس...).[1] أما عند حلول موعد قيام القيامة فستدك الأرض والجبال جميعا، وتنشق السماوات وتهي، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(13)وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(14)فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(15)وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(16)﴾[الحاقة]، فلا معنى لتخصيص السد وحده بالدك وهو لا يساوي هباءة في مقابل الأرض التي ستلقى المصير نفسه، والله أعلم.

- وفي قوله جل جلاله على لسان ذي القرنين: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ دليل على سلامة عقيدة ذي القرنين، ومعرفته بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى كما ذكرنا غير مرة، ومعالنة منه بواحدة من أهم مسائل العقيدة وهي صدق جميع وعوده الله سبحانه وكونها حقا. وفي مواضع كثيرة من القرآن الكريم تذكير وتوكيد وتقرير لهذه المسألة، منها قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5)﴾[فاطر]، وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(16)﴾[الأحقاف]. وقوله: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ(20)﴾[الزمر]، وغيرها من الآيات الكريمة. قال الطبري في تفسير الآية محل الدراسة: (يقول: وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دك هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقا، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن).[2]

- وأختم الحديث عن هذا العنصر بلفت النظر إلى أنني ما كنت لأطيل في شأنه على هذا النحو لولا تعلقه بمسألة أجمل القرآن الكريم كثيرا من تفاصيلها، وداخلتها مرويات ضعيفة وإسرائيليات كثيرة، وتعاورتها آراء وتخمينات وافتراضات مختلفة، فأردت مناقشتها من حيث قيمتها وصحتها، عسى أن يتميز سمينها من غثها.

المطلب الثاني: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بالروح وبغيب المستقبل

كان المشركون واليهود يسألون النبي ﷺ عن حقيقة الروح وعن أمور مما سيكون في المستقبل، إما بغرض تعجيزه وإما بدافع الفضول أو غيرها من الدوافع. وكانت الآيات تنزل عليه ﷺ متضمنة أجوبة ما يسألون عنه، آمرة إياه بنقلها إليهم. وهي:

* قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85)﴾[الإسراء].

– أي: ويستفسرك الكفار -أيها النبي- عن كنه الروح، قل مجيبا لهم: الروح من أمر ربي الذي استأثر بعلمه، وما أعطيتم من العلم إلا قدرا يسيرا قياسا إلى علم الله سبحانه الذي أحاط بكل شيء.[3]

---

(1) سبق تخريجه ص 24، هامش رقم 103.

(2) الطبري، جامع البيان، 15/414-415.

(3) انظر: المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 290؛ الكازروني، الصراط المستقيم؛ ص 422.

- فتضمنت الآية أمرا من الله عز وجل إلى نبيه ﷺ بإجابة من سألوه عن حقيقة الروح بأنها من أمر الله الذي لا يحيطون بعلمه.

- وسبب نزولها ما رواه الشيخان -واللفظ لمسلم- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب إذ مر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقالوا: ما رابكم إليه؟ لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه. فقام إليه بعضهم فسأله عن الروح، قال: فأسكت النبي ﷺ، فلم يرد عليه شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، قال:فقمت مكاني، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء].(1) وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشا أيضا سألوه هذا السؤال نفسه باقتراح من اليهود فنزلت الآية. روى الترمذي من حديث ابن عباس، قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قالوا: أوتينا علما كثيرا أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فأنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾[الكهف:109] إلى آخر الآية.(2) والرواية الأولى أرجح لسببين: الأول: أنها مما اتفق الشيخان على صحته، ولذلك أورداها في صحيحيهما، ومعلوم أن الخبر إذا كان في الصحيحين فهو في أعلى درجات الصحة، خلافا للثانية فإنها ليست في الصحيحين ولا في أحدهما. الثاني: أن راوي الرواية الأولى -أي ابن مسعود- شهد القصة بنفسه من أولها إلى آخرها، وروى ما سمع ورأى، كما هو ظاهر من السياق، خلافا لراوي الرواية الثانية -ابن عباس- فإن سياق حديثه ليس فيه ما يدل على حضوره أحداث الرواية التي ساقها، ولا شك أن للمشاهدة قوة في التحمل والأداء والاستيثاق ليست لسواها؛(3) إلا أن تكون الآية نزلت مرتين، فحينئذ لا مناص من الجمع بين الروايتين، ويكون ﷺ سئل من قبل قريش مرة وهو بمكة قبل الهجرة، ومن طرف اليهود مرة أخرى بالمدينة بعد الهجرة فتعدد النزول لتعدد السؤال.

- والسائلون هم اليهود كما هو ظاهر من سبب النزول.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، رقم 125، ص 41-42؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صفاة المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، رقم 2794، ص 1123.

(2) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة بني إسرائيل)، رقم 3140، ص 704-705؛ وأحمد في مسنده، رقم 2309، ص 199؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(3) انظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م، ص 88.

- والروح لغة ما به حياة الأنفس، يذكر ويؤنث، وجمعه الأرواح. [1] وقد اختلفت أقوال المفسرين في المقصود بالروح في هذا الموضع؛ فثبت عن ابن عباس أنه قال: هو ملك. وصح عن قتادة – ونقل عن الحسن وابن عباس في رواية أخرى- أنه جبريل عليه السلام. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله عز وجل بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . وقيل: المراد به ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها . وقيل: المراد منه عيسى عليه السلام. وقيل هو القرآن . وقال الأكثرون: هو الروح الذي يحيا به بدن الحيوان فإذا خرج منه مات. وفي تقديري أن القول الأخير -الذي هو قول الجمهور- هو الأرجح، وهو ما رجحه الرازي وابن عطية والخازن والبغوي؛ لأن الإجابة عنه إجابة مبهمة تركته غامضا إلى الآن، مع الإشارة إلى أنه أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله عز وجل. أقول: هذه الإجابة لا تنطبق بالنسبة لما ذكر من الأقوال إلا على الروح التي هي سبب حياة الأحياء، أما بقية الأقوال فهي تدور حول الملائكة، ونحن -وغيرنا- نعلم كثيرا مما يتعلق بهم، ككونهم مخلوقين من نور، وأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون، وأنهم يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم معصومون، وأنهم يموتون، وأن لهم وظائف مختلفة كحمل العرش وتبليغ الوحي وقبض الأرواح وغيرها من المعلومات والأوصاف التي أخبرنا الله بها في كتابه والنبي ﷺ في سنته الشريفة، أو تدور حول عيسى ﷺ ولا غموض بشأنه، فنحن نعلم كثيرا مما يتعلق به من المعلومات كبشريته ونبوته ومعجزاته وبلده وأمه وقومها وغير ذلك، أو تدور حول القرآن وهو معلوم التفاصيل خصوصا عند من يشتغلون بالتفسير وعلوم القرآن، أو تدور حول مخلوقات غيبية عجيبة، وهي غير ثابتة النسبة إلى قائليها، ولو ثبتت ما قبلها ذو عقل فضلا عن ذي بحث وعلم، لأنها ليست مما يمكن قوله بالرأي والتخمين أو الوصول إليه بالبحوث والتجارب.[2]

- ووردت كلمة الروح في القرآن الكريم على خمسة معان، هي: الأول: الروح التي يحيى كل مخلوق حي بنفخها فيه ويموت بخروجها منه، وهي المرادة -على الراجح- في الآية التي نحن بصدد دراستها، ومن الآيات التي وردت فيها أيضا بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(28)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(29)﴾[الحجر]. الثاني: جبريل عليه السلام، ومن المواضع التي جاءت فيها بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)﴾[النحل]. الثالث: الوحي، ومن الآيات التي

(1) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 220؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 135.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 2/221-224، 15/70-71؛ الزمخشري، الكشاف، 3/548؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 21/39-40؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13/166-168؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5/84-85؛ الماوردي، النكت والعيون، 3/269-270؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/481-482؛ الخازن، لباب التأويل، 3/145؛ حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 3/283.

وردت فيها بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(15)﴾[غافر]. الرابع: عيسى عليه السلام، ومن المواضع التي جاءت فيها بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[النساء:171]. الخامس: ما أيد الله به المؤمنين به وباليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾[المجادلة:22]، قيل: معناها وقواهم ببرهان منه ونور وهدى، وقيل: معناها الرحمة، وقيل: معناها اللطف، وقيل: معناها النصر من عنده، وقيل غير ذلك.[1]

- وبين النبي ﷺ في سنته الشريفة أن الذي ينفخ الروح في الإنسان بداية خلقه هو ملك يرسله الله للقيام بتلك الوظيفة، وأن ذلك يكون بعد أربعة أشهر من حمل أمه به، فيعيش ما قدر الله له إلى أن ينتهي أجله الذي يكتبه أيضا الملك المشار إليه ضمن أربع كلمات يؤمر بكتابتها. روى الشيخان من حديث عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق قال : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد. فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة).[2]

- وفي حديث آخر له ﷺ أوضح أن الأرواح التي تتعارف يحصل فيما بينها ألفة وتقارب عكس ما يقع بين الأرواح المتناكرة. قال ﷺ فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف).[3] قال النووي في بيان معناه: (قال العلماء: معناه: جموع مجتمعة، أو أنواع مختلفة. وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه. وقيل: إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها، وتناسبها في شيمها. وقيل: لأنها خلقت مجتمعة، ثم فرقت في أجسادها. فمن وافق بشيمه ألفه، ومن باعده نافره وخالفه).[4]

---

(1) انظر: الدامغاني، قاموس القرآن، ص 212-213؛ الطبري، جامع البيان، 494/22؛ الزمخشري، الكشاف، 71/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 332/20.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، رقم 3208، ص 591؛ ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته، رقم 2643، ص 1060.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، رقم 2638، ص 1057.

(4) النووي، المنهاج، ص 1869-1870.

- وفي السنة المطهرة تصوير عجيب لخروج روحي المؤمن والكافر عند موتهما، وتفصيل لمراحل رحلتيهما إلى السماء وعودتيهما إلى جسديهما في قبريهما، يظهر من خلالهما الفرق الهائل بين أحوالهما. روى أحمد في مسنده عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه فقال : (استعيذوا بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه م د البصر ، ثم يجيء ملك الموت -عليه السلام- حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال: فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون: فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينته ى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدو ه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول : ربي الله، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : ديني الإسلام، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ، فيقولان له : وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، قالا : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول: أنا عملك الصالح ، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينته ى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف:40]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا ، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:31]، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري،

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر ؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة).[1]

– وأخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء –بعد استشهادهم– تنعم بحياة طيبة في الجنة، تأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتسرح منها حيث شاءت إلى أن ترد إلى أجسادها يوم القيامة. روى مسلم في صحيحه عن مسروق بن الأجدع، قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(169)﴾[آل عمران]، قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : (أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا).[2] ومن نماذج الأرواح التي استشهد أصحابها في سبيل الله فنالت هذا التكريم الجليل الجزيل وجاء التنصيص عليها تحديدا أرواح شهداء معركة أحد. روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة: تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾[آل عمران:169]إلى آخر الآية.[3]

– وفي السنة النبوية المطهرة حديث عزيز يتضمن بشرى سارة للمؤمنين عامة –وإن لم يموتوا شهداء– أن أرواحهم تكون في الجنة مدة حياتها البرزخية تنعم فيها إلى يوم البعث. قال ابن كثير في تفسيره: (وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة. وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري، عن

---

(1) سبق تخريجه في الفصل التمهيدي، المبحث الثاني، المطلب الثالث.

(2) مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم 1887، ص 785.

(3) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، رقم 2520، ص 383؛ وأحمد في مسنده، رقم 2388، ص 206؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد، رقم 2444، 112/2؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 5205، 924/2.

عبد الرحمان بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:(نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)). [1] لكن تميز الشهداء يظل قائما هنالك أيضا كما تميزوا في الدنيا بالنجدة والإقدام والفداء، وذلك (أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة. وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها).[2]

– وبين النبي ﷺ أن أرواح الكفار تكون في الأرض. روى النسائي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا، حتى يأتون به باب السماء ، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله عز وجل، فتخرج كأنتن ريح جيفة، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار).[3] والظاهر أنها تحديدا في أسفل سافلين من الأرض تتعذب، كما أن أرواح المؤمنين في الجنة تتنعم. قال ابن تيمية رحمه الله: (وفي قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ(5)﴾[التين] قولان، قيل: الهرم. وقيل: العذاب بعد الموت، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعا، فإنه جعله في أسفل سافلين. والناس نوعان: فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين، والمؤمن في عليين).[4]

* وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)﴾[الأعراف].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 120/2؛ والحديث أخرجه الإمام مالك بن أنس ت 179هـ، في الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ت 244هـ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1417هـ-1997م، رقم 643، 328/1؛ وأحمد في مسنده، رقم 27708، ص 2012؛ والنسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، رقم 2073، ص 330؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم 4271، ص 708؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب فضل الشهادة، رقم 4657، 513/10؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 2373، 468/1.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 120/2.

(3) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، رقم 1833، ص 296؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، رقم 1302، 465/1؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 490، 146/1.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 163/16

– أي: يستفسرك الذين سألوك –أيها النبي– عن الساعة التي تنقضي فيها هذه الحياة، متى تحين؟ أجبهم قائلا: علم توقيتها عند ربى –دون غيره– لا يأتي بها و يظهرها في وقتها أحد غيره. اشتدت أهوالها على أهل السموات والأرض عند وقوعها. لا تجيئكم إلا على حين غفلة منكم. يستفهمونك عنها كأنك حريص على الوصول إلى المعرفة بوقتها فتعلمها. فحدد الجواب لهم مؤكدا إياه: العلم بتوقيتها مقصور على الله وحده، ولكن أغلب الناس لا يدركون أن العلم بها قصر عليه سبحانه لا يشاركه فيه أحد.(1)

– فتضمنت الآية أمرا من الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يجيب من سألوه عن موعد قيام الساعة بأن علم وقت وقوعها والإتيان بها خاص به جل جلاله لا يشاركه فيه أحد، وأن قيامها سيكون مفاجئا للخلق عظيم الهول على أهل السماوات والأرض.

– وسبب نزولها ما رواه الطبري عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول، فإنا نعلم متى هي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ... ﴾ إلى قوله: ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾.(2) وروى أيضا عن قتادة، قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة فقال الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.(3) وقد رجح ابن كثير هذه الرواية الثانية معللا ذلك بأن السورة التي وردت فيها الآية مكية، (4) ولكن الراجح في تقديري –والله أعلم– هو ما في الرواية الأولى؛ لأن الذي حكى سبب النزول فيها هو ابن عباس رضي الله عنه وهو صحابي عاصر نزول الوحي وشهد فترة النبوة، خلافا لقتادة رحمه الله فإنه –وإن صح إسناد الرواية الثانية إليه– تابعي لم يشهد فترة النزول ولا عاصر ما فيها من أحداث، ومعلوم أن أسباب النزول لا يقال فيها بالرأي، وإنما العبرة فيها بالنقل. قال الواحدي: (ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدوا في الطلاب). (5) وهذا ما رجحه الشوكاني، فإنه أورد رواية ابن عباس أولا وبصيغة الجزم، بينما أخر ذكر رواية قتادة ذاكرا إياها بصيغة التمريض. قال رحمه الله: (السائلون هم اليهود. وقيل قريش).(6)

– والسائلون هم اليهود كما هو ظاهر من سبب النزول، فقد تولى طرح السؤال على النبي ﷺ رجلان منهم هما ابن أبي قشير

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 10/610-615؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 237.

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان، 10/605؛ وحسن إسناده حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 2/368.

(3) أخرجه الطبري، في جامع البيان، 10/604 وهو صحيح إلى قتادة لكنه مرسل. [انظر: سليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر، الاستيعاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425هـ، 2/174].

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/370.

(5) الواحدي، أسباب النزول، ص8.

(6) الشوكاني، فتح القدير، ص 517.

وابن زيد. ولذلك قال الألوسي رحمه الله: (والسائل عن ذلك أناس من اليهود).[1]

- والساعة لغة تطلق على الوقت الحاضر، كقولك: الساعة يصل فلان؛ كما تطلق على القدر القليل من الوقت دون تحديد، ومن ذلك قول النبي ﷺ (إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها مسلم، يسأل الله فيها خيرا، إلا أعطاه إياه، قال: وهي ساعة خفيفة).[2] ولكنها لا تزيد على أن تكون جزءا من نهار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾[يونس:45]، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾[الأحقاف:35]. وتطلق أيضا -بالتحديد- على جزء من أربعة وعشرين جزءا من الليل والنهار. وإنما سميت بذلك لأنها تمضي وتستمر، ومن ذلك قولهم: أساع الإبل إساعة، إذا أهملها حتى تمضي على وجهها. قال ابن فارس: السين والواو والعين يدل على استمرار الشيء ومضيه.[3] أما في اصطلاح المفسرين وعلماء العقيدة فلا خلاف بينهم -في حدود ما اطلعت عليه من كتبهم- أن الساعة هي القيامة، وهي (اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب) .[4] قال ابن عطية -رحمه الله-: (والساعة: القيامة، موت كل شيء كان حينئذ حيا وبعث الجميع، هو كله يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة).[5] بل ذلك هو اصطلاح القرآن الكريم نفسه. قال ابن عاشور: (والساعة معرفة باللام علم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء هذا العالم الدنيوي والدخول في العالم الأخروي، وتسمى يوم البعث، ويوم القيامة).[6]

- ومعنى مرساها [بضم الميم] لغة حينها، ومرسى السفينة [بضم الميم]: حين إرسائها، مشتق من الرسو وهو الثبوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[سبأ:13] أي ثابتات. والمرسى [بفتح الميم] مصدر رسى يرسو: أي ثبت. ومنه قولهم: رست السفينة، أي وقفت، والجبال الرواسي أي الثوابت الرواسخ. [7] أما المفسرون فمنهم من فسر المرسى بالقيام، فيكون معنى ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى قيامها؟ ومن هؤلاء السدي وقتادة. وقال آخرون معناه منتهاها. ومن هؤلاء ابن عباس رضي الله عنه. والمعنيان متقاربان؛ لأن منتهاها -أي انتهاؤها- هو بلوغها حين قيامها. ولما كانت الساعة ثقيلة كما جاء التصريح بذلك في

---

(1) الألوسيي، روح المعاني، 132/9.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة، رقم 852، ص 330، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 163؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 731؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 116/3؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 463.

(4) عمر سليمان الأشقر، القيامة الكبرى، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط6، 1415هـ-1995م ، ص 19.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز، 484/2.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 201/9.

(7) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 58،127؛ الدامغاني، قاموس القرآن، ص 205.

الآية، وكان رسو كل ما كان ثقيلا معناه ثبوته واستقراره، كان حلول وقت قيامها رسوا لها كما ترسو السفينة إذا بلغت مستقرها الذي تثبت فيه.[1]

– وفي الآية بيان صريح بأن العلم بوقت قيام الساعة خاص بالله العليم الخبير كما تدل عليه أداة القصر (إنما). وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم توكيد لذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(63)﴾[الأحزاب]. قال الشنقيطي: (هذه الآية الكريمة تدل على أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله جل وعلا، وقد جاءت آيات أخر تدل على ذلك أيضا كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا(42)فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا(43)إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا(44)﴾[النازعات]).[2]

– ووقت قيام الساعة أحد مفاتيح الغيب التي نص الله على استئثاره وحده بعلمها في قوله جل وعلا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(59)﴾[الأنعام]، وفصلها في آخر آية من سورة لقمان. قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)﴾[لقمان]. وفي سنة النبي ﷺ مزيد توكيد وتوضيح لتلك المفاتيح العظيمة وعددها. روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله).[3] وفي السنة المشرفة أيضا أتم البيان وأكمله من صاحبها ﷺ بأن الله جل جلاله لا يشاركه في العلم بأوان وقوع الساعة ملك مقرب ولا نبي مرسل. روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ –بعد أن استخبره عن الإسلام والإيمان والإحسان–: فأخبرني عن الساعة؟ قال ﷺ: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل).[4]

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 10/606–607؛ الزمخشري، الكشاف، 2/538؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 15/85.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان، 2/399–400.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾[الرعد: 8]، رقم 4697، ص 857؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه، رقم 9، ص 37، من حديث أبي هريرة رضي الله.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه، رقم 8، ص 36، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- ولا ريب أن في إخفاء توقيت الساعة عن الخلق حكمة -بل حكم- بالغة، ولو كان إعلامهم به أنفع لهم لأعلمهم. قال البقاعي: (وإخفاؤها أنفع للخلق لأنه أعظم لشأنها وأهيب، فيكون أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية وأقرب إلى التوبة).(1)

- وفي قوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ إشارة -والله أعلم- إلى علاماتها التي تدل على قربها، والتي سماها جل شأنه أشراطا.(2) قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد: 18]. قال القرطبي في معنى ﴿أَشْرَاطُهَا﴾: (أي أماراتها وعلاماتها. وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمدا ﷺ آخر الأنبياء، فبعثه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك والحسن).(3) وهي مما سأل عنه جبريل عليه السلام النبي ﷺ وأجابه بذكر نماذج منها. جاء في حديث عمر رضي الله عنه الذي مر بنا جزء منه قبل سطور: قال [أي جبريل]: فأخبرني عن أماراتها؟ قال ﷺ: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان). وفي أحاديث النبي ﷺ تنصيص على كثير منها. وقد قسمها علماء العقيدة إلى صغرى وكبرى؛ فمن الصغرى: بعثة النبي ﷺ، وقبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثرة المال وفشو التجارة وتسليم الخاصة وقطع الأرحام وظهور ما يقرب من ثلاثين دجالا من أدعياء النبوة وكثرة الفتن وكثرة الهرج وهو القتل وغيرها؛ ومن العلامات الكبرى: الدخان والمسيح الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وغيرها.(4)

- واختلف المفسرون في معنى ثقل الساعة في السماوات والأرض المنصوص عليه في الآية؛ فقال البعض: معناه ثقل علمها على أهل السماوات والأرض فخفي عليهم أن يعرفوا وقت وقوعها. ومن هؤلاء السدي والقرطبي والسمرقندي والبغوي. وقال آخرون: كبرت عليهم عند مجيئها وعظمت لشدة أهوالها التي منها انشقاق السماء وتكوير الشمس وانكدار النجوم وانتثارها وتسيير الجبال وتسجير البحار وغير ذلك مما ذكر الله في كتابه، فذلك ثقلها. ومن هؤلاء الحسن وابن جريج وأبو بكر الأصم.(5) وقال الزمخشري والبيضاوي: أي أهم شأن الساعة الملائكة والثقلين وشق عليهم خفاؤها وودوا لو تجلى لهم علمها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 186/8.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 265/19.

(4) انظر على سبيل المثال: عبد الملك بن حبيب الأندلسي المالكي ت 238هـ، أشراط الساعة وذهاب الأخيار وبقاء الأشرار، دراسة وتحقيق: عبد الله عبد المؤمن الغماري الحسني، دار أضواء السلف، الرياض، ط1، 1425هـ-2005م، ص 77 فما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 11/17 فما بعدها؛ محمد بن رسول الحسيني البرزنجي، الإشاعة لأشراط الساعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط، ص 5 فما بعدها؛ عمر سليمان لأشقر، القيامة الصغرى، ص 135 فما بعدها؛ عصام موسى هادي، صحيح أشراط الساعة، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الدار العثمانية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط خاصة، د ت ط، ص 6 فما بعدها.

(5) هو أبو بكر يوسف بن يعقوب بن الحسين بن يعقوب الواسطي المعروف بالأصم. إمام مقرئ مجود. ولد سنة 218هـ، وقرأ على يحي العليمي وأبي بكر بن عياش وغيرهما، وسمع من محمد بن خالد الطحان، وحدث عنه أبو أحمد الحاكم وأبو بكر بن المقرئ، وتلا عليه علي بن

بينما ذهب فريق رابع إلى أن المعنى ثقلت على السماوات والأرض. ومن هؤلاء قتادة. [1] وقد رجح الطبري الرأي الأول وعلل ذلك باتساقه مع سباق ولحاق الجملة محل التفسير. قال رحمه الله: (وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها أن يعرفوا وقتها وقيامها لأن الله أخفى ذلك عن خلقه، فلم يطلع عليه أحدا منهم. وذلك أن الله أخبر بذلك بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بغتة، فالذي هو أولى أن يكون ما بين ذلك أيضا خبرا عن خفاء علمها عن الخلق، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك). [2]

ولا مانع في تقديري أن يراد الرأي الأول والثاني معا؛ فأما الأول فلما ذكره الطبري ، وأما الثاني فلما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظيمة التي تملأ قلوب المخلوقات رعبا، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2)﴾[الحج]، ولا شك في شدة ثقل ذلك على النفوس لخوفها من وقوعه، وكذلك التي يقدر لها أن تشهد فناء العالم وخرابه علوا وسفلا، فيكون الثقل المذكور في هذه الآية من جنس الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(5)﴾[المزمل] مع التفاوت الهائل الذي بين درجتيهما. فلفظ (الثقل مستعار للمشقة كما يستعار العظم وال كبر ، لأن شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن حلت به أنه حامل شيئا ثقيلا). [3] ولهذا قال ابن كثير بعد أن صوب ترجيح الطبري: (ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض). [4]

- ونصت الآية على مفاجأة القيامة للناس وهم في غفلة عنها لا يشعرون إلا وهي تباغتهم. وجاء توكيد هذا المعنى في خمسة مواضع أخرى من القرآن الكريم غير هذا، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ(31)﴾[الأنعام]، ونقل النبي ﷺ لنا صورا -كأننا نراها- لنماذج من البشر يكونون في مهنهم يمارسون أعمالهم المعتادة تفجؤهم الساعة فتتوقف حركاتهم على الهيئات التي أدركتهم عليها، ويصعقون في أماكنهم كأنما تجمدوا. قال ﷺ -فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه-:

محمد القلانسي وأبو بكر النقاش وعلي بن منصور الشعيري وغيرهم كثير. توفي سنة 313هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 2929، 615/11؛ محمد سالم محيسن، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ-1992م، رقم 287، 638/1].

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 608/10-609؛ الزمخشري، الكشاف، 538/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 85/15؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 405/9-406؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 44/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 587/1؛ البغوي، معالم التنزيل، 310/3.

(2) الطبري، جامع البيان، 609/10-610.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 203/9.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 370/3.

(ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها).[1]

– وفي القرآن الكريم تنصيص على وسيلة ذلك الإفناء الهائل لحياة الثقلين وسواهما ممن كانت تعج بهم الأرض وتئط منهم السماوات، وأنها هي نفسها الوسيلة المسخرة لبعثهم من مراقدهم وإحيائهم بعد صعقهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على ما قدموا في الحياة الدنيا. قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(68)وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(69)وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ(70)﴾[الزمر]، وقال جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ(51)قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52)إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(53)فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(54)﴾[يس].

– وفي مواضع كثيرة من الكتاب العزيز معلومات شتى متعلقة بالساعة، منها التصريح بقرب قيامها، كما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ(1)﴾[القمر]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)﴾[الأحزاب]، ومنها الثناء على المؤمنين بها وذم المرتابين فيها والمجادلين في وقوعها والحكم عليهم بالضلال البعيد، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ(17)يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18)﴾[الشورى]، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(49)﴾[الأنبياء]، ومنها التنديد بمن يكفرون بها ويكذبون بوقوعها وتهديدهم وبيان ما أعد لهم من العذاب الرهيب الأليم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا(11)إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا(12)وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(13)لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا(14)﴾[الفرقان]، ومنها بيان سرعة قيامها الدالة على كمال القدرة الإلهية، كما في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77)﴾[النحل]، ومنها التوضيح –بما لا مزيد عليه– بأن النبي ﷺ ليست وظيفته التي بعث من أجلها أن يحدد للناس تاريخ قيامها، وهو أمر لا فائدة لهم في معرفته حتى لو عرفوه، بل وظيفته –إضافة إلى غيرها من الوظائف التي سبق لنا الحديث عنها– أن يعلمهم بأنها حق، وأنها آتية بلا ريب، وأن يحذرهم من أهوالها ويدعوهم للاستعداد بالإيمان والعمل الصالح ليوم وقوعها، كما في قوله جل جلاله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا(42)فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا(43)إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا(44)إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا(45)كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا(46)﴾[النازعات].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب، رقم 6506، ص 1186، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- ومع سوء قصد اليهود -والكفار عموما- من سؤال النبي ﷺ عن الساعة، وعدم جديتهم في التعلم والاستفتاء فإن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ بإجابتهم إجابة جادة دون الالتفات إلى تهكمهم أو سخريتهم صيانة لجناب النبوة عن عدم العلم بما تعلق بالساعة، وترفعا عن مجاراتهم في سوء قصدهم بعدم إجابتهم، وتعليما لمن يتشوفون إلى إجابته ﷺ لليهود ممن يبحثون عن الحقيقة؛ لأن أنباء القيامة مما تهفوا النفوس لمعرفته.[1]

* وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105)فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا(106)لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا(107)﴾[طه].

- أي: ويستفتيك المنكرون للبعث من قومك -أيها النبي- عن مصير الجبال يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي تدعوهم إلى الإيمان به فيأبون ، فأجبهم بأن الله يذريها تذرية فتطير من أماكنها كالهباء، فيترك مواضعها التي كانت فيها بعد تذريتها مسطحة مستوية، لا تبصر فيها نجدا ولا وهدا.[2]

- فتضمنت الآيات أمرا من الله جل وعلا للنبي ﷺ أن يجيب من سألوه عن مصير الجبال يوم القيامة بأنه عز وجل سيذروها فيدع مواقعها مسواة بالأرض، بحيث لا يبصر الناظر إليها انخفاضا ولا نتوءا.

- وروي في سبب نزولها ما ذكره السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول عن ابن جريج، قال: قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105)﴾[طه].[3]

- والسائلون هم المشركون من أهل مكة. قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمد قومك عن الجبال، فقل لهم: يذريها ربي تذرية).[4]

- و**النسف** في اللغة قلع الشيء من أصله، ومن ذلك نسف البناء، أي قلعه.[5] ولم يختلف معناه عند المفسرين، وإن اختلفت عباراتهم في بيانه. وخلاصة ما قالوه في معنى نسف الجبال، أي قلعها من أصولها وجعلها رملا أو هباء تطيره الرياح وتذروه وتفرقه.[1]

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 202/9.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 163/16-167؛ الزمخشري، الكشاف، 109/4-110؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 456.

(3) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، أسباب النزول المسمى لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ-2002م، ص 173، وهو ضعيف. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 488/2].

(4) الطبري، جامع البيان، 163/16.

(5) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 855؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 321.

- و**القاع** لغة هو ما استوى من الأرض واطمأن وكان سهلا لا جبال به ولا آكام، و **الصفصف** المستوي من الأرض أيضا الذي لا نبات فيه.[2] فهما كالمترادفين. ولم يخالف المفسرون اللغويين، بل أكثرهم على أن الكلمتين بمعنى واحد، وهو الأرض الملساء المستوية التي لا نبات فيها ولا نشز. قال القرطبي: (والمعنى واحد في القاع والصفصف ؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوي الأملس).[3] فيكون الصفصف توكيدا لما سبقه؛ وذكر البعض للقاع معنى آخر وهو المستنقع. قال الطبري: (وكان بعض أهل العلم بلغات العرب من أهل الكوفة يقول: القاع : مستنقع الماء، والصفصف: الذي لا نبات فيه).[4] إذن فلا خلاف بين المفسرين أيضا حتى مع أخذ القول الذي نقله الطبري بعين الاعتبار؛ لأن المستنقع الذي لا نبات فيه يكون سطحه صفحة واحدة مستوية لا نتوء فيها. فيكون المعنى أن الأرض تكون يوم القيامة كاملة الاستواء تامة الملاسة بعد نسف الجبال منها. والله أعلم.[5]

- و**العوج** في اللغة الميل في الشيء والانعطاف؛ ومنه قول رؤبة بن العجاج:

وان عاج عودي كالشظيف الأخشن بعد اقورار الجلد والتشنن[6]

والعوج -بفتح العين- ما كان في عصا أو جدار ونحوهما مما ينتصب. أما العوج -بكسر العين- فهو ما كان في أرض أو بساط أو معاش أو دين. و **الأمت** في اللغة المكان المرتفع، والتلال الصغار، والارتفاع والانخفاض، والاختلاف في الشيء. [7] وأما المفسرون فتنوعت أقوالهم في اللفظين كليهما. فمنهم من فسر العوج بالميل، ومنهم من فسره بالوادي، ومنهم من فسره بالصدع، ومنهم من فسره بالانخفاض. ويمكن اختصار هذه الأقوال كلها في معنيين: الأول: ما انخفض من الأرض. الثاني: ما تعرج منها ومال يمنة ويسرة بسبب المرتفعات كالربى والجبال وما في معناها. والثاني -في تقديري- هو الراجح؛ لأنه أصل معنى العوج في اللغة كما نقلناه عن أهلها آنفا؛ وهو ما رجحه الطبري. قال رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من

---

(1) انظر على سبيل المثال: الزمخشري، الكشاف، 109/4؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 117/22؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 136/14-137؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 39/4؛ البغوي، معالم التنزيل، 294/5.

(2) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 184، 274؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 757، 828؛ ابن منظور، لسان العرب، 253/8.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 137/14.

(4) الطبري، جامع البيان، 164/16.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 163/16-164؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 117/22؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 137/14؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 64/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 221/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 922.

(6) رؤبة بن العجاج، ديوان رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، د ر ط، 2008، ص 161.

(7) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 19، 229؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 146، 199-200؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 179/4-180.

قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف في كلام العرب).[1] وأما الأمت فمنهم من فسره بالرابية، ومنهم من فسره بالتلال الصغار، ومنهم من فسره بالأكمة، ومنهم من فسره بالارتفاع، ومنهم من فسره بالأثر الذي يكون مثل الشراك. ويمكن اختصار كل هذه المعاني بأنها ما ارتفع من الأرض. قال الطبري: (فالواجب إذا كان ذلك معنى الأمت عندهم أن يكون أصوب الأقوال في تأويله: ولا ارتفاع ولا انخفاض، لأن الانخفاض لم يكن إلا عن ارتفاع).[2] فيكون المعنى أن الأرض يوم القيامة تكون تامة الاستواء والملاسة بحيث لا يرى فيها الرائي ميلا إلى يمين أو يسار ولا ارتفاعا أو انخفاضا، والله أعلم.[3]

– وورد ذكر نسف الجبال في موضع آخر من القرآن الكريم في سورة المرسلات ضمن جملة من مشاهد الدمار الكوني الهائل الذي سيقع عندما يأذن الله بفناء هذا العالم تمهيدا للفصل بين الخلائق ومجازاتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13)﴾ [المرسلات].

– ومن عظمة الله سبحانه أن هذه الجبال الشم المتشكلة من الأتربة الصلبة والصخور الصم، والتي هي مضرب المثل في الرسوخ والقوة، لا تقوى على الثبات لحظة أمام تجليه عز وجل لها، بل تندك وتغوص في الأرض. قال سبحانه في معرض ذكره لقصة موسى عليه السلام يوم ذهب إلى الطور لتسلم التوراة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)﴾ [الأعراف]. وقد أوضح النبي ﷺ مقدار ما تجلى منه جل جلاله للجبل فوقع له ما وصفت الآية. روى الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، قال حماد:[4] هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى، قال: فساخ الجبل ﴿وَخَرَّ

---

(1) الطبري، جامع البيان، 166/16.

(2) الطبري، جامع البيان، 167/16.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 221/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 922؛ السمرقندي، بحر العلوم، 354/2-355؛ الماوردي، النكت والعيون، 426/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 64/4؛ أبو حيان، البحر المحيط، 259/6؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 322/5-323؛ النسفي، مدارك التنزيل، 383/2-384؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 260/6.

(4) هو أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري. إمام قدوة نحوي فقيه محدث حافظ مفسر ثقة عابد زاهد. حدث عن ابن أبي مليكة وأنس بن سيرين وثابت البناني وغيرهم، وحدث عنه ابن جريج وابن المبارك ويحيى القطان وغيرهم. توفي سنة 167هـ. [انظر مثلا: أبو نعيم، حلية الأولياء، رقم 372، 249/6؛ السيوطي، بغية الوعاة، رقم 1148، 548/4].

مُوسَى صَعِقًا﴾.[1] وفي رواية ابن عدي: فقال حماد لثابت: تحدث بمثل هذا؟ قال: فضرب بيده في صدره وقال: يقوله أنس ويقوله رسول الله ﷺ وأكتمه أنا؟

– والجبال هي أكبر المخلوقات على سطح الأرض، وقد ضرب الله المثل بها على الكبر والضخامة في موضعين كلاهما كان المشبه هو مقادير هائلة من مياه البحر؛ أحدهما هو قوله سبحانه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[هود:42]، والثاني هو قوله جل وعلا: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(63)﴾[الشعراء]. ومع هذه الحجوم التي لا نظير لها عل وجه المعمورة إلا أنها عرفت قدر نفسها وأبت تحمل الأمانة حين عرضت عليها. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72)﴾[الأحزاب]. وفي هذا درس عظيم للإنسان أن يكون واقعيا، فلا يدعي من القدرات البدنية والفكرية والمالية وسواها ما ليس في إمكانه لئلا يظهر كذبه إذا عرض على المحك، لأن اعترافه بالعجز في شأن ما دليل على صدقه، وذلك أحفظ لكرامته من مواجهة انكشاف الادعاء الكاذب، بل إن صدقه في ذاته منقبة تغطي العجز الذي لا يخلو منه إنسان.

– وضرب الله المثل للناس على عظمة كتابه وثقله وقوة تأثيره وكمال إعجازه بحال الجبال لو أنزل عليها. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّ اسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)﴾[الحشر]. (فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة ، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر ع نها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها، ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل، ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارا تذيبها إذ لم تلن ب كلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في ه ذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع ق ليلا فإن أمامه الملين الأعظم، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم).[2] وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[الرعد:31]. قال ابن كثير رحمه الله: (أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة الأعراف)، رقم 3074، ص 688؛ وابن عدي في الكامل، 48/3؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(2) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الضوء المنير على التفسير، جمع: علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع مكتبة دار السلام، عنيزة–الرياض، د ر ط ولا ت ط، 344/6.

المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له).[1]

– ومن عجيب شأن الجبال أنها كانت تسبح مع نبي الله داود كما قص الله علينا في كتابه. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(79)﴾[الأنبياء]. قال السعدي: (وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرا وتسبيحا وتمجيدا، وكان قد أعطاه [الله] من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه).[2] وهو التأويب المنصوص عليه في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)﴾[سبأ]. قال ابن جزي: (ومعنى أوبي: سبحي، وأصله من التأويب، وهو الترجيع، لأنه كان يرجع التسبيح فترجعه معه).[3] وكانت تفعل ذلك صباحا ومساء، كما دل عليه قوله عز وجل: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ(17)إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ(18)وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ(19)﴾[ص].

– وفي خلق الجبال حكم بالغة وفوائد جمة؛ نبه القرآن الكريم في مواضع منه إلى نماذج منها؛ من ذلك ما ألمع إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(6)وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(7)﴾[النبأ]. ومعلوم أن الأوتاد قطع من خشب أو حديد تدق في الأرض حتى يغوص القسم الأكبر من كل منها فيها ثم تشد إليها أطراف الخيمة لتثبيتها. (ويمكن وضع المقارنة بين الجبال والأوتاد: فالأوتاد تغوص تحت الأرض بقوة المطرقة والجبال تغوص تحت الأرض بقوة الجاذبية، والأوتاد تمسك الخيمة وتثبتها، وأما الجبال فتمسك الأرض المحيطة بالجبال وتساهم أيضا في تثبيت الغلاف الجوي على سطح الأرض ومنعه من الهروب، وكأن الجبال أوتاد تثبت الخيمة الجوية التي تعلو رؤوسنا، وتحفظنا من الإشعاعات الخطيرة والشهب. ويمكن اعتبار القشرة السطحية للأرض كما لو كانت سجادة مثبتة بواسطة أوتاد (الجبال). لقد ثبت علميا في عام 1956م بأن الجبل له جذور يخترق طبقات الأرض ويمتد تحت سطح الأرض حتى يصل إلى طبقة الغطاء (السيما)، وهذا الجذر يعادل من 5 – 10 أضعاف ارتفاع الجبل فوق سطح الأرض).[4]

– ومن فوائد الجبال أيضا كونها مأوى آمنا ومرعى خصبا لأجناس وأنواع شتى من الزواحف والحشرات والطيور وغيرها من الحيوانات، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 310/4.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 500.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 202/2.

(4) ماهر أحمد الصوفي، الجبال أوتاد لتثبيت الأرض، الموسوعة الكونية الكبرى، عدد 9-10، ص 74.

يَعْرِشُونَ(68)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69)﴾[النحل].

– ومن فوائدها كذلك اتخاذ البشر من كهوفها ومغاراتها وما ينحتون منها مساكن لهم في حال السلم وحصونا من الأعداء في حال الحرب؛ إضافة إلى ما أودع الله فيها من عيون وأودية ومراعي وظلال وسواها من المنافع العظيمة. وإلى ذلك يشير قوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(81)﴾[النحل]. قال ابن عاشور: (على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة في الجبال فمنها مسايل الأودية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العدو. ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض).[1]

– ومن فوائد الجبال أيضا لفت انتباه المكلفين إلى وجود الخالق وعظمته ووحدانيته وكمال قدرته، فهي صفحة كبيرة من كتاب الله المنشور الذي لا يقل دلالة عليه جل جلاله من الكتاب المسطور. قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20)﴾[الغاشية]. وقد حدث ذلك لرجل من بداة العرب في زمان النبي ﷺ فقاده إلى الإيمان بالله ورسوله. روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية ، العاقل، فيسأله ونحن نسمع . فجاء رجل من أهل البادية ، فقال: يا محمد ، أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال: (صدق). قال: فمن خلق السماء ؟ قال: (الله)، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: (الله)، قال: فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال: (الله)، قال: فبالذي خلق السماء ، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك؟ قال: (نعم). قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: (صدق). قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: (نعم). قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا. قال: (صدق). قال: فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال: (نعم). قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال: (صدق). قال: فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال: (نعم). قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا. قال: (صدق). قال: ثم ولى. قال: والذي بعثك بالحق ، لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبيﷺ: (لئن صدق ليدخلن الجنة).[2] فالجبال –وسواها– التي شدت انتباه هذا العربي وساقته إلى التفكير في منشئها وناصبها لا شك أنها تفعل مثل ذلك بسواه من أولي الألباب من مختلف الأمم والشعوب، خصوصا من كانوا من أهل الفكر والتأمل والبحث عن الحقيقة. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 15/30.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، رقم 12، ص 38.

الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191)﴾[آل عمران].

– ومن أكثر ما يلفت انتباه الناظر إليها خصوصا إذا كانت جرداء تنوع ألوانها وجمالها؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك محددا أهم تلك الألوان. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)﴾[فاطر]. قال الصابوني: (أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان –وإن كان الجميع حجرا أو ترابا– فمن الجبال ج دد –أي طرائق– مختلفة الألوان، بيض مختلفة البياض، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي وجبال سود غرابيب أي شديدة السواد ... فليس اختلاف الألوان قاصرا على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضا مختلف الألوان، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوان عجيبة، وفيه عروق تشبه المرجان، ولا سيما في صخور "المرمر" فسبحان القادر على كل شيء).[1] فتتنوع ألوان الجبال بتنوع معادنها، (فالسواد والاحمرار يغلبان على خامات العناصر مثل الحديد والنحاس، وأما البياض فيغلب على خامات العناصر مثل الألمنيوم والمغنزيوم ... والعجيب الذي تراه أن سلسلة واحدة من الجبال قد تجد فيها ألوانا متعددة، وربما تجد في الجبل الواحد تعدد الألوان بحيث يغلب الله سبحانه نوعا من المعدن وسط جبل لونه أسود فيظهر هذا الجزء بلون مغاير).[2]

– ومن كمال خضوع الجبال لربها أنها تسجد له مع سائر الساجدين له من خلقه، فهي خير من كثير من البشر الذين زودهم الله بالعقل ليهتدوا فكفروا به وألحدوا في أسمائه وصفاته حتى صار الجماد أطوع منهم. قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ(18)﴾[الحج]. قال الزحيلي في شرح معناها: (ألم تعلم أيها الإنسان المخاطب أن الله يسجد ويخضع له أهل السماوات وهم الملائكة، وأهل الأرض من مؤمني الإنس والجن، وسجودها بهيئة معروفة، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغيرها من المخلوقات، وسجودها بالانقياد التام، ويسجد له كثير من الناس الذين آمنوا وتنبهوا سجود طاعة واختيار، راجين رحمته، وكثير وجب عليه العذاب لإبائه السجود لله، وإهماله النظر في ملكوت الله).[3] أقول: وقد يكون لسجودها –إضافة إلى الانقياد التام الذي فسره به الزحيلي– كيفية أخرى مناسبة لها ولائقة بها، وهي مغيبة عنا كما قال سبحانه عن تسبيح الكائنات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44)﴾[الإسراء]؛ لأن عدم العلم بالشيء ليس علما

---

(1) الصابوني، صفوة التفاسير، 574/2.

(2) ماهر أحمد الصوفي، الجبال أوتاد لتثبيت الأرض، الموسوعة الكونية الكبرى، عدد 9-10، ص 79.

(3) الزحيلي، التفسير الوجيز، ص 335.

بعدمه، ولله في كونه الكبير من الأسرار المكنونة والحقائق المخفية ما لا يحيط علم البشر بعشر معشاره. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85)﴾[الإسراء].

– ومن دقة اللفظ القرآني –بل (من المدهش)[1]– التعبير عن تثبيت الجبال وترسيخها في أماكنها بالرسو الذي يستعمل عادة في حبس السفن عن الحركة بإلقاء مراسيها في البحر، أو ربطها إلى الشاطئ؛ ولحكمة تكرر ذلك التعبير عشر مرار في كتاب الله، منها قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾[الرعد:3]، وقوله: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)﴾[النحل]، وغيرها من المواضع، وكلها بوصف الجبال بأنها (رواسي) إلا في موضع واحد، وهو آخرها ترتيبا في المصحف، فجاء التعبير فيه بالفعل مسندا إلى الله جل جلاله، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(32)﴾[النازعات]. قال ابن عاشور: (وإرساء الجبال إثباتها في الأرض، ويقال رست السفينة، إذا شدت إلى الشاطىء فوقفت على الأَنجر، ويوصف الجبل بالرسو حقيقة ... وإثبات الجبال هو رسوخها بتغل غل صخورها وعروق أشجارها لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخلقت تتخللها الصخور والأشجار ولولا ذلك لتهيلت أتربتها وزادها في ذلك أنها جعلت أحجامها متناسبة بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضائقة. ومن معنى إرسائها أنها جعلت منحدرة ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة كما يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية ولو كانت في داخل البحر ما تمكن الراكب من ركوبها إلا بمشقة).[2]

– والمتتبع لمصير الجبال يوم القيامة –وفق ما بينه القرآن الكريم– يجد أنها تمر بسبعة مراحل حتى تتلاشى. الأولى: اندكاكها وتقطعها وتفتتها، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(13)وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(14)﴾[الحاقة]. والثانية: صيرورتها مثل العهن المنفوش، وهو الصوف المندوف الذي تفرقت أجزاؤه بعد إزالة تراصها بالمندف، كما قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ(8)وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(9)﴾[المعارج]، وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ(5)﴾[القارعة]. والثالثة: صيرورتها مثل الهباء، كما قال عز من قائل: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا(5)فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا(6)﴾[الواقعة]، أي فتتت فصارت كالدقيق المبسوس، وهو الذي أضيف إليه السمن أو الزيت. والرابعة: أن تنسف من أماكنها وذلك بإرسال الرياح عليها حتى تبرز الأرض قاعا صفصفا ؛ لأنها في المراحل التي سبقت كانت –وإن أصابها ما أصابها– مستقرة في مواضعها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(105)﴾[طه]. والخامسة: تحولها إلى كثبان غير متماسكة بعد نقل الرياح لجزيئاتها بعيدا عن مواضعها كما يحصل لحبيبات الرمل التي يتراكم بعضها على بعض، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا(14)﴾[المزمل]. والسادسة: تبددها في الهواء بفعل الرياح أيضا فيحسبها الناظر من بعيد –لكثافة جزيئاتها– كتلا صلبة وهي في الحقيقة مجرد أغبرة متنقلة تسوقها الرياح كما

---

(1) ماهر أحمد الصوفي، الجبال أوتاد لتثبيت الأرض، الموسوعة الكونية الكبرى، عدد 9–10، ص 75.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 88/30.

تسوق السحاب، كما قال جل شأنه: ﴿وَتَرَى 6جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ(88)﴾[النمل]. [1] والسابعة: استحالتها سرابا، أي عدما؛ بحيث أن من كان يراها حقيقة لو جاء أماكنها لم يجد شيئا، كما يحصل لمن يرى سرابا فإذا جاءه لم يجده شيئا، كما قال جل جلاله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا(19)وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا(20)﴾[النبأ]. وهكذا تكون الجبال قد سيرت -أي أذهبت- تماما عن الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)﴾[التكوير]، (وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أ متا)، [2] كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا(47)﴾[الكهف]. والله أعلم. [3]

وخلاصة هذا المبحث:

- أن جميع الأوامر الإلهية الواردة إليه ﷺ في مجال الغيبيات، والمتضمنة شرطنا الذي ذكرناه في التمهيد لهذا الفصل -وهو أن تشتمل على فتاوى مرفوقة بالأسئلة التي سبقت صدورها- كانت إجابات على أسئلة **مطروحة من قبل الكفار**.

- وأن الدافع إلى طرحها هو **اختبار النبي ﷺ وتعجيزه** ومحاولة إثبات كذب نبوته، وليس البحث عن الحقيقة والرغبة في التعلم، والدليل أن أولئك السائلين لم يبادروا إلى الدخول في الإسلام بعد سماع الإجابة، ولو فعلوا لنقل ذلك عنهم كما نقل استفتاؤهم واستخفافهم. وهذا يوضح حقيقة الإشكالات والانتقادات التي يثيرها خصوم الإسلام اليوم حوله باسم حرية الرأي والبحث العلمي. والملحوظ هو **قلة عدد** تلك الاستفتاءات مقارنة مع ما سنراه في مجال الفقهيات.

---

(1) وقد تضمنت الآية فيما يذكر الباحثون المعاصرون إعجازا علميا بإشارتها إلى أحد النواميس الكونية. فالسحب وهي كتل ضخمة من بخار الماء ونوى التكاثف العالقة به لا تتحرك بقوتها الذاتية بل هي محمولة بواسطة هواء ديناميكي متحرك هو الرياح، فكذلك الجبال -وهي مكونات أرضية لا يضاهي حجمها شيء مما على سطح الأرض- لا تتحرك بقوتها الخاصة بل هي محمولة على الأرض وتتحرك بحركتها، وهو تشبيه علمي بليغ، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم هذا التشبيه بين الحركتين إلا إذا علم أن الأرض تتحرك وتدور كما يؤكد أهل الاختصاص، وكما يرصد بعض أنواع حركتها الأقمار الصناعية والسفن الفضائية. [انظر: ماهر أحمد الصوفي، هل الجبال ثابتة أم متحركة؟ الموسوعة الكونية الكبرى، عدد 9-10، ص 85].

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 95/22.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 224/23، 256، 282/22-286، 163/16-166، 385/23، 137/18، 20/24؛ الزمخشري، الكشاف، 109/4، 476، 21/6، 197، 206، 246، 299؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 294/13-295، 136/14-138، 220/16-221، 178/20-180، 199/21، 228، 337-338، 14/22، 95، 444؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 520/3، 64/4، 273، 5/ 239، 359، 366، 389، 425، 441، 516، 517؛ نخبة من العلماء، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، 312/9-313.

- وأن النبي ﷺ كان يجيب على استفتاءات المشركين **صيانة لجناب النبوة** عن الاتهام بالجهل بما يثيرونه من المسائل، **وترفعا** عن مجاراتهم في نواياهم السيئة بعدم إفتائهم، **وتعليما** لمن يتشوفون إلى إجابته ﷺ لهم من الباحثين عن الحقيقة من المؤمنين أو سواهم.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين في المسائل الفقهية

كان ظهور الإسلام إيذانا برسم منهج حياة جديدة أساسها التشريع الإلهي الذي يراعي الحكمة في كل شيء، خلافا لحياة الجاهلية القائمة على أهواء النفس الأمارة بالسوء وشهواتها؛ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1)هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(2)﴾[الجمعة]. فلما آنس الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى ورأوا أن دينهم الجديد لا يفتأ يهدم العوائد القبيحة والمعاملات الظالمة والأعمال الشركية، جعلوا لا يقدمون على عمل يريبهم أو معاملة مثيرة للشبهة في نفوسهم حتى يستفتوا رسول الله ﷺ في حكمها، فإن أفتاهم بالجواز أقدموا عليها وإلا كفوا. وقد صدر إلى النبي ﷺ في هذا المجال جملة من الأوامر الربانية تتضمن فتاوى مقرونة بالأسئلة التي كانت سببا في صدورها. فما تلكم الأوامر التي تلقاها ﷺ في هذا الصدد؟ وما الذي يميزها عن مثيلاتها؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عما يحل لهم من طيبات أو يترتب عليهم من حقوق

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عن أزمنة أو عادات أو أحوال مخصوصة

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عما يحل لهم من طيبات أو يترتب عليهم من حقوق

بتتبع القرآن الكريم تبين أن إشكالات عدة اعترضت الحياة اليومية للصحابة رضوان الله عليهم فيما يخص الأطعمة والنفقات والمعاملات المختلفة وغيرها مما يمكن أن يعترض حياة أي إنسان في أي مجتمع. وكانوا يسألون النبي ﷺ بشأنها فيجيبهم مباشرة، أو ينتظر ما ينزل عليه من الوحي إن لم يكن عنده بها علم. ومن هذا القسم الأخير ما وردت إجاباته في هيأة أوامر موجهة إليه ﷺ ليبلغها من سألوه، مع قرنها بنصوص الأسئلة التي طرحوها. فما الأوامر الواردة إليه ﷺ في هذا الصدد؟ وهل غلب عليها مجال بعينه؟ وهل اقتصرت على المسلمين أم شاركهم سواهم فيها؟ وما دوافع السائلين إلى طرح أسئلتهم؟ للإجابة على هذه الأسئلة سنشرع في سوق النصوص القرآنية المتضمنة ما ورد إليه ﷺ من الأوامر بهذا الصدد، والتي تتضمن الفتوى فيما طرح والسؤال الذي سبقها، وفق ترتيبها في المصحف الشريف.

* قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(215)﴾[البقرة].

– أي: يسألك أصحابك –أيها النبي– عن الإنفاق، ما الذي ينبغي أن يتصدقوا به من أموالهم؟ فقل لهم: إن الإنفاق يكون من المال الحلال، ويدفع للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمنقطع عن ماله وأهله وبلده، وما تصنعوا من عمل خير فإن الله يحيط به علما وهو يثيبكم عليه.[1]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا للنبي ﷺ بأن يجيب السائلين عن الإنفاق أنه يكون على خمس فئات هي الأبوان والأقربون واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وأن ما يصنعونه إليهم من أعمال الخير لا تخفى على الله المحيط بكل شيء علما، وسيكافئهم عليها يوم القيامة.

– وورد في سبب نزولها روايتان؛ إحداهما ما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري وكان شيخا كبيرا ذا مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا نتصدق؟ وعلى من ننفق؟ فنزلت هذه الآية.[2] ويظهر أن هذا السؤال تكرر من الصحابة رضي الله عنهم بعد أن أمروا بالإنفاق إجمالا غير مرة؛ ولذلك قال ابن جريج وابن عطية والشوكاني: السائلون هم المؤمنون.[3] والثانية رواها أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: (تصدقوا). فقال رجل: يا رسول الله عندي دينار. قال: (أنفقه على نفسك).قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على زوجتك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على ولدك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على خادمك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنت أبصر).[4] وهذه الرواية الثانية ساقها سببا لنزول الآية عدد من المفسرين كالرازي وابن الجوزي وأبي حيان على الرغم من عدم تصريح راويها –أبي هريرة– بأنها سبب النزول، ومع ذلك فهي أرجح في تقديري؛ لأن إسنادها حسن، خلافا للرواية الأولى فهي موضوعة.[5]

– واللافت في الآية أن الجواب جاء في الظاهر على غير المسؤول عنه؛ ففيما كان السؤال عما ينفقون، أتى جوابه مبينا من ينفق عليهم المال. وللمفسرين في توجيه هذا الإشكال وجوه. أحدها: أنه ورد في الآية ما يكون جوابا للسؤال المطروح فيها، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ثم أرفق به ما لا يتم المقصود إلا به وهو وجوه الإنفاق لذلك المال، أي الجهات

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 640/3؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 49.

(2) الواحدي، أسباب النزول، ص67-68.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 642/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 288/1.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 7413، ص 533؛ .وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم، رقم 1691، ص 261؛ والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب الصدقة عن ظهر غنى، رقم 2535، ص 395؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الزكاة، باب صدقة التطوع، رقم 3337، 126/8-127؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، رقم 1514، 545/1؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم 1484، 375/5.

(5) انظر: انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 1/ 149.

المستحقة له؛ لأن الإنفاق لا يعتد به إلا إذا وقع في موقعه، ولذلك بنى الكلام عليه. ثانيها: المقصود في السؤال هو الكيفية وإن ورد بلفظ (ما)؛ لأن أولئك السائلين ما كانوا يجهلون أن الذي أمروا به هو إنفاق مال تقربا إلى الله، ولذلك لا ينصرف الذهن إلى ماهية ذلك المال، فتعين أن المطلوب هو ماهية مصرفه. أي أن معنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ فالجواب إذن مطابق للسؤال. وثالثها: من المحتمل أن يكونوا طرحوا السؤال الوارد في الآية فكأنهم قيل لهم: هذا السؤال فاسد، ما شئتم بشرط أن يكون مالا حلالا وأن يصرف في هذا الوجه المحدد شرعا. ورابعها: أن الجواب بذكر وجوه الإنفاق مطابق للسؤال الذي طرحه عمرو بن الجموح المذكور في سبب النزول، وإن لم تذكره الآية. وخامسها: أن الجواب على السؤال المذكور في هذه الآية نزلت به آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[البقرة: 219]، أي الفضل من المال. وسادسها: يحتمل كون (ماذا) سؤالا عن المصرف على حذف المضاف، تقديره: مصرف ماذا ينفقون؟ فالجواب حينئذ مطابق للسؤال. وسابعها: يحتمل أن يكون حذف من السؤال ذكر المصرف ومن الجواب ذكر المنفق مع كونهما مرادين، وهو لون من البلاغة.[1] وأرجح هذه الوجوه -في تقديري- هو الثاني؛ لأن الصحابة الذين طرحوا السؤال على رسول الله ﷺ لا يخفى عليهم أن الذي ينفق هو المال، إذ هم عرب يعرفون هذا المعنى الشائع عندهم في الجاهلية وبعدها، فتعين أن يكون السؤال عن المنفق، أي عن كيفيته المشروعة في الإسلام. قال ابن عاشور: (و﴿مَاذَا﴾ استفهام عن المنفق بفتح الفاء ، ومعنى الاستفهام عن المنفق السؤال عن أحواله التي يقع بها موقع القبول عند الله، فإن الإنفاق حقيقة معروفة في البشر وقد عرفها السائلون في الجاهلية. فكانوا في الجاهلية ينفقون على الأهل وعلى الندامى وينفقون في الميسر ... لا يعقل أن يسألوا عن المال المنفق بمعنى السؤال عن النوع الذي ينفق من ذهب أم من ورق أم من طعام، لأن هذا لا تتعلق بالسؤال عنه أغراض العقلاء، إذ هم يعلمون أن المقصد من الإنفاق إيصال النفع للمنفق عليه، فيتعين أن السؤال عن كيفيات الإنفاق ومواقعه، ولا يريبكم في هذا أن السؤال هنا وقع بما وهي يسأل بها عن الجنس لا عن العوارض، فإن ذلك اصطلاح منطقي لتقريب ما ترجموه من تقسيمات مبنية على اللغة اليونانية).[2]

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 24/6-25؛ الزمخشري، الكشاف، 422/1؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 136/1؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 34؛ السمرقندي، بحر العلوم، 200/1؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 288/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 374/1؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 233/1-234؛ الخازن، لباب التأويل، 144/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 150/2-151؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 433/1؛ النسفي، مدارك التنزيل، 179/1؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 336/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 139؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/2.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/2-318.

- وفي الآية دلالة على مشروعية السؤال عما يهم السائل عموما، وعلى سؤال المفتي خصوصا، وأن السؤال سبيل تحصيل العلم.[1]

- و(الخير) المذكور في أول الآية معناه المال، وهو ما سأل الصحابة النبي ﷺ عن الإنفاق منه . فهو كالذي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(8)﴾[العاديات]، وقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(180)﴾[البقرة]. أما (الخير) المذكور في آخر الآية فهو يشمل كل ما يعتبر خيرا، سواء كان ماديا أو معنويا، فيدخل فيه المال بكل أصنافه والإعانة باليد والتأييد في المعروف والخدمة والنصيحة والإنقاذ من المخاطر والكلمة الطيبة والابتسامة وغيرها من ألوان البر أيا ما كان مصرفه.[2]

- واختلف في وقت نزول هذه الآية وفي نسخها أيضا، فقيل: نزلت قبل فرض الزكاة فتكون قد بينت مصارفها، ثم نسخت بآيتها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)﴾[التوبة]، وهو قول الأكثرين. وهذا الرأي معترض بأن الآية ليس فيها ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به، ويقابله قول من قال بأن آية الزكاة خصصتها بإخراج الوالدين والأقربين واليتامى ، ومعلوم أن التخصيص نسخ جزئي؛ وقيل نزلت بعد فرض الزكاة، وعلى هذا القول فهي محكمة. بل رأى البعض أنها غير منسوخة أيا ما كان وقت نزولها؛ لأن ظاهرها يقتضي الندب، فهي في صدقة التطوع، فلا تعارض بينها وبين آية الزكاة المقتضية للوجوب حتى نضطر إلى القول بالنسخ. وفي تقديري أنه لا يمكن تحديد زمن نزولها بالنسبة لآية الزكاة؛ لأن ذلك يحتاج إلى دلالة الآية عليه ولا دلالة فيها، أو نص خارجي يحدد توقيت نزولها، وهو أمر لا وجود له فيما بين أيدينا من المصادر في حدود ما أعلم، وأما إطلاق القول بغير دليل فهو شيء يقدر عليه كل أحد، ولكنه تخرص يأباه البحث العلمي. أما نسخها ففي تقديري أننا لسنا مضطرين إلى القول به لإمكان الجمع بينها وبين آية الزكاة، والأصل عدمه. [3] قال الطبري: (وهذا الذي قاله السدي من أنه لم يكن يوم نزلت هذه الآية زكاة، وإنما كانت نفقة ينفقها الرجل على أهله، وصدقة يتصدق بها، ثم نسختها الزكاة، قول ممكن أن يكون كما قال، وممكن غيره. ولا دلالة في الآية على صحة ما قال، لأنه ممكن أن يكون قوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 195/1.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 26/6؛ البقاعي، نظم الدرر، 214/3، 216؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 336/1-337.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 642/3؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 136/2؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 707/1؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 337/1؛ الزمخشري، الكشاف، 423/1؛ السمرقندي، بحر العلوم، 200/1-201؛ البغوي، معالم التنزيل، 245/1؛ الواحدي، التفسير البسيط، 129/4-130؛ ابن جزي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 107/1؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 288/1-289؛ الخازن، لباب التأويل، 144/1؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 234/1؛ الألوسي، روح المعاني، 106/2؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 318/2.

مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية، حثا من الله –جل ثناؤه – على الإنفاق على من كانت نفقته غير واجبة من الآباء والأمهات والأقرباء، ومن سمى معهم في هذه الآية، وتعريفا من الله عباده مواضع الفضل التي تصرف فيها النفقات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلاَةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ﴾[البقرة:177]).[1]

– وفي الآية مراعاة للترتيب فيما تعلق بأوجه الإنفاق، فقدم الأقرب فالأقرب ثم الأحوج فالأحوج. فبدأ سبحانه بالوالدين لوجوب حقهما وتأكده، إذ هما سبب ظهور الولد إلى الوجود بعد أن كان معدوما، والقائمان على غذائه وكسائه ودوائه إيوائه وسائر حاجاته ولم يك يملك شيئا أو يقدر عليه، ثم ثنى بالأقربين، لأن العبد لا يطيق القيام بمصالح كل الفقراء والمحاويج، وكان لا بد من معيار لتحديد الأولى منهم، فتعينت القرابة لقوة رابطتها، ثم اليتامى لعجزهم عن الكسب وغياب من يكسب لهم، ثم المساكين لأن الحاجة أسكنتهم وأذلتهم وإن كانوا أقدر من اليتامى، ثم ابن السبيل لبعده عن ماله وأهله وإن كان غنيا في بلده خلافا لمن سبقوه.[2] فيا له من تصنيف دقيق وترتيب منهجي عجيب شاهد على أن هذا القرآن نزل من لدن من خلق البشر وعلم دخائل نفوسهم وأحاط بمراتب احتياجاتهم ومقادير معاناتهم. ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(13)أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(14)﴾[الملك].

– ودلت الآية على بيان أفضلية الإنفاق على المذكورين فيها –إن كانوا فقراء– بالنسبة إلى غيرهم من أهل الفاقة والحاجة.[3]

– وذيلت الآية بالترغيب في فعل الخير ووعد الفاعلين له بالثواب الأوفى عليه يوم القيامة، أيا كانت أصنافه وفي أي وجه صرف –ولو في غير ما ذكر في الآية ما دام مشروعا– وإن كان من غير السائلين المتقدمين؛ لأن العليم بفاعل الخير لا يمكن أن يتركه من غير أجر إذ هو كريم، ولا حائل يحول بينه وبين ذلك إذ هو قوي قاهر.[4]

* وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(219)فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[البقرة:219-220].

– أي: يسألك المستفتون –أيها الرسول– عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فأجبهم بأنه ما زاد عن حوائجهم ، وكما وضح الله لكم ما سألتم عنه في هذين الأمرين ف كذلك يوضح لكم الآيات لتتدبروها فتدركوا ما ينفع في الدنيا والآخرة فتأخذوا به.[1]

---

(1) الطبري، جامع البيان، 643/3.

(2) انظر: الخازن، لباب التأويل، 144/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 151/2.

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل، 144/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 151/2.

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 318/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 289/1؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 195/1.

- فتضمنت الآيتان أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ أن يجيب من استفتوه عن المقدار الواجب إنفاقه من أموالهم بأنه ما فضل عن حاجاتهم ولم يشق عليهم إخراجه.

- وسبب نزول ما تعلق من الآية بالسؤال عن القدر الذي ينبغي إنفاقه وجوابه -فيما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما- (أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ، حين أمروا بالنفقة في سبيل الله ، أتوا النبي ﷺ فقالوا : يا نبي الله، إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق منها؟ فأنزل الله في ذلك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾، وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، ولا ما يأكل حتى يتصدق عليه).[2] وهو أثر ضعيف.[3] وقيل: نزلت جوابا على أحد شقي الاستفتاء الذي وجهه عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى النبي ﷺ والذي سقناه بالتفصيل عند حديثنا عن سبب نزول الآية الخامسة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة. قال القرطبي: (قال العلماء: لما كان السؤال في الآية المتقدمة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ سؤالاً عن النفقة إلى من تصرف ، كما بيناه ودل عليه الجواب، والجواب خرج على وفق السؤال، كان السؤال الثاني في هذه الآية عن قدر الإنفاق ، وهو في شأن عمرو بن الجموح كما تقدّم. فإنه لما نزل ﴿قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴾[البقرة: 215] قال: كم أنفق؟ فنزل ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾).[4] ولكن أثر ابن الجموح موضوع،[5] ولذلك فإن أرجحها -في تقديري- الأول لأنه أخف ضعفا من حيث إسناده، والله أعلم.

- والسائلون عن الإنفاق في هذه الآية هم المؤمنون كما هو الظاهر من واو الجمع.[6] قال الطبري: (يعني جل ذكره بذلك: ويسألك يا محمد أصحابك: أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به، فقل لهم يا محمد أنفقوا منها العفو).[7] وقيل: هو عمرو بن الجموح كما أشرنا إليه في سبب النزول.

- والعفو في أصله اللغوي معناه الشيء القليل، ومنه العُفة وهي بقية اللبن في الضرع. ومنه قول الأعشى:

ما تعادى عنه النهار ولا تعـ جوه إلا عفافة أو فواق[8]

---

(1) انظر: المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 35؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3/446-448؛ البيضاوي، أنور التنزيل، 1/138؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 50.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 2006، 1/381.

(3) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 1/ 162.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3/447.

(5) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 1/ 149.

(6) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 2/168.

(7) الطبري، جامع البيان، 3/686.

(8) أبو بصير ميمون بن قيس الشهير بالأعشى الكبير، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، د ر ط، 1950م، ص211.

ويطلق على الفضل، كما في قولهم: خذ من ماله ما عفا وصفا، أي ما فضل ولم يشق عليه. ويطلق على الكثرة، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا ﴾[الأعراف: 94]، أي كثروا وزادوا. ويطلق أيضا على التجاوز عن الذنب، ومنه اسم الله العفو. [1]

واختلف المفسرون في معنى العفو في هذا الموضع. فقال بعضهم: ما فضل من المال عن نفقة الأهل. ومن هؤلاء ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي [2] وابن أبي ليلى وقتادة وعطاء الخراساني وعكرمة والسدي والطبري والزمخشري والقفال والرازي والقرطبي وغيرهم. وبين ابن زيد أنهم كانوا يفعلون ذلك مياومة. قال: (كان القوم يعملون في كل يوم بما فيه، فإن فضل ذلك اليوم فضل عن العيال قدموه ولا يتركون عيالهم جوعا، ويتصدقون به على الناس). [3] وقال آخرون: هو اليسير الذي لا يتبين في المال إذا أنفق. وهو رواية ثانية عن ابن عباس وقول طاوس. وذهب فريق ثالث إلى أنه ما كان وسطا من النفقة بحيث لا يكون إسرافا ولا إقتارا. وهو قول عطاء والحسن. وقال الربيع وقتادة: هو أفضل المال وأطيبه. بينما ذهب قيس بن سعد ومجاهد إلى أنه الصدقة المفروضة، أي الزكاة، خلافا للجمهور الذين وإن اختلفت آراؤهم في معنى العفو إلا أنهم متفقون على كونه نفلا لا فرضا. وسادس الآراء هو رواية ثالثة عن ابن عباس رضي الله عنه أن العفو هنا معناه ما أتوك به، قليلا كان أو كثيرا، فاقبله منهم. والراجح -والله أعلم- هو القول الأول؛ لأنه هو الذي صحت به الأحاديث عن النبي ﷺ فيما يتصدق به المسلم من ماله، كقوله ﷺ: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول)، [4] إضافة إلى أن أكثر الأقوال الأخرى ترجع إليه. قال ابن كثير -بعد أن ساق بعضها-: (والكل يرجع إلى الفضل).[5] وهو ما رجحه الطبري. قال -رحمه الله-: (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى العفو: الفضل من مال الرجل عن نفسه وأهله في مؤنتهم وما لا بد لهم منه).[6] والله أعلم.[7]

---

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 3/4؛ ابن منظور، لسان العرب، 210/10، 212.

(2) هو أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني. تابعي جليل إمام عالم مفسر محدث ورع عابد زاهد. أبوه من سبي قريظة. أقام زمنا بالكوفة ثم رحل إلى المدينة. حدث عن أبي أيوب الأنصاري وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وحدث عنه أخوه عثمان وأبو جعفر الخطمي ومحمد بن رفاعة القرظي وغيرهم. توفي في حدود سنة 120هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 637، 543/5؛ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، رقم 303، 67/8].

(3) الطبري، جامع البيان، 687/3.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم 1426، ص 265، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 380/1.

(6) الطبري، جامع البيان، 690/3.

(7) انظر: الطبري، جامع البيان، 686/3-689؛ الزمخشري، الكشاف، 429/1؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 51/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 447/3-448؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 380/1؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 295/1.

– وفي القرآن الكريم ضوابط أخرى للصدقة المطلوبة شرعا تجعلها نافعة للفقراء الآخذين غير مضرة بأموال المتصدقين، منها قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(26)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)﴾[الإسراء]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29)﴾[الإسراء]، وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)﴾[الفرقان]؛ فهي تهذب المسلم من الشح الذي يجعل صاحبه مناعا للصدقات ممسكا للنفقات، ومن الإسراف الذي يستأصل ماله فيدعه يتكفف الناس، والتبذير الذي يجعله من المفسدين ويسبغ عليه الوصف بأخوة الشياطين، وتربيه على الوسطية والحكمة في التعامل مع ذات يده، يسخو على إخوانه ويداوي جراح أمته، مع الحفاظ على نصيب لنفسه يقيه الحاجة إلى المخلوقين، كما قال قوم قارون له –فيما قص الله علينا من خبرهم مقرا نصحهم له–: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77)﴾[القصص].

– وفي السنة النبوية ما يحدد ثلث المال على أنه الحد الأعلى الذي ينبغي ألا يتجاوزه المتصدق في صدقته. روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعودني وأنا مريض بمكة، فقلت: لي مال، أوصي بمالي كله؟ قال: (لا). قلت: فالشطر؟ قال: (لا). قلت: فالثلث؟ قال: (الثلث والثلث كثير، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمة ترفعها في في امرأتك، ولعل الله يرفعك، ينتفع بك ناس، ويضر بك آخرون). [1] إلا أن تكون هناك ظروف استثنائية تمر بها الأمة كظروف الجهاد والحصار والأزمات وغيرها مما يفرض على أهل النجدة والبأس تحمل المغارم الفادحة حفظا لمجتمعاتهم من الانهيار أو منعا للأعداء من الوصول إلى أهدافهم من أهل الإسلام، فيرخص حينئذ للمسلم في التصدق بما يرضى، وإن استوعب ماله جميعا. روى أبو داود في سننه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: (ما أبقيت لأهلك؟)، قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: (ما أبقيت لأهلك؟)، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا. [2]

– وفي السنة أيضا ترتيب دقيق للجهات التي توجه إليها الصدقة مع مراعاة الأحق فالأحق، وهو ما يحل الإشكال خصوصا فيما إذا تزاحمت حاجات هذه الجهات كلها في وقت واحد وكان المال المعين للصدقة لا يستوعبها. روى مسلم من حديث

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم 5354، ص 1005.

(2) رواه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، رقم 1678، ص 259؛ والترمذي في سننه، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– كليهما، رقم 3675، ص 834؛ وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

جابر رضي الله عنه قال: أعتق رجل من بني عذرة عبدا له عن دبر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (ألك مال غيره؟). فقال: لا، فقال: (من يشتريه مني؟) فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي رضي الله عنه بثمان مائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: (ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا) يقول: فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك. [1] وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: (تصدقوا). فقال رجل: يا رسول الله عندي دينار. قال: (أنفقه على نفسك).قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على زوجتك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على ولدك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنفقه على خادمك). قال: إن عندي آخر. قال: (أنت أبصر).[2]

– وتضمنت الآية ترسيخا لمقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية وهو رعاية الفقراء وذوي الحاجات عموما وترسيخ ذلك في تفكير الناس واهتمامهم واستدامة شعورهم بالمسؤولية تجاههم والاجتهاد في النهوض بأحوالهم المالية. قال ابن عاشور: (فالمعنى أن المرء ليس مطالبا بارتكاب المآثم لينفق على المحاويج، وإنما ينفق عليهم مما استفضله من ماله ، وهذا أمر بإنفاق لا يشق عليهم ، وهذا أفضل الإنفاق ؛ لأن مقصد الشريعة من الإنفاق إقامة مصالح ضعفاء المسلمين ، ولا يحصل منه مقدار له بال إلا بتعميمه ودوامه لتستمر منه مقادير متماثلة في سائر الأوقات ، وإنما يحصل التعميم والدوام بالإنفاق من الفاضل عن حاجات المنفقين ، فحينئذ لا يشق عليهم فلا يتركه واحد منهم ولا يخلون به في وقت من أوقاتهم، وهذه حكمة بالغة وأصل اقتصادي عمراني).[3]

– والآية دليل على فضل الإسلام وكمال شريعته وكونها خير الشرائع جميعا، ولذلك ارتضاها الله سبحانه للبشرية كافة إلى قيام الساعة. قال الرازي: (وقال الحكماء: الفضيلة بين طرفي الإفراط والتفريط، فالإنفاق الكثير هو التبذير، والتقليل جدا هو التقتير، والعدل هو الفضيلة وهو المراد من قوله: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، ومدار شرع محمد ﷺ على رعاية هذه الدقيقة ، فشرع اليهود مبناه على الخشونة التامة، وشرع النصارى على المسامحة التامة، وشرع محمد ﷺ متوسط في كل هذه الأمور، فلذلك كان أكمل من الكل).[4]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب كفارات الأيمان، باب عتق المدبر وأم الولد والمكاتب في الكفارة، وعتق ولد الزنا، رقم 6716، ص 1219؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة، رقم 997، ص 386-387، واللفظ لمسلم.

(2) سبق تخريجه، ص 52، هامش رقم 207.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 351/2.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 52/6.

– واختلف المفسرون في نسخ هذه الآية؛ فقال ابن عباس والسدي وعطاء الخراساني [1] والسمرقندي والبغوي وغيرهم نسختها آية الزكاة المفروضة، وهو ما رجحه القرطبي. وقال ابن عباس –في رواية ثانية– ومجاهد والطبري هي محكمة غير منسوخة، وهو الراجح والله أعلم؛ لأن القول بالنسخ يتجه في حالتين، وكلتاهما لم تثبت. الأولى: إذا كانت هذه الآية في الزكاة المفروضة كما يرى مجاهد، وجمهور المفسرين على خلافه، بل صح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت قبل فرض الزكاة. قال رضي الله عنه: (كان هذا قبل أن تفرض الصدقة).[2] ومعلوم أن قول الصحابي في التفسير مقدم على قول غيره؛ لأنه عايش فترة التنزيل فهو أعلم بأسبابه من سواه. والثانية: إذا كانت هذه الآية قد أوجبت على الصحابة صدقة قبل فرض الزكاة كما يرى النسفي ومن يوافقه. قال رحمه الله: (وكان التصدق بالفضل في أول الإسلام فرضا، فإذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل، وإذا كان صانعا أمسك قوت يومه وتصدق بالفضل ، فنسخت بآية الزكاة).[3] وهو بعيد، (إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لبين الله قدره، فلما لم يبينه دل ذلك على أن المراد به صدقة التطوع).[4] ثم إن كلام النسفي ليس رأيا يمكن إبداؤه، وإنما هو إخبار عن شيء مضى، فهو يحتاج إلى نقل؛ لأن النسفي لم يعاصر تلك الفترة، بل يفصله عنها نحو خمسمائة عام.[5] فلا داعي إذن للقول بنسخ هذه الآية –في تقديري– وهذا ما رجحه الطبري. قال –رحمه الله–: (والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس على ما رواه عنه عطية ، من أن قوله: ﴿قُلِ العَفْوَ ﴾ ليس بإيجاب فرض فرض من الله حقا في ماله، ولكنه إعلام منه ما يرضيه من النفقة مما يسخطه، جوابا منه لمن سأل نبيه محمدا ﷺ عما فيه له رضا، فهو أدب من الله لجميع خلقه على ما أدبهم به في الصدقة غير المفروضات ، ثابت الحكم ، غير ناسخ لحكم كان قبله بخلافه، ولا منسوخ بحكم حدث بعده)،[6] والله أعلم.[1]

(1) هو أبو أيوب عطاء بن أبي مسلم الخراساني. محدث واعظ مفسر ثقة عابد. ولد سنة 50هـ فيما قيل. أقام بخراسان ودمشق ونزل بيت المقدس. حدث عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من الأئمة، وحدث عنه الإمام مالك وصفيان الثوري ومعمر بن راشد وغيرهم من أئمة الإسلام. توفي سنة 135هـ في أريحا ودفن في بيت المقدس. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 883، 358/6؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 3941، 106/20].

(2) أخرجه ابن أبي حاتم، في تفسير القرآن العظيم، رقم 2073، 394/2؛ والطبري في جامع البيان، 694/3؛ بإسناد حسنه حكمت بشير في التفسير الصحيح، 331/1.

(3) النسفي، مدارك التنزيل، 183/1.

(4) الخازن، لباب التأويل، 151/1.

(5) اختلف في سنة ميلاده ووفاته؛ وقال أبو سعد السمعاني: مات بسمرقند في ثاني عشر جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وخمس مائة. [انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 126/20].

(6) الطبري، جامع البيان، 695/3.

– وفي الآية أيضا دلالة على استحباب التفكر في شأن الدنيا والآخرة والتأمل في الفروق بينهما ليعطي هذه بقدر منزلتها وفنائها وتلك بحسب خطرها ودوامها.[2]

* وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(220)﴾[البقرة].

– أي: ويستفتيك المسلمون –أيها النبي– فيما يوجبه الإسلام تجاه اليتامى، فقل: إن ملابستهم بقصد إصلاحهم واستصلاح أموالهم خير من مجانبتهم، وإن تخالطوهم لما يجمع بينكم من الدين فذلك مقتضى الأخوة الدينية التي تجمعكم بهم، والله يعلم نية المخالط لهم المتكفل بشؤونهم إن كان ينوي نفعهم ورعاية حقوقهم أم يضمر استغلالهم وأخذ أموالهم فيجازي كلا بما يستحقه من الثواب أو العقاب . ولو أراد الله أن يشق عليكم لفعل ذلكم ، بأن يلزمكم رعاية اليتامى مع تحريم مخالطتهم. إن الله عزيز في ملكه غالب على أمره، وهو حكيم في تشريعه فلا يشرع إلا ما فيه مصلحة عباده.[3]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ ليجيب من سألوه من المسلمين عن الواجب نحو اليتامى بأن مخالطتهم بنية إصلاح أحوالهم وأموالهم والحفاظ عليهم أفضل من مجانبتهم.

– وسبب نزولها ما رواه أحمد في المسند والطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[الأنعام:152] عزلوا أموال اليتامى حتى جعل الطعام يفسد واللحم ينتن فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ قال: فخالطوهم.[4] وروي نحو هذا بألفاظ متقاربة عن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى [5] وقتادة والربيع. وورد مثله أيضا بألفاظ قريب بعضها من بعض

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 695/3؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 393/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 448/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 203/1؛ البغوي، معالم التنزيل، 253/1؛ الخازن، لباب التأويل، 151/1؛ النسفي، مدارك التنزيل، 183/1؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 243/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 168/2.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 203/1.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 138/1؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 201/1-202؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 50.

(4) أخرجه أحمد في المسند، رقم 3002، ص 248؛ والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، رقم 3669، ص 570-571؛ والطبري في جامع البيان، 798/3-799؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 8079، 1418/5، وحسنه الألباني في سنن النسائي، رقم 3669، ص 570.

(5) هو أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي. تابعي جليل إمام عالم فقيه محدث حافظ. ولد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه أو قبل ذلك. حدث عن عمر وعلي وابن مسعود وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم، وحدث عنه سليمان بن مهران الأعمش وعمرو بن

عن ابن عباس في رواية ثانية عنه والشعبي وعطاء بن أبي رباح لكن بذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(10)﴾[النساء:10] بدل آية الأنعام التي ذكرها أصحاب الرأي الأول، واختلاف في تسمية أشياء اليتامى التي عزلها الكفل والأوصياء ثم عادوا إلى مخالطتهم فيها. وقال آخرون: (بل كان اتقاء مال اليتيم واجتنابه من أخلاق العرب، فاستفتوا في ذلك لمشقته عليهم، فأفتوا بما بينه الله في كتابه).[1] أي: بهذه الآية من سورة البقرة. وممن روي عنه القول بهذا ابن عباس في رواية ثالثة عنه والسدي والضحاك. والرواية الأولى -في تقديري- أرجح لصحة إسنادها، والثانية صالحة أيضا لاتفاق معناها مع الأولى، وأما اختلافهما في أي الآيتين كان نزولها سببا في عزل أموال اليتامى فلا يضر لأنه ورد عن ابن عباس بإسناد حسن أن نزوليهما كليهما كانا سببا في ذلك.[2]

– والسائلون هم المسلمون كما دلت عليه رواية سعيد بن جبير، وتؤيدها صيغة الجمع التي وردت بها الآية؛ وقيل أن الذي سأل النبي ﷺ هو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.[3]

– واليتامى جمع يتيم كندامى ونديم، ويطلق في اللغة على الشيء المنفرد الذي لا نظير له، والطفل الذي فقد أباه من البشر، وصغير البهائم الذي فقد أمه.[4] وأما في الاصطلاح فهو (الذي مات أبوه وهو طفل صغير، فإذا بلغ الحلم زال عنه اليتم).[5] ولم أقع -في حدود ما اطلعت عليه من أقوال المفسرين- على ما يخالف هذا المعنى. قال الكفوي: (وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء الانفراد عن اعتبار الأخذ والإعطاء من الولي بالنظر إلى حال نفسه، إلا أنه غلب أن يسمى به قبل

مرة والحكم بن عتيبة وغيرهم من الأئمة. قتل في وقعة الجماجم سنة 82هـ، وقيل غرق في الفرات. [انظر على سبيل المثال: يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 3943، 372/17؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 463، 645/5].

(1) الطبري، جامع البيان، 703/3.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 699/3؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، رقم 2081، 395/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 53/6-54؛ السيوطي، الدر المنثور، 557/2-559؛ سنن أبي داود، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم 2871، ص 437؛ النسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، رقم 3670، ص 571؛ الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، رقم 3184، 382/2-383؛ البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم 12671، 465/6؛ وحسنه الألباني في سنن النسائي في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

(3) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 54/6؛ السيوطي، الدر المنثور، 559/2، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(4) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، 1172.

(5) الخازن، لباب التأويل، 58/1؛ وانظر على سبيل المثال: القاسمي، محاسن التأويل، 180/2؛ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 357/1.

أن يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ زال عنه هذا الاسم، وعلى وفق هذا ورد عرف الشرع. قال عليه الصلاة والسلام: (لا يتم بعد احتلام)[1] أي: لا يجري عليه أحكام اليتيم ولا يحتاج إلى الولي).[2]

- وفي القرآن الكريم آيات أخر -غير التي مرت في سبب النزول- تعظم حق اليتيم، وتحث على رعاية مصالحه، وتحذر من إيذائه أو أخذ حقوقه استغلالا لضعفه وغفلته؛ منها قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا(2)وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا(3)﴾[النساء]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا(127)﴾[النساء]، وقوله جل شأنه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(9)﴾[الضحى].

- وفي سنة النبي ﷺ جملة من الأحاديث تصب كلها في رعاية مصالحهم. منها ما يحث على كفالتهم، والقيام على طعامهم وشرابهم، وسائر حاجاتهم كقوله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا). وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا.[3] وقوله ﷺ: (من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتة...).[4] ومنها ما يحذر أشد التحذير من أكل حقوقهم، وأخذ أموالهم، كقوله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات).[5] وقال ﷺ: (اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة).[6] ومنها ما يحض على ملاطفتهم،

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء: متى ينقطع اليتم؟ رقم 2873، ص 437، من حديث علي رضي الله عنه؛ ووصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم 1244، 79/5؛ وصحيح الجامع، رقم 7609، 1261/2.

(2) الكفوي، الكليات، ص 978.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم 5304، ص 997، عن سهل بن سعد رضي الله عنه؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم 2983، ص 1195، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 19234، ص 1375، من حديث مالك بن الحارث رضي الله عنه؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 255، 98/2، من حديث أم سعد بنت عمرو الجمحية رضي الله عنها؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم 2543، 675/2.

(5) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، رقم 6857، ص 1244؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم 89، ص 63، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(6) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 9664، ص 673؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب حق المرأة على زوجها، رقم 9104، 254/8؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم، رقم 3678، ص 610؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر

وإشعارهم بالحنان والأمان، وإدخال السرور في قلوبهم، كالحديث الذي رواه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: (إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم)، [1] ومنها غير هذا؛ ولو طبقت ما سالت دمعة واحدة من عين يتيم ولا أحس ظلما ولا هضما، سواء كان ذلك في بلاد المسلمين أو في المعمورة كلها.

– والإصلاح المذكور في الآية يشمل تربية الأيتام تربية صالحة تهذب نفوسهم وعقولهم بالتأديب والتعليم، كما يشمل تنمية أموالهم والحفاظ عليها لئلا تأكلها النفقة والزكاة، مع إبقائها بمعزل عن أموال الكفل وعدم خلطها بها؛ لأن ذلك يبعد أي احتمال لأن يرزؤوهم منها شيئا، فذلك خير لليتامى لما فيه من توفير أموالهم، وللكفل لما فيه من الثواب.[2]

– ومخالطة الأيتام الواردة في الآية معناها خلط مصاريفهم بمصاريف الكفل، والاشتراك معهم في النفقة، وفي المطعم والمشرب والمركب والمسكن والخدمة وسواه مما يكون الاشتراك فيه ممكنا؛ لأنه أوفر للطرفين مالا وأقل مشقة وحرجا للكفل. قال الطبري: (وإن تخالطوهم فتشاركوهم بأموالكم أموالهم في نفقاتكم ومطاعمكم ومشاربكم ومساكنكم، فتضموا من أموالهم عوضا من قيامكم بأمورهم وأسبابهم وإصلاح أموالهم، فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضا، ويكنف بعضهم بعضا فذو المال يعين ذا الفاقة، وذو القوة في الجسم يعين ذا الضعف. يقول تعالى ذكره: فأنتم أيها المؤمنون وأيتامكم كذلك إن خالطتموهم بأموالكم، فخلطتم طعامكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم وسائر أموالكم بأموالهم، فأصبتم من أموالهم فضل مرفق بما كان منكم من قيامكم بأموالهم وولائهم، ومعاناة أسبابهم على النظر منكم لهم نظر الأخ الشفيق لأخيه العامل فيما بينه وبينه بما أوجب الله عليه وألزمه، فذلك لكم حلال، لأنكم إخوان بعضكم لبعض).[3]

– وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تحذير لأوصياء اليتامى وكافليهم من استغلال صغر هؤلاء المساكين وضعفهم وغفلتهم للاستيلاء على أموالهم أو استخدامهم ظلما، فهو سبحانه سيجازي الظلمة والمفسدين بما هم له أهل، كما يجازي من أراد باليتامى وأموالهم إصلاحا بما يستحقون.[4]

والإباحة، باب ذكر الزجر عن أكل مال اليتيم، رقم 5565، 376/12، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم 2447، 480/1.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 7566، ص 543؛ وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، في مكارم الأخلاق، تحقيق: فاروق حمادة، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، الرباط، ط1، 1400هـ-1980م، رقم 107، ص 75-76؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 10523، 389/13-390؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 854، 507/2.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 54/6-55؛ الطبري، جامع البيان، 703/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 381/1.

(3) الطبري، جامع البيان، 704/3-705.

(4) انظر على سبيل المثال: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 452/3.

– وذيلت الآية بالتنبيه إلى قدرة الله على إعنات المكلفين لو أراد، وذلك بتكليفهم ما يشق عليهم كتحريم مخالطة اليتامى وغيره من التكاليف الصعبة، ولكنه لم يفعل لأنه رؤوف بالعباد؛ ثم ختمت بذكر اسمين كريمين من أسمائه جل جلاله هما العزيز والحكيم المشتملان على صفتين عظيمتين من صفاته سبحانه وهما العزة والحكمة، (وفي جمع الصفتين إشارة إلى أن تصرفات الله تعالى تجري على ما تقتضيه صفاته كلها، وبذلك تندفع إشكالات عظيمة فيما يعبر عنه بالقضاء والقدر).[1]

* وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا(127)﴾[النساء].

– أي: وما يزال بعض أصحابك يطلبون فتياك –أيها النبي– فيما تعلق بأمر النساء من الميراث وغيره، فأخبرهم أن الله سبحانه يفتيهم فيما سألوا عنه من شأنهن، وكذلك ما يقرأ عليهم في القرآن –في أول هذه السورة– فهو يفتيهم أيضا فيما يخص اليتامى من النساء اللواتي لا تعطونهن حقوقهن التي شرع الله لهن من الصداق والميراث وغيرهما وترغبون في الزواج بهن أحيانا، وعن الزواج منهن أحيانا أخرى، على حسب ما لهن من المال والجمال؛ وكذلك يفتيكم المقروء عليكم من القرآن في أمر المستضعفين من الأطفال؛ وفي قيامكم لليتامى –ذكورا وإناثا– بالعدل في شؤونهم كلها كفاية لحملكم على التعامل السليم مع هؤلاء الضعفاء. وما تصنعوا من معروف إلى أولئك المساكين المذكورين أو سواهم فإن الله محيط به علما ومثيبكم عليه أكمل الثواب وأوفاه.[2]

– فتضمنت الآية أمرا من الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يبين لمن طلب الفتوى من أصحابه فيما للنساء وما عليهن من الحقوق أن الله يفتيهم فيما طلبوا، وأن المتلو من القرآن في أول هذه السورة ومواضع أخرى يفتيهم أيضا في ذلك وفيما للأيتام من الحقوق.

– وسبب نزول هذه الآية ما رواه الشيخان عن عروة بن الزبير : أنه سأل عائشة رضي الله عنها ، عن قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ إلى: ﴿وَرُبَاعَ ﴾[النساء: 3]. فقالت : يا ابن أختي ، هي اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشاركه في ماله ، فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها ، بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127]، والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى ، التي قال فيها : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[النساء: 3] قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى :

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 359/2.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 159/7–160؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 428/3–433؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 549/1–550.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ هي رغبة أحدكم ليتيمته التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن .[1] وروى الطبري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾، قال: فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلق ي عليها ثوبه، فإذا فعل بها ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدا، فإن كانت جميلة وهويها ، تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجل أبدا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرّم الله ذلك ونهى عنه.[2] ووردت آثار أخرى غير هذين ولكنها ضعيفة؛ ولذلك لم ننقلها استغناء بما صح عما ضعف.

- والسائلون هم المؤمنون أصحاب النبي ﷺ. قال الطبري: (يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ويسألك يا محمد أصحابك أن تفتيهم في أمر النساء، والواجب لهن وعليهن).[3]

- والاستفتاء لغة هو السؤال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾[الصافات: 11]، أي: اسألهم؛ واستفتاه في الأمر فأفتاه: طلب فتواه فيه فأبانه له؛ ومنه قوله تعالى على لسان ملك مصر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(43)﴾[يوسف]. والاسم الفتوى والفتيا، مأخوذ من الفتوة وهي الشباب، كأنما شبهت القدرة على الجواب والبيان بقوة الأبدان عند الفتيان. [4] ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للاستفتاء عما هو في اللغة إلا من حيث غلبة استعماله في السؤال عما يتعلق بالأمور الشرعية. قال الخازن: (والاستفتاء: طلب الفتوى؛ وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه)،[5] وجاء في تعريف الفتوى اصطلاحا: (الفتوى والفتيا: الجواب عما يسأل عنه من المسائل)،[6] فالاستفتاء -إذن- هو طلب السائل من المسؤول الإعلام بما جهل وبيان ما أبهم وتوضيح ما أشكل من الحكم الشرعي في المسؤول عنه على وجه التعلم.[7]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب شركة اليتيم وأهل الميراث، رقم 2494، ص 452؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم 3018، ص 1208، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) رواه الطبري في جامع البيان، 7/543-544؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 6026، 3/1077؛ وهو أثر حسن. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 1/513].

(3) الطبري، جامع البيان، 7/530.

(4) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 244؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1320؛ ابن منظور، لسان العرب، 11/127-128.

(5) الخازن، لباب التأويل، 1/433.

(6) محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة، القاهرة، د ر ط، 1419هـ-1999م، 3/33.

(7) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 11/63؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 2/100؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 1/789؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 332؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 185.

– ولم تذكر الآية بالتحديد ما استفتي النبي ﷺ فيه من شؤون النساء، ولكن سياقها وما ذكر من أسباب نزولها دل على أن المسؤول عنه لا يخرج عن حقوقهن المالية وفي مقدمتها الميراث والصداق. قال الخازن: (قال المفسرون والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية الميراث قالوا: يا رسول الله كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية).[1]

– ودلت الآية على تقرير حق النساء والأطفال في الإرث خلافا لما كان عليه الأمر في الجاهلية من هضم حقوقهم مما يتركه أقاربهم من مال بعد وفاتهم، وانفراد الكبير بالمال بحجة كونه هو من يحمي الحمى ويرد الغنيمة، ويقاتل عن الحريم . قال ابن عباس: (كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ في أول السورة في الفرائض ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾).[2]

– ودلت أيضا على إحقاق حق اليتيمة خاصة في الصداق والميراث والزواج؛ لأنها كانت أكثر تضررا في عرف الجاهلية من بقية النساء والأطفال، إذ غيرها من النساء يتزوجن وإن كن لا يرثن، والأطفال الذكور يتزوجون ويرثون بعد احتلامهم، كما دل عليه مفهوم قول سعيد بن جبير: (كانوا لا يورثون في الجاهلية النساء والفتى حتى يحتلم)،[3] أما اليتيمة فيحرمها وليها من الميراث والزواج إن كانت دميمة كما قال إبراهيم النخعي: (كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها عن التزويج حتى تموت، فيرثوها)،[4] ومن صداق مثيلاتها إن كانت جميلة كما بينت عائشة رضي الله عنها فيما نقلناه عنها قريبا في سبب النزول.

– واختلف المفسرون في المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها ومن تابعها: هو قوله جل وعلا : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[النساء: 3]؛ وقال محمد بن أبي موسى ومن وافقه: هو قوله سبحانه: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾[النساء: 128]؛ وذهب الطبري وغيره إلى أن المقصود هو آيات الفرائض الواردة في أول سورة النساء وآخرها؛ وقال فريق رابع: المقصود هو هذه الآية نفسها –محل الدراسة– والمراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ، والغرض من التنصيص على أنها فيه هو تعظيمها، والتأكيد على أن رعاية حقوق اليتامى ولزوم الإنصاف معهم أمر معظم عند الله سبحانه، وأن المخل بذلك ظالم متهاون بما عظم الرحمن جل جلاله؛ وقال الفريق الخامس: المقصود به القسم الذي غرضه التعظيم أيضا، وكأنه جل شأنه قال : قل الله يفتيكم فيهن، وأ حلف بما يتلى عليكم في الكتاب. وقيل: هو معطوف على المجرور في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾، ومعناه: قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم

(1) الخازن، لباب التأويل، 433/1.
(2) الطبري، جامع البيان، 531/7.
(3) المصدر السابق، ص 532.
(4) المصدر السابق، ص 533.

في الكتاب في يتامى النساء . وقد استبعد الزجاج هذا القول جدا من حيث لفظه ومعناه؛ [1] قال الرازي معللا ذلك الاستبعاد: (أما اللفظ فلأنه يقتضي عطف المظهر على المضمر، وذلك غير جائز كما شرحناه في قوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[النساء:1]، وأما المعنى فلأن هذا القول يقتضي أنه تعالى في تلك المسائل أفتى ويفتي أيضا فيما يتلى من الكتاب، ومعلوم أنه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أنه تعالى يفتي فيما سألوا من المسائل).[2] والراجح –والله أعلم– هو قول أم المؤمنين لأنها شهدت التنزيل وعلمت ظروفه وما كان الناس يستفسرون عنه من المسائل وقت نزول هذه الآية وما يتشوفون إليه من الجواب والبيان. قال ابن تيمية: (وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم).[3] والله أعلم.[4]

– واختلف المفسرون أيضا في معنى قوله سبحانه: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ على قولين، فقال بعضهم: معناه ترغبون عن نكاحهن ولا تريدونه. ومن هؤلاء عائشة والحسن؛ وقال آخرون: معناه ترغبون في نكاحهن وتريدونه. ومن هؤلاء ابن عباس وقتادة. وكلا الرأيين صحيح –في تقديري– باعتبار معين، فالرأي الأول صحيح في حال كون ما كتب لهن من المال الذي لم يؤتوهن إياه هو ميراثهن من أقاربهن، والثاني صحيح أيضا إذا كان ما كتب لهن من المال الذي لم يؤتوهن إياه هو صداق مثيلاتهن من النساء، وكلاهما حق لهن. والله أعلم.[5]

– وفي الآية دلالة على أن ولاية تزويج المرأة لا تقتصر على الأب والجد، بل تتعدى إلى بقية عصبتها، وأنه يجوز لوليها أن يزوجها من نفسه إن لم يكن من محارمها.[6]

---

(1) انظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 114/2.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 64/11.

(3) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت 728هـ، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، د الناشر ولا مكان الطبع، ط2، 1392هـ–1972م، ص 95.

(4) انظر: صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب شركة اليتيم وأهل الميراث، رقم 2494، ص 452؛ وصحيح مسلم، كتاب التفسير، رقم 3018، ص 1208؛ والطبري، جامع البيان، 7/531–540؛ الزمخشري، الكشاف، 155/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 11/63–64؛ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 114/2.

(5) انظر: صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب شركة اليتيم وأهل الميراث، رقم 2494، ص 452؛ وصحيح مسلم، كتاب التفسير، رقم 3018، ص 1208؛ الطبري، جامع البيان، 535/7؛ الزمخشري، الكشاف، 155/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 64/11، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 160/7.

(6) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 392/1.

- وفي الآية إبطال للحيف الذي كان معاملة متداولة في الجاهلية، يصلى ناره الناس عامة والنساء والأطفال خاصة، واستبداله بالإنصاف التام للجميع. قال السدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾: (كانوا لا يورثون جارية ولا غلاما صغيرا، فأمرهم الله أن يقوموا لليتامى بالقسط. والقسط: أن يعطى كل ذي حق منهم حقه، ذكرا كان أو أنثى، الصغير منهم بمنزلة الكبير).(1) وقد أعطى حق الولدان ذكورا وإناثا وافيا في بداية السورة، في قوله سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[النساء:11]

- وفيها أيضا وجوب المحافظة على أموال اليتامى عموما وحرمة أكلها واستغلالها بغير حق، وهو أمر أكدته نصوص كثيرة من القرآن والسنة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(10)﴾[النساء:10]، وقول النبي ﷺ: (اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة).(2)

- وفي قوله جل شأنه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تذكير بإحاطة علم الله سبحانه بكل ما يصدر عن الناس من أقوال وأفعال، ومنها ما كان عملا صالحا كمعاملة الضعفاء والأيتام بالرفق والنصح والحفاظ على أموالهم، ووعد لأصحاب هذه المعاملة الخيرة بخير الجزاء وكريم الثواب.(3)

- وفي الآية دلالة ظاهرة على رحمة الله بعباده وعنايته بخلقه وكمال عدله، حيث حض أعظم الحض على القيام بمصالح من لا يستطيع القيام بمصالح نفسه من الصغار والأيتام والنساء، فما أرحمه وما ألطفه.(4)

* وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(176)﴾[النساء].

- أي: يسألونك -يا محمد- أن تفتيهم في ميراث من توفي ولا ولد له ولا والد، فقل لهم مجيبا: الله يتولى إفتاءكم، وحكمه سبحانه فيه هو: أنه إذا مات إنسان ولم يترك ولدا -ذكرا ولا أنثى- ولا والدا، وترك أختشقيقة أو لأبيه ، فهي تأخذ نصف تركته، وإذا حصل العكس فماتت امرأة ولم تترك أصلا ولا فرعا، وتركت أخا فله تركتها، وإن كانت الوارثتان أختان شقيقتان أو لأب فتأخذان ثلثي تركة أخيهما المتوفى إن لم يترك أصلا ولا فرعا، وإن كان الورثة إخوة ذكور ا وإناث-أشقاء أو لأب-

---

(1) الطبري، جامع البيان، 545/7.

(2) سبق تخريجه، ص 63، هامش رقم 258.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 547/7-548؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 65/11؛ ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، 310/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 100/2.

(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 185.

فنصيب كل ذكر منهم عدل نصيب اثنتين من أخواته الوارثات. يوضح الله لكم هذا التوضيح لئلا تنحرفوا في تقسيم التركات، والله محيط علما بجميع أعمالكم وأقوالكم، ومجازيكم عليها بما يناسبها من الثواب والعقاب.[1]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا للنبي ﷺ بأن يخبر من سألوه من أصحابه عن كيفية تقسيم تركة الكلالة بأن الله يتولى ذلك بنفسه، ويبلغهم نص هذه الآية التي فصلت الجواب لهم بأحسن عبارة وأوجزها.

– وسبب نزولها فيما رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصب علي من وضوئه، فعقلت، فقلت: يا رسول الله، لمن الميراث؛ إنما يرثني كلالة؟ فنزلت آية الفرائض.[2] وفي رواية أبي داود: اشتكيت وعندي سبع أخوات، فدخل علي رسول الله ﷺ، فنفخ في وجهي، فأفقت فقلت: يا رسول الله، ألا أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: (أحسن)، قلت: الشطر؟ قال: (أحسن). ثم خرج وتركني، [وفي رواية الطبري: ثم رجع إلي] فقال: يا جابر، لا أراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين. قال: وكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية في: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾.[3] وروي أنها نزلت بسبب سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنه لم يصح، ولذلك لم أورده اكتفاء بما صح.

– والسائلون المستفتون هم أصحاب النبي الله ﷺ كما دل عليه ضمير الجمع الذي وردت به الآية، وإن كان سبب النزول لم ينص إلا على واحد منهم فقط وهو جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ ولعل غيره أيضا سأل كما روي عن عمر رضي الله عنه، أو أنهم لما علموا سؤال جابر تشوفوا للإجابة فاعتبروا جميعا سائلين بجامع استشراف الجواب وترقبه.

– والكلالة لغة تطلق على معان، منها الكلال: وهو الإعياء، والرجال الورثة، وبنو العم الأباعد، ومن لا ولد له ولا والد. قيل: الكلالة مصدر كل؛ تقول: كل عنه السيف، أي نبا وضعف، فيكون معنى كل فلان كلالة: إذا لم يكن ولدا ولا والدا؛ أي كل عن بلوغ القرابة المماسة. وقيل: الكلالة مصدر من تكلله النسب إذا أحاط به وتعطف عليه، كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد فليس له منهما أحد، فسمي بالمصدر.[4]

---

(1) انظر: المصدر السابق، ص 196-197؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 142.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب النبي وضوءه على المغمى عليه، رقم 194، ص 54؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة، رقم 1616، ص 658، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(3) رواه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب من كان ليس له ولد وله أخوات، رقم: 2887، ص 440؛ والطبري في جامع البيان، 715/7؛ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

(4) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 121/5؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1053؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 284؛ الزمخشري، أساس البلاغة، 145/2؛ الكفوي، الكليات، ص 769.

واختلف المفسرون في معنى الكلالة اصطلاحا؛ فقال بعض: الكلالة من لا ولد له ولا والد. ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة وابن زيد والزهري وغيرهم، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور السلف والخلف، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد من أهل العلم؛ وقال آخرون -منهم عمر وابن عباس في روايتين أخريين عنهما-: الكلالة ما دون الولد. وقال فريق ثالث -منهم الحكم في رواية ثانية عنه-: الكلالة ما دون الأب.

والراجح -والله أعلم- هو قول الفريق الأول لأنه حكي عليه الإجماع. قال سليم بن عبد [(1)]: (ما رأيتهم إلا قد اتفقوا أن ما مات ولم يدع ولدا ولا والدا أنه كلالة).[(2)] أما القول الثاني والثالث فهما لا يصحان. قال ابن عطية بعد إيرادهما: (وهذان القولان ضعيفان).[(3)] ثم إن القول الثاني-على افتراض صحة نقله عن قائليه- حجته هذه الآية لأنها ذكرت في تفسير الكلالة أنه من ليس له ولد، والحقيقة أنها دلت على أنه من ليس له ولد ولا والد؛ (لأن الله تعالى حكم بتوريث الإخوة والأخوات حال كون الميت كلالة، ولا شك أن الإخوة والأخوات لا يرثون حال وجود الأبوين، فوجب أن لا يكون الميت كلالة حال وجود الأبوين).[(4)] وأما القول الثالث -على افتراض صحة نقله عمن نسب إليهم- فترده هذه الآية لأنها فسرت الكلالة بأنه من ليس له ولد، والله أعلم.[(5)]

- واختلف أهل العلم فيمن يسمى كلالة؛ فقال بعض هو الموروث، أي الميت، الذي ورثه غير والده وولده. وقال آخرون: هم الوارثون الذين يرثون الميت إذا لم يكونوا ولدا ولا والدا ، أي إذا كانوا إخوة أو أخوات أو غيرهم من الحواشي. وجمع فريق ثالث بين القولين فقال: يطلق عليهما معا، ويؤيد هذا القول الأخير اختلاف القراء في قراءة لفظة (يورث)؛ إذ قرأها عامة قراء أهل الإسلام بفتح الراء، أي بالبناء للمجهول، بينما قرأها البعض بكسر الراء، أي بالبناء للمعلوم. وذهب فريق رابع إلى أنها تطلق على القرابة من غير جهة الولد والوالد ، لأنها كالة ضعيفة. والراجح -والله أعلم- هو القول الأول؛ لأنه هو الذي دل

---

(1) هو سليم بن عبد -وقيل: عبد الله- السلولي الكناني. تابعي جليل محدث ثقة كوفي. هو أخو عمارة وزيد السلوليين الكوفيين، وثلاثتهم ثقات. روى سليم عن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم. روى عنه أبو إسحاق السبيعي. [انظر على سبيل المثال: ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، رقم 915، 212/4؛ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ت 852هـ، تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، تحقيق ودراسة: إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ-1996م، رقم 411، 607/1].

(2) الطبري، جامع البيان، 478/6.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز، 19/2.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 230/9.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 475/6-479؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 229/9-230؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 19/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 166/2.

عليه سبب النزول، و لأن هذا الوصف إنما هو معتبر -كما دلت الآية- في المورث الذي هو الميت لا في الوارث الذي لا يختلف حاله -بالنسبة للميراث- بكونه ذا ولد أو والد أم لا، وهذا ما رجحه الطبري والرازي.[1]

- واختلفت الآثار في المكان الذي نزلت فيه هذه الآية؛[2] فدلت رواية جابر التي أخرجها الشيخان وغيرهما -والتي مرت قريبا في سبب نزولها- أنها نزلت في المدينة، وروى البزار عن حذيفة رضي الله عنه ، قال: نزلت آية الكلالة على النبي ﷺ في مسير له، فوقف النبي ﷺ، فإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤتزر النبي ﷺ، فلقاها إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر رضي الله عنه فلقاها إياه، فلما كان في خلافة عمر رضي الله عنه، نظر عمر في الكلالة، فدعا حذيفة، فسأله عنها، فقال حذيفة: لقد لقانيها رسول الله ﷺ، فلقيتك كما لقاني، والله إني لصادق، والله لا أزيدك على ذلك شيئا أبدا. [3] والراجح والله أعلم أنها نزلت في المدينة، لأن أثر جابر متفق على صحته، خلافا لأثر حذيفة فهو خارج الصحيحين، ثم هو حسن فقط ومعلوم أن الصحيح مقدم على الحسن إذا لم يمكن الجمع.

- وفي الآية تقرير لعقيدة وجود الله تعالى وإثبات لصفاته العلا التي منها السمع والبصر والعلم والقدرة، وتقرير لنبوة نبينا محمد ﷺ؛ لأن سؤال الصحابة للنبي ﷺ وإجابة الله لهم عن طريق رسوله ﷺ يثبت ذلك ويؤكده؛ وفي الآية أيضا مشروعية سؤال من لا يعلم من له علم بالمسؤول عنه.[4]

- والآية نص في ميراث أخت الميت الذي لم يترك ولدا، سواء كانت شقيقة أو لأب؛ فهي تحوز نصف تركته كاملا دون بقية عصبته، بشرط أن لا يكون له ولد ولد وإن نزل، وما بقي فهو للعصبة.

- وظاهر الآية يوهم أن الأخت تأخذ شطر تركة أخيها المتوفى بمجرد عدم تركه ولدا بعده وليس الأمر كذلك، بل لا بد من شرط آخر وهو أن لا يترك والدا؛ لأن الإجماع منعقد بأنها لا ترث مع الوالد.[5]

- ومع شمول لفظ الأخت -الوارد في الآية- لغة للأخت لأم إلا أنها غير مرادة شرعا؛ لأن الله جل شأنه بين حكمها وحكم الأخ لأم في أول السورة بإجماع العلماء.[6]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 480/6-482؛ الزمخشري، الكشاف، 189/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 230/9؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 19/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 352/2.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 717/7.

(3) رواه أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار ت 292 هـ، في البحر الزخار المعروف بمسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط 1، 1415هـ-1995م، رقم 2965، 367/7؛ وهو حسن. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 521/1-522].

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 585/1.

(5) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 123/11.

(6) انظر: المصدر السابق نفسه.

– وقوله تعالى ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ دليل على أن الأخ الشقيق أو لأب يأخذ جميع ما تركت أخته التي لم تخلف ولدا ولا والدا بشرط عدم وجود صاحب فرض كالزوج ولا عاصب مثله، وإلا أخذ ما زاد عن نصيب ذي الفرض وشارك العاصب إن كان في رتبته، أما الأخ لأم فلا يستغرق جميع الميراث.

– وقوله تعالى ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ بيان للنصيب المقدر شرعا لأخوات الميت كلالة من تركته وهو ثلثاها، سواء كن اثنتين أو أكثر، وسواء كان المتوفى ذكرا أو أنثى، بشرط أن يكن إناثا فقط.(1)

– ودل قوله سبحانه ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ نص في سقوط إرث أخوات المتوفى كلالة بالفرض إذا وجد معهن أخ أو أكثر من الذكور، وانتقالهن إلى الإرث بالتعصيب، وذلك بقسمة التركة على مجموع الإخوة، على أن يعطى للذكر ضعف نصيب الأنثى.(2)

– وختمت الآية بذكر الحكمة من بيان كيفية قسمة المواريث وأحكام الكلالة وهي دفع الجور في توزيع الحقوق على أصحابها من الورثة وتفادي الخطإ في تحديد المستحقين، والتذكير بشمول علم الله لكل شيء وإحاطته بجميع مصالح عباده، والتي منها تفصيل أحكام الميراث، فلا يشرع سبحانه إلا لحكمة بالغة، ولا يقول إلا حقا.(3)

– وهي آخر آية نزلت فيما يرى البراء بن عازب رضي الله عنه؛ ففي الصحيحين عنه أنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.(4)

– ودل على الأهمية الخاصة لحكم الكلالة من بين سائر أحكام الميراث تهمم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بها، وكثرة مراجعته للنبي ﷺ في شأنها. روى مسلم في صحيحه عن معدان بن أبي طلحة :(5) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب يوم جمعة، فذكر نبي الله ﷺ. وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة ، ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة ، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه ، حتى طعن بإصبعه في صدري ، وقال: (يا عمر، ألا

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 585/1.

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 196.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 725/7-726.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾[النساء:176]، رقم: ، 4605، ص 833؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب آخر آية أنزلت آية الكلالة، رقم 1618، ص 659.

(5) هو معدان بن أبي طلحة –ويقال: ابن طلحة– اليعمري الكناني. تابعي جليل محدث ثقة. من أهل الشام، وسكن البصرة. روى عن عمر بن الخطاب وثوبان وأبي الدرداء وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عنه سالم بن أبي الجعد وحفص بن عمر الأنصاري والوليد بن هشام العيطي وغيرهم. [انظر على سبيل المثال: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، رقم 7550، 337/56؛ يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 6082، 256/28].

تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء ؟). وإني إن أعش أقض فيها بقضية ، يقضي بها من يقرأ القرآن ، ومن لا يقرأ القرآن.[1]

* وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(4)﴾[المائدة].

– أي: يسألك المؤمنون –أيه ا النبي– ما الذي أحل الله لهم أكله من الأطعمة، فأجبهم قائلا : أحل لكم كل ما كان طيب كالذبائح المذكاة شرعا، وأحل لكم أيضا صيد كواسب السباع والطير التي دربتموها على الاصطياد، معتمدين في تعليمها على ما علمكم الله؛ فكلوا مما صادت لكم، واذكروا اسم الله حين إطلاقها على الفريسة، واتقوا الله بلزوم شرعه، وهو فعل ما أمركم به والكف عما نهاكم عنه، لأنه سبحانه يحاسب عباده على أعمالهم، وهو سريع المحاسبة لهم.[2]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا لنبيه ﷺ بأن يفتي من سألوه من أصحابه عما يحل لهم من المآكل بأنها ما طاب من الأطعمة المباحة النافعة وما اصطادوه من الحيوان بجوارحهم المعلمة.

– وسبب نزولها فيما رواه الطبري عن أبي رافع رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يستأذن عليه، فأذن له، فقال : (قد أذنا لك يا رسول الله) ، قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتا فيه كلب. قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فأمرني، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله، فأنزل الله: ﴿يَسْئَلُونَكَ ماذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِين ﴾.[3] وروى الطبري عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه أنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ يسأله عن صيد الكلاب، فلم يدر ما يقول له حتى نزلت هذه الآية: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.[4] وقيل غير هذا، ولكن لم يصح منه شيء.

– والسائلون هم المؤمنون أصحاب رسول الله ﷺ. قال الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك يا محمد أصحابك ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل). ويؤيده سياق الآية كما هو ظاهر.[5]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة، رقم 1617، ص 659.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 8/99-129؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 145.

(3) الطبري، جامع البيان، 8/100-101، وهو ضعيف. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/21].

(4) رواه الطبري في جامع البيان، 8/108، عن سعيد بن جبير، وهو ضعيف. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/23].

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 8/99.

- والطيبات لغة جمع الطيبة، وهي لغة اسم مؤنث من طاب يطيب طابا وطيبا وطيبة -بكسر الطاء- وتطيابا إذا لذ وزكا.[1] وأما معناها عند المفسرين في هذا الموضع فقال كثير منهم هي الحلال الذي أذن الله في أكله. ومن هؤلاء مقاتل ومالك والطبري والزمخشري والقرطبي والسمرقندي والماوردي وغيرهم. وقال آخرون -كالسيوطي وأبي السعود والألوسي- هي المستلذات المستطابة التي لا تنفر منها النفوس السوية والطباع السليمة. بينما تردد البعض -كالنسفي والبيضاوي- بين هذين الرأيين. قال البيضاوي: (ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه ... أو ما لم يدل نص ولا قياس على حرمته).[2] وجمع البعض الآخر بينهما. ومن هؤلاء الشافعي والشوكاني. وقيل: هي الذبائح المباحة. وفي تقديري أن الراجح هو القول الثاني الذي قال به السيوطي ومن وافقه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[الأعراف:157]، فجعل الطيبات في مقابل الخبائث لا في مقابل المحرمات؛ ولأننا لو قلنا بالرأي الأول لكان المعنى أحل لكم الحلال، وهو مع بعده عن بلاغة القرآن لم يجب عن السؤال المطروح. وهذا ما رجحه الرازي وأبو حيان. قال الرازي: (فلا يمكن أن يكون المراد بالطيبات ههنا المحللات، وإلا لصار تقدير الآية: قل أحل لكم المحللات، ومعلوم أن هذا ركيك، فوجب حمل الطيبات على المستلذ المشتهى، فصار التقدير: أحل لكم كل ما يستلذ ويشتهى)،[3] والله أعلم.[4]

- وفي اقتران حكم التحليل للأطعمة بوصفها بالطيبات دليل على أن الطيب -بكسر الطاء- هو علة التحليل، وفي ذلك إفادة أيضا بأن الخبائث محرمة، وأن خبثها هو علة تحريمها، كما ذكر سبحانه في وصف النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف:157].[5]

- والجوارح في اللغة جمع جارحة، وهي اسم مؤنث مشتق من الجرح -بفتح الجيم- وهو العمل والكسب. تقول: جرح فلان إثما: أي كسبه، واجترحه أي اكتسبه، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾[الجاثية: 21] أي اكتسبوها. وجوارح الإنسان: أعضاؤه التي تكسب له، والجوارح من السباع والطير هي التي تصيد. والجرح -بضم الجيم- الاسم من جرح بمعنى كلم، وجمعه جروح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ

---

(1) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 110.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل، 115/2.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 144/11-145.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 99/8؛ الزمخشري، الكشاف، 197/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 299/7؛ السمرقندي، بحر العلوم، 417/1؛ الماوردي، النكت والعيون، 14/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 144/11-145؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 156/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 444/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 23/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 107؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 11/2؛ الألوسي، روح المعاني، 62/6؛ النسفي، مدارك التنزيل، 427/1؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 115/2؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 19/4؛ البقاعي، نظم الدرر، 21/6؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 354.

(5) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 111/6.

وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:45].[1] ووافق المفسرون أهل اللغة واتفقوا فيما بينهم على أن الجوارح في هذا الموضع هي الحيوانات التي يصاد بها؛ وإنما اختلفوا في نوعها، فحصرها البعض في الكلاب خاصة، مراعاة للفظة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ الواردة في الآية، واستشهدوا بما نقلوه من قول ابن عمر رضي الله عنه: (إنما يصطاد بالكلاب)،[2] وحكموا بناء على هذا بأن ما صيد بغيرها لا يحل أكله إلا أن يدرك حيا فيذكى، ومن هؤلاء الضحاك والسدي وابن جبير وعطاء وغيرهم، ووسعها الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة لتشمل كواسر البهائم والطير عامة مما يقبل التعليم كالفهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق وسواها مما يمكن تدريبه على الاصطياد بناء على عموم قوله تعالى في الآية: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾، وتأولوا معنى ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بمؤدبين ومضرين ومعودين، واستدلوا بما رواه الطبري عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: (ما أمسك عليك فكل)؛[3] كما اختلفوا في تسمية الجوارح بهذا الاسم، فردها بعض إلى الجرح الذي بمعنى الكسب وقالوا: لأنها تجرح لأهلها، أي تكسب لهم طعامهم من الصيد، وردها آخرون إلى الجرح الذي بمعنى الكلم وقالوا: لأنها تجرح في الغالب الفريسة التي تصيدها، وبنوا على ذلك حكما شرعيا وهو أن ما أمسك من الصيد فلم يسل منه دم لم يحل.

والراجح في نوع الجوارح -والله أعلم- هو قول الجمهور؛ لأن الآية عامة في الجوارح التي يمكن تعليمها ولم يرد ما يخصصها بالكلاب، وللقياس (وهو أن كل ما يتأتى من الكلب يتأتى من الفهد مثلا، فلا فارق إلا فيما لا مدخل له في التأثير؛ وهذا هو القياس في معنى الأصل، كقياس السيف على المدية والأمة على العبد، وقد تقدم)،[4] ويؤكد ذلك ما صح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِين﴾ يعني ب(الجوارح) الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها.[5] أما حديث عدي فهو منكر، ولذلك لا يمكن الاستدلال به، وهذا ما رجحه الطبري رحمه الله. قال: (وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال: كل ما صاد من الطير والسباع فمن الجوارح، وإن صيد جميع ذلك حلال إذا صاد بعد التعلم، لأن الله جل ثناؤه عم بقوله: ﴿وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ كل جارحة، ولم يخصص منها شيئا، فكل جارحة كانت بالصفة التي وصف الله من كل طائر وسبع فحلال أكل صيدها)،[6] أما اشتراط سيلان الدم من الفريسة عند إمساك الجارحة لها بناء

---

(1) انظر: ابن فارس، مجمل اللغة، ص 186؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 215.

(2) أبو حيان، البحر المحيط، 444/3.

(3) أخرجه الطبري في جامع البيان، 106/8؛ والترمذي في سننه، كتاب الصيد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صيد البزاة، رقم 1467، ص 348؛ وهو حديث منكر كما قال الألباني في تخريجه لسنن الترمذي في الموضع المشار إليه آنفا.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 301/7-302.

(5) أخرجه الطبري في جامع البيان، 104/8، بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه. [انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 156/2].

(6) الطبري، جامع البيان، 106/8.

على أن الجوارح مشتقة الاسم من الجرح الذي بمعنى الكلم فهو مرجوح؛ لأن النبي ﷺ جعل ذكاته أخذه وليس جرحه. روى مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد المعراض فقال: (ما أصاب بحده فكله، وما أصاب بعرضه فهو وقيذ)، وسألته عن صيد الكلب فقال: ما أمسك عليك ولم يأكل منه فكله، فإن ذكاته أخذه، فإن وجدت عنده كلبا آخر، فخشيت أن يكون أخذه معه، وقد قتله، فلا تأكل، إنما ذكرت اسم الله على كلبك، ولم تذكره على غيره)، [1] وفي الحديث اشتراط عدم أكل الجارح من الفريسة لحلها، فتحصل من مجموعه مع الآية ثلاثة شروط لحل الصيد بالحيوان وهي أن يكون معلما، وأن يسمى الله عند إرساله، وأن لا يأكل من الفريسة. والله أعلم.[2]

- والتكليب في اللغة تعليم الكلاب الصيد وتضريتها عليه، (واشتقاقه من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرته من جنسه ... أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة. يقال هو كلب بكذا، إذا كان ضاريا به).[3] والكاف واللام والباء أصل واحد صحيح يدل على تعلق الشيء بالشيء في شدة وشدة جذب. ويكون التكليب للفهد ولسائر الجوارح. والمكلب -بكسر اللام وتشديدها- معلم كلاب الصيد.[4]

ولم يخالف المفسرون اللغويين في معنى التكليب، وإنما اختلفوا في مسائل تتعلق بلفظة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ منها:

الأولى: هل المراد بهم أصحاب الكلاب، أم المضرين لها على الصيد؟ قال الرماني: وكلا القولين محتمل. الثانية: هل هذه اللفظة حال من الفاعل وهو أصحاب الكلاب أو المضرون لها، أي في حال تكليبكم هذه الجوارح، أم هي حال من المفعول وهو الجوارح، أي في حال كونهن مكلبات للصيد؟ قال ابن كثير: (يحتمل أن يكون حالا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالا من المفعول).[5] الثالثة: هل تقرأ هذه الكلمة بكسر اللام وتشديدها؟ أم بنصبها وتشديدها؟ أم بسكون الكاف وكسر اللام مع تخفيفها؟ قرأ بكسر اللام وتشديدها الجمهور، والمراد بها على هذه القراءة أصحاب الكلاب، وقرأ بنصبها وتشديدها البعض كما حكاه السمرقندي، والمقصود بها في هذه القراءة الكلاب المعلمة، وقرأ بسكون الكاف وكسر اللام مع تخفيفها ابن عباس وابن مسعود والحسن وأبو رزين وغيرهم، وهي حال من الفاعل أيضا، ومعناها أصحاب كلاب، أو من كثرت كلابهم؛ لأن

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد والتسمية على الصيد، باب قول الله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة:3]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[المائدة: 94]، رقم 5475، ص 1026؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الصيد بالكلاب المعلمة، رقم 1929، ص 799.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 106/8؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 147/11-148؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 292/2-294؛ النسفي، مدارك التنزيل، 428/1؛ الخازن، لباب التأويل، 12/2-13؛ أبو حيان، البحر المحيط، 445/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 25/3.

(3) الزمخشري، الكشاف، 197/2.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 95/13-96؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 133/5؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 284.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 24/3.

مفردها مكلب مثل ممش وهو من كثرت ماشيته. الرابعة: في حال اعتبار ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من الفاعل، هل معناها حينئذ أصحاب كلاب؟ أم من كثرت كلابهم؟ أم معلموها الصيد؟ أم مرسلوها على الطرائد؟ بكل من هذه المعاني قد قال بعض من المفسرين؛ لأن اللغة تحتملها جميعا، ولكن الراجح -في تقديري- هو القول الأخير؛ لأن السياق يرجحه، ذلك بأن مرسل الجارحة -وهو الصائد- هو من يأكل الطريدة غالبا أو من يطعمه إياها أو منها، والآية إنما تتحدث عن حل أكل ما أمسكت الجوارح -بعد حديثها عن حل الطيبات- وليس عن حل امتلاكها أو تعليمها أو الاستكثار من أعدادها، ولذلك قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾. والله أعلم.[1]

- وفي الآية دليل على حلية الصيد، وأنه إن كان بالجارح فلا يجوز إلا أن يكون معلما كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ و﴿مُكَلِّبِينَ﴾، كما تضمنت التنبيه إلى أن ذلك التعليم والتدريب الذي يلقنه الإنسان للحيوان حتى يتأتى منه تحصيل الصيد جزء مما علمه الله للبشر، وهو نعمة تستدعي شكره جل جلاله. [2] قال الثعالبي: (وأعلى مراتب التعليم أن يشلى الحيوان فينشلي، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد ظفره بالصيد فينزجر).[3]

- ودلت الآية أيضا على مسائل عديدة: منها رحمة الله بعباده ولطفه بهم، إذ وسع لهم أبواب الحلال ونوع لهم ألوان الرزق، ومن ذلك أنه أباح لهم ما تصيده لهم الكلاب وأضرابها من الجوارح. ومنها جواز اقتناء كلب الصيد وبيعه وشرائه؛ لأن ذلك من لوازم تعليمه وإباحة صيده، ولأنه قد لا يحصل له إلا بابتياعه، مع أن الأصل هو تحريم بيع الكلب، لما رواه الشيخان عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن. [4] ومنها طهارة ما لامسه فم الكلب من الصيد؛ لأن الآية أباحته ولم تشترط له غسلا. ومنها فضل العلم وأنه يرفع حتى الكلاب، فيباح صيد المتعلم منها دون الجاهل.[5]

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 197/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 147/11؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 300/7-301؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 23/3-24؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 115/2؛ السمرقندي، بحر العلوم، 417/1؛ البغوي، معالم التنزيل، 16/3؛ عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1422هـ-2002م، 229/2.

(2) انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 226/1؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 595/1.

(3) الثعالبي، الجواهر الحسان، 345/2.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، رقم 2237، ص 398؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب، وحلوان الكاهن، ومهر البغي، والنهي عن بيع السنور، رقم 1567، ص 640.

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 200.

– وختمت الآية بأمره سبحانه وتعالى لعباده بتقوى الله، وذلك بتنفيذ أوامره والكف عن نواهيه، وتذكيرهم بسرعة محاسبته لهم فيما دق وجل من أعمالهم وأقوالهم ونياتهم. وفي إظهار اسم الجلالة والعظمة في موضع الإضمار ترسيخ لمهابته عز وجل في نفوس المؤمنين وتعليل للأحكام التي خاطبهم بها في هذه الآية وفي سواها من كلامه جل وعلا.(1)

وخلاصة هذا المطلب:

– أن جميع الأوامر الربانية الواردة إلى النبي ﷺ بصدد موضوعه كانت في مجال الفتاوى الفقهية، وتحديدا في أحكام الأطعمة والصيد والمواريث وضوابط التعامل مع اليتامى في أموالهم والزواج منهم.

– وأن مضامينها كانت إجابات على استفتاءات **مطروحة من قبل المؤمنين** أصحاب النبي ﷺ ليس فيها شيء من غيرهم من الطوائف الأخرى.

– وأن الدافع الذي دفع المؤمنين إلى طرح أسئلتها هو **معرفة أحكام الإسلام** في القضايا المطروحة **بهدف العمل بها والوقوف عند حدودها**، ولذلك عملوا بمقتضاها وتصرفوا في شؤونهم على ضوئها.

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عن أزمنة أو عادات أو أحوال مخصوصة.

شاعت بين الناس في الجاهلية عادات اجتماعية سيئة وأحكام دينية مبتدعة وأعراف عسكرية حائفة رسخها الجهل والهوى؛ وظلت كذلك إلى أن جاء الإسلام فأنار قلوب الداخلين فيه، وشرع نبيه ﷺ يطهر المجتمع الجديد من سيء القول والعمل والاعتقاد، تماما كما وصف جعفر بن أبي طالب –رضي الله عنه– حين قال للنجاشي: (كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنا م، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله –عز وجل– إلينا نبيا ورسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله –عز وجل– لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام والحج من استطاع إليه سبيلا ...).(2) وصار الصحابة الذين رباهم النبي ﷺ على الحذر من

(1) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 13/2.

(2) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، كما في رواية ابن هشام عنه في السيرة النبوية، 255/1، من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ وأحمد في مسنده، رقم 1740، ص 159، من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ورقم 22865، ص 1649، من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ وحسنه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

تجاوز حدود الله كلما رابتهم معاملة من المعاملات أو شكوا في تصرف من التصرفات لجؤوا إليه ﷺ يستفتونه في حكمه الشرعي. وكان ﷺ يجيبهم بما يعلم ويرجئ جواب ما لم يعلم حتى يوحى إليه في شأنه. ومن هذا القسم الأخير طائفة من الإجابات وردت في هيأة أوامر إليه مقرونة بأسئلتها. فما الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ بهذا الصدد؟ وما المجال الغالب على تلكم الأسئلة؟ وهل شارك المسلمين فيها غيرهم؟ وما الدافع إليها؟ للإجابة على هذه الأسئلة نستعرض النصوص القرآنية المتضمنة لتلكم الأوامر المشار إليها مرتبة على وفق ما في المصحف ثم نتناولها بالشرح والتحليل مستعينين -بعد الله- بآراء المفسرين.

* قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(189)﴾[البقرة].

– أي: يسألك السائلون عن الأهلة؛ لماذا تبدو رفيعة مثل الخيوط الدقيقة، ثم تكبر يوما بعد آخر حتى تستتم بدورا كاملة ، ثم تأخذ في النقصان شيئا فشيئا حتى ترجع أهلة كما كانت في أول أمرها ، ولا تلزم هيئة ثابتة ؟ فقل لهم: إن لتكرر الأهلة كرة بعد كرة مع انضباط مواعيد ظهورها واكتمالها، وتدرج زيادتها ونقصانها حكما بالغة وفوائد ظاهرة دينية ودنيوية ؛ منها كونها أمارات لضبط أوقات المعاملات المختلفة بين الناس والمتعلقة بمعايشهم ومنافعهم، ومنها تحديد أوان الحج الذي هو أحد أركان الدين، ولو لزم الهلال حالة واحدة لم يمكن معرفة تواقيت الأنشطة الدنيوية المتنوعة، ولا العبادات الشرعية كالحج والصيام والفطر والنحر وغيرها. وليس من البر أن تتركوا أبواب البيوت لتدخلوها من أنقاب تحدثونها في ظهورها، أو تتسوروها -تسنما أو باستعمال سلم- للتميز بذلك عن سائر الناس، ولكن البر الحقيقي هو تقوى الله سبحانه -بفعل أوامره واجتناب نواهيه- ومن ذلك أن تأتوا البيوت من أبوابها كما يفعل سائر الناس، فتوقوا غضب الله وعقابه بفعل مراضيه واجتناب مساخطه ، فإن في ذلك رجاء فوزكم بالجنة ونجاتكم من النار.[1]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يجيب من سألوه عن الحكمة في اختلاف أحوال الهلال وتبدله زيادة أو نقصانا (بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقتة يعرف بها أوقاتها. وخصوصا الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء).[2]

– وفي سبب نزولها أخرج ابن أبي حاتم بإسناده من حديث أبي العالية قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم.[3] وأخرج الطبري بإسناده عن قتادة قوله: سألوا نبي الله ﷺ عن ذلك: لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 1/393-395؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3/231-234؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 43.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل، 1/127.

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، رقم 1708، 1/322.

تسمعون: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه.[1] وقد نقل الزمخشري رواية أخرى تحدد أسماء السائلين وتورد سؤالهم بلفظ أطول ومعنى مختلف، لكن من غير إسناد. قال –رحمه الله–: (وروي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بد أ لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت).[2] فأما روايتا ابن أبي حاتم والطبري فلا اختلاف بينهما وإن تنوع لفظا راوييهما، إضافة إلى جودة إسناد الأول وحسن إسناد الثاني؛[3] وأما رواية الزمخشري فهي ضعيفة لأنها معلقة، ومعلوم أن المعلق من أقسام الضعيف.

– والمواقيت جمع الميقات بمعنى الوقت، مثل المواعيد جمع الميعاد الذي هو بمعنى الوعد، أي: هي علامات للناس على حلول مواعيد ديونهم وبذرهم وحصادهم وتجاراتهم وإجاراتهم وأكريتهم وصومهم وفطرهم وعدد نسائهم ومدد حملهن وأيام حيضهن وإرضاعهن وأيمانهم ومناسك حجهم وغير ذلك من مصالح دينهم ودنياهم التي تحتاج إلى ضبط مددها أو بداياتها،[4] (فكل هذا مما لا يسهل ضبط أوقاتها إلا عند وقوع الاختلاف في شكل القمر زيادة ونقصا. ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة).[5]

– وفي القرآن الكريم تصريح بأن حساب أعداد الشهور والسنين وما يتعلق بها من تيسير المصالح والمنافع للبشر هي الحكمة – أو بعض الحكمة– من خلق القمر وجعله على هذه الهيئة المتغيرة زيادة ونقصانا. قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(5)﴾[يونس]، وقال أيضا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا(12)﴾[الإسراء]

– وفي الآية بيان للمعنى الحقيقي للبر وهو تقوى الله سبحانه وتعالى، الذي هو (امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما، وتصديق خبرهما).[6] ونفي لأن يكون إتيان البيوت من ظهورها من مصاديق البر كما كان يتوهمه البعض في الجاهلية وعند بداية ظهور الإسلام. وفي ذكر سبب نزول هذا المقطع من الآية بيان لمن كان يفعل ذلك وكيفيته. روى البخاري في صحيحه عن

---

(1) الطبري، جامع البيان، 280/3.

(2) الزمخشري، الكشاف، 393/1.

(3) انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 298/1.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 393/1-394؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 130/5، 132؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 230/3-231؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 123.

(5) القاسمي، محاسن التأويل، 469/2.

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 899.

البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، وفي لفظ له أيضا: (نزلت هذه الآية فينا؛ كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت: ...).[1] وقد أوضحت روايات أخرى أن دخول المحرم أو العائد من حج أو عمرة يكون من كوة يحدثونها في ظهر البيت أو جنبه، أو بتسور الجدار أو الاستعانة بسلم؛ هذا إن كان البيت من مدر؛ أما إن كان من وبر فيخرج أو يدخل صاحبه من خلفه أيضا لا من الباب، كما ذكرت أن ذلك كان صنيع أهل الحجاز عموما، لا صنيع الأنصار وحدهم، وأن الأمر لا يقتصر على المحرم أو العائد من النسك، بل يفعله أيضا من هم بشيء فخاب مسعاه.[2]

– وفي موضع آخر من القرآن الكريم، –بل من سورة البقرة نفسها– تفصيل لمعنى البر. قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(177)﴾ [البقرة]. فكأنما أجمل معنى البر في الآية محل الحديث اكتفاء بتفصيله الذي مر قبل ذلك بإحدى عشرة آية لا أكثر.

– وظاهر الآية انقطاع الصلة بين موضوع صدر الآية وهو الحكمة من خلق الهلال وتغير أحواله، وبين موضوع عجزها وهو نفي كون إتيان البيوت من ظهورها من البر. وقد حاول المفسرون توجيه المعنى على نحو يصل الموضوعين ببعضهما فتعدد توجيههم؛ منهم على سبيل المثال الزمخشري، الذي واءم بينهما بكلام معقول، لولا أن اختلاف سبب النزول مع اختلاف الموضوع يجعل الأمر عسير الهضم في تقديري، ولعل ذلك ما جعله يورد احتمالين آخرين أقربهما إلى الاستساغة –في ظني– هو أوسطهما. قال رحمه الله: (فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم –عند سؤالهم عن الأهلة، وعن الحكمة في نقصانها وتمامها– معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا. ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج . ويحتمل أن يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[البقرة:189]، رقم 1803، ص 327؛ وكتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(189)﴾[البقرة]، رقم 4512، ص 813؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في حديث الهجرة، رقم 3026، ص 1211، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(2) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 283/3–288؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 134/5؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 236/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 261/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 338/1.

يترك باب البيت ويدخله من ظهره).[1] وكذلك فعل الرازي وأبو السعود، كلاهما أورد ثلاثة أوجه لوصل الموضوعين، بل المتأمل يشعر كأن المتأخر منهما نقل عن السابق مع تغيير يسير في الصياغة.[2] رحم الله الجميع.

- وفي الآية أمر بإتيان البيوت من أبوابها إذ ليس في تفاديها فائدة دنيوية ولا أجر أخروي، سواء كان الإنسان محرما أو حلالا، كما تضمنت إشارة إلى التماس الأمور من طرقها الميسرة المعقولة. قال السعدي: (وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع. ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلا، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرا من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود).[3]

- واختتمت الآية بالأمر بالتقوى الذي هو السلاح الأقوى، وهو رأس كل خير يحصله المرء في دينه، وسبب كل فلاح ونجاح في الآخرة، وهو وصية الله للمؤمنين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102)﴾[آل عمران]، ووصية رسول الله ﷺ لأصحابه حين سألوه الوصية. قال العرباض بن سارية رضي الله عنه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي ...).[4]

- ودلت الآية على حرمة الابتداع في الدين ولو كان ذلك بقصد الاستكثار من الطاعة والرغبة في تحصيل الأجر.[5] قال القرطبي: (في هذه الآية بيان أن ما لم يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرب به متقرب).[6] وخير من هذا قوله ﷺ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد).[1]

---

(1) الزمخشري، الكشاف، 394/1-395.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 135/5-136؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 319/1-320.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 73.

(4) أخرجه أحمد في المسند، رقم 17272، ص 1216؛ وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم 4607، ص 691؛ والترمذي في سننه، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم 2676، ص 603؛ وابن ماجة في سننه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم 42، ص 20؛ والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، من الرقم 329 إلى الرقم 333 على التوالي، 126/1-128، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 2549، 499/1.

(5) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 171/1.

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 236/3-237.

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم 2697، ص 492؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم، 1718، ص 714، عن عائشة رضي الله عنها.

* وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(217)﴾[البقرة].

– أي: يسألك السائلون عن حكم القتال في الشهر الحرام، فقل لهم: القتال في الشهر الحرام وزر كبير، بيد أن الصد عن دين الله تعالى، والكفر به سبحانه، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكة وهم من أهل الحرم ، أعظم في حكم الله من القتال في الشهر المحرم؛ وكذلك تعذيب المسلمين لردهم إلى الكفر –وهو ما تفعله قريش– أكبر إثما من القتل في الشهر الحرام . واعلموا – أيها المسلمون – أن نية هؤلاء المشركين أن يستمروا في مقاتلتكم دون هوادة إلى أن يصرفوكم عن الإسلام إلى الكفر، فمن يلن منكم تحت ضغطهم إيذائهم ويرجع إلى الشرك فيظل عليه حتى يموت مشركا فقد بطلت أعماله الصالحة التي عملها في فترة إسلامه وخسر ثوابها في الآخرة، وأولئك المرتدون هم أهل النار الخالدون في عذابها.[1]

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى نبيه ﷺ بأن يبين لمن سألوه عن حكم القتال في الشهر الحرام أنه حرام عظيم الوزر، ولكن الصد عن دين الله ومسجده الحرام والكفر به تعالى وإخراج المسلمين من مكة بسبب إسلامهم وتعذيبهم لردهم عن دينهم أعظم حرمة وأشد إثما من القتال في الشهر الحرام.

– وسبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فجلس. فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتابا وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، فقال: (لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك). فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعا وطاعة لله ولرسوله. فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه. ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى؟ فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.[2] وفي رواية: (بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحدا ... ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها منهم عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان،

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 49-50؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 199/198/1.

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان، 655/3-656؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن الكريم، رقم 2022، 384/1؛ والبيهقي في السنن الكبرى، رقم 17745، و17746، 20/9-21؛ وصححه السيوطي في الدر المنثور، 535/2.

والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وقد كان حلق رأسه فلما رأوه أمنوا وقالوا: عمار فلا بأس علينا منهم . وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ... فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة).[1]

- واختلف المفسرون فيمن سألوا رسول الله ﷺ، هل هم المسلمون أم المشركون؟ فقيل: هم المشركون، سألوه ليعيروه بذلك، وليستحلوا قتاله فيه إذا أجابهم بحله ويفتكوا به وبأصحابه . وهو قول الأكثرين؛ وقيل هم المسلمون، سألوه ﷺ هل أخطؤوا أم أصابوا فيما كان من واقد بن عبد الله -أحد أفراد سرية عبد الله بن جحش- الذي قتل عمرو بن الحضرمي والذي مر تفصيل خبره قريبا في سبب نزول الآية. والراجح هو القول الثاني؛ لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها خطاب للمسلمين لا للكفار. ولذلك قال الرازي: (فالأظهر أن هذا السؤال إنما صدر عن المسلمين)،[2] والله أعلم.[3]

- والصحابة رضي الله عنهم ممدوحون بقلة سؤالهم للنبي ﷺ. روى الضياء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن ، منه ن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ ، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم).[4] ولا شك أن هذا الأدب إنما اكتسبوه من توجيه القرآن الكريم لهم. قال تعالى موجها لهم الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(101)قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ(102)﴾[المائدة]. قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في بيان سبب نزولها: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 3/650-652؛ وابن هشام في السيرة النبرية، 2/188-190؛ والواحدي في أسباب النزول، ص 69-71.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 6/32.

(3) انظر:المصدر السابق، ص 31-32؛ الماوردي، النكت والعيون، 1/274؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 1/237؛ النسفي، مدارك التنزيل، 1/180؛الخازن، لباب التأويل، 1/146.

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم 12288، 11/454؛ والدارمي في سننه، رقم 127، ص 244-245؛ وأبو عمر يوسف بن عبد البر ت 463هـ، في جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ-1994م، رقم 2053، ص 1062؛ والبزار في مسنده، رقم 5065، 11/274-275.

ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها.[1]

وذكر علي سببا آخر لنزولها يؤكد أن السؤال تعنتا مشمول بالنهي المنصوص عليه في هذه الآية أيضا. قال -رضي الله عنه- فيما رواه عنه الترمذي: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران:77]، قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟ فسكت، فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، ثم قالوا: أفي كل عام؟ قال: (لا، ولو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم)، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾[المائدة:101] الآية. فكانوا رضي الله عنهم مع لزومهم هذا الأدب الجم من عدم الإكثار من سؤال النبي ﷺ يستفيدون من أسئلة القادمين إلى المدينة ممن لا علم لهم بنزول هذه الآية، خصوصا أهل النباهة والذكاء. قال أنس رضي الله عنه : (نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله، ونحن نسمع).[2]

- ودلت الآية على حرمة المسجد الحرام والأشهر الحرم -وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب- ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[التوبة:36].[3]

- وفي دلالة الآية على تحريم القتال في الأشهر الحرم خلاف بين العلماء؛ فذهب الجمهور إلى تحريمه استدلالا بها، واستدلوا أيضا بما رواه أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: (لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى، أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ).[4] ثم اختلفوا في نسخها، فنفاه البعض حتى حلف عطاء بالله أنه لا يجوز الغزو في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا من بابة الدفع، وأن الآية ما نسخت؛ وقال البعض الآخر -كالزهري[5]- نسخت. فقيل: نسخها قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(36)﴾[التوبة]. وقيل: نسخت بغزوه ﷺ لثقيف وإغزائه أبا عامر وادي أوطاس، وكلاهما كان في الشهر الحرام. قال أبو عبيد: (والناس اليوم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، رقم 4622، ص 836.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، رقم 12، ص 38.

(3) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 140؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 199/1.

(4) أخرجه الطبري في جامع البيان، 648/3-649؛ وأحمد في المسند رقم 14637، ص 1000، ورقم 14770، ص 1008؛ وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ت 321هـ، في شرح مشكل الآثار، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م، 4879، 384/12؛ وصحح إسناده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، 330/1.

(5) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري. تابعي جليل إمام علامة فقيه مفسر محدث حافظ أخباري نسابة ثقة. ولد سنة 50هـ، وهو مدني نزل الشام. روى عن عبد الله بن عمر والسائب بن يزيد ورأى أنس بن مالك وسهل بن سعد وعبد الرحمن بن أزهر وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم، وحدث عنه الإمام مالك والليث والأوزاعي وغيرهم من أئمة الإسلام. توفي سنة 124هـ. [انظر على سبيل المثال: يوسف المزي، تهذيب الكمال، رقم 5606، 419/26؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 95، ص 49].

بالثغور جميعا على هذا القول يرون الغزو مباحا في الشهور كلها حلالها وحرامها لا فرق بين ذلك عندهم، ثم لم أر أحدا من علماء الشام ولا العراق ينكره عليهم، وكذلك أحسب قول أهل الحجاز . والحجة في إباحته عند علماء الثغور قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾[التوبة: 5] ... فهذه الآية هي الناسخة عندهم لتحريم القتال في الشهر الحرام).[1] بينما ذهب البعض –كسعيد بن المسيب– إلى جواز القتال في هذه الأشهر، ورأوا أن الآية لا دلالة فيها على تحريمه. قال الرازي: (والذي عندي أن قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ هذا نكرة في سياق الإثبات فيتناول فردا واحدا، ولا يتناول كل الأفراد، فهذه الآية لا دلالة فيها على تحريم القتال مطلقا في الشهر الحرام، فلا حاجة إلى تقدير النسخ فيه)،[2] وفي تقديري أن الآية منسوخة، لثبوت عمل النبي ﷺ بمضمونها مدة –كما نص عليه حديث جابر الآنف الذكر– ثم تركه ﷺ العمل به كما دلت مبايعته للصحابة رضي الله عنهم على القتال في بيعة الرضوان التي كانت في ذي القعدة وهو أحد الأشهر الحرم، ولكن ليس بالآية الخامسة من سورة التوبة كما قال أبو عبيد؛ لأنها تشترط في أولها قتالهم بانسلاخ الأشهر الحرم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5)﴾، وإنما بالآية السادسة والثلاثين منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(36)﴾[التوبة]. قال الطبري: (والصواب من القول في ذلك ما قاله عطاء بن ميسرة، من أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرم منسوخ بقول الله جل ثناؤه : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[التوبة:36]).[3] والله أعلم.[4]

– وفي قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ توبيخ للمشركين الذين لم يراعوا حرمة الحرم ولا صلة الرحم ولا غيرهما في ظلمهم للمسلمين وتنكيلهم بهم وإخراجهم من أرضهم لصرفهم عن دينهم، (بعد أن بكتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم الدال على أن ما وقع من أهل السرية من قتل رجل فيه

---

(1) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ت 224هـ، الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد، الرياض، د ر ط ولا ت ط، ص 208.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 33/6.

(3) الطبري، جامع البيان، 663/3-664.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 662-664؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 33/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 422/3-423؛ الماوردي، النكت والعيون، 274/1-275.

كان عن خطأ في الشهر أو ظن سقوط الحرمة بالنسبة لقتال العدو، فإن المشركين استعظموا فعلا واستنكروه وهم يأتون ما هو أفظع منه). [1]

- وكشفت الآية عن نفسية المشركين وسوء نيتهم تجاه المسلمين قبل الهجرة وبعدها، وأن التفكير في صرفهم عن دينهم بالوسائل المختلفة -بما فيها القتال والتعذيب- لا يكاد يفارق أذهانهم، وإن أظهروا خلافه في فترات مختلفة من تاريخهم عجزا عن تحقيقه أو مكرا واستغفالا لهم، كما دلت على استبعاد استطاعتهم لذلك، خصوصا إذا كان المسلمون أهل عقيدة راسخة وتمسك قوي بدينهم وصبر على ما يصيبهم في سبيله.[2]

- وفي الآية أيضا تحذير شديد من الارتداد عن الإسلام إلى الكفر ولو تحت الإكراه والضغط؛ لأن عذاب الدنيا مهما بلغ من الشدة فهو لا يساوي شيئا أمام عذاب الآخرة الذي ينتظر المرتد إن مات على الكفر؛ وفيها أيضا ترغيب لمن ارتد بالرجوع إلى الإسلام وأن لا يموت إلا وهو مسلم لألا يحبط عمله ويخلد في النار مع أهلها.[3]

- وفي تنصيص الآية على حبوط أعمال المرتد في الدنيا والآخرة دليل على أن إسلامه لا تترتب عليه آثار أخروية فقط يخسرها بارتداده، وهي نجاته من العذاب الدائم وفوزه بالنعيم المقيم، وكفى بها خسارة؛ بل تنشأ عليه آثار دنيوية أيضا كثيرة يفقدها جميعا بمجرد ردته. (فالآثار التي في الدنيا هي ما يترتب على الإسلام من خصائص المسلمين ، وأولها آثار كلمة الشهادة من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليه بعد الموت والدفن في مقابر المسلمين. وآثار العبادات وفضائل المسلمين بالهجرة والأخوة التي بين المهاجرين والأنصار وولاء الإسلام وآثار الحقوق مثل حق المسلمين في بيت المال والعطاء وحقوق التوارث والتزويج فالولايات والعدالة وما ضمنه الله للمسلمين مثل قوله : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:97]).[4]

* وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:219].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 328/2.

(2) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، 180/1-181؛ الخازن، لباب التأويل، 147/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 158/2-159؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 331/2؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 199/1.

(3) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 339/1.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 332/2.

– أي: يسألك المستفتون –أيها النبي– عن حكم شرب الخمر ولعب القمار، فأجبهم بأن في معاقرتهما ضررا بالغا يصيب جوانب مختلفة من حياة متعاطيهما ، وفيهما –إلى جانب ذلك– بعض المنافع كالنشوة والربح من غير كد؛ ولكن مفاسدهما تربو عن فوائدهما.[1]

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى النبي ﷺ بأن يجيب من استفتوه عن الخمر والميسر أنهما مصدر للضرر والنفع مع غلبة ضررهما.

– وفي سبب نزول هذه الآية ورد ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم من حديث أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال: لما أنزل تحريم الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾[البقرة: 219]، فدعي عمر، فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[النساء:43]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(91)﴾ [المائدة]، قال عمر انتهينا انتهينا.[2] وهذا السبب وإن صح الإسناد به إلى عمر رضي الله عنه إلا أن الغموض يلف أوله، لأنه يذكر نزول تحريم الخمر قبل نزول الآيات الثلاثة المتعلقة بتحديد مراحل تحريمها، وفيه إشكال آخر وهو: كيف يسأل عمر ربه بيانا شافيا في الخمر بعد أن حرمها؟ وأي بيان أشفى من التنصيص على حكمها الشرعي بالحرمة؟ إلا أن يكون المقصود بنزول تحريمها آية النحل، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(67)﴾ [النحل] –لأنها مكية وآيات البقرة والنساء والمائدة مدنيات– وهو بعيد جدا، لأن مضمونها هو الامتنان كما هو ظاهر وليس التحريم، ولاتفاق (أهل الأثر على أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام).[3] والظاهر أن الصواب هو ما في روايتي الترمذي والحاكم، فإن لفظ الترمذي: (عن عمر بن الخطاب أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء ...)؛ ولفظ الحاكم: (قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 433/3–446؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 137/1–138؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 35؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 50.

(2) رواه أحمد في المسند، رقم 378، ص 55؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم 3670، ص 555–556؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المائدة، رقم 3049، ص 683؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، رقم 7224، 174/4؛ وصححه الترمذي والحاكم والألباني في صحيح سنن الترمذي في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 339/2.

تَقُولُونَ﴾[النساء:43] ...). وفي هذا منقبة جليلة من مناقب عمر رضي الله عنه، لأنه دليل على حرصه على معرفة أحكام الأشياء بشكل لا لبس فيه، وعلى ارتيابه في شأن الخمر حتى قبل تحريمها، وهي آية على حصافة عقله وسلامة فطرته، وعلى كونه مستجاب الدعاء.

- وفي سبب النزول -وإن اختلفت ألفاظ رواياته- دليل ظاهر على تدرج التشريع في تحريم الخمر لعلمه سبحانه بشدة تعلق المجتمع العربي بها وصعوبة تركها مرة واحدة، وهو أحد البراهين التي لا تكاد تحصى على رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم.

-وفيما تعلق بسبب نزول النص على السؤال عن الميسر وجوابه فقد نقل القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما -من غير إسناد- أنه قال: (كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية).[1] وهذا السبب مع إعضاله من جهة الإسناد فهو من حيث متنه لا يصح أن يكون سببا للنزول؛ لأن سبب النزول إنما يكون واقعة وقعت في زمن نزول الوحي فينزل القرآن عقبها لبيانها، أو سؤالا طرح في حياته ﷺ فينزل جوابه، كما هو معلوم في كتب علوم القرآن. أما ما وقع قبل عصر النبوة من الحوادث فلا يعد سببا للنزول وإن اشترك مع بعض الآيات في الموضوع. [2] وقال الواحدي: (نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية).[3] وهذا أرجح من الأول من جهة متنه وإن استويا في ضعف إسنادهما لكونهما معضلين جميعا.

- وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت قبل آيتي النساء والمائدة المشار إليهما في سبب النزول، وتواترت الآثار بأن ذلك كان قبل تحريم الخمر. قال ابن كثير: (قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة، فحرمت الخمر).[4] فهي تمهد لتحريمها، وتهيؤ النفوس في المجتمع المدني -والعربي عموما- للكف عنها، لأنهم ألفوها وأحبوها وتعلقوا بها حتى صارت (قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم).[5]

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 435/3.

(2) انظر على سبيل المثال: صلاح الدين أرقه دان، مختصر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 2، 1407هـ-1987م، ص 82.

(3) الواحدي، أسباب النزول، ص 71.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 380/1.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 339/2.

- والخمر في اللغة التغطية والستر والمخالطة، ومن ذلك الخمار؛ لأنه يغطي رأس المرأة. قال ابن فارس: (الخاء والميم والراء أصل واحد يدل على التغطية والمخالطة في ستر. فالخمر: الشراب المعروف). [1] وأما في الاصطلاح فهي: (كل شراب مغط للعقل سواء كان عصيرا أو نقيعا، مطبوخا كان أو نيئا فهو خمر. وكل شيء غطيته فقد خمرته. وكل ما يستر شيئا فهو خماره). [2]

وخير من هذا تعريف النبي ﷺ لها بقوله: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة). [3] فقد حدها بما يزيل عن معناها كل لبس، ونص على حكمها بكل وضوح، وبين إحدى عواقب شربها في الآخرة. ونبه -في موضع آخر- أنه لا فرق في تحريمها بين الكثير والقليل وإن لم يسكر، فقال ﷺ: (ما أسكر كثيره فقليله حرام). [4]

- والميسر في اللغة هو قمار العرب، وهو لعبهم بالأزلام التي هي القداح، أو هو النرد، أو كل قمار. وهو مشتق إما من الفعل يسر بمعنى جزر، ولذلك يقال للجازر الياسر وللجزور المستهم عليه ميسرا، أومن اليسار الذي هو الغنى؛ لأنه يكون سببا في سلب يسار الموسر إذا خسر، أو من اليسر الذي هو السهولة؛ لأن المياسر ينال المال بيسر من غير كد ولا تعب. [5] أما في الاصطلاح فتنوعت تعريفات العلماء له؛ فعرفه ابن عمر وابن عباس -رضي الله عنهما- بقولهما: (الميسر هو القمار). [6] وهو أقصر ما رأينا له من التعريفات، فجعلاه مرادفا للقمار. وقال الكفوي في شأنه: (كل شيء فيه خطر فهو من الميسر)، [7] أي: كل نوع من المغالبة يتردد فيه كلا الطرفين بين أن يكون غالبا أو مغلوبا فهو داخل في معنى الميسر كما يدل عليه معنى

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 215/2.

(2) الكفوي، الكليات، ص 414.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90)﴾[المائدة]، رقم 5575، ص 1043؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت والدباء والحنتم والنقير وبيان أنه منسوخ، وأنه اليوم حلال ما لم يصر مسكرا، رقم 2003، ص 531، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(4) رواه أحمد في مسنده، رقم 6558، ص 470؛ والنسائي في سننه، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، رقم 5607، ص 842؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأشربة، باب (ما أسكر كثيره فقليله حرام)، رقم 3394 ، ص 569؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 5530، 970/2.

(5) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 362؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص500؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 155/6-156.

(6) الطبري، جامع البيان، 674/3-675؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 390/1؛ كلاهما بإسناد حسن. [انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 330/1.

(7) الكفوي، الكليات، ص 803.

الخطر.[1] وعرفه القرضاوي بأنه (هو كل ما لا يخلوا اللاعب فيه من ربح أو خسارة).[2] وهو -في تقديري- أدق من التعريفين السابقين؛ لأنه جامع ومانع وواضح. وكيفيته -على ما وصف الزمخشري-: (كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام، والفذ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلى ، والمنيح، والسفيح، والوغد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤونها عشرة أجزاء -وقيل ثمانية وعشرين - إلا لثلاثة، وهي المنيح والسفيح والوغد ... للفذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها في الربابة وهي خريطة، ويضعونها على يدي عدل، ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها. فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المرسوم به ذلك القدح. ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها. ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم).[3] ومع الخلاف الواقع بين اللغويين -كما أشرنا في المعنى اللغوي للميسر- في اقتصار إطلاقه على القمار بالقداح، أو تعديه إلى النرد وسواه من الأنواع، إلا أن الفقهاء مجمعون على تحريم جميع أنواع المقامرة. [4] قال محمد رشيد رضا: (لا خلاف بين الفقهاء في أن كل قمار محرم، إلا ما أباح الشرع من الرهان في السباق والرماية، ترغيبا فيهما للاستعداد للجهاد، وليس منها سباق الخيل المعروف في عصرنا، فإنه من شر القمار الذي ترجع جميع أنواعه إلى كونها من أكل أموال الناس بالباطل).[5]

- والذين سألوا عن الخمر والميسر هم المؤمنون[6] كما يدل عليه سبب النزول الذي نقله الواحدي. قال الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك أصحابك يا محمد عن الخمر وشربها).[7]

- ولم تحدد الآية محل السؤال من الخمر والميسر، ولكن السياق يدل على أنه كان عن حكمهما الشرعي.[8]

- واختلف المفسرون في ماهية الإثم المنصوص عليه في الآية. فقال بعض: ليس معناه ذنب شرب الخمر والمياسرة، فهما غير مصرح بحرمتهما في هذا الموضع، وإنما المقصود ما يقع فيه شارب الخمر من الآثام بسببها، من ذهاب عقله حتى تعزب عنه

---

(1) انظر: المصدر السابق، ص 435.

(2) يوسف القرضاوي، الحلال والحرام، ص 295.

(3) الزمخشري، الكشاف، 428/1.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 434/3.

(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 290/2.

(6) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 669/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 433/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 141.

(7) الطبري، جامع البيان، 669/3.

(8) انظر: المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 35.

معرفة ربه، وما يصدر عنه من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وإيذائه للناس، ووثوب بعض الشاربين على بعض، وقتال بعضهم لبعض، وإثم الميسر ما يقع فيه المياسر من الظلم ومنع الحق. وقال آخرون: المعنى أن إثمهما بعد تحريمهما أعظم من نفعهما قبل التحريم. وقيل: معناه وعقوبة الإثم في تعاطيهما. والراجح –والله أعلم– أنه ما بينه الله سبحانه في آية المائدة، وهو إيقاع العداوة والبغضاء بين المتعاطين للخمر والميسر والصد عن ذكر الله وعن الصلاة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(91)﴾[المائدة].[1]

– ولا خلاف أن نفع الخمر والميسر كله دنيوي. وهو –بالنسبة للخمر– أثمانها ونشوتها ولذتها وهو أصح ما ذكر. وقيل أيضا في منافعها: إنها تهضم الطعام، وتقوي الهدن، وتخرج الفضلات، وتعين على الباه، وتشحذ الأذهان، وتسخي البخيل، وتسلي المحزون، وتشجع الجبان، وتنعش الحرارة، وتصفي اللون ، وترفع الهمة. وأما منافع الميسر فهي –فيما ذكروا– تحصيل المال من غير جهد ولا كد لإنفاقه على النفس والعيال أو توزيعه على الفقراء والجياع وخاصة في أيام الجدب والمسغبة فيكسب به المدح والثناء، وما يرافق لعبه من التسلية؛ ولكن هذه النافع كلها –حتى لو صحت وبعضها لا يصح يقينا– لا تعادل مضرتهما الراجحة لتعلقها بالعقل والدين.[2]

– وفي سبب نزول آية النساء التي تضمنت النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر نموذج للمرتبة التي يمكن أن ينحدر إليها شارب الخمر في شأن دينه. روى الترمذي في سننه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: ﴿قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ﴾. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[النساء:43].[3]

– ومن نماذج المستوى الذي يمكن أن يصل إليه المخمور في معاملته لمن حوله مهما كانت مراتبهم الدينية والدنيوية، والفساد الذي يمكن أن يحدثه فيما حوله، ما وقع لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. روى الشيخان في صحيحيهما عن علي رضي الله عنهما قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ واعدت رجلا صواغا في بني قينقاع أن يرتحل معي ، فنأتي بإذخر ،

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 675/3-676؛ الزمخشري، الكشاف، 429/1؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 49/6-50؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 439/3، 441؛ الشنقيطي، أضواء البيان، 168/1.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 50/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 441/3-442؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 379/1.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة النساء)، رقم 3026، ص 676-677؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم 566، 187/2، وقال محققه: إسناده صحيح؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي في الموضع المشار إليه آنفا.

فأودت أن أبيعه من الصواغين، فنستعين به في وليمة عرسي ، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفي قد اجبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما ، فلم أملك عيني حين رأيت المنظر ، قلت: من فعل هذا ؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار ،عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها: (ألا يا حمز للشرف النواء)، فوثب حمزة إلى السيف، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي ﷺ، وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي ﷺ الذي لقيت ، فقال: (ما لك ؟). قلت: يا رسول الله ، ما رأيت كاليوم ، عدا حمزة على ناقتي ، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب، فدعا النبي ﷺ بردائه فارتدى، ثم انطلق يمشي ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له ، فطفق النبي ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل، محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى النبي ﷺ ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته ، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف النبي ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا معه.[1]

– وآية المائدة آخر الآيات نزولا في شأن الخمر والميسر –كما دل عليه حديث عمر رضي الله عنه الذي ذكرناه في سبب نزول آية البقرة– وأصرحها حكما فيهما. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(91)﴾[المائدة].

– وسبب نزولها ما رواه مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال ... وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا تعال نطعمك ونسقك خمرا –وذلك قبل أن تحرم الخمر – قال فأتيتهم في حش –والحش البستان – فإذا رأس جزور مشوي عندهم ، وزق من خمر ، قال : فأكلت وشربت معهم ، قال : فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرح بأنفي ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأنزل الله عز وجل في –يعني نفسه – شأن الخمر ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[المائدة:90].[2]

– فحسمت هذه الآية موقف المسلمين من الخمر والميسر وأنهت نقاشهم حولهما، وأكدت تحريمهما بألوان من المؤكدات تجعل المسلم أشد الناس نفورا من هاتين الآفتين الخبيثتين. قال الزمخشري: (أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب، رقم 4003، ص 725-726؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر والبسر والزبيب، وغيرها مما يسكر، رقم 1979، ص 821-822.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رقم 2412، ص 982-983.

تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام (شارب الخمر كعابد الوثن)،[1] ومنها أنه جعلهما رجسا، كما قال تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج :30]، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب ، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحا، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمار، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى عنه، كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟).[2]

- وفي سنة النبي ﷺ تحذير شديد وتنفير حديد من آفة الخمر. فمن ذلك نفيه كمال الإيمان عن شاربها حال شربها. قال ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن).[3] ولعنه له ولجميع من يشارك في إيصالها إليه بدءا بعاصرها. قال ﷺ: (لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشترى له).[4] وتعليله لتحريمها بأنها مفتاح كل شر. قال ﷺ: (اجتنبوا الخمر، فإنها مفتاح كل شر). [1]

---

(1) أخرجه البزار في مسنده -البحر الزخار- رقم 2382، 367/6، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ وأحمد في مسنده، رقم 2453، ص 210، بلفظ: (مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن)، عن ابن عباس رضي الله عنه؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأشربة، باب مدمن الخمر، رقم 3375، ص 567، بلفظ: (مدمن الخمر كعابد وثن)، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الأشربة، فصل في الأشربة، رقم 5347، 167/12، بلفظ: (من لقي الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن)، عن ابن عباس رضي الله عنه؛ والطبراني في الأوسط، رقم 4810، 107/5، بلفظ: (المقيم على الخمر كعابد وثن)، عن أنس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3701، 690/1.

(2) الزمخشري، الكشاف، 288/2-290.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، رقم 2475، ص 448، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

(4) رواه الترمذي في سننه، كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، باب النهي أن يتخذ الخمر خلا، رقم 1295، ص 307؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأشربة، باب لعنت الخمر على عشرة أوجه، رقم 3381، ص 568؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ للترمذي؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، رقم 3674، ص 556؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، 404/7-405، رقم 5195، عن ابن عمر رضي الله عنه؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، رقم 7229، 176/4، عن ابن عباس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 5091، 907/2.

وبيانه أنها تحول دون قبول صلاة صاحبها أربعين ليلة، وأنه إن مات في تلك المدة مات ميتة جاهلية. روى الطبراني عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه: أن أبا بكر وعمر وناسا جلسوا بعد وفاة النبي ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم فيها علم [ينتهون إليه]، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو أسأله [عن ذلك]، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر. فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، ووثبوا إليه جميعا حتى أتوه في داره، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قال: (إن ملكا من ملوك بني إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن يشرب الخمر، أو يقتل نفسا، أو يزني، أو يأكل لحم الخنزير، أو يقتلوه [إن أبى]. فاختار الخمر، وإنه لما شرب الخمر لم يمتنع من شيء أرادوه منه). وأن رسول الله ﷺ قال لنا [حينئذ]: (ما من أحد يشربها فتقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت وفي مثناه منه شيء إلا حرمت بها عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة؛ مات ميتة جاهلية). (2) كما أوضح ﷺ أن الملائكة لا تقربه. قال: (ثلاثة لا تقربهم الملائكة: الجنب، والسكران، والمتضمخ بالخلوق). (3) وأن من عاد إلى شربها بعد المرة الرابعة كان حقا على الله عز وجل أن يسقيه طينة الخبال أعاذنا الله وسائر المسلمين. روى ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من شرب الخمر فسكر؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشرب فسكر؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحا،فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشرب فسكر؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحا،فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة؛ كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة). قالوا: يا رسول الله ! وما طينة الخبال؟ قال: (عصارة أهل النار). (4) وأمر بجلده في المرات الثلاث الأول عقوبة دنيوية له على فعله، فإن لم يرتدع وعاد إلى شربها مرة أخرى فقد

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، رقم 7231، 177/4؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 5199، 408/7؛ عن ابن عباس رضي الله عنه؛ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم 2368، 601/2.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم 363، 116/1-117، واللفظ له؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، رقم 7236، 179/4؛ وابن المنذر في تفسيره، رقم 1662، 668/2؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 2695، 439/6.

(3) رواه البخاري في التاريخ الكبير، باب العين، رقم 195، 74/5، عن بريدة رضي الله عنه؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 12017، 361/11، من حديث ابن عباس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3060، 587/1.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأشؤبة، باب فصل في الأشربة، رقم 5357، 180/12؛ وأحمد في مسنده، رقم 6773، ص 486؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأشربة، باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة، رقم 3377، ص567؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، رقم 7232، 177/4؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب، رقم 2384، 607/2.

استوجب القتل حدا. [1] قال ﷺ: (إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاجلدوه، فإن عاد في الرابعة فاقتلوه).[2] هذا -على ما فيه من الرهبة- بالنسبة لمن شربها مرة أو مرات، أما المداوم عليها فبين النبي ﷺ من عقوبته ما يخلع القلب من الصدر رعبا لمن يؤمن بلقاء الله والدار الآخرة. قال ﷺ واصفا حاله يوم لقائه لربه جل جلاله: (مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن).[3] ونفى دخوله الجنة قارنا إياه في سلك واحد مع مصدق الساحر -في علمه الغيب أو قلبه حقائق الأشياء- وقاطع الرحم. قال ﷺ: (لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا مؤمن بسحر، ولا قاطع رحم).[4]

- وشدد النبي ﷺ التحذير من الميسر وصوره في صورة منفرة تجعل النفس تفر من تعاطيه وترهب الاقتراب منه. قال ﷺ: (من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه). [5] وأمر من دعا غيره للمقامرة بالتكفير عن قوله ذلك. قال ﷺ: (من حلف منكم، فقال في حلفه: باللات، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق).[6]

- ولو أخذت البشرية بفتوى نبينا ﷺ بتحريم الخمر والتي هي حكم الله في كتابه، وتحذيره ﷺ منها، فكفت مصانعها عن عصرها وتحضيرها، ومنعت متاجرها من بيعها وتوزيعها، وأرشدت بنيها إلى رفضها ولفظها لزال قسم هائل من مشاكلها

---

(1) اختلف العلماء في نسخ حكم قتل شارب الخمر في المرة الرابعة؛ فذهب أكثرهم إلى نسخه، واختلفوا في ناسخه، ورأى البعض أنه محكم، وهو الراجح في تقديري؛ لأنه لم ينهض دليل صحيح صريح على نسخه، والله أعلم. [انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 219/34؛ الألباني، صحيح الترغيب والترغيب، 606/2].

(2) رواه أحمد في مسنده، رقم 7003، ص 503؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الشرب، رقم 4447، 297/10، عن معاوية رضي الله عنه؛ وأبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم 4482، ص 670؛ والترمذي في سننه، كتاب الحدود عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه ومن عاد في الرابعة فاقتلوه، رقم 1444، ص 342؛ والنسائي في سننه، كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر، رقم 5661، ص 849؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارا، رقم 2572، ص 438؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب، رقم 2382، 605/2-606.

(3) رواه أحمد في مسنده، رقم 2453، ص 210؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فصل في الأشربة، رقم 5347، 167/12؛ والبزار في مسنده -البحر الزخار- رقم 5085، 289/11؛ عن ابن عباس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب،، رقم 2364، 600./2.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فصل في الأشربة، رقم 5346، 165/12-166، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب، رقم 2362، 599/2.

(5) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير، رقم 2260، ص 928، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(6) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، رقم 1647، ص 676، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمراضها وأسباب تعاستها، ولأقفرت كثير جدا من السجون والمصحات العقلية والنفسية ومراكز علاج الإدمان من نزلائها.
قال أحد الأطباء الألمان: (أقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيمارستانات والملاجئ – التكايا– والسجون).[1]

– وجميع ما قلناه عن الخمر أم الخبائث منطبق حذو النعل بالنعل على جميع أنواع المخدرات؛ بل هي شر من الخمر وأفتك بالعقول والنفوس والأبدان والأديان والأخلاق والأموال والمجتمعات والأوطان من الخمر بما لا يمكن تصور حجمه. قال ابن تيمية: (والله –تعالى– لا يفرق بين المتماثلين، بل التسمية بين هذا وهذا من العدل والقياس الجلي، فتبين أن كل مسكر خمر حرام، والحشيشة المسكرة حرام، ومن استحل السكر منها فقد كفر، بل هي في أصح قولي العلماء نجسة كالخمر، فالخمر كالبول والحشيشة كالعذرة).[2]

* وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(222)﴾[البقرة].

– أي: ويسألك المؤمنون –أيها النبي– عن معاشرة الزوجات وقت الحيض، فأجبهم بأن المحيض يسبب الأذى فاجتنبوا مجامعتهن مدته، ولا تأتوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض، فإذا تنظفن فأتوهن في المأتى الطبيعي، ومن حصل منه مخالفة لما بيناه فليتب، فإن الله يحب مكثري التوبة والمحافظين على الطهارة من عباده.[3]

– فتضمنت الآية أمرا من الله عز وجل إلى نبيه ﷺ أن يجيب من استفتاه من أصحابه رضي الله عنهم عن حكم معاشرة النساء في فترة الحيض بأن الواجب اجتناب قربهن في تلك المدة إلى أن يطهرن ويتطهرن وحينئذ يحل لهم إتيانهن في حدود ما أباحه الله لهم.

– وسبب نزولها هو ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[البقرة:222] إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح). فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا. فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا

---

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 291/2.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 204/34.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 720/3-742؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 67/6، 73، 74؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 51.

فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما ، فسقاهما، فعرفا أنه لم يجد عليهما .[1] وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن مقاتل بن حيان، قال: أنزلت في ثابت بن الدحداح.[2] وهو ضعيف،[3] فالراجح الأول لصحة إسناده.

– والسائلون هم المؤمنون أصحاب النبي ﷺ كما جاء التصريح به في سبب النزول، ويؤيد ذلك صيغة جمع الغائب التي وردت بها الآية.

– والمحيض لغة من حاضت المرأة تحيض إذا سال دمها، ومنه الحوض لأن الماء يحيض إليه، أي يسيل؛ والمحيض: اسم ومصدر، فالاسم للمكان، أي موضع الحيض وهو المأتى، كالمسيل من سال يسيل؛ والمصدر بمعنى الحيض، أي سيل الدم واجتماعه إلى ذلك المكان، كالمجيء من جاء يجيء.[4] ولم يختلف معناه عند المفسرين عما هو عند اللغويين. قال السمين الحلبي:[5] (والظاهر أن المحيض في هذه الآية يراد به المصدر، وإليه ذهب الزمخشري وابن عطية ... وقيل: المحيض في الآية المراد به اسم موضع الدم وعلى هذا فهو مقيس اتفاقا).[6]

– ورغم انحصار آراء المفسرين في معنى المحيض في رأيين إلا أنهم اختلفوا في الأرجح منهما. فالشوكاني يرجح رأي الأكثرية كالطبري والزمخشري وابن عطية وغيرهم من القائلين بأن المحيض معناه في هذه الآية الحيض، ولذلك يورده قولا له في تفسير الآية، بينما يورد القول الآخر بصيغة التمريض. قال: (قوله ﴿الْمَحِيضِ﴾ هو الحيض، وهو مصدر ... وقيل المحيض عبارة عن الزمان، والمكان، وهو مجاز فيهما).[7] في حين يعكس الرازي هذا الموقف، ويطيل في ترجيح القول بأنه اسم المكان. قال رحمه الله: (فاعلم أن أكثر المفسرين من الأدباء زعموا أن المراد بالمحيض ههنا الحيض، وعندي أنه ليس كذلك، إذ لو كان المراد بالمحيض ههنا الحيض لكان قوله: ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ معناه: فاعتزلوا النساء في الحيض، ويكون المراد فاعتزلوا النساء في زمان الحيض، فيكون ظاهره مانعا من الاستمتاع بها فيما فوق السرة ودون الركبة ، ولما كان هذا المنع غير ثابت لزم

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، رقم 302، ص 142.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 2110، 400/2.

(3) انظر: سليم الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 171/1.

(4) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 641؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 89؛ ابن منظور، لسان العرب، 288/4-289.

(5) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدايم المعروف بالسمين الحلبي. لغوي نحوي أديب مفسر عالم بالقراءات. من أهل مدينة حلب الشامية، استقر به المقام في القاهرة وفيها ذاع صيته. من شيوخه أبو حيان ويونس الدبوسي وعلي بن الصائغ. من كتبه القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. توفي سنة 756هـ في القاهرة. [انظر على سبيل المثال: السيوطي، بغية الوعاة، رقم 797، 402/3؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 307/8].

(6) السمين الحلبي، الدر المصون، 420/2.

(7) الشوكاني، فتح القدير، ص 145.

القول بتطرق النسخ أو التخصيص إلى الآية، ومعلوم أن ذلك خلاف الأصل ، أما إذا حملنا المحيض على موضع الحيض كان معنى الآية: فاعتزلوا النساء في موضع الحيض، ويكون المعنى: فاعتزلوا موضع الحيض من النساء، وعلى هذا التقدير لا يتطرق إلى الآية نسخ ولا تخصيص ...).[1] بينما اكتفى ابن الجوزي بإيراد القولين كليهما دون ترجيح لأحدهما، مشيرا إلى أن لكل طرف دليله فيما ذهب إليه. قال رحمه الله: (وفي المحيض قولان ؛ أحدهما: أنه اسم للحيض ... والثاني: أنه اسم لموضع الحيض ... فأما أرباب القول الأول، فأكدوه بأن في اللفظ ما يدل على قولهم، وهو أنه وصفه بالأذى، وذلك صفة لتفسير الحيض، لا لمكانه. وأما أرباب القول الثاني فقالوا: لا يمتنع أن يكون المحيض صفة للموضع، ثم وصفه بما قاربه وجاوره، كالعقيقة فإنها اسم لشعر الصبي، وسميت بها الشاة التي تذبح عند حلق رأسه مجازا).[2] وفي تقديري أن الراجح هو التفصيل؛ لأن لفظة المحيض وردت في الآية مرتين، فإذا فسرنا الأولى بالحيض كما رجح الشوكاني والثانية بمكانه كما رجح الرازي اتسق المعنى، واتفقت الآراء، وزال المحذور الذي حمل الرازي على موقفه وهو لزوم القول بتطرق النسخ أو التخصيص إلى الآية ، وهذا ما ذهب إليه اسماعيل حقي في تفسيره. قال رحمه الله: (والسؤال فيه نوع إبهام إلا أنه تبين بالجواب أن سؤالهم كان عن مخالطة النساء في حالة الحيض . ﴿قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أي: الحيض ش يء مستقذر مؤذ من يقربه نفرة منه وكراهة له ... ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ المحيض هنا اسم لمكان ظهور الحيض وهو الفرج).[3]

– والأذى هو ما يتأذى به الإنسان عموما مما فيه مكروه للنفس، ووصف الحيض في هذا الموضع به لقذره ونجاسته ونتن ريحه وتسببه في المرض للواطئ والموطوءة، فهي كلمة واحدة تختصر صنوفا شتى من المكاره، فما أدق اللفظ القرآني وأعظم بلاغته.[4]

– وفي السنة الفعلية ما يؤكد على أن اعتزال النساء المأمور به في هذه الآية هو اجتناب إتيانهن مدة الحيض، وأما ما عداه فجائز. روى الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضا، فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها، ثم يباشرها، قالت: وأيكم يملك إربه، كما كان النبي ﷺ يملك إربه.[5] ولهذا كان جواب عائشة رضي الله عنها لمسروق بن الأجدع لما سألها: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضا؟ (كل شيء إلا الجماع).[1]

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 6/67-68.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير، 1/248.

(3) اسماعيل حقي، روح البيان، 1/347.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 3/722-723؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 2/365-366.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، رقم 302، ص 71؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب مباشرة الرجل الحائض فوق الإزار، رقم 293، ص 140.

(1) رواه الطبري في جامع البيان، 3/725 بإسناد جسن. [انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 1/335].

- وفي حديث النبي ﷺ تحديد لكفارة من يقترف إثم جماع الحائض. ففي مسند أحمد وسنن الدارمي وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أمر رسول الله ﷺ الذي يأتي امرأته وهي حائض أن يتصدق بدينار أو نصف دينار).(1)

- وبينت السنة القولية أن الحائض تترك الصلاة والصيام فرضا ونفلا طيلة مدة حيضها. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ، فمر على النساء ، فقال: (يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار). فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن). قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان دينها).(2) كما بينت أنها تقضي الصوم دون الصلاة. روى الشيخان -واللفظ لمسلم- عن معاذة، قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل. قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.(3)

- واختلف المفسرون في معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بسبب اختلاف القراءة لكلمة ﴿يَطْهُرْنَ﴾، فمن قرأها بضم الهاء وتخفيفها توجه المعنى عنده هكذا: ولا تجامعوهن حال كونهن حيضا حتى ينقطع دم الحيض عنهن . ومن هؤلاء مجاهد وعكرمة وابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب الحضرمي وغيرهم. وأما من قرأها بتشديد الهاء وفتحها - مع تشديد الطاء بسبب إدغام التاء فيها لتقارب مخرجيهما- فصار المعنى عنده: ولا تجامعوا النساء حتى يتطهرن بالماء. ومن هؤلاء حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وغيرهم؛ بينما قرأ عبد الله بن مسعود بهما معا غير أنه فك الإدغام فقرأ (يتطهرن). ورجح الطبري قراءة تشديد الطاء محتجا بالإجماع الحاصل على حرمة قربان الرجل امرأته الحائض بعد انقطاع حيضها حتى تتطهر. وفي تقديري أنه لا حاجة إلى الترجيح؛ لأن قراءة التشديد لا إشكال معها، وأما على قراءة التخفيف فإ ن (الله سبحانه

---

(1) رواه أحمد في مسنده رقم 2121، ص 186؛ والدارمي في سننه، كتاب الطهارة، باب من قال عليه الكفارة، رقم 1147، ص 720؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحيض، باب ماروي في كفارة من أتى امرأته حائضا، رقم 1511، 469/1؛ والترمذي في سننه، كتاب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الكفارة في ذلك، رقم 136، ص 44؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب ما يجب على من أتى حليلته في حال حيضتها بعد علمه بنهي الله -عز وجل- عن وطئها، رقم 278، 181/1؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 12133، 402/11؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الطهارة، رقم 612، 228/1-229، وصححه؛ وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم 197، 217/1.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم 304، ص 71؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق، رقم 79، ص 60.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم 321، ص 74؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم 335، ص 152.

علق الحكم فيها على شرطين: أحدهما انقطاع الدم، وهو قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾، والثاني الاغتسال بالماء، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي يفعلن الغسل بالماء)،[1] أي على مجموعهما، فزال المحذور وارتفع الإشكال، وتساوى المعنيان، فانتفت الحاجة إلى الترجيح، والله أعلم.[2]

– واختلفوا أيضا في المقصود من التطهر الذي جعلته الآية غاية لانتهاء النهي عن قربان الحيض. فذهب الجمهور –ومنهم ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن ومالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأهل المدينة وغيرهم– إلى أن المراد هو الاغتسال؛ وذهب طاووس وعطاء ومجاهد في رواية ثانية عنه إلى أنه الوضوء الأصغر. بينما قال يحيى بن بكير [3] ومحمد بن كعب القرظي: إذا طهرت ولم تجد الماء تيممت وحل لزوجها قربانها. وقيل: معناه غسل موضع الحيض، أي الاستنجاء. وقيل غير هذا. [4] والراجح –والله أعلم– هو القول الأول لدلالة السنة عليه، وهو شامل للقولين الآخرين. روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض ، فقال: (تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها فتطهر ، فتحسن الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تصب عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها)، فقالت أسماء: وكيف تطهر بها؟ فقال: (سبحان الله تطهرين بها)، فقالت عائشة –كأنها تخفي ذلك–: تتبعين أثر الدم . وسألته عن غسل الجنابة فقال : (تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور ، أو تبلغ الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيض عليها الماء)، فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.[1] وهو ما رجحه الطبري والرازي.[2]

– ولم تحدد الآية الموضع الذي ورد الأمر فيها بالإتيان منه بعد تطهر الحائض، ولكن تمت الإشارة إليه في موضعين آخرين من القرآن الكريم يدل التأمل فيهما والجمع بينهما على أنه مكان الحيض، أي القبل. قال الشنقيطي: (لم يبين هنا هذا المكان

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 488/3.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 731/3-732؛ الزمخشري، الكشاف، 423/1-424؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 72/6-73؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 486/3.

(3) هو أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي المخزومي. إمام محدث فقيه مفسر حافظ ثقة. ولد سنة 155هـ. من شيوخه الإمام مالك والليث بن سعد وحماد بن زيد وغيرهم من أئمة الإسلام، ومن تلاميذه البخاري ويحيى بن معين ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم من الجهابذة. توفي سنة 231هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 1748، 260/9؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 406، ص 184].

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 732/3-734؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 73/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 487/3-489؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 385/1.

(1) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم، رقم 332، ص 150.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 734/3-735؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 73/6.

المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظه "حيث" ولكنه بين أن المراد به الإتيان في القبل في آيتين . إحداهما: هي قوله هنا ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾[البقرة:223]؛ لأن قوله ﴿فَأْتُواْ﴾ أمر بالإتيان بمعنى الجماع، وقوله ﴿حَرْثَكُمْ﴾ يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث، يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى ؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد، كما هو ضروري. الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[البقرة:187]؛ لأن المراد بما كتب الله لكم، الولد، على قول الجمهور ... ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل. فالقبل إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، بمعنى الجماع، فيكون معنى الآية: فالآن باشروهن، ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد، الذي هو القبل دون غيره، بدليل قوله : ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[البقرة:187] يعني الولد).[1] ويؤكد ذلك نهي النبي ﷺ عن إتيان النساء في أعجازهن في أحاديث كثيرة؛ منها قوله ﷺ: (إن الله تعالى لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن). [2] ولعنه لفاعل ذلك. قال ﷺ فيما رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: (ملعون من أتى امرأة في دبرها).[3]

– وذيلت الآية بالتنويه بصنفين من المؤمنين، هما التوابون والمتطهرون. فأما التوابون فهم الذين عادوا إلى الله وإلى طاعته من الإدبار عنه ومن معصيته، وقيل هم الذين لم يصيبوا الذنوب؛ وأما المتطهرون فاسم يشمل من يتطهرون من الجنابة والحدث والخبث والفواحش عموما، رجالا ونساء، كما يشمل المتطهرات من الحيض والنفاس، ولا شك أنه ينطبق –أول ما ينطبق– على الذين يتنزهون عن إتيان النساء في غير الموضع المأذون فيه شرعا المشار إليه في الآية، وعن إتيانهن في الموضع حال المحيض والنفاس.[1]

* وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(1)﴾[الأنفال].

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان، 169/1.

(2) أخرجه أحمد في المسند، رقم 655، ص 78، من حديث علي رضي الله عنه؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، تأويل قول الله جل ثناؤه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة: 223]، رقم 8933، و8934، و8935، و8936، و8937، 8938، و8940، و8941، و8942، 8/191-194؛ وابن ماجة في سننه، كتاب النكاح، باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، رقم 1924، ص 334؛ من حديث خزيمة بن ثابت رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم 1852، 378/1، والإرواء رقم 2005، 65/7.

(3) أخرجه أحمد في المسند، رقم 9731، ص 677، ورقم 10209، ص 703؛ وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم 2162، ص 327؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، في معرفة السنن والآثار، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، ط 1، 1411هـ-1991م، رقم 14069، 164/10؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم 5889، 1024/2.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 742/3-744؛ الزمخشري، الكشاف، 434/1.

– أي: يستفهمك المسلمون عن الغنائم: من يحكم فيها؟ وكيف يتم تقسيمها ؟ ومن يأخذها؟ فأجبهم – أيها الرسول– قائلا: هي لله ولرسولهﷺ ابتداء يضعانها حيث يشاءان ، وهو ﷺ من يتولى تقسيمها بأمر ربه وتوجيهه، فدعوا التنازع في أمرها فإن ذلك من تقوى الله عز وجل ، وصححوا ما بينكم من صلة الأخوة الإيمانية بالتآخي والتحابب ونبذ التقاطع والتخاصم ، واستجيبوا لأمر الله ورسوله عامة ومن ذلك ما يحكم به النبي ﷺ في شأن هذه الغنائم فإن طاعة الله ورسوله هي ميزة أهل الإيمان عن غيرهم من الناس.(1)

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يفتي من سأله من أصحابه عن الغنائم بأنها لله يحكم فيها رسوله ﷺ بما أمره ربه، وأن الواجب عليهم هو تقوى الله عز وجل وإصلاح علاقات بعضهم ببعض. قال الطبري: (إن الله تعالى أخبر في هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله ﷺ الأنفال أن يعطيهموها، فأخبرهم الله أنها لله وأنه جعلها لرسوله).(2)

– وسبب نزولها ما رواه أبو داود وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: (من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا) قال: فتقدم الفتيان ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة: كنا ردءا لكم، لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(5)﴾ يقول: فكان ذلك خيرا لهم، فكذلك أيضا، فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم. (3) وروى مسلم عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن أبيه، قال: نزلت في أربع آيات؛ أصبت سيفا فأتى به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، فقال: (ضعه). ثم قام، فقال له النبي ﷺ: (ضعه من حيث أخذته)، ثم قام فقال: نفلنيه يا رسول الله، فقال: (ضعه)، فقام، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: (ضعه من حيث أخذته). قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾.(1) وروى الطبري عن ابن عباس، قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

---

(1) انظر: االمصدر السابق، 2/550–552؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 292؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 241.

(2) الطبري، جامع البيان، 11/21.

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلح، باب ذكر السبب الذي من أجله أنزل الله جل وعلا: ﴿وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾، رقم 5093، 11/490؛ وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في النفل، رقم 2737، ص 417؛ والحاكم في المستدرك، كتاب قسم الفيء، رقم 2594، 2/167؛ والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما فعل رسول الله بالغنائم والأسارى وما أخبر عنه فكان كما قال وما في ذلك من آثار النبوة، 3/135؛ وفي السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب الوجه الثالث من النفل، رقم 12817، 6/514؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة الأنفال، رقم 11133، 10/104–105؛ والطبري في جامع البيان، 1/12–14، من حديث ابن عباس رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان، رقم 5071، 7/366.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال، رقم 1748، ص 725.

الأنْفالِ قُلِ الأنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: الأنفال: المغانم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء، ما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول. فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها، قال الله: ﴿يَسألونَكَ عَنِ الأنْفالِ قُلِ الأنْفَالُ﴾ لي جعلتها لرسولي ليس لكم فيها شيء ﴿فاتَّقُوا اللّهَ وأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وأطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ثم أنزل الله ﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وللرسُولِ﴾ ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولمن سمي في الآية.[1] وروى الواحدي في أسباب النزول عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: لما هزم العدو يوم بدر واتبعتهم طائفة يقتلونهم وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة على العسكر والنهب، فلما نفى الله العدو، ورجع الذين طلبوهم، قالوا: لنا النفل، نحن طلبنا العدو وبنا نفاهم الله وهزمهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: والله ما أنتم بأحق به منا؛ نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة فهو لنا، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم بأحق منا؛ نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسألونَكَ عَنِ الأنْفالِ﴾ فقسمه رسول الله ﷺ بالسوية.[2]

وروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر.[1] وفي تقديري أنه لا حاجة إلى الترجيح بين هذه الروايات؛ لأنها غير متعارضة من جهة فالجمع بينها ممكن، ومن جهة ثانية فإن أسانيدها جميعا من قسم الصحيح، اثنان منهما صحيحان والآخران حسنان كما نقلنا عن أهل الاختصاص في تخريجها، ومن جهة ثالثة فإنه غير ممتنع أن يكون للآية الواحدة سببان للنزول فأكثر. قال الزرقاني: (وأما الصورة الثالثة: وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معا، لتقارب

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 11/19-20؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 8766، 5/1653؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب وجوب الخمس في الغنيمة والفيء، رقم 12718، 6/479-480؛ وهو أثر حسن. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/189].

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 232؛ والطبري في جامع البيان، 11/14-15؛ والطحاوي في شرح معاني الآثار، كتاب وجوه الفيء وخمس الغنائم، رقم 5362، 3/277-278؛ وأحمد في مسنده، رقم 23142، ص 1671-1672؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الجهاد، باب النفل، رقم 2852، ص 484؛ وغيرهم وهو حسن. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/187].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الأنفال:1]، رقم 4645، ص 842؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم 3031، ص 1212-1213.

زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعه. قال ابن حجر: (لا مانع من تعدد الأسباب)).[1]

- والسائلون هم المؤمنون أصحاب النبي ﷺ كما هو ظاهر من أسباب نزول الآية. قال الرازي: (كان السائل عن هذا السؤال معلوما معينا فانصرف هذا اللفظ إليهم، ولا شك أنهم كانوا أقواما لهم تعلق بالغنائم والأنفال وهم أقوام من الصحابة).[2]

- والأنفال لغة جمع نفل -بفتح اللام- ونافلة، وهي الغنيمة والهبة والعطية، وتطلق أيضا على ولد الولد، وعلى نوع من البقل طيب الرائحة، وعلى الحلف. وجماع معنى النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[الإسراء:79]، فسميت صلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الواجب. ونفله ونفله [بتشديد الفاء] وأنفله الأنفال: أعطاه إياها. وسميت الغنائم أنفالا لأنها أحلت للمسلمين دون بقية الأمم.[3] أما المفسرون فذهب أكثرهم إلى أن معناها الغنائم؛ ومن هؤلاء ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وعطاء بن أبي رباح وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان والزهري والزمخشري والبيضاوي وغيرهم؛ وقال الشعبي: هي أنفال السرايا؛ أي ما يعطيه الإمام لبعض السرايا زيادة على ما يأخذونه مع بقية الجيش، وصح مثل هذا القول أيضا عن ابن عباس في رواية ثانية إلا أنه ذكر فيه الأفراد بدل السرايا، وهو ما فهمه كثير من الفقهاء من لفظ النفل، وصاغه الزمخشري بقوله: (والنفل ما ينفله الغازي، أي يعطاه زائدا على سهمه من المغنم، وهو أن يقول الإمام تحريضا على البلاء في الحرب من قتل قتيلا فله سلبه. أو قال لسرية ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه أو ربعه. ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه).[1] وفي رواية ثالثة عن ابن عباس وثانية عن عطاء أنها ما ند من المشركين إلى المسلمين من عبد أو دابة أو متاع من غير قتال؛ ونقلت رواية ثانية عن مجاهد بأنها الخمس من الفيء والغنائم[2] وفي تقديري أن الآراء الثلاثة الأولى كلها داخلة في معنى الأنفال المراد في الآية كما تدل أسباب نزولها، أما قول مجاهد بأنها الخمس فغير داخل في معنى الآية محل الدراسة؛ لأن الكلام عن الخمس نزل بعد ذلك كما دل عليه سبب النزول الذي رواه الطبري بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه، والذي قال في آخره: (ثم أنزل الله ﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ

---

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، ص 88.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 117/15.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 327/14-328؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1064؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 329.

(1) الزمخشري، الكشاف، 550/2.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/11-10؛ الزمخشري، الكشاف، 550/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 119/15؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 49/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 4/4؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 524.

﴿خُمُسَهُ وللرسُولِ﴾ ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولمن سمي في الآية)،[1] وكذلك قول ابن عباس وعطاء أنها ما ند من المشركين إلى المسلمين من عبد أو دابة أو متاع فغير داخل أيضا في المراد بمعنى الأنفال هنا، لأنه لا دليل على دخوله، وسبب النزول لا يشمله، واحتجاج الطبري على إمكانية دخوله بقوله: (لأن ذلك أمره إلى الإمام) لا حجة فيه؛ إذ ليس كل ما رد الشرع أمره إلى الإمام صار من الأنفال.

- ومعنى كون الأنفال لله عز وجل والرسول ﷺ أن الحكم فيها خاص بهما وليس إلى غيرهما؛ فهي -كسائر الكون جميعا- لله من حيث هي ملكه ورزقه، ومن حيث أنه هو الذي يأمر بقسمتها على النحو الذي تقتضيه حكمته البالغة وإرادته النافذة التي لا يمتنع منها شيء، وهي للرسول ﷺ من حيث أنه يمتثل أمر ربه فيها فيبين أحكامه بقسمتها على الوجه الذي أمر به.[2]

- وفي الآية أمر للصحابة رضي الله عنهم بتقوى الله عز وجل، وذلك بطاعته وترك مخالفته التي منها ترك التنازع والتخاصم في شأن الغنائم، وما قد يستتبع ذلك من ذهاب المودة بينهم أو التجاوز في الكلام. قال أبو حيان: (وأمر تعالى أولا بالتقوى لأنها أصل للطاعات ثم بإصلاح ذات البين لأن ذلك أهم نتائج التقوى في ذلك الوقت الذي تشاجروا فيه).[3]

- وفيها أيضا أمر لهم بإصلاح ذات بينهم. قال ابن عطية مبينا معنى الذات المرادة في هذه الآية: (﴿ذَاتَ﴾ في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته، والذي يفهم من ﴿بَيْنِكُمْ﴾ هو معنى يعم جميع الوصل والالتحامات والمودات، وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها أي نفسه وعينه، فحض الله عز وجل على إصلاح تلك الأجزاء، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم).[1]

- ودلت الآية على أن الصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا خير البشر بعد الأنبياء -عليهم السلام- واصطفاهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وزكاهم في كتابه كما في قوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:110]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(18)وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(19)وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا(20)﴾[الفتح]، وغيرها

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 11/19-20؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 8766، 1653/2؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب وجوب الخمس في الغنيمة والفيء، رقم 12718، 479/6-480؛ بإسناد حسن. [انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 189/2].

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 551/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 497/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 49/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 629/1.

(3) أبو حيان،، البحر المحيط، 454/4.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، 500/2.

من الآيات، إلا أنهم –رضي الله عنهم– بشر غير معصومين، معرضون لإمكانية صدور الأخطاء والذنوب. قال ابن عطية – بعد أن ذكر بعض الآثار الواردة في سبب نزول هذه الآية–: (فيجيء من مجموع هذه الآثار أن نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيما من أبلى، فأنزل الله عز وجل الآية، فرضي المسلمون وسلموا، فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم).[1] وهذا لا يقدح في عدالتهم وأهلية حملهم هذا الدين إلى من حولهم من الأمم، ومن بعدهم من الأجيال. قال النبي ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما: (تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم). [2]

– وتضمنت الآية أيضا أمرا للصحابة رضي الله عنهم بطاعة الله ورسوله ﷺ، أي في الحكم الذي حكم به سبحانه في شأن تقسيم الأنفال وتنفيذ النبي ﷺ له، وفي كل الأحكام الشرعية التي شرعها عز وجل وبلغها رسوله إليهم، سواء تعلقت بالجهاد والأموال أو بغيرها من مسائل الدين جلت أو دقت.[3]

– واختلف أهل التفسير في نسخ هذه الآية؛ فقال عكرمة ومجاهد والسدي وابن عطية هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسُولِ﴾، وأجيب عن هذا الرأي بأن كون الأنفال لله والرسول معنى لا يمكن أن ينسخ. أقول: وهذا وجيه؛ لأن ملكية الله للأنفال –وكل شيء– وحكمه فيها لا يتصور نسخه مطلقا، وحكم الرسول ﷺ فيها وفي سواها من القضايا المتعلقة بالمسلمين في عصره لا يمكن نسخه أيضا كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا(36)﴾[الأحزاب]. وخالفهم ابن زيد –وابن عباس في رواية– فقال: هي محكمة غير منسوخة، وهو الراجح في تقديري لما مضى من الجواب، ولأن الحكم الذي تضمنته آية الخمس يتناول خمس الأنفال فقط، أما الأخماس الأربعة الأخرى فيظل حكم آية الأنفال هو الساري في حقها، أي أن آية الخمس خصصتها ولم تنسخها والله أعلم.[1]

---

(1) المصدر السابق، ص 497.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 2947، ص 244؛ وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم 3659، ص 554؛ والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، رقم 327، و328، 125/1-126، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم 2947، 567/1.

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 247/9؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 33/6.

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 120/15؛ السمرقندي، بحر العلوم، 4/2؛ الماوردي، النكت والعيون، 294/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/4؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 524،

- والظاهر من مجموع آية الأنفال وأقوال أكثر المفسرين لها وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[الحشر] أن الأنفال تطلق على الغنائم وغيرها من الأموال التي يأخذها المسلمون من الكفار بالقتال، أما ما يأخذونه منهم بغير قتال فهو الفيء.[1]

- ومما يلفت النظر في نظم الآية أن الأمر بإصلاح ذات البين جاء مسبوقا بالأمر بتقوى الله متبوعا بالأمر بطاعة الله ورسوله، وفي ذلك إبراز لقيمة إصلاح ذات البين في هذا الدين العظيم، ودليل على كمال العناية بسلامة العلاقات بين المسلمين، ومتانة الأخوة التي تشد كيانهم وترص بنيانهم في الحرب والسلم على سواء، لا في حال القتال فقط كما قد يتوهم بعض ذوي النظر السطحي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ(4)﴾[الصف].

- وفي تذييل الآية بجملة الشرط ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الواقعة بعد الجمل الإنشائية الثلاث الدالة على جواب الشرط المحذوف ﴿فاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2] والتي يعود الشرط إليها جميعا معناه (إنا أمرناكم بما ذكر إن كنتم مؤمنين، لأنا لا نأمر بذلك غير المؤمنين، وهذا إلهاب لنفوسهم على الامتثال، لظهور أن ليس المراد فإن لم تكونوا مؤمنين فلا تتقوا الله ورسوله، ولا تصلحوا ذات بينكم، ولا تطيعوا الله ورسوله، فإن هذا معنى لا يخطر ببال أهل اللسان ولا يسمح بمثله الاستعمال ... ولكن اجتلاب إن في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان وهي التقوى الجامعة لخصال الدين، وإصلاح ذات بينهم، والرضى بما فعله الرسول، فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صوره ومظاهره).[1]

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/4؛ محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، مكتبة الغزالي، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط3، 1400هـ-1980م، 588/1.

(2) وقد تضمنت هذه الآية درسا عظيما وعميقا لمسلمي هذا العصر خاصة؛ لأنه إذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أمروا بأن يصلحوا ذات بينهم لإزالة آثار ذلك الخلاف المالي الطارئ وهم الموصوفون في القرآن الكريم بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، و﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، فإن المسلمين اليوم أولى بهذا التوجيه، وأحوج إلى تطبيقه؛ لما يعانونه من الخلافات المذهبية والفكرية والسياسية والقومية وغيرها، والتي يستغلها أعداؤهم المتربصون بهم لترسيخ العداوة بينهم، واستهلاك طاقاتهم في التناحر بينهم، وشغلهم عن التفكير في أي مشروع يوحد أمتهم أو التعاون على عمل جاد ينهض بهم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة). [أخرجه أحمد في مسنده، رقم 28058، ص 2043؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم 4919، ص 737؛ والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب، رقم 2509، ص 565؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 254/9.

– ومن الحكمة في تكريره سبحانه لاسم الجلالة ثلاث مرار في هذه الآية الكريمة ترسيخ لمهابته جل جلاله في قلوب المؤمنين، وتعليل للحكم الوارد فيها كي تقابله النفوس بالتسليم والإذعان، كما أن في ذكر رسوله ﷺ معه مرتين في الآية نفسها تعظيم لجنابه ﷺ وتنويه بشرفه الكبير وإعلان بأن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى وعصيانه ﷺ عصيان لله تعالى، كما قال عز من قائل: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا(80)﴾[النساء].[1]

وخلاصة هذا المطلب:

– أن جميع الأوامر الإلهية التي وردت إلى النبي ﷺ في حدود الموضوع الذي تناوله كانت في مجال الفتاوى الفقهية، وتحديدا في أحكام الجهاد والغنائم والمعاملات المالية المحرمة والأشربة والحيض.

– وأن مضامينها كانت إجابات على أسئلة **مطروحة من قبل المؤمنين** أصحاب النبي ﷺ ليس فيها شيء من غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

– وأن الذي حمل المؤمنين على توجيه أسئلتهم إلى النبي ﷺ هو الرغبة في **معرفة أحكام الله سبحانه** في المسائل المطروحة **بهدف العمل بها والوقوف عند حدودها**، ولذلك عملوا على تطبيق ما سمعوا من الأجوبة دون اعتراض أو تهاون.

وخلاصة هذا المبحث:

– أن كل الأوامر الربانية الصادرة إلى النبي ﷺ في مجال الفقهيات، والمستوفية لشرطنا الذي ذكرناه في التمهيد لهذا الفصل – وهو أن تشتمل على فتاوى مرفوقة بالأسئلة التي سبقت صدورها– كانت إجابات على استفتاءات **مطروحة من قبل المؤمنين** أصحاب النبي ﷺ.

– وأن الدافع إلى طرحها هو **معرفة أحكام الإسلام** في القضايا المطروحة **بغرض العمل بها**، والدليل على ذلك أنهم انقادوا لها حتى بلغوا في المبادرة إلى سرعة التنفيذ ما يثير العجب والإعجاب؛ حتى نالوا تلك الشهادة الإلهية الخالدة: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[الفتح:29]، وصاروا: (من أعظم الأدلة على نجاح التربية المحمدية، فإنه لم يسبق لنبي أن ربى جيلا بكامله، كما فعل رسول الله ﷺ).[1]

وخلاصة هذا الفصل:

(1) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 33/6.

(1) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط7، 1428هـ-2007م، 659/2.

- أن النبي ﷺ لم يكن يبلغ الناس دين الله ويدعوهم إلى لزومه فقط، بل كانت له وظائف أخرى مكملة لوظيفتي التبليغ والدعوة منها وظيفة الإفتاء. وهذا يشير إلى **أهمية منصب الإفتاء في الأمة الإسلامية** ، وأن من وكل إليه فقد حمل مسؤولية عظيمة خطيرة، لأنه صار خليفة للنبي ﷺ في هذا المقام، موقعا عن الله أحكام شريعته، ناطقا باسم الإسلام، ولذلك لا يجوز إسناده إلا لمن كان مؤهلا له بحق.

- وأن النبي ﷺ يختلف عن بقية المفتين جميعا -من هذه الأمة وسواها إلا الأنبياء- من حيث أن **فتاواه لا تحتمل الخطأ** كما هو وارد بالنسبة إلى غيره، بل كل ما يصدر عنه في هذا المجال فهو حق لا ريب فيه. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5)﴾[النجم].

- وأنه من تمام قيامه بأعباء ما كلف به من الإفتاء أنه كان لا يفتي المسلمين وحدهم، بل يفتي غيرهم أيضا، لا جهلا - حاشاه- بسوء نياتهم، بل **صيانة لجناب النبوة** أن يظن به عدم العلم بأجوبة ما يطرحونه من المسائل، **وترفعا** عن مجاراتهم في سوء طواياهم بعدم إفتائهم، **وتعليما** لمن يستشرفون إجابته ﷺ لهم من الساعين إلى معرفة الحق من المسلمين أو غير المسلمين.

- وأن نيات المستفتين له ﷺ كانت متباينة حسب أديانهم؛ فاليهود والمشركون يستفتونه سخرية منه أو اختبارا له أو محاولة للظفر بعجزه عن الجواب ليستغلوا ذلك في الدعاية ضده، بينما المسلمون يسألونه رغبة في معرفة أحكام الدين ليسارعوا إلى تطبيقها طلبا لمرضاة الله ورسوله ﷺ.

- وأن استفتاءات المسلمين كانت حول ما يعترضهم من قضايا الحياة اليومية لأنهم قوم (عمليون)، ولذلك غلب عليها **الطابع الفقهي**؛ خلافا للمشركين فإنهم كانوا يستفتون عما يظنون أن النبي ﷺ لا يقدر على الإجابة عليه، لأنهم (مغرضون)، ولذلك غلب على استفتاءاتهم **الطابع الغيبي** العقائدي.

الفصل الرابع

أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال المحاجة والحوار

يعتمد الإسلام في إيصال تعاليمه إلى الناس كافة على الحوار والمناقشة والإقناع؛ لأنه دين الحجة والدليل والمنطق السليم، ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)﴾[النمل]، ولا يفرق في هذا المجال بين من يؤمنون به ويعتنقونه وبين من يجهلونه أو يكفرون به. بهذا نزلت آياته وصرحت نصوصه في مواضع عديدة؛ منها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125)﴾[النحل]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(46)﴾[العنكبوت]، وغيرهما من النصوص، فمن اقتنع واهتدى فلنفسه، ومن رفض احتفظ بدينه ولم يرغم على تركه عملا بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[البقرة:256]. كانت هذه طريقته منذ نزل كتابه على النبي ﷺ إلى يوم الناس هذا. والمتأمل للأوامر الصادرة إلى النبي ﷺ من الله عز وجل في القرآن الكريم يجدها منسجمة مع هذا المعنى تماما، سائرة في خطه، كما يجد مضامينها متوجهة إلى طوائف مختلفة من الناس، ومستهدفة أغراضا شتى لتحقيقها. فما تلكم الأوامر الواردة إلى النبي ﷺ في هذا المجال؟ وما هي الطوائف التي توجهت مضامينها إليها؟ وما هي الأهداف التي توخت تحقيقها أو الجوانب التي تغيت معالجتها؟ للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من استقراء ما ورد إليه ﷺ من الآيات في هذا الصدد، وذلك ما سنحاوله في هذا الفصل من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة الكافرين والمشركين ومحاجتهم.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة المسلمين والمنافقين وأهل الكتاب ومحاجتهم.

المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة الكافرين والمشركين ومحاجتهم.

لما صدع النبي ﷺ بدعوته إلى الإسلام لم يسارع المشركون إلى الدخول في الدين الجديد، -رغم سهولته وتناغمه مع الفطرة- ولم يكتفوا بمجرد النأي عنه، ومنح أنفسهم فرصة لتأمله، أو مراقبة تطور أوضاعه؛ بل بادروا إلى الطعن فيه ونشر الأكاذيب والفرى ضده وضد حامله، وراحوا يسخرون من بعض حقائقه، وتظاهروا بطلب الخوارق ليؤمنوا به بقصد التشويش عليه وصرف الناس عنه. وقد نزلت جملة من الأوامر الربانية إلى النبي ﷺ تكلفه بالرد عليهم وتنص على أمور بعينها يجيبهم بها تبليغا عن ربه سبحانه. فما تلكم الأوامر الواردة في هذا المجال؟ وما هي الجوانب التي ركزت عليها تلك الردود أكثر من سواها؟ ولماذا؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يتعين استقراء ما ورد إليه ﷺ من آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع، وذلك ما سنحاول القيام به في هذا المبحث من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، والمتعلقة بالبرهنة على وحدانية الله سبحانه ونفي الشريك عنه

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، بيانا لحدود وظيفة النبي ﷺ ومكانته

المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، جوابا على اقتراحاتهم.

المطلب الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، توبيخا أو تحديا أو تهديدا لهم

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، والمتعلقة بالبرهنة على وحدانية الله سبحانه ونفي الشريك عنه

لا يخفى على المتدبر للقرآن الكريم كثرة الموضوعات التي تكلم عنها هذا الكتاب العظيم، فإذا تأمل أكثر لفت انتباهه أن أكثرها تكررا هو موضوع توحيد الله سبحانه، وبيان أوصافه، ونفي الشريك عنه. ومن ثم عده بعض أهل العلم المحور الأول من المحاور الكبرى التي يدور عليها الحديث في الكتاب العزيز. [1] فبيان هذا الموضوع بالتفصيل وترسيخه في الأذهان، وطرد كل شبهة تحاول اللصوق به مقصد كبير من مقاصد القرآن الكريم. قال السعدي: (ومن كليات القرآن، أنه يدعوا لتوحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه). [1] وفي هذا الإطار وردت جملة من الأوامر الربانية إلى النبي ﷺ ليقيم الحجة على المشركين على بطلان شركهم بالله، وتفاهة أوثانهم. فأي غرض في نفي الشركاء عن الله؟ وأي نوع من الأدلة استعمل في هذه البرهنة؟ وأي المسائل اختيرت لتتركز الأسئلة عليها؟ للإجابة على هذه الأسئلة

---

(1) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 178/11؛ محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الشروق، د ب م، ص 21.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 898.

نسوق النصوص القرآنية المتضمنة للأوامر الواردة في هذا المجال ثم نتناولها بالشرح والتحليل قصد الوصول إلى استنتاج الأجوبة، مراعين في ذلك ترتيبها في المصحف. فمن النصوص المشار إليها:

* قوله تعالى:﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(12)وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(13)قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: 12-14].

– أي: قل -أيها الرسول- لأولئك الجاحدين مقررا لهم : لمن ملك السموات والأرض وجميع ما فيهن؟ فإن لم يجيبوا فقل: الجواب الذي تعلمونه -ولا جواب سواه- هو أن مالكها هو الله -وحده- فاعبدوه وحده، وقد أوجب على نفسه الرحمة بخلقه، فلا يعاجلهم بالعقوبة، وسيحشركم بالتأكيد إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه للمحاسبة والمجازاة. الذين ضيعوا أنفسهم بتعريضها للعذاب في ذلك اليوم، هم المشركون الذين لا يصدقون بوحدانية الله، ولا بيوم الحساب . ولله ملك كل متحرك وساكن حواه الزمان، وضمه المكان، وهو السميع لكل صوت، العليم بكل شيء. قل -أيها النبي- لهؤلاء الجاحدين : أفأنا أتخذ سوى الله معينا ونصيرا، وهو -دون غيره- خالق السموات والأرض وجميع ما فيهن ، وهو مطعم الأحياء كلهم ورازقهم ، المستغني عن الطعام والشراب وغيرهما لكماله جل جلاله؟[1]

– فتضمنت الآيات أمرا من الله سبحانه للنبي ﷺ بأن يسأل المشركين سؤال تقرير عن مالك ما اشتملت عليه السماوات والأرض من الكائنات؟ فإن أجابوه فقد اعترفوا بوحدانية الله سبحانه، وإن لم يجيبوا -جحودا لا جهلا- فليجبهم: أنه الله لا ما يعبدونه من الأوثان والأنداد -وهو جواب يقرون به ولا ينكرونه- وحينئذ فليسألهم ثانية: أيتخذ غير هذا الإله العظيم المالك والمدبر للكون كله، الرزاق لجميع الأحياء، الغني عن كل المخلوقات، معبودا وناصرا من دونه كما فعلوا؟ مع أمره ﷺ بإتباع كل سؤال بذكر جملة من أفعاله تعالى وأوصافه بيانا للحق لهم وإقامة للحجة عليهم.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآيات شيء -في حدود ما اطلعت عليه- إلا ما تعلق بقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(13)﴾، فقد روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنه -فيما نقله الواحدي- أن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا، حتى تكون أغنانا رجلا، وترجع عما أنت عليه، فنزلت هذه الآية. [1] وهو أثر ضعيف لا تعويل عليه؛ لأن إسناده معضل، والكلبي متروك الحديث كما قال الذهبي في السير.[2]

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم؛ ص 173-174؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 129.

(1) انظر: الواحدي، أسباب النزول، ص 214.

(2) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 434/6.

- والذين أمر النبي ﷺ بسؤالهم هم المشركون العادلون بربهم كما قال الطبري و ابن عطية وغيرهما.[1]

- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ سؤال عن مالك ما حوته السماوات والأرض، وهو سؤال تبكيت وتوبيخ للكفار الذين جعلوا الأنداد لله، وتقرير لهم بتوحيده تعالى، (فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا. وهذا، إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع)؛[2] لأنه لا خلاف بينهم وبين النبي ﷺ أنه ما من شيء إلا وهو خالقه ومالكه. قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[العنكبوت: 61]، وفيه أيضا تنبيه على أن السماوات والأرض -وغيرها من المخلوقات- من الأدلة التي نصبها الله للعباد على وحدانيته رحمة بهم أن يقعوا في الشرك.[3]

- ولحكمة ربانية تكرر الأمر إلى النبي ﷺ بسؤال المشركين عن المالك الحق في موضعين آخرين من القرآن الكريم -غير الذي مر آنفا- أحدهما في سورة الرعد، والآخر في سورة المؤمنون.

• فأما الذي في سورة الرعد فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(16)﴾[الرعد]. ولكن بسؤالهم هذه المرة عن رب السماوات والأرض أنفسهن، لا عن مالك ما فيهن. وقد قرن ذلك -كما هو واضح من نص الآية- ببضعة أوامر أخرى إليه ﷺ تشترك كلها في تبكيت المشركين على إشراكهم، وترسخ البراهين على ضلالهم وسخافة عقولهم، وانفراد الله سبحانه بخلق وملك وتدبير كل شيء، ومن ثم انفراده بالحق في العبادة دون ما جعلوا له من الأنداد، ثم ختم سبحانه بأمره ﷺ أن يذكرهم ببديهية يعرفونها وحقيقة لا يجهلونها، لعلها توقظ فطرتهم وتحرك عقولهم وتفتح أعينهم، وهي أن الله متفرد بخلق الكون، منفرد بالحق في الألوهية، قاهر لكل من سواه.

• وأما الذي في سورة المؤمنون فقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(84)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(85)قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(87)قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(88)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ(89)بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(90)مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(91)﴾[المؤمنون]. وفي هذا الموضع كانت الأسئلة الموجهة إلى المشركين أوسع، بحيث شملت كل شيء ولم تستثن. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض ومن فيها من الخلق، ومالك السماوات السبع، ومالك العرش العظيم، ومالك جميع

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 167/9؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 271/2.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 174/12.

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 328/2.

الموجودات؛ كما أعلمه ﷺ مسبقا بإجابتهم، وأنهم سيعترفون بأن جميع ما سألهم عنه هو لله وحده. وقد وبخهم -عز وجل- بعد كل جواب صدر منهم، متدرجا في ذلك شيئا فشيئا على قدر ظهور الحجة، ثم ختم ذلك بتقرير صدق نبوة نبيه ﷺ وأن ما جاء به حق، وكذب أعدائه في ادعائهم الشركاء معه، مبينا بطلان ذلك عقلا، نافيا ما نسبوه إليه من الولد، منزها ذاته المقدسة عما يصفه به المبطلون.(1)

- وفي قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ استعطاف لمن أعرضوا عنه سبحانه وعدلوا به غيره أن ينيبوا إليه ويقبلوا عليه؛(2) لأن رحمته تسبق غضبه. قال النبي ﷺ: (لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي).(3)

- واختلف المفسرون في ماهية الرحمة المذكورة في هذا الموضع؛ فقال بعض: هي إمهال الله للمشركين مدة أعمارهم، بحيث لا يعاجلهم بالعقاب في الدنيا ولا يستأصلهم بعذاب من عنده، وقال آخرون: المراد رحمة من تاب من تكذيب الرسل فصدقهم بعد ذلك وقبل ما جاؤوا به من وحي.(4)

- وفي قوله سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ تقرير لعقيدة القيامة والبعث، و تهديد ووعيد لمن عدل بالله غيره، أو ألحد في صفاته أن ينزل بهم عقابه يومئذ انتقاما منهم على كفرهم به وبرسوله ﷺ.(5)

- وتضمن قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقريرا لمبدإ الشقاوة والسعادة في الأزل ، أي قبل خلق الخلق.(6) قال الرازي: (فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم، والأمر على العكس. قلنا: هذا يدل على أن سبق القضاء بالخسران والخذلان، هو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان، وذلك عين مذهب أهل السنة)،(1) ولكن ذلك التقدير الإلهي لا ينافي مسؤوليتهم عن ذلك المصير المشؤوم. قال البيضاوي: (﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم ... ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم،

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 17/98-101؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/153-154.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/167.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: 27]، رقم 3194، ص 587؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، رقم 2751، ص 1101، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

(4) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 12/174.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/172؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 12/175.

(6) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 2/43.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 12/176.

فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان).[1]

– وقد بين الله سبحانه في أمر آخر وجهه إلى النبي ﷺ في سورة الزمر أن أولئك المشركين –الذين خالفوا مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأشركوا بربهم أوثانا وأصناما وغيرها مما هو من جملة مخلوقاته– هم أبين الخاسرين خسرانا. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15)﴾[الزمر]. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: (قل إن الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها، و خسروا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده إليهم).[2] ومع هذا البيان التام لسوء عاقبتهم وخسرانهم الأبدي إن لم ينزعوا عن الشرك، فإن كثيرا منهم أصروا على ضلالهم حتى ماتوا كافرين، كالذين قتلوا في بدر وأحد. روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: (يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا)، فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال: (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا)، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر.[3]

– وفي لفظ (سكن) الوارد في الآية أقوال للمفسرين: أحدهما: أنه من السكنى بمعنى الحلول، ولذلك عدي بفي كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾[إبراهيم: 45]، والثاني: أنه من السكون الذي هو ضد الحركة، وإنما اكتفى بذكر أحد الضدين لدلالته على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾[النحل: 81]، أي: والبرد أيضا، وهو الذي رجحه الرازي وضعفه الثعالبي وابن جزي. والثالث: أن معناه خلق، نقله القرطبي بصيغة التمريض، ثم رجحه، وعلل ترجيحه بكونه يجمع شتات الأقوال. ولم أجد مرجعا لغويا واحدا ذكر (خلق) من مرادفات (سكن)، والراجح –والله أعلم– هو القول الثاني؛ لأن السكون من أسباب الخفاء الذي هو مظنة الغفلة عن شمول اسم الموصول (ما) الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له. قال ابن عاشور: (والسكون استقرار الجسم في مكان، أي حيز لا ينتقل عنه مدة، فهو ضد الحركة، وهو من أسباب الاختفاء ... فلما أعلمهم بأنه يملك ما في السموات والأرض عطف عليه الإعلام بأنه يملك

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، 156/2.

(2) الزمخشري، الكشاف، 296/5.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم: 3976، ص 721، من حديث أبي طلحة الأنصاري؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، رقم: 2874، ص 1152، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ما سكن من ذلك لأنه بحيث يغفل عن شمول ما في السماوات والأرض إياه، لأن المتعارف بين الناس إذا أخبروا عن أشياء بحكم أن يريدوا الأشياء المعروفة المتداولة. فهذا من ذكر الخاص بعد العام لتقرير عموم الملك لله تعالى بأن ملكه شمل الظاهرات والخفيات)،[1] والله أعلم.[2]

– وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَا رِ﴾ احتجاج آخر على المشركين يضاف إلى الذي سبق، وقيل فيه رد على مقالة المشركين التي نقلناها في سبب النزول، والتي زعموا فيها أن النبي ﷺ ما يحمله على الدعوة إلى الدين الجديد إلا الحاجة، فكأنما قال سبحانه لنبيه ﷺ: قل لهم إن جميع الأشياء ملك لله، وهو يغنيني إن شاء فلا حاجة بي إليكم ولا إلى أموالكم.[3]

– والمراد بالولي في قوله جل جلاله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ هو المعبود لا مطلق الولي، بدلالة دخول الهمزة على المفعول لا على الفعل ، وفي الآية إنكار على المشركين اتخاذهم شركاء مع الله في عباداتهم، ورد على دعوتهم له ﷺ إلى مشاركتهم فيما هم فيه من الضلال، وخص الإطعام بالذكر دون سائر ضروب الرزق والإنعام مع كثرتها التي لا يتناولها الحصر لمسيس الحاجة إليه أكثر من سواه.[4]

– وفي الآيات تنصيص على اسمين جليلين من أسماء الله الحسنى هما: السميع والعليم، وبضعة أوصاف من أوصافه العلا هي: السمع والعلم، وفطر السماوات والأرض، وإطعام الخلائق، وكمال غناه الذي من تمامه عدم حاجته إلى الطعام. ولذلك فإنه ما ينطق الذين لا يؤمنون به –وغيرهم– من مقالة، ولا يسرون في أنفسهم من فكرة أو خاطرة إلا وقد وسعها سمعه وأحاط بها علمه جل شأنه.

– والغرض العام من الآية إقامة الحجة على بطلان الشرك ووجوب تجريد التوحيد. قال ابن جزي: (القصد بالآية إقامة البرهان على صحة التوحيد وإبطال الشرك، وجاء ذلك بصفة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار فسأل أولا، لمن ما في السمٰوات والأرض؟ ثم أجاب عن السؤال بقوله: قل لله، لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة).[1]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(40)بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(41)﴾[الأنعام].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 155/7.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 332/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 156/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 177/12؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 449/2؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل،264/1.

(3) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 177/12؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 332/8.

(4) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 156/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 411.

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 263/1.

– أي: قل –أيها النبي– لهؤلاء المشركين محتجا عليهم : أنبؤوني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا أو جاءتكم القيامة بما فيها من أهوال تشيب لها الولدان، أتتوجهون حينئذ إلى غير الله بالتضرع والدعاء ليدفع عنكم ما نزل بكم، إن كنتم محقين في إشراككم بالله وزعمكم نفع أولائكم الشركاء ؟ بل إنكم في تلكم الأوقات العصيبة لا تتوجهون إلا إلى الله وحده، فيرفع عنكم ما حل بكم من الكرب إن أراد، وفي أوقات أمثال هذه الشدائد لا تتذكرون من تتخذونهم أندادا وأولياء لعلمكم بعجزهم عن إنقاذكم.[1]

– فتضمنت هذه الآيات أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يسأل المشركين: أيخصون أوثانهم بالضراعة في حال نزول الكرب العظيمة بهم لرفعها عنهم؟ ثم أجاب بأنهم لا يلجؤون في تلك الأحوال إلا إلى الله وحده، ولا يذكرون ما سواه.

– ولم يرد في سبب نزول هاتين الآيتين شيء –في حدود ما اطلعت عليه– والله أعلم.

– والذين أمر النبي ﷺ بسؤالهم هم الكفار الذين عدلوا بربهم الأصنام والأوثان كما قال الطبري والرازي وغيرهما.[2]

– والرؤية المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ لها معنيان في العربية؛ أحدهما: رؤية العين، كأن تقول لإنسان: أرأيتك على هذه الحال من قبل . فالمعنى هل رأيت نفسك. وفي هذه الحال تذكر وتؤنث وتثنى وتجمع. فتقول: أرأيت (بكسر التاء)، أرأيتماكما، أرأيتموكم، أرأيتنكن. وتتغير حركة التاء على حسب الضمير الذي يتصل بها. والثاني: بمعنى أخبرني، وفي هذه الحال تلزم التاء الفتح والإفراد مهما كان الضمير المتصل بها. تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكن. وظاهر أن المعنى الثاني هو المراد في الآية ولذلك لزمت التاء الفتح والإفراد رغم اتصالها بضمير الجمع المذكر.[3]

– وتضمن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ تبكيتا وتوبيخا للمشركين[1] الذين يجعلون لله الأنداد في الرخاء، فإذا نزل بهم الكرب لجؤوا إليه –عز وجل– وحده، ليقينهم بعجز معبوداتهم، وانفراده سبحانه بالتصرف في الكون وما فيه.

– وقد بين –جل وعلا– في غير هذا الموضع نماذج من العذاب الدنيوي الذي يرغمهم على إخلاص الدعاء لله ونسيان آلهتهم المزعومة. من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(22)فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 178؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 132.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 240/9؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 233/12.

(3) انظر: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت 207، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1374هـ–1955م، 333/1.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 344/2.

الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(23)﴾[يونس]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67)﴾[الإسراء]. فدلت هذه النصوص وما في معناها على أن العذاب الحامل لهم على إخلاص الضراعة لله سبحانه هو ما كان مهلكا مميتا.[1]

– ومن حكمته –جل وعلا– أنه أصدر بضعة أوامر متتالية إلى نبيه ﷺ في موضع آخر من السورة نفسها –أي الأنعام– يجلي بمضامينها حقائق أخرى عن دعاء المشركين الاضطراري لله سبحانه، ويسجل ما يلي ذلك من كنودهم، ثم يعالج موقفهم علاجا شافيا. قال –عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(63)قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ(64)قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)﴾[الأنعام]. فبين –جل شأنه– أنهم حين تحيط بهم الأخطار وتحدق بهم الشدائد يفزعون إلى دعائه، ويراوحون في ذلك بين الإسرار تارة والجهر طورا. وهو وصف ينم عن شدة احتياجهم إليه، ويأسهم من سواه؛ ولا يكتفون بذلك بل يعاهدون الله ألا ينسوا فضله إن أنجاهم، ويقسمون أنهم سيواضبون على شكره ويكونون فيه من الراسخين. فإذا استجاب ضراعتهم وأخرجهم من محنتهم عادوا إلى شركهم بمجرد إحساسهم بالنجاة، ونكثوا عهودهم وأيمانهم، وقابلوا فضله وكرمه بالكنود واللؤم؛ وهو ما يؤكده أيضا قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(65)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(66)﴾[العنكبوت]. وتضمن الأمر الذي قبل الأخير علاجا لهذه النفسية المريضة التي تصر على ممارسة شيء مخالف للعقل، مناف للفطرة، غير مفيد في الرخاء، ولا نافع عند الشدائد؛ بل هو سبب لزوال النعم ونزول النقم في الدنيا مع العذاب الأبدي في الآخرة، وذلك بإعلامهم وتعليمهم وتذكيرهم أن الله ليس عاجزا أن يعيدهم في شدائد أقسى من التي مضت، ويسلط عليهم ألوانا من الهلاك في البر والبحر، ثم لا يجيبهم إذا دعوه انتقاما منهم على عنادهم، كما فعل بأمثالهم من قبل. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44)فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(45)﴾[الأنعام]. ثم ختم سبحانه بأمر نبيه ﷺ –تعجيبا له– بالتأمل في تنويعه تعالى لآيات كتابه رجاء أن يفهم أولئك المعاندون أن ما جاء به ﷺ من عند الله هو الحق فيؤمنوا به.

– وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جواب لقوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ المتضمن معنى (أخبروني)، كما لو قيل لهم: أخبروني، من تدعون عند حلول الكرب بكم، إن كنتم صادقين؟[1]

---

(1) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 225/2-226.

(1) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 37/3.

- ودل قوله جل شأنه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ على أن الشعور بانفراد الله سبحانه بالتصرف في الكون وسماع من يدعوه أمر مركوز في الفطرة البشرية وإن غيبته عوامل البيئة وأهواء النفوس ومكائد الشياطين. قال البقاعي: (ولو كان يجيبكم دائما وأنتم لا تدعون غيره، لكان ذلك كافيا في الدلالة على اعتقادكم أنه لا قادر إلا هو، فكيف وهو يجيبكم في الدنيا إذا دعوتموه تارة و لا يجيبكم أخرى، ومع ذلك فلا يردكم عدم إجابته عن اعتقاد قدرته ودوام الإقبال عليه في مثل تلك الحال ، لما ركز في العقول السليمة والفطر الأولى من أنه الفاعل المختار ... ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾: أي تتركون في تلك الأوقات دائما ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾: أي من معبوداتكم الباطلة، لعلمكم أنها لا تغني شيئا ... أفلا يكون لكم هذا زاجرا عن الشرك في وقت الرخاء خوفا من إعادة الضراء).[1]

- وفي هذه الآية دلالة أيضا على أن الله سبحانه قد يستجيب لأدعية الكفار في الدنيا، وذلك من جملة إنعامه عليهم.[2] ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: (اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب).[3]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(46)﴾[الأنعام].

- أي: قل -أيها ال رسول - له ؤلاء العادلين بربهم مقررا لهم: أخبروني إن أزال الله أسماعكم فأصمكم، وأذهب أبصاركم فأعماكم، وطبع على قلوبكم فسلبها القدرة على الإدراك والفهم، فأي إله -سوى الله- من آلهتكم التي تزعمون يقدر أن يعيد إليكم ما سلبه الله منكم؟ تأمل -أيها الرسول- كيف ننوع لهم الأدلة ونقيم عليهم الحجج ، ومع ذلك فهم يعرضون عن تدبرها، ولا يعتبرون بما فيها من الدروس والمواعظ.[1]

- فتضمنت هذه الآية أمرا من الله جل وعلا للنبي ﷺ بأن يستفهم المشركين عن أي الآلهة -غيره جل جلاله- يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وعقولهم إن سلبها الله سبحانه منهم. وهو استفهام تقرير واحتجاج عليهم قصد منه حمل المسؤولين على التأمل في جوابه ليستيقنوا أن لا إله غير الله يقدر على ذلك، فينفضوا أيديهم من تلك الآلهة ويوحدوا الله القادر على كل شيء النافع الضار.[2]

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية -في حدود ما اطلعت عليه- شيء، والعلم عند الله.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، 7/112-113.

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/226.

(3) رواه أحمد في مسنده، رقم 12577، ص 865؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم 2748، و2749، 7/293-294؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 119، 1/84.

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 179؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 133.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 8/382؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/234.

- والذين أمر النبي ﷺ باستفسارهم هم المشركون الذين جعلوا لله الأنداد، كما قال الطبري والقرطبي وغيرهما.(1)
- وفي الآية تعليم وتوجيه من الله عز وجل لنبيه ﷺ إلى أسلوب الاحتجاج على المشركين، وكيفية تقريرهم ببطلان ألوهية أوثانهم المزعومة. قال الطبري: (يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضر ا ولا نفعا، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد لا العاجز الذي لا يقدر على شيء).(2)
- وفيها أيضا إشارة إلى أهم أعضاء البدن وأظهرها نفعا. قال الرازي: (أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب ؛ فالأذن محل القوة السامعة ، والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم. فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين).(3)
- وتضمنت الآية دلالة على فضل السمع على البصر، إذ قدم عليه في هذا الموضع وفي غيره من القرآن الكريم، إلا ما ندر، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا(101)﴾[الكهف] .(4) قال ابن عاشور: (وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ؛ فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة).(1)
- والآيات المذكورة في هذه الآية هي دلائل وحدانية الله جل جلاله المبثوثة في آي القرآن؛ وهي منوعة الأساليب، بحيث تشتمل على الترغيب والترهيب والتذكير والتنبيه والتحذير وغير ذلك. وأما تصريفها فمعناه تكريرها على مختلف الأنحاء وتقليبها على كل الوجوه لتزداد ظهورا واتضاحا؛ وذلك بإيرادها أحيانا مشتملة على براهين مما يشاهد في السماوات والأرض والجبال والبحار، وأخرى على دلائل مما في نفوس البشر والحيوان، وطورا بتضمينها حججا مما جرى على الأمم الماضية والأجيال الخالية، وغير ذلك مما يدفع الإنسان إلى إعمال عقله وإجالة فكره كي يعتبر ويذكر فيوحد الله ويؤمن بما أنزل.(2)

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 251/9؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 382/8.

(2) الطبري، جامع البيان، 251/9.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 238/12.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 383/8.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 258/1.

(2) انظر: الألوسي، روح المعاني، 153/7؛ وابن عاشور، التحرير والتنوير، 235/7-236.

- والصدف والصدوف في اللغة له معان عديدة، منها الإعراض والانصراف عن الشيء والعدول عنه، [1] ولم تخرج أقوال المفسرين -فيما اطلعت عليه- عن هذه المعاني الثلاثة وما يرادفها. قال ابن كثير -رحمه الله-: (﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ... أي يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه، قال العوفي عن ابن عباس: يصدفون أي يعدلون). [2]

- وفي الآية بيان افتقار الخلائق إلى الله المنعم افتقارا عاما تاما في كل احتياجاتهم، وانفراده عز وجل بالخلق والملك والتصرف في الكون والقدرة على المنع والعطاء، وذلك موجب لإفراده بالتأليه وحده. [3]

– وللأمر الوارد في هذه الآية نظائر في خمسة مواضع أخرى من القرآن الكريم، تتضمن جميعا السؤال عن الفاعل لأفعال محددة يقر المشركون بالضرورة أنه الله، عسى أن يذكروا فيكفوا عن عنادهم ويرعووا عن شركهم بربهم ويوحدوه؛ وهي:

• قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(63)قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ(64)﴾[الأنعام]. فتضمنت هذه الآية سؤالا من الله للمشركين على لسان نبيه ﷺ عمن ينقذهم من المهالك التي يتعرضون لها أحيانا في لجج البحر وأطوارا في مهامه البر، والتي لا يجدون فيها مفزعا إلا إلى الله، فيضرعون إليه أن ينجيهم، فيستجيب لهم وينجيهم منها ومن سواها. ولما كانوا مقرين بأنه هو الله وحده، فقد قامت عليهم الحجة بعجز آلهتهم وسفاهتهم في جعلها أندادا للواحد القهار.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(31)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(32)﴾[يونس]. وتضمنت هذه الآية أربعة أسئلة كاملة في غاية الأهمية -من حيث لفت انتباههم وتحريك عقولهم للتفكير والتدبر- تستخبرهم عمن يرزقهم المطر من السماء، والنبات و الحبوب والثمار من الأرض؟ وعمن يملك أسماعهم وأبصارهم فيبقيها إن شاء ويسلبها إن أراد؟ وعمن يخرج الأحياء من الأموات وعكس ذلك، كإخراج أنواع النبات من البذور والنوى، والمؤمنين من الكفار، والطيور من البيض، وغير ذلك وعكسه؟ ومن يسير الكون علويه وسفليه، ويوزع على أحيائه أقواتهم ويحدد أعمارهم وينهي آجالهم ويحرم ويعطي ويرفع ويخفض ويعز ويذل؟[1] وقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بإجابتهم مسبقا، وهي اعترافهم بأن الفاعل لذلك كله هو الله؛ لأنهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق المدبر وحده، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(61)﴾[العنكبوت]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

(1) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 826؛ الرازي، مختار الصحاح، 181؛ ابن منظور، لسان العرب، 213/8-214.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 185/3؛ وانظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 251/9-253؛ الزمخشري، الكشاف، 347/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 293/2؛ السمين الحلبي، الدر المصون، 636/4-637.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 62/2.

(1) انظر على سبيل المثال: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 234؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 469/2.

مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(63)﴾[العنكبوت]، وغيرهما من الآيات. وبذلك تكون الحجة قد قامت على عجز آلهتهم وسخافة تفكيرهم.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ(42)﴾ [الأنبياء]. وفي هذا الموضع سؤال آخر وجهه سبحانه على لسان نبيه ﷺ إلى متخذي الأنداد معه عمن يحفظهم في ليلهم وهم نيام من بطش الله وانتقامه إذا أراد إنزاله بهم، وكذلك في النهار وهم منشغلون بأعمالهم. والجواب كالعادة: لا أحد يفعل ذلك أو يقدر عليه، وإقرارهم بهذا تام معلوم. فثبتت تفاهة معبوداتهم وسفاهة عقولهم.[1]

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(17)﴾[الأحزاب]. وهذا الموضع قريب المعنى من الذي قبله، غير أن مضمون السؤال توسع ليشمل الشر والخير.

• قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)﴾[سبأ]. وفي هذه الآية تضمن الأمر استخبار الكافرين عمن يتكفل لهم بالرزق، ثم أمر النبي ﷺ بالجواب بأنه الله؛ لأنه جواب معلوم عندهم معترف به من قبلهم. وهو معنى سبق سؤالهم عنه ضمن الأسئلة الأربعة الواردة في الآية الواحدة والثلاثين من سورة يونس. ولعل سر تكرار السؤال عن الرزق هو شدة اهتمامهم به لعدم استغنائهم عنه. والملحوظ أن الأسئلة الواردة في جميع هذه المواضع تتعلق بربوبية الله سبحانه للكون، وهو أمر ليس محل جدال عند المشركين، ومن ثم فإن الحجة لازمة لهم، والإقرار واقع منهم، فثبت فساد دينهم وعجز آلهتهم وتفاهتها وأنه لا مسوغ لاتخاذها، كما ثبتت سفاهتهم في عبادتها وتقديسها.

* وقوله تعالى:﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ[1] سَبِيلًا(42)﴾[الإسراء].

– أي: قل –أيها الرسول– للمشركين مبرهنا لهم على بطلان ادعائهم آلهة أخرى مع الله: لو فرضنا وجود آلهة أخرى مع الله – كما تزعمون– لالتمسوا طريقا للوصول إلى الله الملك الحق لمغالبته على سلطانه، فيكون الملك لمن علا وغلب، فلما لم يكن ذلك دل على عدم وجود آلهة غيره جل وعلا. هذا أحد وجهين للمفسرين. والوجه الثاني: قل –أيها النبي– لمتخذي الأنداد مع الله: لو كان حقا ما تدعون من وجود آلهة سوى الله تعالى لعرفوا علو مرتبته عليهم فسعوا إلى ما يقربهم إليه زلفى. والوجه الأول أرجح في تقديري؛ لأن اشتراك أولئك الآلهة مع الله في الألوهية –افتراضا– وما لها من سلطان مما يدعوهم إلى منازعته –

(1) انظر على سبيل المثال: الصابوني، صفوة التفاسير، 263/2.

(1) وتضمنت هذه الآية فائدة هامة، وهي لفت الانتباه إلى مكانة عرش الله جل جلاله ضمن مجموع المخلوقات كلها؛ إذ دل تخصيصه بالذكر –إضافة إلى تصريح نصوص السنة الصحيحة– على كونه أعظم المخلوقات حجما. انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، 408/2.

بدافع الغيرة واختلاف الإرادات حول الأمر الواحد في الوقت الواحد وغيرهما- لا إلى مطاوعته، فضلا عن استرضائه. وهو ما رجحه الخازن والشوكاني وغيرهما.[1]

- فتضمنت هذه الآية أمرا من الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ بأن يحاج المشركين على بطلان زعمهم ألوهية أوثانهم بأن ذلك لو كان صحيحا لنازعت تلك الأنداد الله سبحانه في ملكه كما يقع بين ملوك الدنيا، فدل عدم وقوعه على عدم وجودهم.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء -حسب اطلاعي-، والله أعلم.

- والذين أمر النبي ﷺ بمحاجتهم هم المشركون الذين اتخذوا آلهة مع الله، كما قال الطبري والزمخشري والرازي وغيرهم.[2]

- وفي الآية تعليم من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ كيفية محاجة المشركين وإثبات ضلالهم بما لا مفر لهم من الاعتراف به.

- وتضمنت الآية أيضا بيانا للتمانع.[3] قال ابن عطية: (قال القاضي أبو محمد: ونقتضب شيئا من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره: إنا لو فرضناه لفرضنا أن يريد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريكه، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان، ومستحيل أن لا تنفذ جميعا، فيكون الجسم لا متحركا ولا ساكنا، فإن صحت إرادة أحدهما دون الآخر فالذي لم تتم إرادته ليس بإله، فإن قيل نفرضهما لا يختلفان، قلنا اختلافهما جائز غير ممتنع عقلا، والجائز في حكم الواقع).[4]

- وتكرر معنى الآية في مواضع من الكتاب العزيز؛ منها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(22)﴾[الأنبياء]، وقوله جل وعلا: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(91)﴾[المؤمنون].

- والعرش في **اللغة** يطلق على معان عديدة، منها العز، وركن الشيء، وسقف البيت، والقصر، وسرير الملك، وغير ذلك؛[1] كما تعددت آراء **المفسرين** فيه؛ فعرفه البقاعي بأنه: (السرير الأعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير)،[2] وعرفه البيضاوي بأنه: (الجسم المحيط بسائر الأجسام ، سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه)،[3]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 603/14؛ الخازن، لباب التأويل، 131/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 58/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 825؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 433؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 415.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 603/14؛ الزمخشري، الكشاف، 522/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 218/20.

(3) انظر على سبيل المثال: أبو حيان، البحر المحيط، 37/6؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 476/3.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز، 459/3.

(1) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 597؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 212؛ ابن منظور، لسان العرب، 96/10.

(2) البقاعي، نظم الدرر، 422/11.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل، 16/3.

ونقل الماوردي قول من حده بأنه: (السموات كلها؛ لأنها سقف)،[1] وفسره الثعالبي بالملك والسلطان،[2] وقيل غير ذلك.[3] والذي تدل عليه نصوص القرآن الكريم في استعمالها للفظ (العرش) عموما، وفي وصفها لعرش الله جل جلاله خصوصا –وهو المراد في هذه الآية– وكذلك نصوص السنة الصحيحة، هو أنه: (سرير عظيم كريم مجيد له قوائم، فوق أعلى درجات الجنة المائة –التي تعلو السماوات السبع، والتي تعلو بدورها الأرض– تحمله الملائكة، وهو أعظم المخلوقات، وعليه استوى الرحمن عز وجل). ومن النصوص التي استخلصت منها هذا التعريف قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[يوسف: 100]، وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ(23)﴾[النمل]، وقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(26)﴾[النمل]، وقوله جل شأنه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(116)﴾[المؤمنون]، وقوله عز من قائل: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(15)﴾[البروج]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(13)عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(14)عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(15)﴾[النجم]، وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(17)وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(18)﴾[المؤمنون]، وقوله جل وعز: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: 7]، وقوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(5)﴾[طه]، وغيرها من نصوص الكتاب العزيز، وكذلك نصوص السنة، كقول النبي ﷺ –فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه– (لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور)،[1] وقوله ﷺ –فيما رواه الترمذي وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه–: (الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها العرش، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس)،[2] وقوله ﷺ –فيما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه–: (أتيت بالبراق –وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه– قال: فركبته حتى أتيت بيت

---

(1) الماوردي، النكت والعيون، 230/2.

(2) انظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، 37/3.

(3) انظر على سبيل المثال: الماوردي، النكت والعيون، 230/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 458/3-459؛ أبو حيان، البحر المحيط، 310/4-311؛ الألوسي، روح المعاني، 134/8؛ وغيرهم.

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب، رقم 6917، ص 1254؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم 2374، ص 965-966؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة الجنة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، رقم 2531، ص 570؛ وأحمد في مسنده، رقم 23071، ص 1666؛ والحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، رقم 267، 105/1؛ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3121، 598/1.

المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء. فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ... ثم عرج إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمدﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مسندا ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ...)، [1] وقوله ﷺ -فيما رواه ابن أبي شيبة عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه-: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة).[2] ويؤكد سلامة الترتيب الذي اتبعته في التعريف ما رواه البغوي في تفسيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل عن الجنة: أفي السماء هي أم في الأرض؟ فقال: (وأي أرض وسماء تسع الجنة؟) قيل: فأين هي؟ قال: (فوق السماوات السبع تحت العرش).[3] والله أعلم.

– ودلت الآية على جواز الاستدلال بالعقل لإ حقاق الحق وإبطال الباط ل، ومشروعية استخدام الفكر للبرهنة على المسائل المختلفة –وإن كانت شرعية– ما لم يكن ذلك في مقابل النص.[1]

وخلاصة هذا المطلب: قيام الحجة القاهرة على المشركين في انتفاء الشريك مع الله في خلق الكون وملكيته والتصرف فيه بدءا من أقرب شيء إليهم وهو أسماعهم وأبصارهم وصولا إلى أبعد شيء عنهم وهو السماوات والعرش للوصول بهم إلى **نتيجة** عقلية منطقية هي انتفاء من يستحق العبادة غيره؛ لأن العاجز لا يستحق العبادة.

– والملاحظ أن البرهنة اقتصرت على **الأدلة العقلية** وحدها؛ لأن المشركين لا يؤمنون بالأدلة النقلية، وفي هذا درس للمناظر المسلم في اختيار الحجج المناسبة على حسب مسلمات المناظر.

– وأن الأسئلة تركزت على المسائل التي **يقر المشركون بالضرورة** أن الله هو المتفرد بها ليسلموا تبعا بضرورة تفرده بالعبادة.

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين في تشغيبهم على الحق ورفضه، بيانا لحدود وظيفة النبي ﷺ ومكانته

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم 162، ص 90-91.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش، رقم 58، ص 432-433، واللفظ له؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم 361، 2/76-79؛ وأبو نعيم في الحلية، 1/167؛ من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 109، 1/226.

(3) البغوي، معالم التنزيل، 2/104؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 1/20.

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 433؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 3/198.

زعم المشركون أن النبي ﷺ يرمي من وراء دعوته إلى تحصيل المال والجاه، أو يدعي علم الغيب، أو يزعم القدرة على إيقاع ما يتوعدهم الله به في كتابه من ألوان العقاب على استمرارهم في عنادهم واستحبابهم الكفر على الإيمان؛ وأنه يفترض فيه الإتيان بالمعجزات وقتما يطلبونها منه، وبالكيفية التي يشترطون، والاستغناء عن الأكل والشرب والسعي لاكتساب الرزق، وأن يكون ذا مال وأبهة وأعوان، وغير ذلك من التشغيبات والافتراضات التي تنسب إليه ما ليس فيه، وتتجاوز به الطبيعة البشرية والعبودية لله، وتلحقه بالملائكة الكرام أو تجعله شريكا مع الله في ربوبيته. والنصوص القرآنية التي تسجل هذه المعاني كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(7)أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا(8)انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا(9)﴾[الفرقان]. فهل يختلف النبي ﷺ في حقيقته عن غيره من الناس؟ وهل يملك من الخصائص ما يلحقه بالملائكة أو يمنحه القدرات الخارقة؟ وهل أعفي من أحكام الدين، أو أعطي حصانة من العقاب لو صدر منه عصيان؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال إيراد وتحليل النصوص القرآنية المتضمنة للأوامر الربانية المتوجهة إليه ﷺ في هذا المجال، مراعين ترتيبها في المصف الشريف. فمن ذلك:

* قوله تعالى:﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(14)قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15)﴾[الأنعام].

– أي: قل –أيها النبي– لأولئك المشركين بربهم: إني مأمور من قبل الله تعالى أن أكون أول الخاضعين من هذه الأمة له بالعبودية، وفي المقابل فأنا منهي من قبله عز وجل أن أشرك سواه معه في العباد. وقل لهم أيضا إني أخاف إن أنا خالفت أمر الله سبحانه وعصيته أن ينزل بي عذاب شديد يوم القيامة.(1)

– فتضمنت هذه الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بأن يخبر المشركين الذين يحثونه على عبادة آلهتهم بأن الله أمره أن يكون أول المبادرين إلى الإسلام له من أهل زمانه ولا يشرك معه في العبادة أي شيء؛ كما أمره أن يخبرهم بخوفه من الله أن يحل به العقاب الأليم يوم القيامة إن هو عصى أوامره ولم يطعها.(2)

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية –فيما اطلعت عليه– شيء والله أعلم.

– والذين صدر الأمر إلى النبي ﷺ بإخبارهم بما أمر به في هاتين الآيتين هم المشركون من قومه الذين جعلوا لله الأنداد، كما قال الطبري وابن عاشور وطنطاوي وغيرهم.(3)

---

(1) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 129؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 174.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/177–178؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 230؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 2/42–43.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/177؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/159؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 5/64.

- ولم يذكر الآمر في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ لكونه معلوما، إذ لا آمر للنبي ﷺ إلا الله سبحانه، ولما تكرر من إسناد الوحي إليه عز وجل.[1]

- وتعددت أقوال المفسرين في المراد بالأولية المأمور بها في الآية؛ فقال بعض: في الرتبة والأفضيلة؛ وقال بعض آخر: المقصود أن يكون أول من يسلم من هذه الأمة التي أرسل إليها. وقال ابن عاشور: (أول من يتصف بالإسلام الذي بعثه الله به، فهو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة).[2] وقيل: إنما قصد بها الحث على المسارعة إلى الإسلام، كما يفعل الملك حين يأمر رعاياه بأمر ثم يقول لهم: وأنا أول من يفعله حملا لهم على الامتثال؛ وهو قول ضعيف في تقديري؛ لأن الملك يقول ذلك عن نفسه، أما النبي ﷺ فأمر من قبل الله سبحانه، ولذلك قال الألوسي: (وفيه نظر)؛[3] أما بقية الأقوال فليس بينها تعارض، بل هي متكاملة؛ ولذلك قال البقاعي بمجموعها. قال رحمه الله: (في الرتبة مطلقا، وفي الزمان بالنسبة إلى الأمة).[4] والله أعلم.[5]

- وتنوعت أقوال أهل العلم في معنى الإسلام الوارد في الآية؛ فقال بعض: معناه أن يكون أول من أخلص؛ وهو بعيد في ظني لأن الإخلاص شرط في كل عمل شرعي، وليس عملا مستقلا بذاته وليس أيضا مرادفا للإسلام لغة ولا اصطلاحا؛ وقال آخرون: عني به الاستسلام لله والانقياد لطاعته. وهو تفسير للإسلام بمعناه اللغوي. وقال السعدي: (﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي)،[1] فجمع في تفسيره بين توحيد الله وطاعته، أي بضد الإشراك والعصيان. وهو تفسير للإسلام بمعناه الاصطلاحي. والقولان الأخيران صحيحان وكلاهما محتمل والجمع بينهما ممكن.[2]

---

(1) انظر: البقاعي، نظم الدرر، 37/7؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 159/7.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الألوسي، روح المعاني، 110/7.

(4) البقاعي، نظم الدرر، 37/7؛ وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 159/7.

(5) انظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، 450/2؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 138/4؛ أبو حيان، البحر المحيط، 4/90-91؛ الألوسي، روح المعاني، 110/7؛ الشنقيطي، أضواء البيان، 2/221-222.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 230.

(2) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 4/90-91؛ الخازن، لباب التأويل، 102/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 132/3؛ القاسمي، محاسن التأويل، 2260/6.

– ومع أن الأمر الوارد في الآية بالإسلام متضمن للنهي عن ضده وهو الشرك، إلا أنه أتبع بالنهي الصريح عن الإشراك تأكيدا على التحذير منه، وتنبيها إلى شدة خطورته على الدين الحق، ومنعا لأي تهاون بشأنه.[1]

– ولمزيد تحذير من خطر الشرك صدر الأمر مستقلا إلى النبي ﷺ مرتين بأن يعلن إعلانا مؤكدا على نهي الله له عن عبادة أصنام المشركين. قال تعالى في سورة الأنعام نفسها: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[الأنعام:56]، وقال في سورة غافر: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(66)﴾[غافر]. وفي هذين الموضعين جاءه الأمر بإعلان كونه ممنوعا من الشرك، ولكن بلفظ النهي وليس بأسلوبه، وبالتصريح بأن المنهي عنه هو عبادة أوثان الكافرين وليس الإشراك بلفظه المجمل؛ ثم جاء توكيد هذا النهي بآية أخرى تشتمل على أمر آخر يحقق مضمونه الغاية ذاتها، ويوبخ المشركين، وينكر صنيعهم، وينسف السبب الداعي لهم إلى الإشراك. قال جل وعلا: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(71)﴾[الأنعام]. قال الرازي: (اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على عبدة الأصنام وهي مؤكدة لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾).[2]

– والمسارعة إلى تنفيذ أوامر الله جل وعلا والحذر من مخالفتها ديدن الأنبياء كلهم فيما يظهر من نصوص الكتاب والسنة؛ فقد قال سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143)﴾[الأعراف]، وروى ابن خزيمة في صحيحه من حديث الحارث الأشعري –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن، فأتاه عيسى فقال: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تخبرهم و إما أن أخبرهم، فقال: يا أخي لا تفعل فإني أخاف إن سبقتني بهن أن يخسف بي أو أعذب، قال: فجمع بني إسرائيل ببيت المقدس حتى امتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات ثم خطبهم فقال: إن الله أوحى إلي بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ؛ أولاهن: لا تشركوا بالله شيئا ، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه دارا فقال اعمل وارفع إلي، فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك! فإن الله خلقكم ور زقكم فلا تشركوا به شيئا، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة مسك كلهم يحب أن يجد ريحها ، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المس ك، وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ وجعل يعطي القليل

(1) انظر: البقاعي، نظم الدرر، 37/7؛ القاسمي، محاسن التأويل، 2260/6؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 159/7-160.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 31/13.

والكثير حتى فدى نفسه، وأمركم بذكر الله كثيرا، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره حتى أتى حصنا فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله).[1]

– واختلف المفسرون في خوف النبي ﷺ المراد في هذا الموضع؛ فقال بعضهم: معناه العلم، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال آخرون: هو على معناه الأصلي، وهو توقع المكروه. [2] وتقديري أن الرأي الثاني أصوب لقوله ﷺ: (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له).[3] ومعلوم أن (الخشية خوف مع تعظيم).[4]

– ولحكمة تكرر الأمر إلى النبي ﷺ بأن يصرح للمشركين أنه يخاف عذاب يوم القيامة إن هو عصى ربه. في موضعين آخرين من القرآن الكريم، هما:

• قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15)﴾[يونس]. وفي هذا الموضع أمر ﷺ أن يعلن للمشركين خوفه من عذاب الله ردا على اقتراحهم عليه تبديل القرآن الكريم أو الإتيان بغيره، وهو دليل على شناعة تبديل كتب الله المنزلة أو تحريفها، كما يدل على أن خوفه ﷺ ليس خاصا بوقوعه في الشرك –على افتراض وقوعه وحاشاه– كما توهم أقوال بعض المفسرين،[1] بل يخاف عاقبة كل معصية لو حصلت.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(12)قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13)﴾[الزمر]. وهذا الموضع شبيه المعنى بالذي في الآية محل الدراسة، فالأمر بإعلان الخوف

---

(1) رواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصيام، باب ذكر تمثيل الصائم في طيب ريحه بطيب ريح المسك إذ هو أطيب الطيب، رقم 1895، 195/3-196، واللفظ له؛ والترمذي في سننه، كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، رقم 2863، ص 640؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، رقم 6233، 124/14-127؛ والحاكم في مستدركه، كتاب الصلاة، رقم 863، 314/1، وكتاب الصوم، رقم 1534، 553/1-554؛ من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم 552، 358/1، ورقم 877، 526/1، ورقم 1498، 205/2.

(2) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 476/1؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 334/8؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 411.

(3) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم 5063، ص 955، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) الكفوي، الكليات، ص 428.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 137/12؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 59/17؛ السمرقندي، بحر العلوم، 91/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 467/10.

من عواقب العصيان مقرون بالأمر بإخلاص الدين لله –أي النهي عن الإشراك به– وكونه أول من يسلم، فهو توكيد له وترسيخ لمعناه.

– وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ لو صدرت منه المخالفة لأوامر الله سبحانه –افتراضا– لكان مستوجبا للعقوبة؛ [1] ويؤكد هذا المعنى نصوص عديدة من القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)﴾[الحاقة]، وخاصة لو كانت المخالفة شركا. وهذا حكم لا يخصه وحده، بل يشمل أيضا جميع الأنبياء الذين سبقوه. قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(66)﴾[الزمر].

– وفيها أيضا تعريض بالمشركين أنهم عصاة لله مستحقون لعذابه، وتيئيس لهم أن يتنازل لهم النبي ﷺ[2] فيعترف بدينهم، أو يعظم أوثانهم ولو تظاهرا، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(8)وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9)﴾[القلم]. وقد أنزل الله عليه سورة كاملة تأمره أن يصرح لهم بذلك بكل وضوح وأن يكرره ليرسخ في أذهانهم. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(1)لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(2)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3)وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ(4)وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6)﴾[الكافرون].

– وفي الآية إلماع إلى ما ينتظر المشركين الذين بلغتهم الدعوة وأقيمت عليهم الحجة فأصروا على شركهم حتى ماتوا عليه؛ لأنه إذا كان النبي ﷺ –على عظمة منزلته عند ربه– لو عصى الله لكان معرضا لعذاب عظيم يوم القيامة، فمن بلغ في المعصية حد الكفر البواح والشرك الصراح أولى بالعذاب الأليم وأحق.[1]

– وفيها أيضا تنبيه للدعاة والمصلحين ومن في مثل مجالهم أن يحرصوا على العمل بما يأمرون به الناس، وأن يحذروا من الوقوع فيما ينهونهم عنه حتى لا تناقض أفعالهم أقوالهم.[2] قال سبحانه ناعيا على اليهود هذا التناقض: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(44)﴾[البقرة].

– ودلت الآية بكل وضوح على أن الله لا يحابي أحدا مهما كانت مكانته أو جنسه أو وظيفته، وإنما العبرة بتقواه لمولاه.[3] قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13)﴾[الحجرات].

– وما أمر به ﷺ في هذه الآية فعله على أتم وجه وأحسنه، وهو ما شهد له به ربه جل وعلا. قال سبحانه في آخر السورة

---

(1) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 68/5.

(2) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 156/2؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 159/7.

(1) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 68/5.

(2) انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 2260/6.

(3) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 281/7-282.

نفسها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)﴾ [الأنعام].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50)﴾ [الأنعام].

– أي: قل –أيها النبي– لهؤلاء الوثنيين الذين جعلوا لله أندادا من مخلوقاته: إني لا أزعم لكم أني أقدر على التصرف فيما يملكه الله من خزائن السماوات والأرض فأجيبكم إلى ما تسألون، ولا أدعي العلم بالغيب الذي لم يعلمني الله به، ولا أزعم أني فرد من الملائكة، وإنما أنا رجل مرسل من عند الله أنفذ ما يأمرني به فيما يوحيه إلي. قل لهم –أيها النبي–: هل يتساوى الضال عن آيات الله الذي عمي عنها فلم يؤمن بها والمهتدي الذي أبصرها فصدق بها ؟ أفلا تعملون عقولكم لتدبر ما أسوقه لكم حتى يتبين لكم الحق؟[1]

– فتضمنت هذه الآية أمرا من الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ بأن ينفي عن نفسه ثلاثة أمور، وذلك بأن يعلم المشركين أنه لا يدعي ملكية خزائن الله ولا علم المغيباب ولا كونه من الملائكة؛ وأن يستفهمهم بعد ذلك عن إمكانية تساوي العميان عن الحق مع من أبصره فاستمسك به؛ أي أنهما لا يستويان مثلا.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية –في حدود ما علمت– شيء إلا ما ذكره ابن الجوزي من أن (سبب نزولها: أن أهل مكة قالوا: يا محمد، لو أنزل الله عليك كنزا فتستغني به، فإنك فقير محتاج، أو تكون لك جنة تأكل منها، فإنك تجوع، فنزلت هذه الآية)،[1] ولكنه لم يزد في عزوه على قوله: (رواه أبو صالح عن ابن عباس). وقد قال ابن حبان: (وأبو صالح لم ير ابن عباس).[2]

– والذين ورد الأمر إلى النبي ﷺ ليصرح لهم بما تضمنته هذه الآية من حقائق هم الكفار من أهل مكة الذين اتخذوا مع الله أندادا من خلقه، كما قال ابن عطية والخازن وابن الجوزي وغيرهم.[3]

– وفي الآية نفي من النبي ﷺ عن نفسه الشريفة لما لا تتقبله العقول لبشر، لألا يظن به ادعاء ما ليس له من الربوبية أو الملكية؛ وهو–في الحقيقة– جواب للمشركين الذين كانوا يطالبونه بما لا يقدر عليه إلا رب العالمين أو الملائكة، [1] كإنباع الماء

---

(1) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 133؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 180.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير، 43/3.

(2) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ر ط، 1382هـ-1963م، 559/3.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 294/2؛ الخازن، لباب التأويل، 113/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 43/3.

من الأرض وإسقاط السماء كسفا والصعود في السماء، كما أخبر الله سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا(90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا(91)أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا(92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا(93)﴾[الإسراء].

– وقد دل القرآن الكريم على أن النبي ﷺ ليس بدعا في نفي ما قد ينسب إليه بغير حق، كما دل على تشابه –بل تطابق– تهم المشركين لأنبيائهم من قديم. قال تعالى على لسان نوح –عليه السلام– وهو يفند ما يرميه به قومه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ(31)قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(32)﴾[هود].

– وفيها كذلك تعليم من الله تعالى لنبيه ﷺ كيفية محاجة الوثنيين وإسقاط شبههم، وذلك من عناية الله سبحانه بنبيه ﷺ بعد النبوة كما كانت عنايته به قبلها.

– وفيها أيضا بيان لوظيفة النبي ﷺ الحقيقية وهي تبليغ الناس ما أوحي إليه، وتبشيرهم وإنذارهم، وليس إتيانهم بالمعجزات وتنفيذ ما يخطر في أذهانهم من الطلبات.

– وتضمنت الآية مظهرا من مظاهر تواضع النبي ﷺ وخضوعه لله سبحانه، [1] وهو خلق من أعظم أخلاقه التي عرفت عنه فحببته إلى من حوله، ونماذج ذلك كثيرة جدا في كتب السنة المطهرة والسيرة المشرفة؛ منها على سبيل المثال ما رواه ابن ماجة في سننه من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد). [2]

– **والخزائن** –لغة– جمع خزانة، وهي الموضع الذي تخزن فيه الأشياء، أي تحرز وتحفظ. [3] أما اصطلاحا فتعددت أقوال المفسرين في معناها في هذا الموضع؛ فقيل معناها هنا: أرزاق العباد وشؤون المخلوقات ، وقيل: هي قسمة الله بين الخلائق،

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 2/347-348؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 12/242؛ الخازن، لباب التأويل، 2/114؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 8/385؛ النسفي، مدارك التنزيل، 1/505.

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 12/242؛ الخازن، لباب التأويل، 2/114.

(2) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، 1/23، عن قيس بن حازم؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد، رقم: 3312، ص 557، من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه؛ والطبراني في المعجم الأوسط، رقم 1260، 2/64، من حديث جرير رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 1876، 4/496.

(3) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 93؛ ابن منظور، لسان العرب، 5/64.

وقيل: هي مفاتيح الرزق، وقيل: هي خزائن العذاب، وقيل: هي مقدورات الله سبحانه. [1] ولا تنافر -في تقديري- بين هذه الأقوال حتى نحتاج إلى الترجيح بينها؛ بل هي مرادة جميعا. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(21)﴾[الحجر]. ولذلك قال الشوكاني: (والمراد خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء).[2]

- والمنفي من علم الغيب عن النبي ﷺ في هذه الآية هو المستمر الملازم للرسالة، وهو غير مناف لإخباره ﷺ بكثير من الأمور الغيبية الماضية كبعض أخبار بني إسرائيل في الزمن الأول والمستقبلية كأشراط الساعة وغيرها فهي من إخبار الله له بوحي خاص، وذلك داخل في قوله سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا(27)﴾[الجن].[3]

- واستدل بعض المفسرين كالزمخشري وغيره بقوله سبحانه على لسان النبي ﷺ: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وليس فيها دلالة على ما ذكروا -في تقديري-؛ لأن المنفي عنه ﷺ في الآية هو قدراتهم الخاصة بهم كالسرعة والصعود إلى السماوات ومشاهدة وسماع ما فيها وغير ذلك من خصائصهم، وهي أمور لا تدل على أفضليتهم، [1] بل عندنا من النصوص ما يدل على عكس ذلك، كقوله سبحانه في شأن آدم -وهو نبي- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(34)﴾[البقرة]، ولذلك قال ابن عاشور: (ومن تلفيق الاستدلال أن يستدل الجبائي[2] بهذه الآية على تأييد قول أصحابه المعتزلة بتفضيل الملائكة على الأنبياء مع بعد ذلك عن مهيع الآية. وقد تابعه الزمخشري، وكذلك دأبه كثيرا ما يرغم معاني القرآن على مسايرة مذهبه فتنزو عصبيته وتنزوي عبقريته).[3]

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 347/2-348؛ الخازن، لباب التأويل، 114/2؛ السمرقندي، بحر العلوم، 496/1؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 385/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 163/2؛ الماوردي، النكت والعيون، 115/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 145/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 505/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 420؛ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 363/7.

(2) الشوكاني، فتح القدير، ص 420.

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 241/7.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 348/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 243/12؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 385/8؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 294/2؛ الألوسي، روح المعاني، 155/7-156؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 420.

(2) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام البصري. علامة مفكر متكلم مفسر مصنف معتزلي. نسبته إلى قرية جبى القريبة من البصرة. ولد سنة 235هـ من شيوخه أبو يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام، ومن تلاميذه ابنه العلامة أبو هاشم الجبائي والعلامة أبو الحسن الأشعري، ومن مصنفاته التفسير الكبير والرد على المنجمين والنقض على ابن الراوندي وغيرها. توفي سنة 303هـ في البصرة ودفن في جبى. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 2623، 233/11؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 14/12؛ الزركلي، الأعلام، 256/6].

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 242/7.

- وفي قوله سبحانه على لسان نبيه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ تقرير لنبوته ﷺ التي لا مثار للعجب منها، فقد سبقه في ذلك أنبياء كثيرون، منهم من يقر المشركون لهم بها كموسى وعيسى عليهما السلام، بل فيهم من يعتزون به ويتشرفون بالانتساب إليه ويدعون أنهم على دينه كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ وفيه أيضا إشارة إلى شدة حرصه ﷺ على العمل بما ينزل عليه من الوحي، ودقة تنفيذ ما فيه من الأوامر والتوجيهات على أكمل الوجوه وأحسنها.[1]

- واستدل بعض المفسرين وغيرهم -كالخازن- بهذه الآية على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد في شيء من الأحكام، كما استدل بها البعض على بطلان القياس؛ [2] وليس فيها دلالة -في تقديري- على ما ذكروا؛ بل إن القرآن الكريم والسنة المطهرة يشتملان على نصوص عديدة دالة على اجتهاده ﷺ وعلى مشروعية القياس، منها قوله تعالى في شأن بني النظير: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(2)﴾[الحشر].

- وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ تمثيل ومقارنة بديعة التصوير للفرق الهائل بين الكافر بالله والمؤمن به، والضال عن سبيل الله المفارق لها والمهتدي إليها السائر على خطها، والجاهل بالإسلام الذي لم يرفع رأسا بالتذكير النبوي والعالم بحقائق دين الله المنتفع ببيان النبي ﷺ، وفيه أيضا التنفير الشديد من الضلال والترغيب القوي في الهدى، [1] فهي كالتي في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(19)﴾[الرعد].

- وفي قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ عرض وتحضيض للمشركين على التأمل في أمثال القرآن الكريم ومواعظه الدالة على وحدانية الله وصدق ورسوله، وفيه أيضا تقريع وتوبيخ على استحبابهم الضلال على الهدى والإشراك على التوحيد.[2]

- وقررت الآية بشرية النبي ﷺ وعدم علمه بالغيب، كما أكدت عدم تصرفه في الكون، فغيره من البشر -من أمته وغيرها- أعجز وأضعف عن ذلك.[3]

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 186/3.

(2) انظر: الخازن، لباب التأويل، 114/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 386/8؛ الألوسي، روح المعاني، 156/7؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 420.

(1) انظر: الخازن، لباب التأويل، 114/2؛ السمرقندي، بحر العلوم، 486/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 186/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 163/2؛ النسفي، مدارك التنزيل، 505/1-506؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 212/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 420؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 243/7.

(2) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 486/1؛ أبو حيان، البحر المحيط، 138/4؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 294/2؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 212/2-213؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 43/3.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 65/2.

– وقد وردت أوامر أخرى إلى النبي ﷺ تندرج مضامينها تحت محتوى هذه الآية محل الدراسة، فهي تؤكده وتتكامل معه وتزيده وضوحا؛ منها:

• قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(56)﴾[الأنعام]. ففي هذا الموضع أمر ﷺ بنفي اتباعه لأهواء المشركين الذين يطلبون منه العودة إلى دين آبائه الوثنيين ليوافقهم في شركهم، وأن يصرح لهم أنه لو يطيعهم فيما يدعونه إليه –وحاشاه أن يفعل– لصار ضالا مثلهم غير مهتد كما هو واقعه، وهو معنى متساوق مع قوله في الآية محل الدراسة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ لأن حصر اتباعه للوحي فيها ينفي اتباعه لكل ما سواه.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)﴾[الأنعام]. وفي هذه الآية أمر النبي ﷺ أن يصرح للمشركين بأنه لو كان بيده ما يطلبونه منه من تعجيل إتيانهم بالآيات المعجزات وإنزال العذاب بهم وغيرها من مقترحاتهم لفعل ذلك وأنهى ما بينه وبينهم من الجدل والتحدي، أي أنه أمر بنفي قدرته على تعجيل مطالبهم، وهو معنى متناغم تماما مع قول الله سبحانه في الآية محل الدراسة: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ لأن نفيه امتلاك خزائن الله يعني عجزه عن التصرف في الكون.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(188)﴾[الأعراف]. وهنا أمر النبي ﷺ بنفي قدرته على جلب نفع لنفسه ولا منع ضر حل بها إلا ما أقدره الله عليه من تقديم الأسباب التي جعلها الله في مكنة البشر والتي لا تغني إلا أن يشاء الله، وهو معنى مندرج تحت قوله سبحانه في الآية محل الدراسة: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ كما أمر أن يبين للمشركين أنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر مما يكون من الخير واجتنب ما يكون من الشرور، أي أنه لا يعلم الغيب، وهو معنى مطابق لقوله سبحانه في الآية محل الدراسة: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ(57)﴾[الأنعام].

– أي: قل –أيها النبي– لأولئك المشركين العادلين بربهم الأوثان: إني على بصيرة تامة من الشريعة المنزلة علي من لدن ربي عز وجل القائمة على توحيده سبحانه والتي كذبتم بها أنتم وبالقرآن الذي حواها، ، وليس في مقدوري تسريع إنزال العذاب الذي تستعجلون حلوله بكم، فذلك في يد الله وحده، ينزله وفق إرادته وحكمته متى شاء، لأنه صاحب الأمر النافذ السلطان المطلق، يقص الحق على عباده قصا ليبين لهم مراده منهم ويقيم عليهم الحجة، وهو أفضل من يفصل بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه.[1]

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 236؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 181؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 134.

- فتضمنت هذه الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يعلن للمشركين أنه على بصيرة تامة وثقة كاملة بالشريعة التي أكرمه الله بإنزالها عليه في كتابه وإن كانوا هم يكذبون بها، وأنه لا قدرة له على تعجيل العذاب لهم كما يطلبون منه، بل الحكم لله وحده يبين دينه الحق لعباده ويفصل بينهم فيما يختلفون فيه.

- وقد ورد في سبب نزولها ما نقله الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي أنه قال: نزلت في النظر بن الحارث ورؤساء قريش، كانوا يقولون: يا محمد ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به. استهزاء منهم، فنزلت هذه الآية.[1] وهو أثر ضعيف لا تعويل عليه؛ لأنه معلق، والكلبي متروك الحديث كما قال الذهبي في السير.[2] وقال ابن الجوزي: (سبب نزولها أن النضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبي ﷺ: يا محمد ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، استهزاء؛ وقام النضر عند الكعبة وقال: اللهم إن كان ما يقول حقا، فائتنا بالعذاب؛ فنزلت هذه الآية)؛[3] ولكنه لم يزد في عزوه على أن قال: (رواه أبو صالح عن ابن عباس). وقد مر بنا قريبا قول ابن حبان: أبو صالح لم ير ابن عباس.

- والذين توجه الأمر إلى النبي ﷺ ليعلن لهم مضمون هذه الآية هم المشركون الذين عدلوا بربهم الأوثان، كما قال الرازي والخازن والبيضاوي وغيرهم.[1]

- **والبينة** لغة هي البيان، ويطلق على معان منها: الفصاحة، والوضوح، وما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها، واستبان فلان الشيء إذا تأمله حتى تبين له.[2] ولا خلاف بين المفسرين -في حدود ما اطلعت عليه- أن البينة في هذا الموضع معناها البرهان والحجة. قال القرطبي: (﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره).[3] والمعنى: أن معرفة النبي ﷺ بوحدانية ربه قائمة على حجة ظاهرة ويقين تام، لا على شك أو هوى.[4]

- وماهية هذه البينة محتملة لمعان عديدة، منها: القرآن أو الوحي عامة، وتكليم الحجارة والأشجار له ﷺ وسائر المعجزات التي حصلت له، ورؤيته ﷺ للملك عليه السلام، والبراهين العقلية، أو عموم ذلك جميعا.[5]

---

(1) الواحدي، أسباب النزول، ص 219.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 434/6.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير، 51/3.

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 8/13؛ الخازن، لباب التأويل، 117/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 165/2.

(2) انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، 88/1؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 43؛ ابن منظور، لسان العرب، 199/2.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 398/8.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 278/9؛ الزمخشري، الكشاف، 354/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 298/2؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 272/1؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 165/2.

(5) انظر: الخازن، لباب التأويل، 117/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 298/2؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 220/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 165/2؛ النسفي، مدارك التنزيل، 508/1.

- واختلف المفسرون في ضمير الغائب المفرد الوارد في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ على أي شيء يعود؟ فالطبري والزمخشري والرازي وأبو حيان والسيوطي وغيرهم يرون أنه يعود على الرب سبحانه. ويرى القرطبي والنسفي والخازن وغيرهم أنه عائد على البينة، وإنما ذكر باعتبار معناه وهو البيان. وذهب ابن كثير وغيره إلى أنه يعود على الحق الذي جاء النبي ﷺ من عند الله. وقيل: يعود على القرآن الكريم وإن لم يتقدم له ذكر، وقيل: يعود على العذاب الذي كان النبي ﷺ يتوعدهم به بسبب شركهم. والراجح -في تقديري- هو القول الأول؛ لأنه هو الذي تؤيده القاعدة التي تنص على أن (الأصل في الضمير عوده إلى أقرب مذكور)،[1] والله أعلم.[2]

- والذي استعجله المشركون في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ هو العذاب؛ وهو قول أكثر من وقعت تفاسيرهم في يدي من المفسرين؛ ومنهم الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وغيرهم. ونص كثير من هؤلاء على أن ذلك العذاب هو مقصود المشركين في دعائهم الوارد في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(32)﴾[الأنفال]؛ بينما ذهب البعض إلى أن ما استعجلوه هو الآيات المعجزات، وأشهر من رأى هذا الرأي هو الزجاج. والراجح -في تقديري- هو الرأي الأول؛ لأن المشركين لم يكونوا باحثين عن الحق في مسألة صدق النبي ﷺ في ادعاء النبوة والرسالة ونزول القرآن عليه من عند الله فأعوزهم الدليل على صدقه فطلبوا منه الآيات للتأكد من قوله، إذ قد شاهدوا كثيرا منها -كانشقاق القمر ووصفه بيت المقدس أتم وصف ولم يره من قبل عقب الإسراء والمعراج وغيرهما- ولأن استعجالهم العذاب هو المنصوص عليه في القرآن الكريم في مواضع عديدة، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(47)﴾[الحج]، وقوله جل شأنه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(204)﴾[الشعراء] وغيرهما من المواضع، والله أعلم.[1]

- وفي قوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تفويض تام لجميع الأمور إلى الله عز وجل، فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى وحلل وحرم، وحكم بالحكم القدري، فأضحك وأبكى وأفقر وأغنى وأمات وأحيى ومنع وأعطى وأعز وأذل

---

(1) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د ر ط، 1376هـ-1957م، 39/4.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 279/9؛ الزمخشري، الكشاف، 354/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 8/13؛ الخازن، لباب التأويل، 117/2؛ أبو حيان، البحر المحيط، 145/4؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 398/8؛ النسفي، مدارك التنزيل، 508/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 190/3؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 2041/3؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 272/1؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 472/2؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 134؛ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 391/7.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 279/9؛ الزمخشري، الكشاف، 354/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 8/13؛ الخازن، لباب التأويل، 117/2-118؛ أبو حيان، البحر المحيط، 146/4؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 399/8؛ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 256/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 299/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 190/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 134.

ورفع وخفض، فإنه هو الذي سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب الطائعين ويعاقب العاصين، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88)﴾[القصص].[1] ويندرج تحت هذا المعنى أمر آخر وجه إلى النبي ﷺ في الآية السادسة والستين من السورة نفسها -أي الأنعام- كلف فيه أن يصرح للمشركين بأنه لا وكالة له عليهم فيرغمهم على توحيد الله وطاعته أو يعاقبهم على إشراكهم بالله وتكذيبهم بما أنزل على رسوله. قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ(66)﴾[الأنعام]؛ قال ابن أبي زمنين في تفسيرها: (بحفيظ لأعمالكم حتى أجازيكم بها إنما أنا منذر والله المجازي لكم بأعمالكم).[2]

- واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ فقرأ عامة قراء الحجاز والمدينة وغيرهم -ك ابن كثير ونافع وعاصم ومجاهد وابن عباس رضي الله عنه- بالصاد، وردوا على من اعترض عليهم بأن القص هنا معناه القول، وقد جاء الفصل فيه في مواضع من كتاب الله تعالى، منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(13)﴾[الطارق]؛ بينما قرأ البعض الآخر من قراء الكوفة والبصرة -كأبي عمرو[1] وحمزة والكسائي وابن عامر وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه- بالضاد، وعللوا ذلك بأن الفصل بين المختلفين والمختصمين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص ، وهو تعليل جعل الطبري يصوب رأيهم.[2] ولا حاجة بنا -في تقديري- إلى ترجيح بين الرأيين ما دامت القراءتان ثابتتان عن النبي ﷺ، وكلتاهما تعلمنا فعلا من أفعال الله جل جلاله ووصفا من أوصافه العلا.

- وفصل الله جل جلاله المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ يشمل الحكم بين عباده في الدنيا، وذلك بنصر المحق على المبطل والانتقام للمظلوم من الظالم فيما شاء، كما يشمل الفصل بينهم في الآخرة فصلا تاما وبغاية العدل. قال الله جل شأنه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 236.

(2) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 75/2.

(1) هو أبو عمرو زبان -وقيل: العريان- بن العلاء بن عمار بن العريان بن الحارث المازني البصري. إمام مقرئ نحوي. ولد سنة 68هـ في مكة ونشأ في البصرة وصار شيخ قرائها. وأخذ القراءة عن أهل الحجاز وأهل البصرة. من شيوخه الذين قرأ عليهم مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وغيرهم، ومن تلاميذه الذين قرؤوا عليه ابن المبارك ويحي بن المبارك اليزيدي وشجاع البلخي وغيرهم كثير. مات بالكوفة سنة 154هـ. [انظر على سبيل المثال: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، ط 1، 1416هـ-1995، رقم 44، 223/1؛ الزرقاني، مناهل العرفان، ص 316].

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 280/9؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 8/13-9؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 399/8-400؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 165/2؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 299/2؛ النسفي، مدارك التنزيل، 508/1-509.

حَاسِبِينَ(47)﴾[الأنبياء]. حتى يشمل ذلك مظالم البهائم فيما بينها. قال النبي ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).[1]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(90)﴾[الأنعام].

– أي: قل –أيها النبي– لهؤلاء المشركين الذين اتخذوا الأصنام آلهة مع الله: لا أطلب منكم أجرة في مقابل دعوتي إياكم إلى الإسلام وتبليغي لكم ما أنزل الله علي من القرآن فيكون خوف المغرم مانعا لكم من الاستجابة لي، وإنما ذلك تذكير وعظة لكم ولجميع البشر والجن ممن كان على الشرك مثلكم لتؤمنوا بالله وحده وبدينه الحق وتحذروا نزول غضب الله العظيم بكم إن أقمتم على ما أنتم عليه من الإشراك.[2]

– فتضمنت هذه الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بأن يصرح للمشركين من قومه وغيرهم أنه لا يطلب منهم عوضا مقابل ما يسوق إليهم من الهداية فيمتنعوا من قبول الحق خشية دفع ثمن إيصاله إليهم.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود ما اطلعت عليه والله أعلم.

– والذين صدر الأمر إلى النبي ﷺ ليصرح لهم بما تضمنته هذه الآية هم المشركون من أهل مكة، كما قال الطبري والسمرقندي والسيوطي وغيرهم.[1]

– وتنوعت أقوال المفسرين فيما يعود عليه الضمير في كلمة ﴿عَلَيْهِ﴾، فقال بعض: يعود على القرآن الكريم؛ وقال آخرون: على الإيمان؛ وقال غيرهم: على تذكير النبي ﷺ لهم؛ وقالت طائفة: على تبليغه ﷺ دعوة الإسلام إليهم. ولا حاجة –في تقديري– إلى ترجيح بين هذه الآراء، لأن مضامينها جميعا داخلة في وظائف النبي ﷺ كما بينت في الفصول السابقة، وكلها مشمولة بالحكم المأمور به في هذه الآية.[2]

– والعالمون لغة: العوالم، وهم أصناف الخلق، جمع عالم وهم الخلق،[3] وكما لم يكن بين أهل اللغة خلاف في معنى العالمين، فكذلك الحال بين المفسرين، بل ولا بين هؤلاء وأولئك أيضا. قال الطبري: (والعالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه. والعالم اسم

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم 2582، ص 1040، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 393/9؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 241-242.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 393/9؛ السمرقندي، بحر العلوم، 500/1؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 138.

(2) انظر: . الطبري، جامع البيان، 393/9؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 320/2؛ السمرقندي، بحر العلوم، 500/1؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 454/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 172/2؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 138؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 432.

(3) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1140؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 225.

لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان، فالإنس عالم وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجن عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه).[1]

- وفي الآية دليل على براءة النبي ﷺ مما كان يرميه به المشركون من كونه يريد من وراء دعوته الغنى والملك والشرف وغيرها من أهداف طلاب الدنيا والساعين إلى متاعها، وقد شهد له ربنا عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(104)﴾[يوسف].

– ولحكمة ربانية تكرر الأمر إلى النبي ﷺ بإعلان نفيه طلب الأجر من الناس على دعوته لهم إلى الإسلام في أربعة مواضع كلها من سور مكية، ولعل السر في ذلك هو أن الذين يتهمون النبي ﷺ بطلب المال والملك من وراء دعوته لهم إلى الله –أو يظنون به ذلك– هم مشركو مكة، وواتاهم على التهمة –أو سوء الظن– أنه كان فقيرا كما وصفه ربه جل شأنه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى(8)﴾[الضحى]؛ أما بعد الهجرة فالملك صار في يده والمال متاح له لو أراده، ولذلك لم يعد المناوئون له من أهل المدينة أو غيرها يذكرون هذه التهمة السخيفة. والمواضع المشار إليها هي:

• قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا(57)﴾[الفرقان]. وفي هذه الآية أمر ﷺ أن ينفي سؤالهم أي أجر مهما قل؛ لأن لفظ (أجر) جاء نكرة في سياق النفي، مقابل دعوته لهم، وأن يقرن ذلك ببيان أن من أراد أن ينفق من ماله في سبل الخير ابتغاء الأجر عند ربه فذلك شأنه، وهو موكول إلى إرادته.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(47)﴾[سبأ]. وفي هذا الموضع أمر أن يعلن لهم أن ما طلبه منهم من عوض –على افتراض أنه طلب، وهو لم يطلب– فقد تنازل لهم عنه فليأخذوه، وأن يقرن ذلك ببيان اعتماده في نيل أجره على الله وحده دون سواه.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86))﴾[ص]. وهنا أمر ﷺ أن ينفي سؤاله منهم أي أجر –وإن قل جدا– ويقرن ذلك بنفي تصنعه ما لم يكلفه به الله، فهو لا يتخرص عملا ولا يطلب من الناس أجرة، بل يؤدي ما أمره الله به، وأجره على ربه.

• وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[الشورى:23]. وهذا الموضع أمر فيه ﷺ أن ينفي طلبه أي جعل من المشركين مقابل نصحهم ودعوتهم إلى الله، مقرونا بطلبه منهم أن يكفوا أذاهم عنه رعاية لما يجمعهم به من القرابة النسبية.

– وليس نبينا ﷺ بدعا في التنزه عن طلب المال مقابل أداء رسالة ربه التي شرفه بها، بل ذلك ديدن إخوانه الأنبياء الذين سبقوه من قبل، فهو يسير على سننهم، ويعمل بسنتهم. قال الله سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(72))﴾[يونس]، وقال على لسان هود عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ لَا

(1) الطبري، جامع البيان، 144/1.

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51)﴾[هود]، وقال على لسان صالح عليه السلام : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)﴾[الشعراء]، وقال على لسان لوط عليه السلام : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164)﴾[الشعراء]، وقال على لسان شعيب عليه السلام : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180)﴾[الشعراء]؛ بل ذلك شأن الأنبياء جميعا، وبه شهد أهل الإيمان من قديم؛ قال الله تعالى مخبرا عن حال أحد المؤمنين العقلاء وهو يسدي النصيحة لقومه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(25)﴾[يس].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [(1)] فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110)﴾[الكهف].

– أي: قل –أيها النبي– للمشركين: ما أنا إلا آدمي مثلكم، إلا أن الله سبحانه خصني بالوحي ، فهو يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد لا شريك له ولا ند ، فمن كان يطمع في ملاقاة ربه ويؤمل نيل ثوابه والنجاة من عقابه فليعمل الأعمال الصالحة، وليمحض عبادته لله وحده متجنبا إشراك أي شيء فيها.[(2)]

– فتضمنت هذه الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يعلن للمشركين من قريش وسواهم أنه إنسان مثلهم، يأتيه الوحي من ربه عز وجل بأن إلههم –الذي هو إلهه أيضا وإله الكون كله– إله واحد، فمن كان مؤملا حسن لقياه فليعمل صالحا وليخلص لله في جميع عباداته.

– وسبب نزولها فيما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني؟ فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110)﴾[الكهف].[(3)] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

---

(1) وتضمنت هذه الآية فائدة كبيرة، وهي التنصيص على الأهم الذي هو ملاك الأمر، وذلك بتخصيص توحيد الألوهية بالذكر دون سائر ما يوحى إليه –وهو كثير شامل للعقائد والشرائع والأخلاق والقصص وغيرها؛ لأن مشركي قومه ﷺ كان إشراكهم في الألوهيه، حيث كانوا عباد أصنام وأوثان. [انظر:ابن عطية، المحرر الوجيز، 547/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 160/6؛ الألوسي، روح المعاني، 53/16].

(2) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 213/5؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 442؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 304.

(3) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 13014، 2394/7، عن طاووس؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 6438، 171/9؛ والحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد، رقم 2527، 142/2؛ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ وضعفه محمد ناصر

أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره، وليست هذه في المؤمنين. [1] وفي كتب التفسير آثار أخرى رويت سببا لنزولها أيضا تركتها لضعفها. فرواية البيهقي هي الراجحة لحسن إسنادها وضعف رواية الحاكم؛ أما إذا أردنا الجمع بينهما فيمكننا القول أنها نزلت ابتداء في المشركين الذين يعبدون مع الله غيره، ثم عمم الاستدلال بها ليشمل من يتطرق الرياء إلى عمله من المؤمنين باعتبار الرياء شركا. ويساعد على هذا الجمع أحاديث نبوية وآثار سلفية كثيرة؛ فمن الأحاديث ما رواه أحمد في مسنده عن محمود بن لبيد رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: (الرياء، إن الله يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)،[1] ومن الآثار قول الطبري في تفسير الآية محل الدراسة: (ولا يجعل له شريكا في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلا له شريكا بعبادته إذا راءى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل).[2]

- والذين ورد الأمر الإلهي إلى النبي ﷺ ليعلن لهم مضمون هذه الآية هم المشركون، كما قال الطبري وابن كثير والجزائري وغيرهم.[3]

- وفي الآية تقرير لبشرية الرسول ﷺ، وأنه ليس ملكا ولا شريكا في الألوهية، وليس روحا فقط أو نورا كما زعم بعض أهل الضلال.[4]

- وتضمنت الآية إرشادا للنبي ﷺ إلى خلق عظيم من أخلاق الإسلام وهو التواضع، رغم ما اختصه به ربه –دون سائر البشر– من الوحي والرسالة، وكفى بهما تميزا رفعة وشرفا.[5]

الدين الألباني ت 1999م، في ضعيف الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1421هـ–2000م، رقم 9، 22/1، ورقم 836، 413/1.

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 13013، 2394/7، عن ابن عباس رضي الله عنه؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 6437، 170/9–171؛ وعزاه السيوطي في الدر المنثور، 696/9، إلى ابن المنذر وابن مردويه؛ وحسنه سليم بن عيد الهلالي وآخر في الاستيعاب في بيان الأسباب، 477/2.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 24030، و24031، و24036، ص 1741–1742، واللفظ له؛ والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، رقم 6412، 154/9–155؛ والبغوي في شرح السنة، رقم 4135، 323/14–324؛ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه؛ وحسنه شعيب الأرنؤوط في تخريجه للمسند، رقم 23630، 39/39.

(2) الطبري، جامع البيان، 440/15.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 439؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 145/5؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 291/3.

(4) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 160/6؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 880؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 292/3.

(5) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 880.

- واختلفت أقوال المفسرين في معنى الرجاء الوارد في الآية؛ ففسره البعض بالخوف، وفسره البعض الآخر بالأمل والطمع؛ ثم اختلفت أقوالهم في سبب الخوف، فقيل: من البعث بعد الموت، وقيل: من المصير إلى ربه، وقيل: من سوء لقائه عز وجل، وقيل غير ذلك؛ كما اختلفت آراؤهم فيما يؤمل ويطمع، فقيل: في ثواب الله وصالح جزائه، وقيل: في حسن لقائه سبحانه، وقيل: في رؤيته جل وعلا، وقيل غير ذلك. [1] ولا حاجة بنا إلى الترجيح بين هذه الأقوال -في تقديري- لأنها غير متعارضة، بل هي متكاملة فيما بينها، ولفظ الآية يتسع لها جميعا. قال القرطبي: (أي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ... والكل مراد، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال).[1] والله أعلم.

- والعمل الصالح المأمور به في الآية هو فعل الخير الذي يثاب فاعله، وهو ما كان مطابقا لشرع الله تبارك وتعالى، موافقا لسنة رسول الله ﷺ.[2]

- والشرك المنهي عنه في هذه الآية شامل للشرك الأكبر الجلي الذي يراد فيه بالعمل وجه غير الله سبحانه، سواء كان ذلك الغير ملكا، أو بشرا صالحا أو طالحا، أو حيوانا، أو جمادا، أو غير ذلك، كما يشمل الشرك الأصغر الخفي الذي هو الرياء؛ وعكس الشرك هو الإخلاص لله تعالى الذي إذا اقترن بالعمل الصالح المشار إلى مفهومه آنفا كان مقبولا عند الله سبحانه، وفاز صاحبهما برضوان الله وثوابه يوم لقائه.[3]

- وفي الآية تقرير لعقيدة التوحيد، وعقيدة البعث والجزاء بعد الموت، وتحريم للشرك أيا كان نوعه وفاعله.[4]

وخلاصة هذا المطلب: تعريف جامع مانع بالنبي ﷺ تولاه هو بتوجيه من الله سبحانه؛ فقدم نفسه للمشركين تقديما يلخص لهم حقيقته وحدود وظيفته الخاصة والعامة وحدود قدراته.

- فأثبت لنفسه البشرية المحضة التي تجعله لا يختلف عن سواه من البشر في قليل أو كثير إلا بالنبوة التي اتصف بها من سبقه من الأنبياء الذين يعترف المشركون بنبوتهم ولا يستكثرونها عليهم.

- وبين أنه ملزم بجميع ما يلزم به أي فرد ممن يستجيب له من المؤمنين من أحكام الإسلام، وإخلاص الدين لله، وأنه يخاف على نفسه عواقب العصيان كما يخافها غيره من المسلمين.

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 439/15؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 178/21؛ السمرقندي، بحر العلوم، 315/2؛ الخازن، لباب التأويل، 180/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 160/6؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 398/13؛ النسفي، مدارك التنزيل، 323/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 146/5؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 305.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 398/13.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 146/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 880.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 146/5-148؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 880.

(4) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 292/3.

- ونفى عن نفسه جميع خصائص الربوبية، كعلم الغيب وامتلاك خزائن الكون وتعجيل العذاب للمخالفين، كما نفى عنه وصف الملائكية؛ بحيث لا يملك حتى نفع نفسه وضرها؛ فهو لا يزيد عن سائر البشر بشيء إلا بنزول الوحي عليه.

المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين جوابا على اقتراحاتهم.

قابل المشركون دعوة النبي ﷺ لهم إلى الإيمان بالله وحده ودينه الحق بالرفض والعناد، وحاولوا تسويغ ذلك بحجج داحضة لا تقنعهم -هم أنفسهم- فضلا عن غيرهم. وقد نقل الحق سبحانه طرفا منها في كتابه الكريم؛ منها قوله سبحانه على ألسنتهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ(5)﴾[ص]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)﴾[الزخرف]، وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148)﴾[الأنعام]، وغيرها. فلما نسف القرآن الكريم تلك التعليلات، وكشف أنها لا تزن هباءة، راحوا يقترحون على النبي ﷺ مطالب أخرى عسى أن يهادن الحق أهواءهم، أو ليوهموا الناس أنهم طلاب تفاهم وتوافق ومصالحة، أو ليمكنهم الادعاء -بعد- أن تجاهل النبي ﷺ لمقترحاتهم هو سبب إعراضهم عن إجابته إلى الدين الجديد. فما تلكم المطالب التي اقترحوها عليه ﷺ؟ وبم كان يرد عليهم؟ ذلك ما سنحاول الوصول إليه من خلال سوق وتحليل النصوص القرآنية المشتملة على الأوامر الربانية المتوجهة إليه ﷺ في هذا الصدد مراعين ترتيب المصحف. فمن تلك النصوص:

* قوله تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ(109)﴾[الأنعام].

- أي: وحلف المشركون المكذبون للرسول ﷺ مجتهدين غاية ما يمكنهم في حلفهم لئن أتتهم آية دالة على صدقه ﷺ من الآيات التي اقترحوها ليبادرن إلى التصديق به وبما أنزل عليه ﷺ بسببها، قل -أيها النبي لهم-: إن الآيات التي تطلبون عند الله وحده، وهو دون سواه القادر على الإتيان بها إن شاء ومنعها إذا أراد ، وليست في يدي أنا، وما يدريكم -أيها المؤمنون- أن الكفار إذا أتتهم هذه الآيات المقترحة يؤمنون أو لايؤمنون.[1]

- فتضمنت هذه الآية أمرا من الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على المشركين -الذين اقترحوا عليه ﷺ أن يأتيهم بآية ليؤمنوا به- بأن ظهور الآيات بيد الله وحده، وليست بيده هو ﷺ ليأتيهم بها متى طلبوها.

- وسبب نزولها فيما رواه الطبري والواحدي من حديث محمد بن كعب القرظي، قال: كلم رسول الله ﷺ قريشا، فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة؟ فأتنا بشيء من الآيات حتى نصدقك فقال النبي ﷺ: (أي شيء تحبون أن آتيكم به؟)، قالوا:

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 2/333-334؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/435-437؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 247؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 109.

تجعل لنا الصفا ذهبا، فقال له م: (فإن فعلت تصدقوني؟)، قالوا: نعم ، والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال: لك ما شئت : إن شئت أصبح ذهبا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال: (بل يتوب تائبهم)؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ ... إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾.[1] ولكنه أثر ضعيف.[2]

– والذين جاء الأمر الإلهي إلى النبي ﷺ ليجيبهم بما تضمنته هذه الآية هم المشركون من قومه، كما قال الطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم.[1]

– وأقسم معناه (حلف، وأصله من القسامة، وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم)، [2] سمي بذلك لأنه لا يكون إلا عند انقسام الناس في أمر ما إلى مصدق ومكذب، فكأن المقسم يقوي القسم الذي يختاره هو.[3]

– وجهد الأيمان أغلظها وأشدها، وهي التي يهدف فيها الحالف إلى المبالغة قدر الطاقة للبرهنة على صدقه فيما حلف عليه. قال ابن عاشور: (وجهد الأيمان –بفتح الجيم– أقواها وأغلظها، وحقيقة الجهد التعب والمشقة ومنتهى الطاقة، وفعله كمنع. ثم أطلق على أشد الفعل ونهاية قوته لما بين الشدة والمشقة من الملازمة، وشاع ذلك في كلامهم ثم استعمل في الآية في معنى أوكد الأيمان وأغلظها، أي أقسموا أقوى قسم، وذلك بالتوكيد والتكرير ونحو ذلك مما يغلظ به اليمين عرفا).[4]

– والمقصود بالآية في هذا الموضع هو المعجزة، أي الخارقة من خوارق العادات، كعدم الاحتراق بالنار، وكلام الوليد في المهد، وغيرهما من الأمور التي تجري على خلاف سنن الله الكونية؛ ومجيئها هو وقوعها وحدوثها؛ لأن وقوع ما كان عدما شبيه بحضور الغائب بعد غيابه.[5]

– ومعنى العندية في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْآَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أنها أثر لقوته وإرادته تعالى يوجدها في اللحظة التي يشاء ويظهرها للناس؛ فكأنها حاضرة عنده، لأن عند الشيء هو (حضور الشيء ودنوه)، [6] ومعلوم –عرفا– أن الاستئثار من لوازم ما يكون في المكان الشديد القرب.[7]

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان، 9/485-486؛ والواحدي في أسباب النزول، ص 222-223.

(2) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/153-154.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 9/484؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/227؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 141.

(2) الرازي، مختار الصحاح، ص 264.

(3) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 4/203.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/233.

(5) انظر: الدامغاني، قاموس القرآن، ص 61؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/435.

(6) الرازي، مختار الصحاح، ص 227.

(7) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/436.

- واختلف المفسرون فيمن توجه إليه الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾؛ فذهب البعض إلى أنه توجه للمشركين المقسمين بالله جهد أيمانهم على إيمانهم إن جاءتهم آية، وأن معنى الكلام تم عند هذا الحد، ثم استؤنف مجددا استئنافا مبتدأ بالحكم عليهم أنهم لايؤمنون حين مجيئها. ومن هؤلاء مجاهد. وهذا المعنى تؤيده قراءة بعض المكيين والبصريين، ك ابن كثير[1] وأبي عمرو ويعقوب وخلف، بكسر ألف: ﴿إِنَّهَا﴾ . وذهب البعض الآخر إلى أن الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، على اعتبار أن من سألوا رسول الله ﷺ الآية هم أصحابه رضوان الله عليهم طمعا منهم في إيمان الكفار بدينهم، وذلك حين حلفوا بالله ليؤمنن إن جاءتهم آية، وأنه ﷺ استجاب للمؤمنين فسأل ربه سبحانه. ومن هؤلاء الطبري والزمخشري وغيرهم. وهذا المعنى تؤيده قراءة جمهور القراء، ومنهم عامة المدنيين والكوفيين، ك ابن عامر والأعمش وحمزة وغيرهم، بفتح ألف: ﴿أَنَّهَا﴾، وهو الرأي الراجح -في تقديري- لاستفاضة القراءة عند أكثر قراء الأمصار بالياء في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولو كان الخطاب للمشركين لكانت بالتاء، وما نقل منها بالتاء عن بعض المكيين فهو قليل، تلحقه قلته بالقراءات الشاذة، ولكثرة الشواهد على إمكانية تفسير ﴿أَنَّهَا﴾ بمعنى (لعلها)، كقول امرئ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام[1]

فيكون المعنى على هذا: (وما يدريكم أيها المؤمنون لعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك ولا يؤخروا به)،[2] والله أعلم.[3]

- وتضمنت الآية إلماعا إلى أن الله عز وجل لم يستجب لاقتراحهم لعلمه سبحانه بأنهم لايؤمنون بها لو جاءتهم، [4] وفي كتب السنة المطهرة والسيرة المشرفة نماذج عديدة تؤكد إخلافهم في وعودهم وحنثهم في أيمانهم المتعلقة بهذا الموضوع. روى البخاري

---

(1) هو أبو معبد عبد الله بن كثير الداري. تابعي جليل إمام مقرئ محدث ثقة واعظ قاض عابد. ولد سنة 45هـ بمكة، وأصله من الفرس. تصدر للإقراء بعد موت مجاهد فلم يكن في مكة من يماثله في هذا الشأن. من شيوخه الذين قرأ عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن السائب المخزومي رضي الله عنه والتابعي الجليل مجاهد بن جبر، ومن تلاميذه الذين قرؤوا عليه أبو عمرو بن العلاء والحمادان والحارث بن قدامة وغيرهم كثير. توفي سنة 120هـ بمكة. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، معرفة القراء الكبار، رقم 37، 197/1؛ صابر حسن محمد أبو سليمان، كشف الضياء في تاريخ القراءات والقراء، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1416هـ-1995هـ، ص 116].

(1) امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط5، 1377هـ-1958م، ص 114.

(2) الطبري، جامع البيان، 489/9.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 486-489، الزمخشري، الكشاف، 387/2؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 152/13؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 496/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 177/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 227/3-228؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 436/7-440.

(4) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 177/2.

في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما. [1] وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه: فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا).[2] وقد سجل ربنا عز وجل هذه المعجزة العظيمة في القرآن الكريم، كما سجل نكوصهم ووصفهم لتحقيق اقتراحهم بأنه ممارسة للسحر من قبله ﷺ. قال سبحانه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ(1)وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ(2)وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(3)﴾[القمر].

– ولحكمة ربانية تكرر الأمر إلى النبي ﷺ بالرد المناسب على المشركين كلما تكرر اقتراحهم عليه أن يجيئهم بالآيات، ورد ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، كلها في سور مكية، وهي على الترتيب:

• قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(203)﴾[الأعراف]. قال ابن كثير: (﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾، أي معجزة وخارق).[1] ففي هذا الموضع بين سبحانه أنهم كانوا يقترحون على النبي ﷺ أن ينشئها هو ويحدثها من عنده، أو يلح على ربه سبحانه لإنزالها. [2] وقد أمره ربه سبحانه أن يرد عليهم بأنه يمتثل ما يوحي إليه ربه ولا يفتئت عليه، وأن هذا القرآن هو أكبر المعجزات وأعظم الآيات.

• وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ(20)﴾[يونس]. وهنا تكرر اقتراحهم لنزول الآية، فأمر ﷺ أن يجيبهم بأن الآيات غيب استأثر الله به، فهو من يحدد نزولها من عدمه، فليرتقبوا مشيئته وحكمه.

• وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(50)أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(51)﴾[العنكبوت]. وهذه الآية كسابقاتها تسجل اقتراحهم أن تنزل الآيات على النبي ﷺ، وتتضمن أمرا إليه ﷺ أن يجيبهم بأنها بيد الله لا بيده هو، وأن وظيفته إنذارهم لا إبهارهم بالمعجزات، وأن القرآن الذي يتلوه عليهم يغني بإعجازه المتنوع عن كل معجزة سواه، ويكفي من كان باحثا عن الحق.

• وقد ورد في آخر سورة النمل آية فيها أمر من الله لنبيه ﷺ أن يحمده، وأن يعد أولئك المشركين بأنه سيريهم آياته، ولم أعده رابعا للثلاثة التي مرت آنفا لسببين: أولهما: أنه لم يكن عن اقتراح منهم. وثانيهما: أن الآيات المذكورة فيها –على الراجح– لم يقصد بها المعجزات الخوارق للعادات التي نحن بصدد الحديث عنها، وإنما أريد بها دلائل قدرته ووحدانيته المبثوثة في النفوس

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، رقم 3868، ص 700.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ(1)وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾[القمر: 1-2]، رقم 4864، ص 908.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 383/3.

(2) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 654/10-656؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 382/3-383.

والآفاق، والتي لا تحتاج إلى إنزال، بل تحتاج إلى تأمل في النفس والكون، أو يكون ذلك في الآخرة، وقيل: أشراط الساعة التي تسبقها، وقيل غير ذلك.[1] قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(93)﴾[النمل].

* وقوله تعالى:﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا(90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا(91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا(92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا(93)﴾[الإسراء].

– أي: فقالوا: لن نصدقك –يا محمد– حتى تجري لنا من أرض مكة عينا جارية لا تنضب، أو يكون لك بها روضة من نخيل وعنب فتشق الأنهار في جنباتها شقا، أو توقع السماء فوقنا قطعا كما زعمت أن الله هددنا به، أو تجيئ بالله والملائكة نقابلهم مقابلة ومواجهة، أو يكون لك بيت من ذهب، أو تعرج في السماء، ولن نصدق عروجك –ولو فعلت– إلا أن تجيئنا منها بكتاب من عند الله يشهد لك فيه أنك رسوله حقا نقرؤه بأنفسنا. قل لهم –أيها النبي– متعجبا من تعنتهم : تنزيها لربي أن يملي عليه أحد ما يفعل، أو يشاركه في قدرته مخلوق، ما أنا إلا إنسان رسول ككل الرسل السابقين الذين لم يأتوا أقوامهم من الآيات إلا بما أذن الله به.[1]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بالرد على المشركين من قومه –الذين اقترحوا عليه أن يأتيهم بجملة من المعجزات ليؤمنوا به وبالغوا في شروطها– بتنزيهه جل جلاله عن تحكمهم وتهكمهم، وتذكيرهم بأنه ﷺ لا يزيد عن كونه آدميا مثلهم رسولا إليهم حتى يطالبوه بما ذكروا.

– وسبب نزولها فيما رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن (عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا، أو من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصا، يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا

(1) انظر على سبيل المثال: المثال: الماوردي، النكت والعيون، 232/4؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 290/4؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 138/2؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 158/6.

(1) انظر على سبيل المثال: المثال: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 422–423؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 291.

محمد، إنا قد بعثنا إليك لن عذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئيا تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي- فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو ن عذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: (ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)، أو كما قال رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشا منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخا صدوقا، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك، وصدقوك صدقناك ... فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ... قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ...).[1] قال الواحدي في كتابه أسباب النزول -بعد نقله حديث ابن عباس هذا بطوله-: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الآيات.[2] ولكنه ضعيف لجهالة شيخ محمد بن إسحاق.[3]

- والذين جاء الأمر الرباني إلى النبي ﷺ ليرد عليهم بما تضمنته هذه الآية هم المشركون من أهل مكة، كما قال الطبري والرازي والقرطبي وغيرهم.[4]

- **وفجر** الماء لغة بجسه وفتحه، وانفجر الماء، مطاوع فجر، أي انبعث سائلا، وكذلك تفجر؛ وفجر الأرض معناه شقها، وتفجيرها تشقيقها لاستخراج الماء، ومنه سمي ضوء آخر الليل فجرا؛ لأن الظلمة تنشق عن نوره فيظهر .[1] والمفسرون على

---

(1) الطبري، جامع البيان، 87/15-89.

(2) الواحدي، أسباب النزول، ص 292-294.

(3) انظر: سليم الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 461/2.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 78/15؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 59/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 172/13.

وفاق تام مع اللغويين في معنى الفجر والتفجير في هذا الموضع. واختلف القراء في قراءة كلمة ﴿تَفْجُرَ﴾، فقرأها عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم خفيفة، بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم، وكأنما ذلك أنسب لفجر الماء مرة واحدة من الأرض؛ بينما ذهب إلى تشديدها ابن كثير ونافع [1] وأبو عمرو وابن عامر ، وذلك بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة، وكأن ذلك أوفق لتفجير الماء مرة بعد مرة، وفي مواضع مختلفة، لأن التشديد يدل على التكثير، فهو هنا للمبالغة لا للتعدية.[2]

- **والكسف** -بفتح السين وبسكونها أيضا- جمع كسفة، بكسر الكاف وسكون السين، وهي القطعة من الشيء. وقيل: الكسف -بسكون السين- والكسفة شيء واحد. وكسف الشيء يكسفه: قطعه، وكسفت الشمس: احتجبت، وفلان كاسف البال: أي ساءت حاله. [3] واختلف القراء في قراءة لفظة ﴿كِسَفًا﴾ في هذه الآية محل الدراسة ؛ فقرأتها عامة قراء الكوفة والبصرة -كابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي- بسكون السين، فيكون المراد به هو جمع الكثرة، ويحتمل أيضا -على هذه القراءة- أن يراد به المفرد، كما يمكن أن يقصد به المصدر ؛ وقرأها عامة قراء أهل المدينة وبعض قراء الكوفة -كابن عامر ونافع وأبي بكر عن عاصم- بفتح السين، وهو في هذه الحال جمع لما يتراوح أفراده بين الثلاث إلى العشر . فالمعنى -على القراءتين كلتيهما- أن تسقط السماء علينا مقطعة؛ لأنها منصوبة على الحال.[4]

- **والقبيل** في اللغة له معان عديدة، منها: الجماعة من أقوام شتى -أو من أصل واحد- إذا بلغ عددهم ثلاثة فما فوقها، والكفيل، والعريف، والضامن، والزوج، والمقابلة التي بمعنى المعاينة والمواجهة، وما أقبلت به المرأة من غزلها عندما تفتله، ومن هذا المعنى قولهم: فلان لا يعرف قبيلا من دبير. [5] واختلف المفسرون في معناه في هذا الموضع من الكتاب العزيز؛ فقال بعض: معناه مقابلة و معاينة ، أي فنراهم ، ومن هؤلاء قتادة وابن جريج ؛ وقال بعض آخر: معناه شهيدا، ومنهم مقاتل؛ وقال فريق ثالث: معناه كفيلا وزعيما وضامنا، ومن هؤلاء الضحاك والزمخشري؛ وقال فريق رابع: معناه تأتي كل قبيلة منا على حدة، أو

---

(1) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص244؛ الزمخشري، أساس البلاغة، 8/2؛ ابن منظور، لسان العرب، 131/11.

(1) هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني. تابع تابعي إمام علم مقرئ ثقة زاهد. أصله من أصفهان، وفي المدينة النبوية عاش. من شيوخه الذين قرأ عليهم عبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وشيبة بن نصاح وغيرهم كثير، ومن تلاميذه الذين قرؤوا عليه الإمام مالك بن أنس وعيسى بن وردان وخلف بن وضاح وغيرهم. توفي سنة 169هـ. [انظر على سبيل المثال: الزرقاني، مناهل العرفان، ص 317؛ صابر حسن محمد أبو سليمان، كشف الضياء، ص 109].

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 79/15؛ الزمخشري، الكشاف، 552/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 58/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 174/13-175؛ السمرقندي، بحر العلوم، 283/2؛ الماوردي، النكت والعيون، 272/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 484/3.

(3) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 281؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 848.

(4) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 80/15؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 58/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 266/3-267؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 842.

(5) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 258؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1045.

بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، أي فوجا بعد فوج، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومن أصحاب هذا الرأي: مجاهد وعطاء؛ وقيل: معناه مقابلا .[1] والراجح -في تقديري- هو الرأي الأول؛ لأنه هو المناسب لإمعانهم في الكفر الذي دل عليه سياق هذه الآيات، فهو كقول إخوانهم اليهود من قبل لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: 55]، ويؤيده أيضا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا(21)﴾[الفرقان]، وهو ما رجحه الطبري. قال رحمه الله: (وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قاله قتادة من أنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلت فلانا مقابلة، وفلان قبيل فلان، بمعنى قبالته).[2]

– ودلت الآيات على أن المشركين لم يكونوا باحثين عن الحق يلتمسون دليلا على صدق النبي ﷺ ليتبعوه، بل كانوا متعنتين معاندين حريصين على تعجيزه بكل طريقة ووسيلة، ولو جاءتهم جميع الآيات التي طلبوها ما آمنوا كما زعموا. قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(7)﴾[الأنعام]، وقال أيضا: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15)﴾[الحجر]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

– ومن حكمة الله سبحانه في عدم استجابته لاقتراحاتهم غلق الباب أمام تحكمهم وعنادهم وتلاعبهم، ومحاولة شغلهم النبي ﷺ عن وظائفه الحقيقية، خصوصا بعد أن أروا بعض الآيات كانشقاق القمر [3] فتملصوا من وعودهم بالإيمان باتهامه ﷺ بالسحر. قال الرازي: (وليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها ، لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع)،[4] وقال القرطبي: (ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى).[5]

– ودل القرآن الكريم على أن المشركين في زمانه ﷺ سائرون على سنن إخوانهم من الأمم الماضية حذو النعل بالنعل. قال تعالى على لسان قوم شعيب وهم يخاطبون نبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(186)فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 82/15-83؛ الزمخشري، الكشاف، 552/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 58/21-59؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 176/13؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 267/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 283/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 842.

(2) الطبري، جامع البيان، 83/15.

(3) لأن سورة الإسراء هي الخمسون في ترتيب نزول السور، بينما سورة القمر هي السابعة والثلاثون، كما نقل ابن عاشور، فدل ذلك على أن اقتراحاتهم هذه مجرد تلاعب وتحكم. [انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/15 و165/27].

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 57/21.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 177/13.

مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(187)﴾[الشعراء]؛ وهذا سبب آخر مهم جدا في عدم استجابة الله لهم حين اقترحوا على النبي ﷺ إنزال الآيات. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) ﴾[الإسراء].

– والظاهر أن الكفر –وكذلك غيره من الأفكار الهدامة– إذا طال بأصحابه أفسد فطرتهم ونكس منطقهم؛ وآية ذلك أنهم يدعون الله أن ينزل عليهم عذابا إن كان ما جاء به النبي ﷺ حقا، خلافا للمنطق السليم الذي يقتضي أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وارزقنا اتباعه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(32)﴾[الأنفال]؛ كما تدل هذه الآية على أنهم بيتوا النية منذ البداية على رفض الإسلام بغض النظر عن ثبوت دليل كونه من عند الله أو عدم ثبوته، وأما تلك المطالب والاقتراحات فمجرد ذرائع للتعلل والتحجج فحسب.

– وفي الآية تقرير لبشرية ورسالة النبي ﷺ، ونفي لتصرفه في الكون كما زعم بعض الضالين من المنتسبين إلى أهل الإسلام.

– وفيها أيضا دلالة على قوة عناد المشركين من أهل مكة وشدة تعصبهم وتصلب موقفهم تجاه النبي ﷺ، كما دلت على سخف عقولهم وانحطاط تفكيرهم؛ ففي الوقت الذي يستكثرون فيه على النبي ﷺ أن يكون رسولا من عند الله يؤمنون بأن قطعا من الحجر والجص آلهة تشارك رب السماوات والأرض في استحقاق التعظيم والعبادة والخوف والرجاء.[1]

* وقوله تعالى:﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(5)قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ(6)﴾[فصلت].

– أي: وقال المشركون المعرضون عن سماع القرآن الكريم للرسول ﷺ: قلوبنا في أغطية حائلة بيننا وبين ما تدعونا إليه من توحيد الله، وفى آذاننا ثقل فلا نسمع ما تقول لنا، وبيننا وبينك –يا محمد– ساتر يفصلنا عن قبول ما جئت به، فاعمل كل ما في طاقتك إننا عاملون جميع ما نقدر عليه. قل لهم –أيها النبي–: ما أنا إلا آدمي مماثل لكم يوحى إلي من قبل الله أنما مألوهكم الحق الذي يستحق العبادة إله واحد لا شريك له في ذلك الحق ، فاسلكوا إليه الطريق المستقيم الموصل إليه ، واسألوه غفران آثامكم، وأشد الشر معد للمشركين بالله غيره في عبادته.[2]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بإجابة المشركين من قريش –الذين اقترحوا عليه أن يعمل كل ما في إمكانه للوصول إلى غايته– بأنه لا يزيد عن كونه بشرا مثلهم إلا بما خصه الله به من الوحي الذي يتلخص مضمونه في توحيد الله ربهم بالعبادة دون سائر ما يعبد من دونه، فليسلكوا إليه الصراط القويم، وليستغفروه لذنوبهم.

– ولم يرد في سبب نزولها شيء في حدود ما اطلعت عليه، والله أعلم.

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 226/3.

(2) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 707؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 477.

- والذين جاء الأمر من الله إلى نبيه ﷺ ليجيبهم بما تضمنته هذه الآية هم المشركون من قريش، كما قال الخازن وابن كثير واسماعيل حقي وغيرهم.[1]

- **والأكنة** -لغة- جمع كنان، وهو الغطاء والوقاء وزنا ومعنى، مأخوذ من قولهم كن الشيء إذا ستره وصانه، ومادة هذه الكلمة ترجع إلى أصل واحد يدل على الستر أو الصون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾[الأنعام: 25].[2]

ولم يزد المفسرون في معناها في هذا الموضع -فيما أعلم- على قولين: أحدهما: أنها الأغطية وما يرادفها من مفردات، وثانيهما: (ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره)،[3] ككنانة النبل وما في معناها.[4]

- **والوقر** -بفتح الواو- يطلق في اللغة على معان، منها: الثقل في الأذن، وذهاب السمع بالكلية، ومنه قولهم: وقرت -بكسر القاف- أذن فلان، أي صمت. كما يطلق على الصدع إذا كان في الساق، وعلى ما يكون في الحجر أو العين أو العظم مما يشبه الوكتة.[5] ولم يتجاوز المفسرون -تبعا للغويين- في معناه في هذه الآية -فيما اطلعت عليه- قولين: أحدهما: أنه الثقل في الأذن، وثانيهما: أنه الصمم. وبعضهم فسره بهما معا من باب التوكيد، معاملة لهما معاملة المترادفين لتقارب معناهما -كما فعل الرازي- وهو أمر سائغ -في تقديري- لأن الصمم ثقل تام في الأذن، والثقل في الأذن نوع صمم، وإن لم يكن تاما. قال ابن فارس: (الواو والقاف والراء: أصل يدل على ثقل في الشيء)،[6] بينما الذين فرقوا راعوا -فيما يبدو- الفرق بين اللفظين، ففسره كل بما أداه إليه اجتهاده. قال الماوردي: (أي صمم ، وهما في اللغة يفترقان ، فالوقر ثقل السمع والصمم ذهاب جميعه).[7] وليس بنا حاجة للترجيح؛ لأن الخلاف ليس حقيقيا، والله أعلم.[8]

- وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أربع استعارات كاملة تصور مدى مباعدة المشركين للنبي ﷺ وانقباض أنفسهم عن مجرد سماعه ومحاورته فضلا عن قبول ما جاء به من الحق، وهو دليل على

---

(1) انظر: الخازن، لباب التأويل، 82/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 117/7؛ اسماعيل حقي، روح البيان، 227/8.

(2) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 286؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1228؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 123/5.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/5.

(4) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 377/20؛ الزمخشري، الكشاف، 367/5؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 98/27؛ البغوي، معالم التنزيل، 163/7؛ السمرقندي، بحر العلوم، 176/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 66/5.

(5) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 356؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 493.

(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 132/6.

(7) الماوردي، النكت والعيون، 132/6.

(8) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 377/20؛ الزمخشري، الكشاف، 367/5؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 98/27؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 391/18؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 115/7؛ الخازن، لباب التأويل، 82/4؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 32/5.

أن المخالفين له ﷺ هم الذين يرفضون الحوار ويغلقون أبوابه خوفا من الاقتناع بالإسلام وما يحمله من حقائق تكشف زيف ما ورثوه عن آبائهم من عقائد وأفكار.

– ودل القرآن الكريم على شدة شبه مشركي مكة في موقفهم من النبي ﷺ وتعبيرهم عنه باليهود الأوائل في موقفهم من نبيهم موسى عليه السلام وتصويرهم له. قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ(88)﴾[البقرة].

– وفي الكتاب العزيز تصديق وتوكيد من الله عز وجل للمشركين في وصفهم لشدة كفرهم وقوة إصرارهم عليه ومنابذتهم للنبي ﷺ. قال الله جل شأنه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(25)﴾[الأنعام].

– واختلفت أقوال المفسرين في معنى الحجاب الوارد في الآية؛ فقال بعضهم: هو تمثيل لاستحالة تواصلهم معه ﷺ وامتناع موافقتهم له. وممن قال بهذا الرأي الزمخشري والبيضاوي والنسفي . وقال آخرون: هو الاختلاف في الدين؛ لأن دين المشركين هو عبادة الأصنام، ودين النبي ﷺ هو عبادة الله وحده. ومن أصحاب هذا القول الطبري والقرطبي والسيوطي والشوكاني . وقال فريق ثالث: هو الثوب؛ لما روي أن أبا جهل أخذ ثوبا فمده فيما بينه وبين رسول الله ﷺ –وقيل: استغشى ثوبا على رأسه – ثم قال: يا محمد بيننا وبينك حجاب، سخرية منه ﷺ. وقال ابن عاشور: هو كراهيتهم لدينه ﷺ. وقيل غير ذلك.[1] والراجح –في تقديري– هو القول الأول؛ لأن مقصود المشركين هو المبالغة في تصوير انقطاع الصلة بينهم وبين النبي ﷺ ونفي استجابتهم له نفيا تاما عاما، وليس مرادهم تحديد نوع المانع الذي يمنع التواصل بينهم وبينه ﷺ. والله أعلم.

– واقتصر المشركون على ذكر أحوال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم دون سواها من الأعضاء لأن هذه آلات تحصيل المعرفة. فالقلب محل العقل ووسيلة الإدراك والفهم، والسمع والبصر طريقان إليه يزودانه بالمعلومات والمعطيات ليتأملها ويميز بينها ويصدر الحكم عليها ويحدد الموقف المناسب تجاهها.[2] ويؤكد كون هذه الأعضاء كذلك قوله تعالى عن كفرة الجن والإنس: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(179)﴾[الأعراف].

– وتنوعت آراء أهل التفسير في معنى العمل الذي اقترحه المشركون في قوله جل جلاله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ فقالت طائفة: معناه فاعمل بما يقتضيه دينك، إننا عاملون بما يقتضيه ديننا. وممن قال بهذا الرأي: الطبري والزمخشري والشوكاني. وقالت أخرى: المعنى: اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون في إبطال أمرك. ومن أصحاب هذا الرأي: الرازي والبيضاوي. وقالت ثالثة:

---

(1) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 378/20؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 391/18؛ السيوطي، الدر المنثور، ص 477؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 32/5؛ الماوردي، النكت والعيون، 168/5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 234/24.

(2) انظر على سبيل المثال: أبو حيان، البحر المحيط، 464/7؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 98/27؛ اسماعيل حقي، روح البيان، 228/8.

معناه اعمل في هلاكنا فنحن عاملون في هلاكك . وممن قاله الكلبي . وقالت رابعة: معناه اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبد . ومن القائلين بهذا الرأي مقاتل. وقالت خامسة: المعنى: فاعمل لآخرتك إنا عاملون لدنيانا . نقله الماوردي. وقيل غير هذا.[1] والراجح -في تقديري- هو الرأي الثالث؛ لأن المقام مقام تيئيس له من اتباعه وبيان عدم الاكتراث لما يتوعدهم به ﷺ من العذاب؛ يؤكد هذا عباراتهم الثلاثة التي سبقت هذه الجملة والتي صورت إغلاقهم لجميع المنافذ التي يمكن أن يتسرب منها إليهم التأثر بما يقول. قال ابن عاشور: (والأمر في قوله ﴿فَاعْمَلْ﴾ مستعمل في التسوية ... والخبر في قولهم ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ مستعمل في التهديد).[2] والله أعلم.

- وللرد على اقتراح المشركين الذي لقنه ربنا سبحانه لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ دلالات كثيرة أيضا، منها: أنني -أي النبي ﷺ- لا قدرة لي على إرغامكم على الإيمان والإسلام قسرا حتى تتحدوني بعمل أكيدكم به، ولا طاقة عندي فأقلب قلوبكم من الشرك إلى التوحيد، وليس ذلك من وظيفتي. ومنها: أنني لست مخلوقا من غير جنسكم كالجني والملك وغيرهما، أو أطلب ما ليس معقولا في أذهان البشر، حتى تستكن قلوبكم وتصم آذانكم وتحتجب أبصاركم مما أدعوكم إليكم. ومنها: أنني متواضع، ولست جبارا عنيدا، ولا طاغية يريد العلو في الأرض، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(32)﴾[مريم]. ومنها: أنني أفوض أمر مجازاتكم على عنادكم وكفركم إلى الله جل جلاله؛ لأني لا أقوى على عقوبتكم باعتباري بشرا مثلكم واحدا، وأنتم قبيلة كثيفة العدد.[3]

- وفي قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ تنصيص على أمرين في غاية الأهمية أمر ﷺ أن يعلنهما للمشركين: أولهما: الفرق بينه وبينهم وأمثالهم من البشر هو وحي الله إليه دونهم لا أكثر، وهو فرق لا يغير أي شيء من طبيعته البشرية، ولا يحوله ملكا أو إلها أو شريكا مع الله، وإن كان يجمع له شرف الدنيا والآخرة من أطرافه كلها. وثانيهما: محور الدين الجديد الذي جاء به ﷺ ويدعوهم وسواهم من الناس إليه وهو توحيد الله الذي يعني البراءة التامة من الشركاء والأمثال والأنداد جميعا، وهو محور ما جاء به جميع الأنبياء والرسل قبله، فليس هو ﷺ بدعا فيهم حتى يتنكر له الناس بهذه الطريقة الفجة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25)﴾[الأنبياء].

---

(1) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 378/20؛ الزمخشري، الكشاف، 367/5؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 99/27؛ الماوردي، النكت والعيون، 168/5؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 392/18؛ ابن عطية، المحرر الوجيز؛ 4/5؛ أبو حيان، البحر المحيط، 463/7-464؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 66/5؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1309.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 236/24.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، 99/27؛ أبو حيان، البحر المحيط، 464/7؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 286/8؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 32/5-33؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1309؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 236/24-237.

- وفي قوله سبحانه على لسان نبيه ﷺ مخاطبا المشركين: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ خلاصة ما يتفرع عن ذلك المحور الكبير، وهي أمران: الأول: أن يسيروا على الطريق المستقيم الذي رسمه الله لهم وبينه نبيه ﷺ، وذلك بأن يعتقدوا كل ما أخبرهم ويعملوا بجميع ما أمرهم في حدود استطاعتهم. والثاني: أن يسألوه مغفرة ما مضى من شركهم، وما وقع من قبل أو يقع بعد منهم من الذنوب أو التقصير في الطاعات.(1)

- ولما أمر النبي ﷺ أن يبين للمشركين أن توحيد الله سبحانه هو محور الإسلام ورأس الطاعات، أمر بعد ذلك أن يعلن الوعيد لمن تلبس بنقيضه وهو الشرك، لأنه محور المحادة لله ورأس المعاصي. قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.(2) قال السمرقندي: (يعني الشدة من العذاب للمشركين).(3)

وخلاصة هذا المطلب:

- أن المشركين كانوا يقابلون دعوة النبي ﷺ لهم إلى الإسلام بمطالبته بإتيانهم بالمعجزات الخارقة للعادة، مع الإلحاح على ذلك.

- وأنه ﷺ كان يرد عليهم دائما بأن ذلك ليس بيده هو، بل بيد الله سبحانه، وأنه بشر مثلهم لا يفضلهم إلا بالنبوة، فلا حجة لهم في عدم إتيانه بما طلبوا؛ لأنه لم يدع الربوبية والتصرف في الكون.

- ودلت الآيات أنهم لم يكونوا باحثين عن الحق يلتمسون إليه الدليل، بل متعنتين يبغون تعجيزه ﷺ. وآية ذلك أنه ﷺ جاءهم أحيانا بما طلبوا فلم يؤمنوا.

المطلب الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين توبيخا أو تحديا أو تهديدا لهم

اتسعت الأوامر الإلهية المتوجهة إلى المشركين على لسان النبي ﷺ -في باب المحاورة- لتشمل أغراضا أخرى غير التي مضى بيانها في المطالب الثلاثة التي مضت. فما سر الشدة التي ميزت مخاطبة النبي ﷺ لهم -بأمر من ربه- في هذه المواضع؟ وما أهم أغراض هذه الردود التي جبهوا بها؟ سأحاول الإجابة عن هذين السؤالين من خلال سوق وتحليل النصوص القرآنية الواردة في

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 378/20؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 99/27.

(2) وتضمنت الآية فائدة مهمة، وهي الإشارة إلى عالمية الإسلام واليقين بانتشاره وانتصاره منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي، عكس ما حاول ويحاول البعض ترويجه من أن الرسالة المحمدية كانت محلية للعرب وحدهم، وأن انتصار الصحابة على من حولهم من قومهم هو الذي أغراهم بغزو الأمم الأخرى، وجعلها عالمية. يدل على ذلك أن الرد على اقتراح المشركين كان ببيان حقيقة النبي ﷺ وخلاصة دعوته، ثم مقابلة تهديدهم بتهديد أقوى وأصرح، في وقت كان ﷺ مستضعفا هو وأصحابه، وكان المشركون أولي قوة وعدد.

(3) السمرقندي، بحر العلوم، 177/3.

هذا المجال، وسأقتصر في هذا المطلب على ذكر أنموذج واحد من الأوامر لكل غرض تجنبا للتطويل ورعاية لتوازن حجوم الفصول.

* فمن الأوامر الإلهية الصادرة إليه ﷺ ليبلغ مضمونها إلى المشركين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(9)﴾[فصلت].

– أي: قل –أيها النبي– لأولئك المشركين موبخا لهم ومتعجبا من موقفهم : أتكفرون بالله العظيم الذي أوجد الأرض –على رحابتها– في مدة يومين، وتجعلون له أكفاء تشركونهم معه في العبادة، ذلك الخالق للأرض هو موجد ومالك ومدبر العوالم كلها علويها وسفليها.[1]

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى النبي ﷺ بسؤال المشركين من أهل مكة عن وجه كفرهم وإشراكهم بالله وهو خالق الأرض في يومين ورب العالمين جميعا.

– ولم يرد في سبب نزولها شيء في حدود ما اطلعت عليه والله أعلم.

– والذين ورد الأمر الإلهي إلى نبي الله ﷺ ليسألهم عما تضمنته هذه الآية هم المشركون من قومه، كما قال ابن كثير وابن عاشور وغيرهما.[2]

– والهمزة الأولى في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ هي همزة الاستفهام، والثانية همزة (إن) التي جيء بها مع لام الابتداء لتوكيد الخبر، حتى يكون الإنكار لأمر متحقق، (للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد).[3] وقيل: لتأكيد الإنكار عليهم.[4] فمعنى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ كمعنى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[البقرة:28].

– **والأنداد** –لغة– جمع ند، وهو المثيل والنظير؛[5] ولم تخرج أقوال المفسرين لهذه الكلمة –في هذا الموضع– عن معنيين اثنين هما: الأكفاء من الرجال الذين يطيعهم المشركون في معصية الله، والشركاء الذين يعبدونهم مع الله أو من دونه، سواء كانوا أصناما أو ملائكة أو جنا أو غير ذلك مما يعبدون. ولا حاجة إلى الترجيح بين القولين؛ لأنهما غير متعارضين، بل هما متكاملان.[1]

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 707؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 477.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 118/7؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 241/24.

(3) الألوسي، روح المعاني، 99/24.

(4) انظر: المصدر السابق نفسه؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 242/24.

(5) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص322؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 319.

- **والغرض** من استفسار النبي ﷺ للمشركين عن كفرهم هو **توبيخهم**. قال ابن عطية: (ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يوقفهم موبخا على كفرهم بخالق الأرض والسماوات ومخترعها).(2) وقيل: الغرض هو **التهديد**، وقيل: هو **الزجر**، وقيل: هو **الإنكار**، وقيل: هو **التشنيع**، وقيل: هو **التقريع**. وبعض المفسرين جمع بين غرضين مما ذكر أو أكثر، والآية تتسع لها جميعا -في تقديري- لأن موقف المشركين الشنيع من ربهم المنعم عليهم يستدعي كل ما ذكر، وربما احتمل المزيد.(3)

- والذي أمر النبي ﷺ بتوبيخ المشركين عليه وتشنيعه عليهم في هذه الآية أمران: أحدهما: الكفر بالله، وهو الإلحاد في ذاته وأوصافه؛ وهو شامل لإنكار وجوده، وإنكار قدرته على البعث والحساب والجزاء، ورفض دينه الذي شرع، وتكذيب نبيه الذي أرسل، ونسبة الولد إليه بادعاء أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك كله. وثانيهما: الإشراك بالله، وذلك بصرف أنواع من العبادة للأوثان التي جعلوها أندادا له، كالدعاء والقسم والاستغاثة وغيرها. وقيل: جعل الأنداد لله هو تفسير لمعنى الكفر به الوارد قبله، فعلى هذا يكون المشنع به على المشركين أمر واحد.(4)

- وفي الآية احتجاج على المشركين بدليل التأثير؛ فالانفراد بالخلق مستلزم للانفراد بالعبادة، أما من لم يخلق شيئا ولا يملك ذرة، ولم يرسل رسلا تدعو الناس إليه، بل هو مجرد خشب منجور أو حجر منحوت لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ... من كانت هذه حاله فبأي حق يشرك في العبادة مع من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.(5)

- وفيها أيضا تنصيص على مدة خلق الأرض -وهي مقدار يومين- ولو شاء لخلقها في لمح البصر أو أقل، لأنه على ما يشاء قدير، ولكنه فعل ذلك لحكم بالغة -ولا شك- منها تعليم المكلفين الأناة والرفق والحكمة. وإنما قلنا بمقدار يومين مع أن الآية

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 384/20؛ السمرقندي، بحر العلوم، 177/3؛ الماوردي، النكت والعيون، 170/5؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 395/18؛ أبو حيان، البحر المحيط، 465/7؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 118/7؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1310.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز، 5/5؛ وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 241/24.

(3) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 177/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 102/27؛ الخازن، لباب التأويل، 83/4؛ أبو حيان، البحر المحيط، 465/7؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 33/5-34؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 118/7؛ البقاعي، نظم الدرر، 148/17؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1310.

(4) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 102/27-103؛ الخازن، لباب التأويل، 83/4؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 67/5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 241/24.

(5) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 103/27؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 242/24-243.

نصت عليهما تحديدا، لأن اليوم يتحدد بطلوع الشمس إلى طلوعها الموالي أو من غروبها إلى الغروب الذي يليه، وهو أمر لا وجود له عند خلق الأرض، إذ لم تكن حينئذ سماء ولا شمس ولا أرض.(1)

- وفي قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تفخيم لشأنه جل جلاله، وتهويل لكفر المشركين به مع عظمته ومجده، وتعجيب من صنيعهم، فكأنه قال: أ(تكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم، وقدرته هذه القدرة الباهرة)؟(2) وأعجب من كفرهم به تعالى تأليههم لقطع من الخشب والحجر والجص.(3)

* ومن أوامر الله الصادرة إلى النبي ﷺ ليبلغ مضمونها إلى المشركين قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(38)﴾[يونس].

– أي: بل أيقول أولئك المشركون اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه؟ فقل لهم -أيها النبي-: إن كان الأمر كما ذكرتم ، فجيئوا أنتم بسورة واحدة مماثلة له في نظمه وبلاغته وهداياته ، واستعينوا على ذلك بكل من تقدرون على التقوي به -من البشر والجن- من دون الله، إن كنتم أهل صدق في ادعائكم أن القرآن من اختلاقي.(4)

- فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يتحدى المشركين من قريش أن يأتوا بسورة مثل القرآن في نظمها ما داموا يتهمونه باختلاق القرآن من عنده؛ لأنهم عرب مثله.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود ما اطلعت عليه والله أعلم.

- والذين جاء الأمر الرباني إلى النبي ﷺ ليتحداهم أن يجيئوا بسورة مثل القرآن الكريم هم المشركون من أهل مكة، كما قال الطبري والخازن والسمرقندي وغيرهم.(5)

- والاستفهام الذي افتتحت به الآية غرضه الإنكار والتقريع والتوبيخ للمشركين على قبح ما قالوه في حق النبي ﷺ، وهو اتهامهم له بافتراء القرآن الكريم.(6)

---

(1) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 177/3؛ الماوردي، النكت والعيون، 170/5؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 6/5؛ أبو حيان، البحر المحيط، 465/7؛ البقاعي، نظم الدرر، 149/17؛ الألوسي، روح المعاني، 99/24؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 712.

(2) الشوكاني، فتح القدير، 1310.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 34/5؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 565/4.

(4) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 292؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 213.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 182/12؛ الخازن، لباب التأويل، 444/2؛ السمرقندي، بحر العلوم، 99/2.

(6) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 504/10؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 113/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 625.

- **والافتراء** -لغة- مصدر افترى بمعنى اختلق، وأصله فرى: أي خلق، والاسم منه الفرية. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(27)﴾[مريم] أي مصنوعا مختلقا .[1] ولم يخالف المفسرون اللغويين في معناه في هذا الموضع، ولا اختلفوا فيما بينهم، فهم متفقون على أن معناه هنا اختلقه وافتعله.[2]

- **والسورة** -لغة- كل منزلة من البناء، وكذلك ما حسن وطال منه، والمنزلة الرفيعة؛ ومن ذلك قول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب؟[3]

أي أعطاك منزلة شريفة. وجمعها سور، ومن ذلك أيضا سور المدينة، أي حائطها. [4] وأما اصطلاحا فإن إطلاق اسم سورة على قطعة من القرآن الكريم من المصطلحات التي جاء بها الكتاب العزيز؛ وقد اتفقت تعريفات المفسرين للسورة من حيث المعنى إجمالا، وإن اختلفت من حيث الطول والقصر، ومن حيث عدد القيود التي يشتمل عليها التعريف. [5] وأقصر تعريف وأقله قيودا -في حدود ما اطلعت عليه- هو قول الرازي: (السورة هي طائفة من القرآن)،[6] وهو قول غير مستوف لشروط التعريف في تقديري؛ لأنه غير مانع من دخول غير السورة فيه، فهو ينطبق على الآية أيضا. ولعل أطولها هو تعريف ابن عاشور. قال رحمه الله: (السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة).[7]

- واختلف المفسرون في ماهية (أم) في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، فقيل: هي في موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها؛ وقريب من هذا قول من قال: إن الميم زائدة، فيكون المعنى: أيقولون افتراه. وقيل: هي هنا بمعنى الواو، فالمعنى ويقولون افتراه. وقيل: هي أم المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة ، لأنها تتضمن استفهاما وإضرابا عما تقدم ، فيكون التقدير: بل أيقولون افتراه . وهذا الرأي الأخير هو الراجح -في تقديري- لأن (أم) هنا لم تسبق بهمزة التسوية ولا بهمزة الاستفهام التي

---

(1) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 1321؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 249.

(2) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 182/12؛ الزمخشري، الكشاف، 137/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 98/17-99؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 504/10؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 213.

(3) النابغة الذبياني، ديوان النابغة، ص 19.

(4) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 411؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 163؛ ابن منظور، لسان العرب، 298/7-299،

(5) انظر على سبيل المثال: الزمخشري، الكشاف، 137/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 113/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 213؛ البغوي، معالم التنزيل، 134/4؛ النسفي، مدارك التنزيل، 22/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 625؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 336/1.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب، 128/2.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 84/1.

يطلب بها التعيين، فجيء بها هنا للإضراب الانتقالي من النفي الذي تضمنته الآية التي سبقت هذه -وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(37)﴾[يونس]- إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي الذي اشتملت عليه هذه الآية محل الدراسة، ولعطف الاستفهام.

قال ابن مالك في ألفيته الشهيرة:

و(أم) بها اعطف إثر همز التسويه أو همزة عن لفظ (أيّ) مغنيه

وربما أسقطت الهمزة إن كان خفا المعنى بحذفها أُمن

وبانقطاع وبمعنى (بل) وفت إن تك مما قُيِّدت به خلَت[(1)]

فوضع أم هنا كوضعها في قوله سبحانه: ﴿الم(1)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[السجدة:1-3]. والله أعلم.[(2)]

- وتضمنت الآية **تحديا وتعجيزا** للمشركين في غاية القوة والوضوح والموافقة للعقل بحيث يلزمهم العجز ويثبت في حقهم الكذب ويتأكد صدق النبي ﷺ -عندهم وعند غيرهم- بمجرد أن يسمعوا منه ﷺ طلب الإتيان بسورة مثل القرآن فيصمتوا؛ وكل لحظة تمر بهم تزيدهم حرجا وعجزا وتكشف رفضهم للحق بعد حصحصته.[(3)]

- وسر قوة هذا التحدي أن النبي ﷺ يطالب المشركين -بأمر من الله تعالى- أن ينجزوا -منفردين أو مجتمعين مع استعانتهم بكافة من يقدر على إعانتهم من الثقلين إن شاؤوا- شيئا يسيرا مما شهدوا أن النبي ﷺ أنجز منه شيئا كثيرا، وهو فرد واحد منهم، وعربي مثلهم، وفي إطار اختصاصهم. قال الرازي: (وتقريره أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد، فإذا توجهوا نحو شيء واحد، قدر مجموعهم على ما يعجز كل واحد منهم، فكأنه تعالى يقول: هب أن عقل الواحد والاثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضا في هذه المعارضة، فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة، فحينئذ يظهر أن تعذر هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لا فعل البشر).[(4)] حقا إنه لا يعدل قوة هذا التحدي إلا ذل ذلك العجز الذي لم يحر أصحابه جوابا إلى أن ماتوا، ولا ورثتهم في مقولتهم إلى اليوم.

---

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ت 672هـ، متن ألفية ابن مالك، ضبط وتعليق: عبد اللطيف محمد الخطيب، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1427هـ-2006م، ص 36.

(2) انظر على سبيل المثال: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 504/10؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 120/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 32/4؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 625؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 170/11.

(3) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 625.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 101/17-102؛ وانظر: الطبري، جامع البيان، 182/12-184.

– ومعنى المثلية التي قيد بها وصف السورة هو الشبه به –أي القرآن العظيم– في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وقوة المعنى، وأضاف البعض الإخبار بما مضى وما يستقبل من أنباء الغيب، وهو بعيد.[1]

– ودلت نصوص القرآن الكريم على أن هذه المرحلة من التحدي للمشركين سبقتها مرحلتان أخريان؛ فقد طالبهم النبي ﷺ –بأمر من ربه تعالى– أن يأتوا بنظير للقرآن الكريم إن كانوا صادقين بأنه ﷺ اختلقه من عنده، وأخبرهم سلفا أنهم لا يقدرون على ذلك وإن ظاهرتهم الإنس والجن جميعا. قال تعالى: ﴿2وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88)﴾[الإسراء]، ثم تنزل بالمقدار المتحدى به إلى عشر سور لا أكثر، مع الإذن لهم بالاستعانة بمن شاؤوا. قال جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(13)فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(14)﴾[هود]، ثم تنزل في المرحلة الثالثة إلى التحدي بسورة واحدة مع إعلامهم مسبقا بأنهم لن يفعلوا ذلك أبدا، وهو استفزاز لهم ليرفعوا التحدي إن استطاعوا. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(23)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24)﴾[البقرة]. ولكن القوم لم يتحرك منهم ساكن، ولم ينطق منهم ساكت في أي من هذه المرات فثبت كذبهم في اتهام النبي ﷺ بافتراء الكتاب العزيز، وتيقن الموافق والمخالف له ﷺ أنه وحي من الله سبحانه.[2]

– والقرآن الكريم ناطق بأن المشركين يعلمون هذه الحقيقة في قرارات أنفسهم، ولكن العناد يمنعهم من الاعتراف بها. قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(33)﴾[الأنعام]. ومع ذلك الحرص على الجحود إلا أن بلاغة القرآن سلبت ألبابهم فلم ينتبهوا –لشدة ذهولهم أمام روعتها– إلا وهم يسجدون مع النبي ﷺ والمسلمين حين سمعوه يقرأ سورة النجم. روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس.[3] قال الغزالي: (وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلو ب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله عز وجل : ﴿... وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(53)فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى(54)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55)هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى(56)أَزِفَتِ الْآزِفَةُ(57)لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58)أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(59)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 137/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 121/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 113/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 213.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 102/17؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 183/4–184؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 625.

(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62)﴾[النجم]، رقم 4862، ص 907.

وَاعْبُدُوا(62)﴾[النجم]. كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين).[1]

* ومن الأوامر الربانية الصادرة إلى النبي ﷺ ليبلغ مضمونها إلى المشركين قول الله جل وعلا : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ(30)﴾[إبراهيم].

– أي: وجعل أولئك المشركون لله –الواحد الأحد– نظراء من الأوثان يشركونهم معه في عبادته، لأجل صرف الناس عن اتباع صراطه المستقيم. قل –أيها النبي– لأولئك المشركين المضلين : تمتعوا بما تشتهون من ملاذ الحياة الفانية فإن مرجعكم إلى نار جهنم.[2]

– فتضمنت الآية أمرا من الله عز وجل إلى النبي ﷺ بأن يتوعد المشركين بالمصير إلى النار.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود ما اطلعت عليه والله أعلم.

– والذين صدر الأمر الإلهي إلى النبي ﷺ ليتوعدهم هم المشركون، كما قال القرطبي وابن كثير والشوكاني وغيرهم.[3]

– واختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، فقرأه عامة قراء الكوفة بضم الياء، فالمعنى على هذه القراءة: ليضلوا غيرهم من الناس بما جعلوا من الأنداد، بينما قرأه عامة القراء من أهل البصرة –كابن كثير وأبي عمرو – بفتح الياء، والمعنى حينئذ: لكي يضل من جعلوا الأنداد لله.[4]

– والأمر في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا﴾[5] لتهديد المشركين، لا لإباحة متع الحياة لهم. قال الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وعيدا من الله لهم لا إباحة لهم التمتع بها ولا أمرا على وجه العبادة، ولكن **توبيخا وتهديدا ووعيدا** ، وقد بين ذلك بقوله: ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم، وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غب تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به).[6]

---

(1) محمد الغزالي، فقه السيرة، ص 120–121.

(2) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 368؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 259.

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 142/12؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 341/4، والشوكاني، فتح القدير، ص 747.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 678/13–679؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 126/19؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 142/12.

(5) وتضمنت الآية فائدة نفيسة، وهي الإشارة إلى وصف لا يكاد ينفك عن الكافرين حيث وجدوا؛ وهو شدة تعلقهم بملذات الدنيا، وحرصهم على تحصيلها، والاستكثار منها، وعدم تفويت فرص التلذذ بها. ويؤيد هذا الاستنتاج قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(12)﴾[محمد].

(6) الطبري، جامع البيان، 679/13.

– وفيها أيضا إلماع إلى أن حياة الكافر في الدنيا –مهما كانت بائسة قاسية– فهي نعيم ومتعة بالقياس إلى ما ينتظره في الآخرة من العذاب المهين.[1] قال الله سبحانه: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(70)﴾[يونس].

وخلاصة هذا المطلب:

– أن النبي ﷺ رد على المشركين –بأمر من الله جل وعلا– ردودا مناسبة لتبجحهم الذي بلغ حد الكفر بمن خلق السماوات والأرض وما فيهن واتخاذ الشركاء والأنداد والأولاد له، واتهامه ﷺ بافتراء القرآن الكريم من عنده. ومنها مطالبتهم بالإتيان بسورة واحدة من مثل القرآن إن كانوا صادقين في اختلاقه ﷺ له؛ لأنهم عرب مثله ويزيدون عليه بالكثرة.

– وأن تلك الردود تضمنت أغراضا شتى؛ منها: التوبيخ والتقريع والتشنيع والتحدي والتعجيز والإنكار والزجر والتهديد والوعيد.

وخلاصة هذا المبحث:

– أن الأوامر التي تم إيرادها فيه توجهت مضامينها إلى الوثنيين أهل الكفر والشرك؛ ولذلك ركزت على البرهنة على وجود الله ووحدانيته تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، وانفراده بالخلق والملك والتدبير، واستحقاقه العبادة من جميع خلقه، ونفي كل الشركاء الذين اتخذوا معه ظلما وجهلا، وأنهم لا يملكون معه ذرة فما دونها من الخلق والتدبير، ولا لعبادهم هباءة فما أقل من الضر والنفع.

– وأن وظيفة النبي ﷺ تقتصر على اتباع الوحي النازل عليه –عملا به ودعوة إليه–، وأول ذلك الإسلام لله وعبادته سبحانه والإخلاص له في كل عمل، وتبشير المؤمنين، وإنذار الكافرين.

– وأن مكانته ﷺ تقف عند حدود البشرية والنبوة والرسالة –وما أعظمها من مكانة– ولا تتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي من شأنها امتلاك خزائن السماوات والأرض وعلم الغيب وإنزال الكتب، أو مرتبة الملائكية.

– وأن الآيات المعجزات التي يقترحون عليه إتيانهم بها ليؤمنوا بنبوته ليست بيده ﷺ، وإنما هي بيد الله وحده، لا يقدر على إنزالها إلا هو سبحانه.

– وأن كفرهم بالله العظيم، واتخاذهم الأنداد معه إشراكا به وإضلالا عن سبيله، وادعاءهم كذبا أن النبي ﷺ افترى القرآن الكريم من عنده مع عجزهم عن الإتيان بمثله .. كل هذه الجرائم يستحقون بها الزجر والإنكار والتشنيع والتقريع التهديد والتوبيخ والتعجيز في الدنيا، والوعيد بالمصير إلى نار جهنم في الآخرة للخلود فيها.

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 126/19؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 363/4.

المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة المسلمين والمنافقين وأهل الكتاب ومحاجتهم.

انتقل النبي ﷺ إلى المدينة النبوية –بعد الهجرة المباركة– فوجد مجتمعا متعدد المكونات، متنوع الأعراق والديانات –خلافا للمجتمع المكي المنغلق على القرشيين الوثنيين وحدهم– ثم انضاف إلى ما سبق تنوع وفود القادمين إليه ﷺ بين الحين والآخر، باعتباره نبيا ورسولا، أو باعتباره رئيس الدولة الجديدة التي تبسط سلطانها على يثرب وما حولها، وتتحكم في هذه المنطقة الحساسة التي تعد معبرا بين شمال الجزيرة وجنوبها. ولم يضق ﷺ ذرعا بهذا التعدد وممثليه، لأنه مبعوث رحمة للعالمين جميعا، ولأن الدين الذي يحمله يقدم الهداية لكل من ينشدها أو يقبلها، ويرد الباطل والمنكر والخطأ بغض النظر عن عرق أو مذهب من صدر عنه. وعلى هذا الأساس توجهت إلى النبي ﷺ أوامر كثيرة من قبل ربه عز وجل في القرآن الكريم ليبلغ مضامينها إلى أقوام شتى ممن هم في مدينته أو حولها. فمن أولئكم الأقوام الذين كلف ﷺ بمخاطبتهم؟ وما تلكم الأوامر التي طلب منه ﷺ أن يبلغ حقائقها للمعنيين بها؟ وهل من فروق تميز أساليبها؟ للإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من استقراء ما صدر إليه ﷺ من نصوص القرآن العظيم في هذا الموضوع، وهذا ما سنحاول فعله في هذا المبحث من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المسلمين المؤمنين وتوجيههم

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المنافقين وتجبيههم

المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة أهل الكتاب ومحاجتهم

المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المسلمين المؤمنين وتوجيههم

المسلمون وحدهم –من بين تلك الطوائف المعاصرة للنبي ﷺ– من يسلمون بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ويقفون من جميع أحكام القرآن وأخباره موقف الإذعان التام، ويجعلون آياته جميعا محل اهتمامهم وعنايتهم، بغض النظر عن كونها تتحدث عنهم أو عن سواهم؛ ومع ذلك توجهت باقة من الأوامر الإلهية الكريمة إلى النبي ﷺ ليبلغهم مضامينها. فما المحاور الكبرى التي دارت عليها مضامينها؟ وما اللافت فيها؟ ذلك ما سنحاول الخلوص إليه بعد استعراض الآيات المتضمنة لتلكم الأوامر وتحليلها، مع مراعاة ترتيبها في المصحف. فمن الأوامر المشار إليها:

* قوله تعالى:﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24)﴾[التوبة].

– أي: قل –أيها النبي– للمؤمنين: إن كان حبكم لآبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم، و سائر ذوي قراباتكم، والأموال التي جمعتموها ، والتجارة التي تخافون عدم رواجها ، والدور التي تطمئنون للإقامة بها أشد من حبكم لله ورسوله والجهاد في

سبيله، حتى آثرتم جوار أولئكم الأقارب والحفاظ على تلكم الأموال والبيوت عن نصرة النبي ﷺ فارتقبوا حكم الله فيكم وعقوبته لكم. والله لا يوفق لهدايته الخارجين عن حدود دينه.[1]

- فتضمنت هذه الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ بأن يتوعد من يقدم مصالح دنياه ورضا أقاربه على طاعة الله ورسوله ﷺ بعقوبة عاجلة أو آجلة، وإن كان من المسلمين الذين آمنوا بما جاء به النبي ﷺ. قال ابن كثير: (أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله).[2]

- وورد في سبب نزولها ما نقله الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي –معلقا– قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيقولون: ناشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الآية. ونزل في الذين تخلفوا في مكة ولم يهاجروا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ يعني: القتال وفتح مكة. [3] وذكره أيضا البغوي بعد ذلك –في معالم التنزيل– عند تفسير الآية التي قبل هذه من طريق الكلبي نفسه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه، ولكنه لم يثبت، فلا تعويل عليه.[4]

- والذين توجه الأمر الرباني إلى النبي ﷺ ليتوعدهم هم المتخلفون عن الهجرة من المؤمنين، كما قال البغوي والألوسي والشوكاني وابن عاشور وغيرهم.[5]

- واختلف المفسرون في المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، فقال البعض: هو فتح مكة ؛ وهو رأي مروي عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد رحمه الله. وقال آخرون: هي عقوبة عاجلة أو آجلة ؛ وهو قول مروي عن الحسن رحمه الله. والراجح –في تقديري– هو الرأي الثاني؛ لأن الأمر بالتربص الوارد في الآية غرضه التهديد كما هو ظاهر، بينما فتح مكة جاء معه نسخ وجوب الهجرة إلى المدينة. قال ابن كثير: (أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في

---

(1) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 262؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 190.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 85/4.

(3) الواحدي، أسباب النزول، ص 245.

(4) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 270/2.

(5) انظر: البغوي، معالم التنزيل، 25/4؛ الألوسي، روح المعاني، 71/10؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 563؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 152/10.

سبيله، فقال: :﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ ... أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم).[1] والله أعلم.[2]

- وفي الآية تهديد قوي جدا لمن تخلفوا عن واجب الهجرة إلى النبي ﷺ. قال الشوكاني: (وفي هذا وعيد شديد، ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به، لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات).[3]

- وفيها أيضا دليل على وجوب حب الله ورسوله ﷺ، وعلى أن حبهما مقدم على حب جميع من سواهما مما تهواه النفس.[4] قال السعدي: (وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله).[5]

- ودلت الآية كذلك على وجوب ترجيح مصلحة الدين على المصلحة الدنيوية في حال تعارضهما. قال الرازي: (وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا، وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا).[6]

- وفي السنة النبوية الصحيحة بيان بأن الركون إلى محبوبات النفس على حساب فرائض الدين من وساوس الشيطان ومكره. قال النبي ﷺ: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة).[7]

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 4/85-86.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 11/385؛ الزمخشري، الكشاف، 3/26؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 10/142؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/18؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 3/76،

(3) الشوكاني، فتح القدير، ص 563؛ وانظر البيضاوي، أنوار التنزيل، 3/76.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 10/141.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 309.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب، 16/20.

(7) رواه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم 3134، ص 483؛ وأحمد في مسنده، رقم 16054، ص 1109؛ وابن حبان، كتاب السير، باب فضل الجهاد، رقم 4593، 10/453-454؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 6558، 7/138؛

- وفي الآية دلالة على حرمان المسرفين في الفسق من هداية الله سبحانه إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم.[1]

* وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(105)﴾[التوبة].

- أي: وقل -أيها النبي- لأولئك المتخلفين عن الجهاد من الصحابة : اعملوا لله بما يرضيه ، ولا تقصروا في فعل الخير وأداء الفرائض، فإن الله سيرى أعمالكم، وسيراها رسوله والذين آمنوا فيحكمون عليها بميزان الشرع الذي جاء به الإسلام ، ويشهدون عليها ويثنون عليكم بها ، ثم ترجعون بعد موتكم إلى الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون فيخبركم بجميع ما عملتم صغيره وكبيره، فيجازيكم عليه خيرا كان أو شرا.[2]

- فتضمنت هذه الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بأن يأمر من تخلفوا عن الجهاد معه أن يعملوا صالحا ويعلمهم أن الله سيرى أعمالهم سرها وجهرها فيجازيهم عليها يوم القيامة بعد أن يخبرهم بها، وكذلك الرسول ﷺ والمؤمنون يرون أعمالهم فيشهدون عليها.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود اطلاعي والله أعلم.

- والذين أمر النبي ﷺ أن يأمرهم بالعمل بما يحبه الله ويرضاه هم المؤمنون التائبون الذين تخلفوا عن الجهاد معه ﷺ، كما قال الخازن وأبو حيان وغيرهما.[3]

- وفي الآية وعيد وتحذير من الاستمرار على المخالفة أو الذهول عن التوبة الصادقة المثمرة للأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل.[4]

- وفيها أيضا دليل على صفة من صفات الله عز وجل وهي صفة الرؤية؛ قال الرازي: (إنها تدل على كونه تعالى رائيا للمرئيات، لأن الرؤية المعداة إلى مفعول واحد، هي الإبصار، والمعداة إلى مفعولين هي العلم، كما تقول رأيت زيدا فقيها، وههنا الرؤية معداة إلى مفعول واحد فتكون بمعنى الإبصار).[5] ويؤكد هذا المعنى استدلال إبراهيم عليه السلام على انتفاء

والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الجهاد، رقم 3941، 6/108-109؛ من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي في الرقم والصفحة المشار إليهما آنفا.

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 2/353.

(2) انظر:المصدر السابق، ص 422؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 278؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 203.

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل، 2/405؛ أبو حيان، البحر المحيط، 5/100.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 11/668؛ الزمخشري، الكشاف، 3/90.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 16/192.

ألوهية الأصنام التي كان يعبدها أبوه بكونها غير مبصرة. قال الله سبحانه حاكيا قوله عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(42)﴾[مريم].

– وتضمنت الآية أيضا دليلا على صفة العلم لله جل جلاله، وبينت أنه سبحانه لا فرق عنده بين السر والجهر والغيب والشهادة، إذ علمه محيط بكل المعلومات. قال جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(7)﴾[المجادلة].

– ودلت السنة الصحيحة على أن عدد المتخلفين عن النبي ﷺ في جهاده بلغ بضعا وثمانين رجلا، اعتذر أكثرهم بالكذب أمامه ﷺ بعد عودته فقبل ظاهرهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى–والظاهر أنهم من أهل النفاق– وصدقه ثلاثة من أهل الإيمان الراسخ ممن فوت عليهم التسويف مرافقته، فعاقبهم ﷺ بهجرهم خمسين ليلة كاملة، لا يكلمهم فيها مسلم واحد حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم نزل الوحي يعلن توبة الله ومغفرته للثلاثة المشار إليهم، ويصف أولئك الكاذبين بالفسق والرجس ويبشرهم بجهنم. قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(95)يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(96)﴾[التوبة]، وقال في شأن أهل الصدق – كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم–: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(118)﴾[التوبة]. قال كعب –وهو أحد المعنيين بما جرى–: (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحدا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ...).[1]

– ودلت الآية على استحباب استكثار التائب من الذنب من الأعمال الصالحة، خصوصا من كان ذنبه كبيرا، لأن ذلك مما يمحو ذنبه.[2] قال جل وعلا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(114)﴾[هود].

– وقررت الآية عقيدة البعث والحساب والجزاء التي يعد ترسيخها في القلوب أحد مقاصد القرآن الكريم.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾[التوبة:118]، ص 795، رقم 4418؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم 2769، ص 1108-1111؛ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 423/2.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ(31)﴾[إبراهيم].

– أي: قل –أيها النبي– آمرا لعبادي المؤمنين بي وبما أنزلت عليك من الوحي: أقيموا الصلاة بحدودها التي بينها الوحي، وأنفقوا بعض ما أنعم الله به عليكم من المال في وجوه الخير، في السر وفي العلن، قبل حلول يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه ببيع وغيره من المعاملات، ولا بصداقة أو سواها من العلاقات.(1)

– فتضمنت هذه الآية أمرا من الله جل جلاله إلى النبي ﷺ بأن يأمر المؤمنين بالصلاة والإنفاق من أموالهم قبل حلول يوم الحساب الذي لا ينفع فيه الإنسان إلا ما قدم في دنياه من عمل صالح.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود ما اطلعت عليه، والله أعلم.

– والذين أمر النبي ﷺ أن يأمرهم ﷺ بالصلاة والإنفاق هم المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، كما هو ظاهر من نص الآية الكريمة.

– **والخلال** –بكسر الخاء– لغة يطلق على معاني عديدة، منها: خلال الدار، وهو ما حول حدودها وبين بيوتها؛ وجمع الخلة –بفتح الخاء– وهي الخصلة؛ وما يخل به الكساء؛ وما يزال به ما يعلق بين الأسنان من الطعام؛ والمخالة، وهي المصادقة، فهو مصدر، وقيل: هو جمع الخلة –بضم الخاء– وهي الصداقة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(254)﴾[البقرة]؛ والعود الذي يجعل في لسان الفصيل أو يغرز على أنفه كي لا يرضع أمه.(2) أما المفسرون فلم يختلفوا –فيما اطلعت عليه– في أن معناه في هذا الموضع هو المخالة، أي المصادقة.(3)

– وفي الآية ذكر لأهم العبادات القلبية والبدنية وأعلاها منزلة. قال الرازي: (الإنسان بعد الفراغ من الإيمان لا قدرة له على التصرف في شيء إلا في نفسه أو في ماله. أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة ، وأما المال فيجب صرفه إلى البذل في طاعة الله تعالى. فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة، وهي الإيمان والصلاة والزكاة).(4)

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 401؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 368؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 259.

(2) انظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 994؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 99؛ ابن منظور، لسان العرب، 144/5؛ ابن فارس، مجمل اللغة، 276/2.

(3) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 680/13؛ الزمخشري، الكشاف، 381/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 127/19؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 143/12؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 199/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 343/4؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 748.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، 127/19.

- وفي تخصيص العباد المؤمنين بإضافتهم إلى ضمير المتكلم العائد على المولى جل جلاله تشريف لهم وتنويه بهم لأنهم هم القائمون بحقوق العبودية الواجبة له سبحانه.[1]

- والمراد بإقامة الصلاة الحفاظ على أوقاتها وشروطها، وإتقان هيئاتها على النحو الثابت من صلاة النبي ﷺ الذي قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، [2] مع الحرص على استحضار روحها وهو الخشوع. قال ابن كثير: (والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها).[3]

- واختلف المفسرون في المراد بالسر والعلانية في هذه الآية؛ فقال بعض: السر عند الإنفاق على المتعففين والعلانية عند الإنفاق على السائلين؛ وقال بعض آخر: السر في حال الصدقات والعلانية في حال النفقات؛ وقال فريق ثالث: السر يكون في حال صدقة التطوع أما العلانية فعند الصدقة الواجبة؛ وقال الجمهور: ما كان من الإنفاق في خفاء فهو السر وما وقع منه ظاهرا فهو العلانية.[4] والراجح -في تقديري- هو قول الجمهور، لأن المقصود هو الحث على المداومة على الإنفاق كما قال النبي ﷺ (أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل)، [5] فيصادف المتصدق بصدقته الأحوال كلها من سر وعلانية لتكرر ذلك منه. وأما الأقوال الثلاثة الأخرى فيجاب عنها بأن السنة الصحيحة دالة على أن الإسرار بالصدقة هو المطلوب شرعا في كل أنواعها؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء. قال النبي ﷺ: (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). [6] وإنما استثنى بعض العلماء من قصد أن يقتدي به الناس فيتصدقوا، وهذا الاستثناء نفسه لم يسلم من النقد.[7]

---

(1) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 199/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 173/2.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة، رقم 631، ص 127؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟ رقم 674، ص 265؛ من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 342/4؛ وانظر: الخازن، لباب التأويل، 38/3.

(4) اانظر: الزمخشري، الكشاف، 381/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 208/2؛ الماوردي، النكت والعيون، 137/3؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 339/3؛ الخازن، لباب التأويل، 38/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 174/2؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 748.

(5) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم 6464، ص 1180؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم 783، ص 308؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(6) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم 6806، ص 1235؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم 1031، ص 397؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(7) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 360/4.

- ودلت الآية على وجوب الصلاة والزكاة وجواز إظهار الصدقة وإن كان الإسرار بها أفضل.[1]

- وتضمنت الآية حثا من الله سبحانه للمؤمنين على استغلال فرصة كونهم أحياء لاستكثار الطاعات وجمع المزيد من الحسنات قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.[2]

- وقررت الآية عقيدة الإيمان باليوم الآخر وهي أحد المقاصد الكبرى للقرآن الكريم.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30)﴾[النور].

- أي: قل -أيها النبي- لمن آمنوا محذرا إياهم مما يجر إلى الزنا: إنهم مكلفون بصرف أبصارهم عما لا يحل النظر إليه من النساء والعورات، وأن يصونوا فروجهم عن كشفها وعن ممارسة الفواحش، فإن ذلكم الصيانة أشرف لأعراضهم وأنأى بهم عن التهمة. إن الله محيط بخبر جميع أعمالهم وسيجازيهم عليها.[3]

- فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ بأن يعلم المؤمنين أنهم مأمورون من قبل الله عز وجل بكف أبصارهم عما يحرم النظر إليه، وصيانة عوراتهم أن تنكشف أو تفعل الفاحشة.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية -في حدود اطلاعي- إلا ما ذكره السيوطي في الدر المنثور -عازيا إياه إلى ابن مردويه- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: مر رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان: إنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينا الرجل يمشي إلى جنب حائط ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ، فأعلمه أمري، فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي ﷺ: (هذا عقوبة ذنبك)، وأنزل الله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ...﴾ الآية.[4] وهو أثر ضعيف لا يثبت.[5]

- والذين أمر الله نبيه ﷺ أن يأمرهم ﷺ بغض أبصارهم وحفظ فروجهم هم المؤمنون، كما هو مصرح به في نص الآية الكريمة.

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 60/3.

(2) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 748؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 401.

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 31/6؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 522؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 353.

(4) السيوطي، الدر المنثور، 11/16-17.

(5) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 579/2.

- وفي الآية أدب عظيم من آداب النظر، وهو كف العين عما لا يحل النظر إليه من النساء والعورات، ولا شك أن ذلك سد لباب الافتتان وقطع لطريق الوصول إلى الفواحش. روى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة(1) فأمرني أن أصرف بصري.(2)

- ولغض البصر فوائد جمة ذكرها العلماء، منها: (أنه يورث حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. ومنها: أنه يورث نور القلب، وصحة الفراسة، بخلاف التعلق بالصور، فإنه يوجب فساد العقل وعمى البصيرة، وسكر القلب، ... ومنها: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، ويكون سببا في هروب الشيطان منه).(3)

- ودلت الآية على وجوب صيانة الفرج من الوطء المحرم ومن نظر الغير إليه. قال السعدي في تفسيره: (﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام، في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها).(4)

- ومن دقة التعبير القرآني المنطوي على الحكمة البالغة التفريق بين غض البصر وحفظ الفرج بإدخال حرف (من) الدال على التبعيض على لفظ (أبصارهم) دون كلمة (فروجهم). قال السعدي: (وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقا، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أتى بأداة (من) الدالة على التبعيض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والخاطب، ونحو ذلك).(5)

- وذيلت الآية بالتذكير المؤكد أن خبرة الله سبحانه وتعالى شاملة لجميع ما يعمله الناس، ومن ذلك ما تعلق بأبصارهم وفروجهم من غض وحفظ أو عدمهما، وسيجازي الطائعين لأوامره والعاصين يوم القيامة، كلا بما يستحقه.(6)

- وهذه الآية هي عمدة الفقهاء في تحريم دخول الحمام من غير ستر للعورة كما بين القرطبي رحمه الله.(7)

* وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ

---

(1) الفجاءة: هي الفجأة، ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصر الرجل على المرأة الأجنبية دون قصد منه، خلافا للنظر المتعمد. [انظر: النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص 1618].

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب نظر الفجاءة، رقم 2159، ص 890-891.

(3) شروح الأحاديث، الموسوعة الحديثية، موقع الدرر السنية، بإشراف: علوي بن عبد القادر السقاف، تم الاقتباس منه يوم: https://dorar.net/hadith/sharh/39947.2022/12/21

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 537.

(5) المصدر السابق، ص 538.

(6) انظر: المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 353؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 145/10.

(7) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 205/15.

أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(31)﴾[النور].

– أي: قل –أيها النبي– للمؤمنات بالله ورسوله يكففن أنظارهن عما لا يحل لهن النظر إليه من العورات، ويصن فروجهن عما حرم الله من الكشف والوطء غير المشروع، ولا يظهرن للرجال من مفاتنهن وحليهن وسائر ما يتزين به إلا ما لا بد من ظهوره كالوجه واليد والكحل والخاتم، وليسترن بأغطية رؤوسهن ما يظهر من فتحات ثيابهن عند نحورهن، كالعنق والصدر، ولا يكشفن محاسنهن، إلا لأزواجهن أو محارمهن الذين يحرم عليهن الزواج منهم حرمة مؤبدة كآبائهن أو آباء أزواجهن، أو أبنائهن أو أبناء أزواجهن من نساء غيرهن، أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن وأخواتهن، أو صواحبهن المؤمنات، أو إمائهن وإن كن مشركات، أو الرجال الذين يعيشون معهن ولا ميل لهم إلى النساء كالمسنين والبله، أو الأطفال الذين لم يبلغوا أن يكون لهم في النساء غرض، وبلغهن أيضا ألا يبدر منهن ما يلفت أنظار الرجال إليهن، كالضرب على الأرض بأرجلهن أثناء سيرهن بقصد إسماع رنين خلاخيلهن، وعودوا إلى أحكام الله الحكيمة وآداب دينه الجميلة التي بين لكم كافة –أيها المؤمنون– لتسعدوا فى دنياكم وأخراكم، وذروا أحكام الجاهلية وأخلاق أهلها السيئة.(1)

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه لنبيه ﷺ بأن يعلم المؤمنات أنهن مأمورات من قبل الله تعالى بخفض أبصارهن عما لا يحل النظر إليه، وصيانة عوراتهن عن الانكشاف أو فعل الفاحشة، كما تضمن الأمر إليهن منعهن من إظهار زينتهن الخفية أمام غير المحارم مستثنيا من هذا الحكم أفرادا لا يشملهم لانتفاء علته فيهم.

– وورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن مقاتل؛ قال: بلغنا –والله أعلم– أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث: أن أسماء بنت مرشدة كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مؤتزرات، فيبدو ما في أرجلهن، يعني: الخلاخل، ويبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا ...! فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية.(2) وهو أثر ضعيف لكونه معضلا، كما ورد غيره أيضا، ولكن لم يصح منها شيء والله أعلم.(3)

– واللاتي أمر الله نبيه ﷺ أن يأمرهن بخفض أبصارهن وصيانة فروجهن هن المؤمنات بالله ورسوله، كما جاء التصريح به في الآية الكريمة.

– وفي الآية هدايات حكيمة وآداب ربانية كريمة متعلقة بصيانة الأبصار والفروج أشرت إليها في الآية السابقة فلا داعي لتكرارها هنا، خصوصا والعهد بها قريب.

---

(1) انظر: الواحدي، الوجيز، 2/761-762؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 522؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 353.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 14389، 8/2573.

(3) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/580.

- ودلت الآية على أن الزينة نوعان: خفي لا يجوز إبداؤه، كالخلخال والقلادة، وظاهر مستثنى من هذا الحكم. وهذا النوع الثاني اختلف العلماء في تحديده؛ فقال بعض: هو الثياب الظاهرة، ومن هؤلاء ابن مسعود من الصحابة والحسن وإبراهيم النخعي وابن سيرين من التابعين. وقال بعض آخر: هو الوجه والكفان وخضابهما والكحل والخاتم. وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة ومالك والأوزاعي وغيرهم، بل هو قول الجمهور. والراجح في -تقديري- هو القول الثاني؛ لأن هذا هو الذي جرى عليه عمل كثير من النساء في عهد النبي ﷺ وبعده، كما دلت عليه النصوص المتواترة معنى، وهو الأقرب إلى اليسر الذي هو أحد قواعد هذا الدين. وأما تفسير ابن مسعود فلم يتابعه عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم إن تفسيره للزينة الظاهرة بالثياب الظاهرة تحصيل للحاصل، لأن بدوها أمر لا خيار فيه، فلا معنى لاستثنائه، والله أعلم.[1]

- وفي الآية أمر للنساء بستر شعورهن وآذانهن بما فيها من قروط وأعناقهن ونحورهن بحيث لا يظهر من جهة الرأس إلا دائرة الوجه.[2]

- وفيها أيضا استثناء الزوج والسيد والمحارم من جملة الرجال الذين نهيت المؤمنات عن إبداء زينتها أمامهم؛ لحل كل بدن المرأة لزوجها وسيدها، وانتفاء الافتتان من جهة محارمها؛ كما أن كثرة مخالطتهم والتعامل معهم يترتب عليها حرج ومشقة لو كلفت بالاستتار منهم كالأجانب.[3]

- واختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾، فقال فريق منهم: هن المختصات بهن اللائي يلابسنهن للصحبة والخدمة ونحوهما من الأغراض، فهؤلاء يجوز للمسلمة إبداء زينتها لهن. ويدخل في ذلك الإماء دون الكافرات الحرائر. وقال آخرون: هن المسلمات عامة، وهو قول أكثر السلف. وقال فريق ثالث: هن جميع النساء، فهي عامة فيهن.[4] والراجح -في تقديري- هو القول الثاني؛ لأن (إضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات).[1] وأما الرأي الأول فبعيد؛ لأنه لا

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 256/17- 262؛ الزمخشري، الكشاف، 289/4-290؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 23/ 206-207؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 212/15-214؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 34/6-35؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1008؛ محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، د مكان ولا ر ط، 2002م، ص 51-53.

(2) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 178/4.

(3) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 1008.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 264/17-266؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 208/23؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 219/15؛ الماوردي، النكت والعيون، 94/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 36/6؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1008.

(1) المصدر السابق نفسه.

دليل على أن الملابسة وحدها تبيح ما لا يباح؛ وأما الرأي الثالث فهو أشد بعدا -في ظني- لأنه لو صح لم يكن للتخصيص الوارد في الآية معنى.

- واختلف أهل التفسير أيضا في المقصود من قوله سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ على قولين: أحدهما: أنها تشمل العبيد والإماء، وعلى هذا القول يجوز للمسلمة أن يرى منها مملوكها ما يراه محارمها إن كان عفيفا. وهو مروي عن ابن عباس وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم. وثانيهما: أن المراد منها الإماء دون العبيد، وممن روي عنه ابن جريج. [1] والقول الأول هو الراجح -في تقديري- لما رواه أبو داود في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها بعبد كان قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: (إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك).[2]

- وتنوعت أقوال المفسرين في المراد من قوله عز وجل: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، فقيل: هو المعتوه، وقيل: هو الأبله، وقيل: هو المجبوب، وقيل: هو الخصي، وقيل: هو العنين، وقيل: هو الشيخ الكبير الموصوف بالصلاح وغض البصر، وقيل: هو الفقير المسكين، وقيل: هو المخنث، وقيل: هو الأجير والتابع الذي ليس كفؤا للمرأة، وقيل: هو الصبي الذي لا معرفة له بالنساء. وفي تقديري أن هؤلاء جميعا ينطبق عليهم هذا النص القرآني؛ لأن معناه يشمل كل ذي حاجة اعتاد التردد على قوم ليرتفق بهم ويصيب نوالهم، ولا رغبة له في النساء جزءا وكلا، عجزا عنهن أو جهلا بشأنهن، إلا الصبي فإنه غير مندرج تحته لسببين: الأول: أن النص يتحدث عن الرجال لا عن الصبيان ﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾. الثاني: أن الصبيان خصص لهم مقطع آخر من الآية غير هذا وهو الموالي له. والله أعلم.[3]

- والمراد بالطفل في قوله جل جلاله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الأطفال؛ لأنه أفاد الجنس كما يدل عليه ما تلاه من ألفاظ الآية، تماما كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾[الحج:5]، فجعل الجنس مكان الجمع اكتفاء بدلالة الوصف ؛ أما الظهور المذكور فيها فيحتمل معنيين: أحدهما: العلم والاطلاع، فيكون المعنى: أن الأطفال الذين لم يطلعوا -لصغرهم- على عورات النساء ولا يدرون الفرق بينها

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 265/15-266؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 208/23؛ السمرقندي، بحر العلوم، 437/2-438؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 220/15-221؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 105/4؛ البغوي، معالم التنزيل، 35/6.

(2) رواه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته، رقم 4106، ص 613؛ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، في الرقم والصفحة المشار إليهما.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 266/15-270؛ الزمخشري، الكشاف، 292/4-293؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 209/23؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 221/15-222؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 105/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 37/6.

وبين سواها من البدن مستثنون ممن نهيت المؤمنات عن إبداء زينتهن في حضورهم. وثانيهما: الاقتدار والقوة، فالمعنى حينئذ: أن الأطفال الذين لم يصلوا وقت القدرة على الوطء -لصغرهم- مستثنون من النهي المشار إليه.[1]

- وفي الآية نهي للنساء المسلمات عن كل ما يلفت انتباه الرجال إلى زينتهن الخفية، أو يثير داعيتهن في نفوسهم من مسموع أو مرئي أو مشموم، كالغناء والكلام الخاضع والرقص والتثني والتعطر وسائر ما في هذا المعنى.[2]

- وذيلت الآية بأمر المؤمنين بالتوبة وعلق رجاء الفلاح بها، وقد جاءت مطلقة من غير قيد، لتشمل كل تقصير حاصل منهم فيما أمر به الله سبحانه أو نهى عنه؛ لأن العبد لا يخلو منه وإن اجتهد في تفاديه، ومنه ما جاء في هذه الآية الكريمة من أحكام وآداب.[3]

- ومن لطائف هذه الآية أنها اشتملت على أكبر عدد من الضمائر مقارنة بسائر آيات القرآن الكريم. قال مكي بن أبي طالب: (وهذه الآية تضمنت خمسة وعشرين ضميرا بين مرفوع ومخفوض، كلها تعود على المؤمنات ... ولا أعلم لهذه الآية نظيرا في القرآن في كثرة ضمائرها فاعلمه).[4]

- وفي هذا الموضوع نفسه -حجاب المرأة المسلمة- ورد أمر آخر -في سورة أخرى- إلى النبي ﷺ ليبلغ مضمونه إلى المؤمنات من نسائه ونساء أصحابه فمن بعدهن.

• قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(59)﴾[الأحزاب]. فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يبلغ نساءه وبناته وسائر نسوة المؤمنين وبناتهم بتكليف الله لهن عند الخروج من بيوتهن لحاجاتهن أن يرخين عليهن جلابيبهن ليتميزن عن المشركات والإماء حتى لا يتعرض لهن السفهاء والفجار بالسوء.

- والجلباب هو (الثوب الذي يستر جميع البدن)،[5] تجعله المرأة فوق خمارها وسائر الثياب المعتادة إذا خرجت. وقد اختلف العلماء في معنى إدنائه المأمور به في الآية؛ فقال بعض: هو أن ترخيه المرأة على وجهها ليستره بحيث لا يبدو منها إلا عين

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 293/4؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 210/23؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 225/15؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 105/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 38/6.

(2) انظر: ابن عاشور، الكشاف، 213/18-214.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 180/4؛ أبو حيان، البحر المحيط، 414/6؛ البغوي، معالم التنزيل، 36/6؛ النسفي، مدارك التنزيل، 502/2.

(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 5068/8.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 230/17.

واحدة لتتمكن من الرؤية. وممن نقل عنهم هذا الرأي ابن عباس رضي الله عنه وعبيدة السلماني [1] والسدي. وقال بعض آخر: تشده على جبهتها ثم تلفه على أنفها، فيستر الصدر ومعظم الوجه وإن بدت العينان. وهو رأي قتادة ورواية ثانية عن ابن عباس. وروي عن الحسن أن معناه أن تغطي به نصف وجهها، بينما نقل عن عكرمة أن المراد أن تدنيه على صدرها حتى يعطي ثغرة نحرها.[2] والراجح -في تقديري- هو رأي عكرمة ومن وافقه، لسببين: الأول: أن هذا هو الذي دلت عليه آية النور التي مرت بنا قريبا، والتي بينت عدم وجوب ستر الوجه، ومعلوم أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا. الثاني: أن نصوصا كثيرة من السنة النبوية دلت على جواز كشف الوجه، وأن تغطيته غير واجبة لأنه ليس عورة، وهو مذهب أغلبية العلماء، ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في رواية عنه،[3] فيكون إدناء الجلباب الواجب المراد في الآية -والله أعلم- هو (تطويله وتوسيعه بحيث يستر جميع بدنها وثيابها)،[4] أما الوجه والكفان فلها سترها -إن شاءت- زيادة في الاحتشام، ولها كشفها -إذا أرادت- ما لم يكن عليها شيء من الزينة غير الكحل والخاتم والخضاب كما بينا في دراسة آية النور.

– وضمن إطار الأوامر الموجهة إلى النبي ﷺ ليبلغ مضمونها إلى النساء المؤمنات توجه إليه ﷺ الأمر الإلهي بأن يخير نساءه بين البقاء معه وبين تسريحهن إن كن يردن زينة الدنيا.

• قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(28)وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(29)﴾[الأحزاب]. أي: إن كنتن تؤثرن رغد العيش ومتع الحياة على البقاء معي فأنا أدفع إليكن المتعة المأمور بها للمطلقة وأفارقكن من غير مضارة ولا مغاضبة، وستجدن عند غيري ما رغبتن فيه مع فقد فضل أمومة المؤمنين؛ وإن كنتن تفضلن رضا الله ورسوله والفوز بنعيم الآخرة ولو مع شظف العيش وشدته فإن الله هيأ للمحسنات مثلكن العاملات بأمر الله وأمر رسوله ثوابا جزيلا في جنات النعيم، حيث الخلود معه ﷺ فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.[5]

---

(1) هو أبو مسلم عبيدة بن عمرو السلماني المرادي. تابعي كبير أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ولكنه لم يلقه، فقيه عالم بالفرائض ثقة. أسلم في اليمن ثم انتقل إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه فأقام بها مدة ثم رحل إلى الكوفة. روى عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وروى عنه إبراهيم النخعي ومحمد بن سيرين وأبو إسحاق السبيعي والشعبي وغيرهم. توفي سنة 72هـ. [انظر مثلا: السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم 27، ص 22؛ أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص 80].

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 19/181-183؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 17/230؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/178؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/338.

(3) انظر: الألباني، جلباب المرأة المسلمة، ص 89.

(4) البقاعي، نظم الدرر، 15/412.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 19/84؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/285؛ البقاعي، نظم الدرر، 15/336-337؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 631؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 626.

- وسبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألنه النفقة ولم يكن عنده ما ينفقه، وقد نفذ ﷺ -كما في جميع الأوامر الأخرى- ما أمره به ربه، فتلا هذه الآية عليهن وخيرهن، فاخترن جميعا الله ورسوله والدار الآخرة، وآثرن البقاء معه على سعة الرزق ورغد العيش، رضي الله عنهن وأرضاهن جميعا. روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال: فأذن لأبي بكر ، فدخل . ثم أقبل عمر فاستأذن، فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسا، حوله نساؤه ، واجما ساكتا ، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ! لو رأيت بنت خارجة !سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: (هن حولي كما ترى ، يسألنني النفقة)، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(28)وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(29)﴾، قال: فبدأ بعائشة فقال: (يا عائشة ! إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه ، حتى تستشيري أبويك)، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية ، قالت: أفيك يا رسول الله ! أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت ، قال: (لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا).(1)

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(10)﴾[الزمر].

- أي: قل -أيها النبي- مبلغا عن الله من آمنوا به وبرسوله : يا عبادي المؤمنين بي وبما أنزلت على رسولي ، اجعلوا وقاية من سخط ربكم وعقابه بلزوم طاعته ، واعلموا أنه سبحانه أعد لمن أحسنوا القول والعمل في هذه الحياة مثوبة حسنة بتوفيقهم وتأييدهم وإحيائهم حياة طيبة ، وفي الآخرة بالفوز بالجنة ونعيمها. وإن تعسر عليكم الإحسان في أوطانكم فمنعتم من عبادة ربكم فيها فهاجروا في أرض الله الواسعة إلى حيث تتمكنون من إقامة دينكم ، واصبروا على ألم فراق الأوطان والأحباب في ذات الله، فإن الله إنما يعطي الصابرين على مشاق طاعته أجورهم مضاعفةأضعافا لا تخضع للعد.(2)

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم1478، ص 592، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(2) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 38/5؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 685؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 459.

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يبلغ المؤمنين أمر ربهم لهم بتقواه، وأن جزاء المحسنين إحسان في الدنيا والآخرة، وأن من منع من إظهار دينه في وطنه فليهاجر إلى غيره وليصبر لينال أجرا لا يقدر بالأعداد.

– ولم يرد –في حدود ما اطلعت عليه– سبب لنزول هذه الآية والله أعلم.

– والذين أمر النبي ﷺ بمخاطبتهم بمضمون الآية هم المؤمنون كما هو مصرح به فيها.

– وفي الآية أمر من الله جل وعلا للمؤمنين أن يضيفوا التقوى إلى الإيمان، وفي ذلك برهان على أن الإيمان لا يزول بارتكاب المعاصي.[1] أقول: وهذا المعنى منطو على تحذير لمن يستسهلون رمي المسلمين بالكفر أو النفاق لمجرد صدور بعض المعاصي عنهم أو تفريطهم في شيء من الواجبات؛ وفي المقابل فإن الآية تدل أيضا على أن الإيمان لابد معه من التقوى الذي هو ثمرته الحلوة الطبيعية، لأنه لا يعقل أن يكون القلب عامرا بالإيمان والجوارح لا تنتج إلا أشواك المعاصي والرذائل.

– والمفسرون متفقون على أن (الحسنة) الأولى في الآية معناها الطاعة، وأن (الحسنة) الثانية معناها الجزاء؛ ولكنهم مختلفون في ماهيته. فقال بعض: هو الجنة، وذلك إنما يكون في الآخرة، وقال آخرون: هو الصحة والعافية والنصر والثناء الحسن –وغير ذلك مما هو في معناه– في الدنيا إضافة إلى جزاء الآخرة الذي هو الجنة.[2] والصحيح –في تقديري– هو التفصيل على حسب إيمان المحسن أو كفره، وفق ما بينه النبي ﷺ في قوله: (إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة ، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ؛ وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها).[3]

– وأرشد الله سبحانه عباده الذين لا يقدرون على الإحسان في أوطانهم بعبادة ربهم وإقامة شعائر دينهم إلى أن يهاجروا حيث يعبدونه تعالى من غير اضطهاد أو تضييق.[4]

– ولما كانت طاعة العباد لربهم تحتاج إلى الصبر بأنواعه الثلاثة حفزهم –جل وعلا– عليه أعظم تحفيز بأن بين لهم أن الأجر المرصود لهم عليه لا يتناوله العد أو يخضع للقياس، وهو كناية عن الكثرة التي لا يقدرون على تصورها.[5]

– ودلت الآية أيضا على عناية الله سبحانه بعباده المؤمنين إذ أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة، كما قررت عقيدة البعث والحساب والجزاء.[1]

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 252/26.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 252/26–253؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 256/18–257؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 38/5، الشوكاني، فتح القدير، ص 1277.

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم 2808، ص 1129.

(4) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، 172/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1277.

(5) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 146/3؛ أبو حيان، البحر المحيط، 403/7.

* وقوله تعالى:﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا [2]وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(14)﴾[الحجرات].

– أي: قالت البدو بأفواههم: آمنا بالله وما أنزل على نبيه ، قل لهم – أيها النبي – مصححا: لم تؤمنوا إيمانا كاملا مستوفيا لجوانبه جميعا ، ولكن قولوا: أسلمنا بإقرارنا بالقول قبول الدخول في الإسلام، ولم تدخل بشاشة الإيمان بعد في قلوبكم، وإن تخضعوا لله ورسوله صادقين بفعل الخير وترك الشر لا ينقصكم من أجور أعمالكم أي شيء. إن الله كثير الغفران واسع الرحمة لعباده التائبين من ذنوبهم.[3]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يصحح للأعراب قولهم الذي تضمن ادعاء الإيمان الكامل قبل حصوله، وأن يخبرهم بأن الإيمان لم يستقر بعد في أفئدتهم، وأن الله لن يبخسهم شيئا من ثوابهم إن هم عملوا بطاعته.

– وسبب نزولها فيما رواه الطبري بإسناد حسن عن قتادة، قال: قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب، إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أُنزلت في حي من أحياء الأعراب امتنوا بإسلامهم على نبي الله ﷺ، فقالوا: أسلمنا، ولم نقاتلك، كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله: لا تقولوا آمنا، ولكن قولوا أسلمنا حتى بلغ في قلوبكم .[4] ومع حسن إسناد هذا الأثر، فإنه لا يمكن التعويل عليه لأنه مرسل، فقتادة تابعي لم يدرك فترة نزول الوحي.

– والذين صدر أمر الله إلى نبيه ﷺ أن يخاطبهم بمضمون هذه الآية هم المسلمون من الأعراب كما دل عليه قول الطبري والرازي وابن كثير وغيرهم.[5]

– والأعراب الذين قالوا ما ذكرته الآية هم بنو أسد بن خزيمة، فيما روي عن مجاهد، وقيل: هم أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والديل وأشجع.[1]

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 475/4.

(2) وتضمنت هذه الآية فائدة مهمة، وهي أن استخدام القرآن الكريم لهذه الألفاظ المفعمة بالمعاني الإيجابية دليل على ما ينطوي عليه الإسلام من المبادئ الإنسانية السامية، والقيم الحضارية البناءة، وترسيخ لمصطلحي السلم والأمن العالميين في نفوس أتباعه، عكس ما يروج ضده زورا من كونه دين العنف والقتل والإرهاب.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 767؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 764؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 517.

(4) الطبري، جامع البيان، 391/21؛ وهو أثر حسن. [انظر: حكمت بن بشير، التفسير الصحيح، 374/4].

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 392/21؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 141/28؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 282/7.

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ ليس المراد منه نفي الإيمان بالكلية عن أولئك الأعراب، بحيث يحكم عليهم بالكفر والنفاق، كما قال البعض،[2] ولكن المراد -والله أعلم- هو زجرهم عن ادعاء مرتبة الإيمان الكامل التي لم يبلغوها في ذلك الوقت. قال ابن كثير: (ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري -رحمه الله- ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك ... ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة).[3]

- **والإيمان** سبق بيانه **لغة واصطلاحا** مع تفصيل ما تعلق بمحله وأركانه وزيادته ونقصانه وأثره على حياة صاحبه في الدنيا والآخرة وغير ذلك مما تعلق به في الفصل الأول.

- **والإسلام لغة** هو الاستسلام الانقياد، وهو مصدر الفعل أسلم، أي انقاد؛ سمي كذلك لأن صاحبه يسلم من الإباء والامتناع.[4] وأما **اصطلاحا** فهو (علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به محمد ﷺ)،[5] ومن ثم اشتهر المعتنقون لهذا الدين منذ بداية ظهوره إلى اليوم باسم المسلمين، وإن كان أتباع كل الرسل السابقين مسلمين في الحقيقة، لأن دين الله الذي أنزله على رسله واحد وهو الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم في بعض التفاصيل؛ ولكن أتباع نبينا محمد ﷺ تميزوا بهذا اللقب المشرف دون غيرهم، كما تميز أتباع موسى عليه السلام باسم اليهود، وأتباع عيسى عليه السلام باسم النصارى.[6]

- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إثبات لإسلام الأعراب المشار إليهم مع نفي إيمانهم؛ فدل على أن اسم الإيمان أخص من اسم الإسلام إذا اجتمعا، أي أن بينهما عموما وخصوصا، فإذا تفرقا دلا على معنى واحد، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(36)﴾[الذاريات].[7]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 388/21؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 420/19-421؛ البغوي، معالم التنزيل، 349/7-350؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 180/5؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 137/5؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 283/7؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 1394.

(2) انظر على سبيل المثال: البيضاوي، أنوار التنزيل، 137/5؛ البغوي، معالم التنزيل، 350/7؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 476/7، الشوكاني، فتح القدير، ص 1395.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 282/7-283.

(4) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 90/3؛ ابن منظور، لسان العرب، 243/7.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 189/3.

(6) انظر: الماوردي، النكت والعيون، 337/5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 189/3.

(7) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 674/7-675.

- واختلف المفسرون فيما بدر من أولئك الأعراب حتى توجه الأمر الإلهي إلى النبي ﷺ ليعقب عليهم بمضمون هذه الآية؛ فقال بعض: سبب ذلك أنهم أقروا بالإسلام بأفواههم ولم يدعموا قولهم بالأعمال، ومعلوم أن الإسلام هو النطق بالشهادتين، بينما الإيمان نطق بالشهادتين وعمل بالأحكام. وممن قال بهذا الرأي الزهري وابن زيد. وقال بعض آخر: إنما قيل لهم ذلك لأنهم أرادوا أن يتلقبوا بالمهاجرين قبل هجرتهم، فأعلموا أن ذلك ليس لهم حتى يهاجروا. وهو قول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال فريق ثالث: قيل لهم ذلك لأنهم منوا على النبي ﷺ بإسلامهم وعدم قتالهم له. ومن أصحاب هذا الرأي قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير. والراجح -في تقديري- هو القول الأول؛ لأنه هو المتسق مع معنى الآية. وهو ما رجحه الطبري.[1] أما القولان الآخران فيستبعدهما نسبتهما للأعراب أقوالا خلاف ما أثبتته لهم الآية ثم نعته عليهم، والله أعلم.

- وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ حث على استكمال الإيمان، وحض على طاعة الله ورسوله فيما أمرا به، وجبر لقلوب من تأخر إيمانهم بأن تحصيلهم للثواب لم يفت، وستكون كثرته بقدر طاعتهم وأعمالهم.[2]

- ونصت الآية على اسمين جليلين من أسماء الله الحسنى، وهما الغفور والرحيم، وصفتين من صفاته العلا، وهما المغفرة والرحمة، كما دلت بمعناها على اسمي العليم والخبير، وصفتي العلم والخبرة.

- وفي الآية معجزة للنبي ﷺ، إذ أطلعه الله -العليم الخبير- على ما في قلوب أولئك الأعراب فأخبر به.[3]

- وفي الآية إشارة إلى أن هذا الدين دين السلام والأمان. قال الماوردي: (الإيمان مشتق من الأمن، والإسلام مشتق من السلم).

وخلاصة هذا المطلب:

- أن مضمون أوامره دار على محورين رئيسيين: أحدهما: أمر المؤمنين بالتوبة العامة وتقوى الله عز وجل ولزوم الأعمال الصالحة وفي مقدمتها الصلاة والصدقة والعفة، ووعدهم الفلاح والأجر بغير حساب. ثانيهما: تحذيرهم من إيثار مصالح الدنيا كالأهل والمال والديار على محاب الله ورسوله ﷺ، ونهيهم عن تزكية أنفسهم ومدحها بما ليس فيها، وخوفهم يوم الحساب.

- وأن الله جل وعلا لا يحابي المؤمنين إذا بدر منهم التفريط والعصيان. فقد توعدهم بعقوبة عاجلة أو آجلة إن هم قدموا مراضيهم على مرضاة الله ورسوله.

المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المنافقين وتجبيههم

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 392/21؛ الماوردي، النكت والعيون، 337/5؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 180/5.

(2) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 142/28.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 141.

أشرنا في مقدمة هذا المبحث إلى تعدد مكونات المجتمع المدني الذي انتقل إليه النبي ﷺ بعد هجرته. وأغرب تلك المكونات طائفة المنافقين، فهي أقل الطوائف عددا وأشدها خطرا على الإسلام ونبيه وأتباعه؛ وسر غرابتهم أنهم مسلمون من ناحية المظهر واللسان، كفار من جهة المخبر والمساعي. وسبب خطورتهم أنهم عدو داخلي متخف، يتنقل وسط المسلمين بحرية، ويحضر مجالسهم، ويتسمع أخبارهم، ويتعرف أسرارهم، ويتصل بأعدائهم. وقد توجهت إلى النبي ﷺ جملة من الأوامر تحدد له كيفية التعامل معهم. فما أبرز المحاور التي دارت عليها مضامينها؟ وما اللافت فيها؟ نخلص إلى جوابي هذين السؤالين بعد إيراد الآيات المتضمنة للأوامر المشار إليها وتحليلها.فمن تلكم الأوامر:

* قوله تعالى:﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(51)قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ(52)قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ(53)﴾[التوبة].

– أي: قل –أيها النبي– لأولئك المنافقين موبخا لهم: لن ينالنا في هذه الحياة من الضر أو النفع إلا ما قدره الله علينا وكتبه في اللوح المحفوظ، فنحن راضون بالقدر، لا نغتر بخيره، ولا نجزع لشره، لأن الله عز وجل –دون سواه– هو من يتولى تدبير أمرنا الديني والدنيوي كله، وعليه –لا على غيره– اعتماد أهل الإيمان في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم. قل لهم –أيها النبي– لا يزيد توقعكم لما يمكن أن ينزل بنا عن إحدى اثنتين كلتاهما حسنى، إما أن ننتصر ونغنم وهو عز في الدنيا، وإما أن نظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى فننال الجنة وذلك عز الآخرة، ونحن نتوقع أن ينزل الله بكم عقابا من لدنه يكون فيه هلاككم، أو يهلككم بالقتل والأسر على أيدينا، فارتقبوا حكم الله فينا وفيكم، فنحن مرتقبون ذلك معكم. قل –أيها النبي– لأولئك المنافقين الذين يحاولون إخفاء نفاقهم ببذل المال في الجهاد أو سواه من أعمال البر: ابذلوا ما شئتم من أموال راضين أو مرغمين، فإن الله لن يتقبل إنفاقكم، لأنكم قوم متمردون على الله، مارقون من دينه.(1)

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ أن يقول للمنافقين: اعتقادنا أنه لن يصيبنا إلا ما قدر الله لنا، وهو سبحانه من يتولى شؤوننا وعليه اعتمادنا واعتماد كل مؤمن، وأن أعظم ما ترجونه لنا من السوء لن يزيد عن انتصارنا أو استشهادنا وكلتاهما حسنى، ونحن نتوقع لكم عذابا يسلطه الله عليكم من عنده أو قتلا وأسرا بأيدينا، فلننتظر ذلك معا، وأنفقوا ما شئتم من أموالكم فإنه لا قبول لعملكم، لأنكم مرقتم من الإسلام.

– ولم يرد –في حدود ما اطلعت عليه– سبب لنزول هذه الآية، والله أعلم.

– والذين أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغهم مضمون هذه الآية هم المنافقون كما قال الطبري والرازي والسمرقندي وغيرهم.(2)

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم المنان، ص 316–317؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 268؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 195.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 495/11؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 89/16؛ السمرقندي، بحر العلوم، 55/2.

- وفي الآية تعليم من الله -جل شأنه- لنبيه كيفية الرد على المنافقين فيما تعلق بعداوتهم له ﷺ وللمؤمنين، وشماتتهم بهم إذا أصيبوا بمكروه.[1]

- وفيها تقرير لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره التي هي الركن السادس من أركان الإيمان.

- وفيها أيضا تقرير لعقيدة ولاية الله للمؤمنين، كما قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[البقرة:257].

- وتضمنت الآية وجوب توكل المؤمنين على الله سبحانه في حفظهم من المكاره وتحقيق المنافع، وعدم الالتفات إلى ما يقوله المنافقون.[2]

- وبينت أيضا -إضافة إلى ما سبق- أمرا في غاية الأهمية، وهو أن المؤمنين في حروبهم مع غيرهم بين خيارين كلاهما حبيب إليهم، وهما النصر أو الشهادة.[3]

- ونصت الآية على بطلان إنفاق المنافقين وسائر أعمالهم الصالحة؛ لأنهم لم يحققوا شرط قبولها وهو الإيمان بقلوبهم.[4]

- ودلت الآية على مشروعية التصريح بما يغيظ أعداء الإسلام خصوصا إن كانوا هم المبادرين بقول السوء.[5]

* وقوله تعالى:﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(61)﴾[التوبة].

- أي: ومن المنافقين من يجرون الأذى إلى النبي بكلامهم، فيصفونه بأنه يسمع كل ما يلقى في أذنه فيصدقه وينساق معه ولو كان كذبا، فقل لهم -أيها النبي- مجيبا: إن الذي تصفونه بهذا الوصف ليس كما تزعمون، بل هو أذن لا تستمع إلا لما كان خيرا وحقا، يصدق بالله وبما جاءه من عنده، ويصدق المؤمنين فيما يقولون، لأن إيمانهم مانع لهم من الكذب، وهو رحمة لجميع من صدقوا به منكم واتبعوه. ومن يسببون الأذى لرسول الله فإن الله هيأ لهم عذابا شديد الإيلام.[6]

- فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى نبيه ﷺ أن يرد على المنافقين المؤذين له بأنه أذن خير، يصدق بالله ودينه، ويصدق المؤمنين فيما يقولون وينقلون، وأنه رحمة للمؤمنين المقتدين به، أما مؤذوه المنافقون ففي انتظارهم عذاب موجع أعتده الله لهم.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 112/4؛ ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل،360/1.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 379/2.

(3) انظر:المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 226/10.

(5) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 379/2.

(6) انظر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 196؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 270.

– وورد في سبب نزولها ما أخرجه ابن إسحاق –كما في الدر المنثور– عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد أذن ، من حدثه شيئا صدقه، فأنزل الله فيه : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾ الآية.[1] وورد غير هذا أيضا ولكن تركته لضعفه من جهة، وتفاديا للتطويل من جهة أخرى.

– والذين ورد أمر الله إلى نبيه ﷺ أن يخاطبهم بما في هذه الآية هم المنافقون كما قال الطبري والزمخشري والرازي وغيرهم.[2]

– وفي الآية تنصيص من الله سبحانه على إيذاء المنافقين للنبي ﷺ بألسنتهم، وهو مسلك مشهور عنهم، أكدته نصوص شرعية أخرى كقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(19)﴾[الأحزاب].

– وسجلت الآية أنموذجا من الكلام السيئ الذي كان أهل النفاق يلمزون به رسول الله ﷺ تنفيسا عما في صدورهم من البغض له والحنق عليه.

– ودلت على عناية الله جل وعلا بنبيه ﷺ، ودفاعه عنه، وتعليمه الصيغة المناسبة للرد على هؤلاء الأنذال الذين يتنقصون (سيد ولد آدم)،[3] من غير خجل ولا حياء.

– وفيها شهادة الله جل جلاله بإيمان النبي ﷺ به عز وجل، وحسن معاملته ﷺ للمؤمنين؛ فهو يسمع منهم، ويصغي إليهم، ويصدقهم في أقوالهم وأخبارهم؛ وذلك من حسن ظنه بهم وثقته فيهم بمقتضى إيمانهم.

– وصرحت بكون نبينا ﷺ رحمة للمؤمنين؛ بل هو رحمة أيضا للمنافقين؛ لأنه يطلع على كثير من أسرارهم وفضائحهم وجرائمهم في حقه ﷺ وحق الإسلام وأهله، ولا يفضحهم [4] أو يقتلهم مع قدرته على ذلك، وصدق الله إذ قال مخاطبا إياه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(107)﴾[الأنبياء].

---

(1) رواه ابن اسحاق –كما في السيرة النبوية لابن هشام، 153/4– ومن طريقه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 10399، 1826/6؛ وعزاه السيوطي في الدر المنثور –421/7– إلى ابن المنذر في تفسيره؛ وحسنه حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 469/2.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 534/11؛ الزمخشري، الكشاف، 61/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 118/16.

(3) جملة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق، رقم 2278، ص 935، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 581.

– واشتملت على وعيد شديد لمن يؤذي النبي ﷺ بأي وجه من الوجوه، وهو دليل على تحريم ذلك وكفر فاعله، [1] ويؤكده تنصيص القرآن الكريم في موضع آخر على كونه ملعونا في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا(57)﴾[الأحزاب].

– وفي الآية درس بليغ حول خطورة المنافقين على المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه، فإذا كان هذا هو تعاملهم مع النبي ﷺ الذي يعرف خزاياهم ولا يعاقبهم على قبائحهم مع قدرته عليهم، فما الظن بما يضمرونه لسواه من المسلمين وقياداتهم ومصالحهم.

* وقوله تعالى:﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(81)فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82)فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ(83)﴾[التوبة].

– أي: سر الذين تخلفوا عن النبي بعد خروجه من المدينة بقعودهم فيها، مخالفين أمره بمرافقته للجهاد معه، وكرهوا أن يبذلوا أموالهم، ويضحوا بمهجهم لأجل إرضاء الله وإعلاء دينه، وأضافوا إلى ذلك نهيهم لسواهم عن النفير للجهاد مع الرسول متعللين بشدة الحرارة ، فقل لهم -أيها النبي- مجيبا: لو كنتم ذوي تدبر للأمور وفهم لها ، لأدركتم أن نار جهنم أقوى حرارة وأقسى إيلاما من حر الشمس الذي تتفادون. فليقللوا الضحك سرورا بالراحة والأمان واستخفافا بأهل الإيمان ، لأن ضحكهم قليل المدة إذ ينتهي بنهاية أعمارهم، وسيعقبه في الآخرة بكاء كثير لا ينقطع أمده لخلودهم في العذاب ، مجازاة لهم بما اجترحوا من الكفر والنفاق وغيرهما من الآثام. فإن ردك الله من غزوك هذا إلى جماعة من أولئك المنافقين المذكورين آنفا، فطلبوا إذنك ليخرجوا معك إلى غزوة أخرى، فأجبهم قائلا: لن تخرجوا معي في غزو مطلقا، ولن تشاركوني في مقاتلة أي عدو كان، لأنكم رضيتم بالقعود عن الجهاد معي في المرة الأولى من غير عذر، فاقعدوا فيما يليها من الغزوات مع المتخلفين من النساء والأطفال والمرضى ومن في حكمهم من أهل الأعذار.[2]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ أن يذكر المنافقين المثبطين لغيرهم عن الجهاد بحجة شدة الحر بأن نار جهنم المعدة لمن عصى الله ورسوله أشد حرا من الجو الذي يهابون الخروج فيه للغزو، وأن يجيب من يستأذنه منهم -بعد رجوعه من الجهاد- في الغزو معه مستقبلا: لن تخرجوا معي أبدا لجهاد، ولن تقاتلوا معي عدوا، لأنكم رضيتم بالقعود أول مرة دون عذر مقبول.

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 389/2.

(2) انظر: لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 274؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 200.

– وورد في سبب نزولها ما أخرجه ابن مردويه [1] –كما نقله السيوطي في الدر المنثور– عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: استدار برسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه ويقولوا: يا رسول الله ، ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر، فأذن لهم و أعرض عنهم ، فأنزل الله : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ...﴾ الآية.[2] وهو أثر ضعيف. ووردت آثار أخرى غيره لكنها لا تثبت أيضا.[3]

– والذين صدر الأمر الرباني إلى النبي ﷺ أن يخاطبهم بمضمون هذه الآية هم المنافقون كما قال ابن عطية وابن الجوزي والنسفي وغيرهم.[4]

– والمخلفون المذكورون في الآية هم المنافقون أنفسهم المشار إليهم آنفا، كما ذكر عامة المفسرين. ومعنى كونهم مخلفين أن النبي ﷺ وأصحابه –رضوان الله عليهم– تركوهم خلفهم ومضوا إلى غايتهم النبيلة إرضاء لله عز وجل؛ وكان سبب فرحهم هو تمكنهم من القعود في المدينة إيثارا للراحة وكراهة للجهاد، وتخلصا من مغارمه المادية والبدنية.[5]

– وما نصت عليه الآية مما بدر من المنافقين من المخازي وما أمر النبي ﷺ به من الرد عليهم كان أيام غزوة تبوك. فقد صح عن قتادة –فيما أخرجه عنه الطبري– في تفسير قوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أنه قال: هي غزوة تبوك.[6]

– وللمفسرين رأيان في معنى لفظة (خلاف) الواردة في قوله تعالى: ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾؛ فبعضهم قال معناها: خلفه، أي أقاموا خلفه بالمدينة بعد ارتحاله إلى تبوك. وقال آخرون: معناها: مخالفين له، لأن فعلهم –وهو القعود– خلاف فعله ﷺ وهو

---

(1) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك بن موسى بن جعفر الأصبهاني. إمام مفسر محدث حافظ مجود ثقة مصنف. ولد سنة 323هـ. روى عن أبيه وعن أبي سهل بن زياد القطان وعبد الله بن إسحاق الخراساني وأحمد بن عيسى الخفاف وغيرهم، وروى عنه أبو بكر بن إبراهيم المستملي وأبو القاسم بن الحافظ ابن مندة والقاسم بن الفضل الثقفي وغيرهم. من مصنفاته: التاريخ والأمالي والتفسير الكبير وغيرها. توفي سنة 410هـ في اصفهان.

(2) السيوطي، الدر المنثور، 473/7. [انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 3802، 194/13؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 57/5].

(3) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 310/2-313.

(4) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 65/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 478/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 698/1.

(5) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان، 602/11؛ الزمخشري، الكشاف، 75/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 152/16؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 65/3؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 478/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 698/1.

(6) انظر: الطبري، جامع البيان، 604/11؛ وصححه حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 476/2.

السير للغزو. والراجح –والله أعلم– هو الرأي الأول؛ لأن (خلاف) مصدر خالف يخالف، وليس مرادفا لاسم الجهة (خلف)، وهو ما رجحه الطبري وغيره.(1)

– ودلت الآية على كره المنافقين للجهاد في سبيل الله وحرصهم على تجنب المشاركة فيه، وهو موقف ثابت لهم تجاه هذه الفريضة، ولا مكان فيه للغرابة؛ لأن الجهاد مكروه للنفوس عامة لما فيه من التعرض للمشقة والآلام والجراح وإزهاق الروح، كما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾[البقرة: 216]، ولكن المؤمنين تدفعهم إليه الرغبة في الأجر والشهادة وانتصار دينهم، أما المنافقون فلا محل لهذه المحفزات في حسابهم.

– وفيها تذكير بأن مشاق الدنيا كلها لا تبلغ ما في جهنم من ألوان العذاب الأليم، وفي ذلك تنبيه إلى أن العاقل لا تصرفه عن واجباته الشرعية، لأنه يعلم أنه مثاب عن كل ما يلحقه منها جل أو دق. قال النبي ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات).(2)

– وتضمنت الآية إشارة إلى أن المعاصي –ومنها النفاق– تورث أهلها ضعفا في العقل والفهم، خصوصا إذا كثرت أو طالت.

– وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وعيد شديد للمنافقين، وإخبار عن سوء مصيرهم، وبيان لسبب ذلكم وهو أعمالهم السيئة التي اجترحوها وعلى رأسها النفاق.

– وفي الآية أمر للنبي ﷺ بمعاقبة أولئك المنافقين بعد رجوعه من الغزو، وتحديد لصنف العقوبة الواجب إنزالها بهم، وهي حرمانهم من الجهاد مع النبي ﷺ ولو أرادوه. وهذا دليل على مشروعية عقاب المنافقين إذا صدرت منهم الأفعال المستوجبة لها، كعصيانهم أوامر القيادة في الدولة المسلمة التي يعيشون فيها.

– وفيها أيضا توبيخ لهم على قبائحهم، وتنبيه إلى أنهم سيحاولون –فيما يستقبل من الأيام– التغطية على مواقفهم المخزية بإظهار الرغبة في الأعمال الصالحة ومنها الجهاد، وهو ما لا ينبغي أن ينطلي على المسلمين عامة، وقياداتهم خاصة.

– وفيها كذلك علامتان من علامات النفاق، وهما كره الطاعة والفرح بتركها.(3)

* وقوله تعالى:﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(16)قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(17)﴾[الأحزاب].

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 602/11؛ الزمخشري، الكشاف، 75/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 152/16؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 317/10؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 91/3.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات، رقم 6487، ص 1183؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم 2822، ص 1136، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 406/2.

– أي: قل –أيها النبي– لأولئك المنافقين : لن يفيدكم الهرب إن هربتم خوفا من الموت حتف الأنف أو القتل بالسيف إذا حان الأجل، وإن لم يحن وهربتم فلا متعة لكم في هذه الحياة إلا مقدار مدد أعماركم –المحددة عند الله– لا أكثر ، وه ي قليلة مهما تكن. قل –أيها النبي– لهم: من هذا الذي يمنعكم من الله إن شاء أن ينزل بكم شرا، أو يدفع حلول الخير بكم إن أراده الله لكم رحمة منه وفضلا؟ ولا يجد أولئك المنافقون لأنفسهم من دون الله من يواليهم أو يغيثهم.[1]

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى النبي ﷺ أن يعلم المنافقين أن فرارهم من الموت لن يفيدهم شيئا، لأن الآجال محسومة سلفا، وأن يسألهم عمن يمكنه أن يمنعهم من الله إن أراد بهم شرا أو خيرا. أي لا أحد يقدر على ذلك.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء في حدود ما اطلعت عليه، والعلم عند الله.

– والذين أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخاطبهم بما تضمنته هذه الآية هم المنافقون كما قال طنطاوي والصابوني وغيرهما.[2]

– ودل السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآيات أن ما بدر من هؤلاء المنافقين من محاولة الفرار –جبنا عن القتال وحرصا على الحياة– كان أيام معركة الخندق، التي غزت فيها أحزاب الكفر مدينة رسول الله ﷺ، وهو ما أكدته كتب السيرة المشرفة والسنة المطهرة وسجلت تفاصيله.

– وتضمنت الآية توبيخا للمنافقين الفارين من القتال حذر الموت، وإعلاما بأن الفرار لا ينجي من القدر.[3] ولا تعارض بين التوبيخ والإعلام المشار إليهما وبين مشروعية تقديم أسباب النجاة من الأخطار المتوقعة؛ لأن الثبات عند القتال وتحمل مغارمه وإن فدحت هو المأمور به شرعا. قال ابن عاشور: (ومعنى نفي نفع الفرار وإن كان فيه تعاطي سبب النجاة، هذا السبب غير مأذون فيه لوجوب الثبات في وجه العدو مع النبي ﷺ، فيتمحض في هذا الفرار مراعاة جانب الحقيقة وهو ما قدر للإنسان من الله إذ لا معارض له، فلو كان الفرار مأذونا فيه لجاز مراعاة ما فيه من أسباب النجاة).[4]

– وفي الآية تقرير لعقيدة القضاء والقدر التي هي الركن السادس لأركان الإيمان. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾: (إشارة إلى أن الأمور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار، وما قدره الله كائن).[5]

(1) انظر: الألوسي، روح المعاني، 21/162-163؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 624-625؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 420.

(2) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 11/38؛ الصابوني، صفوة التفاسير، 2/515.

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/374؛ أبو حيان، البحر المحيط، 7/213.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21/290 .

(5) الرازي، مفاتيح الغيب، 25/201.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى قصر أعمار هذه الأمة، [1] وحقارة متاع الدنيا. قال مكي بن أبي طالب: (أي: لا يزيد لكم فراركم في أعماركم شيئا بل إنما تمتعون في هذه الدنيا إلى الوقت الذي كتب لكم، لا تجاوزوه، هو قليل لأن الدنيا كلها متاع قليل، فما بقي من أعماركم أقل من القليل).[2]

- والاستفهام في قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ استفهام إنكاري مراد به نفي وجود العاصم من الله مطلقا؛ لأنه عز وجل هو القاهر فوق عباده، لا يكون إلا ما يريد، تماما كما يريد. فالمعنى هنا كالذي في قوله تعالى على لسان نوح –عليه السلام– وهو يرد على ابنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43)﴾[هود].

- وفي قوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ بيان لانفراد الله وحده بأزمة الأمور جميعا، ونفاذ إرادته في كل ذرة من الكون علويه وسفليه، وعجز من سواه عجزا تاما على نفع من خسر ولايته تعالى.[3]

وخلاصة هذا المطلب: تدور حول ثلاثة محاور، هي:

- الرد على المنافقين فيما يصدر عنهم من طعن وسخرية وتثبيط وشماتة بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومعاقبتهم على ما يصدر منهم.
- فضح مسالكهم السيئة وتصرفاتهم القبيحة، وبيان مصير ما يظهرونه من أعمال صالحة شكلا، وأنها لا تقبل منهم؛ لأنها فقدت شرط القبول وهو الإيمان بالله سبحانه.
- بيان حالهم في الدنيا وأنهم فساق عن الدين لا حظ لهم فيه، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة.
- واللافت في مضامين الأوامر الواردة في شأن المنافقين هو الصرامة في التعامل معهم، وعدم التساهل في كشف خطرهم، وفضح أساليبهم.

المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة أهل الكتاب ومحاجتهم

أطلق القرآن الكريم مصطلح أهل الكتاب على اليهود والنصارى تمييزا لهم بالقراءة والكتابة عن الوثنيين الأميين الذين ليس لهم كتاب في الدين يرجعون إليه، وإلماعا إلى ما أوتوه من العلم بكتب الله المنزلة وعلى رأسها التوراة والإنجيل، وإن شاب ذلك العلم ما شابه من الخطإ والخرافة، ونال تلك الكتب ما نالها من التحريف والتبديل. بل إن الله سبحانه خصهم في كتابه المنزل

---

(1) بين النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله: (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك). [أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم 3550، ص 806؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، رقم 4236، ص 702؛ وغيرهما، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم 757، 385/2].

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، 5809/9.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 629-630.

على نبينا محمد ﷺ بأحكام شرعية ليست لغيرهم -كجواز الزواج من نسائهم، وقبول الجزية منهم إن أصروا على البقاء على دينهم- رعاية لما معهم من الإيمان بالله وكتبه ورسله على الرغم مما داخل إيمانهم من الشرك والغموض. وكان الظن بهم أن يسارعوا إلى الإيمان بالنبي ﷺ وما أنزل عليه لما معهم من البشرى به، أو يتعاونوا -على الأقل- معه في دعوته إلى عبادة الله وحده لأنه أقرب إليهم من الوثنيين المحيطين بهم، ولكنهم لم يفعلوا هذه ولا تلك، بل سارعوا إلى تكذيبه، وعملوا على حربه وتأليب الناس ضده. وقد توجهت إليه ﷺ طائفة من الأوامر الربانية تكلفه بمحاورتهم وتبين له مضمون رده عليهم. فما أبرز محاور ذلك المضمون المشار إليه؟ وما الذي يميزه عن الذي وجه للمنافقين؟ ذلك ما سنحاول معرفته من خلال سوق النصوص القرآنية الواردة في هذا المجال وتحليلها. فمن تلك الأوامر:

* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(93)قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(94)﴾[البقرة].

– أي: واذكروا -يا بني إسرائيل- إذ أخذنا عليكم عهدا مغلظا بأن تقبلوا ما أتاكم به موسى من الوحي، فنقضتم الموثق الذي أعطيتم، فرفعنا جبل الطور فوق رءوسكم حتى ظننتم أنه سيسقط عليكم، فأخذنا عليكم موثقا ألا تتهاونوا في تنفيذ ما كلفناكم به بكل حزم، فأعلنتم إذعانكم التام لأمرنا. ولكنكم بعد نجاتكم من الهلاك الذي كاد يقع بكم رجعتم إلى ما ألفتم قبل من التمرد، وقلتم: سمعنا تكليف الله لنا وعصينا أمره؛ وذلك لأن الإيمان بالله لم يستكن في قلوبهم، بل تشربت قلوبهم حب عبادة العجل لسرعة ميلهم إلى الكفر. قل لهم -أيها النبي- ما أقبح ما يدفعكم إليه إيمانكم إن كنتم مؤمنين كما تزعمون. قل لهم -أيها النبي-: إن كانت الجنة في حكم الله حكرا عليكم يوم القيامة دون غيركم من البشر فأحبوا الموت وتمنوا على الله أن يعجله لكم إن صدقتم في دعواكم حتى تفضوا إلى النعيم الذي ينتظركم وحدكم.[1]

– فتضمنت الآية أمرا من الله سبحانه إلى النبي ﷺ أن يوبخ اليهود على ما يقترفون من المعاصي مع ادعائهم الخصوصية في الدين، وأن يتمنوا حلول الموت بهم إن صدقوا في اقتصار الجنة عليهم.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء فيما اطلعت عليه، والله أعلم.

– والذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يوجه إليهم مضمون الأمرين الواردين في الآية هم اليهود كما دل عليه ما سبقها من النظم الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ(92)﴾[البقرة].

– ورفع الطور فوق رؤوس بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السلام معجزة عظيمة أريد بها قهرهم على التزام ما في التوراة من الأحكام الإلهية، وإشعارهم بقوة الله وشدة عقابه لمن يعصيه. وقد نعت المولى سبحانه هذه الآية في موضع آخر من القرآن

(1) انظر: المصدر السابق، ص 44-45؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 22؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 14-15.

الكريم. قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(171)﴾[الأعراف].

– وأمر الله بني إسرائيل بأخذ ما أوتوا بقوة معناه استقبال أحكام الله باهتمام وتنفيذ مضامينها بجد وعقد عزم القلب على التزامها وعدم مخالفتها؛ كما أمر الله سبحانه نبيه يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)﴾[مريم].

– والمراد بالسمع في قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ استجيبوا لما يطلب منكم وأطيعوا بتنفيذ ما تؤمرون والتزامه، لا مجرد سماع الأوامر بالحاسة وإدراك معانيها بالذهن. ومن ذلك قول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: قبل منه وأجابه.(1)

– ودل قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ على أن التخويف –مهما كانت شدته– لا تعويل عليه وحده في الإقناع بالأفكار أو زرع الإيمان في القلوب. قال الرازي: (إظلال الجبل لاشك أنه من أعظم المخوفات ، ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم ، وصرحوا بقولهم : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. وهذا يدل على أن التخويف –وإن عظم– لا يوجب الانقياد).(2) وفي هذا رد على من يدعون من أعداء الإسلام أنه انتشر بالسيف؛ كما يرد زعمهم أن الإسلام فقد السيف منذ أمد طويل، فلم لم يخرج منه من دخله قسرا؛ بل أقول: إن الناس يدخلون الإسلام في زمننا هذا أفواجا في الشرق والغرب –مع شدة ضعف أهله وجهلهم وتفرقهم– فأية قوة إسلامية أجبرتهم على ذلك؟ إنما قوته الذاتية النابعة من انسجامه التام مع الفطرة والعقل والعدل والحق.

– وفي قول الله عز وجل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ دلالة في غاية القوة على تمكن الشرك والوثنية من قلوب اليهود من عهد موسى عليه السلام فما بعده؛ (ولقد بقيت في القوم منذ عصر العبرانيين عبادة الأوثان والتعلق بصنع التماثيل المتعبد بها، والمغالاة في أساليب البيع والشراء لأدوات العبادة الطوطمية المتخذة من الحديد والحجر).(3)

– وتضمنت الآية أمرا من الله إلى النبي ﷺ بتوبيخ اليهود على ما صدر منهم في القديم والحديث من نقضهم المواثيق وعبادتهم العجل وقتلهم الأنبياء وكفرهم بالإسلام ونبيه ﷺ مع ادعائهم الإيمان بالتوراة التي تنص على نبوته وأوصافه والبلاد التي يخرج منها والزمن الذي يظهر فيه.(4)

– وفيها أيضا تشكيك واضح في دعوى اليهود الإيمان؛ لأن أعمالهم ومواقفهم من الأنبياء والكتب السماوية تشهد بكذبهم.(5)

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، 2/254-255.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 3/202.

(3) صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، ط3، 1411هـ-1991م، 2/ 101.

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، 2/256؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 1/195.

(5) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 3/203.

- واشتملت الآية على أمر ثان من الله عز وجل إلى نبيه ﷺ بالرد على اليهود في زعمهم الاختصاص بالجنة، مع تعليمه ﷺ صيغة الرد المفحم الذي لم يملكوا أمامه إلا الصمت المطبق.

- وبين النبي ﷺ أن اليهود لو تمنوا الموت لماتوا فعلا. روى أحمد في مسنده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: (لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا).[1]

- ولحكمة ربانية تكرر الأمر إلى النبي ﷺ بالرد على اليهود -في ادعائهم اقتصار الجنة عليهم- بتحديهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعواهم؛ لأن ذلك سيكون أقصر طريق لوصولهم إلى النعيم المقيم الخاص بهم؛ كما أمره أن يذكرهم أن الموت الذي يحرصون على تفاديه لابد ملاقيهم ليرجعوا إلى الله فيجازيهم بأعمالهم. قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(8)﴾[الجمعة].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(97)﴾[البقرة].

- أي: قل -أيها النبي- لليهود الذين يزعمون أن سبب معاداتهم لك وكفرهم بنبوتك هو أن جبريل الذي يبلغك الوحي عدو لهم: من كان معاديا لجبريل فإنه في الحقيقة معاد لله، لأن جبريل لا ينزل بهذا القرآن من عند نفسه، بل يجيء به من عند الله وبأمر منه كما كان يفعل مع الأنبياء السابقين تصديقا لما مضى من الكتب الإلهية وهداية وتبشيرا لمن آمنوا بالله ورسوله.[2]

- فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى نبيه ﷺ أن يعقب على تسويغ اليهود عداوتهم له ﷺ بولايته لجبريل -عليه السلام- الذي هو معاد لهم في زعمهم بأن جبريل لا ينزل بالوحي عليه من تلقاء نفسه، بل بأمر الله له بذلك، وهي الوظيفة نفسها التي أداها مع جميع الأنبياء الماضين.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 2225، ص 193؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة اقرأ باسم ربك)، رقم 3348، ص 760؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، رقم 10995، 10/41-42؛ واللفظ لأحمد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 3296، 7/872].

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 45؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 22؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 15.

- وسبب نزول هذه الآية ما رواه أحمد وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن، عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا (قال أبي: قال بعضهم: يعني الإبل) فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل، موكل بالسحاب، بيده -أو في يده- مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمر الله. قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته. قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية.[1]

- والذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالتعقيب عليهم هم اليهود كما دل سياق الآيات التي سبقت الآية محل الدراسة، وكما أجمع أهل العلم بالتفسير على ما نقله الطبري رحمه الله.[2]

- وللعرب في التلفظ باسم جبريل وميكائيل بضع لغات؛ فأهل الحجاز يقولون: جبريل وميكال من دون همز، وبخفض الجيم والراء من كلمة جبريل، ويكون ذلك بالتخفيف؛ وعامة القراء من أهل المدينة والبصرة على القراءة بهذا. أما بنو تميم وبنو قيس والبعض من أهل نجد فينطقونها: جبرئيل وميكائيل، بفتح حرفي الجيم والراء من جبريل، وبمد الهمزة المجرورة من الاسمين كليهما؛ وهذه قراءة عامة القراء من أهل الكوفة. وأما قبيلة بني أسد فتنطقها: جبرين، بكسر الجيم والراء.[3]

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم 2483، ص 212؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (ومن سورة الرعد)، رقم 3117، ص 700؛ والطبراني في المعجم الكبير، رقم 12429، 12/45-46؛ وابن أبي حاتم في تفسيره، رقم 185، 1/54-55، ورقم 952، 1/179-180؛ وأبو نعيم في الحلية، 4/304-305؛ والواحدي في أسباب النزول، ص 30-31؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم 60، 10/67-68، ورقم 61، 10/69-70؛ وحسنه شعيب الأرنؤوط دون قصة الرعد، في تخريجه للمسند، رقم 2483، 4/284-285.

(2) انظر: الطبري، 2/283.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 2/294-295؛ الزمخشري، الكشاف، 1/301-302؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 3/211-212.

– وتعددت الآثار عن المفسرين بأن جبريل معناه عبد الله، وأن إيل كلمة عبرية معناها الله بالعربية، وقيل: عكس ذلك، أي أن إيل معناها عبد، والكلمة المضافة هي اسم الله؛ فعلى هذا يكون اسما مركبا بالأعجمية. ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قوله جبريل كقوله عبد الله وعبد الرحمن.[1]

– وتضمنت الآية قبيحة من قبائح اليهود، وسوء أدبهم مع الملائكة المطهرين، وجانب من جوانب جهلهم الكبير؛ وهي أخلاق معهودة منهم تضاف إلى مثيلاتها مما صحت بها نصوص الوحيين، كسؤالهم نبيهم موسى عليه السلام –الذي يدعوهم إلى التوحيد– أن يجعل لهم صنما يشركونه مع الله في العبادة. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138)﴾[الأعراف].

– وفي تخصيص قلب النبي ﷺ بالتنزيل إشارة إلى أن القلب محل العقل والبصيرة، ووعاء العلم، وجهاز استقبال المعارف، ووسيلة الحفظ والفقه، وموضع الإيمان والتقوى.[2] ويؤكد ذلك نصوص شرعية كثيرة؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[الإسراء: 46]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ(32)﴾[الحج]، وقوله جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46)﴾[الحج]، وغيرها من الآيات الشريفة.

– ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام وعلو مكانته عند الله؛ لأن الآية نزلت في الانتصار له والدفاع عنه ضد من يعاديه ويبغضه أو يتنقصه، وهم اليهود.[3]

– وفيها دلالة كذلك على انتفاء وجه معاداة اليهود لجبريل عليه السلام، وأن الدافع الحقيقي لهم إلى ذلك الموقف المخزي هو تنزيله عليه السلام القرآن على قلب النبي ﷺ تصديقا لما سبقه من الكتب وهداية للعباد وبشارة لأهل الإيمان.[4]

– وفي الآية بيان للوظيفة الكبرى لجبريل عليه السلام وهي النزول بالوحي على نبينا ﷺ محمد ومن قبله من الأنبياء الذين سبقوه، فهو سفير الله إلى أنبيائه ومبعوثه إلى رسله عليهم السلام.

– وفيها أيضا التنصيص على عدد من الوظائف الكبرى للقرآن الكريم، وهي تصديق ما سبقه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم عليه السلام، وهداية العباد إلى الصراط المستقيم الذي ارتضاه ربهم لهم ليكون سبب سعادتهم، وتبشير المؤمنين بنبينا محمد ﷺ بما يسرهم في الدنيا من العزة والرفعة، وفي الآخرة من الفوز بجنات النعيم المقيم.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 963، 182/1؛ وحسنه حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 202/1؛ وانظر: الطبري، جامع البيان، 294/2-299؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 212/3؛ ابن كثير، التفسير الصحيح، 200/1-201.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 262/2.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 203/1.

(4) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص 78.

– وفي السنة النبوية الشريفة وصف مبهر لأمين الوحي جبريل عليه السلام. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن (محمدا ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح)، [1] وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:(رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض).[2]

* وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(111)بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(112)﴾[البقرة].

– أي: وزعم كل من اليهود والنصارى أن الجنة حكر على أهل دينهم دون سواهم، تلك مجرد أماني يتمنونها لا أكثر. قل لهم –أيها النبي– أعطونا دليلكم الذي يثبت صحة دعواكم إن كنتم صادقين في قولكم. وليس الشأن في الحقيقة كما زعموا، بل كل من أخلص توجهه لله وحده وهو مقتد بالرسول في أفعاله وأقواله فثواب عمله محفوظ له عند ربه يجده يوم القيامة كاملا، وليس عليه شيء مما يرهب فيما هو مقبل عليه من أحوال آخرته، ولا مما يأسف على فواته من حظوظ الدنيا.[3]

– فتضمنت الآية أمرا إلهيا كريما إلى النبي ﷺ أن يطالب كلا من اليهود والنصارى بالدليل على زعمه خلوص الجنة له دون غيره.

– ولم يرد في سبب نزول هذه الآية شيء فيما اطلعت عليه، والله أعلم.

– والذين أمر الله جل جلاله نبيه ﷺ أن يطالبهم بالدليل على دعواهم أن الجنة حكر عليهم هم أهل الكتاب كما قال الطبري والزمخشري والرازي وغيرهم.[4]

– والقائلون المذكورون في الآية هم أهل الكتاب من يهود ونصارى كما دل عليه ما سبقها من النظم الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ...﴾[البقرة:109].

– وقولا الطائفتين متضادان فيما بينهما خلافا لما قد يتوهمه البعض من جمعهما في جملة واحدة بأن كلا من الفريقين يقصر الجنة عليه وعلى الآخر دون سائر البشر. فاليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا. وإنما جمع الإخبار عنهما تعويلا على فهم القارئ والسامع وفطنتهما؛ لأنهما لا يخفى عليهما ما بين

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[النجم:10]، رقم 4857، ص 907.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13)﴾ [النجم]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، رقم 177، ص 97، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 1/322-326؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 25؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 17.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان، 2/428؛ الزمخشري، الكشاف، 1/310؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 3/4.

الفريقين من التدافع ونكران الاتصاف بالفضل،[1] كما قال الله سبحانه في كتابه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾[البقرة:113].

- وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ بصيغة الجمع -بدل الإفراد المناسب لما في الآية من أمنية اقتصار الجنة عليهم- إشارة إلى جملة أمانيهم الباطلة، وقد نص القرآن الكريم على نموذجين منها غير الذي في الآية محل الدراسة، أحدهما في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[البقرة:105]، والآخر في قوله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[البقرة:109]، وكلها في سورة البقرة كما هو ظاهر.[2]

- وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمر رباني إلى النبي ﷺ أن يدعو أهل الأديان السماوية إلى أمر ينصف الجميع في شأن الجنة التي هي مطلب الأطراف كلها، وهو إقامة البينة من كل من يدعيها له وحده على صدق دعواه، فمن أقام الحجة سلم له الجميع، ومن عجز عنها سقط قوله. وهذا إنصاف لم يصدر من ملة غير ملة الإسلام، وفي تضاعيفه تكذيب من الله سبحانه لليهود والنصارى في زعمهم المشار إليه؛ لأنهم لم يأتوا عليه ببرهان -ولا بما يشبهه- مع مرور نحو خمسة عشر قرنا على هذه الدعوة العادلة.[3]

- وفي قول الله سبحانه: ﴿بَلَى﴾ رد لمزاعم أهل الكتاب وإثبات لما نفوه عصبية من دخول غيرهم الجنة ما داموا مخلصين لله دينهم متبعين رسله.[4]

- وفي قوله عز وجل: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ إشارة إلى شرطي قبول العمل من قبل الله تعالى، وهما الإخلاص لله سبحانه والموافقة للشريعة، كما في قوله سبحانه أيضا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110)﴾[الكهف]. فمن فقد أحدهما أو كليهما لم يقبل عمله.[5]

- وتضمن قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بشارة للمسلم المخلص لله العامل بشريعته بالسعادة التامة التي لا ينغصها خوف ولا حزن. قال الرازي: (ثم مع هذا النعيم لا يلحقه خوف ولا حزن، فأما الخوف فلا يكون إلا من المستقبل، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضي كما قد يكون من المستقبل، فنبه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة).[6]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 428/2.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 310/1-311.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 430/2-431.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 311/1.

(5) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 235/1-236.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب، 4/4.

- ودلت الآية على أن كل ادعاء لم يسنده الدليل فهو باطل أيا كان قائله، وأن كل رأي مدعوم بالحجة الصحيحة يجب قبوله بغض النظر عن صاحبه.(1)

- وقررت الآية عدل الله التام وعدم ظلمه لأي كان من خلقه، فكل من آمن وعمل صالحا أثابه وأدخله الجنة بصرف النظر عن جنسه ولونه. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[آل عمران:195].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(64)﴾[آل عمران].

- أي: قل -أيها النبي- لليهود والنصارى: يا أهل الكتاب أقبلوا إلى كلمة حق وعدل نتفق عليها نحن وأنتم ونلتزم بها جميعا ، وهى أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نشرك معه فيها أي شيء، بشرا كان أو وثنا أو صليبا أو غير ذلك ، ولا ينقاد بعضنا دائنا لبعض في تحليل شيء أو تحريمه، تاركا حكم الله فيه، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الحقة المنصفة فقولوا لهم -أيها المؤمنون- : اشهدوا علينا بأنا منقادون لأمر الله، مستسلمون له وحده.(2)

- فتضمنت هذه الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن يوجه دعوة إلى اليهود والنصارى بأن يتفقوا جميعا على تخصيص الله وحده بالعبادة دون إشراك أي شيء معه فيها مطلقا.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية -فيما اطلعت عليه- إلا ما نقله الثعلبي عن أهل التفسير. قال -رحمه الله-: (قال المفسرون: قدم وفد نجران المدينة ، فالتقوا مع اليهود ، فاختصموا في إبراهيم ، فأتاهم النبي ﷺ فقالوا: يا محمد إنا اختلفنا في إبراهيم ودينه، فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهوديا وأنهم على دينه وأولى الناس به. فقال لهم رسول اللّه ﷺ: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه ، بل كان إبراهيم حنيفا وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام. فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا. وقالت النصارى: والله -يا محمد- ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير. فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾).(3) وهو أثر لا يثبت.(4)

- والذين أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى هذا الاتفاق العادل الحق هم أهل الكتاب من يهود ونصارى كما هو ظاهر من نص الآية الكريمة.

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 311/1؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 3/4.

(2) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 327/1-328؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص81؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 58.

(3) الثعلبي، الكشف والبيان، 85/3-86.

(4) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 259/1 .

– واختلف المفسرون فيمن وجه إليهم النبي ﷺ الدعوة التي تضمنتها هذه الآية بعد نزولها؛ فقال قتادة والربيع بن أنس وابن جريج: دعا إليها يهود أهل المدينة، وقال محمد بن جعفر بن الزبير والسدي وابن زيد: دعا إليها نصارى نجران. (1) وليس بنا حاجة إلى الترجيح بين القولين –في تقديري– لعدم تعارضهما، إذ يمكن أن يكون دعا الفريقين كليهما لثبوت التواصل بينه وبينهما كما هو منصوص في كتب السيرة؛ ولكن المستيقن أنه وجه تلك الدعوة بنصها إلى قيادة الإمبراطورية الرومية التي كانت يومئذ تمثل النصارى على المستوى العالمي. روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبو سفيان من فيه إلى في قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل ... فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:64]. فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا ...).(2)

– وللمفسرين رأيان في معنى ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أحدهما: أن معناها: عدل بيننا وبينكم. ومن أصحاب هذا الرأي قتادة والربيع. وثانيهما: هي قول لا إله إلا الله . ومن القائلين بهذا أبو العالية الرياحي. (3) ولا حاجة بنا إلى الترجيح –في تقديري– لعدم التعارض بين الرأيين، بل هما متكاملان؛ لأن الآية فسرت الكلمة السواء بألا نعبد إلا الله، وهو معنى لا إله إلا الله، وهي عدل بيننا وبينهم؛ لأن اعتقاد وجوب عبادة الله وحده أمر مشترك بين الطرفين، فالاتفاق بينهما على تنفيذه دون جعل أحدهما مربوبا للآخر أو تابعا له في غاية الإنصاف.

– ولأهل التفسير قولان في معنى اتخاذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله؛ فقال بعض: معناه سجود بعضهم لبعض. ومن أصحاب هذا القول: عكرمة. وقال بعض آخر: هو طاعة بعضهم بعضا في معصية الله. ومن هؤلاء: ابن جريج. (4) ولا خلاف بينهما في الحقيقة، بل هما متكاملان؛ لأن السجود للغير تأليه له، وهو فرع عن اعتقاد ربوبيته، ولذلك نهى النبي ﷺ عن شبيهه الذي هو دونه، وهو الركوع للغير.(5) وطاعته في معصية الله فرع عن اعتقاد ألوهيته مع الله أو دونه.

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/475-476.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾[آل عمران:64]، رقم 4553، ص 821-822.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 5/476-478.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 479؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/40.

(5) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا، قال: فيلتزمه ويقبله؟ قال:لا، قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم. [أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في

- وذيلت الآية بتنبيه الله تعالى نبيه ﷺ والصحابة رضي الله عنهم إلى إشهاد أهل الكتاب -في حال رفضهم للتوحيد- أنه ﷺ ومن معه هم المسلمون، وهي شهادة تتضمن إقرارا ضمنيا بأنهم ليسوا كذلك، أي أنهم كافرون، أو (التسجيل عليهم لئلا يظهروا إعراض المسلمين عن الاسترسال في محاجتهم في صورة العجز والتسليم بأحقية ما عليه أهل الكتاب).[1]

- ودل أمر الله -جل جلاله- لنبيه ﷺ بإشهاد اليهود والنصارى على إسلامه هو وأصحابه -رضوان الله عليهم- على أنه سبحانه يريد من المسلم أن يكون معتزا بدينه مفاخرا بإيمانه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:8].

- وكما ورد الأمر إلى النبي ﷺ ليدعو أهل الكتاب إلى التلاقي على عبادة الله وحده، ورد إليه الأمر أيضا ليدعوهم إلى المباهلة في شأن عيسى بن مريم عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(59)الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(60)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(61)﴾[آل عمران]. وقد نفذ ﷺ هذا الأمر ودعا ممثلي نصارى نجران ليلاعنهم -بعد أن عرض عليهم الإسلام فرفضوه- فامتنعوا خوفا من العواقب المهلكة، واكتفوا بمصالحته ﷺ على مال يدفعونه إليه. روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: (لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين)، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: (هذا أمين هذه الأمة).[2]

- وفي الآية دعوة صريحة إلى الحرية والمساواة بين البشر جميعا، وإلغاء الطبقية والعنصرية وسائر الاعتبارات التي تدعو إلى استعباد الإنسان للإنسان، أو تقره، أو ترسخه.

* وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(72)وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(73)﴾[آل عمران].

المصافحة، رقم 2728، ص 613؛ واللفظ له، وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب المصافحة، رقم 3702، ص 613؛ وأحمد في مسنده، رقم 13075، ص 898؛ وحسنه الترمذي، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح، رقم 4680، 1327/1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 269/3.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم 4380، ص 789؛ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، رقم 2420، ص 985، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

– أي: وقالت جماعة من أهل الكتاب لإخوانهم في الدين: صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد نبي الذين آمنوا بالإسلام بداية النهار على وجه المكر والكيد، واكفروا في نهايته لعل ذلك يشكك المسلمين في دينهم ويفتنهم عنه فيرجعون إلى الكفر الذي كانوا عليه قبل أن يسلموا؛ ولا تثقوا إلا فيمن كان على ملتكم. قل لهم -أيها النبي- مجيبا: إن الهداية الحقيقية هي هداية الله من وفق من عباده إلى دينه الحق. وقالوا أيضا لإخوانهم: لا تكشفوا ما معكم من العلم للمسلمين لئلا يدعي إنسان - منهم أو من غيرهم- أنه أعطي مثل ما أعطيتم منه فيساووكم فيه أو يتفوقوا عليكم، أو يجعلوه حجة لهم عليكم عند ربكم. قل لهم - أيها النبي - مذكرا: إن الفضل كله ملك لله وحده يعطيه من يريد من عباده، وهو -سبحانه- واسع بعطائه كل خلقه، عليم بمن يستحقه ومن لا يستحقه.[1]

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ أن يرد على أهل الكتاب -الذين يمكرون بأهل الإسلام ويأمر بعضهم البعض بكتمان العلم عنهم- بأن الهداية والفضل بيد الله وحده، وهو أعلم بمن يستحقهما.

– وورد في سبب نزول الآية الثانية والسبعين ما رواه سعيد بن منصور في سننه والطبري في تفسيره من حديث أبي مالك الغفاري،[2] قال: قالت اليهود بعضهم لبعض: أسلموا أول النهار، وارتدوا آخره، لعلهم يرجعون ، فأطلع الله على سرهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[3] وهو أثر مرسل صحيح الإسناد.[4]

وأما الآية الثالثة والسبعون فجاء في سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي مالك أيضا قال: كان اليهود يقول أحبارهم للذين من دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم؛ فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾.[5] وهو أثر مرسل حسن الإسناد،[6] ولذلك لا يمكن التعويل عليه تماما كالذي قبله.

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 118؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 82؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 59.

(2) هو أبو مالك غزوان الغفاري الكوفي. تابعي جليل ثقة اشتهر بكنيته. روى عن عبد الله بن عباس والبراء بن عازب وعبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنهم، ورى عنه سلمة بن كهيل واسماعيل السدي وحصين بن عبد الرحمن. توفي فيما بين سنة 91هـ و100هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، تاريخ الإسلام، رقم 170، 1155/2؛ ابن الأثير، أسد الغابة، رقم 6222، ص 1391].

(3) أخرجه سعيد بن منصور ت 227هـ، في سننه، دراسة وتحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414هـ-1993م، رقم 502، 1052/3؛ والطبري في جامع البيان، 496/5-497؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 3682، 679/2؛ من حديث أبي مالك الغفاري رضي الله عنه.

(4) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 263/1.

(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 3680، و3681، 678/2-679؛ من حديث أبي مالك الغفاري رضي الله عنه.

(6) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 263/1.

– والذين صدر أمر الله –تقدست أسماؤه– للنبي ﷺ أن يرد عليهم بما تضمنته الآية هم أهل الكتاب كما هو مصرح به في نصها.

–وصح عن أهل التفسير أن الطائفة التي حكى الله سبحانه قولها في الآية هي طائفة اليهود. روى ابن جرير بإسناد صحيح عن مجاهد أنه قال في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾: (يهود تقوله . صلت مع محمد صلاة الصبح، وكفروا آخر النهار مكرا منهم، ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه).[1]

– والمقصود بالإيمان بما أنزل على المؤمنين التظاهر بأحكام الإسلام أمام الصحابة كإعلان الإيمان بالله ورسوله والصلاة وغيرهما مما يميز المسلمين. روى الطبري بسند حسن عن قتادة قال: (فقال بعضهم لبعض: أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم).[2]

– ودلت الآية على شدة تغيظ اليهود من المسلمين وحسدهم لهم ومكرهم بهم بسبب ما أكرمهم الله به من الدين القويم، وتلك صفات ثابتة في الشخصية اليهودية لا تكاد تنفك عنها؛ وقد شهد على ذلك من يعلم دخيلة نفوسهم وما تنطوي عليه قلوبهم. قال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[البقرة:109].

– وكشفت الآية عن الوجه القبيح للتعصب اليهودي المقيت، كما أبرزت أنموذجا من نماذج التمويه والتضليل الذين برع اليهود فيهما من قديم؛ وفيها إشارة إلى الأساليب والقواعد التي تقوم عليها وسائل إعلامهم الموجهة إلى العالم.[3]

– وفي الآية إشارة إلى استغلال اليهود لعلم النفس الاجتماعي وغيره من العلوم لمحاربة الإسلام والتنفير منه. قال محمد رشيد رضا: (وقال الأستاذ الإمام: هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام: (هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان: لا). وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على باطنه وخوافيه؛ إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب).[4]

– وفيها تعليم الله لنبيه ﷺ كيفية الرد على هؤلاء اليهود فيما قالوه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان، 497/5؛ وصحح إسناده حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 425/1.

(2) ابن جرير، جامع البيان، 495/5-496؛ وصحح إسناده حكمت بن بشير في التفسير الصحيح، 425/1.

(3) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 333/1.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 291/3-292.

– وفي الآية دلالة على أن الهداية والخير كله بيد الله وحده، لا يقدر أحد على هداية غيره وإن حرص إلا أن يشاء الله. قال جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56)﴾[القصص].

– وتضمنت الآية إشارة إلى معرفة اليهود بصدق نبوة نبينا ﷺ وإنما منعهم الحسد من الإيمان به. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(146) ﴾[البقرة].

– وفيها أيضا إشعار باستبعاد اهتداء اليهود ودخولهم في الإسلام.(1)

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(99)﴾[آل عمران].

– أي: قل –أيها النبي– لليهود والنصارى توبيخا لهم وتهديدا على استمرارهم في الضلال والتضليل: يا أصحاب الكتاب لأي سبب تجحدون حجج الله السمعية والعقلية ومنها المنصوصة في كتبكم والتي تدل على صحة نبوة محمد وكون الإسلام دين الله الحق، والله مطلع على أفعالكم وشاهد على أعمالكم وسيجازيكم عليه ا. وقل لهم أيضا –أيها النبي– موبخا: يا أهل الكتاب لماذا تعملون على صرف من آمن بالله ورسوله عن سلوك صراط الله المستقيم الذي هو الإسلام ، وتريدونها له طريقا معوجة مائلة عن القصد ، وأنتم على علم أن ما أنا عليه وأدعو إليه حق ، وليس الله غافلا عن أفعالكم وسيكافؤكم عليها بما تستحقون. (2)

– فتضمنت الآية أمرا ربانيا إلى النبي ﷺ أن يسأل أهل الكتاب –على سبيل التوبيخ والتهديد– عن سبب جحودهم حجج الله الدالة على صدق نبيه، وعن الدافع لهم إلى إضلال طلاب الهداية عن طريقها المتمثل في الإسلام.

– وورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره من طريق ابن إسحاق عن زيد بن أسلم (3) في خبر طويل، ملخصه أن شيخا كبيرا من اليهود شديد البغض للمسلمين –واسمه شاس بن قيس– مر على نفر جلوس من الأوس والخزرج يتحدثون، ومعه شاب من يهود؛ فلما رأى اجتماعهم على الإسلام وألفتهم به حسدهم وحقد عليهم، وأمر ذلك الشاب أن يعمد إليهم فيجلس بينهم ثم يذكرهم بما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب، وينشدهم بعض أشعارهم في حرب بعاث، ففعل

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 280/3.

(2) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 256/2-258؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 86؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 62.

(3) هو أبو أسامة زيد بن أسلم العدوي المدني. تابعي جليل فقيه مفسر محدث ثقة ثبت. كان في المدينة، وكان صاحب حلقة في مسجد النبي ﷺ، ثم استقدمه الخليفة الوليد بن يزيد إلى دمشق، روى عن أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه ابنه أسامة وأيوب السختياني والسفيانان وروح بن القاسم وغيرهم من أئمة الإسلام. توفي سنة 136هـ. [انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 767، 124/6؛ الزركلي، الأعلام، 56/3].

الفتى، وتنازع القوم وتفاخروا، ثم غضبوا فتداعوا إلى رد الحرب جذعة كما كانت، وتنادوا: السلاح السلاح. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم وذكرهم بالله فعلموا أنها نزغة الشيطان ومكر العدو، فألقوا السلاح وبكوا وتعانقوا وانصرفوا مع رسول الله ﷺ، وأنزل الله في شاس وصنيعه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.[1] ولكنه أثر ضعيف لا يثبت.[2]

– والذين ورد أمر الله عز وجل إلى النبي ﷺ أن يواجههم بمضمون هذه الآية هم أهل الكتاب كما جاء التصريح به في نصها.

– وللعلماء رأيان في المراد بأهل الكتاب. ففريق يرى أنهم اليهود والنصارى؛ ومن هؤلاء الحسن وغيره. وفريق يرى أنهم اليهود. ومن أصحاب هذا الرأي زيد بن أسلم، ومقاتل. والخطاب –في تقديري– يبقى متوجها إلى أهل الكتاب عامة، لأنه لم يرد ما يخصصه بفريق دون آخر. ولعل ذلك ما دفع الطبري إلى القول: (يعني بذلك: يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر من ينتحل الديانة بما أنزل الله عز وجل من كتبه ممن كفر بمحمد ﷺ وجحد نبوته)،[3] بل نقل بإسناده عن الحسن قوله: (هم اليهود والنصارى).[4]

– واختلف المفسرون في المعنيين من أهل الكتاب بمضمون الأمر الوارد في الآية: هل هم علماؤهم خاصة، أم جميعهم؟ فقال بعض: هم العلماء، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾. وقال آخرون: كلهم معنيون، لأن الحجة قائمة عليهم، بتركهم للاستدلال وركونهم إلى التقليد.[5] والقول الثاني –في تقديري– هو الراجح؛ لأن الخطاب القرآني عموما يتوجه إلى العقلاء عامة، وليس في أسلوبه من الغموض أو التعقيد ما يجعل فهمه حكرا على النخبة من العلماء والمتخصصين.

– والمراد بآيات الله ما نصبه الله عز وجل من الأدلة السمعية والعقلية على نبوة نبينا محمد ﷺ، والمقصود بكفر أهل الكتاب بها جحدهم دلالتها على أنه ﷺ رسول من عند الله سبحانه.[6]

– وقررت الآية علم الله المحيط وشهادته على جميع أعمال البشر خيرها وشرها، كما دلت على أن الشهيد اسم من أسماء الله الحسنى.[7]

---

(1) أخرجه ابن اسحاق –فيما رواه عنه ابن هشام في السيرة النبوية، 153/2–154؛ ومن طريقه رواه الطبري في جامع البيان، 627/5–628؛ وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، رقم 3878، 716/2.

(2) انظر: سليم بن عيد الهلالي وآخر، الاستيعاب في بيان الأسباب، 279/1.

(3) الطبري، جامع البيان، 624/5.

(4) الطبري، جامع البيان، 625/5؛ وانظر: السمرقندي، بحر العلوم، 287/1؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 429/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 234.

(5) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 481/1؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 171/8.

(6) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 480/1؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 172/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 30/2.

(7) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 352/1.

- وفي إعادة النداء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ توبيخ للكتابيين بأسلوب مترفق عسى أن يرعووا عن غيهم وحقدهم. قال الرازي: (وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلال وأدل على النصح لهم في الدين والإشفاق).(1)

- وسجلت الآية الجهود الماكرة لأهل الكتاب بغية إضلال الناس عن الإسلام وصرف المقبلين عليه عن اعتناقه بصنوف من الكيد والدس، ولا تزال تلك الجهود قائمة، بل ازدادت مع الأيام قوة وتفننا، سيما وقد توفرت لها وسائل حديثة متنوعة ومتطورة، كوسائل الطباعة والإعلام والتواصل الاجتماعي وغيرها.

- وسبيل الله هي صراطه المستقيم الذي أمر بسلوكه، وهو دينه الحق الذي هو الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(153)﴾[الأنعام]؛ ويزيده توضيحا ما رواه الترمذي وأحمد وغيرهما من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ضرب الله تعالى مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يأيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعوجوا، وداع يدعوا من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم).(2)

- وذيلت الآية بوعيد من الله جل جلاله لمن يعملون من أهل الكتاب على إضلال الناس عن دين الله الحق، أو يلقون الشبه والشكوك في قلوب المؤمنين به، كما أومأت إلى كونهم يفعلون ذلك بأساليب خفية إمعانا في المكر.(3)

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ(77)﴾[المائدة]

- أي: قل -أيها النبي- للكتابيين: يا أصحاب الكتاب، لا تتجاوزوا حدود الحق في عقائدكم حتى تعتقدوا الباطل، كما فعلتم في شأن المسيح، ولا تسيروا خلف شهوات من سبقوكم ممن قد نكبوا طريق الهداية فيما مضى ، وأبعدوا كثيرا من الناس عن سلوكها، وحادوا عن جادة الطريق الحق.(4)

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 173/8.

(2) رواه الترمذي في سننه، كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الله لعباده، رقم 2859، ص 638-639؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، رقم 11169، 123/10؛ وأحمد في مسنده، رقم 17784، ص 1257؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم 3887، 721/2-722.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 30/2.

(4) انظر: القرطبي، 103/8؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 160؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 120.

- فتضمنت الآية أمرا إلهيا إلى النبي ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن الغلو في دينهم، وعن اتباع أهواء من ضلوا فيما مضى، وأضلوا غيرهم، وتمادوا في الضلال عن قصد السبيل.

- ولم يرد في سبب نزولها شيء -فيما اطلعت عليه- والعلم عند الله.

- والذين صدر الأمر الرباني إلى النبي ﷺ أن يخاطبهم بما تضمنته هذه الآية هم أهل الكتاب كما ورد التصريح به في نصها.

- **والغلو في اللغة** مصدر غلا في الأمر يغلو، أي جاوز فيه الحد.[1] وأما **في الاصطلاح** فهو: (الزيادة في عمل على المتعارف منه بحسب العقل أو العادة أو الشرع).[2]

- واختلف المفسرون في المراد بأهل الكتاب الذين توجه إليهم النهي عن الغلو في الدين؛ فقال بعض: هم النصارى، وغلوهم في الدين هو اعتقادهم في عيسى بن مريم أنه هو الله أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك وتنزه. وقال آخرون: هم اليهود والنصارى معا، وغلو اليهود فيه هو ادعاؤهم أنه ابن زنا، وأنه كذاب.[3] والراجح -في تقديري- هو القول الأول؛ لأن الغلو هو زيادة الإنسان في عمل أو اعتقاد أو غيرهما حتى يتجاوز الحد المشروع أو المعقول، أما ما كان منه قبل التجاوز فهو جائز. وهذا منطبق على فعل النصارى، إذ تعظيمهم لعيسى وحبهم له وثناؤهم عليه جائز -بل واجب- ولا يزال كذلك حتى جاوز تعظيمه إلى ادعاء ألوهيته أو بنوته لله، فصار غلوا وجاء النهي عنه؛ أما اليهود فهم يتنقصونه -عليه السلام- ويطعنون فيه، وهذا منهي عنه كله ومن أوله لأنه محرم، وليس ما زاد منه عن حد الاعتدال فقط.

- والقوم الذين نهي النصارى عن اتباع أهوائهم هم اليهود. فقد روى ابن جرير بإسناد صحيح عن مجاهد في تفسير قوله تعالى في تتمة هذه الآية: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قال: (يهود).[4] وقيل: هم أسلاف النصارى الأوائل الذين سنوا لهم الغلو في عيسى عليه السلام.[5]

- وفي قوله سبحانه: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ إشارة -والله أعلم- إلى أن من الغلو ما هو حق، وهو غير منهي عنه. قال الرازي: (وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق، أي غلوا باطلا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل).[1]

---

(1) انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 238.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 290/6.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 585/8؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 67/12؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 103/8؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 139/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 405/2؛ النسفي، مدارك التنزيل، 466/1؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 116/3؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 121.

(4) الطبري، جامع البيان، 585/8؛ وهو قول الحسن فيما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، 103/8.

(5) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 116/3.

- وفي الآية النهي عن اتباع أهواء أهل الضلال؛[2] لأن هؤلاء لا يهمهم معرفة الحق ولا يبحثون عن دليله السمعي أو العقلي، بل يجعلون ما تهوى أنفسهم بمنزلة الإله الذي يأمر وينهى ويحل ويحرم. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(23)﴾[الجاثية].

- وتنوع توجيه المفسرين لتكرير الضلال المسند إلى القوم المشار إليهم في الآية؛ فقيل: ضلالهم الأول هو انحرافهم عن مقتضى العقل، والثاني هو انحرافهم عن مقتضى الشرع؛ وقيل: ضلالهم الأول هو ما كان من كفرهم قبل بعثة النبي ﷺ، والثاني هو كفرهم بعد البعثة النبوية؛ وقيل: ضلالهم الأول هو نكوصهم عن طريق الدين، والثاني هو نكوصهم عن طريق الجنة.[3]

والراجح -في تقديري- أن الرأي الثالث ضعيف؛ لأن طريق الدين هو نفسه طريق الجنة، وأما الأول والثاني فلا تعارض بينهما ويمكن أن تشملهما الآية معا، وهو ما يؤكده الواقع التاريخي.

- وفي الآية التعبير عن الشرع الإلهي بسواء السبيل، أي الطريق المستقيم، (لأن الشرع هو الميزان القسط والحكم العدل)،[4] أما ما سواه من النظم فهي جميعا طرق معوجة -مع تفاوتها في ذلك تبعا لاختلاف أهواء صاغتها- وإن موهها أصحابها وزينوها. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(50)﴾[المائدة].

* وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ(36)﴾[الرعد].

– أي: ومن أعطيناهم علم الكتب المنزلة من اليهود والنصارى -من آمن منهم بك- يستبشرون بالقرآن الذي أنزل عليك لكونه امتدادا لما معهم، ومن يتخذون الدين حزبية ضدك ينكرون بعض الذي أنزل إليك تعصبا، فقل لهم -أيها النبي- مجيبا: ما أمرني الله إلا أن أعبده وحده دون أن أشرك به في العبادة شيئا، وإلى عبادته -دون سواه- أدعو الناس، وإليه -لا إلى غيره- مرجعي ومعادي.[5]

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 67/12.

(2) وضمن القرطبي في تفسيره للآية محل الدراسة فائدة في سبب تسمية الهوى بهذا الاسم. قال: (وسمي الهوى هوى لأنه يهوِي بصاحبه في النار). [القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 103/8].

(3) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 67/12؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 223/2؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 139/2؛ النسفي، مدارك التنزيل، 467/1؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 387.

(4) البقاعي، نظم الدرر، 259/6.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 355/3-356؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 360؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 254.

- فتضمنت الآية أمرا من الله جل شأنه إلى نبيه ﷺ أن يرد على من ينكر شيئا من القرآن الكريم من أهل الكتاب بأنه ما أمر إلا بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وأن دعوته ومعاده إليه تعالى لا إلى غيره.

- ولم يرد في سبب نزول هذه الآية -فيما اطلعت عليه- شيء والله أعلم.

- والذين أمر الله جل وعلا النبي ﷺ أن يرد عليهم بمضمون هذه الآية هم أهل الكتاب كما قال الرازي والقرطبي والشوكاني وغيرهم.(1)

- وتنوعت أقوال المفسرين في المراد من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾، فقال بعض: هم أصحاب النبي ﷺ، وفرحهم كان بما حواه القرآن الكريم من أنواع التوحيد والنبوة والعدل والبعث والقصص والأحكام ؛ ومن القائلين بهذا الرأي قتادة والحسن. وقال آخرون: هم من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره، وفرحهم كان بالقرآن الكريم لإيمانهم به؛ ومن أصحاب هذا القول ابن زيد ومجاهد في رواية ثانية عنه. وقال فريق ثالث: هم جماعة أهل الكتاب من يهود ونصارى، وفرحهم كان بنزول القرآن الكريم لم فيه من تصديق كتبهم، وكذلك ما في كتبهم من التبشير به والشواهد على صدقه ؛ وهو قول حكاه ابن عطية والقرطبي وغيرهما. والراجح -في تقديري- هو القول الثاني؛ لأن من أسلموا من أهل الكتاب ينطبق عليهم وصف الآية لهم بكونهم أوتوا الكتاب، وفرحهم بالقرآن معلوم يدل عليه إيمانهم به وبمن أنزل عليه ﷺ، وتصديقهم ما فيه من الأخبار، وعملهم بما حواه من الأحكام، والمقصود من الآية مدحهم بقوة إيمانهم وسرورهم بما ينزل على الرسول ﷺ من زيادات الشرع. أما الرأي الأول فضعيف؛ لأن الصحابة لا يوصفون بأنهم أوتوا الكتاب وصفا مستقلا عن النبي ﷺ وهو مذكور معهم في الآية نفسها وموصوف بوصف مقابل وهو الإنزال عليه، وأما الرأي الثالث فبعيد أيضا؛ لأن عموم أهل الكتاب -الذين لم يسلموا- لم يفرحوا بما أنزل على النبي ﷺ، بل اغتموا له وضاقوا به، وأنكروا كونه من عند الله تعالى، وكذبوا النبي ﷺ وعادوه وحاربوه ولا يزالون كذلك.(2)

- واختلف المفسرون في المقصود من لفظ (الأحزاب) الوارد في هذه الآية؛ فقال فريق منهم: هم اليهود والنصارى، مثل كعب بن الأشرف، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأضرابهم. ومن أصحاب هذا الرأي قتادة ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال فريق ثان: هم الأمم: اليهود والنصارى والمجوس. ويدخل في هذا القول المشركون من أهل مكة وغيرهم. ومن القائلين بهذا الرأي ابن زيد والقرطبي. وقال فريق ثالث: هم مشركو قريش. ومن هؤلاء السمرقندي. وقال فريق رابع: هم بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزى. ويلحق بهذا الرأي كل من تحزب على النبي ﷺ من المشركين العرب. وممن يرى هذا الرأي مقاتل.

---

(1) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 62/19؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 82/12؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 734.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 555/13-557؛ الزمخشري، الكشاف، 355/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 82/12؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 62/19؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 315/3-316؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 189/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 314/4؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 254.

والراجح -في تقديري- هو الرأي الثاني؛ لأنه يتسع ليشمل جميع من أنكر بعض ما أنزل على النبي ﷺ بغض النظر عن جنسه ودينه. وإلى هذا ذهب الطبري. قال -رحمه الله-: (ومن أهل الملل المتحزبين عليك، وهم أهل أديان شتى)،[1] والله أعلم.[2]

- وتنوعت أقوال أهل التفسير في تحديد ماهية ذلك (البعض) المضاف إلى الضمير العائد على القرآن الكريم في قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾؛ فقال بعض: هو ما تضمن إبطال أصول عقائدهم، كالآيات التي تقرر عبودية عيسى عليه السلام بالنسبة لأهل النصرانية، ونبوته بالنسبة لليهود، وقال آخرون: هو وصف الإسلام ووصف النبي ﷺ، وبيان ما حرفوه من شرائع الدين. وقال فريق ثالث: هو ما وافق ما حرفوه من شرائعهم، وكذلك ما يخالفها. وقريب من هذا قول من قال: هو ما تضمن نسخا لشرائعهم. وقال فريق رابع: هو ذكر التوحيد والبعث و(الرحمن) عز وجل؛ لأن مشركي مكة قالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، وهو مسيلمة.[3] ولا حاجة بنا إلى ترجيح رأي بعينه؛ لأن مضمون كل من هذه الآراء قد وجد في طوائف الكفار من أنكره، ذلك بأن كل حزب منهم (يريد أن يكون الأمر تابعا فيه لغرضه، فالمشركون يريدون أن يمدح آلهتهم في بعض الآيات أو أن يسقط وصفها بالعيب، واليهود يريدون أن ينزل ما يوافق فروع التوراة كما أنزل ما وافق الأصول، وينكرون النسخ، وأهل الإنجيل يريدون أن ينزل في المسيح ما يهوون ونحو ذلك).[4]

- وفي قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أمر إلى النبي ﷺ بأن يعلن بكل صراحة للفريقين المشار إليهما في أول الآية أنه ما أمر إلا بعبادة الله وحده من غير إشراك به. فأعطاهم ملخصا وافيا لمضمون الإسلام والقرآن في جملة واحدة حتى يتخذ كل طرف موقفه على بينة. قال ابن عاشور: (فمن فرح بالقرآن فليزدد فرحا ومن أنكر بعضه فليأخذ بما لا ينكره وهو عدم الإشراك. وقد كان النصارى يتبرؤون من الشرك ويعدون اعتقاد بنوة عيسى عليه السلام غير شرك).[5]

---

(1) الطبري، جامع البيان، 555/13.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 556-557؛ الزمخشري، الكشاف، 355/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 196/2؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 83/12؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 335/4؛ الماوردي، النكت والعيون، 116/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 189/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 314/4.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 556/13؛ الزمخشري، الكشاف، 355/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 157/13؛ أبو حيان، البحر المحيط، 386/5؛ الخازن، لباب التأويل، 21/3؛ النسفي، مدارك التنزيل، 157/2؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 335/4؛ الماوردي، النكت والعيون، 116/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 189/3؛ السمرقندي، بحر العلوم، 196/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 323/4؛ المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 254؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 734.

(4) البقاعي، نظم الدرر، 356/10.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 158/13.

- وبين قوله تعالى على لسان النبي ﷺ: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أبرز وظائف النبي ﷺ في هذه الحياة -بعد عبادة الله تعالى- وهي دعوة الناس إلى معرفة ربهم وعبادته والاستعداد للقائه، كما بين إيمانه ﷺ بلقاء ربه وجزائه في الدار الآخرة.

- وفي الآية تقرير لعقيدة الوحي والنبوة والتوحيد والبعث والجزاء.(1)

- وفيها أيضا ثناء كريم من الله تبارك وتعالى على من عرفوا الحق -الذي أنزل على النبي ﷺ- من اليهود والنصارى فاتبعوه ولم يحملهم التعصب على إنكاره كما فعل غيرهم.(2)

* وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا(22)﴾[الكهف].

- أي: سيقول بعض الخائضين في أخبارهم من أهل الكتاب: هم ثلاثة فتية وكلبهم رابعهم ، ويقول بعض آخرون: عددهم خمسة فتيان وكلبهم هو السادس. قولا بالظن العاري من البرهان، ويقول غير هؤلاء وهؤلاء : يبلغ عددهم سبعة وكلبهم هو الثامن. قل -أيها النبي- لهؤلاء المختلفين في شأنهم: ربى سبحانه أعلم من كل أحد بعددهم. ولا يعلم عددهم على وجه الحقيقة إلا قلة من الناس ممن علمهم الله ذلك ، فلا تجادل أولئك المختلفين في خبرهم إلا مجادلة خفيفة تقتصر على ذكر ما أوحي إليك من شأنهم من غير حرص على إقناعهم، ولا تستخبر عن شأنهم أحدا من هؤلاء الخائضين، فقد أعلمك الله بالحق من أنبائهم.(3)

- فتضمنت الآية أمرا صادرا من الله عز وجل إلى النبي ﷺ أن يعقب على جدال الخائضين في عدد فتية الكهف بأن الله سبحانه أعلم بعددهم الحقيقي، وأن قلة من الناس من يدرون هذه المسألة.

- وورد في سبب نزولها ما نقله ابن الجوزي من حديث الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (نصارى نجران، ناظروا رسول الله ﷺ في عدة أهل الكهف، فقالت الملكية: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت اليعقوبية: هم خمسة سادسهم كلبهم، وقالت النسطورية: هم سبعة وثامنهم كلبهم، فنزلت هذه الآية).(4) وهو أثر ضعيف بسبب إعضال إسناده، إضافة إلى ضعف الضحاك، ورجحان عدم لقائه ابن عباس رضي الله عنهما.(5)

---

(1) انظر: الجزائري، أيسر التفاسير، 35/3.

(2) انظر: طنطاوي، التفسير الوسيط، 82/7.

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 447؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 430؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 296.

(4) ابن الجوزي، زاد المسير، 124/5.

(5) انظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 481/5-482.

– والذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يعقب عليهم بمضمون هذه الآية هم أهل الكتاب، وقيل: أهل الكتاب والمؤمنون، كما قال ابن عباس والزمخشري والبيضاوي والشوكاني وغيرهم.[1]

– واختلف المفسرون فيمن يعود عليه الضمير من قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾؛ فقال فريق: على اليهود، وقال ثان: على النصارى، وقال ثالث: على أهل الكتاب، وقال رابع: على أهل الكتاب والمؤمنين.[2] والراجح –في تقديري– هو القول الثالث؛ لأن أهل الكتاب عموما لهم اطلاع على مثل هذه الأخبار المتعلقة بمن مضوا في القرون الخالية، وحصر الضمير في اليهود وحدهم أو النصارى فقط –كما هو قول أصحاب الرأي الأول والثاني– يحتاج دليلا، أما المؤمنون فلم يكن لهم مصدر يتعلمون منه هذه القصص –قبل ورود نص شرعي بها– حتى يبدوا آراءهم في تفاصيلها.

– ودل اقتصار القرآن الكريم على ثلاثة أقوال فيما تعلق بعدد فتية الكهف على أنه لا يوجد قول رابع في شأن عددهم، كما دل قوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ بعد أن ذكر قولي القائلين بأنهم ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، والقائلين بأنهم ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ على عدم صحتهما.[3]

– وفي تنصيص الله جل وعلا على القول الثالث –﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾– من غير إشارة إلى بطلانه أو تخطئة قائليه دلالة على أنه هو الصواب؛[4] ومما يؤيد هذا الاستنتاج ما أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: (هم سبعة وثامنهم كلبهم).[5]

– وتضمن قوله سبحانه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ توجيها وإرشادا إلى الجواب الأفضل في مثل هذه المسائل التي لا حاجة إلى الخوض فيها مع الخائضين، ولا يسفر الجدال فيها عن كبير فائدة، وخصوصا إن كان ذلك من غير علم، أو كان المجادل معاندا مكابرا.[6]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 222/15؛ الزمخشري، الكشاف، 577/3؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 277/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 854.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان، 222/15؛ الزمخشري، الكشاف، 577/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 246/13؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 124/5؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 277/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 854.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، 277/3؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 447.

(4) انظر: المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: الطبري، جامع البيان، 219/15؛ ابن كثير، تفسير القرآن القرآن العظيم، 106/5؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 447؛ أحمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، 470/2.

(6) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 447؛ أحمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، 470/2.

– وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ إشارة إلى قلة من يعلم عددهم من أهل الكتاب –فضلا عن سائر الناس– أما أكثرهم فهم يجادلون في شأنهم من غير علم.[1] وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله).[2]

– وفي الآية تعليم من الله جل وعلا لنبيه ﷺ كيفية مماراة أهل الكتاب دون الخروج عن قواعد الجدال بالتي هي أحسن. قال الزمخشري: (فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم).[3] وهذا أعلى أساليب الحوار أدبا، وهو أن تعرض ما عندك عرضا رفيقا، دون تهجم على غيرك، ثم تمضي إلى غايتك، معتمدا على توفيق الله ثم على ما تتركه الحقائق المعروضة من أثر طيب في نفوس المتلقين.

– ولحكمة أمر الله –تقدست أسماؤه– نبيه ﷺ في موضع آخر من سورة الكهف نفسها أن يرد علم مدة لبثهم إلى الله تعالى، بعد أن بين سبحانه أنهم لبثوا في كهفهم تسع سنوات وثلاثمائة سنة. قال جل وعلا: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا(25)قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26)﴾[الكهف]. ولا شك أن مدة اللبث الأول مختلفة عن مدة الثاني، وإلا لم يكن لرد العلم بها إلى الله بعد أن أعلمها الناس معنى مفهوم. وللمفسرين في توجيه معنى الآية أقوال متعددة؛ فمنهم من قال: اللبث الأول حكاية لما قاله بنو إسرائيل، ودليل ذلك قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وقالوا لبثوا في كهفهم)، أما اللبث الثاني فهو الحقيقي وهو الذي أمر الله نبيه برد العلم به إليه، ولم يذكره. ومن أصحاب هذا الرأي: قتادة ومطر الوراق.[4] ومن المفسرين من قال: اللبث الأول خبر من الله سبحانه عن مدة لبثهم، أما الثاني –الذي فيه الأمر برد العلم إلى الله– فهو تعقيب على الأول معناه: خبر الله هذا هو الحق، لأنه من عالم الغيب فليزل اختلافكم أيها المجادلون. وممن يرى هذا الرأي: مجاهد و عبد الله بن عبيد بن عمير . ومنهم من قال: اللبث الأول هو مدة نومهم في الكهف قبل الإعثار عليهم، والثاني هو المدة بين الإعثار عليهم ونزول القرآن بخبرهم

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 508/3.

(2) الطبري، جامع البيان، 219/15؛ ابن كثير، تفسير القرآن القرآن العظيم، 107/5؛ وانظر: أحمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، 470/2.

(3) الزمخشري، الكشاف، 577/3.

(4) هو أبو رجاء مطر بن طهمان الخراساني الوراق. إمام عالم فقيه محدث زاهد متقن لكتابة المصاحف، اختلف فيه جرحا وتعديلا من قبل حفظه. نزل البصرة. روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعبد الله بن بريدة والحسن وعكرمة وغيرهم من التابعين، وروى عنه شعبة بن الحجاج والحمادان والحسين بن واقد وغيرهم. توفي سنة 129هـ. [انظر على سبيل المثال: أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، رقم 211، 75/3؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم 817، 233/6].

على النبي ﷺ.[1] والراجح -في تقديري- هو الرأي الثاني؛ لأنه إخبار من الله المحيط بخبرهم وبسائر الغيوب، مع الأمر برد العلم إليه وهو تأديب للمختلفين في كل مسألة غيبية لم يرد فيها دليل سمعي أو عقلي يفصل في شأنها، أما الرأيان الآخران ففيهما من التفصيل ما يعوزه الدليل، وأما قراءة ابن مسعود فهي شاذة لا يحتج بها. والله أعلم.

* وقوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109)﴾[الكهف].[2]

– أي: قل -أيها النبي-: لو كان ماء البحر حبرا يكتب به كلام الله الكوني والشرعي، والذي منه ما يوحيه إلى ملائكته، وما أوحاه إلى أنبيائه ورسله لنفد هذا الحبر قبل نفاد كلمات الله سبحانه ، ولو أضفنا إليه مياه بحار أخرى لزيادته وتكثيره، بسبب سعة علمه تعالى الذي أحاط بكل شيء.[3]

– فتضمنت الآية أمرا من الله جل وعلا إلى النبي ﷺ أن يرد على اليهود -وقيل: على الناس- المستكثرين لعلمهم الفخورين بما أوتوا من المعلومات.

– وسبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85)﴾[الإسراء]، قالوا: أوتينا علما كثيرا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فأنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ إلى آخر الآية.[4]

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان، 15/228-232؛ الزمخشري، الكشاف، 3/579؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 21/112؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13/252-254؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/510؛ ابن كثير، تفسير القرآن القرآن العظيم، 5/108؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 855.

(2) وتضمنت الآية فائدة عزيزة، وهي عدم نفاد أوصاف الله عز وجل، لأنها فرع عن ذاته الخالدة الدائمة. قال ابن الجوزي: (وإنما لم تنفد كلمات الله، لأن كلامه صفة من صفات ذاته، ولا يتطرق على صفاته النفاد). [ابن الجوزي، زاد المسير، 5/201-202].

(3) انظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2/674؛ لجنة القرآن والسنة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 442؛ نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 304.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب (ومن سورة بني إسرائيل)، رقم 3140، ص 704-705؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، رقم 11252، 10/167؛ وأحمد في مسنده، رقم 2309، ص 199؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، رقم 99، 1/301؛ وأبو يعلى في مسنده، رقم 2501، 4/380-381؛ والبيهقي في دلائل النبوة، 2/269؛ وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في تخريجه للمسند، حديث رقم 2309، 4/154-155.

- والذين أمر الله جل جلاله نبيه ﷺ أن يواجههم بمضمون هذه الآية هم اليهود كما يدل عليه كلام السمرقندي والبغوي وابن عطية وغيرهم.[1]

- **والمداد** في اللغة يطلق على معان عدة، منها السرقين والنقس والمثال والطريقة وما يوقد به السراج من زيت ونحوه؛ والنقس هو المداد الذي يكتب به، سمي بذلك لأنه يمد بالماء مرة بعد مرة، أو لأنه يمد الكاتب في كتابته. ومنه المدة -بفتح الميم والدال المشددة- وهي مد القلم بالمداد مرة بغطس رأسه في المحبرة، والمدة -بضم الميم وفتح الدال المشددة- اسم ما استمددت به من المداد على القلم.[2] ولم يختلف المفسرون -في حدود اطلاعي- أن المداد المراد في الآية هو الحبر الذي يكتب به.[3]

- وتنوعت أقوال المفسرين لمعنى (كلمات ربي)؛ فقال بعض: هي علم الله وحكمه؛ وقال آخرون: هي علم الله وحكمته؛ وقال فريق ثالث: هي أفعاله ومعلوماته؛ وقال فريق رابع: العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلام الله عز وجل؛ وقيل: هي صفات الجنة، وقيل: ثواب من قال: لا إله إلا الله، وقيل غير ذلك.[4] وهذه الآراء ليست متعارضة؛ فمعلومات الله هي علمه، وحكمه تعالى جزء من كلامه، سواء كان حكما كونيا أو شرعيا. ومعنى (كلمات ربي) -حسب تقديري- في أصلها هو كلام الله تعالى، لأن الكلام (وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنه ينوب منابها، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما)،[5] كما قال الأعشى:

ووجه نقي اللون صاف يزينه مع الجيد لبات لها ومعاصم[6]

فجمع اللبة وإن كانت واحدة؛ ولكن المراد بكلماته تعالى في **هذا الموضع** هي معلوماته؛ إذ (كل معلوم يمكن أن يخبر به ، فإذا أخبر به صار كلمة ؛ ولذلك يطلق على المعلومات كلمات، لأن الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل).[7] ويؤكد هذا سبب النزول؛ فالله سبحانه أخبر أن اليهود ما أوتوا من العلم إلا قليلا، وهم عقبوا على ذلك بأنهم أوتوا علما كثيرا هو التوراة، فأنزل الله الآية -محل الدراسة- يخبر فيها بأن علمه لا حدود لسعته. أي أن

---

(1) انظر: السمرقندي، بحر العلوم، 315/2؛ البغوي، معالم التنزيل، 212/5؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 546/3-547.

(2) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 269/5؛ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص 318؛ الرازي، مختار الصحاح، ص 303.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان، 438/15؛ الزمخشري، الكشاف، 618/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 177/21؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 295/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 145/5.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 618/3؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 177/21؛ الماوردي، النكت والعيون، 349/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 397/13-398؛ البغوي، معالم التنزيل، 212/5؛ البيضاوي، أنوار التنزيل، 295/3؛ الشوكاني، فتح القدير، ص 879.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 397/13.

(6) الأعشى الكبير، ديوان الأعشى، ص 77.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 52/16.

علم اليهود -الذي يتبجحون بكثرته- ليس شيئا يذكر إذا قورن بعلم العليم الخبير. فمحور الموضوع هو العلم لا الكلام. والله أعلم.

- ودلت الآية على صفة من صفات الله عز وجل وهي الكلام؛ كما دلت على كمال أوصافه سبحانه.

- وتضمنت الآية تشريفا كبيرا للنبي ﷺ بإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل مرتين. قال أبو السعود: (وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى).[1]

- وفي الآية دلالة على عظمة الله جل جلاله، وسعة أوصافه العلا، وعجز المخلوقات مهما بلغت من الكثرة أو الكبر أو القوة أو غير ذلك أن تحيط بنعوته تقدست أسماؤه.[2]

وخلاصة هذا المطلب:

- أن النبي ﷺ ركز حواره لأهل الكتاب على أربعة محاور:

• نهيهم عما هم فيه من الفساد الديني عموما والعقائدي خصوصا، ومن ذلك غلوهم وكفرهم وتعصبهم.

• مطالبتهم بالدليل الدامغ على ادعاءاتهم السخيفة بأن الحق والجنة حكر عليهم دون غيرهم من الأمم.

• دعوتهم إلى التوافق على أمر يحسم الخلاف ويمكن من التعاون المشترك على خير الأطراف كلها، وهو اجتماعهم على عبادة الله وحده.

• تعريفهم بدعوته ﷺ وعقيدته المبنية على توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص ووصفه بكل كمال.

- أنه ﷺ مزج في مخاطبتهم بين الشدة واللين والأمر والنهي، وهو نهج غير الذي سلكه مع المنافقين. وهو درس عظيم للمحاورين المسلمين عموما وللدعاة والعلماء خصوصا.

وخلاصة هذا المبحث:

- أن الأوامر التي تم إيرادها فيه توجهت مضامينها إلى كل من المسلمين والمنافقين واليهود والنصارى، أي إلى كل الأقوام الذين يشكلون سكان الدولة النبوية أو جيرانها.

- وأن تلكم الأوامر متمايزة فيما بينها، فما توجه منها إلى المسلمين ركز على المسائل العملية والأخلاقية تعليما وتصويبا، واتسم بالمزج بين أسلوب الترغيب والترهيب، وما توجه إلى المنافقين ركز على تصرفاتهم القبيحة فضحا لها ونهيا عنها، واتسم بالشدة والتوبيخ، بينما ركز المتوجه منها إلى أهل الكتاب على الفساد العقائدي كشفا له ونهيا عنه، واتسم بالمراوحة بين التلطف والشدة والتحدي.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 562/3.

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 461-462.

- وأن النبي ﷺ كان مأمورا بمحاورة كافة مكونات المجتمع الذي يعيش فيه، ولم يقتصر حواره على المسلمين وحدهم.

وخلاصة هذا الفصل:

- أن النبي ﷺ حاور كل من قدر على الوصول إليه من الأمم والشعوب والطوائف في زمانه، وعلى رأسهم اليهود والنصارى والوثنيون، فضلا عن المسلمين ومن اندس في صفوفهم من المنافقين؛ سواء من كانوا داخل حدود دولته أو خارجها. وهذا دليل على سعة صدره وبعد نظره ﷺ وعلى عالمية الإسلام، وانفتاحه على البشرية كلها؛ فهو درس عظيم للدعاة اليوم ليوسعوا نشاطهم حتى يشمل كل فئات المجتمع من الكبار والصغار والرجال والنساء والتقاة والعصاة والمنحرفين وغيرهم، وكل طوائفه سواء كانت منتمية إلى الإسلام أو متبعة لغيره؛ وهو دليل أيضا على عدل حكمه، وحنكته السياسية، وانفتاحه على جميع مكونات شعبه دون تمييز، وهذا درس عظيم للسياسيين المسلمين –وغيرهم– ليعدلوا في حكمهم، وليتعاملوا مع فئات شعوبهم كلها، وليتركوا التمييز بين طبقات مجتمعاتهم وطوائفها كافة.

- وأنه ﷺ كان يركز في محاورته مع الأفراد والطوائف والأمم على الجانب الذي تعاني من قبله في دينها. فمن غلب عليهم الفساد العقائدي حاورهم في ذلك المجال، وبين ما فيه من كفر أو ضلال، ووصف ما يناسبه من علاج، ومن كانت حاجتهم استكمال الجانب التعبدي أو استتمام المستوى الأدبي ركز على حاجتهم، ومن استشرى فيهم الإلحاد والشرك صب جهده في محاورتهم على البرهنة على الوجود الإلهي ووحدانيته وصفاته، وهكذا يفعل مع أهل كل ملة.

- وأنه ﷺ يستعمل مع كل محاور ما يناسبه من الأساليب في الحديث، فتارة يستعمل الترغيب والترهيب، وحينا التقريع والتوبيخ، وأحيانا التلطف والملاينة، وطورا الشدة والوعيد؛ وهذه هي الحكمة ولاشك.

- وأنه ﷺ كان في غاية الصدق والموضوعية مع محاوريه؛ فقد أخبرهم أن وظيفته لا تتعدى اتباع ما أنزل عليه من الوحي –ومن ذلك الإيمان بالله وعبادته بإخلاص وتبشير من اتبعه وإنذار من كفر به– وأن مكانته لا تتجاوز منزلة النبوة والرسالة، وأنه لا يدعي الألوهية أو الربوبية أو الملائكية أو غير ذلك مما ليس له، وأن المعجزات التي يطالبه مخالفوه بها ليؤمنوا بنبوته بيد الله لا بيده.

- وأن الأوامر الموجهة عبر النبي ﷺ إلى المسلمين أقل بكثير مما وجه إلى المشركين؛ لأن المسلمين يذعنون لكل ما ينزل على النبي ﷺ، ولا يمارونه أو يقترحون عليه أو يسخرون منه فيحتاجوا للرد أو البرهنة أو التوبيخ أو غير ذلك مما يحتاجه المشركون.

- وأن التهديد يتوجه إلى المسلمين كما يتوجه إل المشركين، وإن كان توجهه إلى المشركين أكثر عددا وأقسى عبارة، وفي ذلك دليل على أن الله سبحانه لا يحابي أحدا، وفيه رد على من زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ولا يخضعون للمحاسبة والمعاقبة مهما فعلوا.

- وأن أقصر مطالب هذا الفصل هو الخاص بالمنافقين، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أحقر الطوائف جميعا وأخسها –خارج أمة الإسلام– وفي المقابل فإن أطولها جميعا هو المطلب الخاص بمحاورة أهل الكتاب، وفيه دليل على أنهم أهم أمم الأرض، والواقع شاهد صدق على هذا.

- وأن اليهود والنصارى يذكرون بالاسم المشترك (أهل الكتاب)، أو يذكر اليهود فقط؛ أما اسم النصارى فلم يرد مستقلا، وفي ذلك إشارة إلى أن التأثير -وخصوصا في المجال الديني- عندهم لليهود رغم قلتهم لا للنصارى على كثرتهم؛ فالعبرة ليست بكثرة العدد، وإنما بكثافة النشاط ودقة التخطيط وقوة التأثير في الرأي والقرار، والواقع خير برهان.

الخاتمة

وختاما أحمد الله –تبارك وتعالى– على أن أعانني على إتمام هذا البحث، وأشكره –تقدست أسماؤه– على ما يسر لي من عوامل إنجازه فضلا منه ومنة. وأشرع الآن في عرض أهم النتائج المستخلصة منه.

– بلغ إجمالي الأوامر الواردة إليه ﷺ **سبعة وتسعين أمرا** ، على خلاف بينها في عدد مرات الورود؛ فمنها ما ورد في موضع واحد فقط من الكتاب، كالأمر بالنحر، ومنها ما ورد مرتين فحسب، كالأمر بالقراءة، ومنها ما ورد مرارا. وأكثرها عددا هو الأمر بالقول (قل). فقد ورد اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مرة.

– **في مجال العقيدة** أمر ﷺ بالإيمان بكل ما يوحى إليه به، كما وردت إليه أوامر تعدد له أركان الإيمان، وتحذره من الشرك خاصة ومن الذنوب عامة، وتبين له الطريق الموصلة إلى معرفة جميع المأمورات المحققة لمرضاة الله تعالى وهي الوحي المنزل عليه؛ ودلت في مجموعها على أن ما أمر به ﷺ من الاعتقادات لم يزد شيئا عما يشارك فيه عموم المسلمين.

– **في مجال العبادة** أمر ﷺ بعبادة الله عامة كسائر المسلمين، فدل ذلك على أن مرتبة النبوة لا تعفيه من هذه الوظيفة؛ وصدرت إليه ﷺ أوامر تحدد له ضوابط العبادة الصحيحة، المحققة للغاية منها، المحرزة للقبول عند الله، وهي: الإخلاص فيها لله وحده، والاصطبار على مشاقها، والمداومة عليها مدى الحياة، والانقطاع إليها عن كل الشواغل، مع الاجتهاد في أدائها.

– جميع الأوامر المتوجهة إليه ﷺ والمتعلقة بالعبادات البدنية انصبت حول موضوع الصلاة إلا واحدا فقط فإنه تعلق بالنحر لله. وفي ذلك دلالة ظاهرة على عظم شأن الصلاة ومكانتها الكبرى في الدين، كما دلت أيضا على عظم شعيرة النحر لله تعالى.

– أمر النبي ﷺ بالذكر، ووردت إليه الأوامر مفصلة أنواعه، ودلنا الاستقراء التام لها على انحصارها في ثمانية أصناف: تلاوة وتسبيح وتحميد وشكر وذكر وتكبير ودعاء واستعاذة.

– **في مجال الأخلاق** أمر ﷺ بمكارم الأخلاق وفضائل الآداب وفي مقدمتها العفو والصفح والصبر وخفض الجناح (اللين والتواضع) والإعراض عن الجاهلين، مع الأقارب والأباعد، ومع المسلمين وغيرهم، تماما كما يؤمر كل مسلم من هذه الأمة.

– مصدر أخلاقه ﷺ ليس العرف الاجتماعي، ولا العقل المحض، ولا الفطرة وحدها، وإنما هي أوامر الله إليه في القرآن الكريم.

• في **مجال الدعوة الإسلامية العامة:** أمر ﷺ بعدد من الأوامر تمثل مضامينها **الخطوط العريضة لوظيفته الكبرى** بوصفه رسولا من الله مبلغا للثقلين مراد ربهم منهم.

– فأمر **بدعوة الناس** إلى دين الله القويم ووفق الطرق الصحيحة الثلاثة المأمور بها وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، والتأكد أنه ﷺ على طريق الهداية، والحذر من ترك هذه المهمة أو الاستجابة لمن يريد صده عن آيات الله أو يشكك فيها.

– **وبتبشير** من استجاب له ببشريات عظيمة كثيرة، منها التمكين لهم في الدنيا، وإدخالهم جنات النعيم التي تحوي من صنوف اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في الآخرة.

– **وبإنذار** الناس إنذارا يقيم الحجة على المعرضين ويدفع الخائفين من أهوال القيامة إلى الدخول في دين الله الحق؛ على أن يكون الإنذار بالقرآن الكريم وما يحويه من الزواجر العظيمة والمواعظ المؤثرة.

– وأمر **بتبليغ كل ما نزل إليه** ، وهو –أي التبليغ– مهمته الرئيسية؛ ولذلك ظلت تهيمن على نشاطه منذ نزول صدر سورة المدثر حتى آخر لحظات حياته.

– و**بالصدع** بما يكلف به، فرفع غطاء السرية عن عمله؛ فكان هذا الأمر مفصلا بارزا بين زمن التبليغ سرا وما يقتضيه من الخفاء والحذر والحيطة، وزمن التبليغ علانية وما يوفره من حرية أكبر في الحركة، ونشاط أوسع في العمل، وخطورة أشد عليه ﷺ من أعداء الدين الجديد.

– وأن **يوجه نداء** عالميا إلى البشر جميعا يعلمهم أنه رسول الله إليهم يبلغهم مراده تعالى منهم، ويحمل إليهم الهداية والحق، ويدلهم على طريق السعادة الدنيوية والأخروية؛ وأن يخبرهم أنه لا يأخذ منهم على ذلك مقابلا دنيويا مطلقا، وأنه لا يرغم أحدا على الإيمان بما جاء به.

– وأمر ببيان جملة من الحقائق الكبرى للبشرية عامة، وهي:

– أن الهدى الحقيقي الوحيد في العالم هو هدى الله المتمثل في الإسلام ودستوره العظيم الذي هو القرآن الكريم.

– وأن الترجمة العملية الصحيحة الوحيدة لمحبة الله هي متابعة مبعوثه ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله كلها، تلك المتابعة التي تثمر أطيب ثمرة وأحلاها وهي محبة الله للمتابع ومغفرة ذنوبه.

– وأن الله أمر بالقسط في الأمور كلها، وفي الأحوال كلها، ومع الناس كلهم، وأن يفردوه بالعبادة في كل مواضعها وأوقاتها مع التضرع إليه بالدعاء الخالص والدائم.

– وأن الآثمين عامة، والمسرفين منهم خاصة، عليهم ألا يقنطوا من رحمة الله، وأن ينيبوا إليه، ويسلموا له، ويتبعوا أحسن ما أنزل إليهم، قبل حلول آجالهم، أو نزول العذاب بهم وهم غافلون.

– وأن المؤمنين عليهم بالتوبة العامة، وتقوى الله عز وجل، ولزوم الأعمال الصالحة، وهم موعودون بالفلاح والأجر بغير حساب؛ وعليهم أن يحذروا من إيثار مصالح الدنيا على محاب الله ورسوله ﷺ.

– وأمر ﷺ **أن يتلو** على مسامع الناس أنباء خمس شخصيات تاريخية عالمية، لما في سيرها من العبر النافعة والدروس المؤثرة المفيدة التي لا تبلى مع التقادم. وهم ابنا آدم ونوح وإبراهيم عليهما السلام والمخلد إلى الأرض المتبع هواه بعد أن آتاه الله آياته. فإحداها تمثل الأبرياء المظلومين المغدورين على امتداد التاريخ، والثانية تمثل أهل الإجرام والعنف والفساد والحسد والأنانية على مر الزمن، والثالثة هي شخصية أول رسول من الله إلى العالم، وتمثل الدعاة إلى الله بحق، والرابعة هي شخصية جمعت بين النبوة والرسالة والخلة واجتمع أهل الأديان السماوية كلهم على الاعتراف بها، وتمثل المتدينين بحق، والخامسة هي شخصية تمثل المتاجرين بالدين أو العلم، الذين لا مبدأ لهم، فلم ينفعهم علمهم وصار حجة عليهم.

• في **مجال التعامل مع الوثنيين** –وهم أكثرية من حوله– توزعت الأوامر الصادرة إليه ﷺ على ثلاثة أقسام:

– **ففي إطار دعوتهم**: تركزت على **تأكيد** أحقية الله سبحانه وتعالى بالانفراد بالعبادة وحده كما انفرد بالربوبية، وأنه لا يصح الفصل بينهما، **وبإبراز** تضافر الأدلة العقلية كلها مع الأدلة النقلية في تقرير ذلك وإثباته، **ونفي** الولد عن الله سبحانه؛ **والتذكير** المستمر بحقوق الله على عباده لألا تهلك نفوسهم يوم القيامة وتحبس في النار بسوء أعمالهم، على أن يقتصر عمله معهم على التذكير فقط، لأنه ليس جبارا ولا مسيطرا عليهم، وأن يكون القرآن الكريم وما يحويه من مواعظ بليغة وعبر مؤثرة هو أساس ذلك التذكير؛ **وقص** القصص المنزل عليه لعلهم يعتبرون؛ وأن لا يبالي بوصف سفهائهم له بالكهانة والجنون.

– **وفي إطار الرد على استفساراتهم**: كانت مضامينها جميعا لا تتعدى الإجابات على الأسئلة التي طرحوها، وتمحورت كلها على المسائل الغيبة، ككنه الروح ومصير الجبال وغيرهما.

– **وفي إطار محاورتهم**: ركزت على البرهنة على وجود الله ووحدانيته تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، وانفراده بالخلق والملك والتدبير، واستحقاقه العبادة من جميع خلقه، ونفي كل الشركاء الذين اتخذوا معه ظلما وجهلا، وأنهم لا يملكون معه ذرة فما دونها من الخلق والتدبير، ولا لعبادهم هباءة فما أقل من الضر والنفع.

– وأن وظيفة النبي ﷺ تقتصر على اتباع الوحي النازل عليه –عملا به ودعوة إليه.

– وأن مكانته ﷺ تقف عند حدود البشرية والنبوة والرسالة ولا تتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية أو الملائكية.

– وأن كفرهم بالله، واتخاذهم الأنداد معه، وادعاءهم كذبا أن النبي ﷺ افترى القرآن الكريم من عنده ... كل هذه الجرائم يستحقون بها الزجر والإنكار والتشنيع والتقريع التهديد والتوبيخ في الدنيا، والوعيد بنار جهنم في الآخرة للخلود فيها.

• في **مجال التعامل مع أهل الكتاب دعوة ومحاورة**: تركزت مضامين الأوامر الصادرة إليه ﷺ على ما يشيع بينهم من الأفكار الفاسدة والمعاملات الخاطئة كشفا لها ونهيا عنها وتحديا لهم أن ياتوا بالدليل عليها؛ فأمر أن يصرح لهم ببطلان جميع الآراء والاعتقادات والتشريعات والمعاملات والأخلاق المخالفة لما جاء به الإسلام؛ واتسمت بالمراوحة بين التلطف والشدة والتحدي.

• في **مجال التعامل مع المنافقين**: ركزت على تصرفاتهم القبيحة وأخلاقهم السافلة فضحا لها ونهيا عنها، مع معاقبتهم بمنعهم من الجهاد مستقبلا إن أرادوه، والحكم عليهم بالخروج من الدين والعذاب يوم القيامة، وعلى أعمالهم الصالحة شكلا بالحبوط؛ واتسمت بالشدة ووالصرامة تجاه خطرهم.

• في **مجال التعامل مع المسلمين**: ركزت على المسائل العملية والقضايا الفقهية تعليما وتصويبا؛ واتسمت بالمزج بين أسلوب الترغيب والترهيب.

• والملحوظ:

– أن مجموع هذه الأوامر يشكل هيكلا متكاملا لحياة دينية سوية لأي إنسان يبتغي السعادة في دنياه وأخراه. فقد حوت الاعتقاد الذي يطمئن القلب ويقنع الفكر، والعبادات التي تشبع الرغبة الفطرية في التعبد، وتغذي الروح لئلا يطغى عليها الجانب البدني المادي، والأخلاق التي تهذب السلوك وتوجه المواقف والأعمال. فكأنها تلخيص واف لمجموع أحكام الإسلام.

– أن مضامينها التوجيهية والنقدية مستوعبة لجميع أفكار وتصرفات سكان الكرة الأرضية اليوم؛ لأنهم لا يخرجون عن كونهم كفارا وثنيين أو أهل كتاب أو مسلمين أو منافقين.

– أنها كافية لإرشاد أي حاكم ينشد العدل في حكمه، ويسعى لإصلاح رعيته، ويقف على مسافة واحدة من الطوائف المشكلة لمجتمعه الداخلي والخارجي.

– أن النبي ﷺ صرح منذ بداية دعوته بعالميتها ووضوحها وشفافية أهدافها وكمال تصوره لجميع جوانبها، وأنه لم يتكلفها من تلقاء نفسه، بل أمره الله بها، وأنه مصدق لدعوة جميع من سبقه من الرسل.

– وأنه ﷺ نفذ جميع ما أمره الله به على أكمل وجه وأحسنه بشهادة العليم الخبير، وشهادة المعاصرين له ﷺ من الصحابة الصادقين العدول المزكين من الله ورسوله.

– وأختم بلفت أنظار أولي الاهتمام بالبحث في مجال الدراسات القرآنية إلى أن هذا الموضوع لا يزال بكرا، وله جوانب مختلفة، وفي كل جانب من المادة ما يكفي لإنجاز عدد من البحوث لا بحث واحد.

– والله المسؤول أن يتقبل هذا الجهد ويباركه وينفع به، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع كريم.

الفهارس

الملخص

مادة هذا البحث هي محتوى الآيات القرآنية المتضمنة لأوامر الله -عز وجل- المتوجهة إلى النبي ﷺ؛ والإشكالية التي يطرحها هي ما تعبر عنه الأسئلة الآتية:

- ما مقدار تلكم الأوامر؟ وهل من علاقة تربط بينها غير وحدة الآمر والمأمور؟ وما علاقة مجموعها بمجموع أحكام الشريعة الإسلامية عامة؟ وعلى أي الجوانب ركزت؟

ويهدف البحث إلى ما يلي:

- البرهنة على تكامل الأوامر الإلهية الموجهة إلى النبي ﷺ فيما بينها بحيث تشكل هيكلا متناسقا لا أشتاتا متناثرة.

- الوصول إلى نوع العلاقة بين مجموع ما أمر به النبي ﷺ وعموم الأحكام الشرعية.

- بيان توازن مضامين الأوامر المشار إليها.

- إبراز نماذج متنوعة من الحكمة وراء كثير من تلكم الأوامر.

ولتنظيم البحث وزعته على مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فبينت فيها إشكالية البحث وحدوده وخطته وأهميته وغير ذلك مما جرى عرف الباحثين ببيانه في مثلها.

وأما الفصل التمهيدي فجعلته لبيان معنى الأمر لغة واصطلاحا، وصيغه وأقسامه الواردة في القرآن الكريم، وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ. وخصصت الفصل الأول للأوامر الإلهية الموجهة إلى النبي ﷺ باعتباره إنسانا مسلما، والثاني للأوامر الموجهة إليه ﷺ باعتباره رسولا مبلغا، والثالث لما توجه إليه باعتباره مفتيا للمسلمين ومجيبا لعموم المستفسرين، والرابع لما تلقاه من الأوامر المتعلقة بمجال المحاجة والمحاورة للمشركين والمسلمين وغيرهم. بينما أفردت الخاتمة لأهم النتائج التي توصلت إليها؛ ومنها:

– أن عدد الأوامر الإلهية الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم بلغ سبعة وتسعين أمرا من غير المكرر، وأنها متفاوتة الورود؛ فمنها ما ورد مرة واحدة وهو الفعل (انحر)، ومنها ما ورد مرتين وهو الفعل (اقرأ) ... وأكثرها ورودا بلغ اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مرة وهو الفعل (قل).

– وأن بين هذه الأوامر علاقة وطيدة هي علاقة التكامل والانسجام.

– وأن علاقة مجموعها بمجموع ما سواها من أحكام الشريعة هي علاقة الخلاصة بالنص الملخص، أو العمود الفقري بسائر البدن.

– وأن تركيزها كان على الصلاة فيما توجه إلى النبي ﷺ باعتباره إنسانا مسلما؛ وأما ما تعلق بمجال الحجاج والحوار فركز على مسألة التوحيد ونفي الشريك مع الوثنيين، وعلى المسائل العلمية والقضايا الفقهية مع المسلمين. أما مع المنافقين فركز على فضح سلوكهم وبيان خطورتهم، بينما ركز مع أهل الكتاب على ما يشيع بينهم من الأفكار الفاسدة والمعاملات الخاطئة.

– وأن مضامينها التوجيهية والنقدية فهي مستوعبة لعموم أفكار البشر وسلوكهم في هذا الزمان فما قبله؛ لأنهم لا يخرجون عن كونهم كفارا ملحدين أو مشركين وثنيين أو منافقين أو أهل كتاب أو مسلمين.

– وأن مضامينها كانت متوازنة؛ فقد راعت حاجة الروح والجسد، ومطالب الفرد والمجتمع، وكيفية التعامل مع الكفار والمسلمين، ومنافع الدنيا والآخرة.

Abstract:
The subject of this research is the content of the Quranic verses containing the commands of Allah Almighty directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him), and the problematic issues it raises are as follows:
- What is the extent of these commands? Is there a relationship between them other than the unity of the commander and the commanded? What is the relationship between them and the whole Islamic Sharia rulings in general? And on which aspects did they focus?
The research aims to:
- Demonstrate the integration of divine commands directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him) so that they form a coherent structure rather than scattered injunctions.
- Determine the type of relationship between the sum of what the Prophet Muhammad (peace be upon him) was commanded and the generality of Sharia rulings.
- Highlight the balance of the meanings of the mentioned commands.
- Highlight diverse examples of wisdom behind many of these commands.
To organize the research, it is divided into an introduction, a preliminary chapter, four main chapters, and a conclusion.
The introduction clarifies the research problem, its scope, plan, significance, and other relevant details.
The preliminary chapter explains the meaning of command linguistically and terminologically, its forms, and categories mentioned in the Quran, as well as actions directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him).
Chapter One is dedicated to divine commands directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him) as a Muslim individual, while Chapter Two focuses on commands directed to him (peace be upon him) as a messenger of revelation. Chapter Three discusses commands directed to him (peace be upon him) as a jurisconsult for Muslims and respondent to general inquiries, and Chapter Four addresses commands related to debate and dialogue with polytheists, Muslims, and others. The conclusion highlights the most significant findings, including:
- The total number of divine commands directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him) in the Quran amounted to ninety-seven unique commands, varying in frequency. Some occurred only once, such

as the command (Make sacrifice), while others occurred twice, such as (recite). The most frequently mentioned command appeared one hundred and thirty-two times, which is (say).

1- There exists a strong relationship among these commands, characterized by integration and harmony.

- The relationship between their total and other Sharia rulings is akin to a summary column to the rest of the body.
- It predominantly focuses on prayer in commands directed to the Prophet Muhammad (peace be upon him) as a Muslim individual, while issues related to argumentation and dialogue concentrate on monotheism and refuting partners with Allah among polytheists, as well as scientific matters and jurisprudential issues among Muslims. Concerning hypocrites, it emphasizes exposing their behavior and elucidating their danger, whereas with the People of the Book, it concentrates on addressing their corrupt ideas and erroneous dealings.
- Their directive and critical contents encompass the general ideas and behaviors of humans in this and previous eras since they do not deviate from being disbelievers, atheists, polytheists, hypocrites, People of the Book, or Muslims.
- Their contents are balanced, catering to spiritual and physical needs, individual and societal demands, dealings with disbelievers and Muslims, and the benefits of this world and the hereafter.

فهرس

الآيات القرآنية

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	1	113
﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾	**7**	**291**
﴿الضَّالِّينَ﴾	7	291
سورة البقرة		
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا ... أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾	**24-23**	452
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	**25**	221
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾	28	447
﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾	30	114
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	34	423
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	**44**	**420**
﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾	55	421
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	**83**	482
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾	88	444
﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ... وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾	92	482
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	94-93	482
﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ... وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	97	484
﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾	105	488
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾	109	488
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	112-111	487
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى ... لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾	113	488
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾	120	246
﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ ... فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.	144	94
﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾	145	247
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ... لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾	146	494
﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ... وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	150-149	95
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	**153**	**228**
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ... هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾	**157-155**	227

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾	177	368
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ...حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾	180	230
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	189	366
﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	**195**	**231**
﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ... وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾	197	148
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾	213	**220**
﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ... فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾	215	338
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾	**216**	**479**
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	217	370
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾	219	375
﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ... فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾	220-219	341
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ... إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	220	347
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ... وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾	222	384
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	**223-222**	**225**
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا ... وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	254	460
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾	256	399
﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾	257	475
﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾	**260**	180
﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾	**272**	216
﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾	**273**	171
﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ... فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾	282	247
سورة آل عمران		
﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾	5	302
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾	**18**	273
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾	20	187
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾	**22-21**	**243**
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	27-26	77
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	**31**	249

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ... فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾	55	299
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ ... لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾	61-59	491
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا ... اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾	**64**	489
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ... وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾	68-67	285
﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾	**73-72**	**491**
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾	77	29
﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾	84	73
﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	95-93	254
﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	95	79
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ ... بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	**99-98**	**494**
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ... وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾	102	369
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	103-102	293
﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	**104**	219
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾	**110**	**394**
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	144	184
﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾	159	152
﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾	**159**	**84**
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾	169	320
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ... حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾	173	69
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ... وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾	**174-173**	207
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ... فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾	**191-190**	334
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا ... لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾	194-191	**143**
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾	195	**483**
سورة النساء		
﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾	1	354
﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ... ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾	3-2	349
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ... وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾	10	355
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾	11	355

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	36	165
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ... مَا تَقُولُونَ﴾	43	375
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ... فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾	48	240
﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ... فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾	80	396
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾	81	83
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾	87	80
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾	106-105	133
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾	122	80
﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ ... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾	127	349
﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾	128	353
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ ... فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾	136	67
﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ ... فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	139-138	244
﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾	147	127
﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ... لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾	161-160	257
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	165-163	187
﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ... أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾	171	318
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	176	349
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	2	314
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ ... وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾	3	189
﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ... إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾	4	360
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ ... وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾	6	97
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ... خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	8	148
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ ... فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾	32-27	200
﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾	45	362
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾	48	133
﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ... حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	50	498
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾	67	47

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا ... وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾	77	496
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ ... الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	92-90	188
﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... وَمَا تَكْتُمُونَ﴾	99-98	187
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا ... أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾	102-101	372
سورة الأنعام		
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ... إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾	7	441
﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ... وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾	14-12	401
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	15-14	415
﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾	19	192
﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾	24-22	175
﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾	25	443
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ... إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾	25	444
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾	31	327
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ... بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾	33	452
﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ... وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾	41-40	406
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	45-44	408
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ ... ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾	46	408
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ... أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾	50	420
﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ... لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	51	234
﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	56	417
﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾	56	424
﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ... وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾	57	425
﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾	58	424
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ،	59	324
﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ... لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾	65-63	407
﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾	66	427
﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾	70	265
﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	71	417

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	71	248
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ... فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾	89-90	87
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾	**90**	**194**
﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ ... مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾	**94**	**240**
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	103	**189**
﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ... عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	106	82
﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ ... عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	108	123
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	109	434
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ... زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)﴾	112	147
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾	146	257
﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾	148	434
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	**151**	**165**
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	152	347
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ... وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	**153**	496
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾	160	155
﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	161	257
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ... وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾	162-163	420
سورة الأعراف		
﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾	**29**	**472**
﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ... فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾	40	320
﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	**56**	**231**
﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾	**80-84**	**175**
﴿حَتَّى عَفَوْا﴾	**94**	343
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى ... عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	**103**	**176**
﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ... إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾	138	486
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ...وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	**143**	43
﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	**143**	331

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ... وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾	144	299
﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾	155	133
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾	157	361
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	**158**	**192**
﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	158	193
﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ... وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾	163-161	257
﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	171	483
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	**176-175**	271
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ... وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾	**177-175**	203
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ... هُمُ الْغَافِلُونَ﴾	179	444
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾	**183-182**	**178**
﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ... مِنْ شَيْءٍ﴾	**185**	175
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ ... لَا يَعْلَمُونَ﴾	187	322
﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.	187	323
﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾	187	326
﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ... لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	**188**	**424**
﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي ... وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾	**198-196**	262
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾	199	55
﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ... فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	200	139
﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا ... وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	203	437
﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ... وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾	205	128
سورة الأنفال		
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ ... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	1	390
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ... وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾	4-2	68
﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾	5	390
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ... وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾	**24**	**265**
﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ ... أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	32	427

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسُولِ﴾	41	391
سورة التوبة		
﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ ... بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	**3**	**242**
﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	5	373
﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾	24	455
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾	23	456
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا ... مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾	**35-34**	243
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ ... كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾	36	372
﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	36	373
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ...كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾	53-51	474
﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	60	340
﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	61	475
﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ ... فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾	83-81	477
﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾	**96-95**	**459**
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾	103	148
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	**103**	**275**
﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	105	458
﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾	**111**	292
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	**112-111**	225
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾	**113**	**164**
﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	**118**	459
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾	119	148
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	**120**	**156**
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾	129	296
سورة يونس		
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ... إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾	**2**	**226**
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ... يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾	5	368

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	10	65
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	**15**	**419**
﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ... إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾	20	437
﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ... فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	23-22	407
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾	32-31	411
﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ ... كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾	35-34	261
﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى ... لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	37	451
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	38	449
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ... عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾	**39-38**	**177**
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾	**45**	**323**
﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾	**64**	**233**
﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾	70	454
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ... عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾	**73-71**	**177**
﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ ... أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	72	430
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	**87**	**226**
﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ... مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	105	88
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ... وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾	**108**	**199**
﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾	109	154
سورة هود		
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	**23**	229
﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ... وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾	**29**	**195**
﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ... إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	**32-31**	421
﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾	**42**	**331**
﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ... فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾	**43**	**481**
﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	**51-50**	**195**
﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	51	430
﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	56-55	144
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ... بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	112	88

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ... ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾	114	96
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ... ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾	**114**	**459**
﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	115	156
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	123	89
سورة يوسف		
﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾	**43**	352
﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ ... إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾	**87**	**279**
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾	100	**413**
﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾	100	139
﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	**104**	**195**
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	**108**	218
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ... وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	111	179
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾	**111**	**272**
سورة الرعد		
﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾	**3**	**335**
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾	13	120
﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾	**16**	402
﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	19	424
﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ... أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾	22	159
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ... بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾	**31**	332
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾	**35**	222
﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾	36	90
﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ ... إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾	36	498
﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ... وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾	40	184
﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾	**40**	**270**
سورة إبراهيم		
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ... إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾	7	127
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾	**12-11**	**84**

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وجعلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ... فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾	30	453
﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ... لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾	31	460
﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ... وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾	45-44	236
﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾	45	404
﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾	46	207
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	9	293
﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ... بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾	15-14	441
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾	21	422
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ ... فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾	29-28	31
﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾	56	279
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	94	189
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾	97-94	191
﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾	98	113
﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾	99	91
سورة النحل		
﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	15	335
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	35	188
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾	36	89
﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ... لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	67	375
﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾	69-68	333
﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	77	328
﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾	81	404
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ... لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾	81	333
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ... الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	82-81	188
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	97	70
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ ... فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾	97	375
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ... مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	98	141

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ... وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾	**102**	**318**
﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾	106	67
﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	123	82
﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	125	152
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾	**125**	**212**
﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ... فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾	127	156
سورة الإسراء		
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... أَجْرًا كَبِيرًا﴾	**9**	**194**
﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾	12	368
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	**15**	**205**
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ ... وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾	**18**	168
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ... وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾	**21-18**	178
﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ ... كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾	**24-21**	**161**
﴿وَقَضَى رَبُّكَ ... كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾	24-23	166
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾	27-26	344
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾	**28-26**	**167**
﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ... قَوْلًا مَيْسُورًا﴾	**28**	**173**
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ... فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾	29	344
﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا ... إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾	42	412
﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ... إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾	**44**	**335**
﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾	**46**	**443**
﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ... وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾	59	442
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾	67	407
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾	**70**	245
﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ... كَانَ مَشْهُودًا﴾	78	96
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ ... مَقَامًا مَحْمُودًا﴾	79	107
﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾	79	107
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾	**79**	**120**

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	**81**	**208**
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	**85**	**287**
﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	85	**335**
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	85	504
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ ... وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾	88	452
﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ... هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾	**93-90**	**421**
﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾	110	438
﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾	110	102
﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.	110	102
﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ ... فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾	110	122
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ... وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾	111	124
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ ... وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾	111	131
سورة الكهف		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ ... وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾	1	148
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾	22	501
﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ... لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾	24-23	129
﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ ... فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾	26-25	503
﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ... دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾	27	112
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾	28	154
﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾	**56**	**234**
﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾	66	313
﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾	70	293
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ... وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾	98-83	285
﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ... وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾	101	409
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾	109	504
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ... وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾	109	504
الآية القرآنية	**رقمها**	**الصفحة**

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ... بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾	110	64
سورة مريم		
﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾	12	483
﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾	27	450
﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾	31	92
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾	32	445
﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ... وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	**39**	**236**
﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ... عَنْكَ شَيْئًا﴾	42	261
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾	**42-41**	261
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾	47-41	162
﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾	60	279
﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾	65	91
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ... وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾	**82-81**	**209**
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ... إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾	**93-88**	264
سورة طه		
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾	5	413
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا ... مَا يُؤْمَرُونَ﴾	6	103
﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ... لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾	**44-43**	215
﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾	**50**	**262**
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾	105	329
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ... لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾	107-105	328
﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	114	137
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ... وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾	127-124	70
﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ... لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾	130	117
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ... وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾	132	156
سورة الأنبياء		
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... عَمَّا يَصِفُونَ﴾	22	413

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	25	445
﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ ... عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾	42	411
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ... وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾	47	428
﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾	**49**	**328**
﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾	**79**	**332**
﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾	96	310
﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ... بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾	97-96	312
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾	**107**	**476**
سورة الحج		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾	1	305
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾	2-1	326
﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾	2	327
﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ ... مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾	5	466
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ... إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾	18	**334**
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾	30	381
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ... فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾	31	320
﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾	**32**	**486**
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾	**35-34**	**228**
﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ ... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾	**35**	229
﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ... وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾	**37-36**	230
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	**39**	**200**
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾	**46**	**486**
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ... كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾	**47**	**427**
﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾	**67**	**217**
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ... وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾	78-77	83
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾	78-77	258
سورة المؤمنون		
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾	9	97

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ ... وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾	18-17	413
﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	73	219
﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ... سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	91	413
﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ... سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	91-84	403
﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ... فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	94-93	138
﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ ... أَنْ يَحْضُرُونِ﴾	98-97	142
﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾	116	296
﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾	118	132
سورة النور		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ... يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾	21	274
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾	30	462
﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	31	463
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾	33	269
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	46-45	262
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	54-53	188
﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	54	188
﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾	58	105
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾	1	192
﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	2	193
﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ ... فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	9-7	415
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ... وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾	14-11	328
﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ... وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾	21	441
﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾	52	249
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾	57	430
﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾	67	273
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا ... وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾	67	344
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... وَلَا يَزْنُونَ﴾	68	277

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
سورة الشعراء		
﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ... كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾	63	331
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ... مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	89-69	208
﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾	78	262
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ... رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	145-141	195
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	145	430
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ... إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	164-160	195
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	164	195
﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ... إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	180-176	195
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ... رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	180	196
﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ... إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	187-186	441
﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾	204	427
﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ... وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	217-214	238
﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾	227	177
سورة النمل		
﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ... عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	14-12	176
﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ... وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾	23	413
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾	26	413
﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ ... بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾	36	314
﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ... دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	51-48	178
﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ ... أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	59	125
﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	64	399
﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾	80-79	84
﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ... إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾	88	336
﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ... مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	91	65
﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ ... إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾	92-91	112
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ... بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	93	437
سورة القصص		

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ ... عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾	40-39	176
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾	**56**	**215**
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾	77	344
﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	**87**	**217**
﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	**88**	**427**
سورة العنكبوت		
﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ... وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾	**3-2**	**227**
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ... يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾	45	274
﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾	45	419
﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ ... مَا تَصْنَعُونَ﴾	45	97
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾	45	112
﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾	46	399
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ ... وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	51-50	437
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ... فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾	61	71
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ... لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾	**61**	**402**
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	63	411
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	63	71
﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ ... وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾	66-65	407
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾	**69**	**231**
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ ... فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾	87	71
سورة الروم		
﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾	17	105
﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾	17	**105**
﴿وَعَشِيًّا﴾	**18**	**105**
﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾	18	105
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	30	190
﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	**38**	**173**
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ... يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾	**43**	**190**

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	**50**	**174**
سورة لقمان		
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ... فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	**7-6**	242
﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ... لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	13	300
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾	14	79
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ... بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	**15-14**	165
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾	34	189
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾	34	324
سورة السجدة		
﴿الم(1)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾	3-1	449
سورة الأحزاب		
﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ ... وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾	17-16	479
﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ ... مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾	17	411
﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ... وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾	19	476
﴿لَقَدْ كَانَ ... أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	21	89
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ... أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	29-28	468
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ ... ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾	**36**	395
﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ... وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾	**37**	189
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا ... بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾	42-41	116
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ... وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾	**46-45**	**212**
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ... مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾	**47-45**	**226**
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾	57	477
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾	59	467
﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ... لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾	63	324
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾	**72**	**331**
سورة سبأ		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾	**5**	**316**
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾	10	332

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾	13	125
﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾	13	324
﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ... أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	**24**	337
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	24	411
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	**28**	**192**
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً ... أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	**28**	**194**
﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	**31**	**243**
﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	47	262
سورة فاطر		
﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	24	254
﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾	27	334
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	**28**	**232**
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ... إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾	30-29	113
سورة يس		
﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ... فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾	**11**	231
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ... أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	**21-13**	**184**
﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ... آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾	25-20	**195**
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾	38	295
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾	40-38	295
﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾	40	114
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ... وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	**54-51**	**327**
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ... إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾	60	91
سورة الصافات		
﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾	**11**	**352**
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ... إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	17-13	184
﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ... إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾	**74-71**	**179**
﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	**96-95**	**261**
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ... وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾	**107-102**	**109**

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	105-104	202
﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾	107	202
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	180	148
سورة ص		
﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾	5	433
﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا ... كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾	19-17	332
﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ... أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	39-34	292
﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ... بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾	**51-49**	**222**
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ... إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾	**70-65**	234
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾	86	430
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ... وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾	**88-86**	**196**
سورة الزمر		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾	2	90
﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	10	155
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾	11	**218**
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	**13-11**	415
﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾	12	419
﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾	14	90
﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ ... أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾	15	404
﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ... وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	18-17	47
﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ... لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾	20	316
﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ... فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾	46	80
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾	53	133
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾	**53**	**276**
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾	**55-53**	**276**
﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ... وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	**59-54**	231
﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾	**56**	278

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ... وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾	66-65	419
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ ... فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾	68	312
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾	70-68	327
سورة غافر		
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾	7	413
﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ... لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾	15	318
﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ... وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾	19-18	239
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾	37-36	309
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾	55	115
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	56	143
﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	66	417
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ... لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾	78	254
سورة فصلت		
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾	5	442
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ... وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾	6-5	442
﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي ... ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	9	447
﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	36	139
سورة الشورى		
﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾	15	218
﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ ... لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾	18-17	328
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾	23	428
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾	23	430
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ... إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾	48	187
﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾	51	189
﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ... إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾	51	298
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا ... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	52	70
﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	52	215

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
سورة الزخرف		
﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾	22	433
﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾	25-23	179
﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ... وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾	44-43	200
﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ... رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	82-81	262
﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	85	48
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ... اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾	87	259
سورة الدخان		
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ...كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾	54-51	224
سورة الجاثية		
﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾	10-7	243
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ... الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	18	87
﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾	21	362
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾	23	498
سورة الأحقاف		
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾	15	78
﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾	16	316
﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ... أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	32-29	219
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾	35	155
﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ... إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾	35	323
سورة محمد		
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾	15	222
﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾	18	325
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾	19	81
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ... وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾	22	173
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾	31	228
سورة الفتح		

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ... عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	4	69
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾	20-18	394
﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾	28	293
﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾	29	293
سورة الحجرات		
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾	13	420
﴿قَالَتِ ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	14	471
﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ الحجرات]	14	473
سورة ق		
﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ... وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾	33-31	135
﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ ... وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾	40-39	104-96
﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ... ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾	44-41	74
﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾	45	268-266
﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾	45	270
سورة الذاريات		
﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا ... غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	36-35	475
﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾	51	91
﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾	54	189
﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	55	268-266
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	56	-89-85 215
سورة الطور		
﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾	29	269
﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾	40	195
﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾	48	117
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾	49	120
سورة النجم		
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ...عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾	5-3	399-214

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ... عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾	15-13	489
﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى... ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾	41-36	199
﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ... فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾	62-53	455
﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ(57)لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾	58-57	455-240
سورة القمر		
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾	1	329
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ... وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾	3-1	439
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾	49	34
﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾	51-49	34
سورة الرحمن		
﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ... ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾	48-46	222
﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾	52	222
﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ...كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾	58-56	224
﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ... مُدْهَامَّتَانِ﴾	64-62	222
﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾	68	222
﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ... إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾	74-70	224
سورة الواقعة		
﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا(5)فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾	6-5	337
﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾	20	222
﴿وَحُورٌ عِينٌ ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	24-22	224
﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ... وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾	31-27	222
﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(32)لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾	33-32	223
﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ... لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾	38-35	224
﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾	74	121
سورة الحديد		
﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ... بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾	10	86-51
﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ ... ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾	12	233

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
سورة المجادلة		
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ... بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	7	459
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾	22	318
سورة الحشر		
﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾	2	423
﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ... مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾	6	395
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ... إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾	7	252
﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	21	351
سورة الصف		
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ... كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾	4	395
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	13-10	227
سورة الجمعة		
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ... لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	2-1	337
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا ... لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	2	337-265
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	8-6	484
سورة المنافقون		
﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	8	491
سورة التغابن		
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	12	187
سورة الطلاق		
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾	3	84
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ... قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾	12	219-83
﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾	12	302-219
سورة الملك		
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ... وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	14-13	341
سورة القلم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	4	180-94

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(8)وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾	9-8	419
﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ... إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾	48	157
سورة الحاقة		
﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾	11	232
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ ... فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾	16-13	335-315
﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ... ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾	46-44	419
سورة المعارج		
﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ(8)وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾	9-8	335
سورة الجن		
﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ... فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾	6	146
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ ... وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾	27-26	422
﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾	28	302
سورة المزمل		
﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾	4-1	106-17
﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾	4	112
﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾	5	327
﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾	9	368
﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾	8	129-92
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾	14	336
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ... وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾	20	107
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾	20	107
سورة المدثر		
﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾	1	241
﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1)قُمْ فَأَنْذِرْ﴾	2-1	241-240
﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ... وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾	3-1	131
﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ... وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾	5-1	186
﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾	4	94

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾	5	241
﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾	7	158
﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾	31	268
﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ... حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾	47-43	91
سورة الإنسان		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ... آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾	23- 24	159
﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ... وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾	26-24	116
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ... كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	30-29	205
سورة المرسلات		
﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ... لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾	13-7	330
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41)وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾	42-41	222-50
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ...كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	44-41	230
سورة النبأ		
﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(6)وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾	7-6	332
﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ ... عَطَاءً حِسَابًا(36)﴾	36-6	47
﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا(19)وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾	20-19	336
﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(31)حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾	32-31	222
سورة النازعات		
﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾	3	114
﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾	32	335
﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾	41	199
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ... إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾	44-42	324
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ... إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾	46-42	328
سورة عبس		
﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾	23	167
سورة التكوير		
﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾	3	336

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
سورة الإنشقاق		
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	**24-22**	**243**
سورة البروج		
﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	**9**	193
﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ... فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾	16-13	260
﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾	15-14	296
سورة الطارق		
﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾	**12**	**190**
﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾	**13**	428
سورة الأعلى		
:﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1)﴾	1	27
﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ... خَلَقَ فَسَوَّى﴾	2-1	121
﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ... وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾	**3-1**	**262**
﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾	**9**	269
سورة الغاشية		
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ ... وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾	20-17	175-333
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ .	**22-21**	**270**
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ... ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾	26-21	199
سورة الفجر		
﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ... عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾	**18-17**	**170**
سورة البلد		
﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ... مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(16)﴾ .	**16-14**	**171**
سورة الضحى		
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	8	430
﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾	9	349
﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾	11	127
سورة الشرح		

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾	7	93
سورة التين		
﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾	5	322
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	1	241
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ... اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(3)﴾	3-1	54
﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ... أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾	13-6	100
﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ... كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾	19-14	100
﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾	19	99
سورة العاديات		
﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	8	340
سورة القارعة		
﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾	5	335
سورة الكوثر		
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾	3-1	108-98
سورة الكافرون		
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	6	247
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	6-1	419
سورة النصر		
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾	1	-123 136-124
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ... إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾	3-1	135-123
سورة المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... وَمَا كَسَبَ﴾	2-1	239
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾	4-1	75
سورة الفلق		

الآية القرآنية	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾	5-1	143
سورة الناس		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ... مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾	6-1	146

فهرس

الأحاديث النبوية

الحديث النبوي	الصفحة
حرف الألف	
اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب	408
أتيت بالبراق -وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ...	414
اجتنبوا الخمر، فإنها مفتاح كل شر	382
اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك ...	349
اجعلوها في ركوعكم	121
أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل	461
أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل ...	92
أحسن ... يا جابر، لا أراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله ...	356
إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ...	321
إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاجلدوه، ثم إذا سكر فاجلدوه ...	383
الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر ...	319
أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش ...	320
اشهدوا	436
اصنعوا كل شيء إلا النكاح	385
أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب ...	193
أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ ...	293
اعقلها وتوكل	315
افتتح البقرة، فقلت :يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: ...	147
أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ...	106
أفضل الكلام: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر	111
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ...	102
ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟، قلت: يا رسول الله، أخبرني ...	114
ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل ...	78
إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة	197
ألك مال غيره؟ ...	345
أما صاحبكم هذا فقد غامر ...	193

الحديث النبوي	الصفحة
أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له	418
أمر رسول الله ﷺ الذي يأتي امرأته وهي حائض أن يتصدق بدينار ...	387
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا ...	298
أمرني أن أصرف بصري	463
إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم ...	318
إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...	432
إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم	350
إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام ...	457
إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه ...	253
إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ...	418
إن الله تعالى لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في ...	389
إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي ...	202
إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا ...	231
إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها ...	470
إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى ...	230
إن الله لو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس	143
إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ...	107
إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون ...	178
أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ...	67
إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم ...	186
إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي ...	292
إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها مسلم، يسأل الله ...	323
إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ...	136
إن ملكا من ملوك بني إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن ...	382
إن مما تذكرون من جلال الله التسبيح والتكبير والتهليل ...	132
إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع ...	309
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ...	108

الحديث النبوي	الصفحة
أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا	349
إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك	466
أنهار الجنة تفجر من جبل المسك	222
إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة	133
إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان ...	140
أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي ...	370
أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ ...	434
الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ...	68
حرف الباء	
بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل ...	494
بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب مقفله من ...	371
بلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم وذكرهم بالله فعلموا أنها ...	495
بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ...	216
بينما أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ...	222
حرف التاء	
تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها فتطهر، فتحسن الطهور، ثم ...	388
تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم	394
تصدقوا ...	388
حرف الثاء	
ثلاثة لا تقربهم الملائكة: الجنب، والسكران، والمتضمخ بالخلوق	382
ثم فتر عني الوحي فترة، فبينا أنا أمشي، سمعت صوتا من ...	241
ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس ...	289
ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء ...	309
حرف الجيم	
الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ...	414
حرف الحاء	
حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات	479

الحديث النبوي	الصفحة
حرف الخاء	
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول	343
حرف الداء	
دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار ...	109
الدعاء هو العبادة	78
دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة ...	206
حرف الراء	
رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة	104
رأى ﷺ جبريل له ستمائة جناح	**487**
رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض	487
حرف الزاي	
زملوني، دثروني	106
زينوا القرآن بأصواتكم	113
حرف السين	
سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته	147
سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله ...	461
سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس	452
سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم ...	311
حرف الشين	
شارب الخمر كعابد الوثن	381
شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب ...	75
حرف الصاد	
الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم	210
الصلاة على وقتها. قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قال: ...	166
صلوا كما رأيتموني أصلي	461
حرف الضاد	
ضرب الله تعالى مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط ...	496

الحديث النبوي	الصفحة
ضعه من حيث أخذته	391
حرف الفاء	
فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾	173
فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ...	296
فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت ...	289
فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا ...	309
فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا ...	311
فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ...	102
فهل أسلمت؟ ...	280
فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه، فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق ...	311
فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك	307
حرف العين	
عجل هذا	210
العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر	187
حرف الكاف	
كان ﷺ يقول في دعائه: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ...	134
كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله ...	104
كان إذا قام كبر الله عشرا، وحمد الله عشرا، ...	118
كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى	122
كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ...	186
كان خلقه القرآن	72
كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع، قال: سمع الله لمن حمده، اللهم ...	147
كان رسول الله ﷺ إذا قرأ يقطع قراءته آية أية	113
كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ...	123
كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك وبحمدك، ...	124
كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك وبحمدك، ...	136
كان يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: من صلى صلاتنا ونسك ...	109

الحديث النبوي	الصفحة
كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة	387
كان يقرأ السورة، فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها	113
كانت إحدانا إذا كانت حائضا، فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن ...	387
كانت عامة وصية رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، وما ملكت ...	**210**
كانت مدا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)﴾[الفاتحة] يمد بِسْمِ اللَّهِ، ...	**113**
كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر ...	377
كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان ...	121
حرف اللام	
لا ... الثلث والثلث كثير، أن تدع ورثتك أغنياء خير من ...	**344**
لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ...	**288**
لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون ...	**414**
لا تسبوا تبعا، فإنه كان قد أسلم	290
لا تقتل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ...	**202**
لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك	371
لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ...	468
لا يتم بعد احتلام	349
لا يتوارث أهل ملتين	247
لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا مؤمن بسحر، ولا قاطع رحم	383
لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم	248
لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله	130
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين ...	381
لا يشكر الله من لا يشكر الناس ...	79
لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر	313
لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين ...	491
لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء ...	428
لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها ...	382
لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد	271

الحديث النبوي	الصفحة
لقد خشيت على نفسي ...	71
لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، ...	157
لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ...	459
لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى، أو يغزو حتى ...	373
لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي ...	153
لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير ...	321
لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي	403
لن يدخل أحد منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت ...	137
اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة	350
اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه ...	140
اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات ...	80
لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت ...	484
ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ...	155
لئن صدق ليدخلن الجنة	334
حرف الميم	
ما أبقيت لأهلك؟	344
ما أسكر كثيره فقليله حرام	377
ما أصاب بحده فكله، وما أصاب بعرضه فهو وقيذ ...	363
ما اصطفى الله لملائكته –أو لعباده–: سبحان الله وبحمده	114
ما أعددت لها؟ ...	253
ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض ...	296
ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ...	414
ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ...	325
ما تذاكرون؟ ...	312
ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يصلي ...	124
ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ...	136
ما لك؟	380

الحديث النبوي	الصفحة
ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم ...	228
ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ...	151
مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن	383
مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ...	325
ملعون من أتى امرأة في دبرها	389
ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها ...	256
من تعار في الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ...	119
من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم ...	119
من حلف منكم، فقال في حلفه: باللات، فليقل: ...	384
من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا ...	120
من شرب الخمر فسكر؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن ...	382
من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني ...	349
من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد	252
من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد	370
من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا ...	390
من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه	384
منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم ...	137
المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا ...	293
حرف النون	
نهى ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن	365
نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء ...	372
حرف الهاء	
هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه ...	485
هل تدرون أي يوم ذلك؟ ...	305
هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئا؟ قلت: نعم، قال: ...	205
هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة ...	469
هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد	422

الحديث النبوي	الصفحة
هي الشفاعة	107
حرف الواو	
والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	147
وإنما الأعمال بخواتيمها	180
وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما	181
ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ...	327
ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ...	224
ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم ...	289
ويل لأقماع القول	233
ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ...	288
حرف الياء	
يا أبا بكر، قل اللهم فاطر السماوات والأرض ...	81
يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة ...	138
يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة ...	404
يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟ ...	296
يا بني فهر، يا بني عدي ...	239
يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو ...	144
يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ...	145
يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، لعلك أن تمر بمسجدي ...	192
يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار ...	387
يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟	360
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...	96
يصلي أربعا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن ...	98
يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله -عز وجل - ...	309
يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك ...	307
يؤتى بالموت كهيأة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة ...	237

فهرس الأعلام

المترجم لهم

الصفحة	اسم العلم
90	إبراهيم بن أدهم
170	ابن أبي زمنين
494	ابن إسحاق
56	ابن الأنباري
24	ابن الحاجـــب
101	ابن العربي
161	ابن جريج
126	ابن جزي المالكي
303	ابن خرداذبه
150	ابن زيد
94	ابن سيرين
38	ابن عاشور
116	ابن عطية
40	ابن فارس
144	ابن قتيبة
17	ابن قدامة المقدسي
38	ابن كثير الدمشقي
435	ابن كثير المكي
478	ابن مردويه
19	ابن منظور
25	أبو الحـــسين البصري
135	أبو السعود
201	أبو بكر الجزائري
23	أبو حيان الأندلسي
81	أبو راشد الحبراني
105	أبو رزين
126	أبو صالح

الصفحة	اسم العلم
153	أبو عبد الله الجدلي
69	أبو عبيد
428	أبوعمرو
492	أبو مالك الغفاري
256	أبو مجلز
468	أبو مسلم
66	الآجري
107	آدم بن علي
42	الألوسي
135	الآمدي
151	أمي الصيرفي
19	أنس بن مدركة الخثعمي
25	الباجي
35	البغوي
130	البقاعي
132	البلخي
93	الثعالبي
190	ثعلب
170	جابر بن زيد
423	الجبائي
26	الجرجاني
33	جرير
153	جعفر الصادق
21	الجلال المحلي
114	الحسن
331	حماد بن سلمة
177	الخازن

اسم العلم	الصفحة
الخالدي	303
داود الظاهري	141
الرازي	84
الربيع بن أنس	118
الرسعني الحنبلي	158
الزركشي	38
الزمخشري	35
الزهري	204
زيد بن أسلم	494
السامرائي	57
السدي	122
سعد بن هشام بن عامر	106
السعدي	32
سعيد بن المسيب	204
سعيد بن جبير	99
سفيان بن عيينة	137
سفيان بن عيينة	310
السلمي	58
سليم بن عبد	357
السمرقندي	172
السمين الحلبي	385
الشعبي	232
الشنقيطي	59
الشوكاني	66
الضحاك	114
طاووس بن كيسان	197
الطبري	37

الصفحة	اسم العلم
348	عبد الرحمن بن أبي ليلى
21	عبد الرحمن بن يزيد
30	عبد الله بن الشخير
468	عبيدة السلماني
119	عطاء
346	عطاء الخراساني
291	العك
77	عكرمة
198	عمرو بن شعيب
24	الفخر الرازي
115	الفيروزآبادي
158	قتادة
51	القرطبي
260	الكازروني
24	الكفوي
267	الكلبي
165	الماتوريدي
124	الماوردي
167	مجاهد
248	محمد بن الحسن الشيباني
251	محمد بن جعفر بن الزبير
343	محمد بن كعب القرظي
68	محمد رشيد رضا
67	المراغي
188	مسروق بن الأجدع
503	مطر الوراق
360	معدان بن أبي طلحة

الصفحة	اسم العلم
132	مقاتل
34	مكي بن أبي طالب
440	نافع
21	النخعي
27	النسفي
326	وأبو بكر الأصم
100	الواحدي
290	وهب بن منبه
224	يحي بن سعيد
388	يحيى بن بكير
269	يحيى بن سلام

قائمة المصادر

والمراجع

1. **القرآن الكريم**.
2. إبراهيم بن نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي ت 799هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 1، 1417هـ - 1996م.
3. إبراهيم بن نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي ت 799هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ-1996م.
4. أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني ت 365هـ، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط.
5. أبو إسحاق إبراهيم بن السري الشهير بالزجاج ت 311هـ، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م.
6. أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الشافعي ت 476هـ، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، د ر ط، 1970م.
7. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ت 790هـ، الموافقات، ضبط نصه وخرج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط3، 1430هـ - 2009م.
8. أبو إسحاق أحمد الثعلبي ت 427هـ، الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، دراسة وتحقيق: أبو محمد ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م، 266/1.
9. أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بـالثعلبي ت 427هـ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1374هـ-1954م.
10. أبو الأسود الدؤلي، ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه: أبو سعيد الحسن السكري ت 290هـ، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط2، 1418هـ-1998م.
11. أبو البركات بن الأنباري ت 577هـ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق: جودة مبروك محمد مبروك، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، د س ط.
12. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419هـ - 1998م.
13. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت 1094هـ - 1683م، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط2، 1419هـ - 1998م.

14. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، أسباب النزول، تخريج وتدقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط2، 1412هـ-1992م.
15. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوت عدنان داوودي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م.
16. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وأحمد محمد صيرة وأحمد عبد الغني الجمل وعبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م.
17. أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، الشهير بابن الرومي ت 283هـ، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ - 2002م.
18. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت 450هـ، النكت والعيون، مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ت ط.
19. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ت 395هـ، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ - 1986م.
20. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت 395هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د م ط ولا ر ط، 1399هـ - 1979م.
21. أبو الحسين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين ت 630هـ، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1407هـ - 1987م.
22. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت 261هـ، صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية، الرياض، د ر ط، 1419هـ/1998م.
23. أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي ت 982هـ، تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د ر ط ولا ت ط.
24. أبو الشيخ الأصبهاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ت 369هـ، في كتاب التوبيخ والتنبيه، تحقيق وتعليق: أبو الأشبال حسن بن أمين بن المندوه، مكتبة التوعية الإسلامية للطبع والنشر والتوزيع، الجيزة، ج م ع، ط1، 1408هـ.
25. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت 681هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ر ط، 1414هـ 1994م.

26. أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ت 1353هـ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م.
27. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت 597هـ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، مكتب المعارف، الرياض، ط 1، 1407هـ - 1986م.
28. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت 597هـ، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ط3، 1404هـ - 1984م.
29. أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ت 795هـ، روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، جمع وتأليف وتعليق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ/2001م.
30. أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني ت 518هـ، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، د م ط ولا ر ط، 1374هـ - 1955م.
31. أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1426هـ، ص 1713.
32. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت 711هـ/1311م، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 2004م.
33. أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت 1270هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د ر ط ولا سنة النشر.
34. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني ت 502هـ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د ر ط ولا س ط.
35. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، المعجم الأوسط، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ر ط، 1415هـ-1995م.
36. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ر ط ولا ت ط.
37. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت 360هـ، في مكارم الأخلاق، تحقيق: فاروق حمادة، المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، الرباط، ط1، 1400هـ-1980م.

38. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه مولى أمير المؤمنين، المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، سنة 1886م.
39. أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر ت 571هـ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت-لبنان، د ر ط، 1415هـ - 1995م.
40. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت 741هـ، التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1415هـ - 1995م.
41. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت 741هـ، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية، تحقيق: محمد بن سيدي محمد مولاي، د ب م.
42. أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت 418هـ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم، تحقيق: أحمد بن مسعود بن حمدان (رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه)، إشراف: عثمان عبد المنعم يوسف، رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر والأستاذ بجامعة أم القرى، ط2، مكة المكرمة، ط1411/2هـ.
43. أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ت 375هـ، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ - 1993م.
44. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت 180هـ، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ - 1988م.
45. أبو بصير ميمون بن قيس الشهير بالأعشى الكبير، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، د ر ط، 1950م.
46. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، الجامع لشعب الإيمان، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ - 2003م.
47. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دار الريان للتراث، القاهرة، ط1، 1408هـ-1988م.
48. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، كتاب الأسماء والصفات، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي للتوزيع، د ر ط ولا ت ط.

49. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458هـ، معرفة السنن والآثار، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، ط 1، 1411هـ-1991م.

50. أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت 458هـ، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 1424هـ - 2002م.

51. أبو بكر أحمد بن علي الجصاص ت 370هـ، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، د ر ط، 1412هـ - 1992م.

52. أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت 463هـ، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها الشهير بتاريخ بغداد، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م.

53. أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار ت 292 هـ، في البحر الزخار المعروف بمسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1، 1415هـ-1995م.

54. أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري الشافعي المعروف بابن السني ت 364هـ، عمل اليوم والليلة، تحقيق: عبد الرحمن كوثر ابن الشيخ محمد عاشق إلهي البربي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت-لبنان، ط1، 1418هـ - 1998م.

55. أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد، تقي الدين بن قاضي شهبة الدمشقي ت 1377هـ، طبقات الشافعية، صححه وعلق عليه ورتب فهارسه: الحافظ عبد العليم خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1399هـ-1979م.

56. أبو بكر جابر الجزائري ت 1439هـ - 2018م، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط3، 1418هـ - 1997.

57. أبو بكر جابر الجزائري ت 1439هـ-2018م، عقيدة المؤمن، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1420هـ-1999.

58. أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة ت 235هـ، المصنف، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1425هـ/2004م.

59. أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا ت 281هـ، مكارم الأخلاق، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1409هـ-1989م.

60. أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ت 297هـ، كتاب السنة، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني (ظلال الجنة في تخريج السنة)، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط 1، 1400هـ-1980م، رقم 663.
61. أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ت 318هـ، كتاب تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: سعد ابن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية، ط1، 1423هـ-2002م.
62. أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ت 311هـ، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت دمشق، د ر ط، 1400هـ - 1980م.
63. أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ت 311هـ، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، دار الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ-1988م.
64. أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ت 360هـ، الشريعة، تحقيق: الوليد بن محمد بن نبيه سيف النصر، مؤسسة قرطبة، د م ط ولا ر ط، 1417هـ - 1996م.
65. أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي ت 316هـ، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1417هـ - 1996م.
66. أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ت 321هـ، شرح مشكل الآثار، تحقيق وضبط وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م.
67. أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الطحاوي الحنفي ت 321هـ، شرح معاني الآثار، تحقيق وتعليق: محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1414هـ-1994م.
68. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م.
69. أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي ت 322هـ، كتاب الضعفاء، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد بن اسماعيل السلفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1420هـ-2000م.
70. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت 275هـ، سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د س ط.
71. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت 207، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1374هـ-1955م.

72. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت 303هـ، كتاب السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ - 2001م.
73. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي ت 303هـ، سنن النسائي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د س ط.
74. أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس الذهلي الشيباني ت 241هـ، مسند أحمد بن حنبل،بيت الأفكار الدولية، لبنان، د ر ط، 2004م.
75. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت 241هـ، في الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.
76. أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ت 405هـ، المستدرك على الصحيحين، الدار العثمانية، عمان، الأردن، ط1، 1428هـ - 2007م.
77. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية ت 751هـ، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
78. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ت 671هـ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.
79. أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة الأصبهاني ت 295هـ، فتح الباب في الكنى والألقاب، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، ط1، 1417هـ-1996م.
80. أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ت 256هـ، في الأب المفرد الجامع للآداب النبوية، تخريج وتعليق: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الجبيل، المملكة العربية السعودية، ط2، 1421هـ/2000م.
81. أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري ت 256هـ، كتاب التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د ر ط ولا ت ط.
82. أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي ت 256هـ، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ/2001م.
83. أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ت 189هـ، فقه محمد بن الحسن الشيباني المسمى كتاب الآثار، تحقيق وتعليق: أحمد عيسى المعصراوي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1427هـ-2006م.

84. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين ت 399هـ، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1423هـ-2002م.
85. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ت 672هـ، متن ألفية ابن مالك، ضبط وتعليق: عبد اللطيف محمد الخطيب، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط 1، 1427هـ-2006م، ص 36.
86. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجة ت 272هـ، سنن ابن ماجة، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د س ط.
87. أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ت 224هـ، الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد، الرياض، د ر ط ولا ت ط.
88. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1385هـ - 1965م.
89. أبو عمر يوسف بن عبد البر ت 463هـ، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ-1994م.
90. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي النمري ت 463، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، صححه وخرج أحاديثه: عادل مرشد، دار الأعلام، عمان، الأردن، ط1، 1423هـ-2002م.
91. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت 279هـ، سنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د س ط.
92. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت516هـ، شرح السنة، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م.
93. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت 516هـ، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط1، 1409هـ.
94. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت 546هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ - 2001م.
95. أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ت 327هـ، كتاب الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1371هـ-1952م.

96. أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ت 255هـ، في مسنده المعروف بسنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ-2000م.
97. أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الشهير بأبي الشيخ الأصبهاني ت 369هـ، كتاب العظمة، دراسة وتحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، د ر ط ولا ت ط.
98. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت 276هـ، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط2، 1377هـ-1958م.
99. أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ت 761هـ، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط11، 1383هـ - 1963م.
100. أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت 218هـ، السيرة النبوية، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
101. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت 456هـ، الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د ر ط ولا س ط.
102. أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي ت 437هـ، الهداية إلى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة من الباحثين رسائل جامعية تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ الشاهد البوشيخي، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1429هـ - 2008م.
103. أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتوريدي ت 333هـ، تأويلات أهل السنة الشهير بتفسير الماتوريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1، 1426هـ-2005م، 31/7.
104. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت 430هـ، دلائل النبوة، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، ط1، 1320هـ.
105. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ت 430هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1409هـ - 1988م.
106. أبو هلال العسكري ت 395هـ، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د ر ط ولا س ط.
107. أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي ت 307هـ، مسند أبي يعلى الموصلي، حققه وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت، ط2، 1410هـ-1989م.

108. أحمد بن عبد الله بن صالح أبي الحسن العجلي ت 261هـ، تاريخ الثقات، توثيق وتخريج وتعليق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1984م.

109. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852هـ، تقريب التهذيب، ومعه حاشيتا عبد الله بن سالم البصري ومحمد أمين ميرغني، قابلها بأصولها وقدم لها: محمد عوامة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ-1999م.

110. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت 852هـ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1424هـ - 2003م.

111. أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ت 852هـ، تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، تحقيق ودراسة: إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ-1996م.

112. أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م.

113. أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ ت 770هـ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت-لبنان، د ر ط، 1987م.

114. أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ت 756هـ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د ر ط ولا ت ط.

115. أحمد شاكر ت 1958م، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، دار الوفاء، جمهورية مصر العربية، ط2، 1426هـ - 2005م.

116. أحمد مختار عمر ومصطفى النحاس زهران ومحمد حماسة عبد اللطيف، النحو الأساسي، ذات السلاسل، الكويت، ط4، 1414هـ - 1994م.

117. أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءته، سطور المعرفة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ - 2002م.

118. أحمد مصطفى المراغي ت 1371هـ - 1952م، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ - 1946م.

119. اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط.

120. اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1404هـ-1984م، 1460/4.

121. اسماعيل حقي البروسوي ت 1137هـ، تفسير روح البيان، المطبعة العثمانية، 1330هـ.

122. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط7، 1428هـ-2007م.

123. الإمام مالك بن أنس ت 179هـ، الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ت 244هـ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1417هـ-1997م.
124. امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط5، 1377هـ-1958م، ص 114.
125. الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت 739هـ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ - 1993م.
126. انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 1422هـ-2001م.
127. بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي ت 794هـ، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير: عبد القادر عبد الله العاني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط 2، 1413هـ - 1992م.
128. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د ر ط، 1376هـ-1957م.
129. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ت 885هـ-1480م، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ر ط ولا ت ط.
130. بشار بن برد ت 167هـ، ديوان بشار، شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور، مراجعة وتصحيح: محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ر ط، 1386هـ-1966م.
131. تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت 771هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط1، 1383هـ-1964م.
132. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت 728هـ، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1425هـ - 2004م.
133. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت 728هـ، إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، مكتبة الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض، د ر ط ولا ت ط، ص3.

134. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية ت 728هـ، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، د الناشر ولا مكان الطبع، ط 2، 1392هـ-1972م.
135. تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، د م ط، ط1، 1420هـ - 2000م.
136. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت 538هـ، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1998م.
137. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت 538هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م.
138. جرير بن عطية اليربوعي ت ، ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط3، 1986.
139. جلا الدين عبد الرحمن السيوطي ت 911هـ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، د م ط، ط2، 1399هـ- 1979م.
140. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، أسباب النزول المسمى لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م.
141. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط 1، 1424هـ/2003م.
142. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، طبقات الحفاظ، مراجعة وضبط: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.
143. جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي ت 864هـ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ، تفسير الجلالين، دار ابن كثير، دمشق، د ر ط، 1407هـ.
144. جماعة من المختصين بإشراف: أحمد أبو قاحة، معجم النفائس الكبير، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ - 2007م.
145. جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي ت 742هـ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1413هـ-1992م.
146. جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي ت 772هـ، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1401هـ - 1981م.
147. جميل أحمد ظفر، النحو القرآني قواعد وشواهد، مطابع الصفا، مكة المكرمة، ط 2، 1418هـ - 1998م،

148. جميلة زيان، مفهوم الأمر في القرآن الكريم -دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي- وهو أطروحة دكتوراه، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط1، 1431هـ - 2010م.
149. الحسين بن محمد الدامغاني، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط4، 1983م.
150. حكمت بن بشير بن ياسين، في التفسير الصحيح موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر، المدينة النبوية، ط1، 1420هـ-1999م.
151. خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ-1986م.
152. خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط15، مايو 2002.
153. رؤبة بن العجاج، ديوان رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، د ر ط، 2008.
154. زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت 806هـ، محجة القرب إلى محبة العرب، تحقيق وتخريج: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ر ط ولا ت ط.
155. سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1418هـ-1997م.
156. سعيد بن منصور ت 227هـ، سنن سعيد بن منصور، دراسة وتحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414هـ-1993م.
157. سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - حلب - بيروت، ط1، 1405هـ - 1985م.
158. سليم بن عيد الهلالي، ومحمد بن موسى آل نصر، الاستيعاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425هـ.
159. سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي ت 204هـ، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر، ط 1، 1419هـ - 1999م.
160. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وتخريج وتعليق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، بيروت-دمشق، ط 1، 1428هـ-2007م.

161. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء، دراسة وتحقيق: بسام علي سلامة العموش، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام، الرياض، ط1، 1406هـ-1986م.
162. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الضوء المنير على التفسير، جمع: علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع مكتبة دار السلام، عنيزة-الرياض، د ر ط ولا ت ط.
163. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، الفوائد، دار الإمام مالك، الجزائر، ط 1، 1432هـ - 2011م.
164. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ت 751هـ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، د س ط.
165. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ت 748هـ، المقتنى في سرد الكنى، تحقيق: محمد صالح عبد العزيز المراد، إحياء التراث الإسلامي، المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط ولا ت ط.
166. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1405هـ - 1985م.
167. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424هـ - 2003م.
168. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ - 1997م، رقم 391، 112/5.
169. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، ط 1، 1416هـ-1995.
170. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ر ط، 1382هـ-1963م.
171. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.

172. شهاب الدين أبو الفضل بن حجر العسقلاني ت 852، مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، تحقيق: صبري بن عبد الخالق أبو ذر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 1، 1412هـ-1992م.
173. شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي الشهير بابن العماد ت 1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق وتعليق: محمود الأرنؤوط تحت إشراف عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1، 1412هـ - 1991م.
174. شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني ت 852هـ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، د ر ط، 1414هـ، 1993م.
175. شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني ت 923هـ، في إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ط7، 1323هـ.
176. صابر حسن محمد أبو سليمان، كشف الضياء في تاريخ القراءات والقراء، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1416هـ-1995هـ.
177. صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، ط3، 1411هـ-1991م، 2/ 101.
178. صلاح الدين أرقه دان، مختصر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 2، 1407هـ-1987م.
179. صلاح عبد الفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، دار القلم، دمشق، ط 2، 1415هـ-1994م.
180. ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن الحنبلي المقدسي ت 643هـ، الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت-لبنان، ط3، 1420هـ - 2000م.
181. ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، دار النفائس، بيروت، ط3، 1401هـ-1981م.
182. عباس حسن، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، دار المعارف، مصر، ط3، 1974م.
183. عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي ت 1359هـ، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ-2002م.

184. عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي الشهير بابن أبي حاتم ت 327هـ، في تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة-الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م.

185. عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المالكي ت 875هـ، تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق وتخريج: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ - 1997م.

186. عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت 1376هـ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.

187. عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت 211هـ، تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1410هـ-1989م.

188. عبد الستار فتح الله سعيد، المنهاج القرآني في التشريع، رسالة مقدمة للحصول على درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه)، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ط1، 1413هـ-1992.

189. عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 1421هـ - 2001م.

190. عبد القادر بن عمر البغدادي ت 1093هـ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ - 1997م.

191. عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، د ر ط ولا ت ط.

192. عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 1430هـ - 2009م.

193. عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1422هـ-2002م.

194. عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1419هـ.

195. عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي كما عرفته، اعتنى بإخراجه: عبد الرحمن بن علي العسكر، مدار الوطن للنشر، الرياض، ط1، 1427هـ-2006م.

196. عبد الملك بن حبيب الأندلسي المالكي ت 238هـ، أشراط الساعة وذهاب الأخيار وبقاء الأشرار، دراسة وتحقيق: عبد الله عبد المؤمن الغماري الحسني، دار أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1425هـ-2005م.

197. عبيد الله بن قيس الرقيات ت 75هـ، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د ر ط ولا ت ط، ص 187.
198. عثمان بن سعيد الدارمي ت 280هـ، الرد على الجهمية، تقديم وتخريج وتعليق: بدر البدر، الدار السلفية، الصفاة، الكويت، ط1، 1405هـ-1985م.
199. عدنان درويش جلون، وعمر حسن فلاتة، وعبد الوهاب محمد زمان، معلمو المسجد النبوي الشريف، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط1، 1437هـ-2016م.
200. عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ت 630هـ، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ-2012م.
201. عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي ت 661هـ، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 1، 1429هـ- 2008م.
202. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ت 660هـ، الإمام في بيان أدلة الأحكام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط1، 1407هـ - 1987م.
203. عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، جمهورية مصر العربية، د ر ط أو ت ط.
204. عصام موسى هادي، صحيح أشراط الساعة، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الدار العثمانية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط خاصة، د ت ط.
205. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ت 725هـ، لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبط وتصحيح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1425هـ - 2004م.
206. علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج نور الدين بن برهان الدين ت 1044هـ، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، الشهير بالسيرة الحلبية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1427هـ.
207. علي بن أحمد بن حجر العسقلاني ت 850هـ، الإصابة في تمييز الصحابة، طبعت هذه النسخة طبق النسخة المطبوعة في كلكتا سنة 1853م بعد مقابلتها بنسختين في الأزهر الشريف بمصر.
208. علي بن أحمد بن حجر العسقلاني ت 850هـ، موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، تحقيق وتعليق: حمدي عبد المجيد السلفي، وصبحي السيد جاسم السامرائي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1414هـ-1993م.

209. علي بن عمر الدارقطني ت 385هـ، سنن الدارقطني، تحقيق وضبط وتعليق: شعيب الأرنؤوط، وحسن عبد المنعم شلبي، وعبد اللطيف حرز الله، وأحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ - 2004م.
210. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني ت 816هـ - 1413م، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د ر ط ولا س ط.
211. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط 7، 1429هـ-2008م.
212. عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت 774هـ، البداية والنهاية، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط خاصة، 1436هـ - 2015م.
213. عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت774هـ، تفسير القرآن العظيم، دار نور الكتاب، الجزائر، د ر ط، 1428هـ/2007م.
214. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1414هـ - 1993م.
215. عمر سليمان الأشقر، الجنة والنار، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 7، 1418هـ-1998م.
216. عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 9، 1421هـ-2000م.
217. عمر سليمان الأشقر، القيامة الصغرى، دار النفائس، عمان، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 4، 1411هـ- 1991م.
218. عمر سليمان الأشقر، القيامة الكبرى، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 6، 1415هـ-1995م.
219. عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة الأبرار، مكتبة الفلاح، الكويت، ط3، 1403هـ- 1983م.
220. عياض بن نامي السلمي، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ - 2005م.
221. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- جامعة بغداد، د ر ط، 1990م.
222. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الصلاة في القرآن الكريم، مفهومها وفقهها، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط7، 1417هـ-1997م.

223. كافي الكفاة الصاحب اسماعيل بن عباد 385هـ، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ - 1994م.
224. كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، ط2، د ت ط.
225. الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، د بقية المعلومات.
226. لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 1، 1425هـ - 2004م.
227. لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة، الدوحة، ط8، د ت ط.
228. لسان الدين بن الخطيب السلماني ت 776هـ، ديوان لسان الدين بن الخطيب، صنعه وحققه وقدم له: محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1409هـ-1989م.
229. مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ت 606هـ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د ر ط ولا س ط.
230. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت 817هـ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 8، 1426هـ - 2005م.
231. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت 817هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، د ر ط ولا س ط.
232. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط 4، 1425هـ - 2004م.
233. مجموعة من المتخصصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح، موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط6، 1431هـ-2010م.
234. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ت 1393هـ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ.
235. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ت 1393هـ، مذكرة أصول الفقه على روضة الناضر، دار عالم الفوائد، مكة، ط3، 1433هـ.
236. محمد الخضري، الدولة الأموية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط5، 1419هـ-1998م.
237. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ر ط، 1984م.

238. محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط2، 1428هـ-2007م.
239. محمد الغزالي ت 1996هـ، فقه السيرة، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم، دمشق، دار الهناء الجديدة، برج الكيفان، الجزائر، د ر ط ولا ت ط.
240. محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الشروق، د بقية المعلومات.
241. محمد الغزالي، خلق المسلم، دار الهناء الجديدة للنشر، برج الكيفان، الجزائر، د ر ط أو ت ط.
242. محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار الشروق، دون بقية المعلومات.
243. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت بعد 666هـ، مختار الصحاح، تدقيق: عصام فارس الحرستاني، دار عمار، عمان-الأردن، ط9، 1425هـ - 2005م.
244. محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ت 972هـ، شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير، تحقيق: محمد الزحيلي ، ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، د ر ط، 1413هـ-1993م.
245. محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بابن إسحاق ت 151هـ، كتاب السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، د م ط، ط1، 1398هـ-1978م.
246. محمد بن رسول الحسيني البرزنجي، الإشاعة لأشراط الساعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ر ط ولا ت ط.
247. محمد بن سعد ت 230هـ، في الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د ر ط ولا ت ط.
248. محمد بن صالح العثيمين ت 2001م، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار ابن الهيثم، القاهرة، د ر ط ولا س ط.
249. محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ت 741هـ، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1399هـ - 1979م.
250. محمد بن عبد الوهاب ت 1206هـ، الأصول الثلاثة وأدلتها، وزارة التعليم العالي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، 1423هـ.
251. محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش، دراسة وتحقيق: محمد بن خليفة التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ-1998م.
252. محمد بن علي الشوكاني ت 1250هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ - 1998م.
253. محمد بن علي الشوكاني ت 1250هـ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ-2007م.

254. محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف ت 1360هـ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تخريج وتعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
255. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت 745هـ، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1413هـ -
256. محمد جمال الدين القاسمي ت 1332هـ - 1914م، محاسن التأويل، تصحيح وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، د م ط، ط1، 1376هـ - 1957م.
257. محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 2000م.
258. محمد رشيد رضا ت 1354هـ/1935م، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، تحقيق: فؤاد سراج عبد الغفار، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، د ت ط.
259. محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 2، 1408هـ - 1988م.
260. محمد سالم محيسن، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ-1992م.
261. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان - دار الفكر، دمشق، سورية، ط10، 1411هـ-1991م.
262. محمد سيد طنطاوي ت 1431هـ-2010م، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار الرسالة، ط 3، 1407هـ - 1987م ،
263. محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ-2006م.
264. محمد علي الصابوني، التفسير الواضح الميسر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 8، 1428هـ-2007.
265. محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، مكتبة الغزالي، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط3، 1400هـ-1980م.
266. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402هـ-1981م.
267. محمد علي بن محمد علان البكري الصديقي الشافعي ت 1057هـ، الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، ضبط وتصحيح وتخريج: عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط 1، 1424هـ - 2004م.
268. محمد عيد، النحو المصفى، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1430هـ - 2009م.

269. محمد فخر الدين بن عمر ضياء الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط 1، 1401هـ/1981م.

270. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، د ر ط، 1364هـ.

271. محمد متولي الشعراوي، خواطر محمد متولي الشعراوي، الشهير بتفسير الشعراوي، د بقية المعلومات.

272. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، د ر ط، 1397هـ-1977م.

273. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، أحكام الجنائز وبدعها، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1412هـ - 1992م.

274. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ط1، 1499هـ-1979م.

275. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه وشاذه من محفوظه، دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1424هـ/2003م.

276. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت دمشق، ط1، 1405هـ - 1984م.

277. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، د مكان ولا ر ط، 2002م.

278. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، د ر ط، 1415هـ - 1995م.

279. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ-2000م.

280. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت دمشق، ط3، 1408هـ - 1988م.

281. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ.

282. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1413هـ-1993م.

283. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، ضعيف الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1421هـ-2000م.
284. محمد ناصر الدين الألباني ت 1999م، في صحيح سنن أبي داود، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1423هـ - 2002م.
285. محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1425هـ - 2004م.
286. محمود توفيق محمد سعد، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1413هـ - 1993م.
287. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة، القاهرة، د ر ط، 1419هـ-1999م.
288. محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م.
289. محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، كتاب الأذكار، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، بيروت - دمشق، ط4، 1428هـ-2007م.
290. محي الدين بن يحيى بن شرف الدين النووي ت 676هـ، كتاب المجموع شرح المهذب للشيرازي، حققه وعلق عليه وأكمله: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، المملكة العربية السعودية، د ر ط أو ت ط.
291. محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي ت 775هـ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح بن محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، إمبابة، ط2، 1413هـ-1993م.
292. مسلم بن الحجاج ت 261هـ، الكنى والأسماء، دراسة وتحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقرى، المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 1404هـ-1984م.
293. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج: جماعة من الأساتذة تحت إشراف شعيب الأرنؤوط ت 2016م، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ - 2001م.
294. موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ت 620هـ، روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1401 هـ - 1981م.
295. موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي ت 643هـ، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د ر ط ولا س ط.

296. النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ-2005م.
297. ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي ت 691هـ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د ر ط، 1418هـ - 1998م.
298. نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، تقديم: وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ر ط، ولا ت ط.
299. نخبة من العلماء، التفسير الميسر، تقديم: وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1430هـ-2009م.
300. نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف مصطفى مسلم، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي-جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 1431هـ-2010م.
301. نور الدين أحمد بن محمد بن خضر العمري الشافعي الكازروني ت 923هـ، الصراط المستقيم في تبيان القرآن الكريم، تحقيق ودراسة: أبو الحسن عبد الله بن عبد العزيز الشبراوي، دار الرسالة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1438هـ-2017م.
302. وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم ومعه أسباب النزول وقواعد الترتيل، دار الفكر، دمشق، سورية، د ر ط ولا ت ط.
303. يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط 13، 1400هـ-1980م.
304. يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1410هـ-1989م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	1
الفصل التمهيدي: تعريف الأمر وأقسامه وصيغه وموارد مادته وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم	16
المبحث الأول: تعريف الأمر وموارد مادته في القرآن الكريم	18
المطلب الأول: مفهوم الأمر عند اللغويين	18
المطلب الثاني: مفهوم الأمر في اصطلاح المفسرين	23
المطلب الثالث: موارد كلمة (أمر) وما اشتق منها في القرآن الكريم	28
المبحث الثاني: أقسام أوامر الله عز وجل في القرآن الكريم	30
المطلب الأول: مفهوم الأوامر الكونية وأهم خصائصها	31
المطلب الثاني: معنى الأوامر الشرعية وأوضح مميزاتها	40
المطلب الثالث: المقصود بالأوامر الجزائية و أبرز ما سماتها	47
المبحث الثالث: صيغ الأمر وأفعاله الموجهة إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم	53
المطلب الأول: صيغ الأمر في اللغة العربية ومدى حضورها في القرآن الكريم	53
المطلب الثاني: أفعال الأمر الموجهة من الله تعالى إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم	61
الفصل الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره إنسانا مسلما	63
المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العقيدة	64
المطلب الأول: أمر الله تعالى للنبي ﷺ بالإيمان عموما	65
المطلب الثاني: أوامر الله تعالى للنبي ﷺ المتعلقة بأركان الإيمان وأقسام التوحيد خصوصا	72
المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال العبادات عموما والبدنية منها خصوصا	85
المطلب الأول: أوامره تعالى إلى النبي عليه الصلاة و السلام المتعلقة بالعبادة عموما	86
المطلب الثاني: أوامره تعالى إلى النبي عليه الصلاة و السلام المتعلقة بالعبادات البدنية خصوصا	93
المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر والدعاء تحديدا	111
المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الذكر	111
المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال الدعاء	133
المبحث الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الأخلاق	148
المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في أحواله عموما	149
المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ الموجهة لأخلاقه في معاملة ذوي الحقوق خصوصا	167

الفصل الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره رسولا مبلغا	183
المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال التبليغ	184
المطلب الأول: أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالتبليغ إجمالا	185
المطلب الثاني: أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بتبليغ أخبار خاصة	189
المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال الدعوة	211
المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ودينه	212
المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ بتبشير المستجيبين له	220
المطلب الثالث: أوامر الله إلى النبي ﷺ بإنذار المعرضين عنه	234
الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتقويم العقائد	245
المطلب الأول: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة	245
المطلب الثاني: أوامر الله إلى النبي ﷺ في مجال إصلاح النفوس وتزكيتها	265
الفصل الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ باعتباره مفتيا للمسلمين ومجيبا لعموم المستفسرين	283
المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفسرين في المسائل الغيبية.	284
المطلب الأول: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بغيب ما قد مضى	285
المطلب الثاني: أوامره تعالى لنبيه ﷺ بالإجابة عن أسئلتهم المعلقة بالروح وبغيب المستقبل	316
المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين في المسائل الفقهية.	337
المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عما يحل لهم من طيبات أو يترتب عليهم من حقوق	337
المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بإجابة المستفتين عن أزمنة أو عادات أو أحوال مخصوصة	365
الفصل الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال المحاجة والحوار	398
المبحث الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة الكافرين والمشركين ومحاجتهم.	400
المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، والمتعلقة بالبرهنة على وحدانية الله سبحانه ونفي الشريك عنه	400
المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، بيانا لحدود وظيفة النبي ﷺ ومكانته	415

المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، جوابا على اقتراحاتهم.	433
المطلب الرابع: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ بالرد على الكفار والمشركين، توبيخا أو تحديا أو تهديدا لهم	446
المبحث الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ في مجال محاورة المسلمين والمنافقين وأهل الكتاب ومحاجتهم.	455
المطلب الأول: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المسلمين المؤمنين وتوجيههم	455
المطلب الثاني: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة المنافقين وتجبيههم	473
المطلب الثالث: أوامر الله تعالى إلى النبي ﷺ فيما تعلق بمحاورة أهل الكتاب ومحاجتهم	481
الخاتمة	509
الفهارس	515
الموضوع	الصفحة
فهرس الآيات القرآنية	516
فهرس الأحاديث النبوية	548
قائمة المصادر والمراجع	558
فهرس الأعلام المترجم لهم	583
فهرس الموضوعات	589